

**THE BOOK WAS  
DRENCHED**

UNIVERSAL  
LIBRARY

**OU\_190367**

UNIVERSAL  
LIBRARY









# دَعْوَةُ الْإِسْلَامِ

إِلَى

## الدِّعْوَةِ إِلَى

تَأْلِيفُ

مُحَمَّدُ حَبِيبُ الْعَدَوِيِّ  
رِزَالُ الْعُلَمَاءِ

كتاب إصلاح ورين وخلق . يحتاج إليه الوعاظ  
ورجال السياسة والأخلاق . يتعزى به المصلح عما يناله  
من أذى ، وما يوضع في سبيله من عقبات . ويجد  
فيه المؤمن ما يقوى يقينه ، ويثبت فؤاده ....

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

## فهرس

### دعوة الرسل إلى الله تعالى

صفحة

١

دعوة نوح عليه السلام إلى الله تعالى

٢

التوحيد أول شيء يدعو إليه نوح وتدعو إليه الرسل

(اللائ) من قومه [الأشراف والسادة] يرمونه بالضلال ، وهم عقبة الإصلاح في كل زمان  
وجبهة الشعب أنصار الرسل والصلحين ، وحكمة ذلك ، كلة هرقل لأبي سفيان في ذلك

٣

نوح يقابل صفه قومه بالحلم ، ويعكف على القيام بجهته ، ويقف من قومه موقف المدافع  
عن نفسه

٤

نوح قوة صالحة في الصبر وعدم اللل - قفته بر به - عدم مبالاته بجماعة المبطلين

٥

نوح لا يطلب أجرا من قومه على الدعوة ، ويعمل بما يدعو الناس إليه ، وذلك برهان صدقه

٦

رسالة نوح وجدل قومه فيها بنسبة أنه بشر - تناقل هذه الشبهة من بعدهم - رد القرآن عليهم

٧

(اللائ) من قوم نوح يعيرونه بأن أتباعه [أراذل] فقراء وأصحاب مهن حقيرة

٨

(اللائ) يأقف أن يكون مع الفقراء تاجرا لنوح - رد نوح عليهم في ذلك

٩

غلاة المستعمرين يحاولون النض من قيمة الزعماء بما طعن به اللائ على نوح ليتخلصوا من

١٠

زعمتهم ، وفي الوقت نفسه يعملون لهم حسابا وألف حساب في بلادهم . و [الرعا] هم الذين

١١

يقضون مضجهم ولا يستطيعون إرضاءهم ، أما أرباب الصالح فهم دائما طوع أيديهم

١٢

(اللائ) يرى نوحا بالجدل بعد معجزه عن رد حجته ويطلبه بالانيان بعباد الله فيقول لهم

١٣

نوح هذا شأن من شئون الله تعالى

١٤

العذاب الذي يتوعد به نوح قومه وصفه بأنه مخز ، والفرق بين عذاب الرسل والصلحين

١٥

في سبيل دفاعهم عن حقهم ، وبين عذاب للفسدين وأرباب الشهوات ، وأن الأول رافع

١٦

لرأس صاحبه ، والثاني خزي وعار عليه

١٧

ولد نوح وهلاكة مع المالكين على الرغم من استشفاع أبيه فيه عذره حتى لا يعتمد

١٨

الناس على أنسابهم

١٩

النيب في قصة نوح دليل صدق الرسول ، وتسليه الله له بما وقع لنوح ، وأمره بالصبر كما صبر

٢٠

نوح قبله لأن العاقبة للتيقن

٢١

(اللائ) يرى نوحا بحبة الرياسة [رمتي بدائها وانسلت] والواقع أنهم يخافون على رياستهم

٢٢

اقتراح اللائ إنزال ملائكة تؤيد نوحا - رد الله عليهم في ذلك

صحيفة

- ١٢ محاولة إبطال دعوة نوح بأنهم لم يسمعوا بها في آياتهم الأولين - رعى نوح بالجنون وكذلك بقية الرسل وما هم أقوامهم به لأن نفوس المستكبرين متشابهة
- ١٢ العبرة في قصة نوح نزاهة القول ، ومقابلة السيئة بالحسنة ، واللجوء إلى الله تعالى عند الشدة ونصره للمصلحين ، وخذلانه للعفسدين
- ١٣ نوح يذكر قومه بأنه أمين في رسالته ، لا يسأل قومه أجرا على دعوته ليفكروا في صاحب هذا الخلق ، وأنه لابد أن يكون صادقا
- ١٤ ( اللآلئ ) يلجأ إلى القوة المادية ويهدد نوحا بالقتل بعد أن عجز عن الحجة شأن المبطلين في كل زمان - نوح يطلب من ربه أن يفتح بينه وبين خصومه بالحق - استجابة الله له بانجازه هو ومن معه في الفلك وإغراق أعداء الحق
- ١٥ سورة نوح وفيها أنه رغب قومه في الطاعة ، وخوفهم من عصيان الله ، وأراهم أن أجل الله الذي حدده لعقوبة الأمم إذا جاء لا يمكن تأخيرها ، وشكواهم قومه إلى ربه ، وأنه لئن لهم الخطاب ، ونوع الأساليب فلم يقدم شيء من ذلك
- ١٧ ود وسواع الخ : كانت أصناما يعبدها قوم نوح ، وأصلها رجال صالحون أوحى الشيطان إلى أقوامهم بعد أن ماتوا أن ينصبوا عليها أنصابا ويسموها بأسمائهم ، وبتناول الزمن عبدت والعبرة في ذلك لمن يشيرون القباب ويضعون على قبور الصالحين توابيت وعمائم إعظاما لأصحابها ، وعاقبتها عبادة الناس لها
- ١٧ دعوة نوح أن لا يدع أحدا من الكافرين لأنهم مضلون وينشئون أولادهم على الضلال ، وطلبه من الله أن يغفر له وللمؤمنين - إجمال عقوبة قوم نوح في قوله (عما خطيئتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً)

١٨ دعوة هود عليه السلام إلى الله تعالى

- ١٩ هود يدعو قومه إلى عبادة الله وحده ( اللآلئ ) يرمي هودا بالسفاهة وسخافة العقل بسبب دعوته لهم ، ورمونه بالكذب فيرد عليهم بأنه ليس به سفاهة ولكنه رسول الله الأمين ، ثم يقول لهم لاحق لكم في أن تعجبوا أن يحبسكم هو عظم من الله على لسان واحد منكم
- ١٩ هود يذكر قومه بنم الله عليهم ، وجعلهم خلفاء من بعد قوم نوح ، وسعة ملكهم وحضارتهم
- ٢٠ اللآلئ من قوم هود ينكر عليه دعوتهم إلى التوحيد ، ويتحداه أن يأتيهم بما يهدمهم من العذاب
- ٢٠ هود يخبرهم بأنهم استحقوا عذاب الله وغضبه ، وينكر عليهم جداله في أسماء سموها هم
- ٢٠ العبرة في نجاة هود ومن معه ، وإرسال ريح على أعدائه دترت عليهم كل شيء
- ٢١ هود يصم خصومه بالافتراء باتخاذ الأوثان شركاء ، ويرجمهم إلى مقتضى العقل في دعوته
- ٢١ يقدم بإرسال السماء عليهم بالأمطار ، وزيادتهم قوة إلى قوتهم إذا هم أظلموا

- ٢١ ( الملأ ) يقول لهود : ما جئنا بينة وبصرون على الشرك ، ويقولون له : إن آلهتهم مسته بسوء وتعييه لهم من آثار ذلك
- ٢٢ هود يشهد الله ويشهدهم براءته من الأصنام ، ثم يطلب إليهم أن يعملوا به ما يستطيعون من كيد ساخر بهم وبوعيدهم ، لأنه متوكل على ربه معتصم بالحق
- ٢٣ هود يتوعد قومه باستخلاف غيرهم في ديارهم وأرضهم بعد هلاكهم
- ٢٤ العبرة في نجاة هود ومن معه ، وهلاك عاد ، وقول الله ( وتلك عاد ) يلفتنا إلى ما حل بهم بسبب جحودهم بآيات الله وعصيان الرسل
- ٢٥ عصيان رسول من الرسل عصيان لجميع الرسل ، لأنه عصيان من أجل رسالته مع قيام الحجة على حقيقة دعوته
- ٢٦ دعاء الله تعالى على عاد بالهلاك والبعد عن رحته
- ٢٧ هود ينكر على قومه تنذير المال والعث به ، وفيه عبرة لأغنيانا المترفين ، ويصف قومه بأنهم غلاظ جبارة في بطشهم بالضعفاء
- ٢٨ غلاة المستعمرين كقوم هود ( إذا بطشوا بطشوا جبارين ) فتمتوا الأبطال ، وهتكوا الحرمات ، ومن قوا المصاحف ، وقتلوا الآرياء
- ٢٩ عاد تؤيس هودا من سماعها لوعظه ، وتحتج بأن عملها هذا خلق الأولين ، وتدعى أنها لا تعتذب على الشرك - فأهلكهم الله ، وكان هلاكهم آية وعبرة

## ٢٦ دعوة صالح عليه السلام إلى الله تعالى

- ٢٧ القرآن سمي صالحا أخا لقومه ثمود لأخوته لهم في النسب والوطن ، واليهودى والنصرانى يسمى أخا بذلك الاعتبار - ناقة صالح آية بينة من آيات الله بسبب توعد من تعرض لها بسوء أن يعذبه الله عذابا أليما - الناقة ابتلاء وقتنة من الله لثمود
- ٢٨ صالح يذكر قومه بنعم الله عليهم ، وجعلهم خلفاء لعاد في الحضارة والعمران ، وما ألهمهم من فنون الصناعة ، وهندسة البناء ، وفق النحت ، ووهبهم من القوة والصبر
- ٢٩ من أساليب وعظ القرآن وتربية النفوس تذكير المسيء باكرام الله له بنعمه عليه ، ولا ينفى لمن كرمه الله أن يضع نفسه موضع المهانة ، وكثيرا ما ينفع ذلك الأسلوب ، وقد يدع الرجل السفاسف لأنه من بيت طيب وأرومة صالحة
- ٣٠ ( الملأ ) المستكبر من قوم صالح يعلن كفره بما أتى به صالح ، ويدبح الناقة التى نهوا عن مسها بسوء ، ويقولون لصالح : اتقنا بما تعدنا إن كنت صادقاً - عقاب الله لهم على ذلك التعدى
- ٣١ عقر الناقة كان من رجل منهم ، ولكنه نسب إليهم لرضام به ، ليرينا الله أن الراضى عن الظالم شريك له في الظلم ، وأن العقوبة لا تقع على الباشر وحده مادام فى استطاعة الناس منعه من ظلمه ، وهى عبرة كبرى

- ٢٩ فليعتبر بذلك المسلمون الذين تحللت روايتهم وسكتوا على الظالمين ، وليعلموا أن بلادهم لم تملكها الأجانب إلا من طريق رضام بظلم الحاكمين
- ٣٠ الرخصة والصاعقة والصيحة كل ذلك وقع بقوم صالح - قيلم صالح بما أوجبه الله عليه
- ٣١ قوم صالح كانوا أصدقاء له قبل دعوتهم ، فلما دعاهم إلى الله عادوه ، على الرغم من سيرته للرضية عندهم ، شأن الناس لا يرضون عن أحد إلا إذا أطاعهم
- ٣٢ صالح يرى قومه أن لاغنى له عن تبليغ رسالة الله ، وأنه لا أحد ينصره من عذابه إذا هو عصاه
- ٣٣ صالح يذكر قومه بتخلى الله لهم وما يتمتعون به من الجنات وغيرها مع الأمن والهدنة ، وهي من أجل نعم الله عليهم - وينهاهم أن يطيعوا أمر السرفين للفسدين
- ٣٤ قوم صالح يرمونه بأنه مسحر مغلوب على عقله ، ويقولون : انه بشر فلا يصلح للرسالة
- ٣٥ صالح يدعو قومه إلى الله فيفترقون فرقتين : إحداهما معه ، والأخرى تخصمه ، وتلك طبيعة الدعوة في كل زمان ، وليست ذنبا للذاعى ، ويدل لذلك افتراق الناس في العقيدة السياسية
- ٣٦ قوم صالح يطهرون به وعن معه فيرد عليهم بأن طأهم عند الله
- ٣٧ القسعة الرهط للفسدون في المدينة وتآمرهم على قتل صالح - الحيلة التي دروها للتخلص من ولي صالح ، وعاقبة مكر أولئك النفر ، تدمير الله لهم وتقومهم - خراب بيوتهم بسبب ظلمهم والعبدة في ذلك

### ٣٩ دعوة إبراهيم عليه السلام إلى الله تعالى

- ٤٠ الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم فأنعمها كالتهميد لجعله إماما للناس - تفاوت الناس في أداء التكليف - أدب إبراهيم في السماء ، إذ طلب أن يكون من ذريته أئمة ، ولم يطلب إمامة لجميع القرية
- ٤١ عهد الله إلى إبراهيم وإسماعيل بتطهير البيت من الأرجاس الحسية والمعنوية ، للطائفتين والمعاكفين والركع السجود ، ليرينا كيف نهتم بأماكن العبادة ، ونطهرها من الأرجاس الحسية والمعنوية
- ٤٢ القدوة الحسنة بإبراهيم في تطهير المساجد من الشرك وذرائع الشرك
- ٤٣ تذكير الله بدعوة إبراهيم أن يجعل مكة بلدا آمنا لا يعتدى عليه أحد
- ٤٤ بناء إبراهيم وإسماعيل البيت ، والتأسي بهما في بناء بيوت الله حتى لا يستكف مسلم من المساهمة في مثل ذلك العمل الخيري - طلبهما قبول العمل من الله تعالى
- ٤٥ دعوة إبراهيم أن يعث في ذريته رسولا من العرب يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكي قلوبهم ، إجابة دعوته - مله إبراهيم لا يرغب فيها إلا من امتن نفسه - إسلام وجهه لله ، وتوصيته لبنه بالإسلام

## صحيفة

٤٣ إبراهيم ينكر على آبيه وقومه عبادة الأصنام ، ولم تمنعه النبوة من إنكاره على آبيه ، ليرينا أنه ليس من الأدب مع الآباء تركهم على ضلالهم - إنذار محمد صلى الله عليه وسلم لمشيرته وأقاربه

٤٤ تدرج إبراهيم في محاجة قومه ، فقال في الكوكب ( هذا ربى ) مسaire لهم ( فلما أفل قال لا أحب الأفلين ) الخ

٤٤ إبراهيم ينكر على قومه مجادلتهم له في الله الذى هداه

٤٥ حجة إبراهيم التى يعقن الله بها عليه هي من فضل الله عليه ، والواجب على من آتاه الله قوة الحجة أن لا يستعملها في إضعاف حق ، أو ترويج باطل ، وأن لا يعطلها عند الحاجة إليها ، وكثير من الناس لا يشكر الله على إعطائه حجة

٤٦ التأسى بإبراهيم في الصعاء ، وهو باب كبير من أبواب العبادة ، وكل دعا إبراهيم موجه لله وحده ليس فيه وسيط أو شفيع

٤٦ فرة إبراهيم من الأصنام ، وقوله ( رب إنهم أضلن كثيرا من الناس ) والذى يضل الناس يجب أن يغض

٤٦ إبراهيم يزيل أسباب الشرك وذرائع بتكسير الأصنام - ورسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بإزالة كل صنم حول البيت ، ويحمل خلفاء الراشدين أن لا يدعوا تمثالا إلا طمسوه ، ولا قبرا مشرفا إلا سقوه - وعمر يقطع الشجرة التى كانت عندها البيعة حينما شعر أن الناس يتبركون بها ، ويزيل مظلة وضعا بعض الناس على ميت ، والمسلمون في الصدر الأول يزيلون القباب فوق قبور الصالحين ، وملك الحجاز يتأسى بهم في إزالة القباب حتى يبقى التوحيد خالصا لله من الشرك وذرائع الشرك

٤٧ إبراهيم يدعو ربه أن يجعل قلوب الناس تهوى إلى أبنائه بمكة وأن يرزقهم من الثمرات

٤٨ ( إن إبراهيم كان أمة ) هي أبلغ من رسالة في الدح والثناء ، وحسبه هذه الكلمة من ربه ، قنوته لله وعدم إنسراكه - رد الله على أهل الكتاب الذين ينسبون إليه بأنهم مشركون وهو إمام للوحدين وقديتهم الصالحة

٤٩ أمر الله نبيه أن يتبع ملة إبراهيم ويتأسى به في الصبر والاحتفال وجميع الرسل الذين سبقوه وخص إبراهيم لأنه إمام للوحدين

٥٠ إبراهيم كان صديقا خلقه الصدق - حكمة تقديم الصدق على النبوة أنه ملاك أمر النبوة - جواز الكذب لمصلحة يفتح بابا من أبواب جهنم

٥١ تواضع إبراهيم في وعظه لآبيه بقوله ( يا أبت لم تعبد ) الخ ، وأدبه معه - هضمه لنفسه في قوله ( قد جاءني من العلم ما لم يأتك ) - رد آبيه عليه بقوله ( لأن لم تنته لارجنك ) الخ - قول إبراهيم لآبيه ( سلام عليك )



صيفة

٥٩ إبراهيم يمتزل أباه حين فصحه فلم ينتصح ، ليرينا أن من لم يزل للسكر يفتنى له أن يزول عنه  
٥٣ إبراهيم ينكر على قومه عبادة الأصنام فيعتدرون بعبادة آبائهم لها فيرميهم هم وآبائهم بالضللال  
الواضح ، تعطيلهم عقولهم ومواهبهم اعتمادا على عقول الآباء

٥٣ من خصائص أهل جهنم أن لهم قلوبا لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها الخ -  
التقليد سنة أعداء الرسل - كلمة الزمخشرى في ذم التقليد وهي كلمة لها قيمتها

٥٤ إبراهيم يكسر الأصنام ويدع الصنم الأكبر عليهم يرجعون إليه ، ثم يسألونه فيقول لهم منكم  
( فعله كبيرهم هذا فاسألهم إن كانوا ينطقون ) فيرجعون إلى أنفسهم فيحكون بظلمها ،  
ثم ينقلبون على أعقابهم فيتعصبون لآلهتهم

٥٥ إبراهيم يعود فيتصجر منهم ومن آلهتهم ويرميهم بعدم العقل

٥٥ لجوء خصوم إبراهيم إلى الحديد والنار بعد أن عجزوا عن الحججة ، شأن البطل في كل زمان  
أصمروا بتحريقه ونصر آلهتهم ، فقال الله للنار ( كوني بردا وسلاما ) ومكروا به فكان مكر  
الله خيرا من مكرم ، لأنه لتأييد الحق ، ومكرم لمنصرة الباطل

٥٦ إبراهيم ينكر على قومه أن يعبدوا آلهة لا تسمعهم إذا دعوم ، ولا ينفعونهم إذا أطاعوم ،  
ولا يضرّونهم إذا عصوم - اعتذارهم عن ذلك بتقليد الآباء

٥٦ إبراهيم يعلن عداوته لآلهتهم إلا الله ، ويبين سبب ذلك بحلقه له وهدايته ، وإطعامه وسقايته  
وشفاؤه من مرضه ، وإمانته وإحيائه الخ في حدود إطعامه لأسباب الطعام والشراب وتعليمه  
لنا كيف يكون علاج الأمراض

٥٧ في قصة إبراهيم ولجونه لولاء عبدة لمن يدعون من الموقى من لا يسمعهم ولا يملك أن يضرّهم  
أو ينفعهم ، وعبدة لمن يتركون الأطباء ويعمدون في علاج أمراضهم لأسباب خرافية جهلية  
كتعليق شعورهم على باب زويلة لشفاء رؤوسهم من الصداع ، ناسين قول الله تعالى ( وآتوا  
البيوت من أبوابها )

٥٩ إبراهيم من شيعة نوح لأن الأنبياء يشايح بعضهم بعضا في الحق - سلامة قلب إبراهيم  
من أمراض القلوب - الافك وتسمية آلهتهم به

٥٩ نظر إبراهيم في النجوم وسيرها وأقوالها وطلوعها ، وأنها لا تصلح أن تكون آلهة تعبد -  
سقم قلبه من جهة عبادة الناس لها وكفرهم بخالقها - ضرب إبراهيم لآلهتهم وتهكك بهم في  
قوله ( ألا تأكلون ما لكم لا تنطقون )

٥٩ إنكار إبراهيم عليهم أن ينحتوا حجارة بأيديهم ويبدونها - إطالة التكلمين في آية ( والله  
خلقكم وما تعملون ) من جهة دلالتها على أن العمل مخلوق لله - في غير جدوى لاشها في  
العمل بمعنى العمل

٦٠ خصوم إبراهيم يوصي بعضهم بعضا ببناء بنيان يملأ بالنار وإلقائه فيه - إنجاء الله له -  
بشارة الله له بنلام .

٦٠ رؤيا إبراهيم أنه يذبح ولده في المنام ، واستشارته في ذلك ، مخاطبته بقوله ( يا بني ) . وقوله له ( فانظر ماذا ترى ؟ ) ومقدار تأثير هذه المحنة على النفس - إجابته له بقوله ( يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين )

٦١ استسلام الولد والوالد لأمير الله تعالى ، وشروعهما في إنقاذ أمره - نداء الله له أنه قد حقق الرؤيا بذلك الاستسلام - فداؤه بمذبح سمين جزاء من الله له على إحسانه

٦٢ ابتلاء الله لإبراهيم وولده بذلك العمل ابتلاء واضح - إذا قيست التكاليف بذلك الابتلاء صغرت أمامها - القدوة الصالحة في إبراهيم وولده في إطاعة أمر الله وإن كان شاقا على النفوس

٦٣ قصة إبراهيم وولده الذبيح أجلاها الله في كلمات تصد على الأصابع ، والوعاظ يضيفون إليها من الاسرائيليات في خطبة عيد الأضحى ما تمجده النفوس ، ويمكثون في ذلك القصص زهاء نصف ساعة ، ونحن لانعلم من قصة إبراهيم وولده إلا ما علمنا الله على لسان رسوله الصادق فلفسكت حيث سكت الله ، ولنفض في القول حيث أفاض

٦٤ لا ينهانا الله عن برٍّ من لم يقانلنا في الدين من الكفار ، إنما ينهانا عن برِّ الذين قانلونا في الدين وأخرجونا من ديارنا وظاهروا على إخراجنا

٦٥ التأسي بإبراهيم والذين معه في كراهة الشرك

٦٦ قول إبراهيم ( ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ) هي دعوة ما أعظم شأنها وأجل قيمتها - بيان المراد منها ، وتحقيق معنى الفتنة - كلمة السيد جمال الدين الأفطاني في هذا المعنى

٦٧ دعوة لوط عليه السلام إلى الله تعالى

٦٨ إنكار نبي الله لوط على قومه فاحشة اللواط التي كانوا قدوة سيئة فيها فطلبهم وزرعا ووزروا من عمل بها إلى يوم القيامة

٦٩ قوم لوط يصفهم الله بأنهم لا يحملهم على هذه الفاحشة إلا مجرد الشهوة ، غفروا عن مقتضى الفطرة ، وصاروا أخس من العجماوات التي تطلب لإنائها بسائق الشهوة لأجل النسل الذي يحفظ به نوع كل منها ، فتبني للساكن من عش في الشجر أو حجر في الأرض - ومن قصد الشهوة لذاتها فقد جعل الوسيلة مقصدا ، إذ فعله يكون عن داعية نابتة لاعتدائه علوة علوة ، فيصير ملكة راسخة له ، وللملكة تدعو الى تكرار العمل

٧٠ فاحشة اللواط جنائية على الفطرة ، ومفسدة للشبان بالاسراف في الشهوة وإذلال للرجال ، وكسر لما فيهم من إباء وشعم ، وتعطيل للفلس ، ومفسدة للنساء باضطرابهم إلى الزنا لانصراف أزواجهن عنهم - ومن أنكرها أنها وسيلة للاستمناء وإتيان الهائم ، لأنها تحرم الإنسان على قصد الشهوة لذاتها ، وهما مصيبتان شديدتا الضرر في الأبدان والآداب

٧١ وصف الله لقوم لوط بأنهم قوم عادون ومسرفون ، وجاهلون بهذه الفاحشة

٦٦ قوم لوط يأتفون هذه الفاحشة حتى أصبحت الطهارة منها منكرا عندهم ، وذلك منتهى فساد الفطر ، ويطلبون إخراج شيعه لوط من قريتهم لأنهم أئاس يتطهرون من هذه الفاحشة . إنزال الله المطر المهلاك على قوم لوط ومنهم امهائمه ، وإنجاء لوط ومن معه - العبرة فى هلاك امراه لوط وامراه نوح مع أنهما زوجان لرسولين من رسل الله ، حتى يعلم الناس أن مدار النجاة عند الله العمل الصالح

٦٨ قول نبى الله لوط لقومه ( هؤلاء بنائى هؤن أظهر لكم ) فتزوجوهن

٦٩ لوط يئن أن يأوى إلى ركن شديد ، وحديث البخارى فى ذلك - عقوبه الله لقوم لوط - تهديده لكل ظالم بهذه العقوبه

٧٠ لوط ينكر على قومه إنيان الفكران وترك ما خلق الله لهم من الأزواج

٧٠ قوم لوط يهدونه بالخراج من بلده إن لم يفته عن دعوتهم ، وكذلك أقوام الرسل يهدونهم بالنفى إن لم يسكتوا عن الإصلاح ، وهى سنة غلاة المستعمرين مع الصلحين من الزعماء وقد جهلوا أن الحق إذا اضطهد رسخ وعسكن ( فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض )

٧٢ ينكر لوط على قومه إنيان الرجال وقطع السبيل ، وإنيان المنكر فى نادهم - قومه يطلبون منه الاتيان بعذاب الله إن كان صادقا - إخبار الله بأنه مهلاك قريتهم ، وتعليل ذلك بظلمهم قول نبى الله إبراهيم لربه ( إن فيها لوطا ) فكيف تأخذه بجرمهم - وعد الله بانجائه من العذاب

٧٢ دعوة يوسف عليه السلام إلى الله تعالى

٧٣ القصص ومعناه - الفرض منه فى القرآن الكريم - الفرق بينه وبين القصص الذى يضعه الناس - معجزة الرسول فى إخباره بذلك القصص الذى هو من أنباء الغيب

٧٤ رؤيا يوسف للكواكب - استبشار أبيه يعقوب بالرؤيا - توصية أبيه له أن لا يقصها على إخوته حتى لا يحسدوه

٧٤ يعقوب لم يكن مؤمنا بصمة أولاده من حسد أخيه ولذلك حذره من قص الرؤيا عليهم - الحسد مرض نفسى لا يتفق ونبوة الاخوة - لا دليل على نبوة الاخوة ، بل الحسد دليل على عدمها

٧٥ بشاره يعقوب ليوسف باجتماع الله له وتلميحه إياه من تأويل الأحاديث وإتمام نعمته عليه وعلى آل يعقوب - بحث طويل فى معنى التأويل وتعبير الرؤيا

٧٦ آراء العلماء - إسلاميين وغير إسلاميين فى الرؤى والأحلام

٨٠ تعليل العلماء للرؤى - ابن خلدون - القرطبي - أبو بكر بن العربى

مصحفة

٨١ ماورد في صحيح البخارى من الرؤيا وتلقى العلماء عليه - الرؤيا الصالحة والأضنان

٨٢ طائفة من تأويلات الرؤيا للتأوية

٨٣ أصول التأويل وهي كليات نافعة مفيدة لاغنى لمن يتصدى للتأويل عنها

٨٧ الصفات التي يجب أن يكون عليها للزؤل للرؤيا

٨٨ اختلاف الرؤيا باختلاف الناس وأحوالهم ، والتعير في كل موضع بما تقتضيه القرائن

٩٠ الآيات والعبر في يوسف وإخوته ، ونسبة الله لديه محمد صلى الله عليه وسلم على كيد

قريش بما رآه يوسف من إخوته - حسد إخوة يوسف له على محبة أبيه التي لا ذنب له فيها

٩١ غريزة الحسد خلقت في الانسان للنافسة في طلب المجد وعلو الشأن ، ولكن الناس

صرفوها الى محاربة المسود والقضاء عليه - الحسد لا يكون إلا بين المتشاكين في حال

كسناعة أو تجارة أو زراعة أو علم وما الى ذلك - وهي إخوة يوسف لأبيهم بالضلال الواضح

٩٢ تأمرهم بقتل يوسف ليخلو لهم وجه أبيهم وتسلم لهم محبته - غلبة ذلك الخلق على

كثير من الناس فيقتل للوظف صاحبه قتلاً أدبيا ليخلو له وجه رئيسه - وترى ذلك فاشيا

في بطانات الملوك والأمراء

٩٣ تهوين الشيطان على الانسان أمر العصية بشئ الأساليب

٩٤ إذا قسا الجماعة لانعدم فيهم من رق قلبه - أشار واحد من الاخوة بعدم قتل يوسف .

وقوله : اقوه في غيابة الحب ، وتزولهم على رأيه

٩٤ احتيال الاخوة في طلب يوسف من أبيه - اشتغافه عليه من الذنب لأنه كان صغيرا ، شفقة

الآباء على أبنائهم لحكمة بالغة هي بقاء النسل وعمارة هذه الحياة

٩٥ جهل الأثمات وجناية جهلهم على الأبناء من جهة السحة والترية الصحيحة بعامل الشفقة -

تأكيد الاخوة أن أخاهم لا يأكل الذنب

٩٦ اكثار المفسرين من الاسرائيليات في ما حصل ليوسف في الحب مما لا دليل عليه

٩٦ تأنيس يوسف وتقوية قلبه وهو في الحب بأنه سنبه إخوته بعملهم هذا بعد ، وهي

بشارة له بأنه سيعيش ويخلص من هذه الشدائد

٩٦ عظماء الرجال يستعذبون السجن في سبيل أمل استولى على قلوبهم ، فما بالك بالهام يطمئن

قلب صاحبه الى أنه حق لا شك فيه كالحام يوسف ؟

٩٦ إخوة يوسف يلقون سببا : هو أن الذنب أكله وهو حارس للمتاع -

٩٧ إخوة يوسف يعتقدون أن أباهم لا يصدقهم [ كاد المرتاب أن يقول خذوني ] - إخوة

يوسف يضعون على قبيص يوسف دما كذبا - يروى أن يعقوب قال : كيف أكل الذنب

ولم يشق قبيصه ؟ وهي ملاحظة عقل كثرينة قبيص يوسف في قصة امرأة العزيز - يعقوب

يعتقد كذب أبنائه ، ويلجأ الى الصبر الجليل ، والاستعانة بالله على احتمال هذه الشدائد ،

ويشكوهه وحزنه الى الله

٩٨ السيارة فتمر على يوسف بواسطة الملو الذي ألقته في الحب ، وتستبشر بيوسف لحسن طبعه وتحرص عليه فتخفيه عن المارة - توعده الله لاختوة يوسف على عملهم - يبعه بمن قليل - وصية الذي اشترى يوسف لامراته أن تكرم مقامه وجاء نفعمهم به أو اتخاذه ولدا

٩٩ تمكين الله ليوسف في الأرض ووسائل ذلك بانجائه من كيد إخوته بسبب اقتراح واحد منهم ، وصيرورته واحدا من بيت العزيز الذي هو على خزائن مصر - سنة الله في منه على المستضعفين بالتمكين في الأرض

١٠٠ إيتاء الله يوسف الحكم والعلم بعد أن بلغ أشده - جزاء المحسن على احسانه

١٠١ سراودة امراة العزيز ليوسف عن نفسها - تغليقها الأبواب لتسهيل عليه سبيل الفاحشة

١٠٢ مقابلته للطلب بالادكار الشديد - قال معاذ الله أن أقع في مثل ذلك - انه ربى أحسن مثواى - العزيز وأواله ولايصح لئلى أن يخون ربه الذي أكرمه وأحسن إليه - انه لايفتح الظالمون - ولو فعلت ذلك كنت ظالما والظالم لايفتح

١٠٣ هم امراة العزيز بيوسف يتناسب مع شهوتها ، وهم يوسف يتناسب مع رسالته ، وزعامته للناس - ماحشيت به كتب التفسير مما لايليق بيوسف عليه السلام جهل بما ينبغي للرسول - (لولا أن رأى برهان ربه) وهو العزيز لكان ما لا تحمد عقباه ، كقتل يوسف أو قتلها في سبيل دفاعه عن نفسه أو أو الخ

١٠٤ تسخير الله للعزيز في ذلك الوقت ليقطع به النزاع بين امراة العزيز ويوسف ، وليصرف الله به عنه السوء والفحشاء - لأنه من عباده المحضين

١٠٥ اسحاق يوسف وامراة العزيز الى الباب ، أما هو فليشكو امراته إليه وأما هي فلتهمه ، قدحا قميصه من خلف لتمنه عن السير - تسرعها في اتهام يوسف أمام العزيز - ود يوسف عليها بأنها راودته عن نفسه - امراة العزيز تحرك فيه النخوة ليغضب على يوسف لأنه أراد سودا بأهله

١٠٥ شهادة رجل من أهل المرأة حكما للقرائن والعقل في شهادته ، - العزيز رأى قميصه قد من دبر فقال انه من كيدكن واتهم امراته ، وأمر يوسف بترك الكلام في المسألة ، وأمرها أن تسفروا من ذنبا وصرح بأنها كانت من الخاطئين

١٠٦ القرائن أصل من أصول الشريعة في الشهادات - عناية الحكومات بها اليوم في الجنائيات

١٠٧ وصف العزيز كيد النساء بأنه عظيم - قول بعض العلماء [ إني أخاف من النساء أكثر مما أخاف من الشيطان ] والتعليق على الكلمة

١٠٨ حديث نسوة المدينة عن امراة العزيز بمرادة فتاها ورميها بالضلال الواضح - اعدادها طعاما للنسوة ، وأمرها ليوسف بالخروج عليهن - إكبار النسوة ليوسف وتقطيعهن

الأيدي لفتنتهن يوسف - وقولهن ماهذا بشرا إن هذا إلاملك كريم - قول امرأة العزيز لمن: هذا يوسف الذى لمتنى فيه ليعذرنها

١١٠ من الغريب اعتراف امرأة العزيز أمام الفسوة أنها راودت يوسف فاستع بدنة ، وقسمها ان لم يجيها لطلبها لابت من سجنه ، اقتناع زوجها بأنها صاحبة الجرم بعد شهادة الشاهد ، وتنزيه الله له بقوله - إنه من عبادنا المحصلين - . وللفسرون يهتمونه بما لا يليق بمثله !!!

١١١ كلمة يوسف التاريخية بعد توعد امرأة العزيز له بالسجن وأن يكون من الصاغرين (رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه) وهو جواب زعيم ديني يعلم به الناس كيف يستهيون بالشائد ويسخرون بها في سبيل الحق والخلق

١١١ نصيحة للزعماء أن يتدبروا هذه الكلمة ويكررونها عند ما يسلمون في أمر يضر بمصلحة بلادهم ، ويهددون بالسجن أو التنفى ، لأن السجن لا يضيع حقا بل يثبت ، ولا يززع عقيدة بل يقويها

١١٢ رجوعه الى ربه في أن يصرف عنه كيدهن لعلنا كيف نستسك بالحق والخلق ونرجع مع ذلك الى الله في أن يمكن للحق ، ويبطل الباطل - استجابة الله له في صرف كيدهن عنه

١١٣ العزيز يخضع لامرأته في سجن يوسف بعد قيام الأدلة على براءته ، ويظهر أنها لم ينقطع أملها من يوسف فرأت أن تجرب به بالسجن بعد أن جربته من طريق الراودة حتى إذا أجابها سمع لاجراجه منه ونسبت قوله (رب السجن أحب إلى) الخ

١١٥ دخول يوسف السجن ودخول فتين معه - عرض رؤياهما عليه وطلب تأويلهما - وعد يوسف لهما أن لا يأتيهما طعام إلا بتأويله قل إتيانه ، وأن ذلك مما علمه الله - بيان السبب في ذلك بأنه ترك ملة قوم غير مؤمنين بالله الى ملة آبائه

١١٦ يوسف يفتش فرصة سؤاله عن الرؤيا لينصح صاحبيه في السجن وينشر مبدأه من الإيمان بالله وتوحيده والإيمان بالبعث والجزاء ، شأن صاحب البدأ يتحين الفرص لنشر عقيدته

١١٧ يوسف يوازن بين التوحيد والشرك ، ويرى صاحبيه أن عبادة إله واحد خير من عبادة آلهة متفرقين ، وأن الخير للعابد أن يكون له إله واحد يعرف ما يجبه فيسارع إليه وما يكره فيتركه - ويصح لصاحبيه عبادة أسماء ما أنزل الله بها من سلطان - ويرجع فيؤول رؤيا أحدهما بأنه يخرج من السجن ويسقى ربه خرا ، والثاني بأنه سيصلب فتأكل الطير من رأسه

١١٨ (اذكرنى عند ربك) اذكر مظلعتى عند سيدك

١١٩ آية يوسف على رساله هل هي تأويله للرؤى واستعداده للاخبار بالغيب أو هي شيء آخر؟ أوى محنته مع إخوته ومع امرأة الوزير وإرادته الحديدية وتفضيله السجن على فساد الخلق كل ذلك وأمثاله آية اصطفاء الله له

- ١٢١ مكث يوسف بضعة سنين في السجن لم يكن عقوبة له ، لأنه يجب على المظالم أن ينتصر ، وذلك شأن المؤمنين ، والتماس طريق دفع الظلم ليس فيه غصاصة على طالبه
- ١٢١ الملك يرى رؤيا ويطلب من يبرها - يوسف يبر الرؤيا بالسنين السبع المحببة بعد سبع محضبة ويشير عليهم بأذخار الحب في السنبل حتى لا يفسد
- ١٢٢ تحديد يوسف لعام بعد السبع الشداد ينات فيه الناس دليل على أنه يوحى من الله تعالى . الملك يهتم لهذه الرؤيا وتأويلها لأنه خطر يهدد الدولة بالمجاعة ويهتم لأن يوسف وصف الدوا للساكنين
- ١٢٣ الملك يطلب يوسف من أجل حادث الرؤيا فيأبى يوسف إلا بعد أن تظهر براءته مما سجن فيه ويطلب من الملك أن يسأل النسوة اللاتي قطعن أيديهن عن سيرة يوسف
- ١٢٣ يوسف يضرب المثل العالي للناس في الصبر والاحتمال في سبيل أن يخرج من السجن كالابرز الخالص ، على ما في السجن من شظف العيش وخشونة العيشة - حديث البخاري لو لبثت في السجن مالبث يوسف لأجبت الداعي - وهي شهادة لما قيمتها
- ١٢٤ عبرة للزعماء في سيرة يوسف وصبره وجلده ، يطلبونه ليخرج من السجن فيأبى إلا بعد أن تظهر براءته ، وهكذا يجب أن يضحي الناس براحة أجسامهم في سبيل راحة نفوسهم
- ١٢٥ الملك يسأل النسوة عن يوسف فيجبنه بقولهن (حاش لله ما علمنا عليه من سوء)
- ١٢٦ امرأة العزيز تعود فتقرر براءة يوسف وأنها راودته عن نفسه وأنه صادق في قوله وتقول: ما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء ، فتوفر ليوسف شهادة امرأة العزيز وهي الخصم ليوسف ، وشهادة النسوة ، وشهادة رجل من أهلها اعتمادا على قد القميص وشهادة الله وهي أكبر شهادة بأنه من عباده المخلصين ، فماذا بقي بعد هذا من شبهة تتعلق بيوسف ؟
- ١٢٨ الملك يطلب يوسف بعد ظهور براءته ليكون بظانه له خالصة ، ويقول ( إنك اليوم لدينا مكين أمين ) وتلك عاقبة الاستقامة - ذلك بعد أن كله وعرف من حديثه ناهة شأنه
- ١٢٩ الشأن في الملوك الذين يحرضون على مستقل دولهم أن يتخيروا لها أصلح الناس وأعلمهم بشئون الحياة - وليس من شأنهم أن يحقدوا على الرجل النابه المستقيم لأنه قوة لا غنى للدولة عنه - لا تستوى أمة غنية برجالها وأمة فقيرة
- ١٢٩ لو أن ملوك الأرض تأسوا بذلك الملك في اختيار الوزير الصالح لسعدوا وسعدت بهم الأمم
- ١٢٩ بظانة الملوك وأثرها فيهم وفي أعينهم
- ١٢٩ بظانة الملوك تعبر عن نفسياتهم ، وتعارض إلى مرضاتهم ، فهي تردد صدام في أمرها ونهيها وتنطق بلسانهم في ترغيبها وترهيبها
- ١٣٠ يوسف يطلب من الملك أن يجعله وزيرا لئلا يحفظه لئلا وعامه بطرق تديره ، وبرينا أن الوزير الفاعد الاثمنة خطر دام على مرافق الدولة لخياسته ، وأن الفاقد للعلم خطر لجهله ولسكن خطر الأول أشد

١٣١ يوسف يعلم للآل كيف يختار الوزراء بحمل قاعدة الاختيار الأمانة والعلم ولا غشاضة على للآل فى أن يأخذ بنصيحة يوسف فانه ملهم من الله تعالى ، ومن مثله تؤخذ الحكمة

١٣٢ القرآن من سفته أن يرجعنا إلى المختصين فى مختلف الشئون

١٣٣ ( وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ) بتدبير أسباب التحسين ، ووضع مقدماته بلطف .

جزاء الله للمحسنين فى الدنيا فوق جزائهم فى الآخرة

١٣٤ دخول إخوة يوسف عليه ليطلبوا طعاما بعد المجاعة وقد عرفهم وهم لم يعرفوه - طلبه أخلم من أبيهم حتى يعطيهم الليرة التى يحتاجونها

١٣٥ أمر يوسف فتيانه أن يجعلوا بضاعتهم التى حلولها لتكون ثمنا للطعام ليحملهم ذلك على حسن ظنهم فيه فيرجعوا - قولهم لأبيهم منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل ماتحتاج إليه فى المستقبل - وسنحفظه - تذكير يعقوب بإيام مافعلوه بأخيه يوسف - لما فتحو للتاع وجدوا بضاعتهم فيه فطمأنوا أبيهم - طلب يعقوب منهم موثقا من الله أن يأتوه بولده ولا يفرطوا فيه

١٣٦ نصيحة يعقوب لأولاده أن لا يدخلوا من باب واحد - قيل خوفا عليهم من العين: الحسد عدم اعتداء الناس لليوم لكيفية تأثير العين على الحسود ، وكل ماقلوه انها خاصة فى بعض النفوس كالجاذبية فى بعض المعادن - وقيل نصيحهم لاشتياهم بمصر وتحدث الناس عنهم فأمرهم بذلك حتى لا يخافهم للآل الأعظم على ملكه فيحبسهم ، والآية محتملة

١٣٧ قول يعقوب ( وما أغنى عنكم من الله من شىء ) ليرينا أن تدبير العبد لا يرفع قضاء الله فقد يكون ناقصا ، ولكنه أمر بالاحتياط أخذا بالأسباب ، ولا يمنع ذلك أنه متوكل على ربه . سفته كثير من الناس فى ترك الأسباب زاعمين أنهم متوكلون على الله تعالى

١٣٨ احتياط يعقوب لم ينف عنهم من الله من شىء فلم يدفع السوء وهو اتهامهم بسرقة صواع للآل فكان احتياط أبيهم فى ناحية وقضاء الله للدخر فى ناحية أخرى - قسوة الأبناء لاتحول دون شفقة الآباء - الثناء على يعقوب فى أخذه بالأسباب وأنه صاحب علم بتعليم الله له

١٣٩ ضم يوسف لأخيه وقوله له سرا : أنا أخوك فلا تحزن لعملهم فيما مضى - بشارة عظيمة بأخ غائب وملك للآل الأخ وسلمان

١٤٠ احتيال يوسف لابقاء أخيه عنده بحمل مشربة للآل وهى الصواع التى كانوا يكتالون به - أيتها العير انكم لاراقون من الفتية لباأمر يوسف ، أو نرى بض بسرقتهم يوسف من أبيهم ، أوجهة استفهامية - تبرؤ الاخوة من السرقة - جعل الفتيان جزاء السرقة أخذ من وجد الصواع فى رحله - استعراج الصواع من وعاء أخيه - تعليم يوسف الكيد والحيلة - لأن شريعة للآل لاتسمح بأخذ الأخ بدون سبب - اتهامهم يوسف بالسرقة على مسمع منه - اسرارها فى نفسه - لم يكن ذلك أول اساءة ليوسف



١٤٥ الاخوة يطلبون من العزيز أن يأخذ أحدهم مكان أخيهم فيرفض - كبيرهم يرفض أن يرجع الى أبيه إلا بعد أن يأذن له أو يحكم الله له بخلاصه من يد العزيز - أمره لهم أن يرجعوا الى أبيهم فيخبروه بأن ابنه سرق صواع الملك ويطلبون أن يسأل القرية والعير في ذلك

١٤٦ يعقوب لا يصدقهم ويرجع الى الصبر الجليل ويرجو الله أن يأتيه يوسف وأخيه  
١٤٧ يعقوب يعرض عن أولاده وينادي أسفه على يوسف الذي هو أول الزايا حتى ابيضت عيناه من الحزن - الحزن على اللصائب فطرة في الانسان ورحمة من الله ، ولكن للؤمن لا ينضب ربه في حزنه - أولاده ينكرون عليه ذكر يوسف باستمرار - فيقول لهم : إنما أشكو بثي وحزني الى الله وأعلم من الله مالا تعلمون

١٤٨ يعقوب يأمر بفيه بطلب يوسف وأخيه وعدم بأسهم من فرج الله لأن اليأس شأن الكافر إخوة يوسف يدخلون عليه ويشكون له ما أصابهم وأهلهم من الضر  
يوسف يذكرهم بما فعلوه بيوسف وأخيه في جهلهم - الاخوة تعرف أنهم يوسف وتقول له : إنك لأنت يوسف فيعرف لهم بأنه يوسف وهذا أخوه

١٤٩ يوسف يعترف بفضل الله عليه وعلى أخيه ، ويعلل ذلك بالقوى والصبر وأن الله لا يضيع أجر محسن ، إخوة يوسف يعترفون له بأن الله فضله عليهم ويمترفون بالخطأ - يوسف يعفو عنهم ويطلب من الله أن يعفو لهم

١٤٩ يوسف يأمر إخوته أن يذهبوا بقميصه ليلقوه على وجه أبيه ليرجع إليه بصره - ويأمرهم أن يأتيوه بأهلهم جميعهم

١٥٠ يعقوب يخبر من معه أنه يجد ريح يوسف بعد أن توجهت العير من مصر الى الشام - وذلك من خوارق العادات - الحاضرون ينسبونه الى ضلاله القديم - البشير يلقي القميص على وجه أبيه فيرجع إليه بصره - يعقوب يذكر من معه بما أخبرهم به ، وأنه يعلم من الله ما لا يعلمون - أبناءه يطلبون منه أن يستغفر لهم ذنوبهم لأنهم كانوا خاطئين - يعقوب يعدم بذلك

١٥٠ يوسف يضم أبويه إليه بعد دخولهم عليه ، ويعلمتهم على ما يلزمهم من مؤن الحياة ، ويرفضهما الى المكان العالي الذي كان يجلس عليه إعظاماً لهما فيتواضعون له ويسجدون لله شكراً له على هذه النعمة

١٥٠ يوسف يقول لأبويه : هذا الذي رأيتم من الملك والسلطان تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً - يذكر نعمة الله عليه في إخراجه من السجن وحجاء أهله من البادية من بعد أن تزغ الشيطان بينه وبين الاخوة - ويمترف لربه بلطفه في تديره ودقة صنعه في وصوله لما يريد - ويشكر الله على ما آتاه من الملك وعلمه من تأويل الأحاديث ، ويقول لربه : أنت ناصر في الدنيا والآخرة ، ويطلب منه أن يتوفاه مطعياً لأمره ، ويلحقه بالصالحين

١٥١ تذكر الله تعالى لثبته محمد صلى الله عليه وسلم بأبناء يوسف وإخوته ، وأنها غيب أوحاها إليه ، ولولا إخبار الله له بما علمها ، لأنه لم يكن مع إخوة يوسف وهم يكفرون ويدبرون فيسليه الله على ما يناله من أذى قریش ، ويقفم له دليلا على صدقه في رسالته

١٥١ دعوة شعيب عليه السلام إلى الله تعالى

١٥٢ دعوة شعيب لمدين إلى عبادة الله وحده - بينة شعيب وآية صدقه

١٥٣ دعوة شعيب لافناء الكيل والليزان ، لأن إحصار الكيل والليزان كان فاشيا فيهم كدعوة لوط إلى ترك الفاحشة

١٥٣ ينبغي للداعي أن يعرف الأمراض النفسية في القوم ويعظمهم فيها - من الجهل أن ينهى عن منكرات لا يعرفونها - الأمراض في الریف تقلع الزرع وتسمم البهائم وحرق الغلال وقتل النفس ، وتأريث العدواة بين البيوت والأسر ، وكتمان الشهادة ، ومداهنة عصابات السوء - أمراض للمدن : الزنا ، اللواط ، شرب الخمر ، اتخاذ أخدان ، الكذب ، النفاق ضف المزائم

١٥٤ الوعظ القوي لا يتصل بحياة الأمة في أخلاقها وعلومها وصناعتها - الهواوين وضررها على الخطابة - (مفتاح الخطابة) وإعمال الخطباء له على الرغم من وجوده في مساجد الاوقاف أمراض الخطابة من الوعاظ أنفسهم - أملنا في وعاظ الراكز فوق أملنا في أئمة الساجد التجار ومرضهم باحصار الليزان والكيل - أساليهم في ذلك - نحس الناس أشياءهم يشمل بنحس الحقوق للمعنوية كالعلوم والفضائل - أكبر أنواع البخس ما نراه من رجال السياسة ، ودعاة الاستعمار إذا نبغ في مستعمراتهم أحد بنحسو حقه - قتلهم للنبوغ بصرف النابغة إلى غير الجهة التي نبغ فيها - ومن شر أنواع البخس : شراؤهم النبوغ بالوظائف وللنائب الكبرى

١٥٦ شعيب ينهى قومه عن الافساد في الارض بعد إصلاحها ، ويريه أن ذلك خير لهم

١٥٧ شعيب يرهم أن عدم الافساد هو مقتضى الايمان - كثيرا ما يحفز الله النفوس إلى العمل بقوله (إن كنتم مؤمنين)

١٥٨ حجة للمؤمن بربه ، واقتناعه بحكمته في تشريعه تحمله على امتثال أمره ، وتقنيه عن فهم الحكمة الخاصة لذلك العمل - التزالي يضرب متلاصحا لذلك - وهو بحث مفيد يدفع

كثيرا من الشبه الهديفية عن نفس للمؤمن

١٥٩ شعيب ينهى قومه أن يقتلوا بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله من آمن

١٥٩ شعيب ينهى قومه أن يطلبوا طريق الرسل معوجة غير مستقيمة - أمثلة لذلك توخه

- ١٦٠ شعب يذكر قومه بنعمة الله عليهم في أن كثرهم بعد القلة ، ويذكرهم بعاقبة الفسدين -  
وينتظر حكم الله بينه وبين قومه
- ١٦٠ (للا) للستكر من قوم شعب يتوعدده وللؤمنين معه بالنفي أو يوافقهم على أهوائهم  
فيقول لهم شعب (أولو كنا كارهين) للكم ؟
- ١٦١ تهديد الرسل بالنفي من بلادهم حتى يخضعوا للفساد والظلم سنة جرت بها عادة الكافرين  
وعد الله لهم بهلاك الظالمين وإسكانهم الأرض من بعدهم
- ١٦٢ المستعمرون يستنون بسنة أعداء الرسل مع الزعماء ويقولون لهم (لنخرجكم من أرضنا أو  
لنعودن في ملتنا) - ملتهم أن تبقى البلاد في أيديهم - لا يسمعون لاحد برفع عقيرته  
ليطالب بحق وأن تبقى البلاد جاهلة تحت سلطانهم وتصرّفهم - زعمهم أن الله يشهم خير  
الانسانية وهم عدوها اللود
- ١٦٤ شعب يؤيس قومه من طاعته لهم - بحث في قوله (إلا أن يشاء الله ربنا) - توكله  
على ربه - يان معنى التوكل
- ١٦٥ التارك للأسباب جاهل مغرور لا متوكل منصور ولا مأجور
- ١٦٦ العبرة في أخذ الصيحة والرجعة للظالمين من قوم شعب ، فأصبحوا جاعلين على ركبهم من  
هول ما أصابهم (كأن لم ينشأ فيها) تصوير بليغ لما آل إليه أمر القوم وأهم أصبحوا  
أزرا بعد عين - شعب يتولى عنهم وقد بدأت مقدمات الهلاك ويقول قد أذيت ما على  
وانصحت ولم نسمعوا النصحي
- ١٦٨ شعب يخوف قومه من عذاب شامل ، ويريههم أن ثواب الله خير لهم في دينهم ودنياهم ،  
ويريههم أنه ما بحث ليحفظ عليهم أعمالهم ، بل بحث مبلنا
- ١٦٩ قوم شعب يسخرون به وبصلاته ودعوتهم إلى التوحيد - شانا اليوم يسخرون بالمصلي  
كما سخر قوم شعب به - الانسان موضع العجائب فيه التكبر الذي لا يخضع لاله ، وفيهم  
للشرك الذي يخضع لحجر صنعه يده أو لعبد لا يملك لنفسه شيئا - قوم شعب ينكرون  
عليه أن يتحكم في أموالهم ويوجهها للمصلحة
- ١٧٠ شعب يرى قومه أنه على بينة من ربه ، ولا يخالفهم إلى ما ناههم عنه ، ولا يريد لهم إلا  
الاصلاح ، وأنه لا غنى له عن نبلغ أمر الله ونهيه - شعب يحذر قومه أن يحملهم التعصب  
أن يصيبهم من العذاب ما أصاب من سبقهم من أعداء الرسل - ويريههم أن قوم لوط  
ليسوا بعدين عنهم
- ١٧١ (للا) يتجاهل دعوة شعب ويدعى أنه لم يفهمها ويقول له : لولا رهطك لرجناك لأنك  
ضعيف - فلا يماون حسابا إلا القوة للادية - شعب ينكر عليهم أن يكون رهطه أعز  
عليهم من الله ، وأن يتخذوه وراهم ظهريا - ويتوعددهم بالحطاة الله بصلهم

صحيفة

- ١٧٢ شعب يقول لقومه اعملوا ماشاء لكم الهوى فاني عامل على مبدئي لأحيدعنه وسوف تعلمون عاقبة عملكم - والعبرة في نجاة الله له ومن معه بفضل من الله ، وأخذ الظالمين بالصيحة فأصبحوا جاثقين على الركب - ثم دعا على مدين بالبعد عن رحمة الله كما دعا على نوح الأيكة معناها وموقع مدين الجفرائي
- ١٧٣ قوم شعيب يرمونه بأنه مسحر مغلوب على عقله ، ويرمونه بالكذب - إذا كانت هذه دعوة للسحري فكيف تكون دعوة العقلاء ؟ - للناس عقول تعرف بها الدعوة الصادقة والدعوة الكاذبة

- ١٧٤ قوم شعيب يطلبون منه أن يسقط عليهم كسفا من السماء إن كان صادقا تحديا له
- ١٧٥ العبرة في أخذ الله لهم بعذاب يوم الظلة ، وهو الحر الشديد فأتوا من شدة الحر وكان عظيما

### ١٧٥ دعوة موسى عليه السلام إلى الله تعالى

- مهمة موسى من أشق المهمات ، لأن بني إسرائيل ألقوا النذر فتقلهم من ذلك الحال شاق ولأن فرعون صاحب جبروت وطفيان
- ١٧٦ علاج موسى لبني إسرائيل بتذكيرهم بعم الله عليهم ليحيي فيهم إحساس الشرف وشعور الكرامة - أول نعمة جعل كثير من الأنبياء فيهم ، ثابها جعلهم ملوكا ، ثالثا إيتاؤهم مال يؤت أحدا من عالمي زمانهم
- ١٧٦ موسى يدعو قومه إلى دخول القطر السورى ، وينهاهم عن الجبن فيعتفرون له بأن فيها قوما جبارين
- ١٧٧ ومن ألق النذر صارت العيشة الاستقلالية شاقة عليه - من فصل الله أن الشعوب اذا فسدت لابد من وجود أفراد صالحين بها -
- ١٧٨ ( اذهب أنت وربك فقاتلا ) - موسى يث شكواه الى الله ويقول ( لا أملك الانفسى وأنى ) - عقوبة الله لهم بتحريم الأرض عليهم تحريما فليأيقنوا في البرية لا يهتدون لها حتى ينشأ جيل جديد يجمع بين حرية الدابة واستقلالها وبين معرفة الشريعة
- ١٧٩ ( أربعين سنة ) هل هي ظرف لقوله ( محرمة ) أو متعلق بقوله ( تمهون ) ؟ وهل هالك فرق في المعنى - الأرض التي تاهوا فيها هي سيناء - حضارة الأخلاق أربعون سنة ، وحضارة العلم خمس عشرة سنة

- ١٨٠ موسى بعثه الله بعد هود وصالح ولوط وشعيب كما هو صريح آية الأعراف
- ١٨١ موسى يذكر اسمه في القرآن أكثر من ١٣٠ مرة ، وسببه أن قصته أشبه بقصة حام للرسول ، صلات الله عليهم في أنه أوتي شريعة دينية دنيوية ، ويكون الله به أمة ذاب ملك ومدنية - فرعون لقب ملوك مصر القدماء - هل هو ريان أبا ، أو مفتاح ليل الأسرة
- الثامنة عشرة بن رمسيس الثاني ؟

١٨٢ موسى يبلغ فرعون أنه رسول رب العالمين ، وجدير بمثله أن لا يقول على الله الا الحق ، ويبلغه أنه جاء بأية واضحة من ربه ، ويطلبه أن يرسل معه بنى إسرائيل لينقذهم من عذابه فيطلب منه فرعون أن يأتي بها ان كان صادقا

١٨٢ موسى يلقي عصاه فتقلب ثعبانا تراه الأعين ، وينزع يده من تحت جناحه فتخرج بيضاء من غير سوء

١٨٢ (اللا) من قوم فرعون يرى موسى بأنه ساحر عليم بفنون السحر ، ويؤلب على موسى بأنه يريد أن يخرجهم من أرضهم ويملك أمر الناس ، فهو طالب ملك لا رسول ، ويستشير في أمر موسى

١٨٣ السحر وأنواعه ، واللعن الجامع له ، وهو أنواع ثلاثة

١٨٤ اللا يشير بجمع السحرة من اللذان لينازلوا موسى - السحرة يطلبون أجرا من فرعون ان غلبوا فيعدم بذلك وبالزنى منه - السحرة يلقون حبالهم وعصيم فيقول لهم موسى (ما جئتم به السحر ان الله سيطلبه ان الله لا يصلح عمل المفسدين) وهي سنة من سنن الله في خلقه

١٨٥ موسى يلقي عصاه فتتلع ما بأفكون من السحر ، فتقلب السحرة ، ويخرون ساجدين لمعجزة موسى فيعلنون ايمانهم بالله - فرعون يضطرب من الايمان المفاجئ وينكر على السحرة ايمانهم بدون اذنه وهو جهل منه بعالم القلوب ، وأنها تخضع دائما للحجة - فرعون يرى السحرة بتواطئهم مع موسى كبيرهم في السحر ، ويخشى على ملكه من موسى والسحرة شأن السحرة

١٨٦ فرعون يتوعد السحرة بأشد أنواع الوعيد ، فلا يبالون بتهديده ، لأن الحق تمكن من نفوسهم ، وكذلك العقائد اذا ثبتت لا تؤثر عليها الشدائد - السحرة يطلبون من الله الصبر على ما ينالهم من أذى فرعون وأن يتوفاهم مسلمين

١٨٨ (اللا) يرى فرعون بموسى ويزعم أن موسى ان ترك أفسد في الأرض وترك فرعون وآلهته

١٨٩ بطانات السحرة دائما تصور له الصلحين بصورة المفسدين لتعيش على حساب الاستبداد - افساد موسى افساد سياستهم ، واتخاذ للشعب الاسرائيلي من أيديهم - الآلهة في عهد فرعون الكواكب ومنها الشمس - مصر سيلة الشمس - تطاع فرعون لعبادة الناس له وقوله (أنا ربكم الأعلى)

١٩٠ فرعون يتوعد الشعب الاسرائيلي بتقيل الأبناء واستبقاء النساء ، لانه فوقه بالسلطان والغلبة - موسى يأمر قومه أن يستعينوا بالله على كيد فرعون ويصبروا ، ويريه أن الأرض ملك لله لا لفرعون يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة الحسنة للمتقين - قوم موسى يقولون له : لم نستفد من ارسلالك سوى الايذاء فيعدم رجائه في الله أن يهلك عدوهم ويستخلفهم في الأرض

١٩١ أخذ الله آل فرعون بالسنين الحديدة وتقص الفترات وجاء تذكركم - عدم استفادتهم من الشدائد ، فاذا أخصبوا قالوا ذلك الحصب أمر استحقوه ، وإن أجذبوا تشاءموا بموسى ومن

معه - رد موسى عليهم (إنما طأركم عند الله) وهو الذى وضع نظاما للخير والشر  
١٩٢ تبيسهم موسى من الإيمان وإن أنام بالآيات ، وإصرارهم على عد آياته سحرا - إرسال الله عليهم الجراد والقمل والضفادع الخ ، وبيان المراد منها - استكبارهم بعد هذه الآيات لأن الاجرام خلق فيهم

١٩٣ تورث الله المستضعفين مشارق الأرض ومغاربها ، وتحقيق وعد الله لهم بسبب صبرهم وتقوam ، وتدمير ما كان يصنع فرعون وقومه ، وإدخال الخراب على أعمال فرعون ، ولا سيما ما يتعلق بعمره - كان حربه لحزب الله احتفاظا بالعرش فدمر الله عرشه وأضاعه ملكه  
١٩٣ بنو إسرائيل يطلبون من موسى أن يجعل لهم إلها كالأصنام التى رأوها ، لأن الوثنية عاقلة بنفوسهم ، فيصنعهم موسى بالجهل ، وأن ذلك العمل مقضى عليه بالظلال ، ويريه أن لا يطلب لهم إلها غير الله

١٩٦ وعد الله موسى أن يعطيه التوراة بعد ثلاثين ليلة وإتمامها بعشر - واستخلاف أخيه هارون فى قومه وتوصيته بالإصلاح - استشراف نفس موسى العالية لرؤية الله تعالى عند مجيئه للبيقات الذى ضرب له - نفى الله للرؤيا وتعليقها على استقرار الجبل ، وذلك الجبل عند تجلى الله له - ندم موسى على طلب الرؤيا

١٩٧ اصطفا الله لموسى بالرسله والكلام - أمر الله له بأخذ ما آتاه وشكره عليه - اشتال ألواح التوراة على مواظ وشريعة تفصيلية - أمر الله له أن يأخذ التكالييف بقوة ليكون قدوة سالحة ، وأن يأمر قومه ليأخذوا بأوامرها (سأريكم دار الفاسقين)

١٩٧ سنة الله تعالى فى الهداية والاضلال ، وأنه تعالى يصرف التكبرين عن فهم آياته جزاء وفاقا لهم على تكذيبهم لآيات الله وتماطلهم عنها

١٩٩ اتخاذ قوم موسى من بعده عجلا من الخلى - تسفيه عملهم هذا بأنه لا يملكه لهم ولا يهديهم سبيلا - ظلمهم باتخاذهم إلها

٢٠٠ غضب موسى على قومه لاتخاذ العجل إلها - أسفه على إضاعة مجهوده معهم - إلقاء ألواح التوراة لثورة الغضب - أخذه برأس أخيه يجره إليه - اعتذار أخيه باستضعاف القوم له وقد قاربوا أن يقتلوه - توبه إلى أخيه بقوله (يا ابن أمّ) الخ - طلب موسى من ربه أن يغفر له ولاخيه هارون - إخباره أن متخذى العجل سينالهم غضب الله عليهم ، وذلك فى هذه الحياة - شأن للفترين على الله الكذب

٢٠١ أخذ الألواح من الأرض عند سكوت الغضب عن موسى - وفيها الهدى والرحمة

٢٠٢ اختيار موسى لميقاب الله سبعين رجلا من قومه - أخذ الرجفة إياهم - قول موسى لربه (لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أهلكنا بما فعل السفهاء منا) - رجوع موسى لاستنصاره بربه وليغفر له ذنبه

- ٢٠٣ سعة رحمة الله كل شيء - كتابتها للذين يتقون ويؤتون الزكاة الخ
- ٢٠٤ صفات محمد صلى الله عليه وسلم وبشارة التوراة والانجيل به - أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر - تحليله للطيب - تحريره للخبائث - وضعه للتكاليف الشاقة التي كانت في بني إسرائيل - حصر الله الفلاح في المؤمنين به الذين اتبعوا نوره
- ٢٠٥ غرور الناس بقول الله (ورجتي وسعت كل شيء) ونسيانهم قوله (فسأ كتبها للذين يتقون) الخ - كلمة للواعظ الذين يأخذون بإشارة القرآن ويدعون إنذاره
- ٢٠٦ عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأدلة ذلك العموم - توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية - ما يجب اتباع الرسول فيه من أمور الدين وما لا يجب الاتباع فيه من أمور الدنيا المبنية على التجارب
- ٢٠٩ الآيات في خيار أهل الكتاب عامة وقوم موسى على الخصوص
- ٢١٠ القرآن يعلمنا كيف نصف المخالف لنا في الدين - أسباط بني إسرائيل - ضرب موسى للحجر بعصاه ، وتفجر العيون منه - تظليل الغمام عليهم - اللق والسوى - أمرهم بسكنى قرية معروفة لهم وأن يأكلوا من نعيمها داعين أن يحطّ عنهم خطايا - مخالفتهم أمر الله مخالفة لا تقل تأويلا - إزال عذاب من السماء عليهم بسبب فسقهم
- ٢١١ عدوانهم في مسألة السبت وابتلاء الله لهم بها لفسقهم
- ٢١٢ لاغنى للناس عن الوعظ لأقامة حجة الله عليهم ورجاء أن يتقوا - ليس لواعظ أن ييأس اختلاف النفوس في قبول الموعظة كاختلاف معادن الأرض - من الجهل أن يطقّ الواعظ انتفاع الناس جميعهم بوعظه في الحال - المرض الزمن لا بد له من علاج يناسبه
- ٢١٤ الوعظ إن لم يكثر سواد الصالحين يحفظ الصالح من عدوى الفساد ، لذلك وجب في كل أسبوع - إنجاء الله للتاهين عن سوء وأخذ الظالمين بعذاب شديد بسبب فسقهم
- ٢١٥ ما يستفيدة شخص الواعظ من الوعظ - مسخ العصاة قرودة وخنازير ، والمراد منه
- ٢١٦ قضاء الله على بني إسرائيل لسلطون عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب لظلمهم وفسقهم - تحقيق التاريخ لذلك الوعد
- ٢١٧ قطيع بني إسرائيل أعماق الأرض فيهم الصالح وغيره - ابتلاؤهم بالحسنات والسيئات لعلمهم يرجعون - خلفهم الطالح وأخلاقه - تنمية نفوسهم بالغفران وهم مكبون على العصيان دراستهم للتوراة لم تجدم
- ٢١٨ سريان كثير من فساد بني إسرائيل الى رجال الدين من الساميين - المستمسكون بالكتاب لا يضيع الله أجرهم
- ٢١٩ تنق الجبل فوق بني إسرائيل ومعناه والفرس منه
- ٢١٩ أمر الله لهم أن يأخذوا الكتاب بقوة ويذكروا ما فيه بالمحافظة على العمل به - كلمة على رضى الله عنه : يهتف العلم بالعمل ، فان أجابه والا ارعجل

٢٢١ موسى يبعثه الله الى قومه بالآيات فيستكبرون عن قبولها لأنهم قوم دأبهم الاجرام ويرمونه

بأنه ساحر - موسى ينكر عليهم أن يسموا الحق سحرا

٢٢١ (اللا) يدس بين موسى وأخيه هارون ، وبين فرعون بأنه يريد بدعوته أن يكون له ولأخيه الكبرياء في الأرض فهي دعوة إلى ملك لا إلى رسالة - الملوك من عادتهم قبول الساس بلابحث لأنها تنعاق بالملك

٢٢٢ (إن الله لا يصلح عمل المفسدين) قاعدة من قواعد الاجتماع أنطق الله بها موسى

٢٢٣ شواهد هذه القاعدة في أعمال الزورين وانكشافها بواسطة رجال الحمامة - إذا نجح منور فلائه لم يجد من يكشف تزويره - الفرق بين الصلح والفسد - العبرة في الآية في التأسى بخلق الله في عدم ترك الباطل حتى تنفق به الناس - وعد موسى بأن الله يحق الحق بكلماته ولو كره المجرمون - قلة الذين آمنوا بموسى

٢٢٤ السر في أن الذين آمنوا بموسى من الشبان دون الشيخ - استعداد الشبان للحديد وجود الشيخ - مشيخة قريش كانت محاربة لرسول الله صلى الله عليه وسلم كأبي جهل وأبي لهب ، وعقبة بن أبي معيط ، وكعب بن الأشرف وغيرهم

٢٢٥ الشباب يؤمن بموسى ، وسيف فرعون مسلول على رقبته ، وأحكامه العرفية منهورة ، لأن قوة الحجة والبرهان فوق قوة الحديد والنار ، وآية ذلك إيمان السحرة على الرغم من وعيدهم بتقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف الخ

٢٢٥ موسى يأمر قومه بالتوكل على الله إن كانوا آمنوا بالله - فيجيبونه بأنهم كذلك ، ويطلبون من الله أن لا يجعلهم فتنة لفرعون وقومه وينجيهم منهم - الله تعالى يأمر موسى وأخاه أن يتخذوا مصر سكنا لهم ، ويتخذوا من مساكنهم مساجد ، ويقوموا الصلاة

٢٢٦ موسى يدعوه أن يطمس على أموال فرعون وملكه ، ويختم على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يعاينوا العذاب الأليم - كثير من الناس يطمس الله على ماله

٢٢٨ إجابة الله دعوة موسى وأخيه

٢٢٨ مجاوزة البحر بيني إسرائيل - فرعون وجنوده يقعونهم بضياع وعدوانا - فرعون يؤمن بالله عند إدراك الفرق له - هناك عرف أن هناك قوة فوق قوته - الله تعالى ينكر عليه ذلك الإيمان القهري ، ويريه أن لا قيمة له - إنجاء الله لجنة فرعون ليكون عبرة لمن يأتي بعده من الجبابرة

٢٣٠ غرق فرعون عبرة كبرى للملوك المفسدين والحكام السبطين ، ولكن الكثير من الناس ينفل عن آيات الله ودلائل قدرته

٢٣١ وحى الله إلى موسى أن يخرج قومه من الظلمات إلى النور ، وأن يذكر قومه بأيام الله وحوادثه التي وقعت على الأمم قبلهم فإن فيها العظة - تذكر موسى لقومه بإنجائهم من آل فرعون - إعلام الله الناس بأنهم إن شكروا زادهم ، وإن كفروا فعذابه شديد



٢٣٣ إخبار موسى قومه أنهم إن كفروا هم وأهل الأرض فإن الله غنى عن إيمانهم ، جيد غناه ، أما غنى الخلق ففيه للممود والتميم

٢٣٤ حديث النار التي رآها موسى وهو يسير مع أهله

٢٣٥ أمر الله موسى أن يخلع نعله لأنه كان قدراً - أمر الله موسى بخلع نعله ليس حجة لمن ينكر الصلاة في النعال لثبوتها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - بعض الفقهاء يعدها من سنن الصلاة - اختيار الله موسى لرسالته

٢٣٦ أول شيء يلقنه الله موسى التوحيد ، ثم العبادة ، ثم البعث - حكمة سؤال موسى عما بيده مع أن الله يعلمه - انقلاب العصا ثعباناً - خروج يده بيضاء من غير سوء ليريه من دلائل قدرته

٢٣٧ أمر الله موسى بالذهاب إلى فرعون لطفائه

٢٣٧ ما تقدم به موسى إلى ربه بين دعوته - شرح صدره - تفسير أسمه - حل عقدة من لسانه - جعل هارون وزيراً له - حكمة طلب موسى أن يكون وزيره من قرابته

٢٣٨ موسى يطلب وزيراً من أهله ليعاونه على تسبيح الله وذكره بما يليق به - لم يطلب الوزير ليوافقه على إذلال الناس وظلمهم ، وتمكين قدم القاصب في البلاد - المستعمرون يعمدون في بعض الظروف إلى أحط الأئمة أخلاقاً فيعطونه الحكم لينزلوا به الأئمة - وزارة الرسل أساسها الحق ليثبت والتعاون على البر - الله يجيب سؤال موسى ، ومنه جعل هارون وزيراً له

٢٣٩ تذكير الله لموسى بمنة أخرى عليه هي قصة قذفه في التابوت وقذفه في البحر ، وأخذ فرعون له ، وتحبيب فرعون فيه ، وتربيته تحت رعاية الله تعالى ، وتسخير أخته لتدلم على من يرضعه ليرجع إلى أمه فتهداً - وكذلك قتله قسا ، وإنجاء الله له من أولياء القتل ، وإبنته في أهل مدين سين - واصطفاه الله له

٢٤٠ أمر الله لموسى وأخيه بالذهاب إلى فرعون مؤيدين بآيات الله - أمر الله لهما أن يقولاً له قولاً لنا على رجاء منهما أن يتذكر أو ينحس

٢٤٠ القدوة الصالحة في موسى وأخيه لكل واعظ في أن يلين القول وإن كان للتعط جباراً - وأنه لا ينبغي للواعظ أن يأس

٢٤٠ موسى وهارون يخافان من بطش فرعون وطغيانه - تطمين الله لهما بأنه معهم ومن كان الله معه لا ينبغي له أن يخاف مخلوقاً

٢٤١ أمر الله لهما أن يأتيانه ويخبراه برسالتهما إليه ، وأن مهمتهما إرسال بنى إسرائيل معهما ، وإنقاذهم من عذابه ، وإخباره أن معهما دليلاً على صدقهما - وعدهما بأن السلام من عقوبة الدنيا والآخرة على من اتبع الهدى - والعذاب على من كذب وأعرض

- ٢٤٤ فرعون يسأل موسى عن ربه فيجيبه بقوله (ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى) ويسأله عن القرون الأولى فيكمل موسى عليها إلى الله تعالى ، ثم يصف الله تعالى بما يليق به من كمال ، ويذكر نعمه على خلقه ، ثم يذكره بالبعث والنشور
- ٢٤٥ موسى ينتهز الفرصة ليعظ فرعون وقومه ، وهكذا يجب أن يكون الصلح - وعظي للحكام طنطا وأطبائها وجيع طبقاتها لمناسبة قصة الولد
- ٢٤٥ إباء فرعون مع إتيان الله له بالآيات
- ٢٤٥ فرعون ترتد فرائضه من موسى ويخشاه على ملكه وغطرسته
- ٢٤٦ موسى يعظ السحرة قبل أن ينزلوه
- ٢٤٦ السحرة يخرجون على فرعون ، ويقولون له ( لن نؤثر على ما جاءنا من اليناث والذى فطرنا ) ويستخفون بوعيده لأن قضاءه لا يعدو هذه الحياة - هي عظات بالغة - ثم ختموا القصة بقولهم ( انه من يأت مجرماً فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ومن يأت مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى )
- ٢٤٧ إحياء الله لموسى أن يسرى بعباده فيضرب لهم طريقاً يقا ييسا في البحر ، وتطمين الله له - المكان الذى عبر منه موسى وقومه لم يعلم بالتحقيق - اتباع فرعون لهم وغرقه مع قومه
- ٢٤٨ امتنان الله على بنى إسرائيل بانجائهم من عدوهم
- ٢٤٩ إضلال السامري لقوم موسى بعد ذهابه إلى ميقات ربه
- ٢٥٠ عجل السامري وإخراجه من الحلي - حكمة وصف المعجل بأنه « جسد » قبيح عبادة إله هو من صنع أيديهم
- ٢٥٠ موسى يسأل السامري عن قصته فيريه أن الذى حمله على ذلك علمه بشئون العادين ، وجهل بنى إسرائيل بها
- ٢٥١ موسى ينهى السامري لأنه مفسد ، ويحرق إلهه وينسفه في اليم ليقضى على آثار الشرك وذرائعه ، وكذلك ينهى لكل مصلح أن يزيل أسباب الفتنة ويحول بين الناس وبين الفساد
- ٢٥٢ موسى يرسله الله بالآيات والسلطان الواضح - بيان السلطان الواضح
- ٢٥٢ فرعون يستكبر عن قبول دعوة موسى ، ويأف أن يؤمن لبشرين مثله مع أن قومهم عبيد له - هلاك فرعون ومن معه بتكذيب موسى وأخيه
- ٢٥٦ موسى يطالب فرعون أن يرسل معه بنى إسرائيل فيرد عليه بأنه رباه ولبت معه سنين ، ويذكره بقتل الرجل - فيعتذر موسى بأنه قتله قبل أن يهديه الله للرسالة ، وأنه فر منهم لما خافهم فوجه الله حكماً وجعله من المرسلين
- ٢٥٦ موسى ينكر على فرعون امتنانه بالترية ، لأن سبب تربيته لموسى خوف أمه من ذبح الأبناء ، فكانت نعمة لبنى إسرائيل استقبلت نعمة لموسى ، والشر إذا تبعه خير لا يؤجر عليه فاعله - فرعون يسأل موسى عن ربه العالمين فيجيبه بأنه ربه السموات والأرض الخ

- ٢٥٧ فرعون يرى موسى بالجحش لأنه يصف رب العالمين بما يليق به - فيقول موسى هو - رب الشرق والغرب وما بينهما - ان كان لهم عقل فهموا قيمة ذلك القول
- ٢٥٨ فرعون يتهدد موسى بالسجن إذا هو اتخذ إلها غيره - فيقول له موسى أنسجني ولو جئتكم بشيء واضح يدل على صدقي ؟ فيلقى العصا فتقلب ثعباناً وينزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين
- ٢٥٩ فرعون يستفز اللائع ويقول لهم انه ساحر عليم يريد أن يخرجهم من أرضهم بسحره - السحرة يقسمون بجزء فرعون انهم هم الغالبون ، أو يستعينون بجزء فرعون على الغلب وقد خذلهم الله
- ٢٦٠ فرعون يستصرخ قومه ، ويستغيث عشيرته وهم يقولون في دعوتهم ( إن هؤلاء لشرذمة قليلون وإنهم لنا لغاظون ) فيعتبر بذلك أرباب السلطان وأصحاب النفوذ والجاه - العبرة في أن البطل دائماً يخشى الحق ويقض مضجعه - وإن كان قليلاً - إخراج الله لقوم موسى من خيراتهم - خوف أصحاب موسى من إدراك فرعون لهم - تطمين موسى لهم بأن الله معه سيهديه سبيل النجاة
- ٢٦١ موسى يأمره الله أن يضرب بعصاه البحر فينقلب فيكون كل فرق كالجلل العظيم - وأغرق آل فرعون وأنجى موسى ومن معه - العبرة في ذلك
- ٢٦٢ موسى يخاف من العاص بعد قلبها ثعباناً - قول الله له : لا تخف لأنك رسول ولا يذنبى له أن يخاف - قوم فرعون يحجسون آيات موسى مع استيقان أنفسهم لها ، والحامل لهم الظلم والعلو - كفر الجحود يستحق صاحبه الخلود في النار
- ٢٦٣ نبأ موسى وفرعون وقصه بالحق
- ٢٦٤ فرعون مثل من أمثلة الاستبداد ، وعنوان للظلم واستعباد الناس ، وقدوة سيئة في الشر - علوه في الأرض وطيانه
- ٢٦٥ فرعون يجعل الناس شيعاً وأحزاباً ، يذل بكل حزب ما عداه من الأحزاب ، ويأمنهم جميعاً بواسطة ذلك التحزب الذي غرسه فيهم
- ٢٦٦ فرعون إمام للمستعمرين في خلق الأحزاب وتقضية الحزبية في الأمة لينشغلوا الأمة بحزبيتها عن مصالحها
- ٢٦٧ المستعمرون يحزبون الأمة ويطلبون منها أن تتحد ، إذا طلبت مصلحة من المصالح يعلقون إجابتها إلى ما تطلب على محال - الأمة لا تتحد مادام فيها الغاصب
- ٢٦٨ فرعون أول الغاصبين الملك بنى إسرائيل والخارجين على دستور الإله الذي يقضى بالشورى
- ٢٦٩ فرعون هو العمود الفقري للغاصبين ، ووجه الأعلى الذي يعلو عليهم من وجه الشيطاني ما يستبيحون به إذلال الناس

٢٦٤ عاقبة المستعمرين ستكون عاقبة فرعون - خذلان بين ، وذلك فاضح ، وعبرة واضحة - سيحل بهم من الموت الأدبي ما حلّ بفرعون من الموت المادّي - وسيندمون حيث لا يتفهم الندم

٢٦٤ فرعون يستضعف طائفة من أهل الأرض - الشأن في السبّ أن يستضعف طائفة لم يكن فيها مناعة خلقية - ولا تحاو الأُم من ضعفاء ، فمنهم من يفر به بالمال والنصب ، ومنهم من يهدده بالقوة المادّية - هلاك الأُم وبلاء المسلمين في أعماق الأرض على يد الطائفة الضعيفة منهم - على المسلمين أن يفتنوا لهذه الطائفة

٢٦٥ تذيب فرعون للأنباء واستحيائه النساء - فرعون خلقه الفساد

٢٦٥ وعد الله للمتضعفين وجعلهم أئمة ، وجعلهم الوارثين لما كان فرعون ، وتمكينهم في الأرض ويرى فرعون وحزبه منهم ما كانوا يخافون - العبرة في قصة فرعون أنه بسط نفوذه لأنه استخفّ قومه ولو وجد من يقاومه لقلب على أعصره ، وكذلك سائر الطغاة والظلمة

٢٦٦ في كلّ عهد فراعنة ، ومعهم بطانات شرّ يشكرونها على الظلم ، ويعينونها على الشرّ

٢٦٦ وفي كلّ عهد يسلط الله على فرعونه من ينقص عليه معيشته

٢٦٦ على ملوك الأرض أن تعتبر بسيرة ، وتذكر برشه الذي نقّوض ، وملكه الذي ذهب بعد أن كان له من الحول والطول ما كان حتى قال ( أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون ) - ونسى أن الله تعالى مالك الملك يؤثيه من يشاء ويفزعه من يشاء

٢٦٦ قصة إرضاع موسى ، وإلقائه في اليمّ ، وبشارة الله لأمه بنجائه ورسالته ، والتقاط آل فرعون له ليكون لهم عدوّاً وحزناً

٢٦٧ إبتاؤه الحكم والعلم بعد أن بلغ أشده ( وكذلك نجى الحسنين )

٢٦٨ قصة قتل موسى للقبطي وأنه كان خطأ لم يرد به موسى أن يقتله - قول موسى عليه السلام ( هذا من عمل الشيطان )

٢٦٨ قول موسى بعد موت القبطي ( فلن أكون ظهيراً للمجرمين )

٢٦٨ عبرة لرجال المحاماة في عدم دفاعهم عن مجرم - اعتذار رجال المحاماة عن دفاعهم عن المجرم بأنه قيام بالمهنة اعتذار باطل - مهمة المحامي مساعدة القضاء

٢٦٩ ( فلما أراد أن يبطش بالذي هو عدوّ لهما ) الخ ويان المراد من الآية

٢٧١ قصة زواج موسى ، وسببه صموئيل وأمانته

٢٧٢ القرآن لم يسمّ الشيخ الذي صاهر موسى فنقّوض علمه إلى الله تعالى

٢٧٢ خوف موسى من فرعون وملكه ، وخوفه من قتله لأنه قتل منهم نفساً قبل ذلك ، وطلبه مؤازرة أخيه هارون - إجابة الله له بشدّ عضده بأخيه ، وأن يجعل لهما سلطاناً ، ووعد به بالجماء الله لهما ، وأن العاقبة ستكون له ولأخيه

٢٧٢ رمى فرعون وملائه لموسى ومن معه بأنهم سحرة وأنهم لم يسمعوا بدعوته في آياتهم الأولين رد موسى عليهم بأن الله يعلم بمن جاء بالهدى ومن تكون له العاقبة ، وأن الظالم عاقبته الخسر والخسار

٢٧٣ فرعون يتففل قومه ويقول لهم ( يا أيها اللاء ما علمت لكم من إله غيرى ) ويوجههم أن فى استطاعته أن يعمل قصرا عاليا يصعد عليه ليرى إله موسى تهكما به

٢٧٣ استكبار فرعون وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنهم أنهم لا يرجعون إلى الله فيحاسبهم ، عقوبة الله لهم على ذلك التجبر ببندهم فى اليم

٢٧٣ جعل فرعون وملائه ( أئمة يدعون إلى النار ) بسبب تكبرهم على الحق وأهلهم مع إيقان قلوبهم به - ( ويوم القيامة لا ينصرون )

٢٧٦ ( وما كيد الكافرين إلا فى ضلال ) بيان لقاعدة من قواعد الاجتماع ، هى أن تدير الفساد مقضى عليه بالفشل ( إن الله لا يصلح عمل المفسدين )

٢٧٦ فرعون يرمى الناس أنه يريد قتل موسى ، وأن من حربه من يمنه من القتل ، مع أنه يخشى أن يكون قتله سببا فى تعجيل عقوبته لايقان قلبه بصدقه - فرعون يزعم أنه خائف على دين قومه من موسى أو يظهر الفساد فى الأرض ، والواقع أن خوف فرعون من ذهاب سلطانه هو - موسى يستعذ بالله من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب

٢٧٦ قصة مؤمن آل فرعون ووعظه للقوم ، وما أوحى الواعظ إلى تدبر هذه القصة وما فيها من منطق مستقيم - وكيف أن الله تعالى أنجاه من عذاب فرعون ( وحاق بآل فرعون سوء العذاب )

٢٧٨ غرور فرعون بملكه واعتزازه بسلطانه ( أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتى أفلا تبصرون ) ولكن ملكه لم يفته من عذاب الله فى الدنيا ولا فى الآخرة

٢٧٨ فرعون لم يكن مستقلا بالأمم ، بل يشاركه قومه لأنه وجد فيهم استعدادا للشر ( فاستخف قومه فأطاعوه ) وتعليل ذلك بأنهم كانوا قوما فاسقين ، وكذلك الأمم الضعيفة التى ترضى بالظلم يعاقبها الله على رضاها ، ويعاسبها الحساب الشديد فى الدنيا والآخرة

٢٧٩ انتقام الله من المنصفين له بالفرق ، وجعلهم عبرة لمن يأتي بعدهم

٢٨٠ موسى يترقى فى دعوة قومه ويطلبهم بعدم التعالى على ربهم وإذا لم يؤمنوا به لايتعرضون له بسوء - أمر الله له بالأسراء ليل - وأن يتركوا البحر ساكنا على انفلاقه - وبيان سبب ذلك بأنهم جند مقضى عليهم بالفرق - السماء والأرض لا يكيان عليهما - إنكار آل فرعون للبعث - تذكير الله لهم بمن أحلكهم من الأمم ، وأنهم لم يكونوا خيرا منهم

٢٨١ قصة موسى وفرعون مختصرة ، ومع ذلك لم تدع أصلا من أصول القصة دون أن تعرض له

٢٨١ قول فرعون ( أنا ربكم الأعلى ) وأخذ الله له ، وجعل ذلك الأخذ نكال الدنيا والآخرة

## دعوة داود وسليمان الى الله تعالى

٢٨١

٢٨٣ تعجيب الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم مما فعله الملا من بني اسرائيل بعد نبي الله

موسى - إذ قالوا لنبي لهم ابث لنا ملكا قتال في سبيل الله - توقع النبي الجبن منهم اذا كتب عليهم القتال - استبعادهم الجبن مع قيام أسباب القتال ، وهو اخراجهم من ديارهم وأبنائهم

٢٨٣ القتال في سبيل الله أعم من القتال لأجل الدين لأنه يشمل القتال لحماية الحقيقة كما يشمل القتال لحماية الحق ، فكله جهاد في سبيل الله ( يدل ذلك قوله - وما لنا أن لا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا )

٢٨٤ الملا ينكر الجبن عن الجهاد مع إخراج العدو لهم من ديارهم وأبنائهم  
٢٨٤ قد يخرج المسلم من بلده وهو مقيم به ، فيحول الغاصب بينه وبين خيرات بلاده ، ويحرمه من مجهود شعبه وأمنه - كل بلد محتل من بلاد المسلمين قد أخرج منه أهله ، وإذا عاشوا فيه فأما يعيشون غرباء .

٢٨٥ جنبهم عن القتال بعد أن كتب عليهم - تهديد الله للجبناء بأنه عليم بالظالمين - عقوبة لهم بذلهم في الدنيا ، واسقيلاء الغاصب على بلادهم .

٢٨٦ إخبار الله لهم أنه قد بعث لهم طالوت ملكا عليهم - استنكارهم ذلك وقولهم نحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال - نبيهم يقول لهم ( إن الله اصطفاه عليكم ) بما أودع فيه من الاستعداد الفطري لذلك ( وزاده بسطة في العلم ) الذي يكون به التدبير وبسطة في الجسم وهي عنوان الصحة وكمال القوى

٢٨٧ سنة الله تعالى في تكون الأمم وهلاكها وقيامها وسقوطها للبنية على حالة الأمة في صفات أنفسها في عقائدها ومعارفها وأخلاقها وعاداتها

٢٨٨ آية ملك طالوت أن يحييهم الصندوق الذي كان موسى يضع فيه التوراة تسوقه الملائكة بعد ضياعه باسقيلاء العمالة عليه لما حاربوا بني اسرائيل

٢٨٨ ابتلاء الله لهم بالنهر

٢٨٩ الفرق بين كلمة الجبن وكلمة الشجاعة كبير - كلمة المؤمن الصادق ( كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين )

٢٩٠ دعاء المؤمنين بافراغ الصبر عليهم ، وتثبيت أقدامهم ، ونصرهم على أعدائهم حين برزوا لجالوت وجنوده - فهزمهم باذن الله وقتل داود جالوت - إعطاء الله إياه الملك والحكمة وتعليمه مما يشاء

٢٩١ (ولولادفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) سنة تنازع البقاء - الحرب طبيعة في البشر - سنة الله بقاء الأمتل ( فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض)

٢٩٢ حكم داود وسليمان في حادث النثم ، وإصابة سليمان مع إعطاء الله كلا من الأب وولده مقدرة على الحكم بين الناس

٢٩٤ فقه نبي الله سليمان في القضاء - قصة الرأتين اللتين ذهب الذئب بأبن إحداهما - تحاكمهما الى سليمان - وصوله الى الصواب - الأخذ بالقرائن في القضاء - مؤلف ابن القيم في ذلك ، قميص يوسف

٢٩٥ تسبيح الجبال مع داود والبراد منه - تسخير الطير لداود

٢٩٥ تعليم الله إياه صنعة لبوس وإلانة الحديد له

٢٩٦ علم فنون الحرب ، وحماية الدولة من أيدي الأعداء : نعمة عظمى يشقى الشكر عليها - اختلاف القوى الحربية باختلاف الزمان

٢٩٧ تسخير الريح لسليمان وتسخير الشياطين له

٢٩٩ إتياء الله داود وسليمان علما وشكرهما لله على تفضيلهما على كثير من الناس

٣٠٠ إرث سليمان داود نوثه وعلمه وملكه دون سائر أولاده - تعليم سليمان منطق الطير ، وبيان المراد منه

٣٠١ إتيان الله لهما من كل شيء من حاجات الملك ولوازم العظمة - شكر سليمان لله على ذلك

٣٠٢ جيش سليمان مع كثرتة وتنوعه سلس القيادة سهل الضبط

٣٠٢ قول العلة ( يا أيها العمل ادخلوا مساكنكم ) الخ هل هو حقيقة أو مجاز ؟ وخلاف العلاء في ذلك

٣٠٣ العبرة في حديث العلة ، وتبسم سليمان من قولها : أنه ينبغي للقوى أن يلاحظ الضعيف ، وللكبير أن يرحم الصغير

٣٠٣ طلب سليمان من ربه أن يلهمه شكر نعمته عليه وعلى والديه ، وأن يعمل صالحا يرضاه ، ويدخله برحمة في جملة عباد الصالحين

٣٠٤ تفقد سليمان للطير ، وعدم وجود الهدد ، وتهديده إياه إلا أن يأتيه بحجة واضحة ، إخباره سليمان عن سبأ ، وأنها ملكوا عليهم امرأة ، وأنهم يعبدون الشمس

٣٠٦ الفرق بين عرش الله وعروش المخلوقين

٣٠٦ اختبار سليمان للهدد بإعطائه كتابا يلقيه على ملكة سبأ - الهدد يذهب بالكتاب - ملكة سبأ تبلغ اللا من قومها نص الكتاب - الملكة تستفتي اللا - اللا يشير عليها بالحرب ثم يسلم الأسي إليها في النهاية

صحيفة

٣٠٧ مبدأ الشورى قديم في الأمم - الذين يدعو إلى الشورى في الأمور العامة كالحرب والسلام  
وهي شأن من شئون المؤمنين

٣٠٨ الثريون عرفوا قيمة الشورى فأقاموها في بلادهم ومنعوها من مستمراهم  
٣٠٨ ملكة سبا تشير بمسألة سليمان - وتطرح قبل كل شيء أن ترسل إليه بهدية ، فان كان  
ملكاً مؤيداً من الله ردة الهدية ، وان كان من ملوك الدنيا قبلها - وذلك يدل على  
رجاحة عقلها

٣٠٩ سليمان يرفض الهدية ويقول ( فلأتاني الله خير مما آتاكم ) ويحق لكل من صلح أن  
يقول هذه الكلمة إذا عرضت عليه رشوة من مال أو وظيفة أو غيرها

٣١٠ الرشا التي يقدمها للمستعمرون ليملكوا بها البلاد - رشا العلماء ورجال الدين - أكل  
كثير من الأحرار والرهبان أموال الناس بالباطل

٣١١ سليمان يقول للبهنيين ( بل أتم بهديتكم فترحون )

٣١١ سليمان يعلن الحرب على ملكة سبا ، ويتوعد بمجنود عظيمة وإخراجهم من بلادهم آنذا

٣١١ سليمان يسأل الملأ أياكم يأتيني بكرسى ملكها فيجيبه عفريت من الجن ثم الذي عنده علم  
من الكتاب - فلما رآه عنده قال هذا من فضل ربي ليختبرني . أشكره أم أكفره

٣١٢ أمر سليمان بتكثير عرشها ليختبرها - إحابتها إجابة مرية - إخبارها عن نفسها أنها  
أوتيت العلم بقوة سليمان قبل معجزة نقل العرش ، وكانت خاضعة لأمر الله تعالى ، وصداها  
سليمان ما كانت تعبد من دون الله - اختبارها بدخول الصرح - اعترافها بظلم نفسها ،  
وإسلامها مع سليمان آخر الأمر

٣١٤ الجبال تأويها مع داود والطير - إلالة الحديد لداود ، وأمره أن يعمل دروعاً للحرب -  
أمره أن يحكم نسج الصروع ويجعلها بقدر

٣١٤ أمره بالعمل للأخرة بعد أمره بالعمل لدنياه - يريد الله للناس أن يكونوا صالحين في  
دينهم ودنياهم

٣١٥ سنة الله مع خلقه أن يعطي الدنيا من عمل لها أيا كانت نحلته ودينه ، ويعطي الآخرة من  
عمل لها صلاح الناس في دنياهم لا يغنيهم عن صلاحهم في دينهم - القانون لا يصمم الناس  
عن الجرائم - الفرق بين سلطان الدين على النفوس وسلطان القانون

٣١٦ تسخير الريح كان معجزة لسليمان ، وهي الآن من طريق العلم لبرينا الله أنها لم تكن من  
قسم الخيال كما فهم بعض الناس - يدل لذلك قوله آخر السورة (وقل الحمد لله سبىكم  
آياته) - تسخير الهواء بواسطة العلم في نقل الأخبار والأصوات والأشكال - هو مما يقرب  
الله به مسألة المعجزات حتى لا نتبعها

٣١٦ مسألة النحاس لسليمان



٣١٧ تسخير الحق لسليمان لتعمل له القصور الحصينة ، والتنانيل وحياض كبيرة يجمع فيها الماء ، وقدور ثابتة للطبخ

٣١٧ التنايل التي أبيضت لهاود لم تكن ذريعة لشرك كتنايل العظماء الذين ليس من شأنهم أن يعبدوا بهذه التنايل ، ولذلك أبيضت ، أما ما يعمل للصالحين فانه محرم لأنه ذريعة إلى المحرم لانفاق الرسل جميعهم على محاربة الشرك وذرائع الشرك - أمر آل داود بشكر الله الكلام على منسأة داود ، وأكل دابة الأرض لها - بحث علمي في دابة الأرض لصاحب [ الجواهر في تفسير القرآن ]

٣٢٢ أمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يذكر عبده داود صاحب القوة في الحقين ، الرجاء إلى الله تعالى ليتأسي به في الصبر والاحتمال ، والاعتقاد على الله تعالى - تسخير الجبال والطير وشدة ملكه ، وآتاه الحكمة وفضل الخطاب - كل أولئك لأنه صاحب قوة في دينه ورجاء إلى الله تعالى في شدته ورحمته

٣٢٣ امتنان الله على داود بأنه قوى ملكه : وهو نعمة عظمى ، وإنما يكون ذلك بتوفيقه لأسباب البقاء ، فجعل في دولته من رجال السياسة والعلم والفنون والصناعة ما تستطيع به أن تعيش قوية منيعة - أهم نبي في أسباب شدة الملك : الخلق الطيب في الأمة ، وتحري العدل والحق

٣٢٤ نبأ الخصمين ، وتسورها محراب داود - مادسه اليهود على القرآن من قصص مردول - المفسرون يأبون إلا أن يفسروا النجعة بالمرأة ، وفهم الآية لا يتوقف على ذلك - من لنا بابلغ العصرين أن القرآن يعبر عن المرأة بالنجعة

٣٢٥ تحطت المفسرين في فهم فتنة داود ، والآية ترشدنا إلى هذه الفتنة بأنه أفتى بظلم صاحب النعاج لأخيه قبل أن يسمع حجة الآخر - وهناك احتمال أنه حجب نفسه عن الناس في بعض أوقاته وكان ينبغي أن لا يفعل

٣٢٦ الخصم يطلب من داود أن يحكم بينهما بالحق - داود يعط بعد أن حكم بين الخصمين - الإيمان والعمل الصالح من شأنهما إبعاد أصحابهما عن الظلم

٣٢٧ الجنة لا تنال إلا بالإيمان والعمل الصالح - ما أكثر الذين قنعوا من الإيمان باسمه - استغفار داود ربه عند ما ظن أن الله يجتبره ويقتله - غفران الله له ما ظنه ذنباً - إخبار الله تعالى بمنزلة داود العظيمة عنده ، وحسن المرجع في الآخرة

٣٢٨ خلافة داود في الأرض - أمر الله له أن يحكم بين الناس بالحق ولا يتبع الهوى - وكذلك يجب على كل حاكم أن يتحرى الحق ، ويجتهد في الوصول إليه ، فإن أخطأ بعد ذلك فهو معذور

٣٢٩ الهوى يعنى صاحبه عن الحق ويحول بينه وبين الصواب - توعده الله من ضلوا بسبب الهوى أن يعذبهم العذاب الشديد في الآخرة

٣٣٠ الموى يتسلط على الرجل بسبب نسيانه يوم الحساب - من لنا بترية القضاة على حبّ العدالة والانصاف ، وإكبرهم للحقّ ، واحتقارهم للباطل - القضاة مختلفون في أهوائهم وشهواتهم ، فبعضهم للرئيس بالنساء ، والرئيس بالمال ، والرئيس بالخير والسيئات ، والرئيس بالقمار - وأخفّ أمراض قضائنا اليوم جنبهم أمام السلطة - من القضاة من يتخلص من القضية إذا رأى لأصحاب السلطة انجاءها معنا فيها - وهو يعلم أنه إذا تركها أسندت إلى رجل يسارع إلى ما تحبه السلطة والواجب عليه أن لا يدعها معرضة للفساد

٣٣١ وعلى الجلة فهمة القضاة شاقة ، وهي ابتلاء من الله تعالى أى ابتلاء

٣٣١ كتاب عمر في القضاء لأبي موسى الأشعري ، وهو كتاب تاريخي عظيم

٣٣٢ كتاب عمر لشرح القاضي

٣٣٢ نزيه الله تعالى أن يخلف الخلق عبثاً بدون أن يحاسبهم  
الجزاء في الآخرة أمر تقضى به الحكمة

٣٣٣ إنكار روية الله في الجزاء بين المفسدين والصالحين - الجزاء الحقّ مظهر من مظاهر عدل الله تعالى وحكمته - خطأ من يجوز على الله أن يدخل من أطاعه الدار ولو كان رسولا ، وأن يدخل من عصاه الجنة ولو مشركا - السبب في خطئهم أخذ العقائد من كتب الكلام لا من كتاب الله ، ونسيانهم صفى الحكمة والعدل

٣٣٤ القرآن الكريم نزل للتدبر والتذكرى ، ولم ينزل الله ليكون تماثم وتعاويز ، أو لنقرأ على القبور - مادام المسلمون لا يعرفون وظيفة القرآن ، ولا يتخذونه إماما لهم في عقائدهم وأخلاقهم وتشريعهم ، فلا تقوم لهم فاعلة - إنما ينتفع بالقرآن الذين حكموا عقولهم ، وانتفعوا بأسماعهم وأبصارهم - كلمة الحسن في القراء الذين يحفظون حروف القرآن ، ويضعون حدوده ، وهي تنطبق على قرأتنا اليوم

٣٣٥ حبة الله سليمان لداود - مدحه بقوله ( نعم العبد إنه أواب ) - استعراض سليمان للخيل الجياد كما هو الشأن في الملوك

٣٣٦ قول سليمان (إني أحييت حبّ الخير عن ذكر ربّي) أى حبا ناشئا عن ذكر الله ، فكلما ذكره ذكر فضله وإحسانه ، أو لأجل أن يذكر بهذه المحبة ربه - الضمير في ( توارث ) للخيل  
٣٣٦ فتة سليمان - روايات للمفسرين فيها : منها ما لا يتفق ومركز سليمان عليه السلام ، ومنها ما هو ضعيف من جهة سند - قد يصحّ الحديث من جهة سند ، ولكن لم يثبت أنه تفسير لآية ، وليس كلّ ما صحّ من الأحاديث يصحّ تفسيرا - كثير من المفسرين يقع في هذا الخطأ - أمثل ما قيل في فتة سليمان وإلقاء جسد على كرسيه

صحيفة

٣٣٨ دعوة سليمان ربه أن يغفر له ، ويهب له ملكا لا يبني لأحد من بعده ، وحكمة تقديم طلب الغفرة - إجابة الله دعوته لتسخر الرج له تجرى بأمره حيث قصد ، وتسخر الشياطين ، وفهم البناء والفنواص لاستخراج اللؤلؤ ، وآخرين من مردة الشياطين - امتنان الله عليه في قوله ( هذا عطاؤنا ) منزلته عند الله تعالى

### ٣٣٩ دعوة عيسى عليه السلام الى الله تعالى

٣٤٠ بشارة الله لمريم بميسى - وجاهته في الدنيا والآخرة - قربه من الله تعالى - تكليمه الناس في المهد وكهلا - استبعاد صميم أن يكون لها ولد بدون زوج - إخبار الله إياها أن الله أن يفعل ما يشاء ، وأنه إذا قضى أمرا لا يمكن أن يتعصى على قدرته - تعليم الله إياه الكتاب والحكمة ، وأنه سيجعله رسولا إلى بني إسرائيل

٣٤١ آيات عيسى لبني إسرائيل ، تصويره من الطين كهيئة الطير ونفخه فيه فيصير طيرا باذن الله ، إبراء الأكه والأبرص ، وإحياء الموتى باذن الله - إخبارهم بما يأكلون وما يقدرون في بيوتهم - عيسى مصدق للتوراة فهي شريعة له - أممه بني إسرائيل بتوحيد الله وتقواه

٣٤٢ عيسى يبعث الله فيحس الكفر من قومه - يحثه عن المخلصين الذين ينصرونه في الشدة والرخاء

٣٤٣ عيسى يقول لقومه (من أنصاري إلى الله) ليهز قلوبهم إلى الله هزاً - الحواريون يجيئونهم بقولهم (نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون) الخ

٣٤٤ مكر اليهود بعيسى - مكر الله بهم - توفية الله عيسى ورفعته إليه

٣٤٥ عيسى يدعو الناس إلى التوحيد وينهى عن الشرك - الأقاليم - التثليث عند النصارى عقيدة يخط فيها جهلاؤهم ويتحير علماؤهم

٣٤٥ كناية القرآن في قوله (كانا يأكلان الطعام)

٣٤٦ تذكير الله عيسى نعمته عليه وعلى والده

٣٤٨ الكلام على السائدة التي طلبها بنو إسرائيل

٣٤٩ وعد الله بها مشروط بشرط ، وأنهم بعد الشرط قالوا لا حاجة لنا فيها

٣٤٩ سؤال الله عيسى في الآخرة عن عبدوه وأمه يراد به تبكيت المشركين

٣٥٠ اتخاذ المسيح وأمه إلهين من دون الله

٣٥١ إجابة المسيح عن السؤال

٣٥٢ قصة حل صميم بالمسيح - استعاذتها من جبريل - تعطينها بأنه رسول الله - استبعادها أن يكون لها غلام ولم يمسسها بشر ولم تك بغيا - إخبارها بأن ذلك هو خبر الله ولا راد لما أراده ، لأنه حين عليه أن يخرق العادات ، وليكون آية للناس على قفرة الله وخضوع السن له

صحيفة

- ٣٥٥ قصة الولادة - تسخير الله لها الشراب والطعام - اتهام قومها لها
- ٣٥٦ كلام المسيح في المهد
- ٣٥٧ بيان أن ما قصه الله هو القصص الحق في عيسى
- ٣٥٨ (ولما ضرب ابن مريم مثلاً) بيان للراد منه
- ٣٥٩ الجدل وسيلة للحق لا غاية - تحذير القرآن من أن يصير خلقا للناس - عظة لرجال الحمامة الذين يجادلون عن المحرمين بالباطل
- ٣٦٠ عيسى عبد أنعم الله عليه وجعله قدوة صالحة لبنى إسرائيل
- ٣٦١ عيسى علم من أعلام الساعة ، وبيان وجه كونه علما
- ٣٦٢ محيى عيسى بالنبات والحكمة - دعوته إلى التوحيد
- ٣٦٣ الرهبانية لم تكن في شريعة المسيح بل هي مبتدعة - كلمة في البدع وسبب احتراع الناس لها - لا غنى للمسلم عن الوقوف عند ما ورد
- ٣٦٤ حسن النية لا يصلح عذرا للبتدع - منشأ ابتداء النصارى للرهبانية - الاسلام ينهى عن الرهبانية
- ٣٦٥ المستعمرون اليوم ليسوا من أنواع المسيح لأنه ليس في قلوبهم رافة ورجة
- ٣٦٧ تبشير عيسى بمحمد صلى الله عليه وسلم - رمى أنواع عيسى لمحمد بالسحر مع تبشير عيسى به
- ٣٦٧ خصوم محمد يحاولون القضاء على دعوته ، وهي محاولة فاشلة
- ٣٦٨ وعد الله باظهار الاسلام على الأديان جميعها - دعوة الله المؤمنين أن يكونوا أنصار الله كما كان الحواريون
- ٣٦٩ دعوة خاتم الرسل : محمد صلى الله عليه وسلم
- ٣٦٩ طريقتي في الكلام على دعوة محمد صلى الله عليه وسلم
- ٣٧٠ محمد صلى الله عليه وسلم : دعوته بمكة
- ٣٧٠ للمكي والمدني من القرآن
- ٣٧١ للمكي من القرآن يدور حول الإيمان بالله ، والإيمان بالبعث ، والتوحيد ، والعمل الصالح والدعوة إلى الأخلاق
- ٣٧١ وحدة الله تعالى - والآيات فيها
- ٣٧٨ الرسالة والجدل فيها
- ٣٧٩ الآيات في الرسالة

مصحف

- ٣٨٣ البعث والجزاء ، والآيات في ذلك  
 ٣٨٧ العمل الصالح - الآيات فيه  
 ٣٩٠ الأخلاق من أهم مقاصد القرآن  
 ٣٩١ الآيات في الأخلاق  
 ٣٩٨ محمد صلى الله عليه وسلم ووظيفته - الآيات في ذلك  
 ٤٠١ تربية الله له - الآيات في ذلك  
 ٤٠٥ محمد صلى الله عليه وسلم ، وتعت المشركين معه  
 ٤٠٦ الآيات في ذلك  
 ٤١١ محمد صلى الله عليه وسلم وتسليته الله له - الآيات في ذلك  
 ٤١٤ الصلاة فرضيتها وحكمتها  
 ٤١٥ الهجرة وأسبابها  
 ٤١٦ محمد صلى الله عليه وسلم : دعوته بالمدينة

- ٤١٦ محاجته لليهود والنصارى  
 ٤١٦ الآيات في ذلك  
 ٤١٩ القتال في الاسلام ، ولماذا شرع - (لا إكراه في الدين)  
 ٤٢٠ الآيات في القتال  
 ٤٢٢ التحريض على القتال ، وأساليب القرآن في التحريض  
 ٤٢٤ الآيات في التحريض  
 ٤٢٩ الإيمان ، والكفر ، والافتاق - سنة الله أن يكون الناس فرقا وأحزابا عند ظهور أى إصلاح في الأرض ، فريق ينصر الله أى علنا ، وفريق يحاربه علنا ، وفريق يوارب ، وهو المنافق  
 ٤٣٠ الآيات في المؤمنين ، وهى جدية بالتأمل  
 ٤٣٨ تعليق وعبرة في آيات المؤمنين - يجب على المؤمن أن يوازن بين الإيمان الذى ذكره الله تعالى في كتابه وبين إيمانه ، فقد يكون مخدوعا في نفسه - يجب على الانسان أن يسائل نفسه أهو من المؤمنين الذين وعدهم الله بالجنة ، أهو إيمان آخر - ثمن الجنة : الجود بالنفس والمال في سبيل الله تعالى  
 ٤٣٩ من عجب أمر علماءنا أن يسألوا الإيمان عن العمل والخلق الطيب الكريم ، فيرضون للمؤمن أن يكون خائر المزينة جبانا ، كما يرضون له أن يكون شحيح النفس مقفرا  
 ٤٣٩ الآيات في الكافرين

- ٤٤٥ تعليق على الآيات في الكافرين وعبرة - على المؤمنين أن يستعرض أوصاف الكافرين ويتدبر فيها ، فلعن كثيرا من صفاتهم عالق بنفسه وهو لا يدري - خصائص الكفار - [ الأولى ] تعطيلهم ما وهبهم الله من عقل وسمع وبصر حتى وصفهم الله بأنهم شر الدواب
- ٤٤٥ [ الثانية ] حقنهم على الرسل وأتباعهم ، وقد ترى ذلك الوصف في فريق من أهل العلم الذين شبوا على البدع والضلالات في عقائدهم وعبادتهم
- ٤٤٥ [ الثالثة ] فرارهم من المسعوة إلى الحق ومن الداعي إليه لأنه يعمل في نفوسهم زلزلة واضطرابا
- ٤٤٦ [ الرابعة ] دفاعهم عن الباطل ، وقتالهم في سبيل الشيطان ، وأكبر مظهر لذلك الدفاع : جدلهم في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير - ما أحوج أهل العلم إلى التخوف من ذلك الخلق - فقد أصيب كثير منهم بالجدل
- ٤٤٦ الآيات في المنافقين ، وهي جذيرة بالتدبر والعبرة
- ٤٥٤ كبريات العبر في المنافقين
- المنافقون شرّ مستطير على كل إصلاح في الأرض ، سواء أكان دينيا ، أم سياسيا أم اقتصاديا ، لذلك أطال القرآن الكريم في آياتهم
- ٤٥٤ لو تنبعت أى إصلاح في الأرض لرأيت الناس أقساما ثلاثة إزاء ذلك الإصلاح :
- [ قسم ] يرحب به ويناصره ظاهرا وباطنا . [ وقسم ] آخر يعاديه كذلك .
- [ وقسم ] ثالث يعاديه في الباطن ، ويناصره في الظاهر - نظرة واحدة في نهضات البلاد ترى كيف ينقسم الناس
- ٤٥٥ المنافق حيوان خبيث
- ٤٥٥ الفتن والشدائد وما فيها من حكم ومصالح - لولا الشدائد لبق جيش المصلح خليطا من المؤمنين والمنافق
- ٤٥٦ أخلاق المنافقين ، وهو بحث مستفيض لاغنى للمصلح عن تدبره وفقهه
- ٤٥٦ العلة في أولئك الأخلاق هي مرض قلوبهم ، واضطراب عقيدتهم
- ٤٥٦ [ الأولى ] من صفاتهم أنهم يعاملون الله والمؤمنين معاملة المخادع لا معاملة المخلص - من آثر ذلك أنهم يصلون بأجسامهم لا بقلوبهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى - ما أحوجنا إلى تدبر ذلك الخلق وعرضه على نفوسنا - لا يذكر الله إلا قليلا
- ٤٥٨ [ الثانية ] من صفاتهم : التبذبة ، والاضطراب بين حزب المؤمنين وحزب الكافرين ، وعلّة ذلك أن في قلوبهم مرضا ، ومن مرض قلبه مرض فيه كل شيء - الفرق بين مرض الكافر ومرض المنافق
- ٤٥٨ [ الثالثة ] من أخلاق المنافق أن يعجبك قوله ويسوؤك عمله ، قوله قول صوفية ، وعمله عمل الجبارة

- ٤٥٩ [ الرابع ] أنهم نفعيون لا يريدون إلا مصلحتهم الدنيوية ، وغايتهم المادية - ومن أجلها يتخادعون ويولوبون - يحشون إذا ساروا المصلح أن تكون عاقبته الفشل ، وإذا عادوه علنا قد تكون له العاقبة - لا يريدون الانضمام لحزب يتحملون غنمه وغممه - بل مع الأحزاب كلها في التزم لاني الغرم - فضيحة القرآن لهم
- ٤٥٩ [ الخامس ] يحاول أن يرضى كل الأحزاب ، ويرجع في كل زمن - للنافقون يفسدون على الناس أمر الدنيا كما أفسدوا عليهم أمر الآخرة - النافق أكبر خاذل للمصلح السياسي ، وناصر للعاصب
- ٤٦٠ [ السادس ] جنهم وخورهم ، فلا نجد لهم شجاعة أديبة ، وآية ذلك تخلفهم عن القتال ، وثبطهم غيرهم عنه
- ٤٦٠ [ السابع ] من أوصافهم : أنهم لم يرضوا الله ورسوله حكما فيما يعرض لهم من خلاف ، لحكومتهم غير حكومة المؤمنين ، التي هي كتاب الله المصوم ، وسنة رسوله الصحيحة - علة إعراضهم ما في قلوبهم من مرض
- ٤٦١ [ الثامن ] من صفاتهم انتصارهم بأعداء المؤمنين ، وابتغالهم العزة منهم
- ٤٦٢ [ التاسع ] العبرة في ذلك أن فريقا من المؤمنين بوالون الناصبين للبلاد لا يستعينوا بهم على تثبيت حق أو إبطال باطل ، بل ليكونوا عظماء أعزاء - وقد تجرّاه الصداقة إلى أن يصور أمته بصورة حقيرة ، بل أن يصبح حربا على أمته عونا للعاصب - العاصب مخلص لأتمته ووطنه قبل كل شيء - العاصب لا يعطى شيئا إلا حيث أخذ الثمن غالبا
- ٤٦٣ [ العاشر ] آثار الناصبين في بلاد المسلمين : تعطيل حدود الله - انتهاك الحرمات - إباحة الخمر - إباحة الزنا العلني - حفظ العاصب من ذلك شغل الناس بشهواتهم عنهم - جيوش الفاسد والمخدرات شر من جيوش الاحتلال
- ٤٦٣ [ الحادي عشر ] قد يرالهم بعض الناس ليأخذ منهم لا ليطلبهم ، ولكنه مخدوع في ذلك ، فهم يساومون في كل شيء ، ويتجرون حتى على حساب الصداقة الشخصية لمصلحة شعبهم وأمتهم
- ٤٦٣ [ الثاني عشر ] من صفاتهم : إكثارهم من الحلف ، لأنهم لا يثقون بأنفسهم ، والشأن فيمن لا يثق بنفسه أن يشعر بفقد ثقة الناس فيه - ذلك الخلق ينكشف عن خلتين :
- [ أولهما ] الكذب . [ الثاني ] محاولة تغطية الكذب والتليس على الناس
- ٤٦٤ [ الثالث عشر ] من أخلاقهم : كذبهم وامتناعهم لأنفسهم وكرامتهم
- ٤٦٥ [ الرابع عشر ] كذب المنافقين خلق فيهم ولعلك يكذبون حتى على الكافرين
- ٤٦٥ [ الخامس عشر ] من أخلاقهم : تقصصهم العهد وإخلافهم الوعد ، وهو من فروع الكذب إلا أنه نوع خاص ، وهو من أضر أنواع الكذب وأفكها بمصالح الناس
- ٤٦٦ [ السادس عشر ] رجال السياسة ودعة الاستعمار يعدون ويخلفون ، ويتعاهدون وينكثون - وإن صدقوا في أصل العهد كذبوا في تطبيقه وتفسيره

صفحة

- ٤٦٦ لو عرف الناقضون أن ما يحضرون بالقض فوق ما يكسبون لآثروا الصدق على الكذب
- ٤٦٦ [ الحادى عشر ] من أخلاقهم أن بعضهم من بعض ، فهم مقشبهون فى الباطل - يأثرون بالسكر ، وينهون عن العروف - ويقبضون أيديهم
- ٤٦٧ للناقضون يوصى بعضهم بعضا ( لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفقوا ) وهو طريق لاذلال للمؤمنين
- ٤٦٧ ذكرت هذه الآية عند ما أنشأ بعض الحكام الظالمين مصرفا ماليا للتسليف وكان يعطى منه بسخاء لمن يوالى فى سياسته ، ويحرم منه خصومه السياسيين - صدق الله وصدق كتابه الكريم الذى لا يزال جديدا تفسره الحوادث
- ٤٦٧ ( الناقضون والمنقضات بعضهم من بعض ) وان تراخى الزمان وبعدت المسافة ، شابنا اليوم بأمر بالسكر ، وينهى عن العروف
- ٤٦٨ [ الثانى عشر ] من أخلاقهم لينهم فى القول ودهانهم فى الحديث ، لا يستطيع الواحد منهم أن يواجه الحقائق ، ويشهد بما يعتقد ، لأن همه إرضاء الناس جميعهم لا إرضاء الحق - ما أضر ذلك الخلق على العلماء - كثيرا ما تسمع منهم أعذارا وتعلل لذلك الفاق ولكنها أعذار خاطئة
- ٤٦٩ [ الثالث عشر ] ما أشار له القرآن فى قوله ( وإذا رأيتم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسدة ) والمراد أنهم يهتمون بظاهرهم ولا يحفلون بباطنهم
- ٤٦٩ التكنة فى تشبيه القرآن لهم بالخشب المسدة ( يحسبون كل صيحة عليهم ) لأسهم يتوهمون عند كل حدث أن سياستهم قد كشفت
- ٤٧٠ الله تعالى يقول فيهم ( هم العدو فاحذرهم ) فيحصر العداوة فيهم كأن الكافر ليس شيئا فى جانبهم ، لأنه ظاهر فى عداوته ، أما النافق فهو السم فى صورة السل ، والعدو فى ثوب الصديق ، وهم العدو فى السياسة ، فى الاقتصاد ، فى الصناعة ، فى كل إصلاح على وجه الأرض ، فاحذرهم - دعاء الله عليهم بقوله ( قاتلهم الله )

## أشهر الغزوات

٤٧١

### غزوة بدر الكبرى

٤٧١ الآيات فيها

٤٧٣ تعليق وعبرة

٤٧٣ آية الله فى فئة قتال فى سبيله وأخرى قتال فى سبيل الشيطان

للمؤمنون يرون الكافرين مثلهم مع أنهم كانوا ثلاثة أمثالهم - للمؤمنون يقللهم الله فى أعين الكافرين - حكمة ذلك كله



- ٤٧٤ تأييد الله بنصره من يقاتل في سبيله ، وخذلانه من يقاتل في سبيل الطاغوت
- ٤٧٤ المؤمنون في بدر يريدون الفائدة العاجلة وسفاسف الأمور ، والله تعالى يريد لهم معالي الأمور ، ونصرة الحق ، وعلو الكلمة ، وشتان ما بين الرادين
- ٤٧٤ استغاثة المؤمنين ربهم واستجابته إليهم - إمدادهم بألف من الملائكة ليشرهم بالنصر ، ويطهروا قلوبهم ، فيلقون أعداءهم ثابتن
- ٤٧٥ (وما النصر إلا من عند الله) لأنه المسخر لأسبابه والمهادي إليها ويتجلى ذلك في تسخيره الأسباب المعنوية التي لا كسب للبشر فيها كالملائكة
- ٤٧٥ نعم الله على المؤمنين في غزوة بدر من تضيئهم النعاس تأمينا لهم من الخوف ، وإزالة ما من السوء عليهم ليظهرهم به ، ويبعد عنهم وسوسة الشيطان ، ويربط على قلوبهم من الزلزال ، وليثبت به الأقدام من أن تسوخ في الأرض
- ٤٧٥ وحى الله للملائكة أنه معهم بالمعونة ، وأمرهم أن يثبتوا للمؤمنين
- ٤٧٥ آية الله في إلقائه الرعب في قلوب الكافرين عند حربهم للمؤمنين ، عقوبة للكافرين على شركهم ، وإهالمهم لعقولهم ومواهبهم
- ٤٧٥ الفى لا يقاتل عن عقيدة ضعيف في قتاله من الناحية المعنوية فهزيمته متمشية مع السنن
- ٤٧٦ إهدار الدن لسماء الشاقيين لله ورسوله ، وإرشاد المؤمنين إلى مقاتلهم
- ٤٧٦ تحذير القرآن الكريم للمؤمنين من الفرار عند لقاء الكفار
- ٤٧٦ (فلم تقتلهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) وبيان للرد مها
- ٤٧٧ البلاء الحسن للمؤمنين - سنة الله في إضافه كيد الكافرين ومكرهم - خطاب الله أعداء الرسول بقوله :
- (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) الخ بيانه لهم أن فتهم لن تقضى عنهم شيئا من الفناء وان كثرت
- ٤٧٧ الغنيمة ومصارفها
- ٤٧٨ إرشاد الله الى أسباب الظفر ووسائل النصر - الثبات - ذكر الله ليقوى قلب المحارب ومن ذكره ذكر سفته في النصر والخذلان - طاعة الله ورسوله - عدم التنازع - الصبر على مشاق القتال
- ٤٧٩ غزوة أحد

إزال الرسول صلى الله عليه وسلم للمؤمنين في معادهم للقتال - هم طائفتين منهم بالنفل ، تكبر الله المؤمنين بنصرهم ببدر وهم أذلة - وعد الله للمؤمنين أن يقدم الله بثلاثة آلاف

من الملائكة - وعدم ان صبروا واتقوا أن يقدم بخمسة آلاف من الملائكة - هذه العدة من الله بشرى للمؤمنين - حكمة ذلك قضاء الله على طائفة من الكفار - (ليس لك من الأمر شيء)

٤٨٣ نهى الله المؤمنين عن الوهن والحزن لأنهم أعلى من الكفار نفسا ودينا وخلقا  
٤٨٣ الله تعالى يرى المؤمنين أن شدائد الحرب مشتركة بينهم وبين الكفار ، وهي آتية لها قيمتها  
٤٨٤ الأيام دول فيوم لك ويوم عليك - الشدائد ابتلاء من الله يبين بها المؤمن من المنافق ،  
وفيها تمحيص لقلوب المؤمنين وتطهيرها من كل ضعف

٤٨٤ حادث إشاعة موت الرسول يوم أحد - بيان أن الموت سنة لا يمكن تخلفها في خلق الله  
٤٨٤ المصائب الشخصية لا تدل على أن من تصيبه على حق أو باطل - لا نتمتع في معرفة الحق والخير على وجود العلم بحيث نتركهما بعد موته - الآية مقدمة وإرهاص بين يدي  
موت رسول الله صلى الله عليه وسلم

٤٨٤ تحريض المؤمنين على القتال ، وبيان أن كل نفس لا تموت إلا بعيشة الله وقدره والجهاد لا يضيع شيئا من الأجل ، والتخلي عنه لا يعد لصاحبها في الحياة  
٤٨٤ كثير من الذين قاتل معهم جوع كثيرة ، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا - عاقبة أمرهم إثابة الله لهم في الدنيا بالفتنة والقلب ، ووعدهم حسن نواب الآخرة

٤٨٥ إنجاز الله وعدم بالصر ، وقتلهم الكفار قتلا ذريعا في الوقت الذي أطاعوا فيه . وصية الرسول لهم - خذلانهم بعد العسل والخروج على وصية رسولهم الأعظم وقائدهم الأكبر ، وتطلعهم لمرض هذه الحياة - حكمة ذلك ابتلاء الله لهم - عفو الله عنهم - إثابتهم غم الهزيمة بسبب غم المخالفة - بيان أن الرجل إذا تسبب في الشر لا يلوم إلا نفسه

٤٨٥ إنزال الناس عليهم ليصرفهم به عن التمس - قول للمنافقين في وقت الشدة وأنفهم على القتال - بيان أن الموت لكل أحد موقت بأجله لا يتخطاه - وأن هذه الشدائد لحكم ومصالح

٤٨٦ بيان عاقبة من فر يوم أحد ، وأن الفرار باغواء الشيطان له - تحذير المؤمنين أن يقولوا قالة الكفار - ( لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ) وكثير من جهالة المؤمنين يقولون في أبنائهم مثل ذلك - ينكر الله عليهم عدم رضاهم أن يدال لهم مرة وعليهم مرة أخرى بيان أنهم الذين تسببوا في الهزيمة بتطلعهم للدنيا

٤٨٦ حياة الذين قتلوا في سبيل الله - واستشارهم بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، صفات المؤمنين استجابتهم لله وللرسول - شجاعتهم - عودهم بنعمة من الله وفضل - التثبيط عن القتال من عمل الشيطان يخوف به حربه - النهي عن الخوف من حزب الباطل وتمحيص الخوف من الله تعالى

## غزوة الأحزاب

٤٨٧

٤٨٩ تعليق وعبرة

- ٤٨٩ تذكير الله بنعمته على المؤمنين إذ أرسل ريثما وجنودا خفية على أعدائهم الشدة التي كان فيها المؤمنون في ذلك الوقت - اضطراب الأبصار - وبلوغ القلوب الحناجر ظنهم بالله الظنون - ابتلاء المؤمنين ، زلزالهم الشديد
- ٤٩٠ الشأن في المنافقين أن ينطقوا بكلمات الكفر عند الشدائد ، تثيبتهم عن القتال - استئذان فرق منهم النبي - اعتذارهم بأن يوتهم غير محصنة - كذبهم في ذلك
- ٤٩٠ تهديد الله لهم بأنه يعلم للشيطان عن القتال منهم - المنافق شحيح بنفسه أن يقاتل ، وشحيح بشيره فيقبطه - سبب ذلك أنهم لم يؤمنوا - سؤال المنافقين عن أبناء المؤمنين - المنافقون لا يقاتلون إلا مضطرين
- ٤٩٠ قول المؤمنين عند رؤية الأحزاب - شجاعتهم

## الزكاة

٤٩١

- ٤٩١ شرح وتعليق - الأحوال في الدين تكون لقوم أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة بعد توبتهم من الشرك ، العبرة لقوم يمنعون الزكاة ظانين أن صلاتهم تنجيهم من عذاب الله - من السهل على الرجل أن يقوم بأعمال الصلاة ، وليس من السهل أن يبدل نصيبا من ماله للفقراء ومصالح المسلمين - لذلك تجد المصلين والصائمين أكثر من المشركين
- ٤٩٢ الصلاة التي لا تزهّد صاحبها في المال ، ولا ترفقه حقّ الفقير والمساكين : هي صلاة الغافلين الساهين للرّائين
- ٤٩٢ الزكاة طهرة لصاحبها من مرض الشحّ ، وهو داء وبيل - الشحّ معطل لمصالح الأمة الحيوية - من آثار الشحّ امتلاء دور الحكومة بقضايا التورث والنزاع على الحقوق المدنية
- ٤٩٣ الزكاة تستلّ من نفوس الفقراء حقهم على الأغنياء - شرور الشيوعية المقمّونة سببها بخل أرباب الأموال بالزكاة
- ٤٩٣ الشيوعية قضاء على تنازع القاء والتنافس في وسائل الحياة (نحن قسمنا بينهم معيشتهم) الخ
- ٤٩٣ مصارف الزكاة : - الفقراء والمساكين - العمال على الزكاة كالجباة والكتبة - المؤلفات قلوبهم - فكّ الرقاب وإقازها من الرقّ - الشريعة تعمل على تضيق دائرة الرقّ
- ٤٩٤ الفارمون في غير معصية يسلطون من الزكاة ، كالذي استدان لإنشاء مصنع وغرم فيه - في سبيل الله - ويدخل فيه الجهاد ، وطلب العلم ، وتزقية الصناعات والمعارف وغير ذلك من كلّ ما يرضى الله كاللشقيات والجميعات الخيرية
- ٤٩٤ ابن السبيل من مصارف بيت مال المسلمين ، وهو السافر يعطى ليستعين على سفره ، وفيه تسجيع الشريعة على الأسفار لأهميتها - الترييون عرفوا قيمة الأسفار فغنوا بها - ابن السبيل يشمل اللقيط كما يشمل السافر

## الصيام

٤٩٥

- ٤٩٦ شرح وتعليق - الصوم علاج ضرورى لذلك شرعه لمن قبلنا - حكمة الصوم إعدادة للتقوى كبقية العبادات - لماذا كان الصوم معداً للتقوى
- ٤٩٧ تقوية الصوم لارادة السلم - تفاوت الناس فى قوة الارادة - مصيبة المسلمين بضعف إرادتهم - التيسير فى الصوم
- ٤٩٧ الأعداد المبيحة للقطر - المرض - السفر - عدم إطفاء الصوم كأصحاب الأعمال الشاقة وكالمريض بالمعدة والشيوخ والمجانين
- ٤٩٩ ( فمن شهد منكم الشهر فليصمه ) من دلائل صدق الرسول وأن كتابه من عند الله تعالى
- ٤٩٩ إباحة الافضاء إلى النساء ليلا للمصائم - الحيط الأبيض والأسود وخطأ الناس فى فهمه

## الحج

٥٠٠

- ٥٠١ وحو به على المستطيع - تحديد الاستطاعة يعرفه كل أحد من نفسه
- ٥٠٢ فى إقامة الحج ومشروعيته قيام أمر الناس فى دينهم وديانهم - أعداء المسلمين يضعون العقاب فى سبيل الحج وتعارف المسلمين
- ٥٠٣ اختلاف المسلمين فى اللغات يقلل من فائدة الحج الاجتماعية - الواجب على المسلمين أن يكون لهم لغة قومية هى لغة القرآن - استفادة المسلمين من الحج فى اقتصادهم وسياساتهم
- اجتماع المسلمين فى الحج ينجي فيهم ملكة الشعور بالوحدة

## أصول المعاملات

٥٠٤

- حل البيع لأنه لاغنى للناس عنه - حرمة الربا لأنه لا يتفق والرجة - أكل أموال الناس بالباطل طريق للقتل
- ٥٠٦ الرشوة وتحريم الدين لها
- ٥٠٦ إرشاد الله لما إلى الاستيثاق من الدين بكتابته على وجه يحفظه من الضياع
- ٥٠٧ العهود والوائق وعناية الدين بهما
- ٥٠٩ القيم والعناية به - اذا أهملت يتأذى كانت مرضا فى جسم الأمة يفسد عليها كل إصلاح
- ٥١٠ الأوصياء على يتامى والذين جعلوا أنفسهم أوصياء على المودل سواء فى الظلم واستغلال الضعف
- ٥١٠ نظام البيوت
- ٥١١ الزواج - تعدد الزوجات والأسباب التى تبيحه
- ٥١٣ الطلاق

- ٥١٣ فى مشروعية الطلاق تيسير على الزوجين
- ٥١٣ الله تعالى حاط عقد الزوجية بما يحفظه من الفوضى

صحيفة

٥١٤ التيسير على المطلقة

٥١٥ نظام التوريث

٥١٧ التذكير بوصية الله في الموارث - كيف يتخلص الناس من الوصية آباء وأبناء

٥١٨ بخل الناس بميراث البنت وما يجرّ إليه البخل

٥١٩ إعطاء الولد مثل حظّ الأنثيين موافق للحكمة - اذا كان هناك محابة فهي محابة الله للبنت

٥١٩ الحكومة في الاسلام

٥١٩ الشورى في الأمور العامة شأن المؤمنين - نوع الشورى متروك للزمن

٥٢٠ أسرى الحرب في الاسلام

٥٢٠ اختلاف الصحابة فيها للمصلحة

٥٢١ غنائم الحرب في الاسلام

٥٢٢ العقوبات في الاسلام

٥٢٣ القصاص

٥٢٤ وجوب الدية في القتل الخطأ وحكمة ذلك

٥٢٥ حكمة القصاص

٥٢٥ حد قطاع الطريق

٥٢٦ حد السارق : مقتضى الحكمة

٥٢٧ حد الزاني

٥٢٨ حد القاذف

٥٢٩ الحكمة في إقامة الحد على من يقذف الحصنة النافذة

٥٣٠ فهرس إجمالى لأهم ما في الكتاب

٥٣٢ مراجع الكتب

## مقدمة الكتاب

والتعريف به

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا ثُبُتَ بِهِ فُؤَادُكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ  
الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ «١٢٠» مرد

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ  
كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ «٣» يوسف

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ  
تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ  
يُؤْمِنُونَ «١١١» يوسف

اقتضت حكمة الله تعالى أن يبعث في الناس رسلا مبشرين ومنذرين ، وأن  
يكون نبينا محمد صلى الله عليه وسلم خاتما لأولئك الرسل ، ويسلم الله أن الدعوة إلى  
الاصلاح محفوفة بالمخاطر ، محوطة بالأشواك ، ومن شأن هذه المخاطر أن تكون  
ذريعة لتشيط همم الداعى ، وتسرب اليأس إلى نفسه - فكان من الخير أن يحال بين  
اليأس وبين قلب رسوله ، وأن يريه أن هذه العقبات التى تعترض الداعى ، وتلك  
الشدائد التى يراها المصلح ، لا غنى له عنها ، وأنها سنة فيمن سبقه من الرسل ،

« وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبْدَلٍ لِكَلِمَةٍ اللَّهُ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّي الْمُرْسَلِينَ » (١٧٤) .

وكيف يتنجو المصلح من هذه الشدائد ، ومهمته أن يحاول بين النفوس وشهواتها ، والقلوب وأهوائها ، يحاول أن يرسم لها طريقاً غير الطريق ، يباعد بينها وبين ما ألفت من الشهوات ، ويقارب بينها وبين ما تركت من الفضائل ، فهو مربٍ يريد أن يخلق الناس خلقاً جديداً ، ومهذب يحاول أن ينشئهم نشأة صالحة ، يؤلف بين غرائزهم المختلفة ، ويوفق بين أهوائهم المتفاوتة .

وكثيراً ما تستحكم الشهوات ، ويمكن الفساد من الأمة إلى حد كبير ، كالأمة العربية في جاهليتها ، فيحتاج المصلح إلى شيء كثير من السلوى ، ونماذج غير قليلة من سيرة المصلحين

فلا عجب أن تكون سيرة الرسل الماضين جزءاً من دعوة خاتمهم ، وأن تكون دعوتهم لأقوامهم مثلاً صالحة لدعوته لقومه ، لا عجب أن تكون أبناء الرسل تبييناً لقلبه ، وتطميناً لنفسه

أبان الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم في سيرة الرسل الماضين أن العاقبة للتقوى ، وأن جند الحق هو الغالب : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ » (١٧١) « إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ » (١٧٢) « وَإِنْ جُنَدُنَا لَهُمُ الْقَالِبُونَ » (١٧٣) (١) كما أراه أن حزب الباطل لا يصلح الله عمله ، وأن الدائرة تكون عليه : « فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » (٤٠) (٢) « وَأَفْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنُجَاءَ هُمْ نَذِيرٌ لِيَكُونُوا مِنْ أَهْدَى الْأُتَمِّ »

فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا تُفُورًا «٤٢» أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكُرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا «٤٣» (١)

«أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عِاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءِثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ «٨٢» فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَجُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَءَاقَ بِهِنَّ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ «٨٣» فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ «٨٤» فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِعْنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ «٨٥» (٢)

هذه سنن الله تعالى لا تختلف ، ولا تتخلف في المصلحين والفسدين ، يسوقها الله في كتابه الكريم لتكون تربية لنا ، وعبرة لأصحاب العقول منا ، ويكررها في ذلك الكتاب بأساليب مختلفة ، فرة يحدثنا القرآن عنها بأسلوب طويل ، ومرة بأسلوب وسط ، وأحياناً بطريق موجز ، علنا نفقه سرها ، والغاية منها ، ومن تكرارها ، ونعلم أن القرآن كتاب هداية فوق أنه كتاب علم ، فهو يرينا ما فعله بالصلحين جزاء لهم على استقامتهم ، وما أوقعه بالفسدين عقوبة لهم على طغيانهم ، ويرينا أن هذه سنته ، وأن الشعوب نسبتها إليه سواء ، يمكن لها في الأرض ، ويندق عليها من النعم ، إذا هي وقفت عند ما رسم لها من حدود ، وما شرع لها من أحكام ، وبريها العذاب ألواناً ، ويسلط عليها من يسلبها عزها وسلطانها ، إذا هي تنكبت طرق الهدى ، وداسست قوانين الفطرة : « وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ «٩٦» (٣)



تلك هي الغاية من ذكر سيرة الرسل في القرآن الكريم ، وتكرار القصة في عدة سور بأساليب مختلفة ، وهي تمكين هذه السنن في النفس ، وتثبيتها في القلب ، حتى لا يجد اليأس إلى قلب المصلح سيلا ، فتقوى فيه داعية الإصلاح ، وحتى يعلم الناس أن مصيرهم مصير من سبقهم من الظالمين ، إذا هم أعتوا الرسل ، وخرجوا على تعاليمهم وشرائعهم .

وكثيرا ما يسلى القرآن الكريم نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم بما كان لسلفه من الرسل .

ويريه الله أنه لا يقابل من أعدائه إلا بثل ما قوبل به الرسل : « مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ » (٤٣) . وإن تلقى الرسول بالأذى شنشنة المفسدين ، تناقلوها جيلا عن جيل ، كأنهم تواصلوا بها على تباعد أزمتهم ، واختلاف أمكنتهم : « كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ » (٥٢) « اتَّوَصَوْا بِهِ بَلْ كُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ » (٥٣) .

وكثيرا ما يأمره القرآن الكريم أن يمتصم بالصبر ، ويتذرع بالرضى ، ويريه أن وعد الله بنصر المصلحين حق لا مرية فيه : « فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ » (٦٠) . وإن ذلك شأن أصحاب القوة من الرسل : « فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (٣٥) .

وكما يربي الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بهذه السيرة ، يربي العلماء الداعين إلى الله تعالى ، ويريهم أن لا حق لهم في أن يسأموا من الدعوة لأن الناس

تلقاهم بما يكرهون ، وتقابلهم بما لا يشتهون ، ولا سيما في عصر تفتشت فيه المنكرات ، وفسدت العقائد ، وذاعت البدع حتى طغت على السنن ، يرى الله أولئك الدعاة أن من واجبه أن يفتنوا لهذه السنن ، ويمدوا أنهم ورثة الأنبياء في الدعوة ، وقد نالهم من جرائها ما نالهم مما اضطرم إلى الهجرة من بلادهم ، وفرارهم بدينهم وعقيدتهم ، وأن عليهم أن يقوموا بالدعوة إلى الله تعالى متخليين بأخلاقهم ، متأدين بأدابهم : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » (١٩٩) وَإِنَّمَا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طُغْيَانٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) (١) يُطْلَعُنَا اللهُ بِسيرة الرسل مع أقوامهم على تاريخ الإصلاح في الأرض ، ويرينا أن ذلك التاريخ حافل بالمعظات والمبر ، وأنه لا غنى لمصلح أيا كان إصلاحه عن فهم ذلك التاريخ ، والوقوف على ما كان يمترض الإصلاح من عراقيل . وما يوضع في سبيله من عقبات ، ومن أى الطبقات كانت هذه العقبات ؟ وما الذى كان يحملهم على وضعها في طريق المصلح ؟ ولماذا لم تكن طبيعة الناس جميعهم واحدة حيال الدعوة إلى الإصلاح ؟

إن المصلح إذا قرأ دعوة الرسل إلى أقوامهم ، وما لاقاه كل رسول من جراء هذه الدعوة ، وقف على الشئ الكثير من أخلاق البشر في بداوتهم وتحضرهم . وعرف ما لا يقف عند حد من طباعهم وعاداتهم ، وبذلك يستطيع أن يسير في إصلاحه على هدى ، ويمد له من المدد والافوى ما ينبغي أن يعد ، لأن نفوس المفسدين في كل زمان متقاربة ، ووسائلهم في محاربة الحق متشابهة . واضرب لهم مثلا ما قاله الملائكة المستكبرين قوم نوح له عند دعوته لهم إلى الله تعالى ، ووازن بينه ، وبين ما يقوله غلاة المستعمرين اليوم للزعماء السياسيين ، تجد قوم نوح

يقولون له : « مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّىَ الرَّأْيِ » (٢٧) . والأراذل : هم فقراء القوم ، وأصحاب المهن الحقيرة فيهم ، كالعمال في وقتنا هذا ، وما الفرق بين هذه الكلمة ، وبين ما يقال للزعماء اليوم ، في سبيل النض من زعامتهم ، والتهوين لأمرهم ؟ لأن حزبه من الفقراء ، وأصحاب الجلابيب الزرقاء ، وليسوا من أصحاب العقول الراجحة ، والمصالح الحقيقية . لو عرف الناس ذلك لعلوا أن أساليب المفسدين هي أساليبهم في كل زمان ، وأن نفوسهم هي هي نفوسهم ، فإن التاريخ دائماً يعيد نفسه .

لو عرف المصلح السياسى أن تحزيب الأمة ، وجعلها شيعاً تتقاتل في سبيل حزبيتها ، وتنسى بذلك التحزب مصالحها ومراققتها - هوسنة عدو الله فرعون ، القدوة السيئة في الاستبداد ، والمثل الواضح في الطغيان والظلم - لو عرف الناس ذلك لعلوا أن هذه الوسيلة هي التي يلجأ إليها الغاصب في تثبيت قدمه ، وتمكين سياسته ، يخلق في الأمة الأحزاب ، ويغذى فيها معنى الحزبية بأساليبه الشيطانية ، ثم يطلب منها بعد ذلك أن تتحد إذا هي طلبت إليه مصلحة من مصالحها ، فيعلقها على محال ، إذ الحزبية لا يمكن أن تزول ما دامت الأمة الغاصبة بأسطة سلطانها ، فانها على حساب الحزبية تعيش وبواسطتها تصل إلى ما تريد .

فرعون قد فتح هذا الباب للغاصيين ، وسن لهم هذه السنة ، بل هو عودهم الفقرى ، وربهم الأعلى ، على عليهم من وجيه الشيطانى ما يستيحيون به ارهاق الناس وإذلالهم : « إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّخُّ آبَاءَهُمْ وَيَسْتَعْفِفُ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ » (٤) « ٢٨ » . ومثل ثالث نضريه للمصلح السياسى : هو أن طريق النفى للزعماء كان سنة لأقوام الرسل معهم ، وكان الغاصب تلقاه عنهم ، فهذا ملا شيعب المستكبر يقول له : « لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَمُودُنَّ »

فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَئِكَ كَفَرْنَا مِنْهُمْ «٨٨» (١) . وهؤلاء قوم لوط يتآمرون على إخراجهم وحزبه ، فيقول الله عنهم : « أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ » «٨٢» (٢) . وحسبك أن الله تعالى يحكى عن الكفار من أقوام الرسل جميعهم : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ اأُتَخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعْمُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا » «١٣» (٣) . أليس ذلك هو الذى يقوله الناصب للزعماء ؟ وهل للناصبين ملة سوى أن تبقى الناس لهم عبيدا مسخرين ، ويكذبون فى بلادهم وهم بخيراتهما يتمتعون ، اذا ظلموهم شكروهم على الظلم ، واذا استعبدوهم حمدوهم على طريقة الحكم ، هل للناصب مطلب من الزعماء فوق أن لا ترتفع رأس للمطالبة بحق ؟ ولا يصبح انسان فى وجه الظلم والاستبداد .

وكذلك لو رأى المصلح السياسى ماصنعه قوم ابراهيم معه ، وقد أقام عليهم الحجة ، وسد عليهم مسالك القول ، لورأى كيف يلجأون إلى الحديد والنار بعد أن أعوزتهم القوة المعنوية ، يحفرون له خندقا مملوا بالنار لإلقائه فيه ليستريحوا منه ومن دعوته ، ولورأى ذلك المصلح لعلم أنها سنة الله فى الباطلين ، لاغنى لهم عن البطش متى عجزوا عن الحجة .

هذا قليل من كثير مما تضمنته سيرة الرسل من عبر ، وما اشتملت عليه من آيات .

لذلك رأيت أن أضع كتابى هذا فى سيرة الرسل معولا على القرآن الكريم ،

وسميته :

## دعوة الرسل إلى الله تعالى

ولقد كنت صاحب فكرة دراسة هذا القسم من التاريخ فى قسم الوعظ

والارشاد بالأزهر أيام المشيخة الأولى لأستاذنا المصلح « الشيخ المراغى » ، ومن حسن

المصادفة أنى لم أضع مقدمة الكتاب إلا فى عهد مشيخته الثانية التى أرجو له فيها

التوفيق والسداد ، وأتمنى له ما يتمناه كل مسلم غيور .

أما الرسل الذين عرضت لسيرتهم فهم فقط الذين لهم دعوة ذات شأن مع أقوامهم في القرآن الكريم ، لأن الغرض الاعتبار بسيرتهم ، وإنما يكمل ذلك في رسول له دعوة طال فيها مع قومه الأخذ والرد ، وفيها من العظمة وعلو الشأن ما ينفع المصلح ، أو من الآيات الخلقية والمبر ما يقوى الإرادة ، وينمي داعية الخير ، فبني الله يوسف عرضت لسيرته في الكتاب على الرغم من أن دعوته في القرآن لا تتجاوز كلمات لصاحبيه في السجن ، لأن قصته مع الاخوة ، ومع امرأة العزيز حافلة بالمعاني والمبر .

وقد رأيت أن يكون شرحي لكتاب « دعوة الرسل » متصلاً بالحياة الحاضرة ، وعلى أسلوب جديد ، أصل فيه الماضي من التاريخ بحاضره جهد الطاقة وأقارب بين المفسدين في عهودهم الأولى ، والمفسدين في عهدنا الحاضر ، وإن كان الفساد متفاوتاً ، فأولئك يفسدون على الناس أمر الدين ، وهؤلاء يفسدون على الناس أمر الدنيا .

وقد كانت عُدَّتِي في ذلك الكتاب بمد المراجع التي ينتها في آخره هي التدبر العميق فيما تضمنه القرآن من علوم وعبر ، والامعان فيما عليه الناس من أخلاق وطباع ، وما تملحه الحوادث الحاضرة من عسف وجور ، ونفاق ورياء ، وفي اعتقادي أن أصدق تفسير هو الذي يستمد صاحبه من الواقع .

وكذلك أعني كثيراً بتحليل كلمات كل رسول ، وأوازن بينها وبين كلمات خصومه ، وما اشتملت عليه كلمات الرسول من عفة وأدب ، وما يُقابل به من سفوف وحق ، وأعلق دائماً على تعلق الرسول بربه ، واعتصامه بخالقه ومولاه ، وأدعو المصلح أن يتأسي بالرسول الذي أكتب عنه في ذلك الخلق الطيب .

وكذلك أعني بما انطوت عليه قوس الرسل من حزم وعزم ، وما تملك قوام من حب للصالح العام ، وكيف صبروا على ما ينالهم من أذى ، ودأبوا على دعوتهم

واقفين بأن النصر حليفهم ، موطين نفوسهم على أن العاقبة لهم ، وأنه ينبغي للمصلح أن يكون على الخلق الحميد ، وأن يكون له من الإرادة الحديدية ما لأولئك الرسل ، حتى لا يزيده إيذاء الناس له إلا استمساكا بعبدته ، وثباتاً على عقيدته ورأيه ، وناهيك قول نبي الله يوسف عليه السلام للنسوة اللاتي تأمرن عليه . « رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ » ٣٣ « فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » ٣٤ « (١) .

كما أهتم كثيراً بربط سيرة الرسل بحال المسلمين اليوم في سياستهم العامة . لأن الدين جاء لاصلاح حال الناس في سياستهم ، كما جاء لاصلاحها في نفوسهم وأخلاقهم ، ومن حاول أن يفهم الدين عارياً عن السياسة العامة فأنما يحاول أن يشطره شطرين ، فيأخذ بعضاً ، ويدع بعضاً .

فلا عجب أن يجد رجال الوعظ في كتابي هذا ما يشد عزمهم ، وينير قلوبهم ، وأن يجد فيه رجال السياسة ما يرفع نفوسهم ، ويوجهها للصالح العام ، ويعرفها بالله وسننه في وعده ووعيده ، وعادته مع المصلحين والمفسدين .

لا عجب أن يعرفوا أن لا غنى لهم عن الأخذ من مشكاة الوحي السماوى ، والتضلع من معين المعارف الالهية التي أودعها الله كتابه الحكيم ، حتى يكونوا ساسة علماء ، وقادة حكماء ، يصرم الله فيصرون ، ويعرفهم فيعرفون .

إذا كان من الواجب على الزعماء السياسيين ، وقادة الشعوب ، أن يدرسوا تاريخ النهضات في الأرض ، ليضمو عقولاً إلى عقولهم ، فأولى بهم أن يدرسوا تاريخ الرسل ، وسيرة أول المصلحين في الأرض من مصدرها الصحيح ، وينبوعها الصافى ، وهو القرآن الكريم . وأنا زعيم بأن دراستهم لتاريخ الرسل ستجعلهم قادة على غبط لم يألوه من قبل ، ثم يكون للمسلمين شأن جديد بعد هذه الزعامة التي

تبنى على سنن حكيمة عادلة ، وأخلاق طيبة مرضية ، وعقيدة كالجبال ثباتاً ورسوخاً وبذلك يسعدون ويُسعدون أمهم .

لو أن الناس عُتُوا بدراسة كتابهم السماوى عنايتهم بكتب الناس لكان لهم شأن غير هذا الشأن ، وحال غير ذلك الحال ، ولكن ماذا نصنع ، وقد كتب الله علينا الجحود حتى على رجال المدينة منا ، وقُدر لنا الحرمان ، لطائفة تعدّ نفسها من المثقفين المتعلمين .

ويحمل بنى وقد وصلت بالقارىء إلى ماوصلت أن أسوق قصة طريفة ، وإن كانت مؤسفة . أبلغنى المرحوم صديق الشيخ عبدالعزيز الخولى أنه تحدث إليه رجل من الذين درسوا دراسة واسعة ، وحصلوا على شهادات عالية ، وأبلغه أنه درس كتباً كثيرة فى الاجتماع ، ولم يعجبه مسلك القرآن الكريم فى مسألة خاصة ، فسأله ماهى ؟ قال : إن القرآن يأمر بقتال الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله . فأسف المرحوم الشيخ الخولى لهذه الجهالة من رجل دارس كهذا ، وقال : كان يحمل بك قبل أن تمسب على القرآن مسلكه فى مسألة عيتها أن تعطيه من العناية شيئاً مما أعطيته لغيره من الكتب ، ومن المؤسف أن تدرس كل شئ فى موضوعك إلا القرآن . ليس فى القرآن آية بهذا المعنى الذى استشكلته . إنما هو حديث نبوىّ للعلماء كلام طويل فى تأويله وبيان معناه .

فانظروا كيف يصل بنا تناسى القرآن الكريم إلى أى حد ، وكيف يُحرّم الرجل ما فى كتاب الله من معارف وعلوم أحوج ما يكون إليها ، لأنه تعود أن يأخذ العلم من كتب وضعها الناس ، لا من كتاب أنزله الله ، ليكون قانوناً عاماً للبشر ، ودستوراً صالحاً لكل زمان ومكان ،

إن الذى يتأمل تاريخ أولئك الرسل الذين عرضت لهم فى كتابى هذا يخدم متواطئين على دعوة الناس إلى التوحيد ، والإيمان بالبعث والجزاء ، والإيمان





في القرآن الكريم أنه لم يُبعث إلا بالتوحيد، لتفشي الوثنية في عهده ، وفتنة الناس بالأسنام في مدته ، ولذلك اشتهر بأنه شيخ الموحدين .

وتجد نبيّ الله لوطاً يُعنى بمحاربة الفاحشة التي فشت في قومه ، حتى ألغها الناس ، وأصبح التنزه منها جرماً يستحق عليه صاحبه النفي والتغريب ، وذلك منتهى الفساد الخلقي ، والتزول عن مستوى الانسانية . ألا ترى إلى القوم يقولون في شأن لوط وحزبه : « أَخْرَجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ » (١) وتجد نبيّ الله شعيباً يدعو القوم بمدّ توحيد الله تعالى إلى أن يوفوا الكيل ، ويزنوا بالقسطاس المستقيم لأن مرض الغش والتدليس كان شائعاً فيهم .

وترى نبيّ الله موسى يُعنى باتقاذ بني إسرائيل من مغالب فرعون ، ويعمل على إحباط ظلمه ، ومحاربة طغيانه ، ويَجِدُ في تربية العزة والكرامة في نفوس القوم ، لأنهم ألفوا الدلّ زمناً طويلاً .

كل ذلك لفهم أن المصلح دائماً يحمل همه محاربة المرض الموجود ، وإذا كان هناك أمراض عمد إلى أفتكها بالنفوس ، وأضرها على الخلق والنفوس، كالطبيب إذا عرض عليه رجل عنده أمراض ليس في استطاعته أن يعالجها دفعة ، فانه يبدأ بأهمها خطراً .

وطريقتي في كتاب : « دعوة الرسل » أن أستمعرض فِصص الرسول في القرآن كله ، وقد لا أترك منها إلا ما يتشابه مع ما أذكره من القصص تشابهاً كاملاً ، ثم أبدأ بالقصة مرتبة على نظام القرآن الكريم ، وأعقب القصة من كل سورة بالشرح والتعليق ، وإذا طالت القصة من السورة الواحدة جعلتها قطعاً ، وعقبت كل قطعة بشرحها ، والتعليق عليها .

وكذلك التزمت أن أجعل كل رسول حيث وضعه التاريخ ، فأبدأ مثلاً بنبيّ الله نوح ، وأعقبه بنبيّ الله هود ، ثم بنبيّ الله صالح . ثم بنبيّ الله إبراهيم ، ثم بنبيّ

الله لوط ، ثم شعيب ، ثم يوسف ، ثم موسى وهارون ، ثم داود وسليمان ، ثم عيسى ثم نبينا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ورأيت أن يكون تعليق على القصة بعيداً عن الاصطلاحات العلمية ، حتى يكون سهل التناول ، ليسراً على من يريده من المشتغلين بالعلم وغير المشتغلين ، وأن يكون الشرح والتعليق على هيئة فقرات مرقمة بأرقام متسلسلة ، كل فقرة تتعلق بناحية خاصة في الآية .

كما قصدت أن يكون شرحي بعيداً عن الإسرائيليات التي تعود المفسرون أن يشحنوا بها الكتب ، ويملئوا بها أدمغة القارئین .

فقد أصيب الدين فيما أصيب بالأحاديث التي وضعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذها العامة ديناً ، وبما خُشيت به كتب التفسير من إسرائيليات نقلها فريق من اليهود بقصد افساد دين المسلمين عليهم ، كالقصة التي ينسبونها زوراً لنبي الله داود مع أحد قواده .

وإذا كان العلماء قد وضعوا قوانين بها عرف الموضوع من الصحيح ، واستطاعوا أن يقاوموا الأحاديث الموضوعة بعض المقاومة ، فإن ما شُحنت به بعض كتب التفسير من الإسرائيليات لا يزال الناس تقامى آلامه ، ويجد المفسر من العناء في تنفيذه ، وإقامة الأدلة على بطلانه ما يجد .

من أجل ذلك قصدت أن يكون تعليق على الآية بعيداً كل البعد عن الروايات صحيحها وضعيفها ، لأن فهم الآية لا يتوقف عليها ، وأن يكون شرحي للقصة متمشياً مع سياق الآية ، ومتفقاً والأصول العامة للدين ، مسابراً لما ينبغي لرسول الله من عصمة ، لا ثقاً بما أعدّه الله لهم من زعامة ، وما هيأه لهم من منصب .

وتجدني دائماً في تعليق على قصص الأنبياء أعول على ما قرره العلماء من أصول صحيحة ، فأرجع في التراجع عند التمازض إلى قاعدة علماء الجرح والتعديل ،

فاذا ورد حديث ظاهره طعن في عصمة رسول من الرسل . رجعت بالقارىء إلى ما اتفق عليه العلماء من أن عصمة الأنبياء وردت من طريق قطعى ، فلا يبطؤها من طريق ظنى ، وخذ مثلاً لذلك قول الله تعالى في نبيه إبراهيم : « وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا » (١) . وما رواه بعض المحدثين من حديث « كذب إبراهيم ثلاث كذبات » فماذا نصنع في التوفيق بين الحديث والآية ؟ لا شئ ! أكثر مما قرره العلماء ، من أن الآية أقوى من الحديث فتقدم عليه ، ومن أجل ذلك يُردّ الحديث ، وتعجبنى كلمة للفخر الرازى « إذا دار الأمر بين كذب الراوى وكذب الرسول وجب أن نعلم إلى كذب الراوى » .  
يمثل هذه القاعدة يمكن إبطال كثير من الاسرائيليات ، ويمثل هذه القاعدة نستطيع أن تدفع عن عصمة الأنبياء ما ورد عليها من شبه وشكوك .

وسترى عند الكلام عن سيرة كل رسول ما يحل لك ناحية العظمة والخلق الثمين فيه ، وأن القرآن الكريم أحسن معبر عن سيرة الرسل الطيبة متى فهم فهماً مرضياً ، وجرد عن كل ما أحاط به بعض المفسرين من اسرائيليات .

(وأول) رسول عرضت لقصته نبي الله نوح عليه السلام : عرضت لها في سورة الأعراف ، ويونس ، وهود ، والمؤمنون ، والشعراء ، وسورة نوح .

وأول شئ يلفت نظرك في هذه القصة صبر نوح على الدعوة ذلك الوقت الطويل الذى يحدثنا الله عنه في قوله : « فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا » (١٤) . فليعتبر بذلك الدعاة الذين تغلب على نفوسهم اليأس ، ليعتبروا بذلك الصبر الحارق ، وتلك الارادة الحديدية ، ولولم يكن لنوح من الآيات الخلقية سوى هذه الآية لكفته دليلاً على تأييده من ربه ، وصدقه في دعوته ، دع أدبه مع قومه ، وتوكله على مولاه . وقد أنزل فيه مع قومه سورة كاملة تمثل لك كيف يكون الجلود على الباطل ، والدفاع عن الشرك . وكيف استباح نوح ببدن

لبث فيهم ذلك الوقت الطويل أن يدعو عليهم بقوله : « رَبُّ لَا تَذَرْنَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » (١) .

(الثاني) نبي الله هود عليه السلام : وقد عرضت لقصته في سورة الأعراف ، وهود ، والشعراء ، والذي تراه جديداً في قصة هود أن يذكر قومه أن الله جعلهم خلفاء في الأرض من بعد قوم نوح ، وزادهم في الخلق بسطة ، وأنه ينبغي لهم أن يذكروا هذه النعم ليصلوا بها إلى مُسديها ، وأمرهم باستغفار الله والتوبة إليه ، ليرسل السماء مدراراً عليهم ، ويزيدهم قوة إلى قوتهم ، فيرمونه بأن بمض آلتهم مسه بسوء ، ومن أجل ذلك يحقرهم ، فيشهد الله ويشهدهم أنه برىء من شركهم وآلتهم ، ثم يذكركم بنعم الله عليهم في رفع البناء الشامخ ، لالأغراض صحيحة ، ومنافع تعود عليهم بالخير ، بل للعبث واللغو ، ويذكركم أن من خلّقه أنهم إذا بطشوا بالضعيف بطشوا جبارين ، كفلاة المستعمرين في كل زمان ، فيقولون له : « سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَّعْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ » (١٣٦) « إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ » (١٣٧) (٢) .

(الثالث) نبي الله صالح : عرضت له في سورة الأعراف ، وهود ، والشعراء ، والنمل . وأظهر شئ في دعوته الناقة ، وتحذير الله لهم أن يمسخها أحد بسوء لافي شربها ولا في جسمها ، وأن أولئك القوم عقروا الناقة ، وغتوا عن أمر ربهم ، وطلبوا من صالح أن يأتيهم بما يدمم به من عذاب الله إن كان صادقا ، فأخذتهم الرجفة فأصبحوا جاثين على ركبهم .

ومن مواطن العبرة في القصة أن الذي عقر الناقة واحد منهم ، ولكن القوم كانوا راضين عن عمله ، فنسب المتمر لهم ، وعهم الله بمذابه ، ليرينا أن الناس إذا لم يأخذوا على يد الظالم عهم الله بمذاب من عنده : « وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاسَةً » وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) (٣)

(الرابع) نبي الله ابراهيم عليه السلام : وقد عرضت لدعوته في سورة البقرة ، والأنعام ، وسورة ابراهيم ، والنحل ، ومريم ، والأنبياء ، والشعراء ، والصفات ، والمتحة ، ويمتاز ابراهيم باتعام الكلمات التي ابتلاه الله بها ، وبشارة الله له أن يحمله إماماً للناس ، وبدعوته الحكيمة الموافقة للسنن الإلهية ، وبناؤه البيت هو وولده اسماعيل ، وتطهيره من الأرجاس الحسية والمعنوية .

كما يمتاز بإتياء الله له الحجة ، وأدبه مع أبيه في دعوته إلى الله تعالى ، وكرهته للأصنام ، مما اضطر المبطلين أن يلجأوا معه إلى الحديد والنار ، حينما أعوزتهم الحجة ، كما يمتاز إبراهيم بقصة ابتلاء الله له بذبح ولده ، واستسلامهما لله تعالى ، مما يدل على علو منزلتهما ، وأتهما قدوة صالحة في التضحية وتكران الذات ، ونهايك قول الله في شأنه : « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً » (١٢٠) .

(الخامس) نبي الله لوط عليه السلام : وقد عرضت لقصته في الأعراف ، وهود ، والشعراء ، والمنكبات ، نهى لوط عليه السلام قومه عن الفاحشة المعروفة ، وأرام أنها جناية على الفطرة ، وإذلال للرجال بكسر ما فهم من إباء وشمم ، وتمطيل للنسل ، ومفسدة للنساء بتعريضهن للزنا ، كما أرام أنهم مسرفون بذلك العمل ، متجاوزون للحدود ، وقد هدّوده باخراجه من بلده إن لم يرجع عن دعوته ، وقد كان عاقبة أمرم أن أخذهم الله بعذابه ، وأنجي لوطاً وأهله .

(السادس) نبي الله يوسف عليه السلام : وقد عرضنا لقصته من سورة يوسف ، ويالها من قصة ، فيها من الآيات والعبر ما لا يقف عند حد ، وقد أخذت قسطاً كبيراً من الكتاب ، شغلت منه ثمانين صفحة لو طبعت على حدة لكانت رسالة . افتتحت القصة بالكلام على القصص ومعناه وأغراض الناس منه ، ثم برؤيا يوسف ، وبحث طويل في الرؤى والأحلام ، وآراء العلماء اسلاميين وغير اسلاميين فيها وفي تعليلها ، وفي أصول التأويل ، ثم تأمراخوة يوسف عليه

والقائه في الحب ، وكيف أوصله الله بتديره ولطفه إلى أكبر بيت في مصر هو بيت العزيز .

ومن أمّ ما في القصة فتنة امرأة العزيز به ، وراودتها إياه عن نفسه ، وردّه عليها باباً ، وشتم ، شأن من أعدّه الله لمنصب الرسالة وهياؤه لزامة الناس ، وقوله : « مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » (٢٣) «<sup>(١)</sup>» وبيان أن الهمم الذي حصل من امرأة العزيز لم يتناسب مع شهوتها وجهلها ، أما ثم يوسف فهو ثم بالخلاص منها ، وقد سخر الله له العزيز في الوقت الذي استحكم فيه الخلاف ، شأنه مع أحبابه وأوليائه يحمل لهم من كل ضيق مخلصاً ، ومن كل ثم فرجاً ، ثم شهد الله له بأنه من عباده المخلصين ، وشهدت له امرأة العزيز بأنها راودته فاستمعصم ، ثم عرضت لقصته في السجن ، وامتناعه على الملك بمد أن طلبه إلا أن تظهر براءته ، وذلك صبر خارق ، وانتهاء القصة بشهادة امرأة العزيز مرة ثانية ، وشهادة النسوة اللاتي قطعن أيديهن بأنهنّ ما علمن عليه من سوء .

ومن أمّ ما في القصة أن الملك طلبه ليكون بطانة خالصة له بعد تجربة دامت سنين ، وقال له : « إنك اليوم لدينا مكين أمين » وأن نبي الله يوسف طلب منه أن يجعله وزيراً لمالية الدولة ، وعلل ذلك بقوله : « إِنِّي حَفِيزٌ عَلِيمٌ » يعلم الملك كيف يختار الوزراء من ذوى الخلق والعلم ، وأن الخلق أول شيء . يجب أن يحرص عليه الملوك في اختيار الوزراء ، وتبع ذلك بحث طويل في بطانة الملوك ، وأثرها في سعادة الأمم وشقاؤها .

ولو أن ملوك المسلمين تأسوا بذلك الملك ، فاحتضنوا النابه الأمين من الأمة لكان لهم ولأممهم حال غير هذه الحال .

(السابع) نبي الله شعيب عليه السلام : وقد عرضت لدعوته في سورة الأعراف ، وهود ، والشعراء ، وأظهر شئ ، فيها دعوته إلى الصدق في البيع والشراء وما إلى ذلك ، وأن قومه هددوه إن لم يرجع عن دعوته أن يخرجوه والذين معه من بلده ، فيقول لهم شعيب : « أُولَئِكَ كُنتَ لِخَلْقٍ كَرِيمٍ » (٨٨) « ثم يؤيسهم من هذه العدة ، ويريهم أن ذلك لم يكن شأن الرسول الذي يدعو الناس إلى الحق فيقول : « قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا أَفُنَحْ يَنْتَنَّا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ » (٨٩) .  
وأن قومه أخذوا يتكلمون به ، ويسخرون من عبادته . ويقولون له : « مَا تَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ » (٩١) (٣) .

فرد عليهم نبي الله شعيب بقوله : « يَقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ » (٩٢) « وَيَقَوْمِ اكْمَلُوا عَلَى مَكَاتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْمَلُونَ مِنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ » (٩٣) (٤) .

(الثامن والتاسع) نبي الله موسى وأخوه هرون عليهما السلام ، عرضت لقصتهما في المائدة ، والأعراف ، ويونس ، وإبراهيم ، وطه ، والمؤمنون ، والشعراء ، والنمل ، والقصص ، وزافر ، والدخان ، والنازعات ، وهذه السيرة لها شأن عظيم في القرآن ، ولهذا أطال فيها إطالة لاتكاد تجددها في غيرها من السِّير ، ولا عجب فهي قصة الاستبداد المقتنع ، والظلم الصارخ ، والظلمانيان البالغ متناه ، هي قصة المخرج على دساتير العدل ، وقوانين الفطرة ، وحرمة الانسانية ، وجدير

بالإنسان أن يقف على هذه القصة العجيبة، قصة ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ، جدير به أن يعرف كيف نشأ ذلك الظلم ، ولماذا أقدم فرعون عليه ، وأن يعرف كيف كانت عاقبة الظالمين .

علمنا الله في هذه القصة أن فرعون استخفّ قومه فأطاعوه ، فكان منه ما كان من عسف وجور ، وأن كل ظالم شأنه شأن فرعون ، متى وجد بطانة تحببه في الظلم وتعينه عليه - عظم أمره ، وانتشر شره : « فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ » (١) .

كما يرينا أن عاقبة الظلم الهلاك الدائم ، والتنكيل بالظالمين . عرضت هذه القصة لمهمة نبي الله موسى وأخيه هرون ، وبالحصاة من مهمة شافعة ، لانتقامها بفرعون الطاغية ، ولأن بني إسرائيل قوم ألقوا الذل ، ووطنوا أنفسهم على الاستعباد ، فترية العزة والكرامة في قلوبهم أشقّ شيء على المصلح . كما عرضت فيها للسحر وأنواعه ، وكيف أن الملائكة من قوم فرعون كان يعزّيه بنبي الله موسى وأخيه هرون ويريه أنهما يريدان ملكاً لا رسالة ، وتلك الأمن دسيمة تموّد الناس أن يتقدموا بها للبلوك .

وناهيك بقصة السحرة الذين حشروهم فرعون ليتغلبوا على موسى ، وما في هذه القصة من عبر ، وكيف أن الحق استولى عليهم ؟ فلم يحفلوا بتهديد فرعون لهم أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، ويصاحبهم في جذوع النخل ، لتفهم أن الحق متى وصل إلى النفوس لا تستطيع قوة في الأرض أن تقاومه ، كما عرضت لحديث السامري ، وصنعه المجل الذي عبّده بعد ذهاب موسى إلى ميقات ربه ، ودعوة موسى المستجابة على فرعون وقومه أن يطمس على أموالمهم . ويشدّ على قلوبهم ، وأن إيمان فرعون عند وقوع الهلاك به لم ينتج ، لأنه إيمان المضطرّ ، وكيف



طمأن الله موسى عند تخوفه من فرعون ، وطلب من الله تعالى أن يعينه بأخيه هرون ، وفيها بحث عن وزارة الرسل ، والفاية منها ، والفرق بينها وبين الوزارات المدنية اليوم .

كما عرضت لجبروت فرعون وعلوه في الأرض ، وجملة أهلها شيعاً وأحزاباً ، يستعين بعضهم على بعض ووعده الله للمستضعفين أن يمكنهم في الأرض ، وقصة تربية موسى في بيت فرعون ، وقتله للقبضى خطأ ، وقصة زواجه ، ووعظ مؤمن آل فرعون ، وما فيه من عبر ، ولا تنس اقتتان فرعون بملكه ، وقوله : « أَلْبَسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ » (١) . ولو كان للملوك عقول لأعتبروا بفرعون وملكه ، وعرفوا أن الاستبداد ما كان يوماً طريقاً لعمارة الأرض ، والاحتفاظ بالعروش .

وختمت القصة بقطعة من سورة النازعات جمعت أصول ما تفرق في السور من سيرة فرعون ، لنقلت النظر إلى إعجاز القرآن في إطنابه ، وإيجازه ، بأسلوبه القاهر ، وبيانه الأخاذ .

وجملة القول أن قصة نبي الله موسى وأخيه هرون مع فرعون : هي قصة حافلة بالعظات ، غاصة بالعبر ، فيها من الدروس النافعة ما لا يستغنى عنه مصلح ، ولا سيما إذا كان مصلحاً سياسياً ، ولذلك أطال القرآن الكريم فيها ، وقد شغلت من كتابي هذا مائة صفحة وستاً ، ولو شئت أن أزيد في بسطها أفعلت ، ولكنني خشيت الملل ، فوقفت عند هذا الحد .

( الماشر والحادي عشر ) نبيا الله داود وولده سليمان عليهما السلام : عرضت لقصتهما في سورة البقرة ، والأنبياء ، والنمل ، وسبأ ، وسورة ص . وإنك لترى في قصة هذين الرسولين من عظمة الملك ، واتساع السلطان ما يبهرك نفسك ، وترى

يجانب هذه العظيمة شكراً لله تعالى واعترافاً باحسانه ، تبحر لنبي الله داود قصة تجلّى فيها شجاعته ، كما تبحر نعمة الله على سليمان وأبيه بالحكم والعلم على تفاوت بينهما ، ونعمته على داود بصناعة دروع الحرب ، وتسخير الريح والشياطين لسليمان ، وتعليم الله له منطق الطير ، وقصة ملكة سبأ ، ونقل عرشها ، وتسخير الجبال والطير ، وإلانة الحديد لداود ، وإسالة معدن النحاس ، وكذلك قصة موت سليمان ، وقصة الخصب والمحارب ، وفئة داود وسليمان ، وإلقاء جسد على كرسيه ، كما عرضت في هذه القصة لاقتضاء ، وما يجب أن يكون عليه ، وكيف أن الهوى قد استولى على الناس فأفسد عليهم كل شيء .

( الثاني عشر ) نبي الله عيسى عليه السلام : عرضت لقصته في سورة آل عمران ، والمائدة ، ومريم ، والزخرف ، والحديد ، والصف . وأمّ شيء فيها بعد : بيان آياته على الصدق ، وقصة ولادته الخارقة . فتنة الناس به وبأمه ، وبرأيهما من عبادة الناس لهما ، ودعوة عيسى الناس إلى التوحيد ، شأن عباد الله المقرّين ، وحسبنا أن الله يقول في عيسى وأمّه « مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا بِاُكْلَانِ الطَّعَامِ » (٧٥) . ويقول : « إِنَّهُ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ » (٥٩) .

كما عرضت في قصته للرأفة والرحمة التي جعلها الله في قلوب أتباعه . وأن أولئك المستعمرين الجبارين ليسوا من أتباع المسيح في شيء .

( الثالث عشر ) نبينا محمد صلى الله عليه وسلم : وحسبها أنها الدعوة الباقية إلى قيام الساعة ، والمتفقة في أصولها العامة ، والأزمنة المقبلة ، والملائمة لرشد الناس وثقاتهم التي أعدهم الله لها في قرونهم الأخيرة .

وقد أردت أن أصور للناس الأسس التي قامت عليها الدعوة . في مرحلتها بمكة

والمدينة ، وأريهم الفرق بين القسم المكي من القرآن ، والمدنى منه ، وأن المكي كان يدور حول الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وحول توحيده في الألوهية والربوبية والدعوة إلى العمل الصالح والأخلاق الطيبة . وعرضت لطوائف من آى القرآن الكريم في هذه الأصول ، وتجد من بين هذه الطوائف جدل الناس في الرسالة ، وكيف أن القرآن الكريم دفع هذه الشبه حتى قامت حجته على العصاة والكافرين ؟ كما نجد قسما كبيرا من آى القرآن في الأخلاق والعمل الصالح .

وكذلك عرضت في هذا القسم لوظيفة الرسول ، وأنها التبشير والانتذار ، والقدوة الصالحة ، والسيرة المرضية ، كما عرضت لتربية الله له ، وإعداد له لمنصب الرسالة ، وكان من تربيته إياه أن قص عليه من سيرة الماضين ما فيه العبرة ، ولاغنى لواعظ أو مصلح عن دراسة ذلك النوع من الآيات .

وكذلك عرضت لتعنت المشركين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإحراجهم باقتراح الآيات ، وتبئيس الله إياه من إيمانهم لأنهم معاندون ، والمعاند لا يقنع بشئ ، وتسلية الله له على ما لقي من المشركين من شدة ، وما قاسى من ألم ، وأن ذلك شأن الناس مع المصلحين .

تلك هى الأصول التى كان يدور عليها التشريع بمكة ، وهى لا تعدو العقائد ، والأخلاق ، والدعوة إلى العمل الصالح ، لم يفرض الله تعالى من العبادات بمكة سوى الصلاة ، فرضها في السلم والحرب ، والسفر والاقامة .

أما دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، فقد كان فيها التشريع الدينى والمدنى والسياسى والاجتماعى ، ولم يعن القرآن الكريم بالعقائد فيها إلا فى حاجته لليهود والنصارى فى شأن عيسى وأمه ، والعزير ، وسبب ذلك فتنة فريق من الناس بهم .

ومن أمّ ما شرعه الله في المدينة القتال ، وقد عرضنا له ، وجعنا كثيراً من آى القرآن الكريم فيه ، لُترى القارىء لماذا شُرع القتال ؟ وأنه لم يكن لا كراه الناس على الدين ، بل كان لحماية الدعوة والداعى ، حتى يكون الناس آمنين على دينهم وعقائدهم ، ثم عرضنا لآيات الله في التحريض على القتال ، وسلوكه طرائق عجيبه في تهيج النفوس .

وكذلك عرضت في هذه الدعوة لمسألة الايمان ، والكفر ، والنفاق ، وإن الناس كانوا ولا يزالون حيال كل إصلاح أقسام ثلاثة : فريق يناصر المصلح ظاهراً وباطناً ، وهو المؤمن ، وفريق يماديه سراً وعلانية ، وهو الكافر ، وفريق ثالث يوارب ويداجى ، وهو المنافق ، فيناصره ظاهراً ، ويحاربه باطناً .

ثم عرضت لخصائص المؤمنين والآيات فيهم ، ولخصائص الكافرين كذلك فقد يظن الرجل نفسه مؤمناً ، وهو كافر في واقع الأمر ، وقد يزعم أنه من المؤمنين مع أنه من المنافقين ، وجدير بالمؤمن أن يعمن النظر في آيات الله في المؤمنين ، وآياته في الكافرين .

وكذلك عرضت لآيات القرآن الكريم في المنافقين ، وذكرت منها قسماً كبيراً ، وختمت ذلك القسم بسورة المنافقين ، ذلك أن المنافقين شر مستطير على الإصلاح في كل زمان ، وما من إصلاح في الأرض سواء كان دينياً أم سياسياً أم خلقياً أم اقتصادياً إلا ولهم في إفساده ضلع كبير .

ثم عرضت بعد سوق الآيات في المنافقين إلى : « كبريات العبر في المنافقين » أبنت فيها ما تقاسيه من آثار النفاق والمنافقين ، ثم أخذت من آى القرآن الكريم ثلاثة عشر خلقاً من أخلاق المنافقين ، تجدها فيها بحثاً مستفيضاً في الأخلاق والاجتماع ، والسياسة ، وكيف أن كثيراً من أصحاب هذه الأخلاق كان شراً على إصلاحنا السيامى والعلمى ، بل كان شراً على كل شىء .

أطلت في هذا القسم من أمراض الأمة لأن مصيبتنا به كبيرة، وشقاءنا به عظيم .  
ثم عرضت لأشهر الغزوات : غزوة بدر الكبرى ، وغزوة أحد ، وغزوة  
الخندق ، من طريق القرآن الكريم . لأرى القارئ كيف يكون فهمه للحوادث  
واتقاه بالمعبر .

ثم تكلمت على الزكاة ، وبيان حكمتها . وأنها صلة بين الغنى والفقير ، وطهرة  
لنفوس الأغنياء من مرض الشح الذي هو خطر داهم على مصالح الأمة ومراقمتها ،  
وكذلك عرضت للقيام وحكمته ، وتيسر الله إياه على عباده باسقاطه عن أصحاب  
الأعداء والمشقات .

وعرضت للحج وفائده الدينية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والخلقية ،  
ولأصول المعاملات المأدلة ، ونظام البيوت والأسر ، ونظام التوريث المبني على  
الحكمة والعدل ، وللحكومة في الإسلام أساسها الشورى .  
وختمت الدعوة ببيان العقوبات في الإسلام ، ووجه الحاجة إليها من  
قصاص ، وحدّ لقاطع الطريق ، وللسارق ، والزاني ، والقاذف ، وأن ذلك كله  
مقتضى الحكمة .

تلك هي : « دعوة الرسل إلى الله تعالى » أولهم نوح عليه السلام ، وآخرهم محمد  
صلى الله عليه وسلم ، كلها هدى وخير ، وحكمة وعبرة ، وعظة وتذكير .  
« وَكَلَّا تَقْصُ عَلَيْنِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّتُ بِهِ ، فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ  
الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ » (١٢٠) »

محمد أحمد العدوى

# دعوة نوح

إلى الله تعالى

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ  
إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ «٥٩» قَالَ الْمَلَأُ «» مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ  
فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ «٦٠» قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَالَّةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ  
الْعَالَمِينَ «٦١» أَتَلْمِزُكُمْ بِرِسَالَتِ رَبِّي وَأَنْتُمْ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا  
لَا تَعْلَمُونَ «٦٢» أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ  
لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ «٦٣» فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ  
فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ «٦٤» الأعراف

## شرح وعبرة

(١) لقد كان أول شيء بدأ به نبي الله نوح عليه السلام قومه أن دعاهم إلى عبادة الله  
وحده . وسرى ذلك في دعوى غيره كهود وشعب وصالح وغيرهم من الرسل عليهم السلام .  
ولا عجب ، فإن الدعوة إلى التوحيد هي أساس كل رسالة ، وقد بقوا في سبيل التوحيد أكثر  
وقتهم ، وخطبوا بمهجم وأرواحهم . يتجلى ذلك في سيرة نبي الله إبراهيم ، وما لاقاه من قومه  
عدة الأوثان ، ولم يشأ نبي الله نوح أن يدعو قومه إلى التوحيد دعوة خالصة من تخويفهم من  
عذاب الله وبطشه ، فقال بلسان الخائف المشفق (إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) وهو  
يوم القيامة أو اليوم الذي ينزل عليهم فيه عذاب العصيان والمخافة في الدنيا وهو الطوفان .

## كيف كان جواب قومه ؟

(قال الملا من قومه إنا لنراك في ضلال مبين) لم يكن هذا جواب قومه علمة . وإنما هو  
جواب « الأشراف والسادة » الذين امتلأت قلوبهم بحب الجاه والسمة والرياسة والاستئثار ،

[١] الأعراف والسادة يجتمعون على رأى فيملؤون البيوت رواء ومنظرا ، والنفوس بهاء وجلالا « عمين »  
جميع عبي ، والمراد بهم فاقرو البصيرة .

وهم المترفون الذين قال الله فيهم (وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون «٣٤» وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين «٣٥» ) . ياسبحان الله إن الذين يسمون أنفسهم الأشراف والسادة هم عقبة الإصلاح منذ نشأ العالم ، وهم الذين يحسدون كل داع إلى خير ، ويقومون حجر عثرة في سبيل دعوته .

ألا ترى ذلك [ الملأ ] من الأشراف والسادة يقول لنبي الله هود عليه السلام ( إنا لنراك في سفاعة وإنا نظنك من الكاذبين «٦٦» ) وكذلك الملأ من قوم صالح يقول للؤمنين منهم ( أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون «٧٥» قال الذين استكبروا إنا بالذي أنتم به كافرون «٧٦» ) . ثم ألا ترى ما يحكيه الله لنا عن شعيب وقومه إذ يقول : ( قال الملأ الذين استكبروا من قومه لتخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أولتعبدن في ملتنا قال أولو كنا كارهين «٨٨» ) تلك آثار الأشراف والسادة ، وهذه أعمالهم مع الرسل وأئمة الإصلاح .

(٢) أما جبهة الشعب الذين سلمت قلوبهم من الضغن ، وطهرت من الحسد فهم أتباع الرسل في كل زمان ، وهم أنصار كل داع إلى الحق ، وحسبك في فهم هذه السمة أن تعرف أن هرقل وهو يسأل أبا سميان عن محمد بن عبد الله قال له « فأشراف الناس يقعون أم ضعاؤهم ؟ قال أبو سميان : بل ضعاؤهم ، فقال له هرقل كذلك أتباع الرسل » رواه البخاري .

وحسبك أن تعرف أن صناديد قريش هم الذين ناصبوا الرسول صلى الله عليه وسلم العداوة ، وقلبوا له الأمور ، ومكروا به ، ولكن مكر الله كان فوق مكرهم ، وتدييره قضى على تدييرهم ، ولم يستقر أمر للرسول صلى الله عليه وسلم إلا بعد أن نكل الله بهم ، فنهى من قتل بأحد وبدر ، ومنهم من خذل ، وهناك استقرت الدعوة وظهر أمر الله وهم كارهون .

(٣) وتأمل كيف يسرف الملأ من قوم نوح في الطعن عليه والزيادة به فيقول بحيفة المؤكد ( إنا لنراك في ضلال مبين ) وليتهم وقفوا عند رمية بالضلال ، بل أرادوا أن يفهموه أن ضلاله جد واضح يستطيع كل أحد أن يفينه ، فيقول نبي الله لهم : يا قوم ليس في شيء من الضلال ولكن رسول من الله المرئي لأجسام العالم بالنم ، ولأرواحه بالشرائع ، أبلغكم أوامر الله ونواهيه ومواظبه وزواجره ، وأحض لكم النصح ، وأعلم من أمر الله مالا تعلمونه ، فأعلم من صفات الله وقدرته الباهرة ، وبطشه بأعدائه ما جهلتم ، وأعلم أن بأسه لا يرد عن القوم الجرمين . ثم أراد أن يريهم أنه لم يكن موضع عجب ودهشة أن يجيئهم وعظ على لسان رجل منهم ليخوفهم عذاب الله ، وليريهم راحة الله ورضوانه ، فإذا كان من قومه بعد هذا الرد المتواضع والنصح الخالص ؟ لم يكن منهم سوى التكذيب ، فأنجى الله نوحا ومن معه في السفينة من الطوفان ، وأغرق المكذبين ، وعلل ذلك بقوله ( أنهم كانوا قوما عمن ) عن الحق ، متغافلين عن الحقية ، وقوم هذا حالهم يستحقون من عذاب الله ما حل بهم . وفي القصة من العبر مقابلة السفه بالحلم . رموه بالضلال فكان ردة عليهم أنه ليس به ضلال ، ولكنه رسول من الله ، فكان موقفه موقف المدافع عن

نفسه وأن رمية بالضلال لم يوغر صدره من جهتهم ، بل أخذ ينصحهم ويخوفهم ويريههم أن عليه واجبا : هو تبليغ رسالات الله ، وليس من شأن الداعي الى الله أن يصرفه عن دعوته ما يسمعه من قول محض ، أو لفظ منفر . وانغراق المكذبين ، ونجاة الرسل ، وأتباع الرسل ، وتبليغ ذلك بجماعهم عن الحق .

### نوح عليه السلام

وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأُ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ <sup>(١)</sup> عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ «٧١» فَإِنِ تَوَلَّيْتُمْ فَأَسْأَلُكُمْ مِنْ أَجْرِي إِن أَدْرَيْتُ إِلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أُكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ «٧٢» فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْفَهُ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ «٧٣» يوسف

### شرح وعبرة

(١) يأمر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يتلو على قومه قصة نوح وهو يقول يا قوم إن كان قد ثقل عليكم إقامتي فيكم زمانا طويلا ، وتذكيري لكم بآيات الله فقلتم دعوني ، فاني متوكل فيها على ربي الذي أرسلني ، وهو الذي يؤيدني وينصرني فأجمعوا ما تريدون من أمركم مع شركائكم الذين تعدونهم من دون الله ، ثم لا يكون أمركم الذي تعزمونه خفيا فيه شيء من الحيرة واللبس الذي يقتضي التردد في اتخاذ ، ثم أخذوا الى ذلك الأمر بعد إجماعه واعتزاه ، ولا يملكون تأخير هذا القضاء ، فان انصرفتم عنى فلاحى لكم في ذلك الاعراض ، لأنى مأسألتكم على هذا الذكير أجرا ومكافأة ، وإنما أطلب الأجر من ربي الذي أرسلني ، وقد أصحمت أن أكون من المذنبين لما أذعوكم إليه ، أسألتكم أم كفرتم ؟ (وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه ) فأصرروا على تكذيبه بعد أن أقام لهم الحجة بقوله وعمله على حجة دعواه ، فأجابه الله ومن معه في ذلك ، وجعلهم خلافت من المكذبين ، وأغرق المكذبين بآياته ، فانظر كيف كان عاقبة الذين خولوا من عذاب الله فأصروا على تكذيبه .

(٢) وفي القصة من العبر أنه إذا سُم الدعوى من طول مدة الدعوة فليس للداعي أن يسأم ،

[١] عظم وشق « مقامى » قيامى ومكنى بين أظهركم « فأجمعوا أمركم وشركاءكم » من أجمع الأمر نواه ونزاه عليه ، والواو بمعنى مع « غمة » سرة : من عمه ستره « ثم اقضوا الى » أخذوه « الفلك » السفينة ، ويستعمل في الواحد والجمع « خلافت » يخلعون المالكين بالفرق .



واعتماد الداعي في دعوته على ربه ، لأن ذلك يلاّ قلبه شجاعة وأملا ، واستهاته بكل ما يلاقى في سبيل الدعوة ، ويحصى قلبه ، و يرفع منزلته ، فهذا نبي الله نوح لا يزال يتجمع قومه عليه ، واستعانتهم بشركائهم ، وبأمرهم بأن يجمعوا أمرهم ، وينفذوا قضاءهم فيه ، لأنه واثق بأن النصر حليفه ، والعاقبة له ولأنصاره .

يلفتك نبي الله نوح الى مسألة هي جدية بالاهتمام : هي أنه مأسأل قومه أجرا على دعوته ، والشأن في كل داع لا يطلب أجرا إلا مرضاة ربه أن يكون مخلصا في دعواه ، وهذه نعمة نسمعها من جميع الرسل ، وهي جدية بالعبادة ، ومقياس صدق الداعي ، وبرهان أن دعوته تنصل بالقلب والوجدان ، وحسبنا أن الله تعالى يقول ( وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين « ٢٠ » اتبعوا من لا يطلب أجرا وهم مهتدون « ٢١ » ) (١) .

لنعرف أن من لا يسأل الأجر على دعواه وهو يعمل بما يدعو الناس إليه هو داعي صدق ، وصاحب عقيدة خالصة ، ومبدأ حتى يقف عند عقيدته ، ويكبح عن مهمته ، ويرحب بكل أدى يناله من ذلك الطريق .

### نوح عليه السلام

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ « ٢٥ » أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ « ٢٦ » فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرِيكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرِيكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُبَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَخَافُكُمُ كَذِبِينَ « ٢٧ » قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنْتَهٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَصَبَّيْتُ عَلَيْكُمْ أَنْزَلَ مَكْمُومًا وَأَنْتُمْ لَهَا كُرْهُونَ « ٢٨ » وَيَقَوْمِ لَا تَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُّقْتَدِرُونَ بِهِمْ وَلَكِنِّي أَرِيكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ « ٢٩ » وَيَقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ « ٣٠ » وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ

[١] يس . [٢] أخشأونا وأدناؤنا الذين ليس لهم رزاة مثل أو مسألة رأى ، جمع أرذل ، والمراد بهم ههنا المؤمنين « بادى الرأي » ظرف لقوله اتبعك ، والمراد أنهم اتبعوه من غير روية ونظر « عيت » أخفيت ، وقرئ عيت بالتخفيف : خبت .

إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَنْوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا  
بِمَا تَعِدُّنَا إِن كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا  
أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُسْجِي إِن أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ  
اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ۖ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ  
قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَائِي وَأَنَا بِرِيءٌ مِّمَّا تَحْمِلُون ۖ ﴿٣٥﴾ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ  
أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾  
وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾  
وَيَصْنَعِ الْفُلَكَ وَكَلَّمَا مَرْءًا عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قُلْ إِن تَسْخَرُوا مِنِّي  
فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ نَعْلَمُونَ مَنِ يَأْتِيهِ عَذَابٌ  
يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا امْكُثْ  
فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا  
ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ أَرَأَيْتُمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي  
مَنْزِلٍ يَثْنَىٰ زَكَاةً مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ سَتَأْبَىٰ إِلَىٰ  
جَبَلٍ يَنْصِتُ مِنْ الْمَاءِ قَالَ لَا عَلَصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ  
يَتَنَّهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُنْقَرِقِينَ ﴿٤٢﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَاسْمَأْ  
أَفْلَحِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَفُصِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَىٰ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ  
الظَّالِمِينَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ

[١] « يذوبكم » يهلككم « افتراء » اخلافه « تبتس » تحزن - حزن البائس « بأعيننا » ملحوظا  
برأيتنا « التنور » وجه الأرض كما قال : ( فتفتح أبواب السماء بماء منه ) « ١١ » وجرنا الأرض هيرنا  
فالتق الماء على أمر قد قدر ( ١٢ ) القمر . « استوت » استقرت « الجودي » جبل في تراس ديار  
بكر من بلاد الجزيرة .

وَأَنْتَ أَخْكَمُ الْخَكَمِينَ «٤٥» قَالَ يُنوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْغَافِلِينَ «٤٦» قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَرَحْمَتِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ «٤٧» قِيلَ يُنوحُ امْكُثْ بِسَلَمٍ مِنَّا وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ «٤٨» تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ «٤٩» مود

### شرح وعبرة

(١) يرى قوم نوح أن نوحا بشر مثلهم يأكل مما يأكلون منه ويشرب مما يشربون ، ومن كان كذلك لا يصح أن يكون رسولا ، وهذه الشبهة هي التي قالها أقوام الرسل حينما دعوهم الى الله . ألا ترى الى قول الله تعالى في سورة الأنبياء ( اقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون «١» ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون «٢» لاهية قلوبهم وأسرّوا السجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون «٣» ) وقد ردّ الله على هذه الشبهة بقوله ( وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي اليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون «٧» وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين «٨» ) وقال في سورة الفرقان ( وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا «٢٢» ) وفي سورة إبراهيم ( قالوا إن أئمتهم بشر مثلكم تريدون أن تصدّونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين «١٠» قالت لهم رسلهم ان نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن تأتيكم بسلطان إلا باذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون «١١» ) فالآيات المذكورة ترينا أن البشرية لاتنافي الرسالة ، ولانمانع من أن يمن الله على بعض البشر فاختاره لتلك المنصب الجليل ، ويضفيه للوحي ينزل عليه ويبلغه للناس ، والله درّ بعض المفسرين إذ يقول [ ما أعجب شأن أهل الضلال لم يرضوا للنسوة يشربن ورضوا للألوهية بحجر ] .

(٢) ان أنبأه من أراذل القوم وأذنامهم مغرلة ، كأنهم المهن الحقيمة من الصانع والعمال ، ولو كانت دعوته حقة كان أتباعه من أصحاب العقول الراجحة ، والراء الواسع ، وذوى المكانة الذين يتبعونه عن بحث واقتناع ، أما أراذل القوم فيتبعونه [ بادی الأسمى ] بدون روية ولا نظر . ويصح أن يكون تقرير الشبهة على وجه آخر تفسره القصة في سورة الشعراء ( قالوا أتؤمن لك واتبعك الأرذلون «١١١» ) يريدون أن لا ينجي أن تتبعك وقد اتبعك سفلة القوم وفقراؤهم ،

ولا يصح لنا - مع مانحن فيه من القوة والفتى - أن نكون قرناء لأولئك الأرذلين فيجمعنا معهم دين واحد ، وملة واحدة ، وسواء جرينا على الوجه الأول أو الوجه الثاني فاتباع الأرذلين لنبي الله نوح ذنب له وسيئة من سياسته ، فيعتذر نبي الله لهم بأن لا يستطيع أن يطرد المؤمنين لبساسة عقولهم ، أو دماء مهنهم ، ويقول لخصومه من الذين ينصره من عذاب الله إذا هو طردهم عن مجملته ؟ وأبعدهم من عطفه . ومادام صاحب مبدأ وعقيدة فهو يرحب بكل من يعتق ذلك المبدأ أيا كانت مهنته . ولو كانوا من أهل العلم ماعابوا على نوح أن يقعه الفقراء والضعفاء لأنهم أتباع الرسل في كل زمان ومكان ، ولكنهم قوم يحجلون سنة الله في ذلك ، كما يحجلون أن نوحا عليه السلام جاء برسالة من ربه ، ويهيه أن تبلغ الناس ، ملائكتهم وسوقتهم ، أغنياءهم وفقراءهم ، ولا يستطيع أن يحقر مؤمنا لفرقه أو يقدس غنيا لفناء . تلك هي شبهة قوم نوح على نوح ، وذلك هو ذنبه عند خصومه وأعدائه . وقد نجح إليك وأنت تقرأ هذه الشبهة أن المستعمرين لبلاد المسلمين وصنائع المستعمرين ، قد تمكنت تلك الشبهة من نفوسهم ، وتغلطت في أحشائهم ، فأخذوا يدفعون بها في صدور الزعماء ، الذين يطالبونهم بالجلاد ، ويوهمون الناس أنهم لا يعترفون بزعامتهم ، ولا ينصاعون لرغباتهم ، إلا حيث التفتحوهم على القوم وأشرف الناس ، وأصحاب المصالح في البلاد . أما الزعماء الذين يؤيدهم سواد الأمة ، والرعايا منها ، وأصحاب المهن الحرة كالعمال وأرباب الصنائع فلا يقام لزعامتهم وزن ، ولا يعمل لها حساب ، يريهون بذلك الفض من قيمة الزعماء ، والتخلص من طلبهم ، وتجهيزهم عن الاضطلاع بمهمتهم ، ومنعهم للحصول على غايتهم ، وهم يعلمون أن انصياع الأشراف والسادة لهم ضرب من المحال ، لأنهم جده حريصين على مصالحهم ، يدأورون لقضاء حاجاتهم ، والابقاء على ثروتهم ، فلا يستطيعون أن يعرضوا أنفسهم لسخط المستعمرين وأصحاب النفوذ والسلطان ، يقول المستعمرون ذلك لزعماء الأمة ، وفي الوقت نفسه يعترفون من قرارة قلوبهم أن أولئك [ الأرذلين ] أو رعايا الناس وغوغاءهم هم الشر المستطير على المستعمر ، وهم الذين يقضون مضجعه ، ولا يستطيع أن يجد إلى إرضائهم سبيلا ، وآية ذلك أنه يعمل لهم ألف حساب وحساب في بلاده ، وكثيرا ما تزلزلوا عروشاً ، وأقلعوا دولا ، وألفوا على حسابهم وزارا بولونها الثقة ، ويناقشونها الحساب .

أولئك هم الذين سماهم قوم نوح [ الأرذلين ] ويعيون نوحا لأن توابه منهم ، وأولئك هم [ الرعايا ] الذين يعيون الزعماء بلاصحتهم لبعوتهم وانصياعهم لمبادئهم ، وأولئك هم الضعفاء أتباع الرسل في كل زمان ومكان كما قال هرقل لأبي سفيان حين سأله أي قبيلة أشرف الناس أم ضغائهم ؟ فقال : بل ضغائهم ، قال : كذلك أتباع الرسل . وأولئك هم المساكين الذين قال الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم « اللهم أحيني مسكينا وتوفني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين » (١) .

(٣) يقول قوم نوح له ولأتباعه (وما نرى لكم علينا من فضل) يحطكم أهلا للرسالة وزعامة الناس في الدين ، وعقبوا ذلك بقولهم (بل نلتكم كاذبين) وقد اقتصرنا في نسبة الكذب إلى نبي الله نوح فلم يقطعوا به حتى لا ينسبوا إلى المجازفة ، فيجيبهم نبي الله بقوله (يا قوم أرايتم إن كنت

على بنة من ربي وآتاني رجة من عنده فعميت عليكم) يطالب قومه أن يخبروه إذا كان على برهان من ربه ، ووزقه النبوة بلا كسب منه ولا تعب ، وقد خفي عليهم ذلك وجهاده ، فإذا يصنع معهم ؟ وماذا يفعل بهم ؟ أيلزمهم الاهتداء بالنبوة ، ويلجئهم الى الاعتراف بها ، وهم لها كارهون لا يختارونها ، ولا يتأملون فيها ؟ لا يكون ذلك ، لأنه لا إكراه في الدين ، ولا سبيل الى وصول الدين الى النفوس الا بإقبالهم على الداعي ، وعنايتهم بالسعوة ، وتفهمها من طريقها الصحيح ، ثم يفهم الى أنه لم يقل ان عنده خزان الله ، أو أنه يعلم الغيب ، أو يقول إنه ملك فيدعى أنه يفضلهم في شيء . من ذلك ، ولا يحكم على من استردلوا من المؤمنين لقرهم أن الله لن يؤتيهم خيرا لو أنهم عليه ، ولو قال ذلك لكان ظلما ، لأن الله أعلم بما في أنفسهم فيحاسبهم عليه ، ويجزيهم عما كنه صدورهم و يصح أن يراهم أنكم زعمتم أن عهد النبوة لا يناله إلا من له فضل على سائر الناس ، فأخبروني ان امتزت عنكم بحيازة فضيلة من ربي ، وآتاني بحسبها نبوة من عنده ، نفيت عليكم تلك المزية ، ولم تنالوها ، ولم تعلموا حيازتي لها ، أنلزمكم قبول نبوتي التابعة لها ، والحال أنكم كارهون لذلك ؟ وسواء فهمنا هذا أو ذاك فهو جواب على قولهم (وما نرى لكم علينا من فضل) يجعل نوحا أهلا للرسالة وزعامة الناس في الدين ، وحسبه أن يقيم البراهين على صدقه في دعوته ، وحقية ما يقول ولذلك خلس من ذلك القول الى دلائل الصدق فقال (ويا قوم لا أسألكم عليه مالا) والشأن فيمن لا يسأل الناس مالا على قبول دعوته ، وأن يعمل بما يدعو الناس اليه ، أن يكون صادقا فيما يقول مخلصا فيما يدعي .

(٤) (أم يقولون افتراء قل إن افتريته فعلى إجماعي وأنا برى مما تجرمون) يقول قوم نوح له انه افتري على الله الكذب ، واختلق هذه الدعوى ، فبرء عليهم بالمنطق ويقول : ان كنتم صادقين في أنني اختلقته ، وجئت به من قبل نفسي ، فعلى عقاب جرمي ، وان كنت صادقا وكذبتوني فعليكم عقاب ذلك التكذيب ، ومن إيجاز القرآن أن يحذف هذه البقية لأن الكلام دال عليها ، وهو كقول في سورة الأحقاف (أم يقولون افتراء قل ان افتريته فلا تكون لى من الله شيئا هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم «٨»).

(٥) بعد أن أقام نوح على قومه الحججة ، وشرح لهم وظيفة الرسول ، قال له قومه (يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) استهجلوا عذاب الله ، وطلبوا منه الآيات التي تخضع لها أعناقهم ، وتذلل لها نفوسهم ، وجعلوا وقوع هذه الآيات أمارة صدقه ، ودليل نبوته ، فأخبرهم أن الاتيان بالآيات شأن من شئون الله ، يأتي بها ان شاء ، ويؤخرها متى شاء ، وسواء أتى الله بالآيات أو أخرها فليست بمجزيين له في الأرض ، وأراهم أن نصحه لهم لا يجدي إذا كان الله قد طمس على قلوبهم ، وحال بينهم وبين الهداية بما كسبت أيديهم وباعراضهم عن الحق .

(٦) بعد ذلك أوحى الله الى نوح أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن ، فلا تحزن لعملهم وأمره بسناعة الفلك تحت رعايته وبواسطة إلهامه ، ونهاه أن يخاطبه في شأن من شئون الظالمين ، لأنه حقت عليهم كلمة العذاب ، واستأهلوا الفرق ، فلم يكن من نوح إلا امتثال أمر ربه ، فأخذني

صناعة الفلك (وكما مرّ عليه ملاً من قومه سخرّوا منه) فيقول لهم (إن تسخرّوا منا فانا نسخر منكم كما تسخرّون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه) يريد به عذاب الفرق .  
وهنا ينبغي أن نقف وقفة لها مغزاها عند قوله (عذاب يخزيه) لئلا يتأخّر إلى أن من العذاب ما هو مشرف لذات العذاب ، رافع له فوق الهامات ، كالعذاب الذي يحلّ بالرسول عند قيامهم بواجبهم ، وعذاب المطّيعين وأرباب المادى الحقّة حينما يدعون الناس إلى عقابهم . فأولئك عذابهم مرّة على الأجسام ، حاو على القلوب ، عذابهم رفع لمرجاتهم ، وتمحيص لنفوسهم . وهذا عذاب المجاهدين في سبيل الله ، والمقاتلين لأعداء كفته ، يتقدّم إليه المؤمنون ، ويسارع إليه المحضون ، لأنّه حلّ المذاق ، لذيق الطعم ، بل لأن من ورثه من النعيم مالا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ذلك هو العذاب العذب ، الذي يجعل صاحبه مثلاً كاملاً في الفضيلة ونكران الذات .

أما عذاب أعداء الحقّ ، وحزب الشيطان ، وأنصار الشهوة والهوى ، فذلك هو العذاب الذي يخزي صاحبه ، ويفضح من وقع به ، ذلك هو عذاب أعداء الرسل وخصوم الحقّ .  
(٧) بعد أن قضى الأمر ، وحلّ بالقوم من الفرق ماحلّ ، قال الله للأرض ابلى ماءك ، وللسماء أقامى عن المطر ، فلم يكن منهما سوى الطاعة والرضا ، ففاض الماء ، واستقرّت السفينة بمن فيها على الجبل المسمى بالجودي ، (وقيل بعدا) وطردا (للقوم الظالمين) هنالك نادى نوح ربه وقال ربّ إن ابني من أهلي ، وقد أغرقته فيمن غرق ، وقد وعدتني أن تنجى أهلي ، فما بال ولدي ؟ فردّ الله عليه ردّ القوى القاهرة (يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين) تأتّل ذلك الحكم العادل الذي فرق بين نوح وبين فلذة كبده ، فجعل ولده في جلة المالكين ، وجعل نوحاً في عداد المرسلين المجاهدين ، وإمّا لعلّة كبرى ، وآية عظيمة ، أن يكون الوالد في ناحية ، والمولود في ناحية أخرى ، الوالد في عداد الناجين ، والولد في جلة المالكين ، لأن الولد عمل غير صالح ، ولعل في هذه القصة عبرة لمن يعتمدون على أنسابهم ، ويتكلمون على غير عملهم ، وينسون قول الله تعالى (أم لم ينأ بما في صحف موسى «٣٦» وإبراهيم الذي وفى «٣٧» أن لاتزروا زرة وزر أخرى «٣٨» وأن ليس للانسان الاماسى «٣٩» وأن سعيه سوف يرى «٤٠» ثم يحجزه الجزاء الآوفى «٤١» (١) ) .

(٨) (تلك من أبناء الغيب نوحيا اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين) يرينا الله بهذه الآيات أن قصة نوح مع قومه من أخبار الغيب أوحاها الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم ما كان يعلمها هو ولا قومه من قبل هذا ، وهي من دلائل نبوّته ، ثم يختم القصة بأمره محمداً بالصبر كما صبر نوح على قومه ، فإن العاقبة ستكون له كما كانت لنوح من قبله ، فإن سنة الله أنها تكون للمتقين ، يمكن لهم في الأرض ، ويجعلهم أئمة ، ويجعلهم الوارثين وما أحوج الداعي إلى الصبر والثبات على الدعوة ، وعدم تسرّب اليأس إلى نفسه .

## نوح عليه السلام

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ «٢٣» فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ «١» عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ «٢٤» إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فُتِرَ بَصُورُ بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ «٢٥» قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ «٢٦» فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاصْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَجُونَ «٢٧» فَإِذَا أَسْتَوَيْتِ الْأَنْتِ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ «٢٨» وَقُلِ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبْرَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ «٢٩» إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ «٣٠» المؤمنون

## شرح وعبرة

(١) يطالب نبي الله نوح قومه بعبادة الله وحده في رفق ولين فيقابلهم الملا المستكبر بمقابلة منسكرة، ويرمونه بأنه لا يريد بهذه الدعوة إلا أن يتفضل على الناس برأسهم، لأنه بشر مماثل للناس، وليس له منزلة عليهم بها يكون رسولا وهي القرية التي قالها فرعون لنبي الله موسى وأخيه هارون (قالوا أجهنم لتفتننا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين «٧٨» ) (٢) وقد سبق الرد على شبهة أن نوحا بشر في القصة من سورة هود، أما أن نوحا يريد أن يفضل الناس برأسهم فذلك خلق الأشراف والسادة الذين يريدون أن يتعبدوا للناس، أما الرسل الذين يحملون في حنايا دهورهم أن كل الناس لآدم، وآدم من تراب، وأنه لأفضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، فلاحظ لهم من هذه القرية، لاقى قليل ولا كثير، وفي المثل العربي [رمتي بدائها وانسلت] الرسل لم يريدوا أن يتفضلوا على الناس، ولكن عاقبة أمرهم أن يصكونوا قادة، وأئمة إصلاح، يلتف الناس حولهم، ويتسمون خطاهم، وذلك ما يشاء

[١] برأسكم « ترهبوا » انتظروا « حتى حين » الى زمان يجلي فيه أمره « بأعيننا » بمحفظنا وكلامنا « التنور » وجه الأرض « آيات » عبر « مبتلين » مصيبن قوم نوح بلاء عظيم، أو مختبرين البلاء بهذه الآيات لتنظر من يستجيب بها ومن لا يستجيب . [٢] يونس .

المستكبرون وعباد الشهرة على أنفسهم ، فهم يعلمون أن الرسل ما أرادوا التفضل على الناس ، ولكنهم قسطهم مهمتهم التي كفوا بها من الله - وهي خلافتهم في عمارة الأرض والاصلاح فيها - أن يكونوا سادة الأمم ، حاملين لواء الحق ، مكلفين عن بيضة الدين ، قدوة صالحة ، ومثلا عالية في الخلق والتفضيلة ، وانها لعاقبة ما أشدها على المستكبرين الذين لم يريدوا أن يفضلاوا الناس بعمل أو عمل ، وإنما يريدون أن تكون لهم العظمة والعزة لأنهم من السيئات الكبيرة ، وأصحاب الثروة الطائلة ، فبني الله نوح عليه السلام لم يرد أن يتفضل على الناس ، ولم يخطر له ذلك الخاطر على بال ، وإنما أراد أن يبلغ رسالات ربه ، ويقوم بما أوجه الله عليه ، فإذ عثر له أن يفضل الناس فأنما يريد أن يفضلهم في أداء الواجب ، والاضطلاع بمهام الرسالة ، والصبر على الأذى ، والاحتفال في ذلك السبيل ، مما يجعله مضرب الأمثال في الخلق الطيب ، والديرة المرضية ، ذلك هو الذي يريد أن يفضل الناس به ، وأن الذي يريد أن يفضل الناس في العلم والعمل ، ويواصل الليل بالنهار ليعمل في ذلك الغرض ، هو رجل على المهمة ، كبير النفس ، شريف الغاية ، أما رجل يريد أن يتفضل بدون فضل ، ويمتاز بلا ميزة ، فذلك ما يحقته الدين ، ولا يرضى عنه خلق ، ولا يستسيغه عقل ، وهو ما ينبغي أن يحارب من خلق المستكبرين والمتعاضدين .

(٢) يقول الملائكة من قوم نوح (ولو شاء الله لأزل ملائكة) يريدون لو شاء الله أن تكون هناك رسالة في الأرض لجعلها في الملائكة ، وبذلك تكون هذا الجلة متممة لقوله (ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم) أو أرادوا لو شاء الله أن يدل على رسالته لأزل ملائكة يشهدون له بالرسالة ، ويصدقون له بالصدق ، ومثله في سورة الفرقان (لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا «٧»).

وقد رد الله تعالى على الشبهة بشقيها في سورة الأنعام (وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون «٨» ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسا عليهم ما يلبسون «٩» ) والمراد أن الله تعالى لو أنزل معه ملكا يصدق به ، وأجابهم الى ما اقترحوه من الآيات لقضى الأمر باهلاكم ، ثم لا يؤخرون ليؤمنوا ، بل يأخذهم العذاب عاجلا ، أو لقضى الأمر بقيام الساعة ، وفي معنى هذا قول الله تعالى في سورة الحجر (لوما تأتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين «٧» ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين «٨» ) أي لم يكن من شأن الله أن ينزل الملائكة إلا نزولا ملتبسا بالحق وهو الرسالة للرسل ، أو العذاب للأمم المعاندين لهم ، وكذلك قول الله تعالى في سورة الفرقان (وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبرا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا «٣١» يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا «٣٢» ) .

أما الشق الأول من الشبهة فقد رد الله عليه بقوله (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسا عليهم ما يلبسون «٩» ) فالجعل الرسول ملكا لجعل الملك متمثلا في صورة البشر ليجتنبهم رؤيته ، وسماح كلامه الذي يبلغه عن الله تعالى ، ولو جعله ملكا في صورة البشر لاعتقدوا أنه بشر ، لأنهم



لا يدركون إلا صورته البشرية التي تمثل بها ، وحينئذ يتعوق في اللبس والاشتباه الذي يلبسونه على أنفسهم باستنكارهم جعل الرسول بشرا ، ولا ينفكون يقترحون جعله ملكا .

(٣) يقول قوم نوح (ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين) ما سمعنا بنوح أو بدعوة نوح في آبائنا الأولين ، وهو يدل على أنهم قوم كانوا في فترة متطاولة ، وأهم لما لم يمتدوا إلى معرفة الحق من الباطل ، والصدق من الكذب بأنفسهم ، رجعوا إلى الآباء ، شأن الضعيف الذي لا يثق بنفسه ، ويعيش على حساب غيره ، شأنه إذا خفى عنقه الدليل ، وسد عليه البرهان الطرق أن يرجع إلى الآباء فيتمسح بها ، وإلى الأولين فيتحكم فيهم ، ذلك إذا كانوا صادقين في تحريم هذه الشهة ، وارثا لهم لتلك التقليد ، أما إذا كانوا متعنتين مع الرسل ، مشاقين لهم ، متقولين عليهم ما يعتقدون أنهم برآء منه ، فشأنهم في ذلك الاعان أعظم ، واجترأوهم على ذلك التخلص أشد وأنكى ، ولم لا يكون هذا أقرب إلى الصواب ، وأدنى إلى الحق ؟ وقد سمعوا لأنفسهم أن يصفوه بالجنون ، وهم يعلمون أنه من أرجح الناس عقلا ، وأوزنهم قولا ، وصموه بتلك الوصمة وقالوا في شأنه (إن هو إلا رجل به جنة فتر بصوابه حتى حين) عليه بطول الزمن يتيق من جنونه ، وينجلي أمره ، وهي فرية قيلت لجميع الرسل ، ألا ترى إلى قول الله تعالى (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون «٥٢» أتواصوا به بل هم قوم طاغون «٥٣»<sup>(١)</sup>) كأن بعضهم كان يوصى بها البعض الآخر ، ولا عجب فنفس المستكبرين متشابهة ، وشهواتهم متفقة ، فلا عجب أن تكون آثارهم في محاربة الحق قد تشابهت ، وكلماتهم في الطعن على الصالحين قد تقاربت ، فيقولون لمحمد صلى الله عليه وسلم (يا أيها الذين زل عليه الذكر أنك مجنون «٦٤»<sup>(٢)</sup>) ويقال له في التسلية (ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم «٤٣»<sup>(٣)</sup>) فيكون رده على ذلك الطعن البسدى ، والاعتداء الصارخ ، أن يلجأ إلى ربه ، فيطلب منه النصر على خصومه ، فيقول (رب انصرنى بما كذبون) أبدلى من غم تكذيبهم لى سلة النصر عليهم ، فيجيب الله دعوته ، ويوحى إليه أن يصنع الفلك التي فيها نجاة نوح ومن تابعه ، ويأمره أن يحمل فيها ما يحتاجه لحياته وأهله سوى من حتمت عليه كلمة العذاب ، ثم ينهاه أن يخاطبه في شأن الظالمين ، وأن يحمده ربه على نجاته منهم حينما يستقر هو ومن معه على الفلك ، ليستنصر فضل ربه عليه ، ومقدار عنايته بالصلحين ، وتسيكه بالظالمين ، كما يطلب منه أن ينزله منزلا يبارك له فيه . وأنه خير المنزلين .

(٤) ولقد كانت آخر كلمات هذه القصة (ان في ذلك لآيات وان كنا لمبتلين) ليرينا أن في هذه القصة ، قصة نوح عليه السلام مع قومه عبرا عظيمة ، تفيد المؤمن وتفتح الداعي (لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون «١١١»<sup>(٤)</sup>) في هذه القصة نزاهة القول ، ومقابلة السيئة بالحسنة ، واللاجوء إلى الله تعالى عند الشدة ، وخذلان الله للفسدين ، ونصره للصلحين وتعليم نبي الله نوح كيف يدعو ربه ، ويحمده على نعمه . في هذه القصة هذه الآيات والعبر ، وفيها

ابتلاء قومه بلاء عظيم ، وعقاب شديد ، وابتلاء العباد بهذه الآيات ، لينظر من الذى يعتبر ويدرك ما قال فى سورة القمر (ولقد تركناها آية فهل من مدكر) جعلنا الله من المدكرين بآياته المنتقمين بظلمانه .

### نوح عليه السلام

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ «١٠٥» إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ «١٠٦» إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ «١٠٧» فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا «١٠٨» وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِى إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ «١٠٩» فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا «١١٠» قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ <sup>(١)</sup> «١١١» قَالَ وَمَا عَلِمِىَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ «١١٢» إِنْ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ «١١٣» وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ «١١٤» إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ «١١٥» قَالُوا لَنْ نَمُوتَ بِنُوحٍ فَاتَّخِذْ بَيْنَ يَدَيْهِمْ قَتْعًا وَنَجِّنِى وَمَنْ مَعِى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ «١١٨» فَانْجِئْهُمْ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَائِكِ الْمَشْحُونِ «١١٩» ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَقِيَّةِ «١٢٠» إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ «١٢١» وَإِنْ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ «١٢٢» النمر

### شرح وعبرة

(١) بطلب نبى الله نوح كعادته فى رفق ولين قومه بالتقوى ، ويريهما أنه كان ولا يزال معروفا بالأمانة فيهم ، كحمد صلى الله عليه وسلم فى قرىش ، وما كان له أن يدع الكذب على الناس ثم يستبيع لنفسه أن يكذب على الله ، يذكرهم بمخاضيه معهم ، علمهم يقدرين قيمة ذلك ، وهو رسول أمين بمعنى أنه ناصح لهم ، فهو أمين فى رسالته ، ليس له أن يخون فى شيء منها ، فبإلتزامها لهم كاملة غير منقوصة ، وهى أمانة الله عنده لا يستطيع أن يقل فيها أو يغيره ، كما قال لحمد صلى الله عليه وسلم (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تعلم فما بلغت رسالته <sup>(٢)</sup>)

[١] سبق شرحها عند الكلام على القصة من سورة هود ، وتزيد هنا أن ابن عباس فسرهم بالفاقة من الناس ، وقيل هم أصحاب الصناعات الدينية كنج الثياب والكفة ، وإنما استدلوا بقرعة صبيهم من الدنيا « فانتج » الحكيم والفتاح الحاكم لأنه ينتج للخلق كما مى فيصلا لأنه يفصل بين الخصومات « المشجون » للسلوك . [٢] الثالثة .

وهي من الصفات التي اتصف بها جميع الرسل ، وما دام نوح رسولا من عند الله ، أمينا على رسالته ، فينبغي أن يتلقوها بالقبول وبأخذوها بالرضا ، ثم كرر أمر قومه بالتقوى والطاعة ، وعقب ذلك بما يرشدهم إلى أماته وصدقه ، إذ يقول (وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين) وعقب ذلك بطلب التقوى والطاعة ، شأن المهتم المعنى ، المتفاني في نجاح مهمته ، والحصول على غايته ، ، فإذا كان منهم بعد هذا التلطف ، وماذا أجابوا به بعد تكرار الطلب ؟ كان منهم بعد ذلك أن قالوا .

(٢) (أتؤمن لك واتبك الأزدلون) فلا يليق بهم [ وهم من عليبة القوم وسادتهم ] أن ينقادوا لنوح وقد اتبعه سفلة القوم وضعفاؤهم ، وأصحاب العقول الصغيرة ، وللمن الحقيرة ، وأين السادة من العبيد ، وخاصة الناس من عامتهم وسوقتهم ، وكيف يليق في حكم التقاليد أن يجمعنا بهم مجلس ، أو تربطنا بهم رابطة ؟ وهم على ما نعرف من الضعة والفقر ، ونحن على ما نرون من العظمة والجلاء ، وكيف تتفق الديمقراطية بأوسع معانيها ، والاستقرائية بأخص أوصافها ، وأين المتقنون وأصحاب العقل الراجح من السذج البسطاء الذين آمنوا بك [ بادی الأمر ] بدون روية ولا نظر ، فيقول لهم نبي الله نوح (وما علمي بما كانوا يعملون «١١٢» إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون «١١٣» وما أنا بطارد المؤمنين «١١٤» ان أنا إلا نذير مبين «١١٥» ) حاسوه على سذاجتهم ، وأنهم لم يؤمنوا عن روية وعقل ، فقال وأى شيء يعلنني بياتهم وخباياهم ، وما حسابهم في ذلك إلا على ربي لا علىي ، فانه محاسبهم ومجازيهم ، وما أنا إلا منذرلو تشعرون ذلك ما وجهتم الي لوما ، ولكنكم تجهلون ، وتناقون مع الجهل حيث سبركم ، وكأنه يلفتهم بذلك الى انكار أن يسمى المؤمن [ردلا] وان كان أفقر الناس ، وأوضحهم نسا ، فان الفتي غنى الدين والخلق ، والنسب نسب التقوى (وما أنا بطارد المؤمنين «١١٤» ) ارضاء لشهواتكم ، وقطيبيا لنفوسكم (إن أنا إلا نذير مبين «١١٥» ) أخوفكم عذاب الله وأقيم حجته على العصاة وأرباب الشهوات ، بطريقي بين واضح ، فيقولون له :

(٣) لكن لم تفته يا نوح لتسكون من المرجوعين «١١٦» آخر سهم في كنانة القوم ، لجأوا الى القوة بعد أن أعوزتهم الحجّة ، يذكرهم بماضيه معهم ، وانه كان ولا يزال أمينا ، فلا يجديهم ذلك التذكير ، ينهم الى أنه لم يطلب منهم أجرا ولا مالا ، وهو أسبقهم الى ما يطلبهم به ، أبدهم عما ينهاهم عنه ، فلا ينفعهم ذلك التفيه .

يعتزون عن قبول دعوته بضعة أتباعه وفقدهم ، فيريهم أنه رسول لا يستطيع أن يطرد مؤمنا لفقره ، ولا أن يقبل كافرا لغناه ، وأنه لا يشق عن قلوب الناس ، ليعرف من آمن عن اقتناع ومن آمن بدون نظر وروية ، فلا تنفعهم الماقتة ، ويقولون له (يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالاتنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين «١١٧» ) فيريهم أن الايتان بالآيات لم يكن من شأنه ، وإنما هو شأن من شئون الله تعالى يأتي به متى شاء ، يسلك بهم كل أولئك المسالك ، ويتفرق بهم الى حد كبير ، فينتهي بهم الأمر أن يهدوه بالرحم بالحجارة ، واللجوء الى الحديد

والنار ، وهي حجة القوة النافذة . لم يكن من نبي الله نوح بعد أن أعلن إلى قومه ، و بشر وأنذر إلا أن يرجع إلى ربه ويطلب منه أن يفتح بينه وبينهم فتحة لاستئلاق بعده ، ويحكمه حكماً يكون فيه النصر لهداية الله السالحين ، والتخزي لأعدائه المستكبرين ، وما هو إلا أن أجاب الله دعوته ، فأنجاه ومن معه في الفلك المشحون ، وأغرق الظالمين المتعتين ، وهي عبرة ما أبدعها على قلوب المؤمنين ( ثم تنجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين « ١٠٣ » ( ١ ) ) .

نوح عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ « ١ » قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ « ٢ » أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا « ٣ » يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنْ أَجَلَ اللَّهُ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ « ٤ » قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا « ٥ » فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا « ٦ » وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْصَمُوا وَاسْتَكْبَرُوا « ٧ » ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا « ٨ » ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا « ٩ » فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا « ١٠ » يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا « ١١ » وَيُمْذِقْكُمْ يَأْمُونًا وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا « ١٢ » مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا « ١٣ » وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا « ١٤ » أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا « ١٥ » وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ مِرْآجًا « ١٦ » وَاللَّهُ أَنْتَبَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نباتًا « ١٧ » ثُمَّ

[١] يونس . [٢] الوقت المضروب لهم والمراد أنهم إذا أطاعوه أهلهم ومكثهم من النوب الذي يسألون فيه فانه إذا جاء أجل الذي شره لوفاتهم لا يؤخر « استعصموا » طلبوا أن تغفم وتطمم « مدرارا » كثير الدور « جنات » باتين « وقارا » تعظيما منه لكم « أطوارا » طورا بد طور ودحا بد حال « طباقا » بعضها فوق بعض .

يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُغْفِرُ لَكُمْ إِنْ أَخْرَجَا «١٨» وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا «١٩»<sup>(١)</sup>  
لِتَنْسَلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا «٢٠» قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّي هُمْ عَصَوْنِي وَأَتَّبِعُوا مَنْ لَمْ  
يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا «٢١» وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا «٢٢» وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ  
الْهَيْكُلَ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاطًا وَلَا يَنْفُوتَ وَيَقُوتُ وَنَسْرًا «٢٣» وَقَدْ أَضَلُّوا  
كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا «٢٤» مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَذَلُّوا نَارًا فَلَمْ  
يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا «٢٥» وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ  
الْكَافِرِينَ دَيَّارًا «٢٦» إِنَّكَ إِنْ تَذَرُهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا  
كَفَّارًا «٢٧» رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدِي وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ  
وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا «٢٨» نوح

### شرح وعبرة

(١) بنبينا الله تعالى في هذه السورة الى أن نوحا عليه السلام أنذر قومه وبشرهم ،  
ووعدهم اذا هم أطاعوه أن يغفر الله لهم ما فرط من الذنوب ، ويؤخرهم في تمكن من الطاعة ،  
متمتعين بما سخر الله لهم من خيرات هذه الحياة الى الوقت المضروب لموتهم ، وهو كقوله في  
سورة هود (وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي  
فضل فضله وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير «٣» )

وأراهم أن أجل الله الذي حدده لهلاك الأمم وعقوبتها إذا جاء لا يمكن تأخيرها (ولكل أمة  
أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون «٢٤» <sup>(٢)</sup> )

وقد تمى نوح عليه السلام أنه لو كان قومه يعلمون من الله هذه السن في عقوبة الأمم  
والشعوب حينما تنسى عن دين الله ، وتغشى أمره ونهيه ، ووعدهم كذلك أن يرسل السماء كثرة  
المطر عليهم ، فيذوقوا بلما في الشرب والزرع وحياة الحيوان ، ويجعل لهم البساتين والأنهار العذبة  
(٢) ثم رجع إليهم بعد ذلك الوعد وقال (مالكم لا ترجون لله وقارا )

يسألهم أى شيء ينعم أن يرجو من الله تعظيما لهم في دار التواب وقد خلقهم على أطوار  
مختلفة ، وحالات متفاوتة ، خلقهم من سلالة من طين ، ثم جعلهم فطنة في قرار مكين ، ثم خلق  
الطفة علة ، فخلق العلة مضفة ، ثم جعل المضفة عظما ، فكسا العظام لحما ثم أنشأها خلقا آخر

[١] « بساطا » مبسطة يحملون عليها ، كما يقلب الرجل على بساطه « فجبا » واسعة « كبارا »  
مبالغة في الكبر « تنزل » تترك « ديارا » أحدا وهو من الأسماء المستعارة في النحى العام « تبارا »  
هلاكا . [٢] الأمراف .

فشقّ لما أذنّا نسمع ، وعينا نبصر ، ولسانا ينطق ، ودماغا يفكر ، فتبارك الله أحسن الخالقين .  
إله له هذه الآيات لماذا ينصرف الناس عنه ولا يدينون له بالطاعة ؟

(٣) ثم قصد الى طريق آخر يرغب به في طاعة الله ، والوقوف عند حدوده ، فأخذ يذكرهم بآيات الله في سمائه وأرضه ، وما جعل فيهما من نور القمر وضوء الشمس ، وكيف أنبت الله من الأرض نباتا ، ثم يعيدنا فيها ويخرجنا منها عند البث إخراجا ، وكيف جعل لنا الأرض بساطا ومهدا للزرع والمشي ، لتلك منها السبل ، ونستخرج منها الزرع ، ونستخلص منها المعادن .

(٤) شكانيّ الله نوح قومه الى ربه ، وأنه دعاهم ليلا ونهارا ، فلم يردّهم دعاؤه إلا فرارا ، وأنه كلما دعاهم سددوا مسامعهم ، وقطعوا بياهم ، حتى لا يسمعوا قولا للداعي ولا يسمروه ، وأصروا على عنادهم ، واستكبروا على رسولهم ، وقد لوّن لهم الدعوة ، وفوت بين الأساليب ، فترة يخوف ، وأخرى يبشر ، ومرة يشتد ، وأخرى يلين ، ومرة يهدم بنم الله ، وأخرى يذكرهم بآياته في الآفاق وفي أنفسهم ، فلم تنفعهم مع ذلك الموعظة ، ولم تفدهم الذكرى ، ومكروا بدعوته ، وأصروا على عصيانه ومخالفته ، ووصى بعضهم بعضا بالباطل وقالوا :

(٥) (لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا وذّا ولا سواها ولا يغوث ويعوق وسرا)

كانت أصناما تعبد لقوم نوح ، نهامهم عن عبادتها ، وواصل الليل بالتهار في تنفيرهم منها ، وبعد الجهد الطويل ، ومئات السنين التي أنفقتها في الدعوة الى عبادة الله وحده ، يوصى بعضهم بعضا أن لا يدعوا هذه الآلهة ، ولا يتركوا أولئك الأصنام ، وقد روى المحدثون وعلماء الأثر أن أولئك الآلهة كانت أسماء لرجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوصى الشيطان الى قوهم أن انصبوا الى مجالسهم التي كانوا يجلسون اليها أنصبا وسموها بأسمائهم ، ففعلوا فلم تعبد ، حتى اذا هلك أولئك ، وذبت علامات تلك الصصور عبت ، وقد أخذنيّ الله نوح يشكو من أولئك الأصنام ، واضلاها للناس ، أو من رؤوس الكفر الذين يتواصون بالباطل .

(٦) بعد أن عيل صبره ، وفقدت جميع أساليبه في الدعوة الى الله ، أخذ يدعو عليهم (ولا تزد الظالمين إلا ضلّالا) . (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) وعمل ذلك بقوله (إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) فانهم أئمة الضلال ، ورؤوس الكفر ، وما داموا على ذلك الحال فهم خطر على كلّ موحد ، وحجر عثرة في سبيل الإصلاح . لتلك دعا الله أن لا يدع على وجه الأرض واحدا منهم ، لأنه ان تركهم أضلوا عباد الله . وان ولدوا نشأوا أولادهم على الشرك ، ور بهم على الكفر ، ثم أخذ يدعو ربه أن يفرقه ولوالديه ، ولبن دخل بيته مؤمنا ، وللمؤمنين والمؤمنات ، وما طلب مغفرة لكافر ولا لمشرك ، وإنما طلبها لنفسه وأهله المؤمنين ولبن دخل بيته منهم ، وختم دعاءه بقوله (ولا تزد الظالمين إلا تبارا) وهلاكا .

(٧) وقد أجل الله في هذه السورة عقوبه قوم نوح على مخالطة أمره ، فقال (عما خطيئتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا « ٢٥ ») ليرى أنه غرق سببه الخطيئة ، وأن ذلك الفرق الذي حلّ بهم لم يستطع أحد أن ينقدهم منه

ومن مواطن العبرة في القصة أن الله تعالى يقول فيهم ( أغرقوا فأدخلوا ناراً ) ليرينا أنه ليس بينهم وبين أن يدخلوا نار جهنم سوى فترة قصيرة، وأنه لا غنى لهم عن نار الآخرة بعد أن أخزاهم الله في الدنيا بالفرق ، غفروا الدنيا والآخرة بصيان الله ، كما فاز من فاز بمعادة الدارين بطلاعته والوقوف عند حدوده .

## دعوة هود

إلى الله تعالى

وَإِلَى عادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنُرِيكَ فِي سَفَاهَةٍ <sup>(١)</sup> وَإِنَّا لَنَنْظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَالْأَكْبَرُ رِسُولُ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أَتَبْلُغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً <sup>(٢)</sup> فَأَذْكُرُوا ءَالَآءَ <sup>(٣)</sup> اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ <sup>(٤)</sup> مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ <sup>(٥)</sup> وَغَشِبَ أَجُودِلُونِي فِي أَسْمَاءٍ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ <sup>(٦)</sup> الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ الأعراف

[١] خفة الحلم وسخافة العقل . [٢] سعة . [٣] فسه : جمع إلى كضلع والضلاع . [٤] ترك .

[٥] عذاب . [٦] استأصلم .

## شرح وعبرة

(١) يرينا الله تعالى أنه أرسل الى عاد أخاهم هودا ، وسماه أنا لهم باعتار النسب ، كما يقال في أخوة الجفس كله : يا أنا العرب ، فطالبهم بعبادة الله تعالى شأن ججع الرسل ، ثم قال ( أعلا تتقون ) ما يسخط الله تعالى من الشرك والمعاصي ، وهو إنكار من نبي الله هود أن يكون من قومه شرك وعصيان ، بعد أن كان من عقاب الله تعالى لقوم نوح ، وقال في سورة هود ( أعلا تعقلون ) أى أليس عندكم من العقل ما يحول بينكم وبين عصيان الله تعالى والصوق عن أمره ؟ وغاير بين الأسلوبين لتتويع القائمة ودفع الملل عن القارئ كما هي سنة القرآن في التمس .

(٢) قال الملا الذين كفروا من قومه إنا لراك في سناهة وإنا لظلك من الكاذبين ( الملا الأشراف والسادة ، وقيد الملا هنا بذلك الوصف ، وهو الذين كفروا ، دون الملا من قوم نوح لأن في أشراف قوم هود من آمن به ، ولم يكن في أشراف قوم نوح مؤمن ، وبحوه قوله تعالى ( وقال الملا من قومه الذين كفروا وكذبوا بآباء الآخرة ٣٣ ) ) ويجوز أن يكون وصفا واردا للدم لا غير ، وقد وصفوا نبي الله هودا بأنهم يرونه في سفاهة ، وهو أبلغ في الفهم من قولهم : نراك قد سفهت ، لأنهم أرادوا بالطرفية على سبيل المجاز أنه متمكن فيها ، عر منك عنها ، ثم زادوا على ذلك أنهم يظنونونه كاذبا في جهة الكاذبين في دعوى الرسل عن الله تعالى ، وعو بد من تكذيب كل رسول ، إذ عبروا عن أصحاب هذه الدعوى بالكاذبين ، وجعلوا هودا واحدا منهم ، فكان رد نبي الله عليهم غاية في الأدب والاضواء ، إذ ترك متابعتها بالمثل ، مع علم نبي الله أن خصومه أصل الناس وأحقهم ، وفى ذلك من الأدب الحسن ، والخلق العظيم ، ما يناسب مع مركز الدعوة الى الله تعالى ، والارشاد الى طريقه ، فأخذ يريهم أنه لم يكن به شيء من السفاهة ، ولكنه رسول من رب العالمين ، مهمنى أن أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح فيما أدعوكم إليه ، لأن فيه سعادتكم ، أمين على ما أقول عن الله تعالى ، فاني لا أكذب عليكم حسب ما عودتكم من سيرتي ، فكيف لا أستطيع الكذب عليكم وأستطيعه على ربي عز وجل ؟ ( أو عجبم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ) أى أكذبتم وعجبتم أن جاءكم موعظة من ربكم على لسان رجل منكم لينذركم عذاب الله ، ثم أخذ يذكر فضل الله عليهم ، فيشعرون بذلك النوع من التذكر ، فأصمهم أن يذكروا في نفوسهم أن الله تعالى جعلهم خلفاء في الأرض من بعد قوم نوح ، وزادهم سعة وبسطة في الخلق ، بسعة المال والحضارة ، ثم أعاد عليهم أن يذكروا نعم الله عامة رجاء أن يفلحوا بذلك التذكر ، وهو يشبه قول نبي الله نوح ( ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا ١٥ ) وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ١٦ . والله أنفك من الأرض نباتا ١٧ ) ثم بيدهم فيها ويخرجكم إخراجا ١٨ ) والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا ٢٠ ) ( ١٧ ) يأتون لهم الخطاب ، ويتفنن في أساليب الدعوة ، فرة بخوفهم ، وأخرى يدرهم ، وأحيانا يذكروهم بنعم الله عليهم ، وأورد يندبرهم عذابه وبطشه .



(٣) فكان جوابهم بعد ذلك كله أن قالوا (أجئنا لنعبد الله وحده ونفذر ما كان يعبد آباؤنا) فأنكروا عليه أن يجيئهم بالتوحيد ، وترك ما كانوا عليه من شرك وأصنام كان يعبدها الآباء ، ثم قالوا له (فاتقنا بما تعبدنا إن كنت من الصادقين) في إظهارك ، أو في دعواك أنك رسول من رب العالمين ، فيقول الرسول لهم بعد هذه المقابلة المنكرة ، والتحدى المكشوف ، بلسان الواثق من وعيد ربه ، المطمئن لنصره (قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب) وذكر العصب بعد الرجس لبيان أن الرجس قد أريد به الانتقام الختم ، فلا يمكن رفعه ، ونعوذ بالله من رجس معه غضب ، والرجس الذي توعدهم به نبي الله هود هو العذاب الذي بينه الله في سورة القمر إذ يقول (كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر «١٨» إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا (١) في يوم نحس مستمر «١٩» تنزع (٢) الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر «٢٠» فكيف كان عذابي ونذر «٢١») ثم قال لهم منكرا عليهم : أنخصمونني في أسماء وضعتوها أتم وأبأؤكم الذين قلدتموهم على غير علم ولا هدى منكم ، ما أنزل الله بها من حجة ولا سلطان ، فانتظروا نزول العذاب الذي طلبتموه إني معكم من المنتظرين ، فكان عقوبة أمره أن نجاه الله ومن آمن معه برحة عظيمة من الله تعالى واستأصل أعداءه بريح (تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين «٢٥» (٣) .

### هود عليه السلام

وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يُقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَنُتِمُ إِلَّا مُفْتَرُونَ «٥٠» يُقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنِّي أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ «٥١» وَيُقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلَ إِلَيْكُمْ سَمَاءً مِّنْ ذُرَارٍ «٥٢» وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ «٥٣» قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ «٥٤» وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ «٥٥» إِنَّ نَقُولُ إِلَّا أَقْرَابَكَ «٥٦» بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ «٥٧» مِّنْ دُونِهِ فَكَيْدُوْنِي جَمِيعًا نَّمَّ لَا تُنْظَرُونَ «٥٨» إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبَّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ «٥٩» فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَقْتُكُمْ

[١] ذات صوت شديد طافية . [٢] تضرعهم على الأرض «منقعر» قلع عن منابته وزال عن أماكنه .

[٣] الأخاف . [٤] كثيرة المرور كالنزار . [٥] حجة . [٦] منك وأصابع .

مَا أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ<sup>(١)</sup> «٥٧» وَلَمَّا جَاءَ أُنْمُوتُنَا نَحْنُهَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجِّينَهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ «٥٨» وَتِلْكَ آيَاتُ جَحْدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ «٥٩» وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَهُ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا<sup>(٢)</sup> لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ «٦٠» مود

### شرح وعبرة

(١) يرينا الله تعالى في هذه السورة أنه أرسل إلى عاد أخاهم هودا ، وأنه دعاها إلى عبادة الله وحده ، ثم قال لهم انكم مفترون على الله الكذب بافتخار الأوثان شركاء له ، ثم أراه أنه لم يطلب على دعوته أجرا منهم ، وإنما يطلب الأجر من الله تعالى . وإنك لو قرأت دعوة الرسل جميعهم لرأيتهم جميعهم يواجهون قلوبهم بذلك القول ليعترفوا أن شأن الرسل تمحيض الصبح لأقوامهم ، وذلك لا يكون إلا حيث خلت دعوتهم عن المظالم ، وتمحضت لارضاء الله تعالى ، والرضية فيما عنده من ثواب ، ولذلك عقب ذلك بقوله ( أفلا تعقلون ) إذ تردون نسيحة من لا يطلب أجرا إلا من الله ، ثم أخذ يدعوهم إلى استغفار الله تعالى من الشرك السابق وإلى الإيمان به ، ويريه أن ذلك الاستغفار يكون سببا في إرسال السماء عليهم بالمطار كشيرة الغرور ، وفي أن يزدادوا قوة إلى قوتهم ، فقد كانوا أقوياء ، واستكبروا في الأرض بسبب قوتهم ( فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقتلوا من أشد منا قوة «١٥» ) (٣) فوعده الله ، ووعده الحق أنهم إن آمنوا بربههم ازدادوا قوة إلى قوتهم ، ثم قال لهم ( ولا تتولوا مجرمين ) لاتعرضوا عني وعما أدعوكم إليه مصرين على إجرامكم وأنامكم .

(٢) فكان ردعهم على هود نبي الله ورسوله أن قالوا ( يا هود ما جئنا بيه ) وهو كذب منهم وجمود . كما قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم ( لولا أنزل عليه آية من ربه ) مع ثبوت آياته المحصر ( وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك ) لاندع آلهتنا صادرين في ذلك الترك عن قولك ونضحك ، بل سننظرك لها عابدين ( وما نحن لك بمؤمنين ) اقاطنا له من الاجابذ ، ونميشاله من الإيمان ، ثم لم يقفوا من نبي الله عند ذلك الحد ، بل قالوا في سبب دعوته لهم : ان آلهتهم التي يعبدونها قد منه بسوء ، وخبل ، لصده اللسان عنها ، وعداوتها لها ، ومن أجل ذلك بهذى في نظرهم هذين المجانين ، وقد دلت أجوبتهم أن القوم كانوا جناة ، غلات الأكباد . لا يبالون بالبهت ولا يلتفتون إلى النصيح ، ولاتلين شكيمتهم للرشد ، ولا سيما قولهم ( إن قول إلا اعتراك عض آلهتنا بسوء ) فانه يدل على جهل مغرط ، وبله متناه ، حيث اعتقدوا في حجارة أنها تنفصر وتنقسم ، ولعلمهم حين أجازوا لها أن تعاف كانوا يحيزون لها أن تتيب .

(٣) فكان من نية الله بعد ذلك التهديد أن قال لهم (إني أشهد الله واشهدوا أني برىء مما تشركون من دونه فكيديوني جميعا ثم لانتظرون) ومن أعظم آيات الصدق ، والاخلاص أن يواجه بهذا الكلام رجل واحد أمة عطاشا الى إراقة دمه ، يرمونه عن قوس واحدة ، ثقة بربه أن يصمه منهم فلا تنشب فيه مخالفهم ، ومثل ذلك قول نوح عليه السلام (ثم اقضوا اليّ ولا تنظرون) وانظر الى قوله (فكيديوني جميعا) يريد أني لا أبالي بكم وبكيديكم ، ولا أخاف معرككم وإن تعاونتم عليّ ، وأتم الشداد الأقوياء ، فكيف تضربني أهلككم ، وما هي إلا جاد ، وكيف تنته مني إذا نلت منها ، وصددت عن عبادتها ، بأن تحبلي وتذهب بعقلي ، نعم إن هذه آية من آيات الله في أنصار الحق ، وعبرة من العبر ، من آيات الله فيهم أن يزبل من قلوبهم هيبة الظالمين ، وخشية المفسدين ، لأن قلوبهم امتلاّت بالخشية من الله والخوف منه ، ولأنهم واقفون بضغيف كيد الشيطان ، وأنصار الباطل ، وقد أرانا الله تعالى أن الباطل للجلج ، وأن الحق واضح أبلج ، وأن العاقبة لأوليائه ، والخذلان لأعدائه ، وقدوتنا الحسنة في ذلك أئمة الهدى ، وهداة البشر من اختارهم الله تعالى لقيادة الناس ، وسعادة الانسانية ، فهم الذين يرحمون لنا طريق الدعوة ، ويعرفوننا الاستهانة بالباطل ، وإكبار الحق ، ومن أجل ذلك كانوا أشجع الناس قلوبا ، وأوثقهم عقيدة ، وأربطهم جأشا ، فتضطرب الأرض ومن عليها بفساد المفسدين وهم لا يضطربون ، وتضج من هول الحادثة والمستكرين ، وهم على دينهم دائنون ، وبدعوتهم معصمون ، وعلى ربه متوكلون ، وانظر الى قوله بعد ذلك التحدى (إني توكلت على الله ربي وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بماصيتها) لتعلم سرّ هذه الشجاعة النادرة ، والثقة الغالية ، سرّها أنه متوكل على ربه ، معصم بولاه (ومن يعصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم «١٠١»<sup>(١)</sup>) وجدير بمن يتوكل على ربه ، ويلجأ الى خالقه أن يبدل خوفه أمنا ، وضعفه قوة ، ويرزقه عزا لا ينقطع ، وقوة لا تقف عند حدّ (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون «٨»<sup>(٢)</sup>) وما أحوج الداعي الى الله لذلك التوكل ، وتقرىض الأمور الى الله تعالى ، والاستعانة بالصبر والرضا ، وطلب الأجور منه تعالى . ثم وصف الربّ الذي توكل عليه ووثق به في حفظه وكلامه بما يوجب التوكل عليه ، فقال (ما من دابة إلا هو آخذ بماصيتها) والناسية : منبت الشعر في مقدّم الرأس ، وإذا وصفوا انسانا بالله والمخضوع قالوا : ماناسية فلان إلا بيد فلان ، يريد أنه مطيع له ، لأن كلّ من أخذت بناصيته فقد قهرته : أى مامن حيوان إلا تحت قهره وقدرته ومنقاد لقضائه وقدره ، ثم ختم ذلك بقوله (إن ربي على صراط مستقيم) يريد أنه على طريق الحقّ والعدل في ملكه ، لا يفوته ظالم ، ولا يضعع عنده معصم به .

(٤) ثم أراههم أنهم ان أعرضوا عنه بعد ذلك فقد قام بما أوجبه الله تعالى عليه وأبلغهم رسالات ربه فلا يعاتب على تفريط في الإبلاغ ، وهم الذين يعاقبون على عنادهم ، وامتناعهم من اجابة داعي الحق ، ثم توعدهم بأن الله تعالى (سيستخلف) قوما غيرهم في ديارهم وأموالهم بعد أن يهلكهم ، كما قال في سورة محمد (وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم «٣٨»)

ولا تضرون ربكم شيئا من الضر بذلك التولى ، وإنما تضرون أنفسكم ، ثم علل ذلك بقوله (إن ربى على كل شيء حفيظ) فما تخفى عليه أعمالكم ، ولا يفل عن مؤاخذتكم .

(٥) ثم أرا ما أنه لما جاء أمر الله بالعذاب نجى هودا والذين آمنوا معه من ذلك العذاب : أى بسبب رحمة من الله لهم ، وهى ما هداهم إليه من الإيمان به والعمل الصالح ، ثم أراد الله أن يرينا مقدار فضله عليهم فى هذه النجاة ، فقال (ونجيناهم من عذاب غليظ) وقد شرح القرآن الكريم ذلك العذاب الغليظ فى سورة الذاريات (وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم «٤١» ما نذر من شيء أنت عليه إلا جعلته كالريم <sup>(١)</sup> «٤٢» ) وكذلك فى سورة الحاقة (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية «٦» سخروها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية «٧» فهل ترى لهم من باقية «٨» ) والريح الصرصر : ذات الصوت الشديد لعنتها وشدتها (وحسوما) متتابعة ، ثم قال مهتدا لقريش ، ومن على دين قريش (وتلك عاد) فسيحوا فى الأرض وانظروا الى قبورهم ، واعتبروا بآثارهم (تلك عاد) التى نسبت ربحها ، واعتزت بسلطانها وقوتها ، واعتزت بأبنتها وعظمتها (وأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق) وقالوا من أشد ما قوة أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون «١٥» فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات <sup>(٢)</sup> لنذيقهم عذاب الخوى فى الحياة الدنيا وللعذاب الآخرة وهم لا ينصرون «١٦» <sup>(٣)</sup> ثم أراد أن يبين سبب ذلك العذاب فقال (جعدوا بآيات ربهم) والجعدوا : فنى مافى القلب اثباته واثبات مافى القلب نفيه (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظروا كيف كان عاقبة المفسدين «١٤» <sup>(٤)</sup> ) ترى الآية أن أولئك أنكروا آيات الله لا عن شبهة فى أنفسهم ، بل اتقى جلهم على الإنكار الظلم والاستكبار أما قلوبهم فهى مسيقنة بها ، مقتنعة بأحققتها . وقال فى سورة التكبوت (وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون — وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون <sup>(٥)</sup> ) وقال (قد نعلم انه ليحزنك الذى يقولون فاتهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون «٣٣» <sup>(٦)</sup> ) من ذلك كله نعرف أن عادا جعدوا بآيات ربهم وهم يجهلون أنها حق من عند الله ، وذلك هو السبب الأول للعذاب الذى حل بهم ، أما قوله (وعصوا رسلا) ومنه (كذبت قوم لوط المرسلين) مع أنهم لم يعصوا إلا رسولهم وهو هود عليه السلام ، فهو يرينا أن من عصى رسولا واحدا فقد عصى جمع الرسل ، لأنه عصاه من أجل رسالته ، وخالفه مع قيام الحجة على حقة دعوته ، فصار عاصيا لكل الرسل . لأنهم جميعهم أرسلوا لاصلاح الخلق ، وإقامة الحجة على أبواب الشهوة والهوى (لا تفرق بين أحد من رسله) وهى كلمة لها خطر على قوم يدعون الإيمان ببعض الرسل : كوسى وعيسى عليهما السلام ، ثم هم مع ذلك ينكرون الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ولو كانوا سادقين فى دعوى الإيمان برسولهم لأنوا بسائر الرسل . فانه لا فرق بين رسول ورسول ، فإذا كان عيسى رسولا حقا لأنه أقام البيئة على دعواه ، فمحمد كذلك أقام البيئة على دعواه ، أما أن نعصب لبعض الرسل

[١] التى لا تلحق سحابا ولا شجرا « الرمي » الفتات من الحطب والذين . [٢] مشومات .

[٣] فصلت . [٤] النمل . [٥] ٤٧ — ٤٩ التكبوت . [٦] الأمام .

ونبعث في أدلته وبراهينه ، ثم نفض العين عن رسول آخر ، فذلك ما لا يرضاه الانصاف ، وحسبنا أن القرآن الكريم يقول في ذلك (إن الذين يكفرون بالله ورسوله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسوله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً « ١٥٠ » أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للعافرين عذاباً مهيناً « ١٥١ » والذين آمنوا بالله ورسوله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً « ١٥٢ » ) (١) وقوله (واتبعوا أمر كل جبار عتيد) يرينا أن أولئك الأقوام استمعوا الى رؤسائهم وكبرائهم في الكفر والضلال ، وأطاعوهم طاعة عمياء ، فأضلواهم السبيل ، فكان جزاؤهم على ذلك الجحود وعصيان الرسل ، وتقليد الرؤساء ، أن أُنذروا لعنة وبعداً عن رحمة الله في هذه الحياة ، ثم لعنة أخرى يوم القيامة ، تحول بينهم وبين مواطن الكرامة . ثم أخذ ينفذ النفوس الى ماحق ويحقيق بأولئك النصاء في الدنيا وفي الآخرة ، فقال مهولاً لأسرهم ، ومظفلاً له (ألا بعدا لعاد قوم هود) دعاء باهلاك بعد وقوعه ، ليرينا أنهم قد استأهلوه بهم . واستحقوه بجحودهم وعصبياتهم ، وقوله (قوم هود) ليرينا أن عاداً نوعان : عاد الأولى وهو قوم هود ، وأن ذلك العذاب الذي بينه في هذه القصة هو لهم ، والثانية هم إرم ذات العماد ، فذكر ذلك لازالة الاشتباه

### هود عليه السلام

كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ « ١٣٣ » إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ « ١٣٤ » إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ « ١٣٥ » فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا « ١٣٦ » وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ « ١٣٧ » أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ « ١٣٨ » آيَةً تَعْبَثُونَ « ١٣٩ » وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ « ١٤٠ » لَكُمْ تَحْمِلُونَهَا « ١٤١ » وَإِذَا بَطَشْتُمْ « ١٤٢ » بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ « ١٤٣ » فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا « ١٤٤ » وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ « ١٤٥ » أَمَدَّكُمْ بِأَنْفُسِكُمْ وَبَنِينَ « ١٤٦ » وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ « ١٤٧ » إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ « ١٤٨ » قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ « ١٤٩ » إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ « ١٥٠ » الْأَوَّلِينَ « ١٥١ » وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ « ١٥٢ » فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ « ١٥٣ » إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ « ١٥٤ » وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ « ١٥٥ » النمر

[١] النساء . [٢] المكان المرتفع الذي يبدو من بعيد ، و « آية » بناء طائلاً . وتبيل العلم . [٣] جمع مصنعة كالخوض يجمع فيها ماء للطر . [٤] البطش تناول الشيء بصولة « جبارين » قاهرين . [٥] مادة .

## شرح وعبرة

(١) الجديد في هذه السورة أن نبي الله هودا عليه السلام بعد أن دعاها إلى القوى ، وعرفهم أنه رسول أمين ، لا يسألهم على تليغهم رسالة الله أجوا - بعد ذلك كله أخذ ينهاتهم أن يتخذوا بكل مكان مرتفع من الأرض بناء شامخا هو آية للناس ، وعلم ظاهر يلفت نظر كل من يراه ، وأنهم لم يبنوا أولئك الآيات لأغراض صحيحة ، ومصالح تعود عليهم بالنفع ، وإنما كانوا عابثين لاعبين ، فكانوا يستهوا في بعة المال ، وإضاعة الثروة ، وما أكثر هؤلاء في زماننا ، ما أكثر البائنين للعب والعت ، والمشيدون للرياء والفخر ، وما أضيع المال في أيدي أولئك السهوا العابثين ، وما أحوجهم إلى أوصياء يضربون على أيديهم ، ويحولون بينهم وبين ذلك العت ، وهي دعوة من نبي الله هود عليه السلام إلى الاقتصاد وتوحيب المال ، ووضع حيث يفيد ويثمر ، وما فائدة الأمة من قصر مشيد قد بذل في بنائه عشرات الآلاف من الجنيهات ؟ ما فائدة الأمة من ذلك القصر الذي يلهو به ويمتج رجل واحد ، وللملايين من الأمة لاتجد مأنا كل ، ولا تعرف أين تعيش ؟ نعم إن ذلك الضر وأمثاله يكون فذى في عين كل عاقل ، ما دامت مصروف الأمة ضائعة ، ومساكنها معطلة ، وأيديها العاملة لاتجد مكانا تعمل فيه ، ولعل لأغنيائنا الذين لم يعرفوا قيمة المال ولا منزلة للثروة ، أن يعتبروا بتلك النصيحة ، فيبني الثرى منهم على قدر متاعه ، غير لاعب ولا عابث ، ذا كربن أن المال قد جعله الله قبلا للناس في معاشهم ومصلحتهم ، وأنهم خلفاء الله فيه ، وسيحاسبهم عليه الحساب العسير ، كما يحاسبه على كل نعيم يعمون به . كما ينكر عليهم نبي الله أن يتخذوا مأخذا للقاء يجمعونه فيها كالأحواض ، راجين أن يتخذوا في هذه الحياة ، فني الله لم ينكر عليهم بناء الآيات ، وإنما أنكر عليهم أن يعيشوا بذلك البناء ، ولم ينكر عليهم اتخاذ المصانع ، بل أنكر عليهم رجاءهم الخلود بها ، ونسبائهم الموت وما بعد الموت . ثم قال لهم ( وإذا بطشتم ببطش جبارين ) يريد أنكم قساة غلاظ ، إذا سلطتم على من هو دونكم في القوة كان بطشكم بهم بطش جبار ، لا ترحمون له عهدا ، ولا تعملون لجواره حسابا .

وما أقرب ذلك الوصف الذي يصف به نبي الله هود قومه عادا إلى غلاة المستعمرين ، ودول الحضارة اليوم ، إذا سلطهم الله على شعب من الشعوب بطشوا به بطش الجبارة ، وأذاقوه العذاب ألوانا شتى الأطفال ، وسبوا النساء ، وهتكوا الحرمات ، ومنقروا المساكين ، وقبلا الأبرياء ، وهذه آثارهم في كل مكان تتيب الطفل ، وتضج لها الإنسانية ، ويضض لها الماء الحاد .

(٢) ثم أخذ يكرر مطالبتهم بالقوى والطاعة ، ويذكرهم بما أمدهم الله به من أنعام وبنين ، وجنات وعبود ، ويخوفهم من عذاب الله إذا هم حالنوه ، فكان جوابهم بعد تلك العظة أن قالوا له ( سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين إن هذا إلا خلق الأولين وما نحن بمعتدين ) لم يبالوا بوعظه ، ولم يعملوا حسابا لتذكيره ، سيان عددهم كلامه وسكوته ، وما عكوبهم على آلهتهم إلا عادة من سبقهم من الأمم ، وتقدمهم من الآباء والجدود ، ولا غنى لهم عن سنة آبائهم ، وتقليد أسلافهم ، ولم يريدوا أن يقولوا من نبي الله عند ذلك الحق ، بل قالوا ( وما نحن بمعتدين ) على ذلك الشرك ، ولا نرى بأى حجة يضمنون لأنفسهم النجاة من العذاب ، إذا كانوا مؤمنين

بالحساب ، ولعلمهم أرادوا بقولهم ( إن هذا إلا خلق الأولين ) أن مانحن عليه من حياة وموت ان هو إلا عادة لم يزل عليها الناس من قديم الدهر ، فليس هناك ثواب ولا عقاب ، ولاجنة ولا نار ، كما يقول الدهريون ( وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم إلا بظنون « ٢٤ » <sup>(١)</sup> ) ثم أرانا أنهم كذبوا نبي الله هودا فأهلكهم الله بذلك التكذيب ، وأن في ذلك التكذيب عبرة للعالمين ، وما كان أكثر قوم هود مؤمنين ، وإن ربك ( العزيز ) الغالب على أمره ، لا يظلم ظالم ، ولا يعجزه متكبر ، وهو رحيم بالناس في عقوبتهم ، لطيف بهم في معاملتهم ، ومن ناحية أخرى يرينا أنه مع عزته وقهره هذا واسع الرحمة ، ورحته سقت غضبه .

## دعوة صالح

إلى الله تعالى

وَإِلَىٰ نَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ تَكْثُفُ يَتَنَّهُ <sup>(٢)</sup> مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ <sup>(٣)</sup> وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ <sup>(٤)</sup> فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجُونَ الْأَجْبَالَ يُيُوتَا قَاذِكُرُوا الْآءَ اللَّهِ وَلَا تَمْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ <sup>(٥)</sup> قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْمِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ <sup>(٦)</sup> قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِاللَّذَى آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ <sup>(٧)</sup> فَمَقَرُّوا <sup>(٨)</sup> النَّاقَةَ وَاعْتَوَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أُنْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ <sup>(٩)</sup> فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ <sup>(١٠)</sup> فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جُثَمِينَ <sup>(١١)</sup> <sup>(١٢)</sup> فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ <sup>(١٣)</sup> الْأَعْرَافَ

[١] الجانية . [٢] آية واضحة . [٣] أنزلكم فيها وجعلها مباءة لكم . [٤] نحرُوا « عتوا » نمرّدوا متكبرين . [٥] الزلزلة . [٦] باركين على ركبهم من شدة الهول .

## شرح وعبرة

(١) يرينا الله تعالى أنه أرسل الى نوح أخاهم في القسب والوطن صالحا ، وقد سماه أخا بذلك الاعتبار . سئل الامام عبد الله بن أبي ليلى عن اليهودى والنصراني يقال له أخ ؟ فقال الأخ في الدار ، واستدل بالآية ، رواه أبو الشيخ ، وقد قال لهم نبي الله بعد أن طالبهم بعبادته وحده شأن بقية الرسل ( قد جاءكم بينة من ربكم ) وقد أرانا الله في قصة صالح من سورة هود أنه أراهم آية في الناقة بعد ردعهم لدعوته ، وتصريحهم بالشك في صدقه ، وجاء في سورة الشعراء أنهم طلبوا منه الآية وتحذوه بها ، إذ قالوا ( نأت بآية إن كنت من الصادقين ) ومن مجموع السور نعرف أن الدعوة إلى الله تعالى ، والنحويف من عذابه و بطشه كانت أولا ، والانان بالآية بعد طلبها كان ثانيا ، ولم يمن القرآن بترتيب الحوادث فيذكرها على نسبة أوقاتها ، لأن القرآن لم يكن كتاب تاريخ جاء لتحديد الحوادث ، ويان أوقاتها ، وانما هو كلب عمرة يمان سفن الله تعالى في البشر ، وهداية الرسل عليهم السلام ، ولذلك ترى القصة الواحدة فيها الاجال والبسط ، والتقديم والتأخير ، وشبه زيادات في بعض السور لم تكن في البعض الآخر ، وكلها مهيحة ، لا يتناقض إجمالها وتفصيلها ، ولا يتناقض ما فيها من زيادات بل يكمل بعضها بعضا ، وقوله ( من ربكم ) للاعلام بأن هذه الآية لم تكن من عمل نبي الله صالح ، ولا عما بناها كسه عليه السلام ، شأن ما يؤيد الله تعالى به الرسل من خوارق العاداة ، ومنه نعلم أن الخوارق لم تكن من كسب الصالحين بالأولى

(٢) وقد بين البينة التي جاء بها قال ( هذه ناقة الله لكم آية تذكروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء . أخذكم عذاب أليم ) وقد وصف العذاب في سورة الشعراء بالعظيم ، فهو أليم وعظيم ، ووصفه في سورة هود بالقرب ، وهو أنه يقع بعد ثلاثة أيام من مسه لها بسوء ، وقد أضاف الناقة الى اسمه الكريم تعظيما لشأنها . وقيل لأنه لم يكن لها مالك ، وقد أراهم الله أن الماء الذي سخره لهم قسمه بينهم وبين تلك الناقة ، فشرب منه يوما ، وبشربون منه يوما آخر ( قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم « ١٥٥ » ) (١) وقال في سورة القمر ( إنا مرسلوا الناقة تنه لهم فارقههم واصطبر « ٢٧ » ونبتهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر « ٢٨ » ننادوا صاحبهم فتعاطى فقهر « ٢٩ » فكيف كان عذابي ونذر « ٣٠ » ) وجاء في سورة الشمس ( كذبت نوحا بطغواها « ١١ » إذ انعت أسقاها « ١٢ » مقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها « ١٣ » تكذبوه فحقروها فحدم « ١٤ » عليهم ربهم بذنبهم فسواها « ١٥ » ) ولا يخاف عقابها « ١٥ » ) نددل مجموع الآيات أن آية الله تعالى في الناقة أن لا يتعرض لها أحد من القوم بسوء في نفسها ، ولا في أكلها ، ولا في شربها ، والمتبادر من إضانة الأرض إلى الله تعالى أن المراد بها المباحة للأفهام أن ترحى فيها ، دون ما يزرعه الناس ويحجمونه لأنفسهم ، وشبه ممرعاهم النظير بين ناقة الله وأرض الله ، أى فدعوا ناقة تأكل من أرضه ، والمتبادر من كلمة ( سوء ) أن الوعيد

[١] الشعراء . [٢] حضور لهم أو لنانة . [٣] أطبق عليهم العذاب « فسواها » أى الدمة لم يهلك منها صغير ولا كبير .



مرتب على أى نوع من أنواع الإيذاء جلّ أَوْحَر ، لأنه نكرة بعد نهى .

(٣) ثم أخذ نبى الله يذكرهم بنعم الله عليهم ، وأنه جعلهم خلفاء لعاد في الحضارة والعمران ، والقوة والبأس ، وأنه يوّأهم في الأرض ، وجعلها منزل لهم ، وقد بين ذلك بقوله ( تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا ) يذكرهم بما ألهمهم من فنون الصناعة ، وهندسة البناء ، ودقة التجارة ، وما علمهم من نِقّ النحت ، وآتاهم من القوة والصبر ، قيل كانوا يسكنون الجبال في الشتاء ، لما في الدبوت المنحوتة من القوة على الأمطار والعواصف ، ويسكنون السهول في سائر الفصول لأجل الزراعة والعمل .

انظر كيف يذكر القرآن قوم هود بأنه جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح ، ويذكر قوم صالح بأنه جعلهم خلفاء من بعد عاد ، وذلك أسلوب من أساليب الترية ، وضرب من ضرب العظة ، يذكر فيها القرآن أولئك القوم بأنه عظمهم بفضل ، وعظمهم بإحسانه ، وجعلهم أجلاء عظاما في شئون الحياة ، ووسائل العمران ، ولا ينبغي من كرمهم الله ذلك التكريم أن يلقنوا أنفسهم بالمعاصي ، ويدنسوها بالجرائم ، بل اللائق بذلك النوع من الناس أن يكون ممن يكرم نفسه حيث أكرمه الله ، ولا ينبغي له أن يعمل على تحقير نفسه حقها وقصها قيمتها ، وعلى هذا الأسلوب قول الله تعالى ( ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » ٧٠ « ) (١) وقوله ( يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأنى بفسلكم على العالمين » ٤٧ « ) (٢) ذلك الأسلوب الذى يشعر المخاطب بعلاوة نفسه ، وكبر منزلته ، ثم يطالبه بحقوق هذه العزة ، وما تتطلبه تلك المنزلة ، ويريه أن عصيان الله تعالى هو امتحان للنفس ، وتزول عن المكان اللائق بها ، وكثيرا ما يجر ذلك النوع من التأثر في نفس المسمع ، وكثيرا ما انفع الناس بالعظة من ناحية ما في تقوسهم من عظمة ، وكثيرا ما يلجأ الواعظ الى أن يقول للسرف على نفسه : إنك رجل من بيت طيب ، وأرومة (٣) عالية ، وأبوين شريفيين ، وقد كان لأبيك من المجد والسؤدد كيت وكيت ، فلا يليق بك أن تجارى أولئك النحوت وسفالة الناس في تهافتهم على المعصية ، وانحدارهم إلى سفاسف الأمور ، وكثر من الناس يصف عن المحرمات لأنها لا تتفق وما ينبغي مثله من عظمة ، ولا تناسب مع منزلته في الحياة ، وأن الطامة الكبرى ، والبلاء الذى لا نجد له علاجا ، تلك الطاقة التى لا تشعر لنفسها بكرامة ، ولا تحس بمنزلة ، فلا تالى أن تكون نفسها نفس إنسان أو حيوان ، ولا يعنىها أن تكون حقيرة أو عظيمة ، بل المهانة أحب إليها من الكرامة ، وعبوديتها للشهوة والهوى أعذب لديها من الحزم والعزم ، ثم إن هذه الطاقة هى لغز الواعظ ، وعقبه السكاداء ، إذا شاء أن يسعين عليها بما في نفسها من حياة وجد معين الحياة قد نضب ، وإذا أراد أن ينجي فيها عاطفة احترام النفس ، وتكريم الانسانية ، رأى أنها قد انحدرت الى دركة الحيوان الأنجم ، فيقف مكتوف الأيدي أمام تلك النفس الوضيعة ، وهيات أن يجد لها علاجا ناجعا ، أو دواء نافعاً لذلك عنى القرآن الكريم بذلك النوع من التذكير ، وهذا الأسلوب من الترية ، لذلك يبدى ويبيد في ذلك التذكير ،

وبعد أن ذكرهم بنم خاصة ، قال لهم ( فاذكروا آلاء الله ) عليكم عاتة ، واشكروا هذه النعم باستعمالها فيها فيه صلاحكم ، ولا تنصرفوا في هذه النعم تصرف عثيان وكفر بمخالفة ما يرضى الله فيها ، متصفين بالافساد ، ثابتين عليه .

(٤) بعد ذلك قال ( الملائكة المستكبرين ) من قوم صالح المستضعفين المؤمنين ( أقملون أن صالحا مهمل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون ) قدمنا في قصة نبي الله نوح عليه السلام أن الملائكة : هم الأشراف والسادة الذين هم عقبة الإصلاح في كل زمان ، وأن أداع لرسل دائما المستضعفون ، لا الأغنياء المترفون ، لأنه لا يتقل على المستضعفين أن يكونوا تابعين لغيرهم ، وليس في قلوبهم من حب الرياسة ما يمنع من استماعهم للحق ، أما السادة والأشراف فيشق عليهم أن يكونوا مهملين ، وأن يخضعوا للأوامر والنواهي التي تحرّم عليهم الأشراف الضارّة ، وتقف نهواتهم عند حدود الحق والاعتدال ، على هذه السادة سؤال المستكبرين للمستضعفين ، وعلى هذه السادة كان جوابهم لهم ( إنا بما أرسل به مؤمنون ) وعلى هذه السادة كان ردّ المستكبرين عليهم ( إنا بالذي آمتم به كافرون . ففقدوا الثقة وعثوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح اتقنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين ) وقد أسند الله العقر إلى أولئك المستكبرين الكافرين - والمتعاطي له واحد منهم - لأنه بتواطئهم ورضاهم ، كما قال في آية القمر ( فادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ) ليرينا أن مثل هذا من أعمال الأمم يسبب إليها في جعلها ، كما أنها تعاقب عليه في جعلها ( واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب » ٢٥ ) ( ١ ) ومنه نعلم أن الأمة متضامنة متكافلة في الخير والشر ، وأنها متى سكنت على مسكر ، وكان في اسطاعتها أن تقف في سبيل صاحبها ، عاقبها الله على ذلك السكوت العقاب الشامل ، روى أبو داود والترمذي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : يا أيها الناس انكم تقرأون هذه الآية ( يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يصركم من ضل إذا هتديتم ) وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمه الله بعذاب من عده » .

فليعتبر بذلك المسلمون الذين تحللوا وباطلهم ، وتضككت عراهم ، وأوحى كل واحد لا يهيمه سوى شخصه ومصالحته الخاصة ، وإذا رأى الظالم يحزّ في عتق أخوانه بني جلدته لم يحرك لذلك الظالم ساكنا ، مادام هو معني بالظلم ، أمتنا على نفسه ومصلحته . فليعتبر بذلك المسلمون ، وليعلموا أنهم ما أصبحوا إلا من جوار ذلك التفكك والانحلال ، وليتقوا أن ذلك الظالم هو معهم اليوم ، وعليهم في الغد ، وأنه يستعين على بعض الأمة بعضها الآخر . يعطي من معه من الشبهات والمصالح ما يستخره به لقضاء مصلحته ، ثم متى انتهت حاجته منه قلب له ظهر الحزن ، وبشكل بد كما سكن بأخيه . ليعتبر بذلك المسلمون ، وليفطنوا لما بيده العدو الغائب من اتخاذ بطانة مناه وأيد عابثة فاجرة . يستعين بها على امتلاك بلادنا وإذلال أمتنا ، ولو كانوا ممن يفتنون بالقرآن وعظائمه لعرفوا أن اقرار الظلم في الأمة وسكوتهما عليه هو شرّ مستطير ، لا يعلم مداه إلا الله تعالى ، وأنه يعاقبنا عليه بانتقاص بلادنا ، وتفتت أقدام القاصب فيها ، وتسخير خبرنا وجهودنا لمصلحة ذلك العدو الذي لا يرحى لنا ذمّه ، ولا يحفظ لنا عهدا .

هؤلاء قوم صالح لما رضوا عن عقر الناقة نسب الله اليهم المعصية ، وعاقبهم عليها العقاب الشامل ، مع أن النسي عقرها واحد منهم ، ولكنه عقرها على رضائهم ، وكان في استطاعتهم منعه ، والضرب على يديه ، ولكنهم بدل أن يتنصروا شجعوه ، فكان عذابهم من أجل ذلك عذابا شاملا ، وعقوبة عاتية .

هذه شعوب المسلمين المحتلة يسلط عليها الغاصب من نفسها أناسا يظلمونها ، ويسومونها سوء العذاب ، ثم هي ترضى عن ذلك الظلم ، وتسكين للهوان ، ولاتأخذ على يد الظالم ، فتحول بينه وبين الظلم ، فيعاقبها الله بتسكين الغاصب في الأرض ، ونشيت قدمه ، واسقيلائه على خيرات هذه الأرض ، وهي عقوبة لأصيب الظالم وحده ، بل تشمله وغيره ، بل وتشمل الأجيال المقبلة ، وما أشدها من عقوبة ، وما أقصاه من انتقام يسوقه الله ، لأننا قصرنا في الأمر ، وخفنا للظلم .

(٥) بعد ذلك قالوا النبي الله صالح ( اتقنا بما تعذنا ان كنت من المرسلين ) وقد نادوه باسمه نهوينا لشأنه ، وتقرضا بما يظنون من عجزه ( فأخذتهم الرجفة ) وفي سورة هود ( وأخذ الذين ظلموا الصيحة ) وفي سورة يونس ( وأما نوح وهود فهديناهم فاستجبوا للمعنى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ١٧٥ ) وفي سورة الناريات ( ففتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ٥٤٤ ) أما الرجفة : فهي الزلزلة والاضطراب ، وأما الصيحة فهي رفع الصوت ، ولما كانت الصيحة قد دزج عبر بها عن النزوع ، وأما الساقطة فهي اشتعال يحدثه الله تعالى عند اختلاف كهربائية سحابة فريفة من الأرض مع كهربائية الأرض ابتجا وسلبا ، ولانفاق بين الرجفة ، والصيحة ، والصاعقة ، ذلك أن الساعة هي الشرارة الكهربائية التي تشل بالأرض فتحدث بها تأثيرات عظيمة بحدوثها ، كدمق الناس والحيوان وموتهم ، وهدم الماني أو تصديعها ، واحراق الشجر والمتاع وغير ذلك . تلك الساعة لها صيحة شديدة القوة والطمان ، ترجف من وقعها الأثمنة ، واضطرب الأبدان ، تقوم ثمود عاقبهم الله بذلك كله . أخذهم بالصاعقة التي لها صوب شديد مزعج ، يصحبه زلزلة . فاذا قال القرآن أخذتهم الرجفة . أو قال أخذتهم الصيحة . أو قال أخذتهم الصاعقة ، كان ذلك كله حقا ومحييا .

ومن الجاز أن يكون الخلق القادر القادر قد جعل هلاكهم في وقت ساق فيه السحاب المتسرع بالكهرباء الى أرضهم بأسبابه المعتادة ، ويجوز أن يكون قد خلق تلك الصاعقة لأجلهم على سبيل خرق العادة ، وأيا ما كان فالآية قد وفقت ، وصدق الله رسوله في انذار قومه ( فأصبحوا في دارهم جاثمين ) والمراد أنهم سقطوا على ركبهم مضوقين ، وجثموا هامدين خالدين ( فتولى عنهم ) بعد ما أبصرهم جاثمين تولى متحسرا على ما فاته من إيمانهم ، ويقول لهم يا قوم لقد بذلت فيكم وسى ، ولم آل جهدا في إبلاغكم النصيحة لكم ( ولكن لا نحبون الناصحين ) وقد يقول الرجل لصاحبه وهو ميت - وكان قد ضحعه حيا فلم يسمع منه حتى ألقى بنفسه في التهلكة - يا أخي كم فحسكت وكم قلت لك فلم تقبل مني ، وفي سورة هود أن صالحا عليه السلام أمهل قومه ثلاثة أيام بعد عقر الناقة ، فلما انتهت أنجاء الله تعالى ومن معه من المؤمنين برجة منه ، وأزل العذاب بالباقيين الظالمين بعد انجاءه ، وانما يكون الانجاء من عذاب صيحة الساعة بالبعد عن المكان الذي تقع

فيه ، والمعهود في مثل هذه الآية أن تتقدم على ما قبلها في الذكر ، كتقدم مدلولها بالفعل ، ولكن عهد في كلام العرب ترك الترتيب بين المعاني لسكت في الكلام ، ولا سيما كلام يعرف فيه الترتيب بالضرورة ، أو ما يقرب منها في الظهور ، فيكون تولى نبي الله عنهم حين رأى العلامات قبل نزول العذاب ، ويكون خطابه لهم وتعينه أيام جاء حسب المألوف من خطاب الأحياء ، والله أعلم .

### صالح عليه السلام

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ<sup>(١)</sup> فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ «٦١» قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا<sup>(٢)</sup> قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ<sup>(٣)</sup> «٦٢» قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ يَدَيْهِ إِذْ كَانَ النَّاسُ فِيهِ فِتْنَةٌ مِّنْ رَبِّي أَتَنْصَرِفُونَ<sup>(٤)</sup> اللَّهُ إِنِّي عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ<sup>(٥)</sup> «٦٣» وَيَقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فاذرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ قَرِيبٍ «٦٤» فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدُ غَيْرٍ مَّكَذُوبٍ «٦٥» فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيٍ يُومِتُ<sup>(٦)</sup> إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ «٦٦» وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جُثَمِينَ<sup>(٧)</sup> «٦٧» كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا آلَ إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا<sup>(٨)</sup> لِّثَمُودَ «٦٨» مرد

### شرح وعبرة

(١) يرينا الله تعالى في هذه السورة أنه أرسل إلى ثمود أخاهم صالحا وطالبهم بالتوحيد ، ثم ذكرهم بتنشيتهم لهم من الأرض ، وقد أجل في هذه الكلمة ما فصله الله في آيات أخر كما تدل عليه آيات المؤمنين (ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين «١٢» ثم جعلناه نطفة في قرار مكين «١٣» ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا مضغة فخلقنا مضغة عظما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا

[١] فرض اليكم عمارتها ومكنكم فيها . [٢] مأول الحير . [٣] موح في الرية وتلق النفس .

[٤] إهلاك وصلاح . [٥] دماء عليها بالهلاك .

آخر فتبارك الله أحسن الخالقين «١٤» ) فهو يلقنهم الى آيات الله فيهم من جهة خلقهم الأول ، عليهم يذكرون أن من قدر على ذلك الخلق هو على الاعادة أقدر ، وعلمهم يذكرون أن صاحب النشأة الأولى هو الأولى بأن يعبد ، وأنه ليس من الرأي التسوية بين من يخلق ومن لا يخلق ، ثم ذكروا بنعمة أخرى هي نعمة استعمار الأرض فقال ( واستعمركم فيها ) جعلكم عمارا لها ، تشقون فيها الأنهار ، وتنشون فيها البساتين ، وتبنون فيها القصور ، وتنتهون بما فيها من خيرات ومعادن وجبال وبحار ، وتستخدمون كل شيء فيها خلق له - يذكركم الله تعالى بهذه النعم ، وأنه هو الذى أسداها اليهم ، وهداهم اليها ، وخلقهم مستعدين لها ، بما وهبهم من عقول ، وما ألهمهم من صناعات وعوام ، وما منحهم من الصبر والجلد على حنق أولئك الصناعات ، والتفنن فيها ، وهو يشبه قوله فى سورة الأعراف ( واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد و بوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تشوا فى الأرض مفسدين «٧٤» ) وقوله فى قصة هود من سورة الأعراف ( واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون «٦٩» ) وقد عقب تذكري الله لهم بهذه النعم بقوله ( فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب ) لأن ذلك هو اللائق به له هذه النعم ، اللائق به أن ترجع اليه الناس فى مغفرة الذنوب وقبول التوبة ، فانه دافى الرحمة ، سهل المطلب ، مجيب لمن دعاه .

(٢) ( قالوا يا صالح قد كنت فىنا مرجوا قبل هذا ) ذلك هو ردمهم على نبي الله صالح أنه كان مأمول الخير تلوح فيه مخايل الرشد ، قبل أن يقوم بهذه الدعوة فيفسد أحلامهم ، ويعيب آلتهم ، أما الآن فقد انقطع رجائهم فيه ، وخاب ظنهم من ناحيته ، أو كانوا يؤمنون فيه أن يشاركهم فى عباداتهم ، ويدخل معهم فى دينهم ، لأنهم كانوا يعرفون فيه لين الجانب ، وحسن الخلق ، ثم أخذوا ينكرون عليه نهيبهم عن عبادة الأوثان فقالوا ( أنهننا أن نعبد ما نعبد آبائنا واتنا فى شك عما تدعوننا إليه صريح ) .

يا سبحان الله كأن الناس قدوا من آدم واحد ، هؤلاء قوم صالح يعترفون له بأنه كان مرجوا الخير ، مأمول الرشد ، قبل أن يقوم فيهم بالدعوة ، وبين لهم ما هم عليه من أخطاء ، أما بعد أن قام فيهم بالدعوة ، وأخذ يعيب عليهم ما هم عليه من باطل ، يقومون فى وجهه ، ويناصبونه العداوة ويقتلون له ظهر الحق ، وهذه قرىش كان محمد فيها السابق الأمين ، لم يجربوا عليه كذبا : فلما أخبرهم عن الله أنه رسوله جاء ليشرروا ويندروا قياتهم ، وتألبوا عليه ، ونعلوا به ما فعلوا من الكيد والمكر ، وحاولوا أن يقتلوه عما أوحاه الله اليه ، وهنالك يكون خليلا لهم محبوا ( وان كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا اليك لتفترى علينا غيره واذ لا تتخذوك خليلا «٧٣» ) ( ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير «١٢٠» ) ( هؤلاء الذين كفروا بالرسول جميعهم يقولون لهم ( لنخرجكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا «١٣» ) ومن العجيب أن

قوم صالح يطعمون في حسن خلقه ، وطهارة ما ضيه ، وغفلوا عن أن تلك الناحية كان عليهم أن ينتفعوا بها ، وكثيرا ما يقول الرسول لقومه (إني لكم ناصح أمين) يريد أنني لم أعرف فيكم بخيانة ولم تجربوا على كذبا في شأن واحد منكم ، فكيف أجروا أن أكذب على ربي ؟ فإذا كان صالح صرحوا أخيرا قبل هذا ، وكان تاريخه أيضا ناصعا ، وحياته حياة أطهار ، قد قيت سيرتهم ، وحسنت معاملتهم ، أفلا يكون ذلك حاملا لكم على تصديقه ، والعناية بدعوته ، ثم لماذا يكون صرحوا أخيرا مأمول الرشدة ما دام لم يعرض لأهلكم بسوء فإذا هو عابها ، وبين أنها لا تصلح أن تكون آلهة تعبد ، يكون ميتوس أخيرا مقطوع الرجاء ؟ أليس ذلك تعصبا أعمى وسيرا وراء الشهوات والأهواء .

(٣) ( قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرفي من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تخسير ) يتلطف معهم نبي الله صالح ، ويخاطبهم خطاب المتردد في أنه على بينة ، وإن كان يقطع بأنه على بينة ، ويقول لهم : خبروني إذا كنت على برهان من ربي في آتي رسول لكم ، وآتاني منه رحمة وهي الرسالة ، ثم عصيته وواقفتكم على ما أتم عليه من باطل ، فمن ينصرفي منه إن عصيته ؟ أنتصرتي أهلككم وهي أضعف من أن تنصر نفسها ؟ أم تنصروني أتم من عذابه ؟ وما أتم إلا عبيد لا تملكون لأنفسكم نفعا ولا ضرا ؟

الحق أنه لا جواب لهم من ذلك السؤال ، ولذلك قال عقب ذلك ( فما تزيدونني غير تخسير ) يريد أنه لو فرض أنه انضم إليهم وعصى ربه فلا يزدونه إلا هلاكا وضلالا ، وبذلك أبأسهم من إجابتهم إلى طلبهم ، ثم أراهم أن الله تعالى أرسل الناقة آية له على صدقه ، وأصرهم أن يتركوها تأكل في أرض الله ، ولا يتعوضوا لها بسوء ، وأنهم إن تعرضوا لها بنوع من أنواع الأذى أخذهم عذاب قريب ، فلم يكن منهم إلا أنهم نحروها فقال لهم ، تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ، وإن ذلك وعد صادق ، ولما جاء أمر الله بالعذاب نجى صالحا والمؤمنين معه رحمة من الله من ذلك العذاب ، ومن خزي ذلك اليوم الذي حلّ بقوم صالح ، ولا عجب في أن يحلّ بالقوم من عذاب الله ما يحلّ ، وأن ينجي صالحا والذين آمنوا معه من ذلك العذاب (إن ربك هو القوى العزيز) فلا يستطيع أحد أن يقلت من عذابه إذا جاء وقته ، ولا يستطيع أحد أن يخذل من أنصاره من نكفل الله له بالنجاة ، وبعد هذه النجاة أخذ الذين ظلموا صيحة العذاب ، فأصبحوا في بلادهم جائعين على ركبهم ، ثم بين أسباب هذه العقوبة فقال ( ألا إن عمود كفرنا ربهم ) ليرينا أن عقوبة الكافرين برهم بعد وضوح الأدلة على الإيمان أن يصيروا إلى ما صار إليه قوم صالح ، ثم ختم القصة بقوله ( ألا بعدا لعمود ) دعاه عليهم بالهلاك بعد أن وقع ، نفروا منه أنهم استأهلوه ، وأنه وقع بهم وقوعا عادلا حكما .

صالح عليه السلام

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ۖ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتَنْتَرُونَ فِي مَا هُنَا أَمِينٌ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّتٍ وَعَيْوُنٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ۖ وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَمَقَرُّوْهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ الشعراء

### شرح وعبرة

(١) أضاف الى نمود في هذه السورة تكذيب الرسل جميعهم مع أنهم لم يكذبوا إلا صالحا ليريك أن من يكذب رسولا مع قيام الأدلة عنده على صدقه هو مكذب للرسل جميعهم ، لأنه لا فرق بين رسول ورسول ، وبعد أن طالبهم بتقوى الله تعالى ، وعرفهم أنه رسول أمين على دعوته لم يحن فيها شيئا من الخيانة ، وأنه لم يسألهم على تبليغه لهم أجرا ، ومن كان كذلك ينبغي أن تقابل دعوته بالرضا . بعد ذلك كله قال لهم ( أتتركون فيها هاهنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحيتون من الجبال بيوتا فارهين ) يذكركم بنعمته عليهم في تحلية الله ايام وما يتمتعون به من الجنات وغيرها مع الأمن والدعة ، وهي من أجل نعم الله على عباده : أن يضرهم بنعم الأرض ، وأن يهدم لاتخاذ بيوت من جبالها في حلق وإقنات ، ثم هم مع ذلك وادعون آمنون ، ويجوز أن يكون انكارا من نبي الله صالح عليه السلام على قومه أن يفهموا أنهم يتركون في هذه النعم التي غنم الله بها آمنين على أنفسهم من حلول عذب الله بهم ، فيبدل

[١] ما يبدو من مخره في أول ظهوره «هضيم» لطف ضاهره من قولهم: كشح هضيم، وطلع إناث النحل فيه لطف، وقيل اليمين التضييق أو متسللا متكرس من كثرة الحمل . [٢] حاذقين . [٣] الذي سحر كثيرا حتى غلب على عقله . [٤] نصيب من الماء .

نعيهم شقاء ، وأمنهم خوفاً ، مع أن موقفهم من صاحب النعم موقف الكافر لا موقف الشاكر ، وأن يكون نبي الله صالح ينكر عليهم أن يفهموا أنهم يتركون في هذه النعم بدون جزاء عليها ، وكأنه يقول لهم : إذا فهمتم من حالكم الوداع المطمئن أن هذه كل حياتكم ، وأن ليس لكم حياة وراء هذه الحياة محاسبون فيها على كل ما قدمتم من خير أو شر - إذا فهمتم ذلك فأنتم خاطئون ، ولا بد لكم من يوم تجزون فيه على أعمالكم ، وتحاسبون على ما قدمتم في دنياكم ، وخصم النخل بقوله (طلعها هضم) ليرينا أنها نخل من نوع الاناث المثمر ، لامن نوع الذكور ، أو من صنف جيد ، أو كثير الجمل ، ولذلك كان موضع الامتنان ، وخصم النخل بعد دخوله في جنات تنفيها على انفرادها عنها بفضلها عليها ، أو لعله كان أكثرها نفعا عندهم .

(٢) بعد ذلك عاد فأمرهم بتقوى الله تعالى وطاعته ، ونههم أن يطيعوا أمر المفسرين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، يريد بهم أئمة الضلال وأساطين الكفر ، وهم الملائم من قوم صالح ، وقد وصفهم بعدم الإصلاح بعد وصفهم بالافساد ليرينا أن أولئك القوم فسادهم فساد مصمت ، ليس معه شيء من الإصلاح ، كما تكون حال بعض المفسدين ، فيكون جواب قومه (إنما أنت من المسحورين) رموه بأنه مغلوب على عقله ، ولذلك دعاهم الى مادعاه إليه ، ثم قالوا له (وما أنت إلا بشر مثنا) ومن كان كذلك لا يكون رسولا ، لأنهم يدعون أن الرسول لا يصح أن يكون بشرا ، وقد سبق لنا الرد على هذه الشبهة الواهية المثيلة في قصة نبي الله نوح من سورتته ثم طالبوه بالآية التي تخضع لها أعناقهم ان كان صادقا في دعوى الرسالة ، فقال لهم بعد ذلك التحدى (هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ، ولا تمسوها بسوء فإخذكم عذاب يوم عظيم الخ) فهذه آية الله لنبيه صالح ، وقد صدقه الله وعده ، وحل بهم من العذاب على عقر الناقة ما حل ، وكانت عقوبة الله لهم على عصيانه ، والخروج عن أمره آية من آياته ، وعبرة من العبر ، وما كان أكثر قوم صالح مؤمنين برسائله ، ولا موقنين بصدقه ، لذلك حل بهم من العذاب ما حل ، ولا غرابة في ذلك فان الله عزيز ، والعزير لا يفلب ، ومع عزته هو رحيم في هذه العزة ، فلا يسلط عذابه للشنقى ، وإنما يسلطه للتأديب والإصلاح في الأرض ، فهو رحيم في عزته لطيف في تأديبه لمن عصاه ، ولا تفهم من قوله (فأصبحوا نادمين) أنهم ندموا على عقر الناقة ندم توبة ، ولكنهم ندموا ندم خائف أن يعاقب على العقر عقابا عاجلا ، ولذلك لم يقدم ذلك الخوف ، فأخذهم العذاب ، ولو كان ندم توبة فانه لا يجديهم ، لأنه عند معاينة العذاب قنوتهم توبة إلهاء ، لا فضل لهم فيها كتوبة فرعون وهو يقاسى شدة الفرق .

### صالح عليه السلام

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ عَمُودِ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُم فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ «٤٥» قَالَ يَقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ



اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تَرْجِعُونَ «٤٦» قَالُوا أَطِيعْنَا <sup>(١)</sup> بِكَ وَبَيْنَ مَعَكَ قَالَ طَاعُواكُمْ <sup>(٢)</sup>  
عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ «٤٧» وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ نِسَاءٌ رَهْطٌ <sup>(٣)</sup> يُفْسِدُونَ  
فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلِحُونَ «٤٨» قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ <sup>(٤)</sup> وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ  
لَوْلِيهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ «٤٩» وَمَكَرُوا <sup>(٥)</sup> مَكْرًا وَمَكَرْنَا  
مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ «٥٠» فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عُمَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَرَسْتُهُمْ  
وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ «٥١» فَتِلْكَ يُبَيِّتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ  
يَعْلَمُونَ «٥٢» وَأُنَجِّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ «٥٣» النمل

### شرح وعبرة

(١) برينا الله في هذه السورة أنه أرسل الى عمود أخاه صالحا ، ولم يلبث أن يدعوهم الى عبادة الله حتى صاروا فريقين مختصمين : فريق مؤمن يدافع عن الايمان بالحجة والبرهان ، وفريق كافر يدعو الى الكفر ويتعصب له . شأن الناس في كل زمان إذا وصلتهم دعوة جديدة ، فتجدهم حزينين : حزب يناصرها ، وحزب يحارها ، فليست هذه التفرقة ذنبا للداعي ، ولا سيئة من سيئاته ، وإنما هي من طبع الدعوة ، وأثرها الذي لا يخلو عنها ، وكثير من الناس إذا رأى ذلك الانقسام في بلد من البلاد التي بدأ فيها الوعظ والدعوة الى الله تعالى نفسه الى الواعظ ، وبهذه سيئة من سيئاته ، ويقول : ان فلانا قسم اللد قسامين ، وشطرها الى فريقين ، ولو علم أن الواعظ لم يرد ذلك ولم يعمل له ، وإنما أراد أن تسمع الناس له ، وتضئ إلى قوله ونصائحه . لو علم ذلك ما عاب ذلك الواعظ بذلك العيب ، بل لو علم أن سنة الله في الناس إذا جاءهم رسول من الرسل أن ينقسموا إزاء دعوته ، وفريق منهم يناصره ، وآخر يعاديه ويخاصمه - ما عاب الواعظ ولا أضاف له هذه السيئة ، سيئة التفريق بين الناس ، وان نظرة واحدة فيما حولنا من حوادث ترينا كيف كان الناس جد مختلفين أمام دعوة الرسل ، فقد رأينا عند نهضة البلاد إلى طلب استقلالها ، وقيام زعماء فيها ، ينقسمون على أنفسهم أقساما غير محدود ، ويختصمون في مبادئهم اختصاما واسعا ، حتى إنك تجد أهل البيت الواحد على أقسام شتى ، فتجد رئيس البيت في ناحية ، وأبناءه في ناحية أخرى ، وقد نجد الرجل على عقيدة سياسية ، وزوجه على عقيدة تضادها وتصادمها ، فهل الزعيم السياسي هو الذي فرق بين هؤلاء ، أو طبيعة دعوته هي السبب الأول لهذه التفرقة .

[١] لئاءنا . [٢] سببك الذي يحبه منه خيركم وشركم عند الله وهو قدره وقسمته .

[٣] من ثلاثة إلى عشرة يقال له رهط . [٤] نابتهم ليلا . [٥] دبروا الفتك بصالح في الخفاء ومكر الله أملاكهم من حيث لا يشعرون .

وكانت هذه سنة في العالم لا تقبل ، لأن النفوس في استعدادها للحق ، وتقديرها للبرهان والهدى ، وطهارتها من الأمراض التي تحول بينها وبين قبول الدعوة متفاوتة بحسب تربيتها ، وما يحيط بها من يثاق وأوساط ، وما ورثته عن البيوت والأسر من أخلاق وعادات ، وآية ذلك اتباع الرسل في كل زمان ومكان ، فانك تجد من الضعفاء ، وجهرة الشعب ، وفقراء القوم ، وتجد على عكس ذلك السادة والأشراف الذين يعبّر القرآن الكريم عنهم بـ «ملا» ، فالصنف الأول من الناس قد خلت نفوسهم من الحقد ، ولم ينشئوا على الكبر والعطوسة ، ولم يكن لهم من عظمة الآباء ما يخشون إضاعته ، ولا من المكابدة في المجتمع ما يحول بينهم وبين اتباع الرسول ، لذلك كان الناس جد متفاوتين في قبول الدعوة ، وكان من الطمى أن ينقسموا على الداعي ، وينقسموا على أنفسهم فقد كنا نرى في بعض الغزوات الإسلامية أن الرجل يقاتل فيمن يقاتل أباه ، ويبرز له بالسيف ، وليس ذلك إنكارا لما أسداه له من جيل ، وما قدمه له من تربية ، وإنما هي العقيدة تسلط على النفوس ، واستولت على المشاعر ، فذبت كل الأوامر إلا أوامر الدين ، وروابط الطاعة لله تعالى ( لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم » ٢٢ ) ( ١ ) .

( ٢ ) هناك قال نبي الله صالح للزريق الكافر ، وقد بلغ من عناده وعنوه ما بلغ حتى قال له ( يا صالح اقنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ) - هناك قال لهم ( يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحون ) يريد أن الله تعالى قد مكهم من رحته وتوابه ، فلماذا يستعجلون بالعقوبة السيئة وهي إتيانهم بالعذاب الذي توعدهم به نبي الله صالح قبل المنعلة الحسنة وهي التوبة فيؤخرونها ، ثم عقب ذلك بقوله ( لولا تستغفرون الله لعلكم ترحون ) هناك ( قالوا ) لصالح ( اطيرنا بك وبعن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون ) كان الرجل يخرج مسافرا فيمر بطائر فيزجره ، فإذا مر من الميامن إلى الميامر تجم ، وإذا مر من الميامر إلى الميامن تشام ، فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر استعير اسمه لما كان سبهما من قدر الله وقسمته ومنه قالوا : طائر الله لا طائر لك : أى قدر الله الغالب الذى ينسب إليه الخير والشر ، لا طائر لك الذى تشام به وتقيم ، فلما قالوا لصالح ( اطيرنا بك وبعن معك ) أى تشامنا ، قال لهم ( طائركم عند الله ) أى سبكم الذى يحى منه خيركم وشركم عند الله ، وهو قدره وقسمته ، إن شاء وزقكم ، وإن شاء حرمكم ، ويجوز أن يراد بقوله ( طائركم عند الله ) أن عملكم مكتوب عند الله ، ومن ذلك العمل نزل بكم منازل عقوبة لكم وقتة ، ومنه قوله ( طائركم معكم » ١٩ » ( ٢ ) ( وكل انسان أزمانه طائره في عنقه » ١٣ » ( ٣ ) .

وانظر كيف يطلب نبي الله صالح قومه باستغفار الله والرجوع إليه ، وعدم التعرض لعذابه فيقولون له ( اطيرنا بك وبعن معك ) وأى صلة بين طلب المغفرة من الله التى دعاهم إليها نبيهم ، وبين تشاؤمهم به ، لم يكن هناك صلة بين الأمرين ، وإنما هو العناد والعنوة ، وكرامتهم للدعوة ، وتعمد أسباب للجهود والانكار ، ولم تكن تلك المقابلة المنكرة خاصة بقوم صالح ، فهؤلاء

أصحاب القرية يحكي لنا القرآن ما كان منهم مع الرسل ( إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون «١٤» قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون «١٥» قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون «١٦» وما علينا إلا البلاغ المبين «١٧» قالوا إنا نظيرنا بكم لنن لم تنهوا لرجنكم ولجسكن منا عذاب أليم «١٨» قالوا طائركم معكم أن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون «١٩» <sup>(١)</sup> ) وهؤلاء قوم موسى يقص الله عليهم قصصهم (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون «١٣٠» فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن نصيبهم سيئة يطغروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون «١٣١» <sup>(٢)</sup> ) وقوله ( بل أنتم قوم تفتنون ) أى مستعدون للفتنة والزلافة في عقائدكم بواسطة شياطين الانس والجن فيكم ، ولعله يشير الى أن أولئك القوم لما لم يفتحوا آذانهم للحق ولا قلوبهم للوحى ، بل عموا عن الحق وصموا . كانوا بذلك مستعدين لأن يتأثروا خطي رؤسائهم والمستكبرين منهم ، ولو أنهم اعتصموا بالله لهداهم الى صراط مستقيم وحال بينهم وبين الفتنة .

(٣) يرينا الله أنه كان فى مدينته تسعة هم رهط ، أو تسعة من الرهط ، والمراد أنهم تسع جماعات . ويرينا أن أولئك كانوا يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، وأنهم قالوا لبعضهم تقاسموا بالله الخ ، أو قالوا ذلك متقاسمين بالله أن يفاشوه وأهلهم بالفتنة ، ثم لنقول لولى اسمه وصاحب الاسم ( ماشهدنا مهلك أهلهم واما لصادقون ) .

وانظر كيف عزم قوم صالح على جرعتين ، مباغطة صالح ، ومباغطة أهلهم حتى لا يوجد من أهلهم من يرشد الى المحرم ، ويصير دمه هدرا ، ثم انظر كيف يؤكدون ذلك العزم على الجرعتين بالقسم بالله ، ثم انظر كيف يدبرون حيلة ليخلصوا بها اذا وجه اليهم اتهام : هي أن يقولوا لولى أمر صالح ( ماشهدنا مهلك أهلهم ) كأنهم اعتقدوا أنهم إذا بيتوا صالحا وبيتوا أهلهم فجمعوا بين البياتين ، ثم قالوا ماشهدنا مهلك أهلهم فذكروا أحدهما كانوا صادقين ، لأنهم فعلوا البياتين جميعا لا أحدهما ، أو ما حضرننا مهلك أهلهم ، واما لصادقون ، لأن الشاهد للشئ غير المباشر له .

هذه حيلتهم التى دبروها ليخلصوا بها من ولى نبي الله صالح ، وهى حيلة مكشوفة ، وكيف ينجو من قتل صالحا وأهلهم إذا قال ما قلت أهلهم ! ! أم كيف يصدق من قتل محمدا وإبراهيم ، ثم قال ما قلت إبراهيم ، لأنه قتل محمدا معه ! ! ثم كيف يكونون صادقين فى قولهم ( ماشهدنا مهلك أهلهم ) لأن الشاهد للشئ غير المباشر له ، مع أن المباشر للقتل قاتل وشاهد ، لأن الشهود هو الحضور ، ومنه أخذت الشهادة ، لأن الأصل فى الشاهد أن يكون حاضرا مع المشاهدة بالبصر أو البصرة ، وقد وصف الله المؤمنين بأنهم ( لا يشهدون الزور ) أى لا يحضرونه ، فهم ينفرون من حضور مجلسه فضلا عن الشهادة عليه . ثم تأمل كيف يحرضون على الصدق ولا يبالون بقتل نبي من الأنبياء ؟ وهل ذلك القتل من الصدق مع الله فى عهوده ومواثيقه التى أخذها على عامة البشر ؟ وهل أولئك القوم إذا كانوا صادقين فى ظاهر الأمر أمام الناس قد صدقوا أمام أنفسهم ومن قرارة قلوبهم ؟ وهل هذا الا اعتراف ببيع الكذب ، وإيمان بأن النظر لا ترضى لأصحابها إلا

الصدق ، ولذلك نحتاج في الحصول عليه ، ونكتفي في الفرار من الكذب ؟ تلك الفطرية التي تكافح عن الكفر ، وتحارب الرسل ، وتعمل لتدبير المكائيد لها ولهدوتها ، ولو لم يكن من قبح الكذب سوى فرار الكفرة أعداء صالح نبي الله منه لكفى أهله معرة وذل .

(٤) ثم أرانا الله تعالى أنهم دبروا لنبي الله ما دبروا ، واحتالوا لاهلاكه ما احتالوا ، فدبروا أن يباغثوه ليلا حتى لا يرام أحد ، ولا يستعد هو لموضعهم ، ثم دبروا أن يكون التبيت له ولأهله حتى لا يوجد من يرشد إلى الجريمة إذا هي وقعت ، ثم دبروا أن يقولوا لوليه ما شهدنا مهلك أهله ، دبروا ذلك كله وهم لا يشعرون أن تدبير الله فوق تدبيرهم ، ومكره غالب على مكرهم ، لأن مكرهم شر كله ، أما مكر الله فهو للخير العام . ولذلك يقول (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين «٥٤» (١) وقال (ولا يتحقق المكر السوء إلا بأهله «٤٣» (٢) ثم قال ( فانظر كيف كان عقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ) ويعد أن أرانا أنه أهلكتهم وقومهم قال ( فذلك يبيتهم خاوية بما ظلموا ) من أراد أن ينظر إليها فلينظر ، خالية من ساكنيها ، أو ساقطة منهمة ، ان في ذلك الذي حلّ بقوم صالح لعبرة لقوم هم من أهل العلم والتفكير ، وأرانا بعد ذلك أنه أنجى الذين آمنوا وكانوا يتقون الكفر والمعاصي من هذا التدمير العام ، والعذاب الشامل .

## دعوة إبراهيم

إلى الله تعالى

وَإِذِ ابْتَلَىٰ (٣) إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ «١٢٤» وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً (٤) لِلنَّاسِ وَأَمْنَا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَافِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ «١٢٥» وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ «١٢٦» وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا

إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ «١٢٧» رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا <sup>(١)</sup> وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ «١٢٨» رَبَّنَا وَابْنِ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ <sup>(٢)</sup> وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ «١٢٩» وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفَاهٍ <sup>(٣)</sup> نَفْسَهُ وَقَدْ أَصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ «١٣٠» إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ «١٣١» وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيُمْقُوتُ يُبَيِّنُ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَى لَكُمْ <sup>(٤)</sup> الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ «١٣٢» البقرة

### شرح وعبرة

(١) يرينا الله تعالى أنه اختبر إبراهيم عليه السلام بتكاليف فأثما إبراهيم ، وقام بها كما يريده الله ، ولم يبين لنا ماهذه الكلمات ، وماعدها ، وحسبنا أن نعرف أنها تكاليف اختبر بها نبي من الأنبياء فأذاها كلمة غير منقوصة ، ومن فوائد ذلك الابتلاء تعريف إبراهيم عليه السلام بنفسه ، وأنه جدير بما اختصه الله به ، وتقوية له على القيام بما يوجه اليه ، وهذه الكلمات التي اختبر بها نبي الله إبراهيم كالتمهيد لجعله اماما للناس ، ولذلك يقول عقبها ( قال اني جاعلك للناس إماما ) ولم يقل فقال اني جاعلك ليدلنا على أن هذه الامامة بمحض فضل الله تعالى واصطفائه لا بسبب اتمام الكلمات ، فان الامامة هنا عبارة عن الرسالة ، وهي لا تنال بكسب الكاسب ، والمراد أن إبراهيم عليه السلام جدير بذلك المنصب الجليل وهو امامة الناس ، فانه تعالى قد جعل الرسالة في مكانة هو أهل لها ، ولعلنا نلمح من هذه القصة أن منزلة الرجل من ربه تكون بمقدار قيامه بما أوجبه الله عليه ، وعنايته بالتكاليف ، والناس جرة متفاوتين في أداء أولئك التكاليف ( ثم أوردنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير «٣٢» ) <sup>(٥)</sup> لم يقنع إبراهيم بأن يكون اماما للناس وقوده صالحة

[١] علنا مناسكنا ، جمع منك من النسك بضمين ، وهو فاية العبادة ثم غلب استعماله في عبادة الحج .

[٢] القرآن ، وقيل مصدر كتب ، والمراد صنعة الكتابة لحاجة الأمة إليها لأنها أمة أمية ، و «الحكمة» معرفة سر الشيء ، وفائدته ، والمراد بها أسرار الأحكام الدينية والشرائع ، مأخوذة من الحكمة بالتحريك ، وهي ما أحاط بمنكى الفرس من الكلام ، وفي ذلك معنى ما يضبط الشيء ، ومن ذلك إحكام الشيء . وإثاقه .

[٣] استن . [٤] اختاره لكم . [٥] فاطر .

فطلب من الله تعالى أن يجعل من ذريته أئمة للناس ، وقد جرى إبراهيم على سنة الفطرة في دعائه فان بقاء النرية الصالحة جاء للانسان ، ولذلك دعا بمثل ذلك في سورة ابراهيم (رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذرتي) وقد راعى الأدب في الطلب فلم يطلب الامامة لجميع ذريته بل لبعضها ، لأنه الممكن ، وفيه ارشاد لأدب من آداب الدعاء ، وهو أن يكون موافقا لسنة الله في خلقته ، وقد أجاب الله نبيه ابراهيم بقوله ( قال لاينال عهدي الظالمين ) وهو وعد ضمني بأن يجعل من ذريته أئمة للناس ، ولكن عهده بالامامة لاينال الظالمين ، لأنهم ليسوا أهلا لأن يقتدى بهم ، لينفرد ذرية ابراهيم من الظلم ليتحاموه ، وينشثوا أولادهم على كراهته ، ولتغير سائر الناس من الظالمين ، وترغبهم من الاقتداء بهم .

يذكرنا الله تعالى بهذه القصة قصة ابتلاء ابراهيم بكلمات وإتمامه لها ، وجعله إماما للناس وقدوة صالحة في الخير ، وحوص على أن تبق الامامة في ذريته ليدوم الإصلاح في الأرض ، واقتصاده في الدعاء بوقفه عند ماقتضى به سنن الفطرة من أن الناس يفهم الصالح ، وغير الصالح ، يذكرنا بذلك كله علنا نكون أئمة في الخير ، وقدوة صالحة في القيام بالتكاليف ، والوقوف في أديعتنا عند حدود الأدب .

(٢) يذكرنا نعمة أخرى هي جعله البيت الحرام مرجعا للناس ، يأمن فيه الخائف ، ويطمئن عنده المذعور ، وقد أودع الله في قلوب جميع الطوائف محبة هذا البيت ، وإجلاله ، واحترام اللاجئين إليه ، وامتن على العرب بقوله ( أولم يروا أما جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم )<sup>(١)</sup> وقال لهم للتأسي بإبراهيم ( واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ) وهو الحرم كله ، أو مواقف الحج كلها ، وعهد لإبراهيم وإسماعيل بطهارة البيت من الأرجاس حسيها ومعنويها كالشرك وأصنامهم واللغو والرفث والقاذورات ( للطائفين والعاكفين والركع السجود ) ليرينا كيف ننهم ببيوت الله تعالى وأماكن العبادة ، ونطهرها من الأرجاس كما طهرها نبي الله ابراهيم وولده إسماعيل ، وأنها لمهمة شاقة ومجهود كبير ، وقد تأسى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فطهر الكعبة مما حولها من الأصنام فكان بيت الله خالصا له وحده لا يعبد فيه غيره ، ولا يصمد فيه سواه .

وها هي بيوت الله اليوم ، ومساجد المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، كثير منها أنشئت على قبور الصالحين ، وقباب للشاهير منهم ، ولا سيما المساجد التي أنشئت في عهد الفاطميين .

هاهي بيوت الله يطالبنا الله بتطهيرها من الرجس ، وإبعادها عن الشرك ، لتكون عبادة الله فيها خالصة لوجهه ، والتوجه إليها توجهنا الى الله وحده ، لانوجهها الى صاحب القبر ، ولا استعانة به في شأن من شئون الحياة ، فهل عهد الله الى ابراهيم وإسماعيل بطهارة البيت الحرام خاص به ، أو هو عام ينبغي أن يكون في كل مسجد من مساجد المسلمين ، وكل معبد أعده لما تعد له المساجد من صلاة ودعاء ، ان الأسوة الحسنة في ابراهيم وإسماعيل تقتضي على المسلم أن يرسم خطاها في كل عمل من أعمال الخير ، ولا سيما عمل يتعلق بتوحيد الله في العبادة ، وطهرها عما كن العبادة من الشرك وذرائع الشرك ، وإذا كانت مساجد المسلمين التي بها قباب ومشاهد للصالحين

قد خلت من الشرك الظاهر فانها لم تخل من الشرك الخفى وذرائع الشرك ، وان كنت فى شك من ذلك فاذهب الى مسجد الحسين رضى الله عنه أو مسجد الامام الشافى فانك ترى فيه مالا يرضاه الله ولا يرضاه صاحب القبر .

(٣) يذكرنا الله تعالى بدعوة ابراهيم أن يجعل الله مكة بلدا آمنا لا يستطيع أن يعتدى عليه أحد بسوء ما، وهى غير آمن للناس فيه التى آمن الله بها ، وكذلك يذكرنا بدعوته أن يرزق أهل ذلك البيت المؤمنين منهم من الثمرات ، وقد أجاب الله دعوته فقال ( أولم نمكن لهم حرمنا آمنا يجيى اليه ثمرات كل شئ رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون «٥٧» ) ثم أراه أنه سيرزق من كفر كما يرزق المؤمن فان رزق الدنيا علم للمؤمن والكافر ( كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا «٢٠» ) ولكن تتبع الكافر محدود بذلك العمر القصير ، ثم يضطره الله الى عذاب النار وبئس المصير .

(٤) يذكرنا الله تعالى بقصة بناء ابراهيم واسماعيل للبيت ورفع قواعده ليرينا أن إقامة بيوت الله التى أعدت لعبادته وتقديسه من أهم القرب التى يتقرب بها الى الله تعالى ، وأنه لا ينبغي للانسان كائنا من كان أن يستنكف من مسامحته فيها ، وأخذ يحفظ وافر منها ، فهذا نبي الله ابراهيم وولده اسمعيل رضوان قواعد البيت ، ويؤسان أصوله بأنفسهما كما هو الظاهر من نسبة العمل اليهما ، وانهما لقدوة حسنة فى ذلك العمل الجليل ، وأسوة صالحة لمن بعدهما من عباد الله المؤمنين ، لم يستنكف نبي الله ابراهيم ولا ولده اسمعيل أن يكونا عاملين فى بناء البيت ، لأنهما يعلمان أن ذلك العمل مما يثيب الله تعالى عليه ، ولذلك أخذوا يلهجان بالثناء خلال ذلك العمل أن يتقبل الله منهما عملهما ، فانه السميع لأقوالهما ، العليم بنياتهما ، وأن يجعلهما منقادين له ، ويجعل من ذريتهما أمة مسلمة له ، ليقبى توحيد الله فى الأرض ببقاء النرية ، كما طلبا منه أن يجعلهما مناسكهما ، ويتوب عليهما إنه هو التواب الرحيم .

يذكرنا الله تعالى بذلك كله ليعلمنا كيف تتأبى بابراهيم وولده اسمعيل فى إقامة بيوت الله ، وأن نرجع اليه فى قبول الأعمال ، وأن نلجأ اليه فى تعليمنا أمور الدين ، وفى قبول توبتنا .

(٥) من دعا نبي الله ابراهيم أن يبعث فى ذريته رسولا منهم ، يتلو عليهم آيات الله ودلائل قدرته ، وعلمه وحكمته ، ويعلمهم القرآن ، ويوقفهم على أسرار الشريعة ، ومقاصد الأحكام ، وتلك هى الحكمة التى قال الله فيها ( ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب «٦٩» ) وقد أجاب الله دعوته كما ورد فى حديث أحد «أنا دعوة ابراهيم وبشارة عيسى . » ثم أرانا الله بعد ذلك أنه لا يرغب عن ملة ابراهيم من التوحيد الخالص ، واسلام الوجه لله ، والقيام بما أوحاه الله كاملا غير منقوص ، إلا من امتن نفسه ولزدها ، وأن الله اختاره فى الدنيا لإمامة الناس ، وجعل فى ذريته النبوة والكتاب ، وانه فى الآخرة لمن الصالحين لجواربه ، المتمتعين برحمة ورضوانه ، لأن الله قال له أسلم فقال أسلمت لرب العالمين ، ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب وهو يقول يا بني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون :

## إبراهيم عليه السلام

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَزَّرَ اتَّخَذُ أَصْنَامًا <sup>(١)</sup> ، إِلَهَةً إِنِّي أُرِيدُكَ وَفَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ <sup>(٢)</sup> وَكَذَلِكَ نَرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ <sup>(٣)</sup> السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْسَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ <sup>(٤)</sup> فَلَمَّا جَنَّ <sup>(٥)</sup> عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ <sup>(٦)</sup> فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ لِي مِنْ رَبِّي لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَا كُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ <sup>(٧)</sup> فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ <sup>(٨)</sup> إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا <sup>(٩)</sup> وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ <sup>(١٠)</sup> وَحَاجَّةَ قَوْمِهِ قَالَ أَنُحْجُو فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ <sup>(١١)</sup> وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا <sup>(١٢)</sup> فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ <sup>(١٣)</sup> الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ <sup>(١٤)</sup> وَتِلْكَ حُجَّتُنَا <sup>(١٥)</sup> ، أَتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ <sup>(١٦)</sup> «٨٣» الأنعام

## شرح وعبرة

(١) يرينا الله تعالى أن نبي الله إبراهيم رأى أباه وقومه يعبدون الأصنام فأنكر عليهم ، ولم تمنعه الأبوة من ذلك الانكار ، ليرينا أنه لم يكن من الأدب مع الآباء تركهم ومما فيه من باطل تأديبا معهم ، ولئن كان ذلك العمل مغضبا للآباء فهو مرض للرب ، وحق الله فوق حق الآباء ، ومن

[١] قبل فرق بين الوثن والشم ، هو أن الوثن ماله جهة تنصب قصد ، والشم الصورة بلا جهة ، وقيل لافرق بينهما ويطلقان على اللذين . [٢] ملك . [٣] غطاء ، أفل : غاب واحتجب . [٤] من الخلف بالتحريك ، وهو الليل من اللوحج إلى الاستقامة . [٥] برهانا ، يلبسوا : يخلطوا . [٦] الدلالة المينة للعبد لله .



ناحية أخرى فان الأب قد أحسن الى ولده الاحسان كله بربيته والانعام عليه ، فكان من اللائق مكافأته على ذلك الاحسان ، وان أكبر إحسان للأب دعوته الى مافيه سعادته ، واثقاده من عذاب الله ، ومن فوائد دعوة ابراهيم لأبيه أن يقيم الحجة على قومه ، حتى لا يقولوا لماذا يدع أقاربه في ضلالتهم ويدعوننا ؟ أليس من اللائق أن لا يفرق بين قريب وبعيد إذا كان مايقوله حقا ، فلكي تنقطع أعذارهم دعا أباه الى عبادة الله وحده ، كما دعا قومه ، ولعل هذا هو السر في تكليف نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بانذار عشيرته الأقربين قبل اذاره قومه ، وقد صدع بالأمر ، وأخذ يجتمعهم ويخوفهم من الله ، ويربهم أنه لا يغني عنهم من عذاب الله شيئا إذا هم خالفوه ، وأخذ يقول «يعباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا . يا صفيه عمه رسول الله لا أغني عنك من الله شيئا ويا فاطمة بنت محمد سلبي ما شئت من مالى لا أغني عنك من الله شيئا (١) » من ذلك نعرف أن نبي الله ابراهيم كان قويا في الحق ، شديدا على أهل الضلال أيا كانت مكاتبتهم منه ، ألا تراه يقول لأبيه أزر (انى أراك وقومك في ضلال مبين) وكما أرى الله ابراهيم قبح عبادة الأصنام أراه «ملكوت السموات والأرض» وما أودع فيهما من آيات ، وما اشتعل عليه من دلائل ولأجل أن يكون ابراهيم موقنا بوحدة الله وقدرته وحكمته فعل به ما فعل ، وأراه بعيني بصيرته من جلال الله وجماله ما أراه .

(٢) تأمل كيف استطاع ابراهيم عليه السلام أن يحجج قومه بطريق الاستدراج ، حينما غطي عليه الليل رأى كوكبا فقال لقومه بأسلوب المتهم ( هذاربى ) فلما غاب ذلك الكوكب قال ( لا أحب الآفلين ) فلا أعبد إلها يحضر أحيانا ويغيب أحيانا ( فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدينى ربى لأكون من القوم الضالين ) وكيف أعبد إلها يضىء بعض الوقت ويغيب البعض الآخر ، ومن الذى يهدينى من الضلال إذا هو غاب ؟ ( فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ) لأن ضوءها أشد ، وقعها أثقل وأعم ( فلما أفلت قال يا قوم انى برى عما تشركون انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ) وهى معارة من نبي الله ابراهيم ، واستدراجه للقوم حتى أقام عليهم الحجة ، ووضع أيديهم على مواطن الضعف منهم ، انتقل بهم من كوكب الى كوكب ، وأرام أن موقفه منهم موقف الباحث ، حتى لا ينفروا من مجادلته ، وأرام أن الكواكب على اختلافها قوة وضعفا لا يصلح واحد منها أن يكون إلها معبودا لأنها تقب وتحضر ، ثم بعد أن أقام الحجة عليهم بذلك الأسلوب اللين ، أملى عليهم عقيدته ، فأرام أنه برى عما يشركون بالله ، وأنه أسلم وجهه للاله الذى فطر السموات والأرض مائلا من الباطل الى الحق ، وما أنا من المشركين .

(٣) يرينا الله تعالى أن قوم ابراهيم جادلوه فى الله ، وحاجوه فى توحيدده ، وخوفوه من آلهتهم أن يعصيه سوء منهم ، فأنكر عليهم هذه الحاجة وقد هداه الله تعالى الى التوحيد ، وأرام أنه لا يخاف شركاهم أن ينزلوا به سوءا إلا اذا شاء الله ذلك السوء ، فهو الذى يخاف ، لأنه وسع كل شئ . علما ، ولو كانوا من أهل التذكر ماخوفوه من آلهتهم ، ثم أرام أنه كيف يخاف شركاهم وهم

خلق من خلق الله ، ولا يخافون هم أن يشركوا بالله ما لم ينزل به عليهم برهاً ودليلاً ، وأى الفريقين أحقّ بالأمن : ابراهيم الموحّد ، أم قومه المشركون ، ثم ختم الآية بقوله ( الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ) ليريهـم أن الأحقّ بالأمن هم أهل التوحيد الخالص ، والإيمان الصحيح ، الذين لم يخلطوا إيمانهم بظلمهم لأنفسهم ، أما أهل الشرك ، وعباد الأوثان فلبسوا أهلاً للأمن من عذاب الله ، وطمانينة القلب ( ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق » ٣١ » ( ١ ) .

( ٤ ) بعد ذلك آمنّ الله تعالى على ابراهيم بتلك الحجة العظيمة التي أقامها ابراهيم عليه السلام على قومه ، وأن الذي آتاه ابراهيم هو الله تعالى ، ولولا هدايته لأقامة هذه الحجة ما اهتدى ، فهو الذي رفع من يشاء في العلم والحكمة واقامة الحجة درجات ، وهو الذي يهب الناس قوّة البيان ، وحضور البديهة - بمنّ الله تعالى على ابراهيم بأنه آتاه حجة بالغة ، وقد أريناك في هذه السورة كيف تغلب ابراهيم على قومه بذلك الأسلوب الساحر ، وأجّب منه تلك الحاجة التي ينهنا الله لها في سورة البقرة ( ألم تر إلى الذي حاجّ ابراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال ابراهيم ربّي الذي يحبّي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال ابراهيم فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالين » ٥٨ ) يقول ابراهيم لمناظره ( ربّي الذي يحبّي ويميت ) والمراد أنه هو الذي يهب الحياة وينزعها فقال ( أنا أحيي وأميت ) يريد أنه يستبق الحيّ ، وتلك حياة له ، وأنه يعدى على الحيّ فيموت ، وبذلك ظنّ أنه يماثل إله ابراهيم ، وأنه حجة ، فترك ابراهيم عليه السلام ذلك الطريق ، وسلك به أسلوباً آخر لا يستطيع أن يردّ عليه ، فقال ( إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ) وهي حجة لا تقبل جدلاً ، ولا تتحمل تأويلاً ، ولذلك بهت بها الذي كفر ، وقلج بها نبىّ الله ابراهيم ، وهي مقدرة عظيمة ، وقوّة نادرة يهبها الله لمن شاء من عباده ، ومن شكر الله على هذه النعمة أن لا نستعملها في إضعاف حقّ ، أو ترويج باطل ، وأن لا نعطّلها عند الحاجة اليها ، وكثير من الناس يعطى حجة دامغة ، ويأينا قويا ، ولكنه يقف من الحق كالشيطان الأخرس ، يسكت على الباطل حتى يشيع ، ويترك الحق مخدولاً غير منتصر ، وسيحاسبه الله تعالى على ذلك البيان وهذه النعمة ( ثم لتسألن يومئذ عن النعم » ٨ » ( ٢ ) .

### إبراهيم عليه السلام

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ٣٥ رَبِّ إِنِّي أَخْلَصْتُكَ لِلْإِسْلَامِ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ فَتَنَّبِئْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٣٦ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ

ذِي زَرْعٍ عِنْدَ يَتِّكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً <sup>(١)</sup> مِنَ النَّاسِ  
تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ «٣٧» رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ  
مَا نُخْفِي وَمَا نُمْتَلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ «٣٨»  
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ «٣٩»  
رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ «٤٠» رَبَّنَا اغْفِرْ لِي  
وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ «٤١» ابراهيم

### شرح وعبرة

(١) أمّ شيء في هذه القصة من سورة ابراهيم عليه السلام التأني به في الدعاء ، وهو باب  
كبير من أبواب عبادة الله تعالى ، وقد ورد في الحديث الصحيح « الدعاء هو العبادة » لأنه مظهر  
واضح من مظاهر العبودية للدعوى ، واعتراف بأنه أهل لأن ترفع له الحاجات ، ويلجأ اليه  
الداعون عند الشدة ، وقد غفل كثير من الناس عن ذلك فوجهوا وجوههم شطر الصالحين ،  
ويعلموا الأضرحة والتوابيت ، وأخذوا يستغيثون بأصحابها ، ويستنصرون بهم في قضاء حوائجهم  
(ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرّك فان فعلت فانك إذا من الظالمين «١٠٦» وان  
يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده  
وهو الغفور الرحيم «١٠٧» (٢) .

(٢) طلب من الله تعالى أن يجعل مكة حراماً آمناً من اعتداء الناس عليه ، وقصد به سوء  
وأن يحجبه وذريته عبادة الأصنام التي كان يبغيها بغضا شديداً ، وقد بين سبب بغضه  
لها في قوله ( رب انهن أضللن كثيرا من الناس ) وما كان سببا في ضلال الناس جدير به أن  
يغضب ، وجدير به أن تطهر منه الأرض ، ولما تجدد نبى الله ابراهيم في سورة الأنبياء أقسم بالله  
ليكيدن أئسانهم ، وقد برّ في قسمه (بخلهم جزاذا إلا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون «٥٨» (٣)  
ليرينا أن الطريق في إفراد الله بالعبادة : هي إزالة كل أسباب الشرك ، وذرائع الوثنية ، وهو  
الذى حل رسول الله محمدا صلى الله عليه وسلم على أن يزيل من حول البيت كل صنم ، وحل  
خلفاء الراشدين أن لا يدعوا تمثالا إلا هدموه ، ولا قبرا مشرفا على الأرض الاسقوه ، وهو الذى  
حل عمر بن الخطاب أن يقطع الشجرة التي كانت عندها بيعة الصحابة حينما شعر أن الناس  
سيتركون بها ، فرأى أن ذلك عرق من عروق الشرك ، وباب من أبواب الفساد ، وذلك السبب  
نفسه هو الذى حل على أن يزيل مظلة وضعا بعض الناس لأحد الموتى ، فسأله لماذا وضعت عليه  
هذه القبة ؟ قال لتظله ، فقال عمر «دعوه يظله عمله» .

وهو الذى دعا المسلمين فى الصدر الأول لازالة القباب من فوق القبور ، وهو الذى حل الامام عبد العزيز آل سعود على أن يزيل القباب من بلاد الحجاز كما أزالها سلفه فى نجد - كل ذلك لأنها تصل كثيرا من الناس ، وتفتح عليهم بابا من أبواب الشرك ، فالتأسى بإبراهيم عليه السلام فى بغضه للشرك وذرائع الشرك ، والتأسى بإبراهيم عليه السلام فى تطهير الأرض من كل ماله علاقة بالشرك ليبقى توحيد الله خالصا لا يشوبه شئ من الوثنية ، والتأسى بإبراهيم عليه السلام فى تدبر هذه الكلمة التى قالها نبي الله إبراهيم (رب إنهم أضلن كثيرا من الناس) لتعرف أسباب فتنة الناس فى دينهم ، وصرفهم عن الحق الذى أتى به الرسل ، فكل من كان قدوة سيئة فى الباطل ، وسببا فى صرف الناس عن الدين ، ينبغى للؤمن أن يبغضه ، ويعمل على الحيلولة بينه وبين الناس ، حتى لا يفتنوا به ، ثم قال إبراهيم (فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم) يريد إبراهيم أن من تبعه فى محبة الحق والعمل له فانه بعض مني ، وقد أجاب الله فيه دعوته ، ومن عصاني ثم تاب مما فرط منه فان الله يغفر له ذنبه ، ويقبل توبته .

(٣) ثم دعا ربه أن يجعل قلوب الناس تهوى الى بعض أبنائه الذى أسكنهم بمكة عند بيت الله المحرم ، وهى بلد مجذب لازرع فيه ، وأنه يرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون فضله عليهم ، وقد أجاب الله دعوته ، غلب الناس فى ذلك البيت ، وأودع فى قلوب الناس اجلاله وتوقيره ، وجلب اليه الثمرات من جهات شتى ، فترى فيه الفاكهة على اختلاف أنواعها (أولم تمكن لهم حوما آتانا يحيى اليه ثمرات كل شئ رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون «٥٧» (١)) ثم قال مخاطبا لربه (إنك تعلم ما نخفى وما نعلن ، وما يخفى على الله من شئ فى الأرض ولا فى السماء) وما طلبنا منك لتعرفك ما لا تعرف ، وإنما طلبنا منك اعترافا بقدرتك ، ودعانا لربوبيتك ، وانتقارا لما عندك ، واستعجالا لنيل أباديك ، ثم حذر به أن وهبه مع كبر سنه اسماعيل واسحق ، بعد أن طلب منه أن يهبه ذرية صالحة ، حذر أن سمع دعاءه ، وأجابه الى ما طلب ، ثم طلب منه أن يجعله مقاما للصلاة ، وأن يجعل من ذريته من يقيمها ، وأن يتقبل دعاءه ، ويغفر له ولوالديه وللمؤمنين يوم يقوم الحساب .

### إبراهيم عليه السلام

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ «١٢٠» شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ أُجِبَتْهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ «١٢١» وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لِنَ الصَّالِحِينَ «١٢٢» ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ «١٢٣» النمل

## شرح وعبرة

(١) ان القلم ليقت حيران لا يبرى ماذا يكتب في تصوير هذه الكلمة التي وصف الله بها نبي الله ابراهيم ، وتقريبها من نفوس القارئين ، وهو يقول (ان ابراهيم كان أمة) ولو أمعن الانسان النظر فيها رأى أنها مقال مسهب في مدح نبي الله ابراهيم ، بل هي رسالة من رسائل الشتاء ، يرينا الله بها أن ابراهيم قد بلغ من الكمال في صفات الخير ما استحق به أن يكون أمة وحده ، فكل ما تفرق في الناس من خلال طيبة وشيم حمضية ، وخلق طاهر ، قد جمعه الله تعالى لنبيه ابراهيم ، وبذلك صار ابراهيم أمة ، فهو أمة في الدعوة الى الله تعالى ، في الاحتمال والصبر ، في لين الجانب وجمال الأسلوب ، في الثبات على الحق ، في التأفف من الباطل ، والاشتمزاز منه ، وحضور البديهة ، وسرعة الخطار ، في التواضع والخشية من الله تعالى وما إلى ذلك من صفات الكمال .

وليس على الله بمفسكر أن يجمع العالم في واحد

(٢) ثم وصف الله تعالى ابراهيم بأنه (قانت) لله وهو القائم بأمر الله تعالى ، الخاضع له ، و (خفيف) وهو المائل الى ملة الاسلام ميلا لا يزول عنه ، وقوله (ولم يك من المشركين) رد على اليهود الذين ادعوا أنهم على ملة ابراهيم ، وكذلك النصارى ، وأخذ كل فريق يضمه إليه على ما هم عليه من الشرك .

وقد رد الله عليهم في سورة آل عمران (يا أهل الكتاب لم تحتاجون في ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل إلا من بعده أفلا تعقلون «٦٥» هأنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون «٦٦» ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين «٦٧» إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين «٦٨» . ومن خلال ابراهيم أنه شاكر لأنتم الله ، وهي كلمة جامعة لأنواع الشكر الذي يقابله الكفر ، ومن الغرض من شكر ابراهيم لربه أن يفسره بعض العلماء بأنه عليه السلام كان لا يتغذى إلا مع ضيف ، إلا أن يكون ذكر ذلك على سبيل المثال ، وإلا فالشكر لأنتم الله تعالى أعم من شكره على نعمة المال ، والولد ، والصحة ، وغير ذلك من أنواع النعم التي لا يحصى العدة . وما أحسن قول الله (اجتباؤه وهداه إلى صراط مستقيم) فإن الاجتباء هو أن تأخذ الشيء ، جميعه ، من جيت الماء في الخوض : جميعه ، فالاجتباء : الجمع على طريق الاصطفاة ، وكأن الله تعالى يلفتنا إلى أن الله ضمّه اليه ليصطفيه لذلك المنصب الجليل ، وهو منصب النبوة ، في هداة الى صراط مستقيم في الدعوة الى الله تعالى ، والترغيب في الدين الحق ، والتفجير عن الباطل ، ثم قال (وآتيناه في الدنيا حسنة) قيل هي إقرار أهل الأديان به ، وقيل هي قول المصلي (كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم) وقيل الذكرى الطيبة تحقيقا لطلبه (واجعل لي لسان صدق في الآخرين «٨٤»<sup>(١)</sup>) وقيل الصدق والوفاء والعبادة ، ويصح أن يراد بالحسنة كل ذلك (وانه في الآخرة لمن الصالحين) كما طلب (رب هب لي حكما وأخفني بالصالحين «٨٣»<sup>(٢)</sup>) .

(٣) ربنا الله تعالى أنه بعد أن عرف محمدًا صلى الله عليه وسلم ما كان عليه إبراهيم من كمال الصفات ، وأحسن الأخلاق ، ويصدق أن عرفه أنه كان أمةً جامعاً لصفات الخير ، مطيعاً لله مائلاً عن الباطل إلى الحق ، وأنه كان شاكراً لنعم الله ، وأن الله اجتباؤه وهداؤه ، ورزقه حسنة في الدنيا وهو في الآخرة من الصالحين — بعد ذلك كله أراه أنه أوحى إليه أن يقبض ملة إبراهيم ، ويتأسى به في الاحتمال والصبر على إيذاء الناس له ، ووضعهم العقبات في سبيل دعوته ، ومحادثتهم بالحسنى فالمراد أن يقبضه في طريق الدعوة إلى التوحيد ، وهو أن يكون بطريق الرفق والسهولة ، وإيراد الدلائل صريحة بعد أخرى ، ونظيره ( أولئك الذين هدانا الله فبهدهم اقتده «٩٠» ) (١) وقوله ( فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم «٣٥» ) (٢) أو يقبض ملة في التوحيد الخالص ، وبضئه للشرك وذرائع الشرك .

وقد خصَّ إبراهيم بذلك لأنه رئيس الموحدين ، وقدوة العباد والناسكين . والمشركون على اختلاف نحلهم كانوا مفتخرين به ، معترفين بحسن أسأبه ، مقرّين بوجوب الاقتداء به ، وآية ذلك أن اليهود ادّعوا أنهم على ملة ، والنصارى يقولون : انهم على طوبقته . وقد ردّ الله عليهم بأنه لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ، ولكن كان حنيفاً مسلماً ، فلم يكن معهم في الشرك ، فإذا شُئِم النسبة إليه فأتبعوه في التوحيد ، واسلكوا طريقه في ملة الخفية ، فلا عجب أن ينفي الله عن نبيه إبراهيم في هذه القطعة من السورة نسبته إلى الشرك صريحين ، فرة يقول ( ولم يك من المشركين ) وصريحة يقول ( وما كان من المشركين ) .

(٤) وهناك نكتة لطيفة في قوله ( ثم أوحينا إليك الخ ) ترى أن أشرف ما أوتى خليل الله من الكرامة ، وأعظم ما جابه الله تعالى من نعم ، اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ملة ، وهي تدلّ على تعظيم منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجلال مكانته ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه وتابعيه ، وعلى حامل لواء التوحيد نبي الله إبراهيم صلاة تليق بمقامهم ، وتناسب مع مكاتهم ، وعلوّ منزلتهم .

### إبراهيم عليه السلام

وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا <sup>(٣)</sup> نَبِيًّا «٤١» إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا «٤٢» يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا «٤٣» يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ <sup>(٤)</sup> الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا «٤٤» يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ

[١] الأسماء . [٢] الأخلاق . [٣] خالفه الصدق . [٤] تلع .

أَنْ يَمْسَكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ  
عَنِ الْهَيْئَةِ يَأْتِيهِمْ لَنْ لَمْ تَنْتَه لَأَرْجُحَكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلِمْتُ  
عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزَلْتُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ  
مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ مَرَّةً

### شرح وعبرة

(١) يأمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يذكر في الكتاب إبراهيم ليعتبر الناس  
بسيرته، ويدركوا بقصته، وقد كان أول خلق في نبي الله إبراهيم أنه كان من الصديقين، و«الصديق»  
من أمثلة المبالغة كمنطق، واستحق ذلك اللقب الكبير لفرط صدقه، حتى صار الصدق خلقا  
راسخا فيه، أو لفرط تصدقه بإيات الله وكتبه ورسله، فسماه الله «صدقا» فذلك كان مع  
ذلك نبيا، أي كان جامعا لخصائص الصديقين والأنبياء حينما خاطب أباء تلك المخاطبات .  
ونأمل كيف وصفه الله تعالى بذلك الوصف، وهو أنه صديق قبل أن يصفه بالنبوة، ليرينا قيمة  
الصدق وأنه ملاك أمر النبوة . ولعل في ذلك مذكرا لقوم يطمعون في إمامة الناس، ثم هم مع ذلك  
لا يتحرجون من الكذب، وإذا أنت أخذت تلومهم رأيت منهم العاذرين نالوا العاذرين، وأسهل شيء  
عندهم أن يقولوا: انه كذب فقت به المصلحة، وما دروا أن هذا العذر يفتح عليهم بابا من أبواب  
جهنم، وأي باب من أبواب الكذب لا يستطيع الرجل أن يعتذر عنه بمثل هذا؟ فشاهد الزور  
أمام المحاكم يحرف في الشهادة لأن تحريجه لما قضت به مصلحته المادية، وكلم الشهادة يكتم شهادته  
لاعتقاده أن هذه الشهادة ان أدبت على وجهها الصحيح أضرت بالمشهود عليه، والذي يفتي  
الناس بغير ما يعتقد اتباعا لشهواتهم وأهوائهم انما يتق بهذه الفتوى ضررا يلحق به، أو يجلب  
نفعا يعود عليه، وكل كذب من العقلاء لا يمكن أن يكون لغير مصلحة، إما جلب نفع، أو دفع  
ضرر، ولذلك عظم أمر الصدق، وإقامة الشهادة على وجهها الصحيح (بأيها الذين آمنوا كونوا  
قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين <sup>(١)</sup>) وهي حلة لا يقوى عليها  
سوى أقوياء الإيمان، ثابتي العقيدة، ما أبرد الصدق على النفوس، وما أشق في هذه الأوساط  
الموبوءة، ما أبرد على نفوس الأتقياء المؤمنين، وما أصعب على نفوس الضعفاء والمنافين .

(٢) لو تأملت أسلوب نبي الله إبراهيم مع أبيه في هذه القصة لرأيت فيها العجب، ترى فيها  
أدبا جادا، وتلفظا بأبيه غير محدود، وتواضعا في تركية نفسه، وحجة دامغة، وأساليب سهلة، يقول  
له (يا أبا لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يفني عنك شيئا) فيستهل خطابه بتذكيره برابطة الأبوة،  
وهي رابطة من أقوى الروابط، من شأنها أن تجعل كلا من المتراطين جد حريص على مصلحة  
صاحبه، ومن ناحية أخرى يحاول نبي الله إبراهيم أن يكسر بذلك الأسلوب الجذاب حدة أبيه،

حتى يستطيع أن يبلغه رسالة الله ، ويقم عليه حجته وهو هادئ غير ناثر ، بعد أن ناداه بذلك الأسلوب الموجب للحنان والعطف قال له في أدب : لم تعبد إلها لا يسمعك إذا ناديت ، ولا يبصرك إذا عبدته ، ولا يفتي عنك إذا حلّ بك مكروه شيئا من الغناء ، وهل يستوى إله يسمع ، وإله أصم ؟ وهل يستوى أعشى وبصر .

(٣) ثم عقب ذلك بدعوة أبيه إلى الحق في رفيق ولين ، فلم يصف أباه بالجهل المفروط ، ولا نفسه بالعلم الفائق فقال ( يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا ) ثم أخذ ينهيه عن طاعة الشيطان فإن الشيطان عصي الله تعالى ، ولا ينبغي للإنسان أن يطيع من عصي ربه ، ثم ختم وعظه بأشفاقه على أبيه ، وخوفه أن يصاب بعداب من الله فيكون وليا للشيطان ، وقد أمرنا الله باتخاذ الشيطان عدوا لا وليا ، فقال ( ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو خربه ليكونوا من أصحاب السعير » ٦ « (١) ) فإذا كان من أبيه بعد ذلك الترفق البليغ ؟ كان منه أن قال له ( أرغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجنك واهجرني مليا ) أنكر على ولده إبراهيم أن يرغب عن آلهة أبيه آزر ، ثم أخذ يقابل اللين بالشدة ، والرفق في القول بالفظاظة ، فناداه باسمه ، ولم يقابل ( يا أبت ) كلمة العطف بقوله ( يا بني ) وأراه ان آلهته لا ينبغي أن يرغب عنها أحد ، ثم لجأ إلى طريق التهديد ، فقال ( لئن لم تنته لأرجنك ) يريد بذلك الشتم والسب ، ومنه الرجم المرمى باللعن ، أولا طردك رميا بالحجارة ، وأصل الرجم : الرمي بالرجام وهي الحجارة ، ثم طلب منه أن يهجره زمنا طويلا لا يراه فيه .

(٤) فلم يكن من إبراهيم بعد الشدة التي رآها من أبيه سوى أن قال (سلام عليك) سلام توديع ومشاركة كقوله ( لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين » ٥٥ « (٢) ) وقوله في وصف عباد الرحمن ( وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » ٦٣ « (٣) ) ثم وعده مع ذلك أن يستغفر له ربه ، عله يفقر له ذنبه ، وكان ذلك قبل يأسه من إيمانه أما بعد أن تبين له أنه عدو لله ، لا يقبل في آلهته كلاما ، ولا يستطيع أن يدع عبادتهم ، فقد تبرأ منه وكف عن الاستغفار له ( ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قرى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم » ١١٣ « ) وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ( إن إبراهيم لأواه حليم » ١١٤ « (٤) ) ثم وعده بأن يعزله هو وآلهته ويدعو ربه وحده رجاء أن لا يكون شقيا بذلك الدعاء ، عرض بشقاوتهم بدعاء آلهتهم مع تواضعه لله بكلمة ( عسى ) وما في ذلك التواضع من هضم النفس - يرينا نبي الله إبراهيم أنه لمالم يستطيع أن يحول بين أبيه وقومه وبين عبادة الأوثان تجنّبهم هم ومعبودهم ، حتى لا يكون مظهره من أولئك القوم مظهر الراضى عن عبادتهم . ليرينا أن من رأى صاحبه على منكر فليعمل على إبعاده منه ، فإن أخفق في ذلك فليجتنبه في ذلك المنكر ، وإن كان أقرب الناس إليه ، ولا يمنعه ذلك أن يؤدّى للأبوة حقها من البر ، فإن ذلك حق مستقل لأصله له بالعقيدة ، ولتلك يقول الله ( وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا » ١٥ « (٥) )



فاذا طالبك أبوك بحصية الله فلا تطعه ، فان حق الله فوق حق الوالد ، وإن طلب منك مالا فأجبه فان ذلك من الصحة بالمعروف ، وكفاء حسن التربية بالحسنة ، وذلك هو نهاية الحكمة ، وغاية الانصاف .

### إبراهيم عليه السلام

وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا نَاكِهَا عَبْدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْنَا بِبَالٍ حَقٌّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّامِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ <sup>(١)</sup> وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَوَّاهُ لَا كَيْدَ لَكُمْ أَصْنَعُكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ جُذُذًا <sup>(٢)</sup> إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَدْعُ كُرْهُمُ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ أَغْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا <sup>(٣)</sup> عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفِ <sup>(٤)</sup> لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْآخِسِرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى

[١] أبدين وخلفين . [٢] قطعاً صغيرة . [٣] من الكس ، وهو قلب النى . على رأسه

« ومن نسرته تنكح في الخلق » نرده إلى ما كان عليه من ضيق الجمل والقل .

[٤] أصل الألف بالضم كل مستغفر ، وتعال لكل مستغف استغفاراً له ، وقد ألفت بالتنديد لكذا إذا قلت ذلك استغفاراً له .

الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَعَيْنَا لَهُ إِسْخَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴿٧٢﴾ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٣﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدَ ﴿٧٤﴾ الْأَنْبِيَاءِ

### شرح وعبرة

(١) يرينا الله تعالى أنه أعطى إبراهيم رشده وهده لوجه الصلاح من قبل موسى وعيسى ، وكان علما به حينما قال لأبيه وقومه تلك القصة الآتية ، والمراد أن إبراهيم عليه السلام قد أوفى رشده ، وكان موضع رضا الله وهو يناقش قومه ويحاججهم ، وما دام إبراهيم كذلك فتأس به وترسم خطاه ( إذ قال ) إبراهيم ( لأبيه وقومه ماهذه الخمايل التي أتم لها عاكفون ) وهو تجاهل من إبراهيم لأبنائهم وتغاب ، ليحقر آلهتهم ، ويصغر من شأنها مع علمه بتعظيمهم إياها وإجلالهم لها ، كما تقول اذا ذكر أمامك رجل من الناس بلسان المستخف المنكر لأن يكون هناك رجل له ذلك الاسم « ومن ذلك الرجل ؟ » فكان جوابهم عن ذلك أن قالوا ( وجدنا آباءنا لها عابدين ) فكل ما عندهم من حجة لعبادة أولئك الأصنام أن وجدوا آباءهم عابدين لها ، وما دام ذلك عمل الآباء والأجداد فكيف نخمد عنه ؟ وهى شبهة أعداء الرسل جميعهم ، ونكأهم في صدق الناس عن الحق وإبعادهم عن الرشd ، عمدوا الى العقول فعطلوها ، والى الأصنام فأصموها ، والى الأبصار فأعموها ، اعتمادا على عقل الآباء والأجداد ، وتعويلا على سماع السابقين والمقدمين ، وكأن الله تعالى خلق لهم هذه الأصنام والأبصار ، ووهبهم أولئك العقول ، ليعطلوها عن وظائفها ، ويحولوا بينها وبين أداء واجبها ، وما دروا أن الله تعالى يتقن علينا بهذه النعم ، ويذكرنا بتلك المواهب لشكره عليها بأعمالها ، ولا نكفره فيها بتعطيلها وإهمالها ( والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون « ٨٨ » ) ( ٢ ) وحسبنا أن أهل النار يقولون وهم يسطرخون فيها ( لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير « ١٠ » ) فاعترفوا بذنبهم فسحقا ( ٣ ) لأصحاب السعير « ١١ » ( ٤ ) وأن الله تعالى يقول في صافات أهل جهنم الذين خلقوا لها وخلق لهم ، وبها تستطيع أن تعرفهم في هذه الحياة ( ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون « ١٧٩ » ) ( ٥ ) نعم إن هذه السنة سنة التقليد هى سنة أعداء الرسل جميعهم ، وعادتهم في التخلص من دعوة الحق ، أن يعمدوا الى الآباء فيتسحوا بهم ، ويلجأوا الى السابقين فيستمسكوا بطريقهم ، وإن كان السابقون ليسوا من العقل فى قليل ولا كثير ، وليسوا من العلم فى تقيير أو قطمير ( وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما أفئنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون « ١٧٠ » ) ( ٦ ) ونظيره قول الله تعالى فى سورة

[١] ولد الولد ، من الفل وهو الزيادة . [٢] النحل . [٣] بدأ وملا . [٤] الملك .  
[٥] الأعراف . [٦] البقرة .

المائدة (واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعاملون شيئا ولا يشهدون «١٠٤» ) . والله درّ الزمخشري إذ يقول : [ ما أقبح التقليد والقول المتقبل بغير برهان ، وما أعظم كيد الشيطان للتقليد حين استدرجهم الى أن قلدوا آباءهم في عبادة الخائيل ، وغفروا لها جباههم ، وهم معتقدون أنهم على شيء ، وجاذون في نصرة مذهبهم ، ومجادلون لأهل الحق عن باطلهم ، وكفى أهل التقليد سبة أن عبدة الأصنام منهم ] فلا عجب إذا لم يقيم نبي الله إبراهيم لهذه الشبهة وزنا ، ولم يعمل لها حسابا ، بل قال ( لقد كنتم أنتم وأباؤكم في ضلال مبين ) لأنكم لا تعتمدون على دليل ، بل على هوى متبع ، وشيطان مطاع .

(٢) قد عجب قوم إبراهيم من صنيعه معهم ، وحسبوا أنه قال ما قال في آلهتهم على وجه المزاح والمداعبة ، لأعلى سبيل الحق ، فقالوا له ( أجتنا بالحق أم أنت من اللاحين ) فأراهم أن الأسر جد لالعب ، وأن أولئك الأصنام لا تستحق أن تكون لكم أربابا ، بل التي يستحق ذلك ويستأهلها رب السموات والأرض التي خلقها على غير مثال سابق ، أو فطر الأصنام التي تعبدونها ، وأنا شاهد على ذلك بالحجة والبرهان ، لأني لست مثلكم ، فأقول ما لا أقدر على إثباته ثم لم يكنف نبي الله إبراهيم بانكاره على قومه عبادة الأصنام ، وتضليلهم في ذلك العمل هم وسلفهم بل أتبع القول بالعمل ، فأقسم ليكيدين أصنامهم بعد أن يتروكها ، فأخذ يجدهم صنعا بعد صنم ، حتى صارت قطعنا صغيرة ، عدا صنمهم الأكبر ، تركه بدون جدّة ، علمهم إليه يرجعون في حلّ ذلك الأشكال ، ومعرفة المعتدى على جيرانه من الأصنام ، أو علمهم يرجعون إليه فيسألوه لماذا نتحمل الاهانة للأصنام وأنت مطرق ساكت ؟ ولماذا لا تدود عنهم ذلك الأذى الذي حلّ بهم ؟ ولعلّ ذلك المنطق يقودهم إلى معرفة الإله الحق ، ويقولون في أنفسهم ما بالنا نعبد آلهة لا تدفع الشرّ عن نفسها ؟ وإذا كانت من العجز الى ذلك الحد فكيف تدفع الشرّ عن عابديها ؟ وما قيمة إله بلغ من العجز الى ذلك الحد المزرى ؟ ( أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم ينصرون «٤٣» ) (١) ( قالوا ) فيما بينهم ( من فعل هذا بالهتنا انملن الظالمين ) وأخذوا يبحثون عنه ، ويتلمسون في القوم ، فقال قائلهم ( سمعنا فني يذكركم يقال له إبراهيم ) فأمرؤا أن يؤتى به على صرأى من الناس علمهم يشهدون عليه بما فعل ، ويشهدون عقوبتنا له على ذلك العمل الجريء ، ثم سأله ( أنت فعلت هذا بالهتنا يا إبراهيم ؟ قال ) متوكفا بهم ( بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون ) فلما ألقمهم الحجر ، وأخذ يخاققهم ( رجعوا الى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ) بسؤال إبراهيم . وعدم سؤال الصنم الأكبر ، أو رجعوا الى أنفسهم ليحاسبوها على عبادة أولئك الأصنام التي بلغت من الضعف الى ذلك الحد المتجمل ، فقالوا إنكم أنتم الظالمون لأنفسكم بعبادتها ، ثم انكسروا وانقلبوا راجعي رؤوسهم عن تلك الحالة ، فأخذوا في المجادلة بالباطل ، أو قلدوا على رؤوسهم خجلا من إبراهيم وانكسارا ، قائلين له ( لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ) فلماذا تدعوننا إلى سؤالهم ، وهل تريد بذلك السؤال شيئا وراء التهمك بالهتنا ؟ والزراية بمعبوداتنا ؟ فلما علم نبي الله إبراهيم أنهم لا يصيخون لحجة ، ولا ينصاعون لبرهان ،

(قال) لهم بأسلوب المتعجب ( أفة لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ) قيمة الحجة ، ومكانة البرهان ؟

(٣) بعد أن أقام نبي الله عليهم الحجة ، وأخذ عليهم طرق الجدل والكلام ، لجأوا الى الحديد والنار فقالوا فيما بينهم ( حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين ) والمراد ان كنتم تريدون نصر الاله نصرا مؤزرا ، فقال الله للنار ( كونى بردا وسلاما على ابراهيم وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ) وذلك سنة الله مع الرسل إذا حاربهم الأمر ، وبلغت بهم الشدة منهاها ، سفته معهم أن يجيهم النصر من عنده ، فينجو به المتقون ، ويخذل المستكبرون والمعاندون ( حتى إذا استقيس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين « ١١٠ » ) (١) فلا عجب أن ينجيهم الله ومعه لوط الى بلاد الشام ، ويهب له اسحق ويعقوب ، ويجعلهم كلهم صالحين ، ويجعلهم أئمة يهدون الناس الى الحق بأمر الله ، و يوحى اليهم بفعل الخيرات ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، ويكونون لله تعالى عابدين ، وعند حدوده واقفين .

### إبراهيم عليه السلام

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ « ٦٩ » إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ « ٧٠ » قَالُوا عِبَادُ أَصْنَامًا فَنَقُلْ لَهَا عَظِيمِينَ « ٧١ » قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ « ٧٢ » أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ « ٧٣ » قَالُوا بَلَى وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ « ٧٤ » قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ « ٧٥ » أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ « ٧٦ » فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ « ٧٧ » الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ « ٧٨ » وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ « ٧٩ » وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ « ٨٠ » وَالَّذِي يُمَيِّتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ « ٨١ » وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ « ٨٢ » رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقْ بِالصَّالِحِينَ « ٨٣ » وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ <sup>(٢)</sup> فِي الْآخِرِينَ « ٨٤ » وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ « ٨٥ » وَأَغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ « ٨٦ » وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُنْعَمُونَ « ٨٧ » يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ « ٨٨ » إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ « ٨٩ » الشعراء

[١] يوسف . [٢] ذكر كراً حسناً وسيرة مرضية ، أو المراد أنه سأل الله تعالى أن يجعله صالحاً بحيث إذا أتى عليه من بعده لم يكن ذلك التناء كذباً بل يكون كما قال الشاعر :

إذا نحن أظفنا عليك بصالح فأتى الله شئى وفوق الذى شئى

## شرح وعبرة

(١) يسأل نبي الله ابراهيم آياه وقومه عن معبوديهم ، حتى إذا أجابوه ناقشهم في جوابهم فأقام عليهم الحجة ، يسألهم عن المعبودين لهم فيقولون في جوابه (نعبد أصناما) ولم يقفوا عند حدة المسئول عنه بل قالوا ( فنظّل لها عاكفين ) ليظهروا ما في قلوبهم الخبيثة من الابتهاج بذلك ، فيسألهم ابراهيم ( هل يسمعونكم إذا تدعون أو ينفعونكم أو يضرون ) فلا يستطيعون أن يجيبوا ابراهيم بأن أصنامهم كذلك ، تسمعهم إذا دعوا ، أو تجلب لهم نفعا ، أو تدفع عنهم ضرا ، ويجيبون جواب المفعم المبهوت فيقولون ( بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ) فيقول لهم ابراهيم ( أفأنتم ما كنتم تعبدون أتم وأبائكم الأقدمون ) يريد أنظرتهم فأبصرتهم معبوديكم أتم وأبائكم حق الابصار ؟ فإن أولئك المعبودين بضائي ، وأعداء لأبائهم ، لكن رب العالمين ليس كذلك ، بل هو ولي في الدنيا والآخرة .

ثم بين الصفات التي يستحق بها أن يكون إله ومعبوده ، فقال ( الذي خلقني فهو يهدين ) بما وهبني من الفطرة التي تدعوني الى جلب النافع ودفع الضار ، وأعطاني من السمع والبصر والعقل ما أستطيع به أن أعرف الحق من الباطل ، وأقف به على ملكوت السموات والأرض ، وهداني بالوحى السامى الى ما فيه سعادتى في الدنيا والآخرة ، وإله له ذلك كله لا يستوى هو وأصنام لا تملك من ذلك شيئا ، بل هي ملك لله تعالى وخلق من خلقه .

ثم وصفه بقوله ( والذي هو بطمعى ويسقين ) بما سخر لى من أسباب الرزق ووسائل العيش وبما أنزله وينزله من الأمطار ، ويفجره من العيون ، ويجريه من الأنهار ، ودعاني اليه من العمل وأعدتني له بصحة وعافية واستطاعة لعمارة الأرض والانتفاع بخيراتها .

ثم وصفه بوصف آخر هو قوله ( وإذا مرضت فهو يشفين ) وقد أضاف المرض الى نفسه لأن كثيرا من أسباب المرض يحدث بتفريط من الانسان في مطالعته ومشاربه ووسائل حياته ، وقد نسب الشفاء الى ربه لأنه خلق لكل داء دواء ، وهدى الناس الى علاج أمراضهم من طريق البحث في العقاقير ، ووسائل الأدوية .

وقد قطع الناس شوطا كبيرا في ذلك ، وأصبحوا بواسطة العلم يهتدون الى علاج مقدار كبير من الأمراض ، فقدموا تقديما يذكر في الوقوف على العقاقير التي تعالج بها الأمراض ، كما نبغوا في طريق كشف الأمراض ، والوقوف على مكنونات الأجسام بواسطة الأشعة الكهرومائية ، وذلك كله فضل من الله ، وهداية لبني الانسان الى ما فيه حفظ حياتهم ومحتهم ، فهو الذى يستحق الشكر على هذه الهداية .

ثم وصفه كذلك بأنه الإله الذى يملك الامانة والاحياء ، وأنه الذى يطمع أن يضر له خطيئته يوم القيامة ، وإله له كل هذه الخصائص جدير بأن يكون وليا لابراهيم ، ومعبودا لابراهيم ، ومن على ملة ابراهيم .

(٢) انتقل نبي الله ابراهيم من وصف ربه بجلال الصفات الى دعوته بأن يهيه الحكمة ، وهي الكمال في العلم والعمل ، بحيث يتمكن من خلافة الحق ، ورياسة الخلق ، وأن يوفقه من

الأعمال والعلوم ما يؤهل للانتظام في زمرة الكاملين ، وأن يرزقه جاها وحسن صبت في الدنيا بحيث يبقى أثره الى يوم الدين ، وقد أجاب الله دعوته ، فآمن أمة من الأمم إلا وهي حجة له ، متنية عليه ، أو اجعل لي لسانا صادقا من ذريتي ، يجتد أصل ديني ، ويدعو الناس الى ما كنت أدعوهم إليه من التوحيد ، وهو النبي صلى الله عليه وسلم ، ولما قال صلى الله عليه وسلم « أنا دعوة أبي إبراهيم » ثم طلب أن يجعله في الآخرة من ورثة جنة النعيم ، وأن يضر لأبيه انه كان في الدنيا من الضالين .

وقد سبق أن ذلك الدعاء كان عند طمعه في اسلامه ، وقد وعده إبراهيم أن يستغفر الله له ، أما بعد أن تبين له أنه عدو لله فقد تبرأ منه ، ثم طلب أن لا يحزبه الله في الآخرة في اليوم الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم من الشرك ، بعيد عن النفاق .

(٣) ولعل في هذه القصة عبرة لمن يدعون من الموتى من لا يسمعونهم ، ولا يملك أن يضرم أو ينقعههم ، ولعل في القصة عبرة لقوم ألغوا البطالة ، وتركوا العمل ، معتمدين على أن الله يطعمهم ويسقيهم ، ذاهلين عن قوله ( فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله <sup>(١)</sup> ) وقوله تعالى ( فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه <sup>(٢)</sup> ) لعل فيه عبرة لقوم أرادوا أن يكونوا عائلة على غيرهم في هذه الحياة ، ثم يزعمون مع ذلك أنهم ( خير أمة أخرجت للناس ) كيف وعمر بن الخطاب يقول « لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ثم يمد يده الى السماء يقول يارب فان السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة » .

(٤) ولعل في القصة عبرة لقوم جهلوا سنة الله في هذه الحياة ، وجهلوا أن البيوت إنما يلجها الناس من أبوابها ، فتركوا رجال العلم ، وأساتذة الطب ، الذين درسوه دراسة عميقة ، ولا يزالون يدرسون وينقبون ، ويحجرون ويختبرون ، ويعملون المؤتمرات ، ويواصلون الليل بالنهار ، للوقوف على أسباب الأمراض وعلاجها ، وخصائصها وأعراضها — تركوا أولئك القوم الذين درسوا ذلك العلم ولجأوا الى طرق ما أنزل الله بها من سلطان ، فأحيانا يلجأون الى باب زوينة المعروف في مصر بيوت « المتولى » يعلقون عليه الشعور لشفاء ما برأسهم من صداع ، وأحيانا يلجأون الى بعض النائر في مساجد المسلمين يصعدون عليها عليها تزيل ما بهم من عقم ، وصمة يلجأون الى السجاجة والنصاين ، حلة كتب الدجل والشعوذة ، والضار بين الرمل ، والمخضرين للشياطين ، وغير ذلك .

وقد خرجوا يعلمهم هذا على قول الله تعالى ( وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البرّ من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واقوا الله لعلمكم فتلحون « ١٨٩ » <sup>(٣)</sup> ) .

### إبراهيم عليه السلام

وَإِنْ مِنْ شَيْعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ « ٨٣ » إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ « ٨٤ » إِذْ قَالَ

لَا إِلَهَ دُونَهُ ، وَمَا تَعْبُدُونَ إِلَّا أَنْفُسَكُمْ <sup>(٨٥)</sup> ، إِلَهَةً دُونَ اللَّهِ تَرِيدُونَ <sup>(٨٦)</sup> ،  
فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ <sup>(٨٧)</sup> ، فَتَنَظَّرْ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ <sup>(٨٨)</sup> ، فَقَالَ إِنِّي  
مُسْقِمٌ <sup>(٨٩)</sup> ، فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ <sup>(٩٠)</sup> ، فَرَاغَ <sup>(٩١)</sup> إِلَى إِلَهِهِمْ فَقَالَ أَلَا  
تَأْكُلُونَ <sup>(٩٢)</sup> ، مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ <sup>(٩٣)</sup> ، فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ <sup>(٩٤)</sup> ،  
فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْفُوفُونَ <sup>(٩٥)</sup> ، قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ <sup>(٩٦)</sup> ، وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ  
وَمَا تَعْمَلُونَ <sup>(٩٧)</sup> ، قَالُوا أَبْنَاؤُ لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقَوُوهُ فِي الْجَحِيمِ <sup>(٩٨)</sup> ، فَأَرَادُوا بِهِ  
كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ <sup>(٩٩)</sup> ، وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَّهِدِينَ <sup>(١٠٠)</sup> ، رَبُّ  
هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ <sup>(١٠١)</sup> ، فَبَشَّرْنَاهُ بِحُلُمٍ حَلِيمٍ <sup>(١٠٢)</sup> ، فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ  
السَّمَى قَالَ يُونُسُ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ، فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ، قَالَ يَآبَتِ  
أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ ، سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ <sup>(١٠٣)</sup> ، فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ  
لِلْجَبِينِ <sup>(١٠٤)</sup> ، وَنَذَيْنَهُ أَنْ يُلَازِمَهُمْ <sup>(١٠٥)</sup> ، فَذَصَفَتِ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ  
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ <sup>(١٠٦)</sup> ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ <sup>(١٠٧)</sup> ، وَفَدَيْنَهُ بِذَنبِهِ  
عَظِيمٍ <sup>(١٠٨)</sup> ، وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ <sup>(١٠٩)</sup> ، سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ <sup>(١١٠)</sup> ،  
كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ <sup>(١١١)</sup> ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ <sup>(١١٢)</sup> الصافات

[١] الإيفاء : كل معروف من وجهه الذي يحق أن يكون عليه ، ومنه ( أنى يؤفكون ) أى يصرفون  
عن الحق في الاعتقاد إلى الباطل ، ومن الصدق في اللقال إلى الكذب ، ومن الجبل في الفعل إلى التبعيض ، وقد  
يستعمل الإيفاء في الكذب ( إن الذين جاءوا بالإفك ) ( ويل لكل أفك سقيم ) وإفكا في الآية مفعول  
تريدون ، وآله بدل منه ، ويكون قد صام إفكا على المبالغة ، ويصح أن يكون إفكا مفعول من أجله : أى  
أتريدون آله من أجل الإيفاء الذى كان منكم وصرف الأمور عن وجهها الذى يحق أن تكون عليه .  
[٢] مريض النفس من إغرائهم عن الله . [٣] مال نحووم : لأسر يريد منهم بالاحتيال ، من الروغ  
وهو الليل . [٤] يسرعون ، « نه » أسقطه على التل ، « صدقت الرؤيا » نسبتها إلى الصدق  
لوقفتها وحصل المقصود منها ، « البلاء للمين » : الاختبار الظاهر ، « بذبح » : مذبح .

## شرح وعبرة

(١) يرى الله تعالى في هذه القصة أن إبراهيم عليه السلام من شيعة نبي الله نوح، وشيعة الرجل الذين يتقوى بهم، من شاع الخبر: كثر وقوى، والمراد أن نبي الله إبراهيم على دين نوح وسنته، ومنه تعلم أن الأنبياء عليهم السلام يشايخ بعضهم بعضاً في الحق والدعوة إلى الله تعالى، والتصلب في دينه ومصابرة المكذابين .

وقد بين الله تعالى ما شايحه فيه بقوله ( إذ جاء ربه بقلب سليم ) الخ، والمراد أنه سليم من أمراض القلوب كالنفاق والحسد، والخور والضعف أمام العدو القوي .

ثم بين تهكم إبراهيم بالأصنام، وقوله منكراً لصلهم ( أتفكوا آلهة دون الله تريدون ) والمراد أن تريدون آلهة من دون الله إفكاً، فسمى الآلهة إفكاً على المبالغة، فإن الإفك هو الكذب، ويصح أن يكون المراد أن تريدون آلهة من أجل الإفك الذي كان منكم، وصرفكم الأمور عن وجهها الذي يحق أن تكون عليه ثم سألهم ( فما ظنكم برب العالمين ) أى شئ هو حتى جعلتم الأصنام له أندادا، وما ظنكم فيها هو فاعل بكم من عقوبة على ذلك الشرك، ونسويتم القوى بالضعيف، والمخلوق بالمخالق .

(٢) يرى الله تعالى أن نبي الله فطر نظرة في النجوم، وعبادة القوم لها مع أنها تنادى بلسان حالها بأن لها رباً دبرها، وخالقاً سيرها، وما قصته في سورة الأنعام بعيدة، وفيها أنه حيناً رأى كوكباً من الكواكب قال لقومه هذا ربي على زعمكم، فلما أفل قال لقومه لا أحب الآفلين، فأياسهم من عبادته ذلك الكوكب، بعد ذلك رأى القمر بازغا، فقال لقومه هذا ربي، فلما غاب قال إن هذا الكوكب لا يهديني لأنه غيب ويحضر، فلا يصلح إلهاً، فلما رأى الشمس بازغة قال لقومه هذا ربي، هذا أكبر الكواكب، فلما أتت قال يا قوم إني بربى عما تشركون .

تلك نظرة نبي الله إبراهيم في الكواكب، واقتناعه أنها لا تصلح أن تكون آلهة تعبد، ومع ذلك كله بصّر قومه على عبادتها، فلك هي نظرتهم في النجوم، وذلك هو سقمه من عبادة الناس لها وكفرهم بخالقها، والمهيمن عليها، فهو سقيم من كفر القوم وعنادهم .

وجدير بمن يجد من كفر الناس وعنادهم ما وجد نبي الله إبراهيم أن يسقم قلبه، ويتألم ضميره ووجدانه، بعد أن عرفهم ذلك انصرفوا عنه مدبرين عن دعوته، مولين عن طريقه .

(٣) بعد ذلك ( راغ إلى آلهتهم ) من راغ التعلب يروغ وروغاناً : إذا مال إليه على سبيل الاحتيال لأمر يريده، وبعد أن وصل إليهم أخذ يتهكم بهم، ويقول ( ألا تأكلون ما لكم لا نطقون ) ثم أقبل إليهم يضربهم بقوة، وذلك مظهر من مظاهر غيظ إبراهيم منهم، وحده عليهم، وهو الذي يقول في دعائه ( رب إنهن أضللن كثيراً من الناس ) .

وجدير بالمعقل أن يبغض من هذا حاله، فأخذ قومه يسرعون إليه، لانتزاعهم من تحقير معبوديهم، والتهكم بالتهكم، فأخذ يناقشهم ( أقعبدون ما تضحون والله خلقكم وما تعلمون ) يستنكر عليهم أن يصنعوا آلهة بأيديهم، ثم هم مع ذلك يعبدونها، وينكر عليهم أن يعبدوا آلهة هي وهم من خلق الله تعالى، وكانت الأصنام من خلق الله ومن عملهم كالإب والكرسى، هما من



عمل التجار باعتبار الشكل والصورة ، ومن خلق الله تعالى باعتبار القات والجوهر ، وكالسوار والخلخال من عمل الصانع من جهة شكلها ، ومن خلق الله باعتبار جوهرها .

وقد أطال المتكلمون في الكلام على هذه الآية من جهة دلالتها على أن العمل مخلوق لله تعالى ، والآية ليست في باب العمل الذي هو مصدر ، وإنما هي في العمل الذي هو معمول ، أى مكان العمل ، لأن قوله (وامنعولون) ترجمة عن قوله (مانعحون) وما في قوله (مانعحون) اسم موصول ، وليست مصدرية ، فكذلك في قوله (وامنعولون) وإلا لاختلفت الترجمة والمترجم عنه ، ولما كان لاحتجاج إبراهيم على قومه معنى ، إذا كان المراد والله خلقكم وخلق عملكم ، وإنما تنتظم الحجة ، ويستقيم الاستدلال إذا كان المراد أنعبدون مانعحتونه بأيديكم ، والله خلقكم وخلق معاملكم وهم أولئك الأصنام التي من صنع يديكم .

(٤) بعد أن أخذ عليهم نبي الله إبراهيم كل باب من أبواب الحجة ، لجأوا إلى الحديد والنار ، فقالوا لبعضهم (ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم) وهي النار الشديدة الوقود ، وقيل كل نار على نار وحجر فوق حجر فهو جحيم ، وقد أخبرنا الله تعالى أنهم أرادوا بإبراهيم كيدا فرد الله عليهم كيدهم ، ومكروا فكان مكر الله فوق مكرهم ، ودبروا فكان تدبيره خيرا من تدبيرهم .

وقد أرانا الله تعالى في سورة الأنبياء أن الله تعالى قال للنار (كوني بردا وسلاما على إبراهيم) عقب قولهم (سرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين) . بعد أن نجاه الله من قومه قال (إني ذاهب إلى ربى سيهدين) أراد بذلك مهاجرته إلى حيث أمره الله بالمهاجرة إليه من أرض الشام كما قال (إني مهاجرا إلى ربى) ثم طلب من الله أن يهبه من الأولاد الصالحين ، فبشره الله تعالى بسلام حلیم .

(٥) من عادة القرآن أن يحذف من القصة مالا تدعو إليه العبرة . ولا يتوقف عليه الفهم اعتمادا على فطنة السامع ، فبرينا الله تعالى أنه بعد أن بشره بسلام ذلك الغلام ، ثم نشأ وترعرع حتى وصل إلى سن يستطيع معه أن يسعى قال له (يابنى) إني أرى في المنام أتى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟) وهي استشارة تحمل في حناياها لواعج الألم ، ومثيرات الحزن والأسى ، استهلها نبي الله بقوله (يابنى) وكأنه يقول: يابنى ، وبأقله كبدى ، الذى وهبك الله لى بعد دعائى إياه أن يهب لى ذرية صالحة ، تعاضنى في الدعوة ، وتناصرنى في إقامة دين الله ، إني أرى في المنام أتى أذبحك فما الذى أنت فاعل في ذلك البلاء ؟ وبأى عزيمة تلقى تلك المحنة ؟ وإنها لمحنة ما أشدها على نفوس الوالد والولد . فماذا كان جوابه عن ذلك السؤال الرهيب وتلك الاستشارة الموجهة ؟ ولو أن ملكا من ملوك الدنيا بعث إلى رجل من رعيته رسوله له ، يبلغه أن ذلك الملك المطاع ، أمر أن تصادر أملاكه ، ويعيش صفر اليدين ، أو أمر أن ينفي من بلده ، ويحال بينه وبين مواطنيه — لو أن رجلا من الناس بلغه ذلك على لسان رسول لا يكذب لكان من شأن ذلك الخبر أن ينخلع له قلب ذلك الرجل عند سماع القصة ، فكيف يصبى يبلغه عن ربه ، بواسطة أبيه ، وأبوه رسول لا يكذب ، مطيع لا يعصى ، أن يحرمه من هذه الحياة ، ويحول بينه وبين أن يعيش ؟ كيف يصبى يبلغه أبوه رؤياه المنامية أنه يذبحه ! ! ماذا تكون نفسه التي بين جنبيه

في ذلك الحين ؟ وماذا يكون قلبه ؟ وماذا نكون إجابته ؟ [وقد استشير] ولو أن الأمر كان من طريق القصر لكان أهون على النفس ، وأخف في الاحتمال ، كان جواب ذلك الصبي أن يقول قالة الراضى المظلم ( يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ) وكأنه يقول لأبيه اننى أقدر قيمة أملك لتلك التضحية ، وجهاد نفسك في ذلك العمل الشاق ، لأنى قطعة منك ، ولكن حق الله عليك فوق حق الأبناء والأحفاد ، وإجابتك لداعيه أم من إجابتك لدواعى الفطرة ، فأجب داعى الله ، وتناض عن داعى الشفقة والحنان ، واصدع بأمر الله ، ارغما للشیطان ، فاذا كنت قد ناديتى بقولك ( يا بنى ) فاقى ناديك بقولى لك ( يا أبت ) وأقول لك قول الراضى بقضاء الله وحكمه ( افعل ما تؤمر ) وسوف لاترانى ممتضا بذلك البلاد (ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ) فلم يكن من نبي الله ابراهيم وولده سوى استسلامهما لأمر الله ، فأخذ ابراهيم ينفذ أمره ، وأخذ ولده يصبر لقضاء الله وحكمه ، فحينما أسقطه على التل ، ناداه الله أن يا ابراهيم قد حقت الرؤيا فاجتبط وأبشر بالفرج بعد الشدة ، واليسر بعد العسر ، ولا تعجب من ذلك ، فان هذه سنتانى جزاء الحسن .

ثم أرانا الله تعالى أن ذلك البلاد الذى ابتلى به ابراهيم وولده هو الاختبار البين الذى يميز به المخلصون ، أو هو المحنة البينة الصعوبة التى لائحة أصعب منها ، وأى محنة أشد من محنة الرجل بابنه وفلذة كبده . ثم فداء الله بمذبح سمين .

ثم أرانا الله تعالى أنه ترك على ابراهيم فى الآخرين من الأم هذه الكلمة ( سلام على ابراهيم ) وأنه تعالى يحزى المحسنين بتخليد ذكركم وإبقاء أثرهم .

فانظر كيف وصل نبي الله ابراهيم من طاعته لربه إلى ذلك الحد ، وكيف وصل ولده من رضا بقضاء الله وحكمه إلى ذلك المكان من الرضا ، ولعلنا إذا قسنا التكاليف بتلك الفتنة فانها تصغر أمامها وتذبل ، ولعلنا نأسمى بذلك النبي الذى هو قدوة صالحة فى الصديق بأمر الله ، وبولده فى الرضا بقضاء الله .

هذه قصة نبي الله ابراهيم وولده الذى يبيع . وهى لاتتجاوز آيات تعد على أصبع اليد الواحدة ومع ذلك نرى بعض الخطباء فى يوم العيد الأكبر يذكرون هذه القصة ويضيفون إليها من الاسرائيليات ما يبعث النفوس ، رجاء أن يؤثروا على العامة بذلك الحشو . وقد سمعت خطيبا يتلو فى هذه القصة وما أضافه إليها من حشو زهاء نصف ساعة ، ولا أدري من أين للخطباء ذلك اللغو الذى يضعونه فى هذه القصة ، وهل التاريخ يحفظ للناس ما كان من نبي الله ابراهيم مع ولده حتى يستطيعوا أن يقولوا عليه ؟ اللهم انا لانعلم من قصة ابراهيم مع ولده وقومه إلا ما علمناه منك ، ولا نعلم من قصة يوسف وإخوته إلا ما علمنا على لسان نبيك وكذلك بقية الرسل ، فعلنا كيف نأخذ القريب عنك ، وكيف تتأدب معك ، وقضيت فى القصص حيث أفاض كتابك ، ونسكت حيث سكت ( تلك من أبناء القريب نوحيا إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين » ٤٩ (١) ) .

## إبراهيم عليه السلام

فَذَكَرْنَا لَكُمْ أُسْوَةً حَسَنَةً فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ «٤» رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً<sup>(١)</sup> لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَافْغُرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ «٥» لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ «٦» للمتحنة

## شرح وعبرة

(١) الذي يقرأ سورة المتحنة وسابقي الآيات ولاحقها يستطيع أن يفهم المراد من الآيات ، إنها الله في أول السورة أن تتخذ عدوه وعدوياً في دينه أولياء ، نناصرهم ونعينهم على المؤمنين ، ونلقى إليهم بالمودة ، وقد كان منهم أن كفروا بما جاءنا من الحق ، وأخرجوا رسولنا وأخرجونا من مكة لالذنب سوى إيماننا بالله ربنا وخالقنا .

وقد شرح حتى أولئك الأعداء على المؤمنين في قوله ( إِنْ يَتَّقُواكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيهِمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ لِيَنَالُوا بِهِمْ ) ليرينا أن ذلك النفر من الكفار ان عثروا عليكم كانوا أعداء لكم ، وبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء لينالوا به منكم .

وقوم حالهم معكم حرب مستمر لا ينبغي أن تتخذوا منهم أولياء ، ولا أن يكون بينكم وبينهم مودة ، هذا ما يعطيه سابقي الآيات ، وأما لاحقها فيرينا الله فيه أنه لا ينهانا عن الذين لم يقاتلونا في الدين ، ولم يخرجونا من الديار أن نبرهم ونقسط إليهم ، إنما ينهانا عن الذين قاتلونا في الدين ، وأخرجونا من ديارنا ، وظاهرنا على إخراجنا أن تتولاهم ولاية نصرة ومودة .

من ذلك كله نستطيع أن نفهم التأسي بنبي الله إبراهيم عليه السلام والذين معه ، في تبرئهم من عبادة غير الله ، وكفرهم بعبوديتهم ، وإعلانهم العداء والبغضاء لهم إلى أن يؤمنوا بالله وحده ، لأن سبب حتى أولئك على المؤمنين هم شركهم ، ومتى زال ذلك الشرك زال الحق ، وحلت المودة محل الخصومة ، لذلك غيى نبي الله إبراهيم عداوته لأولئك بهذه الغاية ، وليس المراد

[١] ابتلاء واختباراً ، والمراد لا تجعلنا قوة سيئة لهم تحملهم على الكفر ونحببهم فيه ، بل اجعلنا قدرة سالمة في الإيمان كما تنيده الآية السابعة واللاحقة .

أنا فعادى كل من يخالفنا في الدين ، وإن لم يقاتلنا فيه ، ولم يخرجنا من الديار ، ولم يظاهر الناس على إخراجنا ، ولو كان ذلك هو المراد لناقض القرآن بعضه بعضا ، ولكان ذلك العمل مخالفا للحكمة والمنطق ، ومخالفا لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم العملية وسيرة خلفائه الراشدين ، فقد وادع النبي صلى الله عليه وسلم اليهود حين قدم المدينة وأقرهم على دينهم وأموالهم ، فالتأسي بنبي الله إبراهيم في كراهة للمشركين وإعلان عداوتهم وبنضائهم لم يكن لحجر شركهم ، بل لشفاعهم عن الشرك ، وإيذاء أنصار التوحيد ، وفتنتهم الناس في عقائدهم ، حتى لا يكونوا آمنين على دينهم أما الشرك الذي لا يحارب توحيدا ، ولا يصعد أصحابه الناس عن الإيمان ، ولا يعرضون لهم بشيء من الأذى ، فلا معنى لعداوة أصحابه ومحاربتهم .

أما قوله ( إنا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ) فهو استثناء من الأمر بالتأسي بإبراهيم ، والمراد أن إبراهيم لا ينبغي التأسي به في وعده أباه أن يستغفر الله له ، لأن القرآن يرينا أنه لا ينبغي لنبي ولا مؤمن أن يستغفر لشرك ولو كان قريبا له من بعد ما ظهر له أنه من أهل النار ، وأن نبي الله إبراهيم لم يستغفر لأبيه آزر إلا لأنه وعده الاستغفار ، فلما ظهر له أنه عدو لله ، مصرّ على الشرك ، محارب للتوحيد ، تبرأ منه : لذلك لم يكن إبراهيم أسوة صالحة في ذلك ، لأن الله نهانا عنه .

(٢) أما قول إبراهيم ( ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ) فهي دعوة ما أعظم شأنها وأجل قيمتها ، وأصل المادة من الفتن ، وهو ادخال الغيب النار لتظهر جودته من ودايته ، فالفتن هي الاختبار والحكم الذي به يظهر حال الانسان ، ومن أجل ذلك كانت الشدائد فتنة ، وكان المال فتنة ، وكانت الأولاد فتنة ، وكانت المناصب فتنة ، وكان لاغى للمؤمن عن أن يختبر في دنياه بأنواع من الاختبار ( أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون «٢» ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين «٣» ) وتطلق الفتنة على تضليل الرجل وزلزاله بواسطة الشدائد التي تقع عليه ( إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق «١٠» ) ( وقناوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله «١٣» ) ( واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك «٤٩» ) أي يوقعوك في بلية وشدة في صرفهم إياك عما أوحى إليك .

فنبه الله إبراهيم يطلب من ربه أن لا يكون فتنة واختبارا للذين كفروا يحبهم في الكفر ، ويصرفهم عن الإيمان ، أو يطلب من الله تعالى أن لا يكون قاتلهم ، ومضلا عما يجب أن يكونوا عليه ، من الحق والهدى ، وإنما يكون ذلك إذا كان نبي الله إبراهيم قدوة سيئة ، ومثلا غير صالح ، لأن القدوة السيئة من رجل ينتسب إلى الدين تؤثر على ضعاف العقيدة ، ضعاف النفوس ، ولعلك تفهم من ذلك قول الكفار وهم يستمدون عن سيئاتهم ( ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا «٦٧» ) فكان رؤسائهم فائتين لهم عن الحق صارفين لهم عن الدين . وفي ذلك المعنى يقول حكيم الاسلام المرحوم جلال الدين الأصفهاني « ليس بيننا وبين اقناع الغربيين بالدين

سوى اقناعهم بأننا لنسألمسلمين» لأن الغربيين يظنون الدين من عملنا أكثر من فهمه من أقوالنا ، وكثيرا ما قالوا إذا كان دين المسلمين مصدر سعادتهم فلماذا نراهم أشقياء ؟ وإذا كان دينهم طريق عزتهم فلماذا نجدهم أذلاء ؟ وسبب تلك الفتنة أننا صرنا حجة على الدين ، ودعاية عليه لاله ، فبريد ذلك المصلح أن يقول إذا اقتنع الغربيون بأن الاسلام شئ والمسلمون شئ آخر ، هنالك يسلمون ، وهنالك تزول الحجب التي بينهم وبين الاسلام .

ومن المفسرين من فسر الفتنة بالعذاب : أى لانجعلنا معذبين بأيديهم حتى يعتقدوا أن ذلك العذاب لأننا مبطلون وهم محقون ، والآية تشمل ذلك كله ، والمراد لانجعل حالنا فاننا لهم وسببا في ضلالتهم ، سواء أكانت الفتنة بسبب أننا قدوة سيئة أو بسبب أننا ضعفاء ومعذبون ، فيقع في وهمهم أن ذلك الضعف أمانة أننا على باطل ، وهم على حق .

## دعوة لوط

إلى الله تعالى

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ «٨٠» إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُشْرِقُونَ «٨١» وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ <sup>(١)</sup> «٨٢» فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ <sup>(٢)</sup> «٨٣» وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا <sup>(٣)</sup> فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ «٨٤» الأعراف

### شرح وعبرة

(١) يرينا الله تعالى في هذه الآيات أنه أرسل نبيه لوطا ( إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ) وأطلق عليها فاحشة لأن النفوس السليمة تستفحشها وتعدّها قبيحة ، وقوله ( ما سبقكم بها من أحد من العالمين ) يرهم أنهم أول من عمل هذه الفاحشة ، فهم قدوة سيئة عليهم ووزر العالمين بها الى يوم القيامة ، وقوله ( شهوة من دون النساء )

[١] يتطهرون . [٢] الذين غيروا في ديارهم أى بقوا فلهكوا .

[٣] أنزل الله عليهم نوحاً من المطر عجيباً هو الحجارة .

بريهم أنه لا حامل لهم على هذه الفاحشة إلا مجرد الشهوة ، والمراد أنهم خرجوا بعملهم هذا عن مقتضى الفطرة ، وصاروا أحسن من العجماوات التي تطلب أناتها بسائق الشهوة لأجل النسل الذي يحفظ به نوع كل منها .

ألا ترى إلى الطير والحشرات تبدأ حياتها الزوجية ببناء المساكن الصالحة لنسلها في راحته وحفظه مما يهدو عليه : من عش في الأشجار ، أو جحر في باطن الأرض . أما هؤلاء المجرمون فلا غرض لهم إلا إرضاء حس الشهوة ، وقضاء وطر اللذة . ومن قصد الشهوات لذاتها ، والتمتع بلذاتها دون الفائدة التي خلقها الله لأجلها ، جنى على نفسه غائلة الاسراف فيها ، فانقلب نفعا ضرا ، وصار خيرا شرا ، يجعل الوسيلة مقصدا ، وضرورة الاسراف فيه خلقا ، إذ الفعل يكون عن داعية ثابتة ، لاعتناله عارضة ، فلا يزال صاحبه يعاوده حتى يصير ملكة راسخة له ، فتكرار العمل يكون الملكة ، والملكة تدعو إلى تكرار العمل والاصرار عليه .

(٢) ثم عقب ذلك بقوله (بل أنتم قوم مسرفون) ليرينا أنهم قوم أسرفوا في إتيان هذه الفاحشة وتجاوزوا الحدود ، وقال في سورة الشعراء (بل أنتم قوم عادون) أي تجاوزتم بذلك العمل الفاحش حدود الفطرة ، وحدود الشريعة ، وفي سورة النمل (بل أنتم قوم تجهلون) وهو يشمل الجهل الذي يضاد العلم ، والجهل الذي هو بمعنى السفه والطيش .

ومجموع الآيات يرينا أنهم كانوا مرزوقين بفساد العقل والنفس ، فلامهم يعقلون ضرر هذه الفاحشة في الجنابة على النسل ، وعلى الصحة والتضيلة ، والآداب العامة ، ولام على شيء من الحياء وحسن الخلق يصرفهم عن ذلك .

وكانت هذه الفعلة فاحشة لأنها جنابة على الفطرة البشرية ، ومفسدة للشبان بالاسراف في الشهوة ، وإذلال للرجال ، وكسر لما فهم من إباء وشمم ، وتعطيل للنسل ، ومفسدة للنساء اللواتي تصرف أزواجهن عنهن ، حتى يقصروا فيما يجب عليهم من إحصان ، وكم من امرأة اضطرت لها زوجها إلى الزنا لانصرافه عنها بتلك الفاحشة ، مع وفور جاهلها وكملها .

ومن آثار تلك الفاحشة أنها ذريعة للاستنهاء ، وإتيان البهائم ، وهما معصيتان قبيحتان شديدا الضرر في الأبدان والآداب ، لأن تلك الفاحشة تمرن الإنسان على قصد الشهوة لذاتها ، بقطع النظر عن المكان المعتبر لها ، وهو يفضي إلى وضعها في غير موضعها ، وإنما موضعها الزوجية الشرعية المتخذة للنسل ، وفي الحياة الزوجية الشرعية إحصان كل من الزوجين الآخر ، بقصر لذة الاستمتاع عليه ، وجعله وسيلة للحياة الوالدية التي تنمي بها الأمة ، ويحفظ النوع البشري من الزوال .

(٣) ومن العجيب أن يكون جواب قومه له (أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم) وتعليقهم الاخراج بأنهم أناس يتطهرون ، ويتزكّون عن مشاركتهم في الرجس .

من العجيب أن تكون الطهارة ذنبا يعاقب صاحبه عليه ، وينى من بلده من أجلها ، وأن تزكس النفوس في المحرمات ، وتفتكس بالجرائم حتى تستصبح الحسن ، وتستحسن القبيح ،

وتفسد منها الفطرة الى ذلك الحد المزرى ، وهى سخرية بنى الله لوط ومن معه ، وتهكم بطهارتهم من الفواحش ، واختار بما كانوا عليه من التقذرة ، كما يقول الفسقة لبعض الصالحين إذا وعظهم أبعدوا عنا هذا المتكسف ، وأريحونا من هذا المزهده .

وللتقص والزائل دركات ، كما أن للكمال والفضائل درجات ، فأولاهما أن يلزم بالزيادة وهو يشعر بضعفها ، ويلوم نفسه عليها ، ويلبها أن يعود إليها المرة بعد المرة مستخفيا ، ويلبها أن يصبر عليها حتى يزول شعوره بضعفها ، ويلبها أن يجهر بها ويكون قدوة سيئة ، وأحط دركاتها أن يفاخر بها أهلها ، ويحتقر من يتزهون عنها ، وهذه دركة قوم لوط ، ولا يهبط إليها من يؤمن بالله واليوم الآخر ، وقد وصف الله المؤمنين بأنهم إذا عملوا السيئات يعملونها بحمالة ثم يتوبون من قريب ، وأنهم لا يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون .

(٤) كانت عاقبة نبي الله لوط ومن معه من المؤمنين أن نجاه الله من عذابه ، وأمطر على قومه مطرا عجيبا ، وهو الحجارة التى رجوا بها ، ثم أمر الله أن ينظر عاقبة أولئك المجرمين ليرينا أن هذه سنة فيمن عصاه وفسق عن أمره ، وهى سنن لا تقبل ، ولولا أن رسولنا محمدا صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة حلل بنا من أنواع العذاب ما حل بأولئك الأقوام .

وتأمل كيف استثنى الله تعالى امرأة لوط عن نجاتهم ، وأنها كانت فى جماعة المالكين ، ليرينا أن ما عنده من رضا ورحمة لا ينال بنسب أو قرابة للرسل ، وإنما ينال بالطاعة ، ولو كان النسب منجيا لصاحبه لنجا من الملاك امرأة لوط .

وقد ضرب الله المثل فى سورة التحريم ( للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخثتاهما فلم ينفيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين » ١٠ ) كما ضرب لنا مثلا قصة نوح وابنه الذى أغرقه الله وهو يقول ( رب إن ابني من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين » ٥٥ ) قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين » ٤٦ ) قال رب إني أعوذ بك أن أسالك ما ليس لى به علم وإن لا تغفرلى وترجئى أكن من الخاسرين » ٤٧ ) ( ١ ) .

### لوط عليه السلام

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَالَتْ أَنْ جَاءَ بِعَجَلٍ حَنِيدٍ (٢) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأَوَّجَسَ (٣) مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطِ (٧٠) وَأَمْرُهُ فَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَوِْلَيْتَنِي

[١] هود . [٢] مثنوى على حجارة حمراء ، وقيل : يقطر دمه لسنه ، ويدل عليه قوله فى سورة أخرى : ( بعجل محين ) . [٣] أضمر .

«إِلَهُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَشَرٌ شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ غَيْبٌ» (٧٢) «قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ» (٧٣) «فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ» (١) «وَجَاءَتْهُ الْبَشَرُ يُحَدِّثُونَ فِي قَوْمِ لُوطٍ» (٧٤) «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ» (٢) «مُنِيبٌ» (٣) «يُلَازِمُهُمْ» (٤) «أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَاتِهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ» (٧٥) «وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقَهُمْ وَصَاقَ» (٥) «بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ» (٦) «وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ» (٧) «إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْتَمِلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَبْقَومُ هَؤُلَاءِ بِنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ فِي ضَرْبِ الْبَشَرِ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ» (٧٨) «قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ» (٧٩) «قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ إِيَّايَ إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ» (٨٠) «قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُؤْسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلَوْا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ» (٨١) «فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ» (٨٢) «مَنْضُودٍ» (٨٣) «مُسَوَّمَةٍ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ» (٨٤) مود

### شرح وعبرة

(١) عرضنا في هذه السورة لطائفة من قصص نبي الله إبراهيم لأصلها بقصة لوط، و (البشرى) هنا فيما يظهر هي البشرى بالولد (قالوا سلاما) نسلم عليك سلاما، والمراد طمأنته حتى لا يخاف،

[١] الخوف . [٢] كثير الذؤء والتوجع « منيب » راجع إلى الله تعالى .

[٣] قال الأزهرى : القروح موضع الطاقة ، والأسل في البحر ينزعه يديه في سيره ذرعا على قدر سعة خطوته ، فإذا حل عليه أكثر من طاقته ضاق ذرعه عن ذلك فضرب ، ومدّ يده ، فجعل يثقب القروح عبارة عن قدر الوسع والطاقة ، فيقال : مال به ذرع ولا ذراع : أى مال به طاقة . « عَصِيب » : شديد من عصبه : شدة . [٤] يصرعون . [٥] أَسْتَد . [٦] قطة ، والمراد هاجر بهم ليلا .

[٧] شئ مركب من الحجارة والطين ، ولى منتهى الملاحة . « مَنْضُود » : يرسل يفضه في أثر بعض متابعاً . « مُسَوَّمَةٍ » : معدة المذاب .



و بعد أن قدم إليهم مجلًا مشويًا ليأكلوه ، فلم يقدروا إليه أيديهم توجس الشر منهم ، لأن الشأن فيمن يريد السلام أن يأكل ، فطمأنوه . وأفهموه أنهم ملائكة الله ، أرسلهم إلى قوم لوط ولم يرسلوا له ، وكانت امرأته قائمة فسمعت ذلك فضحكت سرورًا بزوال الخيفة ، أو سرورًا بهلاك أهل الخبث ، فبشرها الله بواسطة الملائكة بالحق ثم يعقوب ، فنعجت من البشارة ، وقالت ( يا ويلتنا أأله وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب ) وكان عجبا لكبر سنها وسن زوجها إبراهيم ، فقالوا لها: أنعجين من أمر الله ، وأنت في بيت النبوة ، التي هي مهبط المعجزات ، وخوارق العادات ؟ ولذلك عقبوا ذلك بقولهم ( رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت ) أرادوا أن هذه وأمثالها مما يتكرمكم به ربة العزة ، ويخصكم بالإنعام به يا أهل بيت النبوة ، وكان عليك أن تسبحي الله تعالى وتمجديه مكان التعجب ، و ( جيد ) فاعل ما يستوجب الحمد من عبادة ، و ( مجيد ) كريم كثير الإحسان إليهم .

(٧) يرينا الله تعالى أنه لما ذهب الروح عن نبي الله إبراهيم وجاءته البشرية بالولد ، اجترأ على خطاب الله تعالى ، وأخذ يجادل في شأن عذاب قوم لوط ، ثم علل ذلك بقوله ( إن إبراهيم لحليم أواه منيب ) وهي صفات تدل على رقة القلب ، والرأفة والرحمة ، وذلك هو ما حمله على المجادلة فيهم رجاء أن يرفع العذاب عنهم ، ويهملوا عليهم يحدثون توبة وإنابة ، كما حمله هذه الصفات على استغفاره لأبيه ، فقال الله له ( يا إبراهيم أعرض عن هذا ) فلا فائدة فيه (إيه قد جاء أمر ربك) بالعذاب ، وهو قضاء وحكم لا يصدر إلا عن صواب وحكمة ، والعذاب نازل بالقوم لامرئ له بجدال ولا دعاء .

(٨) لما وصلت رسل الله تعالى إلى نبيه لوط حسب أنهم انس ، غفغ عليهم خبث قومه ، وأن يعجز عن مقاومتهم فساء رؤيتهم ، وضائق بهم طاقته . وقال هذا يوم عصيب ، وجاءه قومه مسرعين إليه ، ومن قبل ذلك كانوا يعملون الفواحش ويكثرونها فصرخوا بها ، وصرخوا عليها ، فلذلك جاءوا محمحين لا يكفهم حياء ، ولا يردعهم خلق ، فأراد أن يبق أضيافه بيناته ، فقال ( يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم ) فزوجهن . ومن سفه القول أن يفهم أحد كائنا من كان ( هؤلاء بناتي ) لتسعدوا فاحشة اللواط بفاحشة الزنا ، وما قيمة المجهود الذي يعمل به نبي الله لوط إذا ، وهل يليق بنبي أن يدعو الناس إلى فاحشة ، وهل مهمته تنفق وذلك ؟

ثم عقب ذلك بقوله ( فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد ) ومن ذلك الأسلوب تفهم مقدار الضيق الذي كان عند نبي الله لوط من ذلك الحادث ، يطالب منهم أن يتقوا الله ولا يفضحوه في حق ضيوفه ، فإن ضيف الرجل إذا خزي كان خزيه يلحق مضيفه ، ثم يقول أليس منكم رجل واحد يهتدى إلى الحق ، وفعل الجليل ، والكف عن السوء ، وهي كلمة اليائس من أن يوجد فيهم رجل واحد ينصره في الدعوة . ويأخذ بيده في إقائده من خزي ضيفه ، فقابله بقولهم ( لقد علمت ما لنا في بناتك من حق ) لأن إتيان الله كان صار مذهباً لهم وديننا ، فكان هو الحق عندهم ، ونكاح الاناث هو الباطل ، ويجوز أن يكون قولهم هذا على وجه الخلاعة ، والغرض أنهم لا يشتهون الاناث ، لأن نفوسهم انصرفت عنهم ( وإنك لتعلم ما نريد ) من إصرارنا إلى ضيفك .

(٤) عند ذلك قال نبي الله (لو أن لي بكم قوة أو آوى ركن شديد) أى لفعلت بكم وصنعت وهى أمانة من نبي الله أن يقوى عليهم بنفسه ، أو يأوى الى ركن قوى يستند إليه ، فيحميه منهم ويعمى ضيفه ، ومنهم من جعل أو بمعنى بل الاضربية يثقل بها من ذلك التمنى الى ركونه الى ربه ، واعتصامه به .

وقد روى البخارى « يغفر الله للوط ان كان ليأوى الى ركن شديد ، وهو ربه وخالقه » والغرض من الحديث دفع شبهة تتعلق بنبي الله لوط ، وهى أنه يتخى أن يستند إلى ركن شديد ، وأى ركن شديد أقوى من ربه وخالقه ؟ والحديث يرينا أن لوطا كان يأوى الى ركن شديد هو ربه وخالقه ، والركن الشديد الذى تمناه صرحج من الخليفة كعصية ، أو حزب قوى ، فهو يتخى أن يكون قويا بنفسه ، أو قويا بغيره ليفعل مع أولئك المجرمين ما يستحقون .

(٥) فى خلال هذه السدة ، وفى ظلام هذه الفتن ، ناداه الرسل (يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك) فلنسا بشراكا فمت ، بل نحن رسل عذاب ، وقد جئنا لتنفيذ أمر الله تعالى بالهلاك فدعنا وهم ، فهاجر قومك فى جنح الليل ، ولا يلتفت منكم أحد إلى ما فى البلد من مال وأصدقاء (إلا امرأتك) فدعها ولا تسافر بها ، انه سيحل بها من العذاب ما يحل بالقوم . وموعدهم فى الهلاك الصبح (أليس الصبح قريب) فلما جاء أمر الله بالعذاب جعل على القرية سافها ، وهو كناية عن نحوها وذهاب معالمها ، وأمطر عليها من الحجارة المتتابعة ما شاء أن يطر . ثم ختم القصة بقوله (وماهى من الظالمين ببعد) وهو وعيد لأهل مكة وصناديد قريش ، يقول لهم : ما هذه القرى التى دمرها الله لسوق أصحابها بعيدة عنكم ، أو ما هذه الحجارة التى سلطها على قوم لوط ببعدة عنكم ، ومن السهل أن يعاقبكم الله بها كما عاقب من سبقكم .

### لوط عليه السلام

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنْ الْمَعْلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَهَ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا

الْآخِرِينَ «١٧٣» وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ «١٧٣» إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ «١٧٤» وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ «١٧٥» الشعراء

### شرح وعبرة

(١) يطالب نبي الله لوط قومه بالطاعة في رفق ولين ، ويذكرهم بأنه رسول أمين لاغنى له عن تبليغ رسالة ربه ، ثم يكرر عليهم طلب التقوى والطاعة ، ثم يريهم أنه لا يطلب منهم أجرا على رسالته ، وإنما يطلبه من الله تعالى ، ثم ينتقل الى انكار فاحشتهم مستقبحا لها فيقول ( أنأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون ) يريهم أنهم يصنعهم ذلك عطاوا ما خلق للمتبع وهن الأزواج ، ولجأوا الى الذكران الذين خلقوا للعمل في هذه الحياة ، وأنهم بذلك العمل عكسوا الفطرة التي فطر الناس عليها ، وبذلك صاروا قوما عادين للحدود ، متجاوزين لها ، كما وصفهم في آية أخرى بأنهم قوم مسرفون ، وقوم يجهلون سنة الله ونظامه ، فهم بذلك العمل جنوا جنائيتين .

الأولى : إفسادهم للذكران ، والقضاء على شهادتهم ، وكسر ما فيهم من إباء وشمم .  
والثانية تعطيلهم النساء من التمتع بهن وقد خلقن لذلك ، ويتبع ذلك تعريضهن للزنا والقضاء على النسل ، وذلك مضاد لنظام الحياة ، وهدم لكيان المجتمع .

(٢) يقابله قومه في هذه الموعظة اللينة ، وذلك الأسلوب الهادئ بقولهم (لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين) يطالبون لوطا بالانتهاء عن تقييح أعمالهم ، فإذا لم ينته عن ذلك النهى أخرجوه من بلده ، وحالوا بينه وبين وطنه ، وأخرجوه فيمن أخرجوا .

ياسبحان الله ، رسول من الله ، يدعو الناس إلى الطهر ، ويحجهم في الزاخرة ، ويحول بينهم وبين فساد الفطر ، يكون جزاؤه من قومه أن يهددوه بالنفي ، ويتوعدوه بالغريب ، ولاذنب له في ذلك سوى طهارة غايته ، وسمو مبادئه ، ونبل مقصده ، ذلك هو ذنبه عند قومه ، وقد صرحوا بذلك في سورة الأعراف إذ يقولون (أخرجوا آل لوط من قريبتكم انهم أناس يتطهرون) وكان الوطن الذي نشأ فيه الرجل ، وأعقب فيه مالا وأولادا ، هو المكان المحبوب الذي يهدد به كل مصلح ، ويتوعد به أرباب المبادئ الصحيحة ، إلى أن ينزلوا عن مبادئهم ، ويستكثروا عن دعوتهم ، فهؤلاء قوم لوط يقولون لرسولهم (لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين) وهذا اللا من قوم شعيب يقول له (نخرجك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أولتعودن في ملتنا «٨٨»<sup>(١)</sup>) .

فليس بعجيب أن يلجأ المستعمرون في أنحاء الأرض إلى ذلك العمل الذي لجأ إليه أعداء الرسل في كل زمان ومكان (وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجكم من أرضنا أولتعودن في ملتنا)

ليس بعجيب أن يلجأ المستعمرون الى مالجأ إليه أعداء الرسل من نفي وتغريب ، ولكن الله تعالى تكفل لهم بالنصر ، ووعدهم ميراث الأرض ، كما توعد أعداء الرسل بالهلاك ( فأوحى اليهم ربهم لنهلك الظالمين «١٣» ) ولفسكنكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد «١٤» (١) فليمنع البطل فى باطله ، وليزدد الفاجر من فجوره ، ( فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض «١٧» (٢) ) .

(٣) لم يكن من نبي الله لوط بعد ذلك التهديد سوى أن قال لهم ( إني لعلمكم من القالبر ) فهو ينكر عليهم ضيعهم ، ويبغض عملهم ، ثم لجأ إلى الله تعالى فى أن ينجيه هو وأهله من عقوبة عملهم ، كأنه كان متوقفا أن يحل بهم من العذاب ما يستحقون ، فأجاب الله دعوته وأنجاه وأهله إلا عجوزا هلكت مع المالكين ، هى زوجته ، ثم دمر الله الآخرين ، وأمطر عليهم مطرا فساء مطرهم ، ثم ختم القصة بقوله ( إن فى ذلك لآية ) . نعم فيه عبرة لمن أراد العبرة ، وذكرى لمن أراد أن يذكر ، فيه عبرة للعصاة عليهم يكفون عن عصيانهم ، وللفسقة رجاء أن يخلعوا عن فسقهم ، وفيه ذكرى للمؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ( لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شئ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون «١١١» (٣) ) .

### لوط عليه السلام

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفُحْشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ «٢٨» أَتَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطِعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّنَابِ عَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ «٢٩» قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ «٣٠» وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنْ أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ «٣١» قَالَ إِنْ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهٗ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا نَآئِفًا كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِينَ «٣٢» وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقَهُ بِهِمْ وَصَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا تَأْتِيكَ كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِينَ «٣٣» إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا (٤) مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ «٣٤» وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ «٣٤» النكبات

### شرح وعبرة

(١) ينكر نبي الله لوط على قومه إتيان الرجال ، وقطع السبيل ، قيل كانوا يعترضون المرأة بالفاحشة ، وقيل يقطعون سبيل النساء بالأعراض عن الحرث ، وإتيان ما ليس بحرث ، فان النساء هي المعدة لتربية الولد في الرحم ، وقد خلقن لذلك ، وقيل يقطعون السبيل بالقتل وأخذ المال ، ولا مانع من إرادة ذلك كله ، كما أنكروا عليهم إتيان المنكر في مجلسهم على مرأى ومسمع منهم ، ولم يبين لنا ما ذلك المنكر . والظاهر أنه فاحشة اللواط كانوا يفعلونها جهارا ، والمجاهرة بالعصيان من مضاعفات الفاحشة ، فهو ينكر عليهم كل هذه الرذائل ، فيكون جواب قومه أن يقولوا له ( ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ) فيما تعدتنا من نزول العذاب ، فيرجع إلى ربه يستنصره على أولئك القوم الذين أفسدوا في الأرض بهذه الفواحش ، فكانوا قدوة سيئة ، ومثلا غير صالح .

(٢) يرينا الله تعالى أن رسله لما جاءت نبيه إبراهيم بالبرى قالوا له ( إنا مهلكوا أهل هذه القرية ) ثم علموا ذلك بقولهم ( إن أهلها كانوا ظالمين ) فقال لهم نبي الله إبراهيم ( إن فيها لوطا ) وهو يرى من الظلم ، قال ذلك إظهارا للشفقة عليه ، وما يجب للمؤمن من التحزن لأخيه ، والخوف من أن يمسه أذى ، فكان جوابهم ( نحن أعلم بمن فيها ) تخفيض على نفسك ، وهون عليك الخطب ، ثم وعدوه بالنجاة فقالوا ( لننجينه وأهله إلا امرأته ) وانظر الى قوله ( بما كانوا يفسقون ) تعلم أن سبب هلاك أولئك القوم هو فسوقهم عن أمر ربهم ، واتهاكم لحمة دينهم ، واقبياتهم على رسولهم ونبيهم ، ثم ختم القصة بقوله ( ولقد تركنا منها آية ينة لقوم يعقلون ) هي آثار منازلهم الخربة ، وقيل الخبر عما صنع الله بهم .

## دعوة يوسف

إلى الله تعالى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ «١» إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ «٢» نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ <sup>(١)</sup> بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا

[١] من القصة ، وهو تتيج الأمر ، فالقصص هو الأخبار للنتيجة .

الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفْلِينَ «٣» إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ  
إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَجْدِينَ «٤» قَالَ  
يَبْنَىٰ لَكَ تَنْصُصُ رُءُوكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ  
عَدُوٌّ مُبِينٌ «٥» وَكَذَلِكَ يَحْتَبِكُ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ «١» الْأَحَادِيثِ  
وَيُهِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ بِمَقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ  
وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ «٦» يوسف

### شرح وعبرة

(١) نحن نقصّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن (القصص : انبعاث  
الخبر بعضه بعضا ، وأصله في اللغة المتابعة . قال تعالى (وقالت لأخته قصيه «١١» (٣) ) أى انبى  
أثره . وقال تعالى (فارتدا على آثارها قصصا «٦٤» (٣) ) أى يقصصانها قصصا ويقصصانها  
انبعاثا ، وإنما سميت الحكاية قصصا لأن الذى يقصّ الحديث ينبعه شيئا فشيئا ليبلغه للسامع .  
والقصص فى هذه الآية يحتمل أن يكون مصدرا بمعنى الاختصاص ، من قصّ الحديث : طرده  
وساقه ، كما يقال أرسله يرسله إرسالاً ، ويجوز أن يكون من باب تسمية للمفعول بالمصدر . كقولك  
هذا قدرة الله : أى مقدوره ، وهذا الكتاب علم فلان : أى معلومه ، وهذا رجلاً : أى مرجوئاً ،  
فان حملناه على المصدر وهو الاختصاص كان الحسن عائدا الى اليان لا إلى القصة ، والمراد من هذا  
الحسن كون هذه الألفاظ فصيحاً بالغة فى الفصاحة إلى حدّ الإعجاز ، لأن هذه القصة مذكورة  
فى كتب التاريخ ، مع أن شيئا منها لا يشابه هذه السورة فى فصاحتها وحسن بيانها ، وخفتها على  
السمع وان تكررت .

وان حملنا القصص على المقصود كان معنى كونه أحسن القصص أنه حوى من الحكم والمجانب  
ووسائل تربية النفس ، وتهذيب الخلق ما ليس فى غيره من القصص .  
ولاجب فقد ساقه الله فى كتابه الكريم لأمثال هذه الغايات : كما قال (وكلا قصص عليك  
من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك «١٣٠» (٤) ) وقال (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب  
ما كان حديثا يفترى ولا يكن تصديقاً الذى بين يديه وتفصيل كل شئ . وهدى ورحمة لقوم  
يؤمنون «١١١» (٥) ) .

مادام القصص فى القرآن الكريم قد سبق لأمثال هذه الغايات ، ولم يسبق لمجرد إيناس  
النفس وإبادهها عن ملل الحياة ، وترويحها بنقلها من مطالعة أمور شاقة إلى أمور سهلة ، كما هو

[١] يان مانوّل إليه من المنى ، وهو تبيير الأحلام . [٢] سورة القصص . [٣] الكهف .

[٤] هود . [٥] يوسف .

الحال في الروايات القصصية التي يعمد إليها كثير من الناس مثل ذلك الغرض - وجب أن يكون القصص الذي حواه القرآن الكريم أحسن القصص .

وسترى من فوائد القصص في هذه السورة أنه لادافع لقضاء الله تعالى ، ولامانع من قدره ، وأنه تعالى لو قضى للإنسان بسعادة ومكرمة واجتمع العالم كله على أن يمنعه ما قدر له ما وجدوا لذلك سبيلا ، وكذلك سترى من هذه القصة أن مقبة الحسد الخذلان ، وعاقبة الصبر الفرج والنور ، إلى غير ذلك من العبر ( وإن كنت من قبله لمن الغافلين ) أى خالى القنهن من قصة يوسف وإخوته ، لأنك ما علمتها إلا بالوحى الالهى .

ولذلك ختم القصة بقوله ( ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون « ١٠٢ » )<sup>(١)</sup> يريد إخوة يوسف وهم يمكرون به ويتآمرون عليه ، ولكن الله علمك ما لم تكن تعلم من أخبار الرسل ( أو ) الغافلين عن الدين والشريعة قبل ذلك كما قال ( وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان « ٥٢ » )<sup>(٢)</sup> .

( إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين قال يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للانسان عدو مبين ) هذا بدء لقصة يوسف مع إخوته ، وهو قوله لأبيه يعقوب عليه السلام إنى رأيت أحد عشر كوكبا .

وقد أخذ منه بعض العلماء أن إخوة يوسف كانوا أحد عشر ، والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين : أى رأيت الشمس والقمر وهما أعظم الكواكب التي يستغنى بها أهل هذه الأرض خاضعين لى ، وقد فطن والله يعقوب لخطر هذه الرؤيا ، وأن إخوته إذا سمعت منه ذلك حسدته على ذلك الخير المقدر له ، فقال له : يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا ، ثم علل ذلك بأن الشيطان عدو مبين للانسان ، وهم عرضة لأن يسلط عليهم .

ومنه نعلم أن يعقوب عليه السلام لم يك مؤمنا بعصمة أولاده من حسد أخبهم ، وتدير المكابله ، بل كان مشفقا على يوسف أن تحسده إخوته ، وأن يدبروا له ما يورث بغيانه ، ويقضى عليه ، وذلك وحده كاف فى أن إخوة يوسف لم يكونوا أنبياء ولا رسلا ، لأن ذلك الحسد الذي ظهر على إخوة يوسف مرض قلبي من شأنه أن لا يفارق صاحبه مادام فى هذه الحياة ، ولو كان ذنب إخوة يوسف معه شيئا وراء الحسد لقلنا انه ذنب وقع قبل النبوة وفارقهم بعدها ، والأنبياء ليسوا معصومين فى ذلك الحين ، أما وهو مرض تنسّى يتعلق بالقلب ، ثم هو حقد على أخبهم يوسف لأنه سيكون له شأن من ناحية الرسالة والملك - فمن الصعب أن نوفق بين ذلك المرض وبين النبوة أو الرسالة بحال من الأحوال ، وكان ذلك وحده كافيا فى أن لا يفهم الناس أنهم أنبياء بل هم من عاتة القوم يجرى عليهم ما يجرى على بقية الناس ، فكيف إذا كانت النبوة أو الرسالة لا تنبى إلا بنص قاطع ! وأولئك الاخوة لم يرد فيهم نص من الكتاب ولا من السنة الصحيحة يدل على أنهم أنبياء أو رسل ، وإنما ورد النص القاطع بأنهم دبروا لىوسف ما دبروا ، وكادوا له ما كادوا . وكذبوا على أببهم ما شاء لهم الهوى ، فكيف يكون أولئك الاخوة أنبياء أو رسلا .

وقد دلّ تحذير يعقوب ليوسف عليهما السلام أن يقصّ رؤيته على إخوته أنهم كانوا مستعدين لفهم هذه الرؤيا ، وأنهم في نهاية أمرهم سيكونون تبعاً ليوسف خاضعين له ، وكذلك أبواه سيخضعون له ، وهى من الرؤى الواضحة التى يفهمها كثير من الناس ، ولأسمها إخوة يوسف الذين هم أحد عشر ، وتأويل الشمس والقمر ، وهما أعظم الكواكب بالأبوين واضح جلى من شأنه أن يفهمه إخوة يوسف .

(٢) (وكذلك يحثيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث) الخ بشارة من نبيّ الله يعقوب عليه السلام لولده يوسف [ بناء على وحى سماوى ] بأن الله تعالى كما ألهمه هذه الرؤيا العظيمة يحثيه للرسالة ويعلمه من تأويل الأحاديث الخ ، أو أن تلك البشارة مبنية على فراسة من نبيّ الله يعقوب وقرائن لحها في استعداد ولده يوسف . وكأنه يقول لولده : إني أرجو أن يحثيك الله ويصطفيك كما اجتبتك لهذه الرؤيا التى تدلّ على مستقبل مملوء بظلمات الأمور .

ف قوله (وكذلك يحثيك ربك) أى ومثل ذلك الاجتباء البديع الذى شاهدت آثاره فى عالم المثال من سجود تلك الأجرام البالوية لك (يحثيك ربك) يصطفيك على أشرف الخلائق ويميز صدق تلك الرؤيا فى عالم الشهادة : أى كما سخرت لك الأجرام العظام يسخر لك وجوه الناس ونواصهم مدعين لطاعتك خاضعين لك (ويعلمك من تأويل الأحاديث) توطئ لئلا يفسد يوسف عليه السلام : أى فتطلع على حقيق ما أقول ، والمراد بتأويل الأحاديث تعبير لرؤيا ، إذ هى أحاديث الملك ان كانت صادقة ، وأحاديث النفس أو الشيطان ان لم تكن كذلك ، وقيل هو تأويل غوامض كتب الله تعالى وسنن الأنبياء عليهم السلام ، والأول هو الأظهر ، وتسمية التعبير تأويلاً ، لأنه جعل المرتقى فى النوم آيلاً الى ما يذكره المعبر وراجعاً اليه ، من الأول ، وهو الرجوع ، وكلمة (تأويل) فى القرآن الكريم يراد منها ما يؤول اليه الشيء . ويرجع إليه ، فإذا قال الله تعالى فى شأن المتشابه من القرآن (وما يعلم تأويله إلا الله) فالمراد ما تؤول اليه تلك الآيات فى الواقع من كيفية صفات الله تعالى وكيفية عالم الغيب من الجنة والنار وما فيهما ، فلا يعلم أحد كيفية قدرته وتعلقها بالإيجاد والاعدام ، وكيفية استوائه على العرش ، ولا كيفية نعيم أهل الجنة أو عذاب أهل النار ، فليست نار أهل التاركين الدنيا ، وليست ثمرات الجنة ولبنها وعسلها من جنس المعهود لنا ، وإنما هو شئ آخر يخلق بذلك العالم ويناسبه ، وإذا قال الله تعالى (فان تنزعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً «٤٩» (١)) فالمراد به أحسن ما لا عقاب له ، ولذلك فسره مجاهد وقادة بالتواب والجزاء . والسدى وابن زيد وابن قتبية والزجاج بالعاقبة ، وكلاهما بمعنى المآل ، لكن الثانى أعم ، لأنه يشمل حسن المآل فى الدنيا ، وإذا قال الله تعالى (ولقد جشتم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون «٥٢» هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نردّ فععمل غير الذى كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون «٥٣» (٢)) فالمراد بتأويله ما يؤول اليه ، ولذلك



فسره ابن عباس بتصديق وعده ووعيده : أى يوم يظهر صدق ما أخبر به من أمر الآخرة . وقال قتادة : تأويله نوابه . ومجاهد جزؤه ، ومثله فى سورة يونس ( بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله « ٣٩ » ) المراد منه ما يتول إليه الأمر من ظهور صدقه ، وكذلك يقال فى قوله ( ويعلمك من تأويل الأحاديث ) أى بيان ما يتول إليه الرؤى والأحلام ، وكذلك قوله فى آخر السورة لأبيه يعقوب عليهما السلام ( يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقاً ) أى هذا الذى وقع من سجود أبويه وإخوته الأحد عشر له هو الأمر الواقع الذى آلت إليه رؤياه المذكورة فى أول السورة ( إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ) فتأويل الرؤيا الأخبار بما تتول إليه وذلك التأويل هو الذى يسمونه ( تعبيراً ) وهو العبور من ظاهر الرؤيا إلى باطنها ، وأصله من العبور وهو التجاوز من حال إلى حال وخصوصاً تجاوز الماء بسباحة أو غيرها بلفظ العبور ، وكأن المعبر تجاوز لفظ الرؤية ، وظاهرها إلى عاقبتها وباطنها ، وأخذ من ظاهر اللفظ ما يوصله إلى باطنه فيرجع إلى معنى التأويل ، وهو ما يتول إليه الرؤيا من الحقائق ، وهو لا يخالف من قال ان تعبير الرؤيا تفسيرها ، لأن المفسر يعبر اللفظ إلى المعنى ويتجاوز ظاهر الرؤيا إلى باطنها ، ويفسر ما يتول إليه وتنتهى عنده ، و ( الرؤيا ) بوزن فعلى ما يراه الشخص فى منامه ، وقد تجيء بمعنى الرؤية البصرية على ندور وقلة ( ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب ) الخ : أى يضم إلى النبوة الاستفادة من الاجتهاد الملك ، ويجعله قمة لما و ( آل يعقوب ) أهله من بنيه وغيرهم ( كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم واسحق ) بالتخاذ إبراهيم عليه السلام خليلاً ، وإنجائه من النار ، وإعفائه من ذبح الولد الذى هو فليذ كبد ، ونعمته على اسحق بإنجائه من الذبح ، وفدائه بذبح عظيم ، وإخراج يعقوب والأسباط من صلبه ( إن ربك عليم ) فيعلم من يستحق الاجتهاد وما يتفرع عليه من التعليم المذكور ، وإتمام النعمة العاتمة ( حكيم ) فاعل لكل شئ حسب مقتضيه الحكمة والمصلحة .

## آراء العلماء فى الرؤى والأحلام

( ٣ ) قال المازرى : كثر كلام الناس فى حقيقة الرؤيا وقال فيها غير الاسلاميين أقاويل كثيرة منكورة ، لأنهم حاولوا الوقوف على حقائق لا تدرك بالعقل ولا يقوم عليها برهان ، وهم لا يصدقون بالسمع ، فاضطربت أقوالهم ، فمن ينتمى إلى الطب ينسب جيع الرؤيا إلى الأخلاط ، فيقول من غلب عليه البلغم رأى أنه يسبح فى الماء ، ونحو ذلك لمناسبة الماء طبيعة البلغم ، ومن غلبت عليه الصفراء رأى النيران والسمود فى الجوف ، وهكذا إلى آخره ، وهذا وإن جوزوه العقل ، وجاز أن يجزى الله العادة به ، لكنه لم يقم عليه دليل ، ولا اطردت به عادة ، والقطع فى موضع التجوز غلط .

ومن ينتمى إلى الفلسفة يقول : إن صور ما يجزى فى الأرض هى فى العالم العلوى كالنقوش ، فما حاذى بعض النقوش منها انتقش فيها ، قال وهذا أشد فساداً من الأول ، لكونه تحكما لا برهان عليه ، والانتقاش من صفات الأجسام ، وأكثر ما يجزى فى العالم العلوى الأعراض ، والأعراض

لا ينتقش فيها ، قال : والصحيح ما عليه أهل السنة أن الله يخلق في قلب النائم اعتقادات كما يخلقها في قلب اليقظان ، فإذا خلقها فكأنه جعلها علما على أمور أخرى يخلقها في ثاني الحال ، ومهما وقع منها على خلاف المعتقد فهو كما يقع لليقظان ، ونظيره أن الله خلق القيم علامة على المطر ، وقد يتخلف ، وتلك الاعتقادات تقع تارة بحضرة الملك فيقع بعدها مايسر ، أو بحضرة الشيطان فيقع بعدها مايسر ، والعلم عند الله تعالى . وقال القرطبي : سبب تخليط غير الشرعيين إعراضهم عما جاء به الأنبياء من الطريق المستقيم ، وبيان ذلك أن الرؤيا من إدراكات النفس ، وقد غيب عنها علم حقيقتها : أى النفس ، وإذا كان كذلك فالأولى أن لانعلم علم إدراكاتها ، بل كثير مما انكشف لنا من إدراكات السمع والبصر إنما نعلم منه أمورا جليلة لانفصالية .

ثم قال : ثم جيع المراتي تنحصر في قسمين : الصادقة ، وهى رؤيا الأبياء ومن تبعهم من الصالحين ، وقد تقع لغيرهم بحدود ، وهى التى تقع فى اليقظة على وفق ما وقعت فى النوم ، والأضغاث وهى التى لاتنفر بشئ . وهى أنواع :

(الأول) تلاعب الشيطان ليحزن الرائي كأن يرى أنه قطع رأسه وهو يتبعه ، أو رأى أنه واقع فى هول ، ولا يجد من ينجده ، ونحو ذلك .

(الثاني) أن يرى أن بعض الملائكة تأمره أن يفعل المحرمات مثلا ، ونحوه من المحال عقلا .

(الثالث) أن يرى ما يتحدث به نفسه فى اليقظة ، أو يتناهى فيه كما هو فى المنام ، وكذا رؤية ما جرت به عادته فى اليقظة ، أو يظلم على مزاجه ، ويقع على المستقبل غالبا ، وعن الحال كثيرا وعن الماضى قليلا (١) اهـ .

وقال الشيخ النابلسى فى مقدمة كتابه « تهطير الأنام فى تعبير المنام » ماضه :

وقد قال بإبطال الرؤيا قوم من المحدثين يقولون : إن النائم يرى فى منامه ما يظلم عليه من الطباع الأربعة ، فإن غلبت عليه السوداء رأى الأجداث والسواد والأهوال والأفزع ، وإن غلبت عليه الصفراء رأى النار والمصاييح والهم والمصفرات ، وإن غلب عليه البائس رأى اليأس والمياد والأنهار والأمواج ، وإن غلب عليه الهم رأى الشراب والرياحين والمعارف والمزادير .

وهذا الذى قاله نوع من أنواع الرؤيا ، وليست الرؤيا منحصرة فيه فاما نعلم قطعا أن منها ما يكون من غالب الطباع كما ذكرنا ، ومنها ما يكون من الشيطان ، ومنها ما يكون من حديث النفس ، وهذه أصح الأنواع الثلاثة . اهـ .

(٤) وقال الأستاذ الشيخ « طنطاوى جوهرى » فى كتابه الجواهر فى تفسير القرآن :

اعلم أن الرؤى على أقسام :

( القسم الأول ) ما نشأ من غلبة الهم الناجم من الاكثار من الأغذية الدسوية الحارة الرطبة كالطبايح الدسمة ، والحلواء ، فتبيح الطبيعة ، فتسخر فى السماغ بخارا حاراً رطبا ، فيكون الصداق العظيم ، وفترة الخواص ، وقد يزداد فتحمر العين ويكون وجع الحلق وذات الجنب وورم الكبد والطحال والأمعاء والأنثيين ، ويرى فى منامه الرعاف والاحتجام والهم والعايين والرقاصين .

(القسم الثاني) مائشاً من غلبة الصفراء الناجمة من الاكثار من الأغذية اليابسة كالسبل ولحم الكباش الحولى ونحو ذلك ، فتحترق الطبيعة من الجوف إلى الصماغ بيخار صفراوى غير معتدل ، فيكون صداع فى الرأس وشقيقة وقلة نوم وحرارة اللس ، وقد يصفر اللون والعين ويكون الفم مرّاً ، ويرى فى منامه النيران والشمس المحرقة والصواعق والحروب ، ولا يزال مقبلاً مهتماً .

(القسم الثالث) الرؤيا الناشئة من البلغم الناجم من الاكثار من الأغذية الباردة الرطبة المولدة بخاراً رطبا يوقع فترة فى الجسم ورخاوة فى المفاصل وكثرة الريق ولزوجيته وبرد الجسم وقلة شهوة الطعام أوّل النهار ، وقلة العائش وضعف المعدة وبيض البول ، وكثرة النوم والكسل والنسيان . وأن يرى صاحبه فى نومه الأمطار والماء والأودية والاغسال والسباحة .

(القسم الرابع) الرؤى الناجمة من غلبة السوداء الناشئة من الاكثار من الأغذية السوداء كالمس والسخن ولحم البقر والباذنجان فيبتدى المرض السوداءى بفترة فى البدن وشدة عطش وقلة نوم ، وقد يظنى المرض إذا لم يتدارك فيكون الجذام والجرب والحكة والفالج والسكنة وخفة الرأس والرعاف والتآليل والساور والصرع والماليخوليا والقوبا والهمة والسعال اليابس الخ ، ويرى فى منامه الأهوال والخاوف والخيالات والظلمة والأشياء السوداء المحرقة ، ويهرب من كل أحد ، ويرى الأموات ونحو ذلك . وأكثر مايقع ذلك من أكل الملوحة والجوذة والنول والعدس (القسم الخامس) أن تكون القوة المخيلة فى الصماغ مشغولة بصور واردة عليها من الخواص مخزونة فيها ، ومن خصائص هذه القوة العجيبة أنها تحل تلك الصور وتركبها كأن تنخيل :

أعلام ياقوت نشر ن على رماح من زبرجد

وكان تصوّر إنساما مقطوع الرأس وهو لا يزال حيا .

(القسم السادس) أن تحاكي القوة المخيلة المذكورة ماغلب على النفس من منازعها الشهوية الطبيعية كشهوة الطعام وشهوة التزاوج والتناسل ، فان تلك القوة فتخرج الأعاجيب فى المنام ، فتقدّم للنائم الطعام والشراب والأنس والأحباب والأواني والغادات مضاهاة ومحاكاة لما يحصل فى العيان .

(القسم السابع) أن تحاكي تلك القوة ماغلب على النفس قبل من القوة الغضبية والجية والعصية فتخرج له تلك القوة آلات للقتال ودروعا للضال وسيوفاً وحرايا للملاكمة الأبطال ومدافع لسفكاح الأعداء ، فتجد ما كان فى النهار قوة كامنة فى النفس ظاهرا فى النوم عند تلك القوة فتتك بأقرانه وتجنبدل أعداءه وهو منصور فى المنام .

(القسم الثامن) أن يكون البدن حادثاً ساكناً لم تغلب عليه الصفراء ولا السوداء ولا البغم ولا البلغم ولا الشهوة البهيمية ، ولا القوة الغضبية ، ولم تزدحم معدته بالطعام ، فان هذا ربما يرى فى منامه واردات من عالم العقل فترسم تلك المعانى العالية الواردة عليه ، وتصور بصور المحسوسات وقد تكون بدية جداً شبهة المنظر ، وقد تكون تلك الواردة عليه أقوالاً لطيفة ورموزاً لها معان اجالية تخبر بأمر فى الحال أو الاستقبال ، فهذه هى الأقسام الثمانية التى لا يتخلو منها أو من بعضها أحباب الرؤى من الناس .

واعلم أيها القارئ أن هذا القول ملخص ما ذكره الفارابي في علم النفس ، وملخص ما جاء في علم الطب في هذا المقام ، فهذا المقام أصوله في فلسفة الفارابي ، وفي علم الطب ، قد فصلته لك تفصيلا ، ومنزجته منزجا جيلا ، وأبنته أيما تبيان . وعلى ذلك تكون الأقسام السبعة وهي حال الصفراء والسم والبلم والسوداء والصور الواردة من الحواس وغلبة القوة النفسية والقوة الشهوية للرؤى فيها أضغاث أحلام لا تأويل لها ، وإنما هي نتيجة مقام بالجسم من الأمزجة والأحوال . فاما القسم الثامن فإن له ضروبا شتى وأحوالا مختلفة ، فيها ما يكون واضح الدلالة ، ومنها ما يحتاج إلى تأويل ، وهذا هو الذي تكون منه الرؤيا الصادقة ، وهي نادرة في النوع الانساني ، فأما أكثر الرؤى فإنها أضغاث أحلام ، وهي تلك السبع ، والله أعلم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، وهذا خبر ما اطلعت عليه بما ذكره أهل العلم في الرؤى والأحلام ، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

ثم قال الأستاذ [ هل من علاقة بين الأحلام والحوادث ؟ ] وهل عن مجلة علمية فصلا حاولت به المجلة أن تشرح به مسألة الأحلام ، وثبتت أن بينها وبين الحوادث التي تقع حولنا علاقة لا يمكن إنكارها .

فمن ذلك ما رآه الدكتور [ دى سربين ] وهو أنه حلم ذات يوم أن ولده وقع في نار ملتهبة واحترق ، فأخذ يراقب ولده في اليوم التالي فوجده مهيح الجسم ولكنه أصيب في اليوم الذي بعده بالتهاب الرئة الحاد ، وتوفي بعد بضعة أيام .

ومنه ما وقع لسيدة من أهالي مدينة [ فيلادلفيا ] بأمر يكاحلت أن ابنها « وهو رجل كامل » سقط بين عجلات الترامواي وقتل ، فهضت من نومها مذعورة ، فنامت مرة ثانية ، فتكررت الحلم ، ففي اليوم التالي ذهبت إلى [ نيويورك ] حيث كان ابنها يسكن ، وما كادت تخرج من محطة [ نيويورك ] حتى أبصرت جهورا من الناس حول رجل ميت دمه الترامواي ، وكان ذلك الرجل هو ابنها .

ومن ذلك القبيل أن ضابطا إمبريكيا يدعى الكابتن [ مكيجون ] عزم أن يذهب هو وولده إلى مسرح [ بروكلين ] فطلب من إدارة المسرح أن تحجز له ثلاثة أماكن ، وفي الليلة السابقة للمسرح حلم أن تارا عظيمة شبت في المسرح والتهمت فهلك ثلاثمائة نفس ، فهبط من نومه مذعورا ، وأخبر إدارة المسرح أنه عدل عن الذهاب هو وولده . وفي تلك الليلة شبت نار هائلة ألهمت المسرح كله وهلك بالثلاثمائة نفس بين رجال ونساء ، ومن الناس من استفاد من الأحلام فربح جوائز اليانصيب أو الرهن على الجياد الفائزة في ميادين السباق .

ثم قال : والحوادث التي من هذا القبيل كثيرة متعددة ، ولكن لا يصعب إرجاع معظمها إلى مبدأ الاتفاق التي تسميه العاتمة المصادفة إلا إذا حلم المرء أن للرقم الثلاثي من أرقام أوراق اليانصيب ربح الجائزة الكبرى ، وفي الواقع ربح ذلك الرقم الجائزة ، فإن الربح في هذه الحالة لا يمكن إرجاعه إلى ناموس الاتفاق ، بل يجب تحليله على وجه آخر .

ثم ختمت المجلة بحثها بقولها ان العلماء يواصلون البحث لمعرفة أسرار الأحلام والوصول إلى .

تحليلها تحليلًا علميًا صحيحًا ، ولا بد أن يقننوا إلى حل يحسن السكوت عليه ، فيثبتوا أن الأحلام ليست مجرد مشاهد تعرض للنائم بلا سبب منطقي ، بل إن بينها وبين الحوادث علاقة لا سبيل إلى إنكارها (١) اه .

## تعليل العلماء للرؤيا

(هـ) علل العلامة ابن خلدون في مقدمته الرؤيا بأن الروح العاقل المدرك في الإنسان إنما يمنع من تعقله للمدارك الغيبية حجاب الاشتغال بالبدن ، وقواه وحواسه ، فإذا تخلص عن بعض ذلك الحجاب بالنوم خفت شواغله ، فاستعد لقبول ما هنالك من المدارك الالاقية ، وانكشف للروح العاقل من المدارك الغيبية ما هو مستعد له .

ويرى ابن خلدون في الفرق بين الرؤيا والأضغاث - وإن كان كل منهما صورًا وأمثلة في خيال النائم - أن تلك الصورة إن كانت منزلة إلى الخيال عن طريق الروح العاقل المدرك فهي رؤيا ، وإن كانت مأخوذة من الصورة التي أودعت في المحافظة منذ اليقظة فهي أضغاث أحلام ، ولم يرد ابن خلدون بذلك حصر الأضغاث في ذلك النوع ، بل ذلك النوع من الأضغاث ، وكذلك يرى ابن خلدون أن الخيال إذا أُلقي إليه الروح العاقل ما أدركه صورته في القوالب المعتادة للحس . فمن ولد أعمى لا يَصَوِّر له الخيال السلطان بالبحر ، ولا العدو بالحية ، ولا الإنسان بالأواني ، لأن حسه لم يتعود إدراك هذه ، وإنما يَصَوِّر له الخيال أمثال هذه فيما يناسبها من جنس مداركه التي هي المسموعات والمشمومات ، ثم قال : ولتحتفظ المعبر من مثل هذا فربما اختلط به التعبير وفسد قانونه (٢) اه يتصرف .

وقال في فتح الباري : ونقل القرطبي عن بعض أهل العلم أن الله تعالى ملكا يمرض المرنيات على المحل المدرك من النائم فيمثل له صورة محسوسة . فتارة تكون أمثلة موافقة لما يقع في الوجود . وتارة تكون أمثلة لمعان معقولة ، وتكون في الخالين مبشرة ومنذرة . قال : أي القرطبي ويحتاج فيما نقله عن الملك إلى توقيف من الشرع ، وإلا جاز أن يخلق الله تلك المثالات من غير ملك .

وقيل : إن الرؤيا إدراك أمثلة منضبطة في التخيل جعلها الله أعلامًا على ما كان أو يكون اه وهو الموافق لما تقدم عن المارري من أن الله تعالى يخلق في قلب النائم اعتقادات كما يخلقها في قلب اليقظان ، فإذا خلقها فكأنه جعلها أعلامًا على أمور أخرى يخلقها في تالي الحال ، ومهما وقع منها على خلاف المعتقد فهو كما يتبع لليقظان . ونظيره أن الله خلق الغيم علامة على المطر ، وقد يتخلف ، وتلك الاعتقادات تقع تارة بمحضرة الملك فيقع بعدها ما يسر ، أو بمحضرة الشيطان فيقع بعدها ما يضر . والعلم عند الله تعالى اه .

وقال القاضي أبو بكر بن العربي : الرؤيا إدراكات علقها الله تعالى في قلب العبد على يدي ملك أو شيطان إما بأسمائها : أي حقيقتها ، وإما بكناها : أي بعبارتها ، وإما بتخليط ، ونظيرها في اليقظة الخواطر فإنها قد تأتي على نسق في قصة ، وقد تأتي مسترسلة غير محصلة .

هذا حاصل قول الأستاذ أبي إسحق . قال : وذهب القاضي أبو بكر بن الطيب إلى أنها اعتقادات ، واحتج بأن الرائي قد يرى نفسه بهيمة أو طائرا مثلا ، وليس هذا إدراكا فوجب أن يكون اعتقادا ، لأن الاعتقاد قد يكون على خلاف المعتقد . قال ابن العربي : والأول أولى ، والذي يكون من قبيل ما ذكره ابن الطيب من قبيل المثل ، فالادراك انما يتعلق به بالأصل القات (١) اهـ .

## ماورد في صحيح البخارى فى الرؤيا

(١) قد وضع البخارى فى الرؤيا كتابا سماه [ كتاب التعبير ] وقد جمع فيه نيفا وأربعين بابا ، وصدره بحديث : أول ما بدى به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة فى النوم ، لأنها أصل ذلك الباب ، ثم عقبه بباب رؤيا الصالحين ، وقوله تعالى ( لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ) لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين - الى قوله فتعنا قريبا ) ليرينا أنه كان من وحي الله تعالى لنبىه محمد صلى الله عليه وسلم بعد النبوة وحي طريقه الرؤيا ، وبحديث الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة .

وقد اختلف الشراح فى معنى ذلك اختلافا كبيرا ، وبما قالوه : انها مدرك من مدرك الغيب ، وحي بهذا الاعتبار جزء من النبوة ، لأن النبوة تعتمد الاخبار بالغيب ، ثم حديث الرؤيا الصادقة من الله والحلم من الشيطان .

قال الشراح : ان الرؤيا الصادقة هى الخالية عن الأضغاث ، والحلم هو الأضغاث ، وأضافه الى الشيطان لأنه الذى يخيل بها ولا حقيقة لها فى نفس الأمر ، ولأنها تحزن صاحبها ، وذلك غرض من أغراض الشيطان ، ولذلك أضيفت إليه ، كما حدثنا البخارى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الرجل إذا رأى رؤيا يحبها فهمى من الله وليحمد الله عليها ، وليحدث بها الناس ، وإذا رأى غير ذلك مما يكره فاتمى من الشيطان . فليستعذ بالله من شرها ، ولا يذكرها لأحد فانها لاتضره ، وذلك أدب من آداب الرؤيا ، ثم عرض لحديث لم يبق من النبوة إلا المبشرات ، قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وما المبشرات ؟ قال : الرؤيا الصالحة ، زاد مسلم فى صحيحه : يراها المسلم أو ترى له ، ثم عرض لباب رؤيا يوسف ، ورؤيا ابراهيم عليهما السلام ، ثم باب رؤيا أهل السجن والفساد والشرك ، لقوله تعالى ( ودخل معه السجن فتيان ) ليرينا أن الرؤيا الصحيحة ، وإن اختصت غالبا بأهل الصلاح ، لكن قد تقع لقبرهم من المشركين أو الفسقة ، نقل صاحب الفتوح عن أهل العلم بالتعبير أنه إذا رأى الكافر أو الفاسق الرؤيا الصالحة فانها تكون بشرى له بهدائه الى الإيمان مثلا أو التوبة ، أو انذارا من بقاءه على الكفر أو الفسق ، وقد تكون لغيره بمن ينسب إليه من أهل الفضل : أى كما تقدم فى مسلم : يراها المسلم أو ترى له - وقد يرى ما يبدل على الرضا بما هو فيه ويكون من جهة الابتلاء أو الغرور والمكر ، فعوذ بالله من ذلك .

ثم عقب ذلك (باب) من رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ، وحديث من رأى في المنام فسيرا في اليقظة ، وفي رواية فكأنما رأى في اليقظة ولا يمثل في الشيطان ، قال أبو عبد الله البخاري . قال ابن سيرين : إذا رآه في صورته أي التي كان عليها في الدنيا .

قال الشراح : المراد من قوله فسيرا في اليقظة أنه سيرى تفسير ما رأى لأنه حتى ، وقوله فكأنما رأى في اليقظة : أي هي رؤيا حتى لا شك فيها ، ويدل له قوله : ولا يمثل في الشيطان : أي أن الله تعالى حفظ مثاله من أن يمثل به الشيطان ، فمن رآه في منامه لم تكن رؤياه من قبيل الأضغاث ، ويدل لذلك رواية أخرى للبخاري من رأى فقد رأى الحق .

ثم وضع البخاري (باب) لرؤيا الرجل بالليل ، و (باب) لرؤياه بالنهار ، وساق أحاديثه في البابين ليرينا أن الرؤيا لا تختص بالليل بل تكون في النهار كما تكون في الليل .

### طائفة من تأويلات الرؤيا

(٧) روى البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في منامه أنه أتى بقدح من لبن فشرب منه حتى روى ، ثم أعطى فضله عمر ، قالوا فما أولته يا رسول الله ؟ قال العلم .

وروى أنه صلى الله عليه وسلم مرّ على عمر بن الخطاب في النوم وعليه قميص يجره ، قالوا ما أولته يا رسول الله ؟ قال : الدين .

وروى البخاري أن عبد الله بن سلام رأى في منامه كأن عمودا نصب في روضة خضراء وفي رأسه عروة ، وفي أسفله منصف : أي خادم ، فقيل لعبد الله : اصعد عليه . فصعد حتى أخذ العروة . فقمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يموت عبد الله وهو أخذ بالعروة الوثقى .

وروى عن عائشة قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أريتك قبل أن أتزوجك والملك يحملك في سرقة من حرير : أي قطعة من أجوده ، فقلت له : اكشف فكشف فإذا هي أنت ، فقلت إن يك هذا من عند الله يحسه .

وروى أنه صلى الله عليه وسلم رأى وهو نائم أنه أوتي مفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يديه قال أهل التعبير : المفتاح عز وسلطان .

وروى أن ابن عمر رأى كأن في يديه سرقة من حرير لا يهوى بها في مكان في الجنة الاطارت به إليه ، فقصها على حفصة فقصتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن أخاك رجل صالح . وروى أنه رقى لعثمان بن مظعون في المنام عين تجرى فأولها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعمله الذي يجري له .

وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى في منامه أنه ينما هو على بئر ينزع منها إذ جاءه أبو بكر فأخذ البلو فنزع ذنوبا أو ذنوبين وفي نزعها ضف ، ثم أخذها عمر فاستحالت دلوا عظيما ، فلم ير أحدا من الناس ينزع نزعها — وقد أولها العلماء بخلافة أبي بكر وعمر وما يجري فيهما من الفتوحات الاسلامية على يديهما .

وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى أنه في الجنة ، وإن امرأة تنوضأ الى جانب قصر ،

فقال لمن هذا القصر؟ فقبل لعمر ، فذكر غيرته ، فولى مدبرا ، فلما بلغ عمر ذلك بكى وقال :  
أعليك بأبي أنت وأمي يا رسول الله أغار ١١ .

قال أهل التأويل : القصر في المنام عمل صالح لأهل الدين ، ولغيرهم حبس وضيق ، وروى  
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى نفسه في المنام يطوف بالكعبة - قال أهل التعبد :  
الطواف يدل على الحج وعلى التزويج ، وعلى حصول أمر مطلوب من الامام ، وعلى بر الوالدین  
وعلى خدمة عالم ، والسخول في أمر الامام .

وروى عن ابن عمر أنه رأى في منامه أن ملكين جاءه في يد كل منهما مقعدة من حديد  
يقبلان به الى جهنم ، فاستعاذ بالله منها ، وأن ملكا آخر طمأنه ، وقال له : نعم الرجل أنت لو تكررت  
الصلاة ، فاطلقوا به الى شفير جهنم ، فرأى صفتها وما فيها من رجال ، فقصها على رسول الله صلى  
الله عليه وسلم فقال : إن عبد الله رجل صالح ، فلم يزل بعد ذلك يكثر الصلاة .

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في منامه أن في يديه سوارين من ذهب ،  
فكرههما ، فأذن له ففخهما فطارا ، فأولهما بكذابين يخرجان . فقال عبيد الله : أحدهما العنسي  
الذي قتله فيروز باليمن ، والآخر مسيلة . قال في الفتح : إنما أول السوارين بالكذابين . لأن  
الكذب وضع الشيء في غير موضعه ، فلما رأى في زراعيه سوارين من ذهب وليسا من لبعه  
لأنهما من حلية النساء عرف أنه سيظهر من يدعي ماليس له ، وأيضا ففي كونهما من ذهب  
والذهب منهى عن لبسه دليل على الكذب ، وأيضا فالذهب مشتق من الذهب ، فعلم أنه شيء  
يذهب عنه ، وتأكد ذلك بالأذن له في تفخهما فطارا ، فعلم أنه لا يثبت لهما أمر اه .

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى كأن امرأة سوداء نائرة الرأس خرجت من  
المدينة حتى قامت بجميعة ، وهي الجحفة ، فأولها بأنه وباء المدينة قتل إليها - قال ابن المهلب هو  
مما ضرب به المثل ، ووجه التمثيل أن شق من اسم السوداء السوء والهاء ، فتأول خروجها بما  
جمع اسمها .

وروى أنه صلى الله عليه وسلم رأى أنه هز سيفاً فانقطع صدره ، فاذا هو ما أصيب من المؤمنين  
يوم أحد ، ثم هزه مرة أخرى فعاد أحسن ما كان ، فاذا هو ما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين .  
ثم ختم البخاري ذلك الكتاب بأحاديث انتهى عن الكذب في الرؤيا كحديث «من تحمل بحمل  
لم يره كان أن يعتد بين شعيرتين ولن يفعل» ، ثم (باب) إذا رأى الرجل ما يكره وساق أحاديث  
منها إذا رأى أحدهم الرؤيا يحبها فانها من الله فليحمد الله عليها وليحدث بها ، وإذا رأى غير ذلك  
بما يكره فانما هي من الشيطان ، فليستعذ من شرها ، ولا يذكرها لأحد فانها لاتنصره (١) .

## أصول التأويل

(٨) يقول ابن القيم بعد أن تكلم على ضرب الأمثال في القرآن الكريم وتوسع فيها ، وقد  
ضرب الله سبحانه وتعالى الأمثال وصرفها قدرا وشرعا وبخطه ومنامها ، ودل عباده على الاعتبار



بذلك ، وعبورهم من الشيء الى نظيره ، واستدلالهم بالنظير على النظير ، بل هذا أصل عبارة الرؤيا التي هي جزء من أجزاء النبوة ، ونوع من أنواع الوحي فانها مبنية على القياس والتخيل ، واعتبار المقول بالمحسوس .

(الأثرى) أن الثياب في التأويل كالتقص تدلّ على الدين ، فما كان فيها من طول أو قصر أو نظافة أو دنس فهو في الدين ، كما أوّل النبي صلى الله عليه وسلم القميص بالدين والعلم ، والقدر المشترك بينهما أن كلا منهما يستر صاحبه ويحمله بين الناس ، فالقميص يستر بدنه ، والعلم والدين يستر روحه وقلبه ، ويحمله بين الناس .

(ومن) هذا تأويل اللبّان بالفطرة لما في كلّ منهما من التغذية الموجبة للحياة ، وكإلّ النشأة وأن الطفل إذا خلى وفطرته لم يبدل عن اللبّان ، فهو مفعول على إثارة على مسواه .

(وكذلك) فطرة الاسلام التي فطر الله الناس عليها (ومن) هذا تأويل البقر بأهل الدين والخبر اللذين بهما عمارة الأرض ، كما أن البقر كذلك مع عدم شرّها وكثرة خيرها ، وحاجة الأرض وأهلها إليها ، ولهذا لما رأى النبي صلى الله عليه وسلم بقرا تنحركان ذلك تحركا في أصحابه . (ومن) ذلك تأويل الزرع والحراث بالعمل ، لأن العامل زارع للخير والشرّ ، ولا بدّ أن يخرج له ما يذره كما يخرج للبذر زرع ما يذره ، فاللهنا مزرعة والأعمال البذور ، ويوم القيامة يوم طلوع الزرع وحصاده .

(ومن) ذلك تأويل الخشب المقطوع المتساقط المتناقصين ، والجامع بينهما أن المافق لاروح فيه ولا ظل ولا ثمر ، فهو بمنزلة الخشب القدي هو كذلك ، ولهذا شبه تعالى المتناقصين بالخشب المسندة لأنهم أجسام خالية عن الايمان والخير ، وفي كونها مسندة نكتة أخرى ، وهي أن الخشب إذا انتفع به جعل في سقف أو جدار أو غيرها من مظانّ الانتفاع ، ومادام متروكا فارغا غير منتفع به جعل مسندا بعضه الى بعض ، فشبه المتناقصين بالخشب في الحالة التي لا ينتفع فيها بها .

(ومن) ذلك تأويل النار بالفتنة ، لافساد كل منهما ما يمرّ عليه ويتصل به ، فهذه تحرق الأثاث والمتاع والأبدان ، وهذه تحرق القلوب والأديان والايمان .

(ومن) ذلك تأويل الهجوم بالعلماء والأشراف لحصول هداية أهل الأرض بكلّ منهما ، ولارتفاع الأشراف من الناس كارتفاع النجوم .

(ومن) ذلك تأويل النيب بالرحمة والعلم والقرآن والحكمة وصلاح حال الناس .

(ومن) ذلك خروج النعم في التأويل يدلّ على المال والقدر المشترك أن قوام البدن بكلّ واحد منهما .

(ومن) ذلك الحدث في التأويل يدلّ على الحدث في الدين ، فالحدث الأصغر ذنب صغير ، والأكبر ذنب كبير .

(ومن) ذلك اليهودية والنصرانية في التأويل بدعة في الدين ، فاليهودية تدلّ على فساد التقصد واتباع غير الحق ، والنصرانية تدلّ على فساد العلم والجهل والضلال .

(ومن) ذلك الحديد في التأويل وأنواع السلاح يدلّ على القوة والنصر بحسب جوهر ذلك السلاح وممّنته .

(ومن) ذلك الرائحة الطيبة تدلّ على الثناء الحسن ، وطيب القول والعمل (و) الرائحة الخبيثة بالعكس (و) الميزان يدلّ على العدل (و) الجراد يدلّ على الجنود والعساكر والغزاة الذين يهجم بعضهم في بعض (و) النحل يدلّ على من يأكل طيبا ، ويعمل صالحا (و) الديك رجل على الهمة بعيد الصيت (و) الحية عدوّ أو صاحب بدعة يهلك بسمه (و) الخشرات أو غاد الناس (و) الخلد <sup>(١)</sup> رجل أحمى يتكفّف الناس بالسؤال (و) الذئب رجل غشوم غادر فاجر (و) الثعلب رجل غادر محتمل مكارم ماوغ عن الحق (و) الكلب عدوّ ضعيف كثير الصخب والشرّ في كلامه وسبابه ، أو رجل مبتدع متبع هواه مؤثره على دينه (و) السنور العبد والخادم الذي يطوف على أهل الدار (و) الفأرة امرأة سوء فاسقة فاجرة (و) الأسد رجل قاهر مسلط (و) الكبش الرجل المتبع المتنوع .

(٨) ومن (كليات التعبير) أن كلّ ما كان وعاء لئاء فهو دالّ على الأثاث ، وكلّ ما كان وعاء لئال كالسندوق والكيس والجراب فدلّ على القلب ، وكلّ مدخول بعضه في بعض وممزج ومختلط فدلّ على الاشتراك والتعاون أو النكاح ، وكلّ سقوط وخرور من علو إلى سفلى فذموم وكلّ صعود وارتفاع فحمود إذا لم يجاوز العادة وكان مما يليق به ، وكلّ ما أحرقت النار جأشحة وليس يرجى صلاحه ولاحياته (و) كذلك ما انكسر من الأوعية التي لا ينشعب مثلها ، وكلّ ما خطف وسرق من حيث لا يرى خاطفه ولا سارقه فانه ضائع لا يرجى ، وما عرف خاطفه أو سارقه أو مكانه أولم يغب عن عين صاحبه فانه يرجى عوده (و) كلّ زيادة مجودة في الجسم والقامة والاسنان والذكر والحية واليد والرجل فزيادة خير (و) كلّ زيادة متجاوزة للحدّ في ذلك فذمومة وشرّ وفضيحة (و) كلّ ما روى من اللباس في غير موضعه المختص به فكروه كالعمامة في الرجل ، والخف في الرأس ، والعقد في الساق ، وكلّ من استقضى أو استخلف أو أتمر أو استوزر أو خطب عن لا يليق به ذلك ناله بلاء من الدنيا وشرّ وفضيحة وشهرة قبيحة (و) كلّ ما كان مكروها من الملابس خلفه أهون على لابسها من جديد (و) الجوز مال مكنوز فان تقفع كان قبيحا وشرّا (و) من صار له ريش أو جناح صار له مال ، فان طار سافر (و) خروج المريض من داره ساكتا يدلّ على موته ، ومتكلما يدلّ على حياته (و) الخروج من الأبواب الضيقة يدلّ على النجاة والسلامة من شرو ضيق هوشيه ، وعلى توبة ولاسيما ان كان الخروج الى قضاء وسعة ، فهو خير محض (و) السفر والنقلة من مكان الى مكان : انتقال من حال الى حال بحسب حال المكانين (و) من عاد في المنام الى حال كان فيها في اليقظة عاد إليه فافارقه من خير وشرّ (و) موت الرجل رجما دلة على توبته ورجوعه الى الله ، لأن الموت رجوع الى الله ، قال تعالى ثم ردّوا الى الله مولاهم الحق (و) الرهون مأسور بدين أو بحق عليه الله أو لعبيده (و) وداع المريض أهله أو توديعهم له دال على موته .

[و بالجلة] فما تقدم من أمثال القرآن كلها : أصول وقواعد لعل التعبير أن أحسن الاستدلال بها وكذلك من فهم القرآن فانه يعبر به الرؤيا أحسن تعبير ، وأصول التعبير الصحيحة إنما أخذت من مشكاة القرآن ، فالسيفنة تعبر بالنجاة ، لقوله تعالى (فأنجيناه وأغمرنا بالسفينة) وتعبر بالتجارة ، والخشب بالمنافقين ، والحجارة بساوة القلوب ، والبيض بالنساء ، واللباس أيضا بهن ، وشرب الماء بالفتنة ، وأكل لحم الرجل بضيئه ، والمفاتيح بالكسب ، والخزائن والأموال ، والفتح يعبرونه بالدعاء وسمرة بالنصر ، وكالمالك يرى في محلة لا عادة له بدخولها يعبر باذلال أهلها وفسادها ، والحبل يعبر بالعهد والحق والعقد (و) النعاس قد يعبر بالأمن (و) البقل والبصل والقوم والعس يعبر لمن أخذه بأنه قد استبدل شيئا أدنى بما هو خير منه من مال أو رزق أو علم أو زوجة أو دار (و) المرض يعبر بالفارق والشك وشهوة الرياء (و) الطفل الرضيع يعبر بالعدو ، لقوله تعالى : فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا (و) التكاح بالبناء (و) الرماد بالعمل الباطل ، لقوله تعالى : مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتكت به الريح (و) النور يعبر بالهدى (و) الظلمة بالضلال . ومن ههنا قال عمر بن الخطاب لحابس بن سعد الطائي وقد ولاه القضاء فقال له يا أمير المؤمنين إنى رأيت الشمس والقمر يقتلان ، والنجوم بينهما فصفين ، فقال عمر : مع أيهما كنت ؟ قال مع القمر على الشمس ، قال : كنت مع الآية المحمودة ، اذهب فلست تعمل لى عملا ، ولا تقتل إلا فى لبس من الأوس ، فقتل يوم صفين .

وقيل لعابر : رأيت الشمس والقمر دخلا فى جوفى . فقال تموت . واحتج بقوله تعالى : فاذا برق الصر وخسف القمر وجع الشمس والقمر يقول الانسان يومئذ أين المخر .

وقال رجل لابن سيرين رأيت معى أربعة أرغفة حين طلعت الشمس ، فقال : تموت إلى أربعة أيام ، ثم قرأ قوله تعالى (ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا) وأخذ هذا التأويل أنه حل رزقه أربعة أيام . وقال له آخر رأيت كبسى مملوء أرضه ، فقال أنت ميت ، ثم قرأ (فلما قبضنا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض) والنخلة تدل على الرجل المسلم ، وعلى الكأمة الطيبة ، والحنظلة تدل على ضد ذلك ، والصنم يدل على العبد سوء الفنى لا ينفخ ، والبستان يدل على العمل ، واحتراقه يدل على حوطه لما تقدم فى أمثال القرآن .

ومن رأى أنه ينقض غزلا أو ثوبا ليعيده سمرة ثانية فانه ينقض عهدا وينكته ، والمشي سويا فى طريق مستقيم يدل على استقامته على الصراط المستقيم ، والأخذ فى بنيات (١) الطريق يدل على عدوله عنه الى ما خالفه ، واذا عرضت له طريقان ذات يمين وذات شمال فسلك أحدها فانه من أهلها ، وظهور عورة الانسان له ذنب يرتكبه ويفضح به ، وهو به وفراره من شىء نجاة وظفر ، وغرقه فى الماء فتنة فى دينه ودنياه ، وتلقفه بحبل بين السماء والأرض تمسكه بكتاب الله وعهده واعتصامه بحبله ، فان انقطع به فارق العصمة إلا أن يكون ولى أمرا فانه قد يقتل أو يموت .

[فالرؤيا] أمثال مضروبة يضربها الملك الذى قد وكله الله بالرؤيا ليستدل الرأى بما ضرب له من المثل على نظيره ، ويعبر منه الى شبهه ، ولهذا سمي تأويلها تعييرا ، وهو قعيل من العبور ،

كما أن الاعتاظ يسمى اعتبارا وعبرة لعبور المتعظ من النظر الى نظيره (ولولا) أن حكم الشيء حكم مثله وحكم النظر حكم نظيره لبطل هذا التعبير والاعتبار، ولما وجد إليه سبيل (١) اهـ .

(١٠) وقال الشيخ محمد بن سيرين في أول كتاب [ تفسير الرؤيا ] ما نصه : اعلم وفقى الله وإياك إلى طاعته أن الرؤيا لما كانت جزءا من ستة وأربعين جزءا من النبوة لزم أن يكون المعبر علما بكتاب الله ، حافظا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله ، خيرا بلسان العرب واشتقاق الألفاظ ، عارفا بهيات الناس ضابطا لأصول التعبير ، عفيف النفس ، طاهر الأخلاق ، صادق اللسان ، ليوفقه الله لما فيه الصواب ، ويهديه لمعرفة معارف أولى الألباب ، فان الرؤيا قد تعبر باختلاف أحوال الأزمنة والأوقات ، وتارة تعبر من كتاب الله ، وتارة تعبر من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتارة تعبر من المثل السائر ، وربما صرفت عن الرائي الى نظيره أو سميته وقد نشول الرؤية صرمة من لفظ الاسم ، وصرمة من معناه ، وصرمة من ضده ، وصرمة من اشتقاقه ، وصرمة بالزيادة ، وصرمة بالنقصان .

فأما التأويل من القرآن فكالبيض يعبر عنه بالنساء ، لقوله تعالى - كأنهنّ بيض مكنون - وكالحجارة يعبر عنها بالقسوة ، لقوله تعالى - ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة - وكالحجم الطرى يعبر عنه بالغنية ، لقوله تعالى - أعجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه - وكالفاتيح فانه يعبر عنها بالكنوز ، لقوله تعالى - وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة - فتزيد أمواله لأن الكنوز لا يتوصل إليها إلا بالمفاتح ، وكالسفينة يعبر عنها بالنجاة ، لقوله تعالى - فأنجيناه وأصحاب السفينة - ولقوله تعالى - فأنجيناه ومن معه في الفلك - وكلملك يرى أنه قد دخل دارا أو بلدة أو محلة ولم يكن له عادة بالدخول إليها يعبر عنها بحلول مصيبة أو ذلة ينال أهل ذلك الموضع ، لقوله تعالى - إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها - إلى قوله - أثلة - وكاللباس يعبر عنه بالنساء ، لقوله تعالى - هن لباس لكم وأنتم لباس لهنّ - وأشباه ذلك كثير .

وأما التأويل من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فكالغراب يعبر عنه بالرجل الفاسق ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سماه فاسقا ، وكالفأرة يعبر عنها بالمرأة الفاسقة ، لقوله صلى الله عليه وسلم « الفأرة فاسقة » . وسماها أيضا فويسقة ، وكالضلع يعبر عنه بالمرأة أيضا ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « المرأة خلفت من ضلع أعوج » وأسكفة الباب السفلى : أى عتبة يعبر عنها بالمرأة ، لما روى عن خليل الله إبراهيم عليه السلام أنه قال لولده إسماعيل غير أسكفة بابك ، يعنى زوجته وأشباه ذلك مما لا يعد .

وأما التأويل من الأمثال السائرة فكالرجل يرى في يده طولاً فانه يعبر عنه باصطناع المعروف لقولهم : هذا أطول منك يدا أو باعاً : أى أكثر عطاء ، وكالاحتطاب يعبر عنه بالهيمة لقولهم : من مشى بين الناس بجيئة فانه يحتطب . وكالمرض يعبر عنه بالفتاق ، لقولهم لمن لا يوفى وعده : فلان يعرض في وعده ، وكالحظطة يعبر عنها بالولد ، لقولهم الذى يشبه أباه هو حظطة الأسد ، وكالذى يرمى

الناس بالسهام والبنديق والحجارة يعبر عنه بأنه يذكرهم بسوء ، لقولهم : رى فلان فلانا وقذفه؟ ، وكالرجل الذى يرى أنه يضل يده بالأشنان ونحوه كالصابون يعبر عنه بالأياس من الشيء ، لقولهم غسلت يدي بالأشنان منك : أى قد أيست من خيرك ، وكالكيس يعبر عنه بالرجل المزير فى قومه المنيع فيهم وأشياء ذلك مما لا يعد .

وأما التأويل بظاهر الاسم فكرجل اسمه الفضل فانه يعبر عنه بالفضل ، وراشد يعبر عنه بالرشد ، وسالم يعبر عنه بالسلامة وشبه ذلك .

وأما التأويل بالمعنى فمثل الترجس والورد إذا عبر بهما لمن يسأل عنهما أو من يفسبان إليه يعبر عنهما بقلة البقاء ، والآس بالضمة لبقائه وفضارته وأشياء ذلك .

وأما التأويل بالضمة فمثل البكاء يعبر عنه بالفرح مالم تكن معه رنة أو صوت أو شق جيب ، والفرح والضحك والرقص يعبر عنه أنه حزن وهم وغم .

ومثل الرجلين يقتتلان أو يضطربان فان المصروع هو الغالب ، ومثل الرجل يرى أنه يحتجم فانه يكتب عليه شرط ، أو يرى أنه يكتب عليه شرط فانه يحتجم .

ومثل الرجل يرى أنه يدخل قبراً فانه يسجن أو يرى أنه يسجن فى موضع مجهول الأهل والهيئة فانه يقبر إذا لم يكن يرى أنه قد خرج من ذلك الموضع .

ومثل الحرب يعبر عنه بأنه تهجم ، وإن رأى عدواً هجم فانه سيل يسيل .

ومثل الجراد يعبر عنه أنه جند ، والجند جراد ، وأشياء ذلك كثيرة لا تحصى ، وأما الجراد فيعبر عنه بحال مكنوز مالم يسمع معه قعقة فهو خصومة ، وفى الشعر أنه مال وزينة ، فان سال على الوجه أو كثر على الخلد فهو غمّ وهمّ ، وقيل أنه كسوة ، فان كان مكفوفاً فهو كلام سوء يرى به ولا يقدر على دفعه ، ومن رأى أن له ريشاً وجناحين فانه مال ورياش ، فان طار بهما سافر ، ومن رأى أن يده قطعت فاحتملها وبقيت معه فهو أخ أو ولد يستفده ، فان فارقه فهي مصيبة له فى أخ أو ولد ، وفى المريض يرى أنه صحيح يخرج من بيته ولا يتكلم فانه يموت ، وإن تكلم يبرأ ، وفى المقامات أنها نساء غير عفيفات ، مالم تختلف ألوانها ، وإن كانت بيضاء وسوداء فهي الأيام واللالي ، وفى السمك ان عرف عدده فهو نساء ، وإن لم يعرف فهو مال وغنيمة ، وأشياء ذلك كثيرة .

وأما اختلاف الناس وحياتهم فقد تختلف الرؤيا باختلاف ذلك مثل الرجل يرى أنه مغلول اليد أو العنق ، فان كان الرجل سيّاه الخير والهدى فهو صلاح فى حقه واجتناب الشر والفساد ، وإن كان سيّاه ضدّ ذلك فهو كثير المعاصى من أهل النار ، أجازنا الله بكرمه آمين .

وأما اختلاف الأوقات فمثل الرجل يرى أنه راكب فيلاً ، فان كان ذلك ليلاً نال أمراً جسيماً كامل المنفعة ، وإن كان نهلاً طلق زوجته اه .

وقال الشيخ ابن خلدون فى مقدمته . ثم ان علم التعبير علم بقوانين كلية يبنى عليها المعبر عبارة ما يقصّ عليه وتأويله كما يقولون البحر يذلّ على السلطان ، وفى موضع آخر يقولون البحر يذلّ على القبط ، وفى موضع آخر يقولون البحر يذلّ على الهلمّ والأمرى القادح ، ومثل ما يقولون الحية

تدلّ على العدو ، وفي موضع آخر يقولون هي كانت سرّ ، وفي موضع آخر يقولون تدلّ على الحياة وأمثال ذلك ، فيحفظ المعبّر هذه القوانين الكلية ، ويعبر في كلّ موضع بما تقتضيه القرائن التي تعين من هذه القوانين ما هو أليقّ بالرؤيا ، وتلك القرائن منها في اليقظة ومنها في النوم ، ومنها ما ينقدح في نفس المعبّر بالخاصية التي خلقت فيه ، وكلّ ميسر لما خلق له ، ولم يزل هذا العلم متناقلا بين السلف ، وكان محمد بن سيرين فيه من أشهر العلماء ، وكتب عنه في ذلك القوانين ، وتناقلها الناس لهذا العهد ، وألف الكرماني فيه من بعده ، ثم ألب المتكلمون والمتأخرون وأكثروا ، والمتداول بين أهل القرب لهذا العهد كتب ابن أبي طالب القبرواني من علماء القبروان مثل المتع وغيره ، وكتاب الإشارة للسالمى ، وهو علم مضى بنور النبوة للأناسبة بينهما كما وقع في الصحيح والله علام الغيوب (١) اهـ .

### يوسف عليه السلام

لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّالِينَ (٧) إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨) أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ (٩) أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَيْكُمُ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيِّتٍ (١٠) الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (١٠) قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِيظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الدَّيْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَفِلُونَ (١٣) قَالُوا لَئِن أَكَلَهُ الدَّيْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَسِرُونَ (١٤) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْهَرُوا فِي غَيِّتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥) وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَعِنَا فَأَكَلَهُ الدَّيْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَى قَدَمِهِ بِدَمٍ كَذَبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ

[١] من ٤٥٢ الطبعة الأميرية الثالثة . [٢] عبر وضعات . [٣] ألقوه في أرض منكورة تسلم لكم حبة أبيض . [٤] ماغاب منه عن الناظر وأظلم من أسفله « السيرة » المارة .

أَمْرًا فَصَبَرُوا جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ «١٨» وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ «١٩» فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرِي هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بَضْعَةً «٢٠» وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ «١٩» وَشَرَوْهُ «٢٠» بِشَنِيِّ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ «٢٠» وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ «٢١» عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ «٢٢» عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ «٢١» وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ «٢٢» يوسف

### شرح وعبرة

(١) (لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين) أى لقد كان في قصة يوسف وإخوته علامات ودلائل على قدرة الله تعالى وحكمته في كل شيء (السائلين) أى المفكرين الذين من شأنهم أن يسألوا عن الأمور ويفكروا فيها ، وفيها من العبر ما يتسلل به رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابناء قريش له ، لأنه إذا عرف ما فعله إخوة يوسف به - ويجمعهم به أب واحد - وأنهم دبروا له ما دبروا لغيره أن يعقوب عليه السلام كان يختص ولده يوسف وأخاه بئس من العطف والحنان - إذا عرف الرسول ما فعله أولئك الاخوة بأخيه مرضاة لعامل الحسد في قلوبهم فانه لا يحزن من عمل قريش الذين ناصبوه العداوة وصنعوا معه من صنوف الايذاء مالا يلقى ولا ينبغي . ( إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين ) .

فهم المفسرون أن ذلك الأخ كان أخا من الأم ليوسف ، أما هم فكانوا إخوة من الأب فقط والآية تربنا السبب الذي حل إخوة يوسف على حسده ، وقولهم ( ليوسف ) بلام القسم إشارة إلى أنهم تأكدوا من أيهم ذلك الايثار ( ونحن عصبة ) جماعة أقرباء فينا الكفاية والمنفعة ، فنحن أولى بهذه المحبة من صغيرين لا كفاية فيهما ولا نفع ، وفاتهم ما قاله بعض فصحاء العرب لكسرى حين سأله : أى بئيك أحب إليك ؟ قال : الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يؤوب ، والمرضى حتى يبرأ .

ويوسف كان صغيرا ، وفوق ذلك كانت تظهر عليه مخايل النجابة والذكاء ، وقوى ذلك الرؤيا العجيبة الدالة على مستقبل باهر كما نسوا أن مسألة المحبة قد لا يكون للانسان كسب فيها ، فقد يكون للرجل ولدهان ولكنه يشعر بمحبة لأحد الولدين فوق محبته للآخر ، وإن كان الغالب

[١] الذى يرد الماء لىستقى للقوم . [٢] أخوه على أنه متاع للتجارة . [٣] باعوه بشئ ناقص عن قيمته . [٤] منزله ومقامه ، والمراد تخفيفه بالإحسان . [٥] لأحد يمنه مما يئناه .

أن المحبة للأولاد في الكبر تعتمد الخصائص والمزايا ، فمن كان مطيعاً لوالديه كانت محبتهم له أكثر ومن كان فيه نجابة وذكاء وحرص على مصلحته ومصلحة أبويه وما إلى ذلك كان إقبال أبويه عليه أكثر لهذه الأسباب ، ولا بد أن يكون يعقوب كان حبه ليوسف إلحاحاً من الله تعالى ، أو لما رأى فيه من الخصائص ما لم يرى في غيره من بقية إخوته ، فلا ذنب له في هذه المحبة ، وعلى فرض أن له ذنباً فما ذنب يوسف وأخيه في أن يحبهما أبوهما يعقوب ؟ وهل يستطيع أن يقول لأبيه : انزع من قلبك حبي وإشفاقك عليّ ، وسوّى باخوتي في المحبة ؟ هذا ما لا يستطيعه يوسف ولا سبيل إليه ، ولا ذنب له فيه ، ولكن الحسد وحده لا يثار يحملان إخوة يوسف على أن يكيدا ليوسف وأخيه ذلك الكيد ، ويدبرا لهما ذلك التدبير .

وقد أوجد الله في الإنسان غريزة الحسد لطلب المجد والرفعة وعلو الشأن ، وليسابق الإنسان غيره في المخاطر والفضائل والمجد ، فيكثر العمل ويزداد العمران ، وهو الذي يسمى [ بالقبطة ] ولكن الإنسان أساء في استعمال ذلك الخلق ، وطفى في تصريفه والانتفاع به ، فأخذ يعمل على إزالة النعمة والفضل عن المحسود ، وبذلك لحقه من القسمة وعقاب الله ما لحقه ، ويظهر أن الحاسد الذي يتخلى زوال نعمة الغير ، ويعمل لذلك ، يحس من نفسه انحطاطاً عن المحسود ، وأنه لا قبل له بمجاراته في وسائل النعمة ، وطرائق الفضل ، وأن الطريق المألوف لتلك المجارة يكلفه من الجهد والمشقات ما لا قبل له به ، وأنه لذلك أراد أن يختصر على نفسه الطريق ، ويصل إلى غايته بدون أن يكلف نفسه مشقة أو عناء ، فعمل على أن يفتك بالمحسود ، ويحول بينه وبين الحياة ، وبذلك يصل إلى أمنيته من طريق براها سهلة ، ولكنها مخوفة بالأخطار والمخاوف .

فقد كانت عاقبة الحسد من إخوة يوسف إقدامهم على الكذب ، وإلقاء أخيه يوسف في ذلّ العبودية ، وإبعاده عن أبيه المشفق ، وإلقاء أبيهم في الحزن الدائم والأسف العظيم . والشأن في الحسد أن لا يكون إلا بين المتشاركين في حال : كالجار والعبد والقريب ، والمشارك لك في صناعة أو تجارة أو زراعة أو إمارة أو علم أو سنّ ، أو المقيم معك في مدرسة أو منزل أو شارع ، وكلما ارتفع صبت الإنسان حسده من يشاركه في ذلك الصيت ، وترى العالم لا يودّ أن يشاركه في ذلك المجد أحد ، ويزداد الحسد كلما ازداد الصيت وحسن الذكر ( إن ألبانا في ضلال مبین ) خطأيّن في تدبير أمم الدنيا وكيف يؤثر حب يوسف علينا مع صفه وعدم نفعه ونحن عصابة نقوم بمصالحه من أمر ديناه ومواسيه .

(٢) (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم) نزول على طاعة داعي الحسد ، وشروع في قضاء شهوتهم في يوسف ، وكأن ذلك الرأي كان محل وفاق منهم إلا الذي قال (لا تقتلوا يوسف) (أو اطرحوه أرضاً) منكورة مجهولة بعيدة عن العمران (يخل لكم وجه أبيكم) يقبل عليكم إقبالة واحدة لا يلتفت عنكم إلى غيركم ، فالمراد سلامة محبة لهم عن يشاركهم فيها ، وينازعهم إياها ، فكان ذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه ، ويجوز أن يراد بالوجه الذات ، كما قال تعالى (ويبقى وجه ربك « ٢٧ » ) (١) ذلك هو الذي



يحملهم على أن يكيدوا ليوسف ويكروا به ، وهو أن تسلم لهم محبة أبيهم ، ويخلو لهم وجهه ، فلا يلتفت الى غيرهم ، ويختصهم بالطف والرعاية ، ولوصح هذا سببا للحسد لساغ للراة أن تقتل ضررتها ليخلوها وجه الزوج ، وللتلحيد أن يقتل زميله ليخلوله وجه أستاذه ، وللموظف في عمل من الأعمال أن يفتك بأخيه في ذلك العمل ليخلوله وجه رئيسه ، ولبطانة الملك أن يقتل صاحبه ليخلوله وجه الملك ، والأمر الواقع أن الناس قد غلب عليهم ذلك الخلق : خلق الحسد المذموم وأغضبوا به ربهم وخالفهم ، والذى يزين لهم ذلك العمل الشيطاني هو أن يخلو لهم الوجه ، ويستأثروا بالمنفعة ، وأنهم يتأسون بأخوة يوسف وكبرهم بأخيه ، ولا فرق بين ما تفعله الناس وبين أخوة يوسف إلا أشكال ومظاهر ، أما الجوهر فهم متفقون فيه ، ذلك أن القتل حسي ومعنوي ، أو عبارة أخرى ماذى وأدبى ، فأخوة يوسف اتفقوا في أول الأمر على قتل يوسف قتلا ماديا ، أو ما يشبه ذلك القتل من وضعه في أرض مهجورة لأمان الذى يعيش بها ، ثم لما أشار عليهم واحد منهم بأن القتل عظيم وحسن لهم إلقاءه في قعر الجب أجابوه الى ما قال .

أما القتل الفاشى اليوم في المتنافسين فهو قتل أدبى ، ألا ترى الى الرجلين وقد وليا عملا من الأعمال يكيد خيف النفس منهما للآخر ، ويدبر له من وسائل الفتك ما لا يعلم حقه إلا الله تعالى . ليخلوله وجه الرئيس ، ويستأثر بالخطوة منه والمكانة عنده ، ولا سيما إذا كان الرئيس صاحب نفوذ وسلطان ، لأنه يرى زميله مشارك له في تلك المحبة ، أو يمتاز عليه فيها ، فقسو له نفسه أن تختلق على صاحبه المفتريات ، ويدس بينه وبين ذلك الرئيس حتى تسوء بينهما العلاقات ، وقد ينتهى الأمر بإبعاد ذلك الزميل من العمل الذى يعمل فيه ان لم يكن بفضله منه ، وذلك قتل أدبى سببه حرص الانسان الظالم على أن يخلوله وجه رئيسه .

ثم ألا ترى ذلك الخلق خلق الحسد فاشيا في بطانات الملوك والأمراء كل يريد أن يكون موضع السر ومكان الخطوة والرضا ، ولا يسمح لزميله أن يظفر بتلك المنزلة ، وهو قادر على أن يحول بينه وبينها ، ولذلك تجدهم أحزابا وشيعا ، كل حزب يكيد للآخر ويدس له ، ويعمل على إسقاطه والتسكيل به ، إلا من كان له خلق متين ، ودين صالح ، فانه لا يسمح لنفسه بذلك العمل الخبيث ، وقليل مام ، وذلك الصنف من البطانة لاتلبث مع الملوك إلا قليلا ، لأنها لا تستطيع أن تعيش في جو عملاء بالأساس ، كما لا تستطيع أن تجاري أصحاب الأهواء والشهوات ، فتعطرهم بسلاحهم ، وتناضلهم بمثل ما يناضلون به ، ذلك شئ من العبرة في يوسف وأخوته وما قامه الله علينا من عملهم وسيرتهم . نرجو أن لاتكون ممن تأسى بأولئك الاخوة في ذلك الحسد المذموم الذى جر عليهم من غضب الله وسخطه ماجر ، وأن يكون حبيدنا لغيرنا من فضله الله علينا في العلم والفضل هو القبطه لهم ، وتنى مثل الملم ، وأن لا يكون هذا التمنى مما يمتنه الله تعالى ويغضه ، بل يكون تمنا للخير مع الأخذ في أسبابه والعمل على الوصول إليه ، وأن يكون موقفا عن أعطائه الله ما لا أوجها موقف الراضى بما أعطاه الله وقسمه ، المطمئن لقول الله تعالى ( نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا )<sup>(١)</sup> ورجة ربك

خير مما يجمعون «٣٢» ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا (١) لمن يكفر بالرحن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون «٣٣» وليوتهم أبوابا وسرورا عليها يتكثون «٣٤» وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين «٣٥» (٢) .

(وتكونوا من بعده قوما صالحين) الضمير ليوسف عليه السلام ، أو للقتل الذي يدل عليه قوله (اقتلوا يوسف) والمراد بكونهم صالحين صلاح دنياهم وانتظام أمورهم بخلاؤه وجه أبيهم لهم ، أو (صالحين) ناثين الى الله تعالى عما جئتم ، وما أشبه هذا بقول الفسقة إذا أنت أردت أن تردعهم عن الفسق ، وتحول بينهم وبين الفجور : توب الى الله بعد أن نمت أنفسنا وباب التوبة مفتوح .

وهذا إمعان في المعصية . وكأنهم أخذوا على الله عهدا أن يقبهم الى مابعد المعصية ، وأن يمهلهم حتى تحسبوا من التوبة إذا كانوا يريدونها ، وماعلموا أن الموت قد يفجأهم فلا يكتفون من توبة ، ولا يوقفون لآثاء ، وهناك يندمون ولا ينفعهم الندم ، على أن ذلك القول ليس من شأنه أن يصدر من رجل حريص على التوبة ، وإنما يصدر من رجل لا يبالي أعصى الله أم أطاعه ، أرضاه أم أسخطه ، وإلا فكيف يحصر على التوبة من يقدم على عصيان الله تعالى راضيا مختارا ولا هم إلا لإرضاء شهوة نفسه ، معتمدا على أن يصلح ما بينه وبين الله بعد ذلك العصيان .

والشأن في المؤمن أن يكون خائفا وجلال من عصيان الله تعالى ، ولا يقع فيه إلا لأسباب وقتية جاهلة ، و : والمأزول المعصية كالرجل الطيب الخلق الواحد لا يسيء أحدا أو يشتمه إلا إذا طرأ سبب قاهر كأن أغضبه أحد أو حرك فيه داعية الانتقام ، فوقع منه على خلاف العادة سب أو لعن ، فإن ذلك الحدث النادر لا يخرج عن أن يكون طيب الخلق وادع النفس ( إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليهما حكما «١٧» (٣) ) وكذلك يقال إذا قلنا للمراد من قوله (صالحين) أى يصلح ما بينكم وبين أبيكم بغير تمهيدونه فإنه تعليل بالأمانى ، وكأنهم يتفعلون بأبهم يعقوب عليه السلام بذلك القول فيما بينهم ، ويقولون نعمل يوسف مانعمل ، وبعد ذلك فسلح أبانا ونرضيه ، وهو شيء حين ، وما دروا أن ذلك العمل سيحرج عليهم مغارم ، وأن أباهم سيتألم منهم لما لا يحسد ، وستسوء العلاقة بينهم وبينه حتى لا يكون فيها شيء من الإصلاح ، ولكن الشيطان يهون على الإنسان المعصية ، ويريه أن الخلاص من آثارها أسهل شيء على النفس ، ومن شأنه دائما أنه إذا زين للرجل سوءا يفسده عاقبه التي تحل به ، ويريه أنه من السهل عليه الفرار منه ، فإذا كان سارقا أراه أنه في استطاعته أن لا يعلم به أحد ، وإذا اعترضه أحد في الطريق فتك به وخلص منه ، وإذا زين له زنا أراه أن في استطاعته أن يعمل ذلك العمل وهو بعيد عن الرقباء حتى لا يفضح أمره ، وإذا زين له القتل أوحى أنه قل أن تتوفر عليه شهادة الشهود حتى يقتل في ذلك القتل ، وهكذا وهكذا .

(٣) قال قاتل منهم لا تقتلوا يوسف) الخ : أى إن ذلك القاتل وهو واحد منهم لم يسمه الله لنا لأن العبرة لا تنوِّق على معرفة اسمه - قد خالف إجماعهم واستعظم القتل ، وأشار بالقائه في غيابة الحب : أى قهره ، سعى به لغيوبته عن العيون ، والحب : البئر الكبيرة التي لم تكن ، وسعى بذلك لأنه جب : أى قطع ولم يطر ( يلتقطه بعض السيارة ) يأخذه من البئر ويرفعه منه بعض الذين يسرون في الأرض ( إن كنتم فاعلين ) أى إن كنتم مصريين على عمل يتعلق بيوسف ، ويشير بهذا التعليق إلى أنه متألم من ذلك العمل ، ولكنه يشير بذلك لأنه أقلّ أثرا من القتل ، وفيه توفيق بين أغراض إخوة يوسف وبين مصلحته بوضعه في ذلك المكان على بعض المارّة يلتقطه فيحفظ حياته .

ومنه نعلم أن القوم أو الجماعة إذا قسوا وغلظت منهم الكباد لانعدم أن نجد فيهم من رفق قلبه ، وغلب عليه الشفاق ، فإخوة يوسف أصروا على قتل أخيهما أما يكون ذريعة إلى ذلك القتل ، لكن واحدا منهم أشار عليهم بعدم القتل رجاء أن يكون في ذلك رأى مصلحة ليوسف وإنقاذ حياته ، ويظهر أن داعي الشفقة قد تغلب على داعي الانتقام لأنهم إخوة قبل كل شيء ، فنزلوا على رأى ذلك القاتل ، وعدلوا عن قتله ( قلوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ) اعتراف منهم بأن يعقوب عليه السلام كان يحسنّ منهم بما يوجب عدم أمنهم عليه ، فأخذوا يسألونه عن السبب ويعجبون منه : أى لم نخافنا عليه ونحن نريده الخير ونشفي عليه ، وذلك قوله ( وإنا له لناصحون ) يحاولون أن ينزلوه عن رأيه في حفظه منهم ، والحيولة بينهم وبينه .

ثم أخذوا يرغوبه بما يحبه في تركه لهم ، فقالوا ( أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ) يريدون أنه يشترك معنا في التمتع بكل القواكه ونحوها ، من الرنّة . وهى الخصب والسعة ، وشاركنا في الألعاب التي تعودناها بالاستباق والصيد ولركض وغير ذلك ( وإنا له لحافظون ) من أن يناله شيء من الأذى ، وقالوا ذلك بأسلوب المؤكد لأن يعقوب كان شديد الحرص على ولده يوسف وكان سبي الاعتقاد في إخوته ، فبالقوا في دعوى حرصهم عليه ، فقالوا [ أولا ] وإنا له لناصحون و [ ثانيا ] وإنا له لحافظون .

( قال إني ليحزنني أن تذهبا به وأخاف أن يأكله الذئب وأتم عنه غافلون )  
أراهم أن ذهابهم بيوسف محزن له ، ويخشى من تركه معهم أن يأكله الذئب في وقت يغفلون عنه فيه .

ومنه نعلم أن يوسف كان صغيرا في ذلك الوقت ، لأن الذى يخشى عليه من الذئب هو الصغير والذى يضل عنه إخوته ويكون معرضا للخطر لهذه الغفلة هو الصغير . أما تحديد سنه في ذلك الوقت فلا سبيل إليه إلا بوحى عن المعصوم . وهنا تتجلى شفقة الآباء على أبنائهم الصغار وحنانهم عليهم في وقت الضعف ، ولو علم الأبناء ما تقاسيه الآباء في سبيل حرصهم على حياتهم ما فكروا ولله عقوق والديه ، وما تأفف منهما عند الكبر والضعف عن الكسب ، وهذه الشفقة التي يضعها الله تعالى في قلوب الوالدين هي لحكمة بالغة وغايات سامية ، وهي بقاء النسل وعمارة هذه الحياة ، ولولا تلك الشفقة ، وذلك العطف البالغ مات الأبناء جوعا ، وتركوا للطواريّ تفعل بهم ما تفضل ،

ونعترضوا لأخطار لا قبل لهم بها ، وهلكوا من الجهل وسوء التربية ، ولكن حكمة الله تعالى . قضت بأن يجعل في قلوب الآباء ذلك الحنان والعطف وتحت تأثير هذه العوامل تفيض الأبناء ، وتربى التربية السالمة ، ويضحي في سبيل حياتهم السالمة ومستقبلهم المرجو من شقاء الأبورين ما يضحي ، ولولا أن هذه العاطفة التي أودعها الله في الأبورين قد يكون معها جهل الأبورين بوسائل السعادة للأبناء . - لآت هذه العاطفة أكلها كل حين باذن ربها ، وأثمرت ثمرتها السالمة ، ولكن الجهل في كثير من الآباء يجعل هذه العاطفة شراً مستطيراً على الأبناء ، وخطراً على أخلاقهم وحياتهم .

ألا ترى الى الأمّ الجاهلة بوسائل التربية كيف تعطي ولدها من الأطعمة الغليظة ما يفسد معدته ، ويجعل حياته ضعيفة ضئيلة ، وبذلك يكون مستعداً للأمراض معرضاً للافات ، بل قد نرى من بعض الأمهات الجاهلات من تكون حاملات بين الولد وبين شفائه إذا أوجد الطبيب له من الأدوية ما تعود به محنته ، وما جعلها على ذلك كراهتها لصحة ولدها ، وإنما هو الجهل يريها النافع ضاراً ، والضار نافعا ، وقد يصاب الولد بمرض خيف يوجب على أبويه أن يذهب به الى مستشفى من المستشفيات العامة حتى لا تنتشر العدوى فيمن يتصل به من إخوته وأبويه ، فتقف الأمّ الجاهلة أو الأب الجاهل حجر عثرة في سبيل نقله من البيت وإسعافه بالعلاج الناجع حيث المستشفيات العامة المستعدة لثل هذه الأمراض ، فان وجوده بالمستشفى ومعه أطباء كثيرون فيه استعداد للطوارئ ومضاعفات المرض ، أما البيوت فانها لم تعد لثل ذلك ولا سيما إذا كانت بيوت فقراء ، فانها لم تن على قواعد الصحة ، ولم يتوفر فيها من الهواء الطلق ونظافة البقعة ما يساعد المريض على شفائه من المرض ، بل هي بما اشتملت عليه من القذارة ورداءة الموقع وحث الهواء تضاعف المرض ، وتحول دون الشفاء ، كل ذلك من جهل الآباء وتحكيم العاطفة تحكيمياً أعمى . ثم قد نرى من النساء الجاهلات حيولة بين الولد وبين تربيته لأن أستاذة قسا عليه يوماً ، فتكون تلك القسوة سبباً في حرمانه من التعليم ، وبقائه في ظلمات الجهل والفساد ، وقد يتعلم الولد قليلاً ناقصاً ثم يريد الحكومة أن تكمل له التعليم وترسله في بعثة الى بلد أجنبي ، فيكون الحائل بين الولد وذلك الخير أمه الجاهلة حرصاً منها على مصلحة ولدها فيما تزعم ، وخوفاً عليه من [ الغربة ] والذهب في ذلك كله لم يكن على الأم وإمّا هو على من أمهاتها وتركها بدون تربية حتى نشأت على ذلك الجهل الفاضح ، وتحكمت في بنينا ذلك التحكم باسم العاطفة الجاهلة ، لا باسم الحق والإنصاف ، ولو أنها فعلت لتصرفت تصرفاً معقولاً ، فلم تتقلب عاطفتها على عقلها ، بل سارت مع العقل جنباً الى جنب ، وخافت على ولدها في موضع الخوف ، وأمنت في موضع الأمن ، وشجسته على الأسفار ، وغرست في نفسه محبة الجود ، والاستهانة بالمشاق والعقبات . ومتى يمت الله علينا بتلك الأمّ وذلك الوالد ؟ ومتى تكن الآباء قدوة سالمة للأبناء ، ومثالاً يحتذى في الخير والفضيلة والشجاعة الأدبية ؟ .

نسأل الله أن يجعل ذلك الزمن قريباً ، وأن يهد لنا أسباب السعادة ووسائل الحياة الحقة .

( قالوا لن أكله الذئب ونحن هببة إنا إذا خالمرون ) يريدون أن يؤكدوا لأبيهم يعقوب .

عليه السلام أنه لا يمكن أن يسلط عليه الذئب الذي تخشاه ، لأنهم جماعة أقوياء قادرين على دفع الذئب عنه ، ولو حصل ذلك لكانوا جماعة خاسرين وخسفاً لا يستطيعون حفظ مواشيهم ، ولا حراسة أموالهم ، وأى خسارة أكبر من أن يهاونوا في أخبيهم حتى يهدر عليه الذئب ؟

اعتذر لهم نبي الله يعقوب بأمرين : [ الأول ] قوله ( إني ليحزنني أن تذهبوا به ) . [ الثاني ] قوله ( وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ) . وقد أجابوا أباهم عن الثاني ، أما الأول فأعرضوا عنه ، لأن حزن يعقوب عليه السلام على ولده هو الذي كان يغيظهم ، فكان من المعقول أن يعبروا ذلك العذر آذاناً صماً ولم يجيبوا أباهم عنه .

(٤) فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجملوه في غيابة الجب ( الخ جواب لما محذوف تقديره أقدموا على فعلهم ، وقد أكثر المفسرون فيما حصل من يوسف عند إلقائه في الجب من أحاديث البكاء والامتناع وغيرها ، ونحن نمسك عنها لأنه لا طريق لاثباتها إلا خبر المعصوم ، وليس عندنا خبر صحيح فيها ) وأوحينا إليه لنذنبهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ( أى ألهم الله يوسف ليخبرن إخوته بصنعهم هذا به بعد اليوم ، وهم لا يشعرون عند إخبارهم بأنك يوسف ، أو وهم لا يشعرون بما أوحينا إليك ، والقصد من هذا الإلهام تأنيس يوسف وتقوية قلبه وهو في ظلمة الجب ، وبشارته بما يؤول إليه أمره من الخلاص من هذه الشدائد والمحن ، وأنه يستولى عليهم ويصيرون تحت قهره وسلطانه ، والله هذه البشارة في ذلك الوقت العصيب ، ما أوردنا على قلب يوسف ، وما أوحى يوسف إليها ، أنها بشارة تهوّن عليه المصاعب . وتشدّ قلبه على الصبر ، وتعطيه قوة معنوية تجعل الصعب أمامه سهلاً ، وتحوّل به الظلمة نورا ، والشدّة رخاء ، والوحشة أنسا ، كيف وهي بشارة من خلق يوسف وربّ يوسف وإخوته ، يريه فيها أنه سيأتي عليه وقت يطلع فيه إخوته على ما كان منهم مع أخبيهم ، وأنه سيخلصه من هذه الشدائد مرموقا بهناية الله ، مكنوفا بحياطته ، ومن ظفر بهذه البشارة فهو جدير بأن يرضى بكل ما يليق من شدائد ، وما يعمل به من مكروه .

وان عظماء الرجال ليستعدّون الموت ، ويستهيئون بالتعريب والنفى في سبيل آمال عظيمة ، قد استولت على نفوسهم ، وتعلكت مشاعرهم ، وفي هذه الآمال يتسلّون على المصائب ، وتشتدّ العزائم ، وتقوى الرغائب ، وأن هذه الآمال أيا كانت درجاتها لم تصل إلى حدّ الوحي الإلهي فكيف إذا كانت وحيا من الله ، وبشارة صادقة ، يشعر صاحبها بعلم ضروري أن ما فيها حق لا باطل فيه وصدق لا كذب معه ، لاشك أن القلب إذا بشر بأمثال هذه البشارة يكون موقف صاحبها من الشدائد فوق موقف صاحب الآمال ، ومنزله من المصائب التي تحمل به منزلة المستهين المستخف . وجلة القول أن بشارة يوسف عليه السلام بمآل أمره عناية عظمى من الله به في ذلك الوقت العصيب ، ورعاية كبيرة من علام القيوب في وقت من شأنه أن تتزلزل فيه القلوب ، وتضطرب له الأفئدة ، ودرس من دروس التربية يتقدّم الرسالة التي تتطلب من صاحبها جدّا وعزما .

( وجاءوا أباهم عشاء فيكون قالوا يا أبانا إنا ذهبنا فنبقى وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ) بعد أن فعلوا فعلتهم المنكرة ، جاءوا أباهم آخر النهار يتصنعون البكاء ، منورين في

أنفسهم عنرا باطلا ، وسببا كاذبا ، هو أنهم ذهبوا للاستيقا وتركوا يوسف عند المتاع فأكله الذئب ، وقولهم ( وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ) أى ما أنت بمصدق لنا ولو كنا صادقين لسوء ظنك بنا ، وفروط محبتك ليوسف ، أو ولو كنا من أهل الصدق ، فكيف مع سوء ظنك بنا ؟ وقولهم ( وما أنت بمؤمن لنا ) إحساس منهم بجرامهم ، وشعور بأنهم لا يقع قولهم من أيهم موقع القبول والرضا ، ( كاد المرتاب أن يقول خذوني ) وهو أسلوب من شأن الكاذب أن يلجأ إليه فيعاجل من يتهمه بمثل ذلك القول ، ويقول له : مهما قدمت لك من أدلة ، وذكرت لك من براهين ، فأنت سيء الظن في ، لاتصدق لى قولنا ، ولاتقبل منى دليلا .

( وجاءوا على قيصه بدم كذب ) وصف بالمصدر للبالغة كأنه نفس الكذب وعينه ، كما يقال للكذاب هو الكذب بعينه ، والزور بذاته . قيل انهم ذهبوا سحلة ولطخوا القميص بدمها ، وفاتهم أن يشقوه ، فقال يعقوب كيف أكله الذئب ولم يشق قيصه ؟ فاتهمهم بذلك ، والقرآن لم يبين لنا طريق الدم ولا الحيوان الذى أخذ منه ، وإنما أخبرنا أن الدم كذب وزور .

أماملاحظة يعقوب عليه السلام على ذلك القميص الملوّث بالدم فهى ملاحظة عقل وفكر ، لأن الذئب إذا أكل طفلا فالشأن فيه أن يمزق قيصه ، فبقاء القميص سالما من التمزيق عنوان كذب هذه الدعوى ، وما أشبه ذلك بدعوى امرأة العزيز أن يوسف أراد بها سوءا ، فجاء الشاهد الذى هو من جهتها وقال ( إن كان قيصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قيصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين فلما رأى قيصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم ) وهو تحكيم للقرآن ، لأن الشأن في المرتاب أن يتأخر ويجزء البرى الى الباب ، فإذا كانت امرأة العزيز صادقة كان تزيق قيصه من أمام ، لأنها تجزء منه الى الباب وهو يمتنع عليها ، وإن كانت كاذبة يكون هو الذى يسارع الى الباب ليشتكوها الى سيده ، فتجزءه لتفحصه فيمزق قيصه من خلف ، فلما رأى القميص قد من دبر قال العزيز لاسمرانه ( إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم ) ( قال بل سؤلت لكم أنفسكم أمرا ) أى قال يعقوب ليس الأمر كما تدعون ، بل زينت لكم

أنفسكم أمرا عظيما ارتكبتموه مع يوسف ( فصبر جيل ) أى فأصرى صبر جيل ، أو فصبر جيل أمثل من الشكوى ، وإذا لم يكن الصبر من نبي الله يعقوب على مصيبته في ابنه وفلذة كبده جيلا فمن يكون ؟ ( والله المستعان على ما تصفون ) أى على احتمال ما تصفون من هلاك يوسف ، ونبي الله يعقوب قدوة صالحة في الصبر على المصائب ، واحتمال المنكارة والرجوع الى الله تعالى في أن يربط قلبه على الحق ، فلا يجد السخط إليه سبيلا . وما أجدرنا بالتأسي به في مثل ذلك المصاب ، والرجوع الى الله تعالى كما رجع يعقوب عليه السلام . والصبر الجليل هو الذى ليس معه شكوى للخالق وبث حزن اليه ، ونبي الله يعقوب كان على ذلك الحال ، فقد قال حينما اشتد به الحزن وأقزع الأسي ( إنما أشكو بثي وحزني الى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون ) لأنه رسول ومن شأن الرسول ذلك ، فلا بد أن يكون صبره جيلا ، وإن الصبر على أمثال هذه المصائب هو جهاد للنفس ومحاربة للهوى ، وإرغام للشيطان ، وما أحوج صاحبه الى أن يستعين بربه على ذلك الجهاد

المرة ، والعمل الشاق ، ولا عجب أن يجعل الصبر نصف الإيمان لهذه الاعتبارات .

(٥) وجاءت سيارة فأرسلوا واردم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام وأسرته بضاعة والله عليم بما يعملون) جاء رفقّة يسبرون من مدين الى مصر ففزلوا قريبا من الجبّ ( فأرسلوا واردم ) الذى يتقدّم الرفقة الى الماء فيجئ الأرشية والهداء ، يقال أدليت البئر إذا أرسلتها في البئر ، ودلوها إذا أخرجتها ، فرأى يوسف معلقا بالهداء ، أو رآه في قعر البئر وهو ينزع الماء ، أو على حفرة في البئر ، كلّ محتمل ، وقوله ( يا بشرى ) نداء لما : أى هذا أو أنك فاحضرى ، كأنه يقول لأصحابه أبشروا ، وقرئ يا بشرى بالياء ( هذا غلام ) ولم ينزعج الوارد من تعلق يوسف بحبال الهداء أو رؤيته في قعر الجب بل استبشر ، لأن يوسف كان حسن الطلعة جميل الوجه ، ومن يراه لا يستطيع أن يجد الحزن إليه سبيلا ، فانطلق لسانه بالبشرى ونداء الأصحاب ، وقوله لهم : هذا غلام ، ولو كان المرئى غير يوسف لفزع الوارد من رؤيته في ذلك المكان الذى لم يؤلف فيه وجود غلمان ( وأسرته بضاعة ) أى أخى الوارد وأصحابه أمر يوسف عن بقية الرفقة خيفة أن يطلبوا منهم الشركة فيه ، بل يختصّ به الوارد وأصحابه دون بقية السيارة ، والبضاعة ما يبيع : أى قطع من المال للتجارة ، أو الضمير للسيارة جميعها ، لا لاطاعة منها ، أى ان هذه السيارة أخفت أمر يوسف فم تذعه على أنه لقيط ، بل أخفت أمره وادّعت أنه بضاعة وصلت إليهم كبقية الأموال ، ولعل حكمة ذلك خوفهم أن يكون تبعا لقوم ضل الطريق منهم فوقع في البئر ، فلو أذاعوا أمره على أنه لقيط لوصلهم أذى من قومه ومتويعه ، ولذلك أخفوه على أنه مال كبقية الأموال .

( والله عليم بما يعملون ) وعيد للسيارة بأن الله يعلم عملها وسيحاسبها عليه ، لأنه ما كان لهم أن يسقبضوا مالمس لهم ، أو الضمير لاختوة يوسف ، فهو وعيد لهم على ما صنعوا مع أخيهم يوسف ومع أبيه يعقوب عليهما السلام .

( وشروه بثمن بخس ) باعوا يوسف بثمن مبخوس ناقص عن القيمة لمثله نقصا فاحشا ، وقد بين ذلك الثمن القليل بقوله ( درهم معدودة ) ومن شأن المعدود أن يكون قليلا ( وكانوا فيه من الزاهدين ) الراغبين عنه ، ولذلك باعوه بثمن طفيف ، ولقد كان زهد السيارة في يوسف على جلاله وحسن طلعته لحكمة عالية ، وهي بيعهم له من عزيز مصر ، وكان من أمره مع ذلك العزيز ما كان مما يشيرحه القرآن الكريم في الآيات الآتية ، ورب متهود فيه عند قوم مرغوب فيه عند آخرين ، وقد يثر الطفل أو الجاهل على المرأة فيظنها حجرا عاديا فيلقها الى من يعرف قيمتها ويعلم مقدارها .

( وقال الذى اشتراه من مصر لاسرائئله أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ) قيل ان الذى اشتراه قطيفر صاحب أمر الملك ، وكان على خزائن مصر ، وكان يسمى العزيز ، وليس عندنا نصّ قاطع على أن اسرائئله كانت تسمى زليخا أو راعيل ، والعمرة لا تتوقف على معرفة الأسماء ، ولذلك لم يعرض القرآن لها فسواء علينا أجمعت الروايات التاريخية بها أم لم تصح ، وقوله ( أكرمى مثواه ) أى اجعلنى مقامه عندنا كريما وحسنا : أى أحسن تهمة ( عسى أن ينفعنا ) في ضياعنا أو أموالنا ، ونستعين به على مصالحنا ( أو نتخذه ولدا ) تنبأه ، ويظهر أنه كان عقيبا

وقد تفرس الرشد في يوسف ، ويحتمل أنه لم يكن عقيبا ، ولكنه أحب يوسف وقال لآمناع من تبنيه ، لأنه تفرس فيه حسن المستقبل وعظمة التاريخ .

قال العلماء : أفرس الناس ثلاثة . عزيز مصر . وابنة شعيب التي قالت يا أبت استأجره ، وأبو بكر حين استخلف عمر .

( وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ) أى وعلى ذلك النحو الذى رأيت ، والصنع اللطيف الذى قدمناه بانجائه من كيد إخوته ، وتعطيف قلب عزيز مصر عليه ، مكنا له في أرض مصر ، إذ صار واحدا من بيت العزيز الذى هو على خزائن مصر ، وصاحب أمر الملك ( ولنعلمه من تأويل الأحاديث ) أى صنعنا به من أطفافنا الخفية ما صنعنا ( والله غالب على أمره ) لا يردّه شيء في أمر يوسف ولا في غيره ، وقد أراد أخوة يوسف أمرا ، ودبر الله غيره ففعلهم ( ومكروا مكرا ومكروا مكرا وهم لا يشعرون « ٥٥ » )<sup>(١)</sup> ( ولكن أكثر الناس لا يعلمون ) لطائف صنعه ، وخفايا لطفه ، وإن الشر الظاهر قد يكمن فيه الخير الكثير ، كما حصل ليوسف في الحب ، وأن الخير والنصر الظاهري قد يكون وراءه الندامة والحسرة ، كما نصر أخوة يوسف ورموه في الحب ، ثم انتهى الأمر بأن صار سيدهم ، وأن ما فعلوا به كان من أسباب ارتقائه .

وقيل ( وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ) أى جعلناه ملكا في أرض مصر ليقم العدل ويدبر أمور الناس ( ولنعلمه من تأويل الأحاديث ) فيعلم معاني كتب الله وأحكامه ، وتعيير المنايات ، والمراد أن الله تعالى كما أنجاه من كيد إخوته ، وعطف قلب العزيز عليه ، جعله ملكا على أرض مصر ، لأن ذلك هو المتبادر من كلمة ( مكنا ) كما قال ( وزيد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض وزرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون « ٥٥ » )<sup>(٢)</sup> فالتحكين في الأرض : جعله صاحب مكانة فيها وثبت قدمه عليها ، وكأنه جبل شامخ لا يستطيع أحد أن يزلله عن مكانه ، وذلك لا يكون إلا بقوة التي أعطاه الله إياها ، والنفوذ والسلطان الذى حصل عليه .

ثم عقب ذلك بقوله ( والله غالب على أمره الخ ) ليرينا أنه لا غرابة فيما صنعه الله تعالى مع يوسف ، لأنه غالب على أمره ، ولا راد لقضائه وحكمه ويظهر أن كلمة [ ملك ] التي جرت في عبارة المفسرين يريدون بها صاحب السلطان والنفوذ ، فهي ترادف كلمة [ سلطان ] ولذلك جاء في هذه السورة ( وقال الملك اتقوني به أستخلصه لنفسي ، فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين ، قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ، وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ) فالتحكين في الأرض في هذه الآيات هو التحكين في تلك ، وإنما يراد به أن يكون وزيرا نافذ الكلمة صاحب حول وطول ، ولم يرد بقوله ( اجعلني على خزائن الأرض ) أن يتقارل له عن ملكه ، لأن ذلك غير معهود طلبه من الملوك ، وكذلك لم يعهد أن الملوك تجيب إليه على فرض طلبه منها ، فمالك لما أحبه وطلب أن يحضروه ليستخلصه لنفسه ، وشهد له بالأمانة والمنزلة طلب منه يوسف لذلك أن يولى خزائن الأرض لأنه حفيظ عليم ، وقد أجابه إلى ذلك ، فأصبح بهذه التولية صاحب أمر ونهي ، وصار وزيره له مكان العزيز .



( ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحنين ) تكملة قصة يوسف عليه السلام ، فبعد أن قصّ علينا رويّه ، وحسد إخوته له على محبة أبيه ، ومكرهم به وإحباط ذلك المكر ، وتعطيف قلب عزيز مصر عليه حتى وصل الى ما وصل إليه من النفوذ ، أرانا أنه لما بلغ أشده : أى انتهى استعداد قوته ( آتيناه حكما وعلما ) قبل الحكم : هو الحكمة . وقيل : العلم المؤيد بالعمل . وقيل : قوّة الحكم بين الناس والقضاء في مصالحهم ، أو الحكم هنا حكم النبوة ، و ( علما ) أى فقها في الدين وتكبرهما للتفخيم : أى حكما وعلما لا يعرف كنههما ولا يقدر قدرهما والآية ليست نصا في نبوة يوسف عليه السلام ، وإنما بدلت على ذلك آيات أخر كآية ( ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فارتلم في شك عما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا «٣٤» )<sup>(١)</sup> ( وكذلك نجزي المحنين ) أى كما جزينا يوسف على صبره بالعلم النافع والحكمة الصالحة نجزي كلّ محسن على احسانه .

### يوسف عليه السلام

وَرَوَدْنَاهُ آلِي هُوفٍ فِي يَتْنَاهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ<sup>(٢)</sup> لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ «٢٣» وَلَقَدْ هَمَّتْ<sup>(٣)</sup> بِهِنَّ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَى الْبُرْهَانَ رَبَّهُ كَذَلِكَ لَنَصْرَفَ عَنْهُ الشَّوْءُ وَالْفَحْشَاءُ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ «٢٤» وَأَسْبَقَ الْبَابَ وَقَدَّتْ قَيْصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ «٢٥» قَالَ هِيَ رَوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَيْصُ قَدْ مِنْ قَبْلِي فَصَدَقْتَ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ «٢٦» وَإِنْ كَانَ قَيْصُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبْتَ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ «٢٧» فَلَمَّا رَأَى قَيْصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنْ كَيْدُكُمْ عَظِيمٌ «٢٨» يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ «٢٩» وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا<sup>(٤)</sup> حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ «٣٠» فَلَمَّا سَمِعَتْ

[١] ظافر . [٢] قال ، وقرأت بنت بكر الماء وضم اللام : تيات .

[٣] لتنقم منه لأنه لم يطاوعها ولم يبا ليدفع عن نفسه . [٤] خرق جبه شفاف قلبا حتى وصل

الى القواد ، والشفاف : حجاب القلب .

بِكْرِهِمْ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكِنًا وَهِيَ آتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ  
سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْتَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ  
حُشَّ<sup>(١)</sup> اللَّهُ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ<sup>(٢)</sup> قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي  
لُمْتُنِّي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدُّنَّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَوَسْتَعَصَمَ<sup>(٣)</sup> وَلَكِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا أُمِرُهُ لِيُصْجَبَنَّ  
وَلِيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ<sup>(٤)</sup> قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ  
وَلَا أَتَصَرَّفُ غَيْرَ كَيْدِهِنَّ<sup>(٥)</sup> أَنْصَبُ<sup>(٦)</sup> إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ<sup>(٧)</sup> فَاسْتَجَابَ  
لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ<sup>(٨)</sup> ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ  
بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لِيُصْجَبْنَهُ حَتَّىٰ حِينٍ<sup>(٩)</sup> يوسف

### شرح وعبرة

(١) (ورأوته التي هو في بيتها عن نفسه) الخ ليس المراد أن يوسف عليه السلام وقع له  
ذلك الحادث بعد أن آناه الله حكماً وعلماً كما هو الظاهر من ذكره بعده ، لأن القرآن كما قلنا غير  
صريح ليس من أغراضه أن يذكر الحوادث مرتبة على حسب أزمنتها كما هو الشأن في كتب التاريخ  
بل مهمة القرآن مهمة هداية وعبرة ، فقد يذكر القصة ويبدأ فيها بالحادثة قبل حادثة تسبقها في  
الزمن لأنها أهم منها ، ولحكمة قضت بذلك ، والله تعالى أراد أن يرينا قصة يوسف في صغره  
وعطف أبيه عليه ، والنام الذي رآه وقصه على أبيه ، وتحذير أبيه له أن يقصه على اخوته  
فيكيدوا له كيده .

ثم انتقل الى حسد اخوته له على هذه المحبة ، وتدمير مكيدة له .

ثم عقب ذلك بمطالبة أبيهم أن يتركه ليشترك معهم في السباق والتمتع ، وخوف أبيه عليه ،  
ثم حادت إقامته في البر والتقاط بعض السيارة له ، ثم يبعه الى رجل من مصر ، ثم تمكنه في  
الأرض واعطائه حكماً وعلماً ، ثم تعليل ذلك بقوله ( وكذلك نجزي المحسنين ) أى كما جزى  
يوسف على احسانه نجزي كل محسن .

ثم شرح لاحداثاً من حوادث احسان يوسف الذي جزاه الله عليه فقال ( ورأوته ) الخ الآيات  
فقصة المراودة ، وسجن يوسف ، وظهور براءته ، كل ذلك من احسانه الذي كافأه عليه  
بالحكم والعلم ، وكل ذلك كان قبل أن يسلمه الله على مصر ، ويختاره الملك على خزائن أرضها .  
والذي جرى امراهة العزيز على صراوته أنه كان خادماً عندها في البيت ، فطمعت فيه كما يطمع  
النساء الخدومات في خدمن ، بل كانت تظن أنها ستجاب الى ماطلبت وهي صاحبة الفضل عليه  
شأن سائر النساء اللاتي يكن مثلها في النفي والجاه والسلطان الذي سرى اليها من زوجها العزيز ،

[١] بعدا منه وتزويهاً له . [٢] امتنع بشدة وقوة . [٣] أمل ، من الصبوة وهي الليل الى الهوى .

ولكن يوسف عليه السلام أراها أنه لم يكن خادما عاديا ، بل هو فني ذو خطر كبير ، وشأن عظيم ، وإن الله تعالى سيختاره لخدمته قبل أن تصطفيه امرأة العزيز لقضاء لباتها ، وأنه أجل وأعظم من أن يكون خادما لامرأة شهوانية ترضى عنه إذا هو خالف ربه ومولاه ، وتغضب عليه إذا هو اعتصم وحافظ على أخلاقه ودينه (ورأوته) من راد يرود إذا جاء وذهب : كأن المعنى خادعته عن نفسه وفعلت مايفعله المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لايريد أن يخرج من يده يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه ، وهي مفاعلة من طرف واحد نحو مطالبة الدائن ، ومعاملة المدينون ، ومداداة الطبيب ، ويصح أن يراد بصيغة المفاعلة مجرد المبالغة في الاحتيال ، والمتمحل في مواقفه ايها .

وفي ذكر الموصول ، ويبان أن يوسف في بيتها وتحت سلطاتها ، ثم تعلق الأبواب واستعدادها له : اعلاء لشأن يوسف ولأن ذكر الاسم فضيحة . وكونه في بيتها وتعلق الأبواب ، كل ذلك داع الى الموافقة ، فإن المستر لاسيا مع من يملك أمره يفعل مايفعله الذي استبان فعله وانكشف حاله ، فالحقة مع هذه الأحوال ، وتسهيل سبيل الفاحشة ، وتوفير أسبابها - أرقى ماوصل إليه الأخيار وقوله ( غلقت ) يشير الى أن الأبواب كانت كثيرة (وقالت هبت لك) أى أقبل وبادر ، وقرئ ( هبت لك ) أى تهيأت لك ، من هاه يهيء كجاء يجهى : إذا تهيأ .

( قال معاذ الله ) أعوذ بالله معاذا أن أقع في مثل ذلك ، وهي كلمة تدل على النفور من المعصية والاشمئزاز ، وذلك هو المنتظر من فنى أعده الله لأن يكون رسولا ، وقودة صالحة في الخير ، ومثالا يحتذى في البعد عن المآثم ، ولم يرد يوسف عليه السلام أن يقف عند حد تقوده بربه ، وتحسنه به من إجابة امرأة العزيز الى ماطلبت ، فأضاف الى ذلك قوله ( إنه ربى أحسن مثواى ) والضمير لله تعالى ، والرب هو المربى له بنعمته الظاهرة والباطنة ، وهو الذي حفظه في الجب ، وعطف عليه قلب العزيز ، وأنجاه من مكر اخوته ، وإذا كان هذا فعل الله معه ، فكيف يقابل ذلك الاحسان بالاساءة ؟ وكيف يقارف امرأة ليست له بزوجة ؟ ثم عقبه بقوله ( إنه لايفلح الظالمون ) يريد أنه إذا فعل ماطلب منه كان ظالما ، ولم يكتب الله للظالمين فلاحا ، وإنما عظمهم دائما الخيبة والخسار ، [فأولا] استعاذ بالله ، ثم علله بقوله : إنه ربى أحسن مثواى ، ثم بقوله : انه لايفلح الظالمون .

وقيل الضمير في قوله ( إنه ربى أحسن مثواى ) للعزيز ، والمراد أنه رب البيت ورئيسه ، أو سيده الذي ربا في بيته ، وجعله تحت رعايته وكنفه ، وقوله ( أحسن مثواى ) أى أكرم زلى ، وإقامتي بيته ، وأوصى امرأته بذلك ، إذ قال لها ( أكرمي مثواه ) ولايليق أن أقابل ذلك الاكرام الذي تقدم به العزيز باسائة ، ومن اللؤم أن أخونه في أهله ، ولو فعلت ذلك كنت ظالما ، ولايفلح الظالم ، ولأمانع من إرادة كل من المعنيين لكلمة (ربى) والمراد أن إجابتها لماطلبت إغضب الله تعالى الربى لنا بنعمه ، وخيانة لصاحب البيت ، ومقابلة للحسنة بالسيئة ، حيث أوصى امرأته أن تكرم مثواى ، فلايليق في أن أقابل ذلك الاكرام باسائة ، لأنى لو فعلت ذلك كنت ظالما مع خالتي ، ومع رب البيت ، ولا أرضى لنفسى ذلك الخلق ، ومهما يكن من شيء فإن

يوسف غير مستعد لأن يجيب المرأة الى ماطلبت ، وتافر نفورا شديدا من السير في ذلك الطريق الوعر الذي يغضب الله ويستخطه ، ويجعله رجلا لثما يحدد الجليل وينكر الاحسان .

ولعل في عفة يوسف عليه السلام ، وقوله في شأن العزيز (انه ربى أحسن مثواى) عبرة لقوم انحطت نفوسهم ، وتدنس أخلاقهم ، وفقدوا معنى كرم الطبع وشرف النفس ، فلم يتعفوا أن يفسقوا بامرأة جار أو قريب أو صاحب فضل ، لعل هناك عبرة لهؤلاء الذين أغضبوا ربهم . وقطعوا حقوق جيرانهم وأقربائهم ، ونسوا قول الرسول صلى الله عليه وسلم «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» (١) «كانسوا حق القرابة ، وأن الزنا بامرأة الجار عذابه مضاعف . وكذلك الزنا بامرأة القريب فاحشة وقطيعة رحم ، لأن الشأن في الزنا أن يؤرث عداوة في القلوب ، ويترك أثرا غير محمود ، فإذا قال نبي الله يوسف (انه ربى أحسن مثواى) فليقل الرجل إذا سؤلت له نفسه أن يفسق بحيلة جاره [انه جارى أحسن جوارى] وإذا سؤلت له نفسه أن يفجر بامرأة قريبه يقول (انه قريبى قد وصل رحى) وكذلك إذا زينت له نفسه أن يواقع امرأة صاحبه يقول (انه صاحبي أحسن الصحبة) .

وجلة القول أن نبي الله يوسف كان مثالا صالحا في الوفاء ، ورعاية حق المحسنين ، ومقابلة الاحسان باحسان مثله . فليكن لنا عبرة في ذلك الرسول ، واتعاط بسيرته وأخلاقه .

(٢) (ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) يستطيع القارئ أن يفهم المراد من هذه الجمل بعد أن سمع أن نبي الله يوسف أجاب امرأة العزيز تلك الاجابة الجافة التى تدل على فقرته من المعصية ، وتعليل ذلك النفور بقوله (انه ربى) الى آخر الآية ، ويستطيع القارئ أن ينزه نبي الله يوسف بما شحن به بعض كتب التفسير مما لا يطبق بغيره الله لأن يكون رسولا وهياها ليتولى زعامة أمة في دينها وخلقتها ، ولولا أن بطلانه من الظهور الى حد كبير لعنيت بلرد عليه ، وحسب القارئ أن يفكر في القصة وهو بعيد عن آراء المفسرين ، والقرآن كفيلا بأن يضيها قية خالصة من الاسرائيليات والمفتريات .

فالقرآن يرينا أن امرأة العزيز تعلق قلبها بيوسف وظنت [و بعض الظن إنهم] أنه خادم كبقية الخدم لا يخالف لها أمرا ، فراودته عن نفسه ، وهيات له أسباب الفاحشة ، بأن غلقت الأبواب ، وخلصت إليه حتى لا يحتشم من شيء ، فلم يطعها في ذلك ، واستعاض بالله ، وقال لوفعلت ذلك أكون ظالما ، وانقلب من خادم وادع ، وفى مطبع الى شخص ناثر ، وبدل لتورته هذه الكلمات ، لأنها لا تصدر إلا من قلب امتلا بالغضب . وبذلك يمكنك أن تفهم المراد من قوله (ولقد همت به وهم بها) وهو أنها همت به لتنتقم منه لأنها حاتقة عليه اذ لم يجيبها الى ذلك الطلب . وهى سيدة مطاعة لم تتعود أن يعصى لها أمر ، ولا سيما من خادم كيوسف ، ومن ناحية أخرى فإن شغفها بيوسف قد وصل بها الى حد الجنون ، فإذا تأفى عليها وحال بينها وبين ما تشتهى ، فإن ذلك يؤهلها ألما شديدا ، بل ويرجعها ، فإذا همت بيوسف هم ابداء فلائه أضاع عليها فرصة كانت تعتقد أنها مواتية ، وخيب ظنها في وقت كانت تعتقد فيه أنه عند ظنها فيه ، ولا يعقل أن

يكون هما يوسف بعد فترته منها واستعاذته بربه إلا على ذلك النحو .

أما هم بها فهوهم دفاع عن النفس ، وفرار من المعصية ، وسد لأبواب الشر والنفس ، لأن ذلك هو اللائق يوسف من جهة مكانته ، ومن جهة مستقبله ، ومن جهة الواجب عليه في ذلك الظرف العصيب ، وما أدق موقف يوسف في ذلك الوقت ، وما أشق مهمته مع امرأة جاهلة ، قد تملكها الشهوة ، وغرّها سمكها وسمك زوجها العزيز وهو فتي يخدم في ذلك البيت ، وليس إله ناصر إلا مولاه وخالقه ، ولا ميث له إلا من يعلم سرّه ونجواه ، وما القى كان يفكر فيه يوسف ليخلص من ذلك البلاء ، وما إذا كان يفضل لو طال به ذلك الحال يفنه وبين امرأة العزيز ؟ وتحت يدهما الخدم والحشم ، وفي قبضة يدها السلطة والتفوذ ؟ وما القى كان يمنعها من قتل يوسف في ذلك الوقت الذي يفنى فيه قلبها كما يفنى الرجل ؟ وما القى كان يمنع يوسف من مقابلة الشر بالشر ، والشدة بالشدة ؟ وهل إذا طال ذلك الوقت بأمرأة العزيز ويوسف هل كان يقف تيار الشر عند حدّ الاثنين ، أو يتخطاهما إلى أناس آخرين ؟ ذلك هو القى سوّج حذف جلة الجواب في قوله (لولا أن رأى برهان ربه) والرب هنا هو رب البيت وهو العزيز ، وبرهانه علامة أنه حاضر : أى لكان ما كان مما لا يعلم حقه إلا الله تعالى ، لحذف الجواب لتذهب النفس فيه كل مذهب يمكن ، وذلك أسلوب من أساليب التفضيم والتعظيم ، وكأنه يريد أن يرينا أن جواب هذا الشرط لا تستطيع العبارة أن تنفي به ، وأى جواب قدرته فهو أقل مما أريد به ، ولذلك سحذف الجواب . فإذا قلت (لولا أن رأى برهان ربه) لقتلته ، لم يف بلراده ، وكذلك إذا قلت لقتلها ، وكذلك إذا قلت لتطارب الشر وفنات الفتنة ، وما إلى ذلك مما يناسب المقام .

وجلة القول : أن امرأة العزيز همت يوسف لتنتقم منه إن لم يجبها إلى طلبها ، وهم بها ليدفع عن نفسه ، فاهمّ هنا همّ بعمل هو الانتقام من ناحية امرأة العزيز ، وهو عمل إيجابي ، ودفاع من يوسف وهو موقف سلبي ، وقد ينقلب إيجابيا ، وهو كقوله (وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه) (١) وقوله (لولا أن رأى برهان ربه) أى لحصل ما حصل مما لا يعلم كنهه إلا الله تعالى ، ويدلّ لذلك قوله بعد (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) أى فعلنا يوسف [كذلك] من تسخير العزيز للحضور في ذلك الظرف الذى اشتد فيه النزاع بين يوسف وامرأته وهو نعمة كبرى على يوسف ، ومخرج من ذلك المأزق ، وتخليص له من يد امرأته ، ولولا حضور العزيز في ذلك لكان ما كان .

فإنه تعالى يرينا أنه هيا ليوسف ذلك المخلص ليصرف عنه السوء والفحشاء ، ثم علل ذلك بقوله (إنه من عبادنا المخلصين) أى الذين أخلصوا في عبادة الله تعالى ، ومن كان كذلك فقد تكفل الله له بمثل ذلك ، أو الذين استخلصهم الله لأن يكونوا رسلا وأئمة ، وما دام يوسف من ذلك الصنف ، تكفل الله له بأن يصرف عنه السوء والفحشاء ، ونظيره قول الله تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب - ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ٣١ و ٤١) .

(٣) (واستبقا الباب) تسابقا إليه لحذف الجار ، أو ضمن الفعل معنى ابتدر : أى ابتدر كل

منهما الباب وسبق إليه ، فأما يوسف فقد أراد الفرار منها ليخرج وليشكوها الى سيدها ، وأما هي فأسرعت وراءه تريد أن تمنعه الخروج ، واجتذبت من ورائه فأهتد قيصة ، والقّد : الشقّ طولا (وقعت قيصة من دبر وألفيا سيدها لدى الباب) أى وجدا سيدها وهو العزيز لدى الباب ولم يدخل لأن الأبواب كانت مغلقة (قالت ماجزاء من أراد بأهلك سواء إلا أن يسجن أو عذاب أليم) وفي الأمثال [ضربني وبكى وشتمني واشتمك] كذلك امرأة العزيز مع يوسف لما رأت سيدها عند الباب يريد الدخول ، وقد يكون أحسن وهو لدى الباب بشيء مما دار بين يوسف وامرأته من نزاع ، أرادت أن تشقى غل صدرها وحقتها على يوسف لما فاتها من المتع به ، وتوقعه في الشرّ جزاء إبانته عن مطاوعتها - فقدمت الى زوجها شاكية باكية قائلة (ماجزاء من أراد بأهلك سواء إلا أن يسجن أو عذاب أليم) تريد أن تهنئه بذلك أنه هو الذى راودها وأنه لم يكن منها سوى الاباء . وفي قولها (ماجزاء من أراد) بصيغة الماضى ، وتحديد هذا الجزاء بسجن أو عذاب تمويه على العزيز ، ومحاولة إفهامه أن ذلك أمر وقع من يوسف ، وأن جزاءه على ذلك أمر لا يصحّ أن يكون موضع مناقشة أو جدل ، بل هو أمر مفروغ منه ، وقولها (بأهلك) استفزاز للعزيز ، وإشغال لئلا تفرغ في نفسه ، لأن فتاه أراد سواء بأهلك ، ولو قالت [ماجزاء من أراد بي سواء] لفات ذلك الغرض ، وهو محاولة إلهاب العزيز والتأثير عليه ، وتلفتنا الآية من جهة أخرى الى أن امرأة العزيز كانت صاحبة سلطان عليه ودلال ، حتى اجترأت أن تتحدّد الجزاء وتقرّح على زوجها أحد اسمين : السجن ، أو العذاب الأليم .

ولو أن امرأة العزيز كانت امرأة عادية لأبلغته الحادث مجردا عن تحديد العقوبة ، فبادرت الى ذلك القول لترى العزيز أنها غاضبة للشرف والكرامة اللذين يحميها ، ويزود عنها ، ولتشقى صدرها باقتراح عقوبة في اعتقادها أن العزيز ينزل على رأيها فيها ، وفي اعتقادها أن أمثال هذه التهمة لا تحتاج الى بحث وتحقيق ، لأنها تتعلق بشرف العزيز وأهلك ، فليس بعد البلاغ إلا العقوبة ، وفاتها أن هناك إلها يرقبها ، وربما هو لها بالمرصاد ، وأن ذلك الإله ادخل لمن أطاعه في وقت الشدة ، وجاهد في سبيل دينه وخلقه ما شاء الله أن يجاهد ما يحلصه منها ، وضاء الجبين ، أبيض الصحيفة وأنه سيقبض له من أقاربها ما يشهد ببراءة يوسف من ذلك الجرم الذى حاولت إلصاقه به ، وسيقبض لها من النسوة كذلك من يشهد هذه الشهادة ، وستعرف هي ببراءة يوسف مما نسبته اليه من إرادة السوء بها ، وستقول هي للنسوة (أنا راودته عن نفسه فاستعصم) وهكذا يتنصر حق يوسف على باطل امرأة العزيز ، ويؤيد بالبرهان والكرامة ، وتبوء هي بالخزي وسوء السيرة (قال هي راودتني عن نفسي) أى بعد أن قالت فيه ما قالت واتهمته عند زوجها بأنه أراد بها سواء ، واقتربت على العزيز عقوبة ، وحاولت إلهاب نفسه بذلك الأسلوب الذى يبينه ، عند ذلك لم يجد بدا من أن يقول الحق ، وهي أنه راودته عن نفسه ، وهي كلمة جريئة من خادم لسيده أمام مخدومه من شأنها أن تصدر من قلب مؤمن مطمئن ، ومن شأنها أن تدلّ على صدق قائمها ، ولو كان يوسف على رية من جهة نفسه ما استطاع أن يواجه امرأة العزيز في حضرة زوجها بذلك القول ، وأن يبينها ذلك البهت ، ولكنه الحق لا يخشى باطلا ، ولا يعمل حسبا لشيء ، ولا يحابي ولا يداجي ،

ظهر على لسان فتى خادم ضد سيدة مخدومة مطاعة في بيتها وأبتها وعظمتها ، تستطيع أن تدبر  
لذلك الخادم من أنواع التنكيل والعذاب ما شاء لها الهوى ، وسوّلت لها النفس .

لم يبال يوسف بكل ذلك ، بل قال الحقّ ، والحقّ أحقّ أن يقال ، ولو أن امرأة العزيز لم تبادر  
يوسف بتلك التهمة أمام زوجها لاستحى يوسف أن يقول ما قال لزوجها ، ولكتم عليها تلك  
الفتنة ، ولكتها بدأت [والبادئ أظلم] بدأت فقلت فيه الباطل ، فاضطر أن يقول فيها الحق .

(٤) (وشهد شاهد من أهلها) الخ ، كثير كلام المفسرين في ذلك الشاهد أكان رجلا أم  
صيا ، ورجح الرازي في تفسيره الكبير أنه كان رجلا لوجوه :

(الأول) أن الله تعالى لو أنطق الطفل بذلك الكلام لكان مجرد قوله أنها كاذبة برهاناً على  
كذبها ، أما الاستدلال بما في قوله من المنطق من قد القيص من قبل ومن دبر فلم يمكن  
محتاجاً إليه .

(الثاني) قوله من أهلها ، فإنها سيقّت لتقوية الشهادة ، ولا بصار الى هذه التقوية إلا حيث  
كان الشاهد رجلاً ، ولو كان صيا في المهد لكان قوله حجة ، ولم يبق لهذا القيد فائدة .

(الثالث) أن لفظ الشاهد لا يقع إلا لمن تقدّمت له معرفة بالواقعة ، ولحاطة بها ، وذلك  
لا يكون إلا من رجل .

والذى حمل المفسرين على ذلك ولوعهم بالغريب ، وورود حديث ينسبه للمفسر أبو السعود  
للحاكم ، وفيه [ تكلم أربعة وهم صفار : ابن ماشطة بنت فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب  
جرج . وعيسى عليه السلام ] وتصحيح الحاكم إذا تفرد به لا يوفق به عند المحققين . فان من  
عادته أن يتساهل في التصحيح فيصحح الضعيف .

وعندى أن ذلك الشاهد هو رجل كما رأى الفخر نقلاً عن جماعة من المفسرين ، وأن الحجة  
في منطق الشاهد وتحكيمه العقل في شهادته ، وفراسته في تحقيق الحق من قولهما ، إذ يقول (إن  
كان قيصة قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين) الخ لأن الماجم على المرأة وهي تدافعه إنما  
يظهر أثر دفاعها في مقدّم قيصة ، والمأرب من المرأة العالقة بشوبه إنما يظهر أثر ذلك في ثوبه من  
الخلق ، لأنه يكون مستدبراً لها وهي تجاذبه من خلف ، فظهر صدق يوسف وكذب امرأة العزيز  
حينما رأوا قيصة قد من دبر ، فعاد العزيز على امرأته باللوم وقال (إنه من كيدكنّ إن كيدكنّ  
عظيم) وأمر يوسف بكتان الخبر ، وأمرها بالاستغفار لذنبها ، وجزم بأنها مخطئة فيما صنعت .

ذلك هو المنطق الذى امتازت به شهادة ذلك الشاهد ، وتبين به الحق للعزيز . أما كونه من  
أهلها فلاّن الشأن في أمثال هذه الحوادث أن يطلع عليها أهل المرأة [أولاً] وتكون محصورة  
فيهم ، لأنها مسألة تتعلق بالأعراض ، ومن شأن الأهل أن يحرموا على كتابتها جهد المستطاع ،  
ويروى أن ذلك الشاهد كان مع العزيز عند وصوله الى الباب ، وقيل إنه كان بالبيت محتجباً لم  
يشعر به أحد ، وسواء صح ذلك أم لم يصحّ ، فإن المهمّ شهادته وما فيها من حجة ومنطق .

وأن ما شهد به ذلك الشاهد على حادث امرأة العزيز مع يوسف يصلح أساساً للتحقيقات  
الجنائية التى يقوم بها ضباط المباحث ورجال النيابة عند ما يريدون أن يقفوا على حقيقة واقعة

من الوقائع ، ويتبينوا وجه الصواب في المسئلة والأخذ بالقرائن وتحكيم العقل في الحوادث والجنائيات هو شأن الناس في كل زمان ، وقد تقدم ذلك النوع من تحكيم القرائن ، وأصبح له شأن كبير حتى أنشئوا له في مصر وغيرها وظائف ، وأعدوا له ما يلزم من معدات ، وكم كشف ذلك النوع عن مخبات ، وفضح من أستار جنائيات ، وأعان القضاء على أداء مهمته ، وسهل له المضى في عمله . وانك لترى للتحققين أساليب باهرة عند شروعهم في تحقيق قضية ، وترى رجال الحماسة قد برعوا في توجيه أسئلة للشهود تكشف من القضية كل غامض ، وتزيل منها كل لبس ، مما يجعل الحق واضحاً أبليج ، والباطل كاسفاً للجلج . ولو أنك ذهبت الى قاعات المحاكم الجنائية لرأيت من ذلك النوع ما يثلج صدرك ، ويطمئن نفسك ، وقوله ( انه من كيدكن إن كيدكن عظيم ) الضمير فيه لما حصل من امرأة العزيز مع يوسف حيث خانت زوجها ، واتهمت يوسف بأنه طلب منها الفاحشة ( إن كيدكن عظيم ) أى معاشر النساء لأنكن ألطف حيلة ، وأعظم كيدا .

قال بعض العلماء : ( انى أخاف من النساء أكثر مما أخاف من الشيطان ، لأن الله تعالى قال - ان كيدكن عظيم - وقال - ان كيد الشيطان كان ضعيفا « ٧٦ » )<sup>(١)</sup> .

وعندى أن الله تعالى وصف كيد الشيطان بالضعف لأن من استولى عليه الشيطان أو طاف حوله طائف منه يذهب عنه الشيطان عند تذكره لربه ورجوعه اليه ، ولذلك يوصف الشيطان بالخناس الذى يخنس وينقبض كلما ذكر اسم الله تعالى ، ولذلك يقول في شأنه ( إله ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون « ٩٩ » )<sup>(٢)</sup> فالشيطان ضعيف في كيده لا يسلط إلا على ضعيف الإيمان الذى لم يتعمم بربه وخالفه ، وإن ذلك الكيد عظيم في ذاته ، باعتبار أثره وعاقبته .

أما كيد النساء فهو عظيم في ذاته ، وهو لم يصل اليهن إلا بواسطة تسويل الشيطان لمن ، ولولا أنه ينفخ في أوداجهن ، ويفريهن بالفاحشة ما فعلن فعلهن ، وكل امرأة فاسقة معها شيطان أو شياطين ، يزين لها الفاحشة ، ويتلمس لها طريق الخلاص منها ، فالشيطان هو الذى أغراها حتى طلبت من يوسف الفاحشة ، والشيطان هو الذى عظم في عينها امتناع يوسف وتأنيه عليها ، وقال لها كيف يكون خادما لك ثم بمنع عليك ذلك الامتناع ، ولولا شيطانها ما ألصقت يوسف أنه أراد بها سوءا ، ولشكرته على عفته ، واستخلصته لنفسها لآمانته كما طلبه الملك بعد ظهور براءته وقال ( اتئوتى به أستخلصه لنفسي ) وقال له ( انك اليوم لدينا مكين أمين ) .

وقد راجعت النيسابورى بعد الفراغ من التعليق الذى علته على قول بعض العلماء ، وإذا هو يقول : وأقول لاشك أن القرآن كلام الله إلا أن هذا حكاية قول الشاهد فلا يثبت به ما ادعاه ذلك العالم ، ولو سلم فالمراد أن كيد الشيطان ضعيف بالنسبة الى ما يريد الله تعالى امضاه وتنفيذه ، وكيد الشيطان ضعيف بالنسبة الى كيد الرجال ، فانهم يغلبهم ويسلبون عقولهم إذا عرضن أنفسهن عليهم ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « النساء جناتل الشيطان » اهـ .

وجلة القول أن كيد النساء جزء من كيد الشيطان ، وهو عظيم الخطر ، كبير الأثر ، لأنه كيد فيما يتعلق بالأعراض ، وما كان من ذلك النوع فهو جدد خطير ، وإن كيد الشيطان قد وصفه



الله بالضعف لأنه يعتمد الباطل ، ويعول على زخرف القول ، كقول الرجل البخيل لك [أحرص على مالك ولا تضعه فإن الرجل إنما يكون رجلاً بالمال ومن ليس معه قرش لا يساوى قرشاً] يحاول بذلك أن يصرفك عن بذل المال في وجوه الخير ، وهو كما يقول الله في شأن الشيطان الذي يأمر بالسحر ( الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم » ٤٦٨ )<sup>(١)</sup> فكيفه لا يعدو أن يكون ضليلاً ، وكيد ذلك حاله هو كيد ضعيف ، ومن ناحية أخرى فإن أول الآية يطالب بالجهاد والشجاعة ، ويقوى قلوب المؤمنين ، ويربنا الفرق بين قتال المؤمنين وقتال الكافرين ، وأن المؤمنين يقاتلون في سبيل الله ، وأن الكافرين يقاتلون في سبيل الطغوت والباطل ، ويحرض المؤمنين أن يقاتلوا أولياء الشيطان وأنصاره ، لأنهم لا قلب لهم ، فهم ضعفاء العقيدة ضعفاء النفوس ، لا يؤمنون بعاقبة ، ولا يدينون دين الحق (الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطغوت يقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً » ٤٧٦ )<sup>(٢)</sup> ولا شك أن براءة يوسف من تهمة امرأة العزيز أمام زوجها وأمام ذلك الشاهد وقوله لها ( إنه من كيدكن ) الخ هي [ أوله شهادة ] ليوسف عليه السلام بالبراءة من رجل حاولت امرأة العزيز أن تؤلبه عليه ، وتثير فيه عاطفة الغيرة ، وتريه أن يوسف الذي أمر باكرام مثواه أراد بأهله سوءاً ، ولذلك عقبه بقوله ( يوسف أعرض عن هذا ) أى دع هذا الحديث ولا تذكره لئلا يفشوا بين الناس ، أو لا تكثر بهذا الأمر وتأثر به ، ثم التفت إليها وقال ( واستغفري لذنبك انك كنت من الخاطئين ) أمرها بالاستغفار من ذنبها .

ثم علل ذلك بأنها كانت في عملها هذا مع يوسف من جهة الخاطئين ، وحكاة بصيغة التأکید لأنه وثق من صدق يوسف ، وكذب امرأته ، ولا سيما بعد شهادة الشاهد . وفيه دليل على أن العزيز حليم قليل الغيرة إذ لم يزد على ذلك مع امرأته ، ولذلك كثرت الاشاعة حتى اتهمها نساء المدينة بأنها راودته عن نفسه .

(هـ) وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ( الخ ، لما شاع أمر يوسف تحدثت به النسوة ، وخاضوا في شأن امرأة العزيز وضعفها أمام شهوتها ، وقالوا إنها تراود فتاها [ وهو الشاب الحديث السن ] ( عن نفسه قد شغفها حباً ) أى شق شغاف قلبها ، وهو حجابها حتى وصل الى فؤادها ، وحجاب منصوب على التمييز المحوّل عن الفاعل : أى شق حبه شغاف قلبها حتى وصل الى الفؤاد ، وذلك أشد أنواع الحب ( إنا لنها في ضلال مبين ) لأنه لا يليق بها وهي امرأة العزيز ، وفي ذلك البيت الكبير أن تنزل الى ذلك المستوى الذي لا يليق بمثلها ، وهو مراودة الفتى ، فإن اللاتي يمثل امرأة العزيز أن تكون في عفة وعزّة ، ولم تكف النسوة بوصف امرأة العزيز بالضلال ، بل وصفته بأنه بين وواضح لا يشك فيه أحد ( فلما سمعت بمرهق أرسلت اليهن وأعتدت لهن متكاً ) الخ لما بلغ امرأة العزيز ما قاله النسوة وخوضهن في قصتها ، والمكرها الغيبة ، وسبحت مكرها لما فيها من الخفاء ، وقيل إن امرأة العزيز استكتمت النسوة أمرها فأفشيته عليها - لما سمعت امرأة العزيز قول النسوة فيها ( أرسلت اليهن وأعتدت لهن

متكاً) هيات لمن مايتكنن عليه من غارق ومساند ، ويتبع ذلك اعداد طعام يقدم لمن ، ويطلق [المتكأ] على نفس الطعام فان كل من دعوته ليعلم من عندك فقد أعددت له وسائد يجلس ويتكى عليها ، فيكون الطعام متكأ على سبيل المجاز ، وسواء أكل المتكأ هو مايتكأ عليه عند الطعام والشراب أو نفس الطعام ، فان المال واحد ، فان امرأة العزيز أعتت طعاما وفيه مايقطع من لحم وفاكهة (وأت كل واحدة منهم سكيناً) على ماى العادة فى أطعمة التمدنين من قدماء المصريين ، فلما أخذن يأكلن وأمسكت كل واحدة بسكينها انتهزت تلك الفرصة (وقالت اخرج عليهن) يابوسف وهو لايمسى لها أسرا (فلما رأينه) أى رأى النسوة يوسف (أكبرنه) أعظمه ودهشن عند رؤيته لذلك الحسن الراق والجبال الغاقي ، كما شاهدن فيه مهابة وهيبة وعدم التفات الى الشهوات من النساء والمطاعم ، وإذا كان الجبال مقرونا بهذه الصفات حق للنسوة أن يهبنه (وقطعن أيديهن) أخذن يقطعن أيديهن بالسكاكين التى معهن وهن يظنن أن يقطعن مامعهن من طعام أو فاكهة . أذهلهن جال يوسف وكاله عن نفسهن ، فلم يشعرن بأن التقطيع فى الأيدى أو فى مامعهن من الطعام (وقلن حاش لله) معاذ الله (ما هذا بشرا) أى تنزيها لله أن يخلق هذا بشرا ، لأننا لم نعهد فى البشر ذلك الجبال والكمال (إن هذا إلا ملك كريم) وحين ذاك وصلت امرأة العزيز الى ما كانت تقصد من دعوة النساء للطعام ، ونجحت فى تلك الرغبة التى أعدتها للنساء الخاضعات فى شأنها مع فتاها .

(قالت فذلكن الذى لمتنى فيه) أى ذلك الذى الغريب فى حسنه ، البعيد فى مكانته ، الخارق للعادة فى صفاته ، هو الذى الذى صورتن فى أنفسكن ، وفهمتن أنه فى عادى كبقية الفتيان ، وقلتن فى أنفسكن إنها امرأة ضعيفة أمامه لم تستطع ضبط نفسها ، ولا ملك عواطفها من جهته ، وقد مر عليكن [لأول مره] فذهلتن عن أنفسكن ، ونسيتن أن فى الأيدى سكاكين تستقل بقطع الطعام ولذاذ الفاكهة ، فقطعن أيديكن وقلتن (حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم) فلماذا لا تعذرننى فيما فعلت ، وقد أمضيت معه زمنا طويلا ، أطالع جاله ، وأرى حسنه فى كل وقت من أوقات الخدمة ؟ وحين ذاك اشترك معها النسوة فى محبة يوسف ، وإكبار يوسف فلم تبق فريدة فى تلك المحبة ، وإن كانت المحبة تتفاوت ، فان المحبة التى مضى عليها زمن طويل تختلف اختلافا كبيرا عن المحبة التى حدثت .

وما دامت النسوة قد اشتركن مع امرأة العزيز فى محبة يوسف وإكباره ، أو ما دامت النسوة قد علمن من حسن يوسف وجاله ما تعذر فيه امرأة العزيز ، فلا تحقن أن تصارحنهم بالأمر ، وتكاشفنهم بالحقيقة ، وتقول لهم (لقد راودته عن نفسه فاستعصم) وهى شهادة من امرأة العزيز بصدق يوسف فيما قال لزوجها ، وبرأته مما اتهم به ، وليست هذه شهادة عادية ، بل هى شهادة لها شأنها وقيمتها ، لأنها شهادة مما اتهمته بارادة السوء وهى امرأة العزيز ، وهى خصم فى قضية الاتهام [والفضل ما شهلت به الأعداء] وقولها (فاستعصم) ولم تقل فامتنع لتدلنا على أن يوسف كان شديدا فى امتناعه كما قلنا عليه الصيغة ، فان الاستعصام بناء مبالغة يدل على الامتناع البالغ والتحفظ الشديد ، كأنه فى عصمة وهو يجتهد فى الاستزادة منها ونحوه استمسك ، واستجمع

الرأى ، واستفعل الأمر .

والعجيب لبعض المفسرين ينسبون ليوسف عليه السلام من الأكاذيب ما تنزهه منه الله . اتهمته وهى امرأة العزيز ، وكأنهم أصبحوا ثانيا ليوسف عليه السلام يحاولون بشتى الأساليب أن ينسبوا إليه ما هو منه براء ، وباليتم كانوا في أنصافهم كأمراء العزيز ، بل كانوا أقل منها أنصافا .

ومن عجيب أمرهم أن يقبلوا فى قصة يوسف ماصح ومالم يصح من الروايات ذاهلين عن أنه فتح أعدته الله لأن يكون رسولا ، وهىأه لأن يكون قدوة صالحة ، ومثالا يحتذى فى العفة والأمانة يجب أن يهذب بذلك المثل العملى : النساء والرجال ، ونسوا أن العبرة فى قصة يوسف مع امرأة العزيز أنه شاب من أجل الشبان صورة ، وأكلهم بنية ، يخلو بأمرأة ذات منصب وسلطان ، هى سيدة له وهو عبد لها ، فيجعلها الافتتان بجماله وكجالة على أن تذل له ، وتحنو به ، وتدوس شرفها ، وتراوده عن نفسه ، والمعهود فى أدنى النساء زرية ومنزلة أن يكنّ مطلوبات لاطالبات ، فيسمعها يوسف من حكمته ، ويرىها من كجالة وعصمته : ما هو أفضل قدوة فى الإيمان بالله والاعتصام به ، وفى حفظ أمانة السيد الذى أحسن مثواه ، واتقنه على عرضه وشرفه ، ويقول لها ( معاذ الله إنه رضى أحسن رضى ) فقلع الظالمون ) فقلعوا بالنزلة والمهانة ، والتفريط بالشرف والصيانة ، فتهنّ بضره أو قتله ، وبهم هو بالدفاع عن نفسه ، ويكاد يحصل ما لا تحمد عقباه من جراء ذلك النزاع ( لولا أن رأى برهان ربه ) .

فكيف يتفق ذلك ومأقوله المفسرون من أقوال منكورة ، وما نسبوه إليه من روايات مختلفة ، ولكن الله تعالى تكفل ببراءة يوسف على يد العزيز بعد شهادة الشاهد ، وتكفل ببراءة يوسف على لسان امرأة العزيز : نفسها أمام النسوة ، وهى شهادة لها قيمتها فى المسألة لأنها الخصم ليوسف ومصدر اتهامه .

(٦) لما شعرت امرأة العزيز بأن النسوة عذرنها فى شفعها بيوسف ، واشتركن معها فى إكبار ذلك الجلال اعترفت أمامهن بأنها التى راودته عن نفسه فاستعصم ، ولم ترد أن تقف عند ذلك الحد ، بل أصرت على التمسك بالباطل ، فقالت ( ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ) قلنا فيما تقدم أن جها ليوسف قد وصل بها الى حد الجنون ، ولولا ذلك ما أصرت على مطالبة يوسف بالفاحشة ، وما تجرأت على هذه الكلمة فى جمع من النسوة .

ولعلّ الذى هوّن عليها ذلك أنها أمنت أمر النساء ، لأنهن أصبحن شريكات لها فى محبة يوسف ، وأعاندرات لها فى تلك المحبة ، ورأت من زوجها العزيز سهولة ولينا ، إذ كل ما قاله لها عند ظهور كذبها وصدق يوسف ( إنه من كيدك أن كيدك عظيم يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين ) .

وإذا كان زوجها من اللين وعدم العيرة الى ذلك الحد ، والنسوة اللاتي تكلمن فى شأنها قد أمنتن أن يتكلمن فيها مرة ثانية ، وهى امرأة العزيز صاحب خزان الملك ، وهى السيدة المطاعة ، ويوسف فتاها وخدامها ، فلماذا لا تبق على طمعها فيه ، ورجائها فى الحصول على غايتها

وقد خاطبت يوسف أول مرة بقولها (هيت لك) أى بأسلوب لين هين ، فيه اغراء للطلاب ، فلم يجيبها يوسف الى ماطلبت ، فرأت أن تلون له الخطاب ، وتغير له الأسلوب ، فخطبته خطاب للمهدد المتوعد ، وقالت (لئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين) وهنا كشفت القناع عن أنها صاحبة الأمر والنهى ، وإن أسر السجن والتعذيب فى يدها وتحت سلطانها ، فأقسمت للنسوة ان لم يفعل يوسف ما تريده منه لابد أن يسجن ويعشر مع الأذلاء من اللصوص وسفاكى النساء وأصحاب الجرائم .

### ماذا كان من يوسف ؟

(قال رب السجن أحب الي مما يدعونني إليه) جواب رجل أعده الله لأن يكون نبيا ، وهبأه لأن يكون زعما دينيا ، جواب ما أبرده على قلب المؤمن ، وأحبه الى نفسه ، يقول يوسف فيه مخاطبا لربه ومولاه وصاحب الفضل الأول عليه ، إن السجن على ما فيه من شظف العيش ، وخشونة الفراش ، وحيالة بين الرجل وبين الحياة ، هو أحب الى نفسى مما يدعونني إليه لأنهم يدعونني الى عصيانك ، والخروج على طاعتك ، وامتهان النفس ، وضياع الخلق والكرامة ، وضعف الارادة ، فأنا أفضل أن أعيش فى السجن متحملا ما فيه من تعذيب على ما يدعونني اليه من عصيانك ، والفسوق عن أمرك .

وانها لبرة عظيمة من نبي الله يوسف ، ترينا كيف يؤثر الانسان غليظ العيش على ناعمه مادام ذلك العيش الناعم من ورائه ضرر يتعلق بالخلق أو النفس . ومن حق الزعماء أن يكثروا من قراءة هذه الجلة عند ما يعاملهم الغاصب معاملة امرأة العزيز ليوسف ، حينما طلبت منه ما لا يليق بخلقهم وكرامته وتوعده ان لم يجيبها الى ماطلبت أن يسجن ، أو يعذب العذاب الأليم ، فقال لها (رب السجن أحب الي مما يدعونني إليه) فاذا كانت امرأة العزيز تملك سجنى فانها لا تملك خلقى وكرامتى ، وإذا كانت تستطيع أن تعذب جسمى فانها لا تملك أن تعذب روحى ونفسى وكذلك المستعمرون إذا طلبوا من الزعماء أمرا يضر بمصالح بلادهم ، ويعود عليها بالشر ، كأن يطلبوا منهم أن يسكتوا عن المطالبة بالجلاء ، أو يقدموا لهم مصالح البلاد لقمة سائفة ، وهددوهم ان لم يصيخوا لأمرهم أن يضعوهم فى السجن ، أو يعذبوهم العذاب الأليم - فليقولوا لهم ما قال يوسف (رب السجن أحب الي مما يدعونني إليه) لأن السجن لا يضيع حقا ، بل يثبت ، ولا يززع عقيدة ، بل يقربها ويؤيدها ، والسجن سكن العظماء ، ومأوى المصلحين ، وأرباب المبادئ .

وكم أعان السجن على حق ، ومحص من نفوس ، وأعدّها لأن تكون قوية مستعدة للطوارئ والأحداث ، وكم خلق السجن لأنصار الباطل أعداء ، ولأنصار الحق أولياء ، ولحزب الشيطان قوة لا قبل لهم بها ، وما من مبدأ من المبادئ إلا وهو فى حاجة الى ما ينجيه ، ويضع فيه إكسبر الحياة ، ولا شيء أنفع للمبادئ من اضطرادها ، وللعقائد من الفتن التى تمر بأصحابها . (وان لاتصرف عنى كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين) فزع من يوسف الى الله

تعالى في ذلك الوقت العسير ، ورجوع إليه في وقت اشتدت فيه ظلمات الفتنة ، واستفعل أمر النسوة ، وكاد أن يظفي فيه حزب الشيطان على حزب الرحمن ، فلا الحق لامرأة العزيز ، وأمنت كلام النسوة ، وأطمأنت من جهة زوجها ، لأنها جرت عليه ضعف الفيرة ، فهتدت ونوعدت ، وأرغت وأزبدت ، وقالت له بلغة الأمر الذي لا يخالف : انك ان لم تفعل ما أمرك به سحنتك وعذبتك ، وأزلتك من ذلك البيت الرفيع الى درجة المجرمين ، فيخاطب ربه بأن السجن أحب إليه مما يدعونه إليه ، ثم يلجأ إليه أن يصرف عنه كيدهن بلفظه وتدييره ، وأنه ان لم يفعل الله - وهو فاعل ولا بد - يميل يوسف اليهن ويدخل في عداد الجاهلين الذين لا يعلمون بما يعملون وهو في معنى السماء من يوسف في وقت الشدة .

وجدير بمن دعا ربه في ذلك الوقت ليخلصه من محنته ، وينقذه من فتنه ، ولازم له من طلب الخلاص إلا إرضاء ربه ، والوقوف عند حدوده - .  
جدير بمن لجأ الى ربه في ذلك الوقت أن يستجيب الله دعوته ، ويعطيه ما طلب ، ولذلك قال ( فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ) .

ثم علل ذلك بقوله ( إنه هو السميع العليم ) فهو سميع لأقوال يوسف ، عليم بما يريد ويقصد ، وكذلك هو سميع لامرأة العزيز ، عليم بحجراتها وسلطانها ، وفتنها ليوسف بوسائل مختلفة ، فرة تحاول الوقعة بينه وبين العزيز ، وتقلب الحق باطلا ، والباطل حقا ، وتريه أنه أراد سوءا بأهله ، وجزاؤه في ذلك : السجن أو العذاب الأليم ، وصمة تقول للنسوة على مسمع من يوسف ( ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ) ونسيت أن هناك إلها يعلم سرها ونجواها ، ويدبر ليوسف الخير كما تدبر له الشر ، وأن تدييره فوق تديرها ، لأن تديرها الى فساد ، وتدييره الى صلاح .

وقد نسب يوسف المكر الى النسوة جميعهن في قوله ( وان لاتصرف عني كيدهن ) لأنهن شاركن امرأة العزيز في محبته ، والتوله به ، ولأنهن عذرنها في محبتها ، وطلبن منه أن يطيعها ، وزين له مطاوعتها ، وقلن له اياك وإلقاء نفسك في السجن والصغار .

وعندي أن يوسف قد نسب المكر الى النسوة جميعا مع أن الماكر به امرأة العزيز وحدها لأن مكر المرأة الواحدة ينسب الى المصنف كله ، فهو مكر لصف النسوة ، أو للإشارة الى أن مكرها بلغ من عظم أثره أن صار مكر النساء جميعهن فهو كيد امرأة واحدة في ظاهر الأمر ، ولكنه في معنى مكر الجماعة .

( ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ) الضمير في لهم للعزيز وأهله : أي ظهر للعزيز وأهله من بعد ما رأوا الآيات الدالة على صدق يوسف ، وبرأيه مما نسب إليه أن يسجنوه الى زمان ، وذلك أنها أذهمت العزيز أن بقاء يوسف في البيت قد يكون سببا في إشاعة الفاحشة ، وفي فضيحة العزيز ، فوضعه في السجن أعون على السر ، وفي الوقت نفسه ترى يوسف أنها استطاعت أن تنفذ وعيدها معه ، وتجعله في السجن ، لأن ذلك الوعيد لم يعلم به العزيز ، وإنما كان بمحض النسوة على مسمع من يوسف ، فتم لها ما أرادت ، وتعلبت على العزيز وألقت

يوسف في السجن ، وهي مع ذلك لا تزال طامعة فيه ، منية نفسها بذلك الوقت الذي يرسل لها فيه أنه على استعداد لاجابة طلبها ، والازول على إرادتها ، وحين ذاك يصدر الأمر العزيزي باخراج يوسف من السجن ، ونسبت قوله ( ربه السجن أحب إلى مما يدعوني إليه ) وأن يوسف أبعد من ذلك كله غرضا ، وأعلى نغضا ، وأصلب عودا ، وهيهات أن يلين لامرأة شهوانية مهما في قضاء حاجتها ، ورضاؤها في الحصول على ما ربهها ، هيهات أن يؤثر يوسف مرضاة امرأة على مرضاة ربه ، وفيها زائلا على نعيم مقيم .

### يوسف عليه السلام

وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ  
 إِنِّي أَرَانِي أَهْلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأًا بَتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ  
 الْمُحْسِنِينَ «٣٦» قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بَتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ  
 يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ  
 بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ «٣٧» وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي لِبُزْهِيمٍ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ  
 مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ  
 أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ «٣٨» يَصْحَبِي السَّجْنَ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ  
 اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ «٣٩» مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ مِمَّنْ شَبَّهُوا أَنْتُمْ  
 وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ  
 ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ <sup>(١)</sup> وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ «٤٠» يَصْحَبِي السَّجْنَ  
 أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ  
 قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ «٤١» وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا أَذْكُرْنِي <sup>(٢)</sup>  
 عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَّهُ السَّيْطَانُ ذَكَرَ رَبَّهُ فَلَبِثَ فِي السَّجَنِ بِضْعَ سِنِينَ «٤٢» وَقَالَ  
 الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ <sup>(٣)</sup> وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ

[١] الثابت الذي تقوم به مصالح الناس . [٢] صفى عند الملك بصفى . [٣] جمع عجاف وهي الغزالة .

خُضِرَ وَأَخْرَ يَابِسَتْ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَقْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا  
تَعْبُرُونَ «٤٣» قَالُوا أَضَلَّتْ <sup>(١)</sup> أَهْلَهُ وَمَا تَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَمِ بِلَعِينٍ «٤٤»  
وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ <sup>(٢)</sup> بَعْدَ أَمْنِهِ أَنَا أَنْبَأُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ «٤٥»  
يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ  
سِنَابِلٍ خُضِرَ وَأَخْرَ يَابِسَتْ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ «٤٦»  
قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا <sup>(٣)</sup> فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا  
تَأْكُلُونَ «٤٧» ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ  
إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ <sup>(٤)</sup> «٤٨» ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ  
وَفِيهِ يَعْصِرُونَ <sup>(٥)</sup> «٤٩» وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُوتَنِي بِهِ فَجَاءَ رُسُلُ قَالَ أَرْجِعْ  
إِلَى رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالُ النَّسُوءِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَافٍ فِي عِلْمٍ «٥٠»  
قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ  
سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْأَنْ حَصْحَصَ <sup>(٦)</sup> الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ  
لَمِنَ الصِّدِّيقِينَ «٥١» ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنَّ لَمْ أَخْنُهِ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ  
الظَّالِمِينَ «٥٢» وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ  
رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ «٥٣» وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُوتَنِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ  
إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ <sup>(٧)</sup> أَمِينٌ «٥٤» قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي  
حَفِظْتُ عِلْمٍ <sup>(٨)</sup> «٥٥» وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ <sup>(٩)</sup> مِنْهَا حَيْثُ

[١] جمع ضف ، وهو الخزمة من الحشيش أو الضبان ، وبه شبه الأحلام المخططة .

[٢] تذكر . أمة : مدة طويلة . [٣] ذائنين أى مستترين . [٤] نجشون .

[٥] الغب والزيتون والسم ، أو من صوره إذا اتجاء . [٦] نبت واسفر .

[٧] صاحب مكانة ومنزلة . [٨] يتخذ منها متبراً له ومسكناً .

يَسَاءَ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ «٥٦» وَلَا أَجْرُ  
الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ «٥٧» يوسف

### شرح وعبرة

(١) (ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراى أعصر خرا وقال الآخر إني أراى أحل  
فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه نبشأ بتأويله إنا نراك من المحسنين ) أى دخل فى محبة يوسف  
فتيان ، قيل كانا فتيين للملك [ أحدهما ] خبازه ، و [ الثانى ] شرايه : أى صاحب الشراب ، وأهما  
أدخلا السجن بتهمة السم للملك ، وفهم الآية لا يتوقف على محبة هذه الأخبار (قال أحدهما إني  
أراى أعصر خرا) وهو صاحب شراب الملك (وقال الآخر إني أراى أحل فوق رأسى خبزا تأكل  
الطير منه) وهو الخباز .

(نبشأ بتأويله) أخبرنا بتأويل ما رأينا (إنا نراك من المحسنين) أى من الذين يحمدون عبارة الرؤيا  
ويحسنونها ، أو من المحسنين لأهل السجن فى معاملتك لهم ، والأحسن أن يطلق لفظ المحسنين  
ويراد به أنه من أهل الاحسان . والاحسان : الاتقان وتأدية الشئ كاملا ، ومنه حديث « ان الله  
كتب الاحسان على كل شئ » ومن الاحسان تغيير الرؤيا وتأويلها تأويلا صحيحا .

(قال لا يأتىكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتىكما) قال السدى : لا يأتىكما طعام  
ترزقانه فى النوم . يريد بذلك أن علمه بالرؤيا ليس بقاصر على ما قصصنا على . وقيل لا يأتىكما طعام  
فى اليقظة إلا أخبرنكما أى طعام هو ؟ وأى لون هو ؟ وكما تكون عاقبته إذا أكله الانسان . وحاصله  
ادعاء العلم بالمغيبات ، وهو مجرى مجرى قول عيسى عليه السلام (وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون  
فى بيوتكم « ٤٩ » ) (١) ولعل حكمة مبادرتهما بذلك نظمين صاحبيه على حياتهما ، لأنه عهد  
عندها وفى عصرها أن الملك إذا أراد قتل إنسان صنع له طعاما مسموما فأرسله إليه . وكأنه يقول  
لهما : اطعنا على ما يقدم لكما من طعام ، فكل ما يصل إليكما أبلغكم ما فيه من خير أو شر ،  
ومحبة أو مرض .

( ذلكما مما علمنى ربى ) أى ذلك التأويل للرؤى والأحلام مما علمنى ربى وفقهنى فيه ، وعلم  
تأويل الرؤيا يعتمد فقه الانسان وفراسته : كما يعتمد صفاء النفس وقوة التفكير ، وكل ذلك فضل  
من الله تعالى يؤتيه للانسان ، ولذلك نسب تعليمه الى ربه ، لأنه الواهب لذلك الاستعداد ،  
المناخ لذلك الفضل .

هذا إذا ذهبنا الى المعنى الأول فى قوله ( لا يأتىكما طعام ) الخ . أما إذا فهمنا أنه إشارة الى  
إخبار الصاحبين بالغيب ، وبيان ما فى الطعام من محبة أو مرض ، وأمثال ذلك يكون قوله ( مما  
علمنى ربى ) أوحى الى ، لأن علم الغيب مقصور على تعالى لا يطلع عليه أحد إلا من طريقه هو  
(انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ، وانبت ملة أبائى ابراهيم واسحق



ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ( تحليل لقوله (ذلكما علمني ربى) أى ان سبب ذلك التعليم أتى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله الخ ، وهو يرينا أن المؤمن بالله أهل لأن يفيض الله عليه من العلم والعرفه مالا يعلم حده إلا الله تعالى .

وقد انتهز يوسف هذه الفرصة لينصح صاحبيه فى السجن ، وينشر مبدأه من الإيمان بالله تعالى ، وتوحيده ، والإيمان بالبعث والجزاء .

وقد جمع يوسف فى تلك الدعوة أصول الإيمان الثلاثة ، وهى الإيمان بالله ، وتوحيده ، والإيمان باليوم الآخر ، وهل يوسف جاءته الرسالة وهو فى السجن ؟ ولما لم يجد معه سوى صاحبيه دعاهم الى أصول الإيمان الثلاثة ، أو أن ذلك كان ملة لأبائهم فأخذهم عنهم ، ودعا دعوتهم ؟ كل محتمل ، وسواء قلنا ان يوسف نبي في ذلك الوقت أم لم ينبأ فانه افترض هذه الفرصة وأخذ يدعو من معه الى دين الأنبياء جميعهم ، وقد تقدم بذلك بين يدي تأويل رؤيا الصالحين لأنه لو أجابهما الى ما طلبا أولاً لضاغت عليه هذه الفرصة ، وما استطاع أن يلفهما التوحيد والإيمان بالله وتوابعه وعقابه ، ولا سيما أن أحد القتين قد تأول له رؤيا تأويلا يزججه ، وهو أنه يصل فتأكل الطير من رأسه .

فيوسف عليه السلام يرينا أن صاحب المبدأ والعقيدة من شأنه أن ينتهز الفرص لنشر مبدئه وعقيدته ، ومن شأنه أنه إذا طوّل بشيء أو سئل عنه يخفى لها المناسبة لينشرها بين الناس ، وفى الأمثال [ ان صح منك الهوى : أرشدت للحيل ] ويرينا يوسف عليه السلام أن لا مانع من تعريف العالم نفسه بالناس وأن يخبرهم أنه يحسن كذا وكذا من العلم ، وليس فى ذلك غشاضة على نفسه ، فيوسف لم يجد بأساً فى أن يقول للصالحين (لا يأتىكما طعام ترفأه إلا بأنتكما بتأويله قبل أن يأتىكما ذلكما علمني ربى) الخ ليلفت نظر القتين إليه ، ويحملهما على التوجه له . وقوله (إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله) تحريض لهما على الإيمان بالله لأن عقبة المؤمن به أن يفقه الله فى دينه ، ويعلمه كما علم يوسف ، وقوله (واتبع ملة آبائى إبراهيم واسحق ويعقوب) يريد أنه من بيت النبوة تربى على الإيمان الصحيح ، والتوحيد الخالص ، والحكمة العالية ، والعلم النافع المفيد ، فاستمعوا لى ، وخذا العلم والحكمة عنى ، وقوله (ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء) أى لا يلقى بنا ولا ينبغى ونحن من هذه السلالة الطيبة ، والبيت الماجد أن نشرك بالله من شيء . من الأشياء (ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون) أى ان ذلك التوحيد فضل من الله علينا ، وفضل منه تعالى على الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله على ذلك الفضل الذى هداهم إليه ، وأوصله لهم .

(٢) (يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) يريد ياسا كنى السجن أو يا صاحبي فيه ، أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ يريد هل الخبر للانسان أن يعبد إلها واحدا ، يعرف ما يحبه فيبادر إليه ، وما يبغضه فيدعه ويتركه ، أم الخبر للانسان أن يعبد آلهة كثيرين ان أرضى هذا غضب ذاك ، وإن أغضب ذلك رضى هذا ، وهو أسلوب بديع من

أساليب الاقتاع ، يرجعنا فيه الى المؤلف من عادات البشر ، وهو أن الانسان إذا كان له ملاك يقتا كسون فيه ، ويتنازعونه الملك والسلطان ، هل يستوى هو وعبد ليس له الا مالك واحد ، يعرف ما يطلبه منه فيعمله ، وما ينهاء عنه فينزهه ؟ ان الفرق بين العبدین كبير ، فالعبد الذى له ملاك متسا كسون فيه لا يهدأ له بال ، ولا يطمئن له قلب ، أما العبد الذى ليس له إلا مالك واحد فيستطيع أن يعيش مع ذلك المالك هادئاً وادعاً ، وفى ذلك يقول الله تعالى (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متسا كسون ، ورجلا سلا لرجل هل يستويان مثلا « ٢٩ » (١) ) .

فنى الله يوسف يرنا أن توحيد الاله المصود مصلحة للناس وخير لهم ، وتنظيم لعباتهم ، وجمع لشتاتهم ، أما الشرك فهو مدعاة لتشويش نفس العابد ، وتفریق أمره ، فيما بينه وبين معبوده ، ولذلك كان التوحيد متفقا مع الفطر ، ومتناسبا مع العقول ، ومتمشيا مع المصلحة ، فمن ناحية تعدد الآلهة مدعاة لتزاعها الدائم ، وخلافها المستمر ، وذلك يفسد النظام ، كما قال تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا « ٢٠ » (٢) ) وقال (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلنا بعضهم على بعض سبجان الله عما يصفون « ٩١ » (٣) ) ومن ناحية أخرى فإن الشرك مدعاة لتشويش أمر العابد ، واختلال نظامه ، فلا يستطيع أن يوفق بين مرضاة إلهين أو آلهة اختلفت مشاربهم ، وتباينت مطالبهم . ذلك ما يشير إليه نبي الله يوسف عليه السلام (ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها وأنتم وأبائكم ما أنزل الله بها من سلطان) يريد أنكم سميتم آلهة وعبدتموها ، وخلقتم ألقاظا فارغة لاسميات لها وخضعت لها . والسلطان : الحجة والبرهان . وقوله (ما أنزل الله بها من سلطان) أى حجة لأنها باطل ، والباطل لا ينزل الله به حجة ، وإنما ينزل حجة بالحق (إن الحكم إلا لله) فى أمر العبادة والدين (أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم) الثابت الذى تقوم عليه مصالح الناس ومعاشهم ، وفيه حياتهم فى الدنيا والآخرة (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) قيمة ذلك الدين .

(٣) (يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقى ربه خرا) وهو الذى رأى أنه يعصر خرا ولم يبين ذلك الأحد لوضوحه وجلاله : أى فيخرج من السجن و يعود الى سيده فيسقيه خرا ، لأن عصير العنب ما له أن يكون خرا ، والشأن فى العاصر أن يعد للقوم شرابهم ، وكأنه أخذ عودته الى ما كان عليه ، وعصره خرا لسيده من قرآن تتعلق بصاحب الرؤيا .

(وأما الآخر فيمصاب فتا كل الطير من رأسه) وهو الذى رأى أنه يحمل فوق رأسه خبرا تاكل منه الطير ، لأن ذلك هو المعهود من أكل الطير من رأس الرجل ، ولعل تعيين طريق القتل وتحديد به بالصلب لأن المصوب يبقى منتصبا ، ومن الممكن أن تسلط عليه الطير وهو على ذلك الحال ، أما الذى يموت بطريق آخر فالشأن فيه أن لا يكون كذلك ، فلا تسلط عليه الطير ، وإنما تسلط عليه ديدان الأرض وهو امها ، ويظهر أنه كان من عادتهم إذا صلبوا أحدا تركوه على حاله مصلوبا حتى يتعفن وتأكل منه الطير ، ولعل ذلك النوع من التحنيل بالقتل كان خاصا بالجرائم المتعلقة بالملك ، وذلك مما يؤيد صحة الاخبار بأن ذلك الرأى كان خباز الملك واتهمه . وما أكثر هذه الاتهامات فى كل زمن - بأنه دس لملك فى طعامه سما .

(قضى الأمر الذى فيه تستفتيان) أى بتّ فى تعبيره وتأويله ، فليس محلا للنقاش والجدل . وقد ظهر لى الآن حكمة قول يوسف (أما أحذركا) وقوله (وأما الآخر) بلفظ مبهم ، وهو أن يوسف لم يرد أن يواجه كل واحد من صاحبين بتأويل مارأى ، لأن إحدى الرؤيين سارة ، والأخرى مزحجة ، ولذلك رأى أن يعبر بذلك اللفظ المبهم ، وإن كان المعنى مفهوما ، وذلك تلتف من يوسف فى التعبير ، وحرص على عدم إزعاج صاحب الرؤيا قدر المستطاع ، وهو أدب ينبغى أن يراعى فى باب التعبير .

(وقال للذى ظنّ أنه ناج منها اذكرنى عند ربك) أى قال يوسف للصاحب الذى ظنّ أنه ناج من السجن وعائد الى ما كان عليه من النعيم (اذكرنى عند ربك) أى اذكر مظلمتى عند سيدك ، والضمير فى قوله (ظنّ) ان كان للرجل الناجى فالأمر ظاهر ، لأنه لم يكن هو صاحبه مؤمنين بنبوة يوسف وإخباره عن الله تعالى ، بل كما حسنى الاعتقاد فيه ، وكأن وعظه لهما قد وصل بهما الى مجرد الظنّ ، أو فهما أن تعبير يوسف يرجع الى القراسة ، وهى لا تفيد أكثر من الظنّ .

أما إذا كان الضمير ليوسف فالظنّ بمعنى اليقين لأن يوسف مؤمن بصدق نفسه فيما أخبر عن الله تعالى إذا كان تأويل الرؤيا بتوقيف من الله تعالى ، أو هو ظانّ ذلك التأويل ان كان عن اجتهاد وفراسة ، واطلاق الظنّ على اليقين مألوف فى القرآن الكريم ، ومنه قول الله تعالى (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون «٤٦» (١)) قال ذلك فى وصف المؤمنين الخاشعين ، وإيمان هؤلاء لم يكن مجرد ظنّ ، وإنما هو يقين عبر عنه بالظنّ لقربه منه فى الرتبة والمنزلة ، والأظهر أن يوسف كان على بينة من تأويله ، وأن تأويله وصل من نفسه الى حد القطع واليقين وآية ذلك قوله للصاحبين بعد تعبير رؤياهما (قضى الأمر الذى فيه تستفتيان) أى أنه لبس له تأويل سوى ذلك ، وإنما يقول ذلك من شئ بتأويله الى حد كبير ، وقوله (لا يأتىكما طعام ترزقانه إلا بأتىكما بتأويله قبل أن يأتىكما ذلكما مما علمنى ربى) هو إخبار بأنه على استعداد لأن يخبرهما عن ما ل كل طعام يصل إليهما ، ولا يقول ذلك إلا واثق بما يخبر به ، وهو مما يرجع أن ذلك التأويل كان إلهاما من الله تعالى مباشرة ، وأن مسألة الطعام التى استعد لها يوسف كانت بوحى من الله تعالى ، كما أخبر عيسى عليه السلام أنه مستعد لأن يخبر قومه عما يأكلون وما يتخرون فى البيوت .

ولعل تأويل يوسف للرؤى والأحلام ، واستعداده للأخبار بالفيبيات هو آية رسالته ، ودليل صدقه ، فإن كل رسول له من الآيات ما من شأنه أن تؤمن عليه الناس ، كما ورد فى الحديث الصحيح ويظهر أن تأويل الأحلام كان له شأن فى عصر يوسف ، وإلا لما بال يوسف بمجرد وضع رجله فى السجن يقصّ عليه فتیان دخلا معه السجن مارأيا ، وما بال الملك يرى الرؤيا فيسأل عنها الملائ والأشراف من قومه وعشيرته ، ويهتم بتأويل هذه الرؤيا على غير عادة الملوك فى أحلامهم ورؤاهم فيعتنرون له بأنها أخلاط ، وأنهم ليسوا أهلا لتأويل الأحلام ، وليسوا من العلم الى حد يمكنهم من ذلك .

أما الاخبار بالغيبيات فهو آية واضحة على صدق يوسف ، لأن الله استأثر بالغيب فلا يعلمه أحد إلا بتعليم منه . وأما تأويل الأحلام فبعضه يعتمد الاطعام والوسى ، وبعضه يعتمد الفقه في دين الله ، وقياس الأمور بأشبهائها ، وبعضه يعتمد الكياسة والحدق وفهم الحياة ، والفراسة الصادقة ولذلك علمه الرسل وعلمه ترواج الرسل ، وهذه أئمة المسلمين أخذوا بسهم وافر بل بأسهم في ذلك العلم ، ووضعوا له قوانين ، ونفعوا فيه الى حد كبير .

وهذه مؤلفاتهم بين أيدينا : منها مؤلف محمد بن سيرين المحدث المشهور ، ومؤلف الثالبسى ، وها مطبوعان بمصر في كتاب واحد ، وغيرهما كثير ، وهذا ابن خلدون يقول في مقدمته :

( أما الرؤيا والتعير لما فقد كان موجودا في السلف كما هو في الخلف ، وربما كان في الملوك والأئم من قبل ، إلا أنه لم يصل إلينا لا اكتشافا فيه بكلام المعبرين من أهل الاسلام ، وإلا فالرؤيا موجودة في صف البشر على الاطلاق ، ولا بد من تعيرها ، فلقد كان يوسف الصديق صلوات الله عليه يعبر الرؤيا كما وقع في القرآن ، وكذلك ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أبي بكر رضي الله عنه .

ثم اعلم أن التعبير علم بقوانين كلية يعنى عليها المعبر عبارة ما يقص عليه وتأويله ، كما يقولون : البحر يدل على السلطان ، وفي موضع آخر يقولون : البحر يدل على الهمم والأمر القادح ، ومثل ما يقولون : الحية تفل على العدو ، وفي موضع آخر يقولون هي كاتم السر ، وفي موضع آخر يقولون تفل على الحياة ، وأمثال ذلك ، فليحفظ المعبر هذه القوانين الكلية ، ويعبر في كل موضع بما تقتضيه القرائن التي تبين من هذه القوانين ما هو أليق بالرؤيا ، وتلك القرائن منها في اليقظة ، ومنها في النوم ، ومنها ما ينقدح في قصص المعبر بالخاصية التي خلقت فيه ، وكل ميسر لما خلق له .

ولم يزل هذا العلم متناظرا بين السلف ، وكان محمد بن سيرين فيه من أشهر العلماء ، وكتب عنه في ذلك القوانين ، وتناقلها الناس لهذا العهد ، وألف الكرماني فيه من بعده ، ثم ألف المتكلمون المتأخرون وأكثروا ، والمتداول بين أهل المغرب لهذا العهد كتب ابن أبي طالب القيرواني من علماء القيروان ، مثل المنع وغيره ، وكتب الاشارة للسالمى ، وهو علم مضى بنور النبوة للناسبة بينهما ، كما وقع في الصحيح والله علام الغيوب (١) اهـ .

وجلة القول أن تأويل الأحلام يجوز أن يكون آية ليوسف ، ودليلا من دلائل صدقه ، أما إخباره بالغيب في مسألة الطعام إذا فهمنا في الآية أنها في الاخبار بالغيبيات فهي آية واضحة على صدق يوسف ، فإذا لم يكن يوسف قد أرسل إليه وهو في السجن كان ذلك إرهابا لنبوته ، وتمهيدا لرسالته ، وقد عهد في الرسل أن يتقدم رسالاتهم الارهاصات والخوارق ، وقد قال الله وهو يتحدثنا عن مؤمن آل فرعون فيما يحدث ( ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن نبعث الله من بعده رسولا « ٣٤ » ) (٢) ولم يبين لنا القرآن ما هذه البينات أمى الآيات المتلوة من الكتب التي كانت تنزل على الرسل ؟ أم هي دلائل صدقه ؟ وهل هذه الدلائل خوارق العادة أو غير خوارق ؟ كل محتمل ، فان الله تعالى لم يلزم مع كل

رسول أن يؤيده بخوارق ، بل يؤيده بآيات تدل على صدقه ، ومن آيات الصدق سيرته المرضية وتاريخه المجيد ، وعدم مطالبة الناس بأجر على ما يدعوا اليه ، وأمثال ذلك .

ولقد كان ليوسف الماضي المجيد ، والتاريخ الحافل بالفضائل ، وقوة الإرادة ، والصبر والعفة في أحوال أوقات الفتنة ، وأشد أنواع الزلزلة ، فكان مثلاً صالحاً ، وقوة حسنة في الاستقامة ، والتضحية ، ونكران الذات - كل ذلك وأمثاله دلائل على يوسف إذا هو ادعى أنه رسول من عند الله ، ولعل الله تعالى ذكر لنا يوسف في هذه السورة . وقال ( لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين ) ليرينا أنها هي وحدها تكفي دليلاً على صدق يوسف عند ادعائه رسالة الله ، فإنها مشحونة بالفضائل ، خاصة بالعبر ، ولا سيما فيما يتعلق بشخص يوسف ، وإرادته الحديدية ، وصبره على كيد امرأة العزيز ، بعد صبره على كيد إخوته ، وتفضيله السجن على فساد الخلق ومعارضة الله ، وامتناعه عن الملك بعد أن طلبه من السجن حتى تقوم الأدلة على براءته ، ويعلم الناس جليلة أسمه ، كل ذلك أدلة على صدق يوسف ، وقوة إرادة يوسف ، واسطفاء الله ليوسف ، وإعداد له منصب هو أعلى ما يصل إليه البشر في هذه الحياة : هو منصب الرسالة العظمى ، والخلافة في الأرض ، ليقم العدل ، ويحكم بين الناس بالحق .

هذا هو الفخر لاغبان<sup>(١)</sup> من لبن شيبا بماء فكنا بعد أبوالا

(٤) (فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين) أي أنسى الشيطان الشراقي أن يذكر يوسف وقصته عند ربه وسيدته فكان ذلك سبباً في بقاءه في السجن بضع سنين ، والبضع من ثلاثة إلى تسع ، والمراد أنه لبث مدة بين ثلاث وتسع ، أما تحديدها فلا دليل عليه ، وهي عقوبة من الله تعالى ليوسف على قوله للذي ظن نجاته من الرجلين (اذكرني عند ربك) روى ابن جرير عن مالك بن دينار قال : لما قال يوسف للساق اذكرني عند ربك قال قيل ليوسف اتخذت من دون الله وكيلاً ؟ لأطيلن حبسك . فبكى يوسف ، وقال : يارب أنسى قلبي كثرة البلوى ، فقلت لمة : فويل لأخوتي .

وروى عن الحسن قال : قال نبي الله صلى الله عليه وسلم : رحم الله يوسف لولا كنهه ما لبث في السجن طول ما لبث . يعني قوله : اذكرني عند ربك . قال ثم يبكي الحسن فيقول : نحن إذا نزل بنا أمر فزعنا إلى الناس .

وقد عاقب الله تعالى يوسف بلبثه في السجن بضع سنين على هذه الكلمة ، وهي قوله (اذكرني عند ربك) ليرينا أنه لا ينبغي لمن أعدّه الله للرسالة أن يعرض حاجته على أحد سوى الله تعالى ، ويقول المفسرون إن هذه العقوبة لأن يوسف عن اصطفاؤه الله تعالى ، فلا يليق به والحالة هذه أن يلجأ إلى مخلوق في دفع ظلامته ، وإن كان التعاون على الخير ودفع الظلم مشروعا لعامة الناس إلا أن الاتق بمقام يوسف تفويضه الأمر إلى الله تعالى ، وهو كقولهم [ حسنات الأبرار سيئات المقربين ] هكذا يقول المفسرون .

وأنا أرى أن من حق يوسف أن يبلغ ظلامته للملك بواسطة الساق الذي كان معه ، وأن يعمل

[١] واحد قوب جنتع القاف ، وهو الفصح ، شيئاً : خطأ .

على تبرئة نفسه مما ألصق به .

وقد وصف الله المؤمنين بقوله (والذين إذا أصابهم البأس هم ينتصرون « ٣٩ » )<sup>(١)</sup> وقوله (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا « ٢٢٧ » )<sup>(٢)</sup> وإذا كان يوسف لم يستطع أن ينتصر لنفسه بالعمل فلا أقلّ من القول والبلاغ ، وإذا لم يكن من حق يوسف أن يدفع الظلم عن نفسه فلماذا واجه العزيز في حضرة زوجته بقوله (هي راودني عن نفسي) أليس ذلك دفاعا عن النفس ، وانتصارا من الظالم ؟ فإذا قال للساقى (اذكريني عند ربك) فهو يريد دفع ظلم عن نفسه بواسطة رجل أسدى إليه جيلا ، وأحسن إليه أيام إقامته معه بالسجن ، عند ملك هو صاحب الأمر والنهي . وإذا أنسى الشيطان الساقى أن يذكر يوسف عند سيده فاعلم ذلك لأن بلاءه وقتنته لم تنته بعد ، وقد رآه الله أن يبقى في السجن بضعة سنين بعد خروج الساقى .

وقد يريد أن يوسف محق في رفع ظلامته ، وأنها ليست محلّ غضب الله أو عتبه عليه قوله (فأنساه الشيطان ذكر ربه) أي أن ذلك الانساء الذي سلب على الساقى كان من الشيطان ، ولولا أن النكر كان موضع رضا من الله تعالى ما كان الانساء من الشيطان .  
أما ماورد من روايات كرواية ابن جرير وغيره فقلّ أن يصحّ منها شيء كما قال أحمد بن حنبل قلّ أن يصحّ في باب التفسير شيء .

(هـ) (وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وآخر يابس) يا أيها الملك! أفترى في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) رأى الملك هذه الرؤيا ، وعرضها على الملأ والأشراف من قومه من علماء وغيرهم وطلب منهم أن يفتوه في تلك الرؤيا إن كانوا ممن يعبرون الرؤيا (تعبرون) تذكرون عاقبتها وآخر أسرها كما تقول عبرت النهر : إذا قطعت حتى تبلغ آخر عرضه ، ونحوه أولت الرؤيا : إذا ذكرت ما لها وهو مرجعها (قالوا أضغاث أحلام) تخالطها وأباطيلها ، وما يكون منها من حديث نفس أو وسوسة شيطان ، وأصل الأضغاث ما جمع من أخلاط النبات وحرم ، الواحد ضغث ، فاستعيرت لذلك ، والاضافة بمعنى من : أي أضغاث من أحلام . والمعنى هي أضغاث أحلام ، وقد جمع مع أنها حلم واحد ، كما تقول فلان يركب الخيل ، ويلبس عمامة الخو ، لمن لا يركب إلا فرسا واحدا ، وماله إلا عمامة فردة ، تريد في الوصف ، فهو لا أيضا تريدوا في وصف الحلم بالبطلان فجعلوه أضغاث أحلام ، ويحتمل أن الملك قد قصّ عليهم مع هذه الرؤيا غيرها .

(وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) إما أن يريدوا للمنامات البطالة خاصة فيقولوا ليس لما عندنا تأويل ، فإن التأويل إنما هو للمنامات الصحيحة الصالحة ، وإما أن يعترفوا بقصور علمهم وأنهم ليسوا في تأويل الأحلام مطلقا بعلماء نحرير (وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمتة أنا أنبئكم بتأويله) الضمير للصاحبين : أي قال الرجل الذي نجا من الصاحبين وهو الساقى ، وقد تذكر علم يوسف بالرؤيا وتأويله لها بعد مدة : أي أنه لم يتذكر وهو في مجلس الملك الذي وجه فيه إلى الملأ

سؤالهم عن هذه الرؤيا ، بل تذكر قصة يوسف وعلمه بعد مدة طويلة من الوقت الذى وقع فيه السؤال ( أنا أنفككم بتأويله ) أخبركم بما آل هذه الرؤيا وعاقبتها (فأرسلون) أى الى يوسف فى السجن وسهلا لى طريق مقابله فيه ، فأرسلوه فذهب إليه وقابله ( يوسف أيها الصديق ) أى وقال ( يوسف أيها الصديق ) الخ ، والقصة فيها إنجاز على عادة القرآن أن يحذف من القصة ما يدل عليه السياق ، وفيه دليل على أن العلم يرفع من شأن صاحبه ، ويوجه الناس إليه أى وجد وحيث حلّ ، وقد وصف يوسف بأنه [صديق] أى كثير الصدق حتى أصبح الصدق خلقا له ، وعادة لما جرت عليه وهو معه فى السجن من صدقه البالغ ، ولما جرب عليه من صدقه فى تأويل رؤياه .

( أفنتا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ) الخ (قال تزرعون سبع سنين دأبا) أى دائبين على عادتك المستمرة ، أو هو خبر بمعنى الأمر : أى ازرعوا سبع سنين دائبين على زراعتكم (فما حصدم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون) أى اتركوا ما حصدم من الفلال فى سنبله لئلا يأكله السوس إذا درستوه (إلا قليلا مما تأكلون) أى فادرسوه ، والمراد أن يزرعوا سبع سنين بجد واجتهاد ، وكل ما جمعه من الفلال يذخرونه فى السنايل حتى لا يتعرض للفساد ، ولا يدوسون منه إلا القليل الذى يحتاجون إليه فى الأكل ، ذلك هو تأويل البقرات السمان ، والسبع السنايل الخضراء ولها بسنين خصبة فيها الزرع والخير ، لأن السمين من البقر هو الذى يؤكل ، وهو الذى فيه الخير لأصحابه فى لحه ولبنه وما يتعلق به ، وكذلك السنايل الخضراء .

(ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلهن ماقدتم لمن إلا قليلا مما تحصنون) أى ثم يأتى بعد السنين السبع الخصبة سبع سنين مجعدة شديدة على الناس يفنين ماقدتم لمن : أى يأكل أهلن ما اذخرتم لأجلهن فى السنين الخصبة (إلا قليلا مما تحصنون) تحززون لبذرو الزراعة ، ذلك هو تأويل البقرات العجاف والسنايل اليابسات (ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يفاث الناس وفيه يصرون) أى ما يصلح للعصر كالغلب والزيتون والسمسم ، والمراد بذلك كثرة النعم ، وعموم الخصب فى الزرع والثمار ، فيفانون فيه بالمطر ، ومتى حلّ المطر حلّ الخصب والخير .

وقد أخذ يوسف عليه السلام من تحديد البقرات والسنايل بالسبع أن سنى القحط سبع ، وأن سنى الخصب كذلك . أما الاخبار بأن يكون عام بعد السبع فيه يفاث الناس فليس فى الرؤيا ما يدل عليه ، فليكن ذلك من إلهام الله ووحيه له ، ولو قال ثم يأتى من بعد ذلك وقت فيه يفاث الناس لقلنا ان يوسف فهم ذلك من تحديد البقر والسنايل بالسبع ، ومعناه أن بعد السبع المجذب الماحل يكون الخصب المستمر ، أما وقد حثّه بالعام ، والعام : هو السنة فلا سبيل الى ذلك التحديد إلا من طريق الوحى أو من طريق اختصاص يوسف بفهمه . وهو تأويل خطير يهيم الملك أن يقف عليه ، ويعلم مصدره ويقين قيمة هذه الرؤيا ، لأنه خطر يهدد دولته وأمنه ، وهو خطر المجاعة التى أخبر عنها يوسف ، ولو كانت مجاعة تبقى شهرا أو سنة لكان الأمر ، ولكنها مجاعة تبقى سنين . والمهم من تأويل يوسف فوق اخباره بهذه المجاعة أنه وصف ذلك طريق الخلاص منها ، وتوقيا ، حتى لاتقع أمته فى ضيق . ذلك كله مما حل الملك على أن يطلب يوسف ،

وهو لم يعم من اسمه أكثر من أنه فني سجين ، وكان يظن أنه سجن بجرمة عادية نسبت إليه كبقية السجناء ، وما كان يدري أن هناك مؤامرة قد دبرت ضده كفاه أمانته وعفته ، وإخائه على شرف العزيز ، ومقابلة الاحسان بالاحسان . وجرمة هذه أسبابها لا بد أن يقيض الله للنهم بها من يخلصه منها .

(٦) وقال الملك اتنوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع الى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم ) طلب يوسف لمناسبة تأويله رؤياه الخطيرة ، فلم يكن من يوسف إلا التأني ، وقال للرسول (ارجع الى ربك) وسيدك وهو الملك (فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ) أى ماشأتهن وقصتهن ، وهل لاحتظن على يوسف ما يؤيد نعمة امرأة العزيز أو ما يبرئه ؟ ولعل يوسف طلب أن يكون السؤال للنسوة لأنه لم يكن يظن أن امرأة العزيز تعترف أمام الملك بأنها هي الخاطئة ، فكان أمه في النسوة فوق أمه في امرأة العزيز .

ونأمل ذلك الصبر البالغ ، وهذه الإرادة الحديدية التي تجلت في يوسف ، يطلبه الملك من السجن لحاجته اليه ، ومعنى ذلك أن مدة المحنة قد انتهت ، وأذنت بالخروج ، وكان المنتظر أن يتلق يوسف ذلك الأمر بفارغ الصبر ، فيهرول الى الخروج ، ولكن يوسف الصديق ، يوسف الملع لأن يكون رسولا ، يوسف الذى امتحن بامرأة العزيز وراودته عن نفسه فقال لها (معاذ الله إيه ربي أحسن منواى إنه لايفلح الظالمون ) حفظ لرب البيت احسابه ، ولولاه وخالفه فضله عليه ، يوسف صاحب هذا الخلق المتين لم يكن همه أن يخرج من السجن لحسب ، وإنما همه أن يخرج ظافرا منتصرا ، همه أن يخرج من هذه الفتنة كالابرز الخالص ، وأن يظهر للجماهير أنه قدوة حسنة ، ومثال صالح في الخلق وحسن السيرة .

ولو تصور الانسان ما يقاسيه السجن ، وما يلقى من شظف العيش ، وأن يوسف قد لبث فيه بضع سنين بسبب نسيان صاحبه أن يذكره عند ربه وقد أوصاه بذلك .

لو تصور الانسان ذلك كله لعلم مقدار التضحية التي فحى بها يوسف الصديق في رده رسول الملك وقوله له (ارجع الى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن) ومعنى ذلك أنه لا يريد أن يخرج من السجن الا حيث فبت براءته ، وعلم الناس جميعا أن محبته بيضاء تقية ، لم تتدنس بشيء من الغار ، وذلك حزم وعزم من يوسف يحفظه له التاريخ ، وحسبه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيه [ لو لبث في السجن مالمث يوسف لأجبت الهامى <sup>(١)</sup> ]

وهي شهادة لها قيتها ، ومنقبة ما أعظمها من منقبة ، تعلمنا كيف يستهين الانسان بالشدائد في سبيل طهارة النفس وبراءة العرض ، وترينا أن عذاب الجسم وإن عظم دون عذاب الروح ، فإن عذاب الجسم الى زوال ، أما عذاب الروح ، وألم الضمير ووخزه فهو عذاب الأبد فلا يوازيه شيء من عذاب الجسم ألا ترى الى المؤمنين في كل زمان يستهينون بعذاب أجسادهم في الجهاد والخروب في سبيل راحة قلوبهم ، وقيامهم بواجبهم نحو دينهم وربههم .

وقد ترى في الرجل مالا يحصى من الضربات والطعنات ويبلغ به الألم الجسدى ما يبلغ ، وهو



راض مطمئن ، لأنه في سبيل راحة قلبه والمطمئنان نفسه ، ولا عجب فهو ألم موقت في سبيل نعيم دائم ، وهو كما يتلقى الرجل العمليات الجراحية وفيها شق بطن أو يتر عضو من أعضائه بريطة جأش .  
وقلب راض في سبيل أن يعيش بعد ذلك عيشة مريحة وبجيا حياة هادئة مطمئنة .

وقد حدثنا التاريخ عن سلفنا الصالح أن الرجل كان ينتهي من ميدان القتال وفيه من أثر الطعن والنزال ما يودي بحياته ، ويمرّ عليه صاحبه وهو يلفظ النفس الأخير ، فيأخذ في تسليته فيلقاه مقتبلاً بحاله ، مسروراً بما آل إليه ، لأنه مات في سبيل الواجب ، وقتل لأعلاء كلمة الله ، وسيموت شهيداً يشهد له دمه وعمله ، وسيكون قدوة صالحة لمن يأتي بعده .

كلّ ذلك في سبيل راحة النفس وسعادتها ، وكل ذلك في سبيل حياة طيبة تتبع هذه الحياة ، وكلّ ذلك في سبيل الله كرى الطيبة والسيرة الحسنة .

فبني الله يوسف يضرب لنا ذلك المثل وهو رضاء بالسجن حتى تظهر برأته ليرينا أن شظف العيش ، وخشونة الحياة ، وحرمان الرجل من ذلك النعيم الذي نرى : سهل وهين في سبيل السيرة الطيبة ، وراحة القلب ، وأن تعلم الناس أن السجين برىء مما نسب إليه ، بعيد مما رمى به . وهكذا يجب أن يضحى الناس براحة أجسامهم في سبيل راحة قلوبهم ، وأن يفضّلوا الحياة الخسنة التي فيها كرامتهم على الحياة الناعمة إذا كان فيها مساس بخلقهم .

وقد نلح من خلق يوسف المتين ، وادته الحديدية ، وصبره على المكابر ، واحتماله في سبيل الكرامة وحفظ الخلق - قد نلح من ذلك سلوة الزعماء وهم في غيابة السجون ورضاهم وهم مكبلون بالسلاسل والأغلال ، وطمأنينة نفوسهم وإن كانت أجسامهم في شقاء ، وثبات أقدسهم وإن كانت أجسامهم في عناء .

نعم قد يكون ذلك في الزعماء ماداموا مؤمنين بصحة مبادئهم ، موقنين بأن حقهم سينتصر على باطل غيرهم ، واثقين بأن الله ناصرهم ومؤيدهم ، فإذا جاءهم رسول وهم في السجن يسأوهم على بلادهم في سبيل راحة أجسامهم رفضوا ذلك باباء وشهم ، وقالوا للرسول كما قال يوسف أرجع إلى ربك وقل له (رب السجن أحبّ إليّ مما يدعونني إليه) ولا سبيل إلى المساومة في مصالح البلاد ، ونكون خائنين للأمانة التي وضعت في أعناقنا ، والعهد الذي أخذناه على أنفسنا ، إذا نحن أثّرنا راحة أجسامنا على راحة قلوبنا وضمائرنا ، ونكون مثلاً سيئاً وقدوة غير صالحة إذا نحن أجبناه إلى ما طلب ، وقديماً عذب الناس في سبيل مبادئهم ، فكان عذابهم نصراً لها ، وتأييداً ، وكان سجنهم إطلاقاً للبلاد من أغلالها ، وفكاً لها من قيودها وسلاسلها .

وليقلوا للرسول الفاضل : إن لنا قدوة حسنة في نبيّ الله يوسف ، وضعته الشهوة الجائعة في السجن ، فلما طلبه الملك لعلمه وفضله ، قال له لا أخرج من السجن إلا حيث أجيب طلي ، وهو أن تسأل النسوة عن أمري ، ليخبرنك أبرى . أنا أم مجرم ؟ وهل سجنى كان ظمأ أم حقا ؟ فلتكن إجابتنا لك كاجابة يوسف لرسول الملك : لا نخرج من السجن إلا إذا نظر الله أن أرسلك في مطلبنا ، واعترف بأننا محقون لابطالون ، وأنتا بريئون لامتهمون ، وإذا لم نستطع أن نكون كنيّ الله في إشار السجون إلى أن نجاب إلى ما نطلب فلتكن كنيّ الله في أن لا يكون خروجنا

من السجن في سبيل عمل هو ضارّ ببلادنا ، وله مساس بخلقنا وكرامتنا ، فلا أقلّ من أن نخرج كرماء كما دخلنا ، لم نقسب لأمتنا في ضرر ، ولم نخلف لها عارا ، وذلك أقلّ ما تتطلبه الزامة من حق ، وما توجبه من تضحية - اما أن ندخل السجن لأننا نطالب بحق ، ونخرج منه لأننا اعترفنا بأننا مخطئون فيما نطالب به فذلك ما لا يليق بزعيم ، ولا ينبغي لمن يعرف لنفسه كرامة .

(٧) فلما جاءه الرسول قال ارجع الى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ان ربي بكيدهن عليم ) طالب رسول الملك أن يرجع الى ربه وهو الملك الذي طلب يوسف ، وأن يسأله عن النسوة اللاتي كنّ مع امرأة العزيز وقطنن أيديهن ماشأتهن ؟ والمراد تهييج الملك ليقف على حقيقة الواقعة التي تتعلق بيوسف في ذلك الوقت الذي يحتاج اليه فيه ، وقوله ( ان ربي بكيدهن عليم ) أراد به مولاه وخالفه ، فهو عليم بكيدهن ، وسيجازيهن على ذلك الكيد ، أو أراد به العزيز ، علم بكيدهن عند وقوع الحادثة ، وشهادة الشاهد أمامه ، وقال بعد شهادة الشاهد ( انه من كيدكن ان كيدكن عظيم يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين ) ولك أن تقول : انه أراد بالربّ الملك ، وأنه عليم بكيد النساء .

ومن أدب يوسف مع امرأة العزيز أنه لم يذكرها بسوء أمام الرسول ، ولم يعرض لها في القصة وكأنها أجنبية عنها ، بل طلب من الملك أن يسأل النسوة .

( قال ما خطبك إذ راودتن يوسف عن نفسه ) أي فأحضر الملك النسوة ومعهن امرأة العزيز وسألهن ذلك السؤال .

وقد أضاف المراودة الى النسوة جميعهن لأنهن راودنه لأجل امرأة العزيز ، لا لأنفسهن ، وقلن له أطع مولاتك وسيدتك ، متعاونات معها على الاثم ، مشتركات في الحرمة ، لذلك نسب المراودة اليهن .

أما القول بأن كل واحدة من النسوة راودت يوسف عند الوليمة التي أقامتها امرأة العزيز فهو بعيد ، لأنهن في ضيافتها . أولا فلا يشاركنها في معشوقها ، ولأنهن رأينه لأول مرة يمرّ عليهن . ثانيا ولم تجر العادة بأن امرأة تراود رجلا أو فتى لأول مقابلة ، فالظاهر أن المراودة كانت منهم لأجل امرأة العزيز ، ولم يكن منهن مراودة ما وانما كان منهن رضا وقرار لما فعلته امرأة العزيز في قولها ( ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ) وقد عهد اضافة الفعل الى الراضي به ، وعقوبته عليه لجريمة الرضا .

وقد نسب الله تعالى الى قوم صالح أنهم عقروا الناقة ، وما عقروها إلا واحد منهم ، ولكنهم لما رضوا بذلك العمل المنكر وأقرّوه ، وكان في استطاعتهم انكاره نسب العقور إليهم جميعا ، ليرينا أن الأمة متضامنة متكافلة في خيرها وشرّها ، وأن على الناس إذا رأوا منكرا أن يضرّوا على يد صاحبه ، وإلا عهم الله بعذاب من عنده .

وأولئك النسوة لم يلفغا الله تعالى عنهم الانكار على امرأة العزيز عند ما قالت ( ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ) بل حدّثنا القرآن أنهن أخذتهن بنسوة الجلال ،

وزهلن عن أنفسهن عند مرور يوسف عليهن ، وأن امرأة العزيز استطاعت أن تعذر الى نفسها أمامهن حيث ثلن بيوسف الى ذلك الحد الذي أنساهن أنفسهن حتى قطعن أيديهن ، واستطاعت أن تقطع ألسنتهن عن الكلام في شأنها ، والتحدث في قصتها ، وكأنها تقول لمن لم تستطعن أن تثقين أمام جال ذلك الفتى لأول مرة مرةً عليكم فيها ، فلتعزني وقد عاشته المدة الطويلة وصبرت عليه ذلك الزمن ، فهن راضيات عن عمل امرأة العزيز مع يوسف ، وتهديدها له ، بل وفوق الراضيات ، ولو كن في مركز امرأة العزيز لفعلن كما فعلت ، وأكثرهما فعلت .

فلا عجب أن ينسب الملك المارودة إليهن جميعاً مع أن الذي راود يوسف هو امرأة العزيز وحدها . (قلن حاش لله ماعلنا عليه من سوء) وحاش لله : كلمة تنزيه ، والمراد تنزيه الله أن ينسب سوءا ليوسف ، كأن نسبة السوء إليه ضرب من المحال يبنى تنزيه الله منه ، والمراد منها مع التنزيه التعجب من عفوه وتزاهته (ماعلنا عليه من سوء) أي من أي نوع من أنواع السوء كما يعطيه لفظ «من» المحال على النفي المستغرق (قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) حصحص : أي ظهر الحق أجرد أحمرد لا نستره شبهة ولا نهمه : كما يحصى ويسقط الشعر أوريش الطائر . أثبت واستقر ، من قولهم حصحص البعير إذا ألقى مباركه للاناخه فالكلمة بمعنيها أبلغ ما يعبر به عن المعنى المراد في هذا المقام ، وكانت حصصة الحق وظهوره بما ظهر من وقائع القصة ، وهي فرار يوسف منها [ أولاً ] ومن إثارة عيشة السبعن البائسة في خشوتها ومهاتها على عيشة القصور العالية في نعمتها وزينتها [ ثانياً ] ومن شهادة النسوة اللاتي تصبنه [ ثالثاً ] (أنا راودته عن نفسه) مغلوطة على نفسه ، فاقدة لعقل وشرى وحسى (وانه لمن الصادقين) في قوله (هي راودتني عن نفسي) .

قال المفسرون : لما راعى يوسف حرمة سيدته في قوله (مابال النسوة اللاتي قطعن أيديهن) دون أن يقول مابال زليخا أرادت أن تكافئه على ذلك الفعل الحسن ، فأرالت الفطاء واعترفت بأن الذنب منها .

ونظيره ما يحكى أن امرأة جاءت بزوجه الى القاضى وادعت عليه المهر ، فأمر القاضى بأن يكشف عن وجهها حتى يتمكن الشهود من أداء الشهادة ، فقال الزوج : لاجابة الى ذلك فاني متر بصديقها فدعواها ، فقالت المرأة لما أكرمنى الى هذا الحد فاشهدوا أنى أبرأت ذمتي من كل حق لي عليه اه .

يريدون أن امرأة العزيز لما رأت أدبا جا من يوسف قابلت ذلك الأدب بتلك الشهادة (هل جزاء الاحسان إلا الاحسان «٩٠» ، <sup>(١)</sup>) ولم يكن ذلك أول أدب رآته من يوسف فان الفتى الذي يؤدبه ربه ليصطفيه لرسالته ، ويهذب له ليختاره وسيطاً بينه وبين خلقه ، لا ينتظر منه إلا أن يكون مؤدباً ، وهل أوقعه في هذه المحنة مع امرأة العزيز إلا أدبه مع مولاه الذي قال لامراته (أكرهى مثواه) .

ولو أن امرأة العزيز أرادت أن تقابل يوسف بمثل ما فعل ، وتحجزه على أدبه جزاء وفاقا ،

ماوقفت منه هذه المواقف ، ولكن سلطان الجلال ، وضف الخلق ، وسوء التربية ، هو جعلها تسقط هذه السقطة ، وتكبو تلك الكبوة ، وقد لا يكون في حسانها أن تسمى إليه ، ولكنها الشهوة الجاهلة ، والمحبة العمياء ، وغرورها بنفسها وسلطنة زوجها ، أوقعتها فيما أوقعتها ، ووصلت بها الى ماوصلت ، فلما عاد إليها رشدها ، ويئست من الحصول على غايتها ، ووصلت المسألة الى الملك وطلب النسوة ، وأسألن عما يعلن في يوسف ، وظهر للناس من أمر يوسف مايقب براءته رأت أن تعترف بالحق وتبرئ ساحة ذلك الفتى المتهم فقالت ( الآن صحص الحق أنا راودته عن نفسه ) ولم تقف في تركيتها ليوسف عند ذلك الحد ، بل جعلته في عداد الصادقين في كل مايقول ويقبل ، وهي شهادة لها قيمتها من امرأة العزيز أمام الملك ، بعد شهادتها براءته أمام النسوة ، وقولها لمن ( ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ) أى امتنع بقوة وشدة ، فوق براءة يوسف أمام العزيز عقب حادث المراودة ، فالنسوة سمعن من امرأة العزيز براءته ، وشهدن أمام الملك براءته ، وامرأة العزيز اعترفت أمام الملك بالبراءة ، والعزيز علم من تحقيق تهمة المراودة ، وشهادة الشاهد أن يوسف برىء ، والله شهده بعد هذا وذلك [ وطوبى لمن شهد الله له ] ، لأنه صرف عنه سوء والقبحاء وأنه من عباده المخلصين ، فإذا بقى بعد هذا من شبهة توجه الى يوسف ؟ أو محاكمة يتعلق بها الكاتبون والمؤلفون ؟ .

( ذلك ليعلم أى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين وما أبرئ نفسي إن النفس لآثارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم ) من كلام امرأة العزيز ، لأن ذلك وقع وهو في السجن ينتظر جواب الرسول ، والضمير في ( يعلم ) ليوسف : أى أنها أقرت بنزاهته وعفته وهو في السجن ليعلم أنها لم تتكلم فيه وهو غائب بباطل حتى تكون خاتنة له ، لأن الله لا يهدي كيد خائن ، وكأنها تلوم نفسها على تلك الخيانة التي خانتها لخادمتها الأمين ، وقتاها المطيع ، إذ ألصقت به تهمة هو برىء منها ، كما تعف نفسها على خيانة بعلها وزوجها العزيز إذ راودت فتاها عن نفسه ، وذلك خيانة له ، وتعبط يوسف على أمانته وعفته في بيت سيده الذي أمرها أن تكرم مشواه ، كما تقبضه على أمانته مع ربه وخالقه في قولها ( وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ) وكأنها تقول: ان الله تعالى لم يوفقها في كيدها ليوسف ، لأنه كيد أساسه الخيانة ، وكيد ذلك حاله لا يهدي الله صاحبه ولا يوفقه للنجاح ، أما الكيد الذي أساسه الإصلاح ، وتثبيت الفضيلة في الأرض ومحاربة الفساد ، فانه كيد محمود ومكر حسن .

وجدير بذلك الكيد أن يؤيده الله وينصره ، كما ينكر الرجل الربى بولده ليصرفه عن الفاحشة ، ويحوّله إلى الطاعة ، وكما ينكر الله بأعداء الرسل ويدبر لهم ، لينصر الحق . ويخذل الباطل ( ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين « ٥٤ » ) (١) لأن مكروهه للإصلاح ، أما مكرمه فهو للافساد ومحاربة الرسل .

ثم ترينا الآية الكريمة [ وفيها الشهادة ليوسف من امرأة العزيز بالصدق والعفة ] أن الله تعالى وضع في نفوس النفقة إجلال الأتقياء وإكبارهم ، وإن لم يضع في قلوبهم محبتهم ، فامرأة

العزیز علی حرماتها من طلبها ، وقف يوسف عن تمكثها من شهوتها ، وذلك من شأنه أن أن يوغر الصدور ، ويعلأها حقدا وحنقا ، وهو مادعاها الى أن تلتصق به من التهم ما هو منه برى . شهدت له في النهاية بالصدق والعفة ، واعترفت له بالكرامة ، وهي تحله من سويداء القلب المحل الأول في الاحترام والاحلال .

وتلك آية من آيات الله في الفرق بين أهل الاستقامة وأهل الفسوق والفجور ، أودع الله في قلوب الناس اجلال المطيعين ، واحترامهم ، حتى من الفسقة والفجرة .  
وانك ترى ذلك ظاهرا جليا في طبقات الفرائش والبوايين فترى المستقيم منهم يهابه سيده ، ويخشاه ربّ البيت ، ويعمل لفضبه حسابا أى حساب ، وإن كان سيده فاسقا ، وترى سيده الفاسق على العكس من ذلك ، تراه صغيرا في نظر بوابه ، مهينا عند فرائشه وسائر خدمه ، حتى ولو كانوا فسقه يشتركون معه في الفسق والفجور ، (وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم) من تمة كلام امرأة العزيز تقول فيه : انها لم تبرى نفسها من الاثم ، ولم تزهها من الفاحشة ، لأن النفس أمارة بالسوء ، فهي لم تخرج عن أنها امرأة غير معصومة ، عرضة للعصيان ، فاذا نسبت الى يوسف تهمة هو برى منها فذلك من نفسها الأمارة بالسوء (إلا ما رحم ربي) بالعصمة من المحرمات (إن ربي غفور رحيم) رجوع منها الى الله تعالى في أن يفر لها ماسلف ويرحمها في جلة من يرحمهم .

(٨) (وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كله قال إنك اليوم لدينا مكين) .  
بعد أن ظهرت براءة يوسف مما نسب إليه ، وخرج من الفتنة صرفوع الرأس وضاء الجبين ، وبعد أن طلبه الملك ليخرج من السجن فأبى ألا تظهر براءته مما نسب إليه ، بعد ذلك كله طلبه الملك ليستخلصه لنفسه : أى يجعله خالصا له من شائبة الاشتراك ، وقد كان يوسف قبل ذلك خالصا للعزيز (فلما كله قال إنك اليوم لدينا مكين أمين) أى فلما حضر يوسف من السجن وكله الملك ، وعرف مواهبه وكفائته ، قال إنك اليوم عندنا (مكين) صاحب مكانة ومنزلة (أمين) على كل شيء يسند إليك ، لأن الذي أتمن على امرأة سيده عند طلبها الفاحشة ، وبعد أن غلقت الأبواب وقالت له (هيت لك) ولم يكن له فيه مانع من الفاحشة سوى نفسه التي بين جنبيه وضبطه الذي يتوعده بالتأنيب والتوبيخ - ان الذي يؤتمن في مثل ذلك الوقت الذي مهدت له فيه وسائل المعصية ، وأزيل من طريقها كل عقبة ، وقد طلبته إليها سيده ومولاته فيقابلها بالنفور والاشتمزاز ، ويستعصم من المعصية في قوة وشدة ، الذي يصنع ذلك كله ، ويؤثر حياة السجن على المعصية ، وشظف العيش في سبيل مرضاة الله على نعيمه في سبيل مرضاة الشيطان : جدير بالملك أن يطلب أن يكون بطانة له خالصة من دون الناس ، يأتمنه على أسراره ، ويأتمنه على شئون دولته ، ويأتمنه على خاصته وآل بيته ، ولذلك أطلق في قوله (أمين) ومعناه أمين على كل شيء يؤتمن عليه ، فانه لاشيء أصدق من التجربة ، ولا أدل من الفتنة ، والأعاصير تمرّ بالإنسان ، فيخرج منها إما مضعزع العقيدة ضعيف الارادة ، واما ثابت القلب رابط الجأش ، قد صهرته الشدة ، وصقلته الحوادث ، وعصمت نفسه الشوائد ، وأصبح رجلا عظيما مستعدا للطوارئ ، مهيبا للأحداث .

وقوله (فلما كلمه) يشير الى أن الملوكة من شأنها اذا سمعت برجل نابه وشاب مثقف ، خير بالثبوت العتمة ، يستطيع أن يستفيد منه الملك في مهام دولته ، وأن يستعين به على المشاكل التي تفرض له — من شأن الملوكة الذين يحرسون على مستقبل دولتهم ، ويعملون على أن يبقى الملك فيهم ، أن يتخيروا لمملكتهم أصلح الناس ، وأعلمهم بشؤون الحياة ، وأدراهم بتسيير الأمور . ومن الملوكة من يتخذ على الرجل النابه ، ويتألم من ذائع الصيت ، ويتأفف من حسن السلك وكأن الرجل الكفء في أمته عدو من أمته أعدائه ، وخصم من خصومه ، وما درى أنه قوة من قواه وعدة ينفعه وقتا ما ، وأن العلم في كل زمان لا غنى للناس عنه ، والكفاءة في الرجال ممن تنفع بها الدولة ، وتسود بها البلاد ، وأن الفقر المدقع ، والشقاء الذي لا يدانيه شقاء ، في خلوة الدولة من رجال ذوى كفاءة ومقدرة في شتى الشؤون ، ومختلف العلوم ، وأنه لا تستوى أمة غنية برجالها وعلمها ، وأمة فقيرة في العلم والرجال ، وما سبقنا الغربيون إلا بفنهم رجالاتهم ، وعلمهم النافعة المشيدة ، وما تأخر المسلمون إلا بفقرهم من هذه النواحي .

ولو أن ملوك المسلمين تأسوا بذلك الملك الذي طلب يوسف ليستخلصه لنفسه ، ويدخره للامات ، لو أنهم تأسوا بذلك الملك ، فاحتضنوا النابه من أممهم ، والكف من رجالاتهم لسعدوا وأسعدوا شعوبهم بذلك العمل ، ولكنهم مع الأسف الشديد يستخلصون من يوافقونهم على شهواتهم ، ويطاوعونهم على أهوائهم ، ويسارعون إلى إشباع نهمهم ، وسد مطامعهم ، يستخلصون من القوم أدنائهم نفسا ، وألأمهم طبعاً وأكثفهم نفاقاً ، وأبعدهم عن الأمانة ، وعزّة النفس ، وهم الذين إذا استشارهم الملوكة ظللهم ، وإذا استنصحوهم خانهم ، ويحورون لهم النابه من الأمة بصورة بشعة ، ويعملون على أن يجعلوا بينه وبين الملك سداً كما يصورون نهضة الأمة التي فيها حياتها وحياة ملكها بصورة تنفذ منها النفوس ، وتأفف لها الطباع ، ويجهدون في أن يضعوا الأشواك والعقبات في سبيل هذه النهضة لدى الملك ، ويفهمونه أنها حركة يراد بها الشر ولا يراد بها الخير فيحولون وجهه عنها ، ويصرفونه عن العناية بها .

وكان هذه البطانة فهمت أن النصيح لا يستسيغه الملك ولا يتقبله ، فآثروا عليه الفس ، وعلمت أنها إن أظهرته على أمور الدولة على حقيقتها سوف يضلله شخص آخر ، فيعود على البطانة بالأمّة ، ويعتقد فيها الفس والتدليس .

لذلك رأيت أن تؤثر عليه من الناحية التي يميل إليها ، وتصل إلى محبته لها من الطريق الذي ترى أنه أدنى لوصولها ، ولو أن تلك البطانة انتقلت إلى ملك مصلح لسارعت إلى الإصلاح والدعوة إليه ، وحيثه في ذلك العمل . لأنها تعرف من نفسه ميلا إلى الإصلاح .

وجملة القول أن بطانة الملوكة اليوم إلا القليل منها تأخذ من نفسية الملك وتشير عليه ، ومن ميوله فتصح له ، فما تأمر به البطانة هو ما يهواه الملك ويحبه ، وما تنهى عنه البطانة هو ما يفيضه الملك ويكرهه ، فهي تردد صدها في أمرها ونهيها ، وتنطق باسمه في ترغيبها وترهيبها ، فليس لها كلمة مع الملك ، ولا تستطيع أن تقول له إن ما تشير به قد خفي عليك وجه المصلحة فيه ، وأن

الخبر في تركه ، وما انتهى عنه الخبر للناس في العمل به ، لأنها قبلت ذلك العمل على هذا الأساس وهي أنها لا رأى لها مستقلا ، ولا كلفة لها اذا كانت تقضب صاحب الأمر والنهي ، ومن دخل عملا على أساس أنه لا رأى له فيه ولا إرادة ، بل إرادته تبع لإرادة الغير ، وتفكيره كذلك ، لاغنى له عن التزام ما دخل على أساسه .

وما الذي ينتظر من رجل يريد أن يعيش من ذلك الطريق ، وأن يثرى على أساس مثل هذه الوظائف ، لا ينتظر من ذلك الصنف إلا أنه يفسى نفسه واستقلاله في سبيل حصوله على الحطام وأنه يرى الحق مهيب الخناص ضعيف الجانب فلا يستطيع أن ينهره بكلمة ، وأنه يرى الباطل قد طغى على الحق ، فلا يجد من نفسه شجاعة على كلمة حق ، لأنه يتوهم أن في كفته إغضابا للملك ، وهو حريص على رضاه .

أما البطانة التي تتصل بالملك من غير طريق الوظائف فقد يربى فيها ما لا يربى من بطانة الموظفين ، فأنهم اذا نصعوا لا يخشون ضياع رزق أو فوات مال ، واذا غضب الملك لتسيبهم اليوم فيرضى عنها وقتا ما ، وكذلك البطانة التي يختارها الملك بعد الاختبار ، ويصطفها لنفسه بعد التجربة الصحيحة كيوصف فانها تستطيع أن تصل الى ما لا تستطيعه البطانة الأولى ، وأن الملك الذي يوفق الى بطانة من ذلك الصنف هو الملك الذي أراد الله بملكه خيرا .

يحدثنا أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزير صدق : إن نسي ذكره ، وإن ذكر أعابه ، وإن أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء : إن نسي لم يذكره ، وإن ذكر لم يسه » .

وروى البخاري عن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان : بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه ، والمصوم من عصمه الله » .

(٩) (قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم) من حق يوسف بعد ذلك البلاء الطويل ، وبعد مرور فتن كقطع الليل المظلم ، وبعد هذه التجارب التي عرفته كيف يكيد الاخوة لأخيه ، وكيف يفعل الحسد بالنفوس ، وكيف يفعل مكر النساء بالرجال الأبرياء ، والنفوس الطاهرة - من حق يوسف بعد ذلك كله ، وبعد أن قال له الملك (إنك اليوم لدينا مكين أمين) أن يطلب منه ذلك الطلب ، وهو أن يجعله وزيرا على خزائن أرض مصر ، يتولى تدبير شئونها ، ويحفظ خيراتنا ، ويستعد للخطر القادم الذي سهاجم المصريين في سنينهم المقبلة وأخبر به الملك في تأويل رؤياه .

(إني حفيظ عليم) تعليل لجعله على خزائن الأرض بأنه يحفظ ما استخفظه عليه من شئون الدولة ، عليم بتعريف الأمور وإدارتها على وجه صمى لا انكال فيه ولا تقيد ، ومنهم من يفهم من قوله (على خزائن الأرض) اجعلني وزيرا لمالية مصر ، لأن الخزائن جمع خزنة ، والشأن في الخزائن أن يودع فيها المال ، وقوله حفيظ : أي أمين على المال ، لا أبعثره في الشهوات (عليم) عندي علم يجمع المال وتصرفه ، ولائى يحتاجه الوزير أهم من أمانته وعلمه ، ولاغنى

لأحدهما عن الآخر ، فقد يكون أميناً ولكنه جاهل ، فيضيع مال السولة بجهله ، وقد يكون عالماً ولكنه خبيث النفس خائن ، فيعثر المال في شهوته ومصالحه ، وقدم الصفة الأولى وهي قوله (حفيظ) ليرينا أنها أهم شيء في الوالي أو الوزير ، وأن الفاقدة للأمانة خطر داهم على السولة وصرفا في البلاد ، وإذا كان عالماً مع فقدته لتلك الوصف كان خطره أشد ، فيستطيع أن يلعب بحال السولة ، ويستخدّم علمه ومواهبه في تضليل الناس وتلبّيس الأمور عليهم ، أما الأمين إذا كان جاهلاً وغلط كان غلطه عن حسن نية وقصد حسن ، وقد ينسب إليه غلطه فلا يعود إليه بعد ، ولم جربت الأمم على الوالي أو وزير المالية الخائن من خيانات ، ووقفت له على فضاخ ومخازي ، كلّ ذلك لأن أصم السولة لم يسند إلى وزير صالح في خلقه وأمانته ، بل أسند إلى لص من اللصوص غير أنه لص لم يتعود أن يدخل السجون ، لأن عنده من الحصانات والوظائف ما يفرق بينه وبين لصوص السجون ومجرميها .

وكان من حق الناس أن تعتبر بقول يوسف لذلك (إني حفيظ علم) ليريه أن من فيه ذلك الخلق ، وذلك العلم ، فهو أولى بأن يلي أمور الناس ، ولا سيما ما يتعلق بحياتهم ومعايشهم : وهو المال ، وإن من فقد ذلك الخلق لا يليق لتلك المنصب ولا ينبغي له ، بل يجب أن يطرد عن تلك الساحة طرداً ، وأن يحال بينه وبينها بشئ الوسائل ، ويختلف الطرق ، فيوسف الصديق بين الملك كيف يختار الوزراء ، ويعلمه كيف يرشح لهذه الوظيفة ، ويريه أن الأساس الأول لذلك هو الحفظ والأمانة ، والأساس الثاني هو العلم والدراية ، ولا غشاضة على الملك في أن يسمع من يوسف ، وينتفع بنصح يوسف ، ويأخذ بمشورة يوسف ، فانه ملهم من الله ، ومؤيد منه ، ومن كان كذلك أخذت عنه الحكمة والعلم النافع المفيد .

وفي مطالبة يوسف لذلك أن يجعله على خزائن الأرض لأنه حفيظ علم دليل على أن المستعد لعمل ما له أن يعرض نفسه على صاحب الشأن فيه لاختباره ، وليس في ذلك غشاضة عليه ، فالذي يحسن علماً من العلوم ، أو صناعة من الصنائع له أن يعرض نفسه ليفيد ويثر فيما علم وأتقن ، والذي يجد من نفسه استعداداً للنياحة عن الأمة يعرض نفسه عليها ويبين لها ما يتنازبه على غيره من علم أو صناعة أو فن من الفنون التي تحتاجها الأمة وتحتاج من يحفظها ويتقنها ، والذي يجد من نفسه استعداداً لأن يقضى بين الناس ويحكم بينهم له أن يطلب القضاء ، ويبين مواهبه ، وما حصل عليه من شهادات .

وموارد من النهي عن طلب الامارة والحرص عليه وكذلك الانشاء فعمول على الرجل الذي ليس مستعداً ولا يستطيع أن يقوم بأعبائها ، ويدلّ لذلك أن أباذر الفقاري طلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعله عاملاً وأميراً ، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على منكبه ، وقال : يا أبا ذرّ انك ضعيف ، وانها إمارة ، وانها يوم القيامة خزي وندامة ، إلا من أخذها بحقها ، وأدى الذي عليه فيها . ورواه مسلم .

فما دام الانسان يأفس من نفسه الضعف ، ويعلم أنه لا يستطيع الاضطلاع بالعمل الذي يطلب فن الانصاف أن لا يطلبه ، لأنه ان أجيب إليه والحالة هذه كان وجوده في ذلك العمل الذي طلب



ضارا بمرافق البلاد ومصلحتها ، وفوق ذلك كان قبوله لذلك العمل تعطيلًا لمواهب الرجل الكفء ، وحرمانًا للبلاد منه ، ولو أن الناس فطنوا لذلك وتوجه كل واحد لما يحسن من الأعمال ، وما يتقن من الفنون لاستراحوا وأراحوا .

فيوسف عليه السلام ضرب لنا هذا المثل ، ويطلب من الملك في شجاعة وجرة أن يجعله على خزان الأرض ، ويحلّ طلبه بأنه خفيظ عليم ، لتأسي به في ذلك ، ونطلب من ولاة الأمور أن يضموا كل واحد فيما يحسن .

أما أن يطلب الرجل العمل ليعيش منه وإن كان يحمله [ وهناك من يعلمه من القوم ] فذلك مالا ينبغي ولا يليق . وكذا لا يليق بالرجل أن يطلب ما لا حق له فيه كذلك لا ينبغي أن يجاب الى ذلك الطلب ، ولكن الناس غفلوا عن كل هذا ، فأخذ كل واحد يطلب ما يحسن وما لا يحسن ، وقد يجد ذلك الشيء من ولاة الأمور من يشجعهم على عبثهم ، ويجهلهم الى طلبهم .

ومن غريب ما رأيت فيما يشبه ذلك ويقرب منه أن رجلاً من المطر بشين قابلي يوماً ما ، وطلب أن يعرف بيتي ليعمل موعداً نجتمع فيه ، فسألته عن سبب طلب الموعد ، فقال : إن له مؤلفاً يريد عرضه على . فسألته في أي فن ذلك المؤلف ؟ فعرض أنه في علم العقائد ، فدهشت ، وسكت طويلاً ، لأنني أعلم أنه كاتب عادي في إحدى الوزارات ، وترى تربية عامة كما يرى طلبة المدارس الابتدائية ، فقلت له وضروري أن تنشر ذلك المؤلف ؟ فقال نعم . وبعد أخذ موعد مني لم يحضر فيه ، وكأنه فهم من لهجة الكلام معه استكبرى عليه أن يدخل نفسه في عداد المؤلفين .

وبعد أيام حضر عندي للزلة وقم لي نسخة من الكتاب ، وليس في الكتاب جديد ، وإنما هو قطع من جلة كتب ، قد ضم بعضها الى بعض فاعتقد أن مثل ذلك يسمى تأليفاً .

والقرآن الكريم يلفتنا دائماً الى الرجوع الى الرجال المختصين في العلوم والفنون ، وأن نسأل أهل الفكر ، وأن نأقّي البيوت من أبوابها ، وبهانا أن نأتيها من ظهورها ، ومتى يمتن الله على الأمة بالوقوف عند تعاليم القرآن ، والاتقاع بحكمه وأحكامه .

( وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ) أي مثل تمكيننا له بالجماع من الحب وتخليصه من السجن وتزيينه في عين الملك ، ( مكنا له في الأرض ) وثبتنا قدمه بها ، أو المعنى وعلى ذلك الأسلوب الذي سمعت من المدرج يوسف ، والتلطف في مسأله ، إذ ألمعنا واحداً من اخوته أن يقترح عليهم أن يجعلوه في غيابة الحب ، وسخرنا له من التلطف منه ، وباعه لوزير مصر ، ثم حينئذ فيه ، ثم أنجينا من كيد اسرته ، وأعانه على أن يصير في السجن بعد أن طلبه الملك حتى وضع أمره ، ودفع صيته ، وطلبه الملك ليكون صفياً له من دون الناس .

بهذا الأسلوب اللطيف والتدبير الخفي لا يعرف ما فيه من عبر سوى الخلاصة من الناس ، مكنا ليوسف في الأرض ، ومهدنا له طريق الملك والسيادة ، وهو الذي تدلّ عليه الآية في آخر القصة ( إن ربّي لطيف لما يشاء ) يريد أنه إذا شاء أمرنا دبر أسبابه ، ووضع مقدماته ووسائله ، وهو لطيف في صنعه ذلك ، فنذ بلطفه في بواطن الأمور بدقة وخفاء ، ولذلك ختم الآية بقوله ( إنه هو العليم الحكيم ) .

ولاشك أن من يحيط علمه بالأشياء جليها وحقيقها ، خفيها وظاهرها ، وهو مع ذلك حكيم في صنعه ، لا يعمل إلا وفق المصلحة ، هو لطيف لما يشاء ، وهو يقرب من قوله في آية أخرى (ومكروا مكروا ومكرنا مكروا ولم لا يشعرون) غير أن اللطف يمتاز بأن معه رفيقا يخلقه في تديره ، ووجهه بهم في الوصول الى ما يريد ، فلفظه تديره الخفي في رفق ولين .

ويؤيد ذلك المعاني الواردة في اللطيف ، فمن معاني الشفاف الذي لا يحجب ما وراءه كالزجاج والماء النقي والماء الذي له هذه الصفة لا يرى له لون ، ومن معاني الصغير الذي بلغ في صغره الى حد لا يمكن الرائي من رؤيته ، أولا يمكنه من الاحساس به ، ومن معاني أنه مقابل للشيء المادى كالروح وكل ما وراء المادة ، وهي معان يجمعها معنى الخفاء والدقة - ذلك هو المصدر من كلمة (وكذلك) وإلا فمن الذي كان يشعر أن حسد إخوة يوسف له على محبة أبيه له كانت سببا في وصوله الى بيت من بيوت مصر الكبيرة ، ومن الذي كان يشعر أن تهمة امرأة العزيز له كانت سببا في إعلاء شأنه وذيقه صيته ، ومن الذي كان يحس أن وجوده في السجن كان مدعاة لتعرف الملك به ، واصطفائه لنفسه ، كل ذلك من المقدمات التي لاصلة بينها وبين نتائجها في بادئ الرأي ، وهي تلخص في أن يوسف حسده إخوته ، فكان بذلك الحسد وزيرا لمصر ، له الأسر والنهي .

(١٥) (يقبوا منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين) .

يرينا الله تعالى أنه مكن ليوسف في الأرض يقبوا منها من الأمكنة ماشاء ، ومعنى يقبوا يتخذها مباءة ومسكنه ، والمراد أنه مسلط على أوضاع مصر جميعها لافرق بين مكان ومكان (نصيب برحمتنا من نشاء) أي نصيب بعبثنا في الدنيا من الملك والغنى من نشاء من الأفراد والجماعات مما اقتضت الحكمة أن نعطيه إياها كما قال ( وكل شيء عنده بمقدار »<sup>(١)</sup> ) أي بنظام وسنن لا يتخطاه ، ولذلك عقبه بقوله (ولا نضيع أجر المحسنين) أي ان عدل الله وحكمته يقضيان بأن لا يضيعا أجر محسن ، فمن عمل للغي بإحسان وإتقان حصل عليه ، ومن عمل للعالم بالتعلم تعلم ، ومن أحسن الى ربه وخالقه في غيته وحضوره حبه الى النفوس ، وسهل له الأمور ، وتولى أمور الناس وحكمهم ، وفي هذا تحرير على العمل الصالح ، وأنه ينفع في الدنيا قبل أن ينفع في الآخرة ، ولذلك يقول الله فيه (من عمل صالحا من ذكرا أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »<sup>(٢)</sup> ٣٧) فالحياة الطيبة جزاؤه في الدنيا ، والجزاء بأحسن ما عملوا في الآخرة .

(ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) أي ان الذي أعدّه الله تعالى للمؤمنين الأتقياء خير مما كافأهم به في هذه الحياة ، وأن ما يكافئون به في الآخرة فوق ما يكافئون به في الدنيا ، بل لا يشترك نعيم الآخرة مع نعيم في الدنيا إلا بالاسم .

وقد بلغني عن الأستاذ الامام وهو يتكلم على الفرق الكبير بين ثواب الدنيا وثواب الآخرة أنه قال ماثله :

ان الذي يذهب الى الشام ويرى ما فيه من فاكهة ينكر أن تكون من جنس ما نعرف في مصر ، ولابد أن يتخذ من فاكهة مصر ، فقد تفضل الحبة الواحدة من الفاكهة في الشام الحبة في مصر أضعافا مضاعفة في حجمها وطعمها ولذتها .

فإذا كان هذا الفرق الكبير بين نوعين من فاكهة واحدة في قطرين متجاورين ، فما بالك بفاكهة الدنيا وفاكهة الآخرة ؟ وفي الحديث عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال الله تعالى [ أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ] واقروا ان شئتم : ( فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ) . رواه الشيخان : أى ان نفسا من النفوس كاتمة من كانت لاتعلم ما أعد الله للؤمنين مما قرّ به عيونهم من النعيم ، حسيا كان أو معنويا .

ونظير الآية التي نحن بصدد شرحها قول الله تعالى ( زين للناس حبّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المنظورة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ، «١٤» قل أؤنبئكم بخير من ذلكم . للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة رضوان من الله والله بصير بالعباد «١٥» (١) .

### يوسف عليه السلام

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ «٥٨» وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ<sup>(٢)</sup> بِيَعَاهِدِهِمْ قَالَ اتَّوْنِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ الْآتَرُونَ أَنِّي أَوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ «٥٩» فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ «٩٠» قَالُوا سَتَرُوْهُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ «٦١» وَقَالَ لِفَتْنِهِ اجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِجَالِهِمْ لَمَّا هُمْ يَمْرُقُونَ إِذَا أَتَقَلَّبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَمَّا هُمْ يَرْجِعُونَ «٦٢» فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسَلَ مِنَّا أَحَدًا نَكْتَلُ<sup>(٣)</sup> وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ «٦٣» قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ قَالَ هُوَ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِمِينَ «٦٤» وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْنِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا

[١] آل عمران . [٢] هيا لهم عدّة السفر وامتنع .

[٣] أى من الطعام ما نحتاج إليه .

وَدَّتْ إِلَيْنَا وَنَعِيرُ<sup>(١)</sup> أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَزَدَادُ كَيْلٍ بِعِيرِ ذَلِكَ كَيْلٌ بِسَيْرِ<sup>(٢)</sup> «٦٥»  
 قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ  
 فَلَمَّا أَتَوْهُ مَوْثِقَتَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا تَقُولُونَ وَكِيلٌ «٦٦» وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ  
 بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ  
 الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ «٦٧» وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ  
 حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُفْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَنْقُوبُ  
 قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ «٦٨» وَلَمَّا  
 دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَى<sup>(٣)</sup> إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ<sup>(٤)</sup> بِمَا كَانُوا  
 يَفْعَلُونَ «٦٩» فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ<sup>(٥)</sup> فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ  
 مُؤَذِّنٌ أَتَيْهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسُرْقُونَ «٧٠» قَالُوا وَاقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ «٧١»  
 قَالُوا تَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ «٧٢» قَالُوا تَاللَّهِ  
 لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سُرِقِينَ «٧٣» قَالُوا فَآ  
 جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ «٧٤» قَالُوا جَزَاؤُهُ مِنْ وُجْدٍ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ  
 كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ «٧٥» فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا  
 مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا<sup>(٦)</sup> لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ  
 إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ تَرْفَعُ دَرَجَتٍ مِنْ نَشَاءٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ «٧٦» قَالُوا  
 إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ  
 أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا<sup>(٧)</sup> وَاللَّهُ أَغْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ «٧٧» يوسف

[١] نظم ، من البيرة : وهي الطعام . [٢] ضم . [٣] تحزن .

[٤] مفرقة ، كال يبق بها الملك ، وهي الصواع .

[٥] علناه السكيد ( ودين الملك ) شريته . [٦] منزلة .

## شرح وعبرة

(١) (وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون) أى بعد أن مكن الله ليوسف فى الأرض ، وأعطاه سلطة ونفوذا ، وحلّ بمصر ما حلّ من القحط والمجاعة ، جاء إخوته يطلبون طعاما فدخلوا عليه فعرفهم هو ، لأنه تركهم وهم كبار فلم يتغير فيهم شيء ، أمام فأنكروه ولم يعرفوه لأنهم فارقوه وهو صغير ، ومن شأن الصغير أن يتغير بالكبر ، ولأن لباس الملك وعظمته من شأنها أن تلبس عليهم الأمور ، ومن شأنها أن تحول بين طالبي الحاجة كاخوة يوسف وبين الوالى كيوسف . (ولما جهزم بجهازهم قال انتونى بأخ لكم من أيكم ) أى ولما أصلح أمر أولئك الاخوة بجهازهم وهو عدة سفرهم من الزاد وما يحتاجون إليه ، وأصل الجهاز: ما يعد من الأمتعة للانتقال كعدد المسافر ، وما يحمل من بلد لآخر ، ويطلق أيضا على ما تزف به المرأة الى زوجها .

لما جهزم بجهازهم وأعد لهم ما يلزمهم ( قال انتونى بأخ لكم من أيكم ) ولما لم يفهم المفسرون وجهها لذلك الطلب قالوا لابد أن يكون قد جرى بينهم وبين يوسف ما يوجب هذا الطلب قال الفخر فى التفسير الكبير : واعلم أنه لابد من كلام سابق حتى يصير ذلك الكلام سببا لسؤال يوسف عن حال أخيه ، وذكروا فيه وجوها .

[الأول] وهو أحسنها أن عادة يوسف عليه السلام إذا سأله انسان أن يعطيه حل بعر لا يزيد عليه ولا ينقص ، وإخوة يوسف الذين ذهبوا إليه كانوا عشرة فأعطاهم عشرة أجمال ، فقالوا إن لنا أباشيخا كبيرا وأخا آخر بقى معه ، وذكروا أن أباهم لأجل سنه وشدة حزنه لم يحضر ، وأن أخاهم بقى فى خدمة أبيه ، ولا بد لهما أيضا من شيء من الطعام ، فجهز لهما أيضا بعيرين آخرين من الطعام ، فلما ذكروا ذلك ، قال يوسف : فهذا يدل على أن حب أيكم له أزيد من حبه لكم ، وهذا شيء عجيب ، لأنكم مع جالك وعقلكم وأدبكم إذا كانت محبة أيكم لتلك الأخ أكثر من محبته لكم - دلت هذا على أن ذلك [ الأخ ] المحبوبة فى العقل وفى الفضل والأدب ، فجيئنى به حتى أراه اه .

وذكر المفسرون فى بيان [ الوجه الثانى ] أن إخوة يوسف لما دخلوا عليه سألهم من أتم ؟ قالوا نحن قوم رعاة من أهل الشام ، أصابنا الجهد فجئنا نبتاع : أى نطلب الطعام ، فقال لعلكم جئتم صيونا . فقالوا معاذ الله ، نحن إخوة بنو أب واحد ، شيخ صديق نبي ، اسمه يعقوب ، قال كم أتم ؟ قالوا كنا اثني عشر هلاك منا واحد وبقي واحد مع الأب يقتلى به عن ذلك الذى هلك ، ونحن عشرة وقد جئناك ، قال فدعوا بعضكم عندى رهينة وانتونى بأخ لكم من أيكم ليبلغ الى رسالة أيكم ، فعند هذا أقرعوا بينهم ، فأصاب القرعة شمعون وكان أحسنهم رأيا فى يوسف ، فخلفوه عنده ، ثم ذكر الفخر الرازى [ وجهها ثالثا ] يقرب من الأول .

وقد اختار الفخر الوجه الأول وقال انه أحسنها ، على أنه لم يجزم به ، بل قال انه محتمل مناسب : أى فى توجيه الآية وبيان السبب فى أن يوسف طلب من إخوته أن يأتوه بأخ لهم من أيهم ، والفرض أنه تحتمل إليهم حتى أوجد سببا يقتضى أن يطلب أخاهم من أيهم ، وهو شقيقه الذى كان يحسده إخوته على محبة أيهم له مع يوسف ، ولا يستطيع الرازى أن يجزم بسبب معين

من هذه الأسباب أو غيرها ، ولذلك قال انه محتمل مناسب ، وكذلك المفسرون لا يستطيعون الجزم بسبب معين لأنه لا طريق الى الجزم ، انما الذى يجزمون به أن يكون هناك حديث مطوى جرى بين يوسف وبين إخوته انتهى بيوسف إلى طلب أخيه من أيهم .  
( ألا ترون أتى أوفى الكيل وأنا خير المتزلين ) .

لما طلب منهم إحضار أخيهم جمع لهم بين الترغيب والترهيب [فالقول] قوله ( ألا ترون أتى أوفى الكيل وأنا خير المتزلين ) أى المضيفين وكان قد أحسن ضيافتهم . [والثانى] قوله ( فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقر بون ) أى حرمتكم من الطعام الذى سافرت من أجله وحضرت للحصول عليه ، وكذلك أحرمتكم من قربانى وأنا صاحب الطعام وصاحب الأمر والنهى . ( قالوا سراود عنه أباه وإنا لقاعلون ) أى سنخادعه عنه ونجتهد حتى نزرعه من يده ( وإنا لقاعلون ) كل ما فى وسعنا فى ذلك ، أو لقادرون على المراودة .

وقد عبروا بالمراودة الدالة على الجهد والمشقة ، لأهم يعلمون أن أباهم يعقوب سوف لا يكون سهلا فى إجابتهم الى ما طلبوا ، وأنهم سيلقون فى ذلك العمل عناء ومشقة ، ولذلك لم يجزموا للعزيز بأنهم سيوفون له بما طلب ، وكل ما فى الأمر أنهم وعدوه بالعمل للحصول على أخيهم ، وقد لا ينجحون فى ذلك ، وذلك عقل وحزم من الاخوة ، وبعد عن المخاطرة فى الوعد . وهكذا ينبغى للرجل أن يكون محتاطا فى وعوده ، ولا سيما اذا كان الموعود به ليس فى قبضة الواعد ، بل هو شركة بينه وبين غيره .

وكثير من الناس يتورط فى مواعيده ، ولا يستطيع أن يبنى بها ، ويعرض نفسه للكذب . والسبب الغالب على الناس فى تورطهم أنهم وهم يعطون المواعيد لا يعملون حسابا للوفاء قبل أن أن يبتوا بالوعد ، والواجب على من يعطى موعدا لك بأن يوفيك دينك فى يوم كذا أن يكون مطمئنا لحصوله على الدين قبل ذلك اليوم ، وكذلك من يعدك بأنه يتم لك العمل فى وقت ما ، لابد أن يكون واثقا من نفسه فى إتمام ذلك العمل فى الموعد الذى حددته .

أما الذى يعد وهو غير واثق من الوفاء ، أو لم يفكر فيه فهو مخطف آثم ، قد عرض نفسه لأن تنهه الناس بالكذب والقدر ، وحس الصانع أو التاجر أن يكون كاذبا فى وعده لتضع ثقة الناس به ، وحسب المؤمن الحازم أن يكون صادقا وفيا لتثق الناس به .

( ٢ ) ( وقال لفتيانہ اجمعوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها إذا اقبلوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون ) أمر يوسف فتيانہ أن يمسوا ما كان معهم من بضاعة ليأخذوا بها الطعام فى رحال إخوته ، ورحل الرجل : ما يستصعبه من الأثاث ( لعلهم يعرفونها ) الخ بيان لسر ذلك العمل وهو أنهم متى وجدوا بضاعتهم التى سافروا بها لتسكون ثمن الطعام ، وعرفوا أن العزيز جمع لهم بين ثمنهم وطعامهم - متى رأوا ذلك عرفوا حق العزيز عليهم فى ردّها له ، وحقه عليهم فى وفائهم بما وعدوا فهو أسلوب من أساليب التوريط ، لجأ إليه العزيز وهو يوسف الصديق ليكون وسيلة لحسن ظنهم فيه ، ويسهل عليهم مهمتهم عند أيهم يعقوب ، وبذلك يرجعون إليه ومعهم أخوهم من أيهم ( فلما رجعوا إلى أيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون )

بعد رجوعهم إلى أبيهم يعقوب قالوا له : يا أبانا منع منا الكيل : أى فى المستقبل فأرسل معنا أخانا من أيننا (نكتل) أى نرضع المانع من الكيل .

ثم لما كان لهم سابقة مع يوسف بادروا أبيهم بقولهم (وإننا له لحافظون) من أن يناله مكروه ولم يفصل لنا القرآن ما قالوه لأبيهم فى تليل طلب يوسف لأخيهم ، بل أجله كما أجله عند قوله (فلما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم) فيجوز أن يكونوا قد شرحوا له ما دار بينهم وبين العزيز ، ويجوز أن يكون أبوم قد سم مناقشتهم والجدل معهم ، واكتفى بقوله لهم (هل آتاكم عليه إلا كما آتاكم على أخيه من قبل) يريد أى قد جرت أمانتكم وموائقكم ، فان كنتم قد وفيتم بوعدكم لى عند أخذ يوسف فلتوفوا بوعدكم فى حق أخيه .

ويظهر أن الضرورة الى الطعام كانت ملحة وشديدة ، ولذلك تساهل يعقوب عليه السلام فى شأن ابنه الثانى ، وقال وهو على حزنا (فأله خير حافظا وهو أرحم الراحمين) وهو لجوء إلى الله تعالى فى أن يتولى حفظ ابنه الثانى ، فانه نعم الحافظ (وهو أرحم الراحمين) وأرجو أن ينعم على بحفظه ، ولا يجمع على مصبتين : مصيته به ، ومصيته بأخيه .

فإذا كان نبى الله يعقوب قد ضعف أمله فى أولاده العشر من جهة ابنه فان أمله فى الله قوى ورجاءه فيه لم ينقطع ، لذلك رجع إليه ، واستحفظه ابنه ، فانه خير من يحفظ له ابنه ، وهو أرحم الراحمين ، فتوجه إليه النفوس عند الشدة ، ويقصد عند الاضطرار .

(ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغى هذه بضاعتنا ردت إلينا) قد بدأ الاخوة ببلوغ أبيهم أنهم قد منعم العزيز الكيل ، وأن يرسل معهم أخاهم ليعطيهم الطعام الذى يحتاجون إليه ، لأن ذلك أمم شئ عندهم ، يريدون أن يعملوا لتذليل هذه العقبة التى وضعها العزيز فى طريق أخذهم ما يحتاجون من الطعام ، وكان ذلك قبل أن يفتحوا أمتعتهم فلما فتحوها وجدوا بضاعتهم التى سافروا بها ردت إليهم فى متاعهم مع الطعام .

ويقول المفسرون : ان البضاعة كانت أدما [جلدا] ونعلا وورقا ولم يكن معهم نقود فى ذلك الظرف ، فلبجأوا الى طريق المقايضة ، وهى أول شئ بدى به تبادل الناس فى بيعهم وشراهم ، ولا مانع أن تكون بضاعتهم كذلك متى سحت الأخبار .

وفهم الآية لا يتوقف على معرفة بضاعتهم ، ويكفى أنها شئ بضع : أى قطع ليتجر به ، وقولهم (ما نبغى) يحتمل أن يكون للنفى ، والمعنى : ما نبغى فى ذلك القول ، وإنما نقول الحق ، وهو من البنى وهو العدوان والتعدى ، أو ما نطلب شيئا وراء ما فعله العزيز ، ويجوز أن تكون للاستفهام أى ما الذى نبغىه ونطلبه مع ذلك الفعل ومع هذه المكالم ؟ وقوله (هذه بضاعتنا ردت إلينا) أى إن ذلك هو منتهى الكرم فى المعاملة (ونغير أهلنا) إذا رجعنا إلى العزيز : أى نجلب لهم ميرة وهى طعام يحمل من غير بلدك (ونحفظ أخانا) من المخاوف (وتزداد كيل بعبر) أى جله باستصعاب أخينا (ذلك كيل يسير) سهل عليه متيسر لا يتعاضده .

(قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأمنن به إلا أن يحاط بكم فلما آتوه موثقا من الله قال الله على ما نقول وكيل) أى قال لهم أبوم : لا أعطيكم أنا يوسف حتى تعطون عهدا من الله

أتوثق به ، والمراد عهد مؤكد بذكر الله تعالى أو الحلف به على أن تأتوني به إلا إذا غلبتم فلم تطيقوا حفظه ، أو إلا أن تهلكوا جميعا .

فلما أعطوه العهد والميثاق قال يعقوب : الله شاهد على ما أقول وحفيظ عليه ، وهو الذى سيحاسبكم ويجازيكم إذا كنتم تريدون الوفاء أو القدر .

(٣) (وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغنى عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتكمل المتوكلون) .

قيل إن يعقوب عليه السلام نصح لبنيه ذلك النصح خوفا عليهم من العين ، لأن الشأن فى الأولاد الذين بلغوا ذلك العدد وكانوا على شيء من الجلال ، ومشوا مجتمعين أن ينظرم الناس نظرة حسد ، فيعانونا : أى يصابوا بالعين .

وقد ورد فى الإصابة بالعين أحاديث ، ولم يهتد الناس إلى اليوم إلى كيفية تأثير عين الحاسد على المحسود ، وكل ما قالوه : انها خاصة فى بعض النفوس تنبعث منها بواسطة العين وغيرها الى الخارج ، كما أودع الله فى بعض المعادن خاصة الجاذبية .

وقيل إن نصح يعقوب لبنيه لم يكن خوفا عليهم من العين ، بل لأنهم اشتهروا بمصر وتحدث الناس بهم وكألمهم ، فقال لهم يعقوب : لا تدخلوا المدينة من باب واحد حتى لا يخافهم الملك الأعظم على ملكه فيحبسهم ، والآية محتملة للأمرين .

(وما أغنى عنكم من الله من شيء) استدراك من نبي الله يعقوب على قوله المذكور ، يرينا به نبي الله أن تدبير العبد لا يرفع قضاء الله تعالى فقد يكون ناقصا لا يبنى بالقرض ، لأنه تدبير مخلوق محدود فى علمه واستعداده .

أما تدبير الله تعالى فأساسه العلم المحيط ، والحكمة العالية ، فاذا دبر الله شيئا لم يكن إلا مادبر ، أما العبد فقد يدبر ، ويأخذ فى الأسباب والمقدمات ثم لا تحصل النتائج لأنه ترك أسبابا يجهلها ، أو أن السبب الذى أتى به ناقص غير تام ، وليس المراد أننا ندع الحذر ونترك الأسباب ، لأن الله تعالى يقول (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة « ١٩٥ » ) (١) وقال (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم « ٧٩ » ) (٢) بل المراد الرجوع إلى الله تعالى مع الأخذ فى الأسباب لأنه الذى يلهم الانسان كيف يحتاط ، ويعلمه كيف يرقى فى احتياطة شيئا فشيئا ، ويعلم من التجارب والأحداث ما لم يكن يعلم .

فنبى الله يعقوب يرينا أنه يجب على الانسان أن يحتاط ، ويأخذ فى الأسباب ، ومع احتياطة يعلم أن احتياطة لا يبطال قضاء الله وقدره ، فقد يكون احتياطة من العين مثلا ناقصا ، فتأتى العين لنقصان المانع منها ، وقد يكون احتياط السليم من عدوى المريض كذلك ، لأنه لم يكن على الطريق الذى رسمه أهل الفن وهم الأطباء ، ولذلك تأتى العدوى مع الاحتياط لأنه ناقص ، وقد يكون أخذنا فى أسباب الرزق ولكنه جاهل بتلك الأسباب : كرجل يتجرع جهله بطرق التجارة فيكون السبب الذى باشره ناقصا ، ومن أجل ذلك لم ترتب عليه نتائج ، وقد يعمل الطبيب أو



الرجل الكيماوى تجارب ولكنها ، لم تتم ولم تصل الى غايتها ، لأنها تجارب ناقصة ، وهكذا وهكذا .  
وجلة القول أن يعقوب عليه السلام يطالب بالأخذ في الأسباب ، وأن ذلك لا ينافي التوكل  
على الله تعالى ، ويرينا أن هناك ربا هوربة الأسباب والمسببات ، وأن علمه هو العلم المحيط ،  
وحكمته هي الحكمة العالية ، وأنه إذا در شيئا ، وسبق به علمه ، وجرى به قضاؤه ، فأنما يديره  
على ذلك الأساس ، فلا يستطيع أن يردّه أحد ، أما الخلق فهو محدود في علمه محدود في استعداده  
محدود في تفكيره ، فقد يظن السبب مانعا ، والمافع سببا ، ويرى السبب الناقص كاملا ، والضعيف  
قويا ، لذلك يجب أن يستفيد الانسان دائما من التجارب ، ويطلب المزيد من العلم (وقل رب  
زدنى علما ١٤٤) <sup>(١)</sup> وليعترف دائما أنه ما أوتي من العلم إلا القليل ، وأن ما علمه الانسان  
في جانب ما جهله ليس بشيء .

( إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتكول المتوكلون ) نعم إن الحكم لله فهو المنفذ لأمره  
منى أراد (عليه توكلت) أسندت أموري إليه ، وفوضتها له (وعليه فليتكول المتوكلون) وعلى  
كل مؤمن به أن يفوض أموره إليه ، فهو الذى يعلم من الأسباب ما لا نعلم فيعلمها لنا ، ويعلم  
من المواقع والعقبات ما خفى عنا فيرشدنا إليها ، وذلك هو معنى التوكل ، وهو أن تأخذ في الأسباب  
بقدر استطاعتك ثم ترجع إليه وتفوض أمورك إليه فيما وراء الأسباب التى تعلمها ، وليس التوكل  
كما يفهمه العامة هو التواكل ، وهو أن ندع الأسباب ثم ترجع الى الله تعالى ليوصلك الى المسببات  
فان ذلك حق وسفه ، فالذى يدع العمل للرزق ثم يطلبه من الله ويزعم أنه متوكل عليه : كاذب في  
دعواه ، والذى لا يطلب العلم من طريقه المألوف وهو التعلم ثم يطلبه من الله لأنه متوكل عليه  
كاذب كذلك في توكله ، لأن طريق العلم هو التعلم ، والذى يطلب الشفاء من مرضه ثم لا يداوى  
نفسه بالطريقة المألوفة للناس ويزعم أنه في ذلك متوكل عليه كاذب ، والذى يرى بنفسه في  
أحضان المرضى بدون أن يأخذ لنفسه الحيلة والوقاية من العدوى زاعما أنه متوكل على الله هو  
جاهل معنى التوكل ، والمرأة التى تدع طعامها مكشوقا معرضا للأفاعى والحشرات ثم تدعى أنها  
متوكله على الله كاذبة في دعواها .

والأمثلة في ذلك كثيرة ، وهى كلها ترجع الى الطمع فى النتائج بدون مقدمات ، والغايات بدون  
وسائل ، وهو طمع مذموم ، وتصلح كاذب ، وإعما الصلاح الصحيح هو الذى يتفق وسنة الله  
فى ربط الأسباب بمسبباتها ، ولذلك يقول عمر [ لا يجلس أحدكم عن طلب الرزق ثم يمد يديه الى  
السماء ويقول : اللهم ارزقنى ، فان السماء لا تعطر ذهباً ولا فضة ] .

(ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغنى عنهم من الله من شيء) أى أن اخوة يوسف  
أطاعوا والدهم ، ودخلوا المدينة متفرقين لاجتماعين ، ولكن ذلك الاحتياط الذى أمرهم به أبوهم  
لم يدفع عنهم السوء المتخبر لهم وهو اتهامهم بالسرقه وأخذ أخيه بسبب أن صواع الملك وجد في  
رحله ، فيعقوب كان تفكيره متوجها الى ناحية وقضاء الله كان متوجها الى ناحية أخرى ، لتعلم كما  
قدّمنا أن تفكير العبد محدود ، وتديره لا يمكن أن يصل الى تدير الاله .

ونأمل نصيحة يعقوب لأولاده وقوله لهم (يا بني لا تدخلوا من باب واحد) وقد صنعوا بأخيهم يوسف ما صنعوا ، لتعلم مقدار شفقة الآباء على الأبناء ، وأن إساءة الأبناء للآباء لا تنزع الشفقة منهم ، ولا سيما إذا كان مصدرها حسد البعض للبعض ، وحرص الحاسد على أن يخاوله وجه المحسود ، كما يحب الزوج الضرتين وهما يتناحران للاستئثار بمحبة ، ويتقاتلان للوصول الى مرضاته فيعقوب عليه السلام لم تهاوده نفسه على التفریط في أبنائه ، وقد حصل منهم ما حصل لأنه عاقل يعلم أن الحسد قد يبلغ بالنفوس الى مثل ما بلغ بالاخوة والى أكثر من ذلك ، ويرينا أنه ينبغي للآباء أن تكون من سعة الصدر وتغليب الرحمة على العظمة كما كان يعقوب مع بنيه ، ينصح لهم بأن لا يدخلوا المدينة من باب واحد .

(الإحاجة في نفس يعقوب قضائها) أى إن يعقوب ما كان ليردّ عن أولاده ما ادخلهم من حادث السرقة ، ولكن حاجة في نفس يعقوب أظهرها ووصى بها ، وهى دعوة بنيه الى الأخذ في الأسباب ، والاحتياط ، لأن ذلك هو الذى يجب على المؤمن أن يأخذ حذره جهد الطاقة ، ثم يفوّض الأمر بعد ذلك الى الله تعالى (وابنه لئلا علم لما علمناه) أى إن يعقوب عليه السلام لصاحب علم بسبب تعليم الله له ، ومن علمه الله علمه له أن يأخذ في الأسباب ، ويعتقد بعد ذلك أن احتياط العبد لا يغير شيئا من قضاء الله تعالى ، إذا كان قد سقى في علمه شيء وراء ما اقترع العبد ودبر ، وذلك هو التوكل الصحيح (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) هذه الحكمة العالية والعلم الصحيح ، ففهم الأبله الذى يدع الأسباب جانا ويعيش بجهله وحقه ويزعم أنه متوكل على الله ، ومنهم الملحد الذى ينكر أن هناك إلها قدرته فوق القدر ، ومشيتته فوق كل مشيئة ، ويرى أن الأسباب التى وصلنا إليها هى كل شيء ، وأن النتائج منوطة بها وجودا وعدما ، ولو فكروا قليلا فما حولهم من حوادث ، وما يحيط بهم من عوالم ، لعرفوا أن الانسان قد يريد الخير ويعمل له فيكون الشر ، وقد يريد الشر بأحد من الناس ويدبر له فيكون الخير ، كما حصل ليوسف واخوته ، وقد يريد نفع صديق فيضره ، أو يأخذ مظلوم فيزيده ظلما الى ظلمه ، كل ذلك أدلة واضحة على أن هناك إرادة وراء إرادة الانسان ، وتديرا فوق تديره ، وأن الركون الى الأسباب الظاهرة ، واعتقاد أنها الكل في الكل من الخطأ الفاحش .

(٤) ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال انا أخوك فلا تبتئس مما كانوا يعملون أى بعد وصية أبيهم لهم ذهبوا الى العزيز ، فلما دخلوا على يوسف ضمّ أخاه إليه وهو الذى طلبه منهم ومنع الكيل من أجله ، وقال له فيما بينه وبينه (إني أنا أخوك) يوسف (لا تبتئس مما كانوا يعملون) لا تكن شديد الحزن بمعاملتهم لى ولك ، وهى بشارة ما أبردها على قلب أخيه ، ففى فقدة أبوه منذ سنين ، ولم يوقف له على خبر ، فيلتقى بشارته به ، وهى بشارة مع معاينة وحضور ، ولا يستطيع الكاتب أن يصوّر مقدار ما يحسّ به أخو يوسف من السرور فى ذلك الوقت ومن لطف الله به أنه لم يكن سرورا قاتلا لأنه سرور مناجى ، ولو كان سرورا بوجود الاخ الغائب لكان محدودا ، ولكنه سرور بوجود أخ غائب ، وإن ذلك الأخ أصبح عزيزا لمصر ، وصاحب الأمر والنهى .

ولعلّ قوله (فلا تبتئس بما كانوا يعملون) تذكير له بما فعله الاخوة ليعلم أنه يوسف حقا ، فقد يخفى عليه يوسف كما خفي على اخوته ، لأنه فارقه صغيرا فقصر بالكبر ، ولأن ملابس الملك من شأنها أن تلبس على الرائي ، فأراد يوسف أن يطلعه على قصته على وجه يحمل ليطمئن الى هذه البشارة ، ذلك من ناحية ، ومن ناحية أخرى ليكون ذلك تمهيدا لما يصنع به يوسف من جعل السقاية في رحله ، ونسبته الى السرقة في بادئ الرأي ، ولوأنه جعل السقاية في رحله قبل أن يخبره أنه أخوه لفزع من ذلك العمل ، واعتقد أنه تديرير يراد به سوء ، ولكن تقديم هذه البشارة ، وتذكيره بما فعله إخوته ، وتطمينه من هذه الجهة جعله في مأمن من إرادة السوء به .

( فلما جهزم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ) السقاية هي المشربة التي كان يشرب بها الملك ، وهي الصواع يقال انها كانت لسقاية الملك ، ثم جعلت صاعا يكال به ، فان صحّ ذلك كان هذا دليلا على عزة الطعام ، وانه لعزته يكال بكيل حقير ( ثم أذن مؤذن ) نادى مناد وأعلم معلم ( أيتها العبر إنكم لسارقون ) العبر القافلة ، وهي اسم الابل التي يحمل عليها الأحبال فسمي بها أصحابها قيل ان ذلك التأذين لم يكن باذن يوسف ، وإنما الذي صنعه هو أنه جعل السقاية في رحل أخيه ، فلما طلبها الفتيان ليكيلوا بها لم يجدوها ، ولم يكن هناك أجنبي سوى الاخوة ، فظنوا أنهم هم الذين سرقوها في متاعهم ، وقيل ان ذلك التأذين كان بأمر يوسف ، وقول المؤذن ( إنكم لسارقون ) تعريض بسرقتهم يوسف من أبيه وإلقائه في الحب ، وتضليله بأن اللئب أكله ، ووضع اسم الكذب على قيصه ، والتعريض لايعد كذبا كما في قول ابراهيم للنمرود [ هذه أختي ] والمراد أنها أخته في الدين والملة وإن كانت زوجها له .

وقيل ان هذه الصيغة ليست صيغة خبر ، وإنما هي صيغة استفهام على حذف الهمة : أي هل سرقتم الصواع ؟ فهي جملة انشائية ، والانشاء لا يقال فيه صدق ولا كذب .

وسواء كانت الجملة استفهاما أو خبرا أريد به التعريض بما فعلوا مع يوسف أو من عمل الفتيان فقد فهم الاخوة منها أنها نسبت إليهم أصرا لا يليق بهم ، لذلك قالوا بعد أن أقبلوا على الفتيان اقبال دهشة واستغراب ( ماذا تفقدون ؟ قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حل بعير وأنا به زعيم ) أي قالوا لهم نفقد مشربة الملك ، أو الكيل التي نكيل به الطعام ، ولمن جاء به حل بعير من الطعام ، لأنه كان أمّ شيء عندهم ، وأنا به زعيم : أي كفيّل بأن أؤديه الى من رده .

( قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين ) يقول المفسرون : ان قولهم ( تالله ) قسم فيه معنى التعجب مما أضيف إليهم ، وإنما قالوا ( لقد علمتم ) ليسقشهموا بعلمهم ، لما ثبت عندهم من دلائل دينهم وأماتهم في مجيئهم الأوّل والثاني ومداختهم للعزيز .

( قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟ ) أي فما جزاء السارق ان كنتم كاذبين في دعوى البراءة ( قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين ) .

وقد جعلوا جزاء السارق أن يؤخذ في سرقته ، لأنهم واثقون من براءتهم ، معتقدون أن صعوبة الجزاء لا ينالهم شيء منها ( فبدأ بأوعينهم قبل وعاء أخيه ) حتى لا يفهموا الحيلة ( ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ) أي كدنا لمصلحته ودبرنا له وعلمناه الحيلة والمكر



تَقْتُولُوا<sup>(١)</sup> تَذَكُّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ «٨٥»  
 قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي<sup>(٢)</sup> وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ «٨٦»  
 يَلْسَنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا<sup>(٣)</sup> مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْسُّوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ  
 لَا يَهْدِي مَنْ رَوْحَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ «٨٧» فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا  
 يَا أَيُّهَا الْمَزِيدُ مَسْنَا وَأَهْلُنَا الضَّرَّ وَجِئْنَا بِبِضْءٍ مُزْجَجٍ<sup>(٤)</sup> فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ  
 وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ «٨٨» قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا قُلْتُمْ  
 يُّوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ «٨٩» قَالُوا أَأَنْتَ يُّوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ  
 وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ  
 الْمُحْسِنِينَ «٩٠» قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخُطِئِينَ «٩١» قَالَ  
 لَا تَتْرِبَ<sup>(٥)</sup> عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ «٩٢»  
 أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ  
 أَجْمَعِينَ «٩٣» وَلَمَّا فَصَلَتِ<sup>(٦)</sup> الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ  
 تُفْتَدُونِ «٩٤» قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ «٩٥» فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ  
 أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ  
 مَا لَا تَعْلَمُونَ «٩٦» قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ «٩٧» قَالَ  
 سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ «٩٨» فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى  
 يُوسُفَ ءَاوَى إِلَيْهِ أَبْوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ «٩٩» وَرَفَعَ  
 أَبْوِيهِ عَلَى الْمَرْسِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا<sup>(٧)</sup> وَقَالَ يَأْتُوبُ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ

[١] لارتال « حرضاً » مشرفاً على الملاك . [٢] أصل البث التفريق وإثارة الشيء ، والمراد ما اضطرت عليه النفس من الغم لا يريد أن يشته لأحد إلا الله تعالى . [٣] تيسسوا خبرهما ، و (روح الله) فرجه . [٤] تدفعا التجار لردائهما . [٥] لا تأنيب ولا عتب . [٦] خرجت من عريش مصر « فتلدون » تحرقون . [٧] حيوة بشية تليق به ، وهي سجود لده .

فَدَجَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ <sup>(١)</sup> مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ <sup>(٢)</sup> الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ <sup>(٣)</sup> «١٠٠» رَبُّ قَدْ أَتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ <sup>(٤)</sup> «١٠١» يوسف

### شرح وعبرة

(١) (قلوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدا من مكاه إنا نراك من المحسنين) . لما وقع ذلك الحادث وهو وجود الصواع في رحل أخى يوسف ، وقد أفتى الاخوة بأن جزاء من وجد الصواع في رحله أن يؤخذ فيه - اضطربوا وتذكروا ما كان من وصية أبيهم وأخذهم الميثاق عليهم ، فأخذوا يستعطفون العزيز مرة من جهة أبيهم وأنه شيخ كبير ، وقد أعد هذا الولد لخدمته ، ومرة من جهة أخلاقه وشمائله ، وقولهم له ( إنا نراك من المحسنين ) وقد طلبوا من العزيز أن يأخذ واحدا منهم رهينة بدله فلم يسمح يوسف بشيء من ذلك ، وقال لهم ( معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ) أى نعوذ بالله معاذنا من أن نأخذ رجلا بريئا مكان رجل وجدنا المتاع عنده .

( إنا إذا لظالمون ) إذا نحن أخذنا البريء وتركنا المتهم ، وكان ذلك ظلما بمقتضى فتاوىم أن الذى يوجد الصواع في رحله جزاؤه أخذه فيه ، فهو ظلم حسب مذهبهم الذى أفتوا به يوسف . ( فلما استياسوا منه خلصوا نجيا ) أى فلما يسوا من العزيز ومن قبوله شفاعتهم ، والسين والتاء للبالغة : أى فلما يسوا من العزيز إلى حد بعيد من اليأس ، فقد يأس الانسان ويكون عنده شيء من الأمل ، أما هؤلاء فلم يكن في يأسهم شيء من الرجاء ( خلصوا نجيا ) اعتزلوا وانفردوا عن الناس خالصين لا يخالطهم أحد ( نجيا ) أى ذوى نجوى ، أو فوجا نجيا مناجيا لمناجاة بعضهم بعضا ، أو تملحظوا كأنهم التامحي نفسه ، لاستجماع قوام وإفاضتهم فيه بجد واهتمام ، كأنهم في أنفسهم صورة التامحي وحقيقته ، كما نقول : رجل جور ، ورجل عدل .

وكان تنابيحهم في تدبير أمورهم على أى صفة يذهبون ؟ وماذا يقولون لأبيهم في شأن أخيهيم ؟ والآية تمثل لنا صورة ارتباط الاخوة لذلك الحادث ، حدث حجز أخيهيم في الصواع ، ورجوعهم إلى أبيهم فاقدين له بعد أن فقدوا يوسف ، وترينا أن ذلك العمل قد شغل أذهانهم وشقت أفكارهم وآية ذلك أنهم توسلوا الى العزيز بكل أسباب التأثير عليه ، فلما لم ينجحوا في مهمتهم اعتزلوا

الناس جانباً ، وأخذوا يقتاجون ، وكأنهم لفرط إقبالهم على ذلك التاجي ، واهتمامهم به ، وحرصهم عليه اقبلوا نجوى .

( قال كيرم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ) .

يذكر كيرم كيرم في السنن أو في العقل أو فيها معا بذلك الموثق الذي أخذه عليهم أبوم وهو يشير إلى قوله ( لن أرسله معكم حتى تؤثنون موثقا من الله تأتني به إلا أن يحاط بكم ) .

وقوله ( ومن قبل ما فرطتم في يوسف ) ما فيه مصدريه ، وهي وما بعدها في تأويل مصدر محله الرفع بالابتداء ، وخبره الظرف قبله : أي وقع قبل تفريطكم في يوسف ، وأوحله النصب عطفا على مفعول ألم تعلموا ، وهو قوله ( أن أباكم ) كأنه قيل : ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقا ، وتفريطكم من قبل في يوسف ، ولك أن تجعل ما موصولا اسميا : أي ومن قبل هذا ما فرطتموه أي قدتموه في يوسف من الجناية العظيمة ، من الفرط وهو السلف والمقدم ، أما على ما قبله فهو من التفريط ، وهو التقصير والاحمال .

والمعنى أن كيرم يذكر كيرم بذلك الميثاق الذي أخذه عليهم أبوم ، ويذكر كيرم بساقبتهم مع يوسف وجنائيتهم عليه ، يريد أن المسألة قد بلغت من الصعوبة مبلغا عظيما ، ولذلك عقبه بقوله ( فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي ) في الانصراف إليه ( أو يحكم الله لي ) بالانصاف بمن أخذ أخى ، أو بخلاصه من يده بسبب من الأسباب ( وهو خير الحاكمين ) لأنه لا يحكم إلا بالعدل ( ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون ) أي ان ذلك الكبير أخذ رأيه وبقى بمصر فلم يرجع إلى أبيه ، وقال لهم ارجعوا إلى أبيكم فقولوا له يا أبانا ان ابنك سرق ، وقد نسب إليه السرقة بناء على ما شاهد من استخراج الصواع من وعائه ، أو سرق في قول الملك وأصحابه ، أو ظهر عليه ما يشبه السرقة ، وإطلاق اسم أحد الشبهين على الآخر جائز . وعن ابن عباس أنه قرأ « سرق » بضم السين وتشديد الراء على البناء للفعل . أي نسب إلى السرقة .

( وما شهدنا إلا بما علمنا ) أي بقدر ما اتقنا من رؤية الصواع في وعائه ( وما كنا للغيب حافظين ) أي ما كنا حافظين للأمر الخفي ، فان الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى ، ولعل الصواع دس في رحله من حيث لا يشعر ، أو ما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق ، ثم بالقول لا نيك في إزالة التهمة وقولوا له ( واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون ) .  
قيل : القرية هي مصر ، وقيل : قرية على باب مصر ، وقع فيها التفتيش ، والعير : القافلة ، والمراد سل هؤلاء جميعهم وهم يخبرونك بكنه القصة .

( ٢ ) ( قال بل سئلت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعا انه هو العليم الحكيم ) أي زينت لكم أنفسكم أمرا أردتموه ، وصورت لكم القبيح حسنا ( فصبر جميل ) أي فأمري صبر جميل ، أو فصبر جميل أمثل شيء يصنع في مثل ذلك الوقت العسير . والصبر الجليل

هو الذى لاشكوى فيه للمخلوق كما قال ( انما أشكو بنى وحزنى الى الله ) ( عسى الله أن يأتيهم بهم جميعا ) أى يوسف وأخيه والكبير الذى تخلف بمصر حيا من أبيه وخجلا منه ( إنه هو العليم ) بحالى فى الحزن والأسف ( الحكيم ) الذى لم يفتننى بذلك إلا الحكمة ومصلحة .

( وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم ) أى أعرض عن بنيه يعقوب كراهة لما جاءوا به ، أو انحاز فى ناحية عنهم حتى لا يظهر أمامهم بظهر الجذع ، وكثيرا ما يختار الرجل البعد عن الناس فى مثل ذلك الوقت لينفس عن نفسه ، قرى يا أسفى يا المتكلم ، وقرى بالآلف المتقلبة عن الياء ، ينادى أسفه وكأنه يقول له احضر هذا وقتك وأوانك ، والأسف هو أشد الحزن ، وقد تأسف على يوسف دون أخويه مع أن الرزء الجديد أشد على النفس وأظهر أثرا ، ليربنا أن رزء يوسف لم يزل جديدا مع تقادم عهده ، وأنه أكبر رزء . رآه ، ولأن الرزء فى يوسف كان أصل الرزايا الأخرى ، فكان أسفه عليه أسفا على الكل ، ولأنه كان علما بحياة أخويه دون حياة يوسف .

( وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم ) أى أنه لما أكثر البكاء حتى سواد عينيه فجعله بيضا فضف بصره ، ( كظيم ) مملوء من النيط على أولاده ، ولا يظهر مايسوؤهم ، فعمل بمعنى مفعول ، من كظم السقاء إذا شده وهو مملوء ، أو ( كظيم ) بمعنى كظم : أى عمك لحزنه غير مظهر إياه . ولاضرب فى أن يتألم بنى الله يعقوب لهذه الشدائد ، ويحزن الحزن العميق لتلك الأحداث ، لأن هذه طبع الانسان واستعداده ، ويمتاز الصالحون بأنهم لا يفضبون ربهم فى حزنهم ، ولا يخرجون به الى مالا يحسن ، ولقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده ابراهيم ، وقال ان القلب يحزن ، والعين تدمع ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا لفراقك يا ابراهيم لحزون ، والأنبياء بشر يجرى عليهم ما يجرى على سائر الناس من الحزن والفرح ، والتألم للصاب ، والاستبشار بالنعم .

( قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين ) .

يقول بعض المفسرين : الأظهر أن الذين قالوا ذلك ليسوا أولاده الذين تولى عنهم ، وإنما هم جماعة كانوا فى الدار من خدمه وأولاد أولاده ، وهو الظاهر من توليه عن أولاده وبكائه بهيدا عنهم ، والآية تحتمل أن أولاده هم الذين قالوا ذلك بعد أن عرفوا أنه تركهم ليندب حظهم مع يوسف وأخوته ، وينادى أسفه ، وحزنه ( تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين ) هو قسم فيه معنى التعجب من مكث يعقوب على ذكر يوسف ، والحرض فساد فى الجسم والعقل للحزن والحب ، حتى يكون لا كالأحياء ولا كالأموات ، أرادوا أنك تذكر يوسف بالحزن والبكاء عليه ، حتى تشرف على الهلاك ، أو تهلك ، وهى كلمات اشفاق على نبي الله يعقوب ، كأنهم يقولون له هوّن على نفسك الأمر ، واقصد فى ذلك الحزن ، وارحم نفسك فاسها مشقة على الهلاك .

( قال إنما أشكو بنى وحزنى الى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون ) .

قال العلماء إذا أسر الانسان حزنه كان هيا وإذا لم يقدر على إسراره لعظمه فذكره لغيره كان



بنا ، فالبنت أصعب المهم التي لا يصبر عليه صاحبه فيثب على الناس ليفرج عن نفسه ، من البنت وهو التفريق ، ففنى الآية أى لا أذكر الحزن الشديد ولا القليل الى أحد من الخلق ، وإنما أذكره لله تعالى ، غفلوني وشكائتي ، ودعوني وما أصنع ( وأعلم من الله مالا تعلمون ) أى أعلم من رحمة وإحسانه مالا تعلمون ، فأرجو أن يأتيني الفرج من حيث لا أحسب .  
( يابني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ) .

ناداهم بقوله ( يابني ) يستعظمهم على تعرق أخبار يوسف وأخيه بذلك الأسلوب ( فتحسسوا من يوسف وأخيه ) اطلبوها من طريق الحاسة كالتمعن طلب المعرفة بالسمع ، والتبصر : طلب المعرفة بالبصر ، والمراد أجهدوا حواسكم ومواهبكم في معرفة أخبار يوسف وأخيه وهو في معنى التجسس بالجيم ، وإن كان الثاني أكثر في الشر ( ولا تيأسوا من روح الله ) فرجه وتنفيه ، وقرئ من روح الله بضم الراء : أى رحمة ( إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ) وكان اليأس من رحمة الله عنوان الكفر ، لأن اليأس سبب الظن بربه ، يعتقد فيه أن قدرته تعجز عن بعض المقدورات ، ومثله يأس العاصي من قبول الله تعالى له ، وتعاظم ذنبه عليه ، قد نهى الله عنه في قوله تعالى ( قل يعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم «٥٣» )<sup>(١)</sup> فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز منا وأهلنا الضرر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين ) هنا كلام مطوى : أى قبلوا وصية أبيهم ، وعادوا الى مصر ، فلما دخلوا عليه ، قالوا ذلك القول .

ومصادم بالضر : الفقر والحاجة الى الطعام ، والراد بأهلهم من خلفهم ( وجئنا ببضاعة مزجاة ) يدفعها كل تاجر ويردها رغبة عنها ، من أوجبته إذا دفعته . قال تعالى ( ألم تر أن الله يزجى سحابا «٥٣» )<sup>(٢)</sup> أى يسوقه ويدفعه بواسطة الريح ، وقيل ( مزجاة ) قليلة ، يريد أننا قوم فقراء ، جئناك بجن قليل ، وربما يؤيده قوله ( وتصدق علينا ) فإن ذلك لا يكون إلا حيث كان الثمن الذي معهم قليلا لا يني بطلبهم ، وقوله ( فأوف لنا الكيل ) أى الذي هو حقنا ، وتصدق علينا بالانخفاض عن رداء البضاعة أو قلتها ، والراد أعطنا حقنا وزدنا عليه صدقة منك علينا ( إن الله يجزي المتصدقين ) بما هم أهل له .

(٣) ( قال هل علمتم ما فاتم يوسف وأخيه إذ أتتم جاهلون ) أتاهم من جهة الدين ، وصاغ الجملة بصيغة الاستفهام ليخفف عليهم وقع القول : أى هل علمتم قبح ذلك العمل الذي علمتموه مع يوسف وأخيه ؟ وقبل أن يتم الجملة ختمها بكلمة اعتذار عنهم وهي قوله ( إذ أتتم جاهلون ) لا تعلمون قبحه ، فلذلك قدمتم عليه : أى هل علمتم قبحه فبتم الى الله منه ؟ لأن الاستقباح يجزى الى التوبة ، وكان كلامه شفقة عليهم وتنصعاعهم في الدين ، لامعابة ، إشارا لحق الله تعالى على حق نفسه في ذلك المقام الذي يفتن فيه الكروب ، ويتشغى للفيظ المحقق ، ويدرك ناره الموتور ، فله أخلاق الأنبياء ما أسهلها ، ولله عقولهم ما أوزنها وأرجحها !

( قالوا أمانك لأنت يوسف ) عرفوه من الخطاب ، أو لعله رفع شيئا من ملابسه فعرفوه ( قال أنا يوسف ) صرح باسمه عظيما لما جرى عليه من ظلم اخوته كأنه قال : أنا الذى ظلمتمونى على أشنع الوجوه ، والله أوصلنى الى أعظم المناصب ، أنا ذلك الأخ الذى قصدتم قتله ثم صرت الى مازون ، ولهذا قال ( وهذا أخى ) مع أنهم كانوا يعرفونه لأن مقصوده أن يقول : وهذا أيضا كان مظلوما كما كنت ، فصار منعما عليه من الله تعالى ( قد من الله علينا ) بكل خير دنوى وأخروى أو بالجمع بعد التفريق .

ثم علل ذلك بقوله ( انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين ) من يتق محارم الله كما اتقيتها ، ويصبر عن معاصيه ، وعلى التعذيب فى سبيل التقوى ، فان الله لا يضيع أجره ، بل يكافئه فى الدنيا ويثيبه فى الآخرة .

( قالوا تالله لقد آتاك الله علينا وإن كنا لخطائين ) اعتراف منهم بتفضيله عليهم بالتقوى والصبر ، وسيرة المحسنين ، وإن شأنا أن كنا لخطائين . قال الأموى : الخطيئة من أراد الصواب فصار إلى غيره ، ومنه قولهم : المجتهد خطيئة . ويصيب . والخطيئة : من تعمد مالا يفتنى . ويؤيده قول العزيز لاسرائئله ( واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخطائين ) أى المتعمدين للأنم .

( قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ) لا تأنيب ولا توبيخ ، وقيل المراد لا أذكركم ذنبكم ، واشتقاقه من الثرب يسكون الراء ، وهو الشحم الذى هو غاشية الكرش ، ومعناه إزالة الثرب كالجلد لارتالة الجلد ، والتمريض لازالة المرض ، لأنه إذا زال الثرب وهو الشحم كان ذلك غاية الهزال والعجز ، فضرب مثلا للتقريع المدف المضى الذى يمزق الأعراض ويذهب بماء الوجوه ، و ( اليوم ) ظرف للتثريب : أى لا أثر بكم اليوم الذى هو مظنة التثريب ، فما ظنكم بغيره ؟ ( يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ) وذلك منتهى الكرم من نبي الله يوسف ، يعمفو عنهم ثم يدهو الله لهم ، ولا غربة فهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب ابن اسحق بن ابراهيم .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بعضادنى باب الكعبة يوم فتح مكة وقال لقريش ماظننكم أنى فاعل بكم ؟ قالوا نظن خيرا أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت ، فقال أقول ما قال أخى يوسف : لا تثريب عليكم اليوم .

( انذهب بقميصى هذا فألقوه على وجه أنى يأت بصيرا وآتونى بأهلكم أجمعين ) يذكرون فى القميص روايات وخصائص ، وكل ما تعطيه الآية أنه قميص كان معروفا لنبى الله يعقوب ، فهو أمانة أن صاحبه حى ( يأت بصيرا ) أى يصير بصيرا كقولهم : جاء البناء محكما : أى صار محكما ، ويشهد له قوله ( فارتد بصيرا ) وقيل يأت الى بصيرا ، لأن القميص ايدان بأن زمن المحنة قد انتهى ، ومدة الحزن قد مضت ، وضف بصرا إليه ما جاء إلا من الحزن ، ففى زال السبب زال السبب ( وآتوني بأهلكم أجمعين ) أى يأتنى أبى ويأتنى آله جميعا .

( ولما فصلت العبر قال أبومرئى لأجد ربح يوسف لولا أن تفندون ) أى لما خرجت العبر التى تحمل إخوة يوسف وتحمل القميص للبشر بجحانه من عريش مصر ذاهبة الى الشام ( قال

أبوم إني لأجد ربح يوسف) أى أشم رائحته ، وذلك من خوارق العادة لنبى الله يعقوب أن يدرك بحاسة الشم من مسافات ليس من شأنها أن يبلغ الشم إليها (لولا أن تفندون) تنسبوننى الى الفند : وهو الخرف وإنكسر العقل من الهرم (قالوا والله إنك لفى ضلالك القديم) أى قال الحاضرون عنده لاتزال فى ضلالك الأول بما تكابد على يوسف من الأخران .

( فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا ) فرجع بصيرا كما كان ، والظاهر أن وجوده بصيرا كان لمجرد إلقاء التقيص على وجهه ، ولم تمض مدة تبرا فيها عينا يعقوب من آثار الحزن (قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون) فأعلم أنه رحيم بخلقته ، لطيف بعباده ، وأن لا بأس من روحه ورحته (قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم) اعترفوا لأبيهم بالذنوب ، وطلبوا منه أن يستغفر الله لهم ، فوعدهم ذلك .

(٤) ( فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمين ) أى فلما دخل آل يعقوب على يوسف ضم إليه أبويه ، وعاقبهما قيل إنه حين استقبالهم زل لهم هو فى ضبعة أو بيت بعيد ، فدخلوا عليه وضم إليه أبويه ( آمين ) على أنفسهم وما يلزمكم من طعام أو غيره من وسائل الحياة ، وقيل ان قوله ذلك إذن لهم بالدخول فى مصر لأنهم كانوا لا يدخلونها إلا بجواز ، ولعل ذلك إذا صح سببه القحط الذى حل بمصر فرأى ولاة الأمور بها أن لا يدخلها الغرباء ، لئلا يضاعفوا عليها المعجاة .

( ورفع أبويه على العرش ) أى السرير الرفيع الذى كان يجلس عليه ، أو المكان العالى الذى أعد له ، وليس بلزوم أن يكون سريرا أو كرسي ( وخرأله سجدا ) قال ابن عباس : خرأوا لأجل وجدانه سجدا لله تعالى وكانت سجدة شكر . وقيل : جعلوا يوسف كالقبة وسجدوا لله شكرا على لقائه ، أو إيراد بالسجدة التواضع التام على ما كانت عادتهم فى ذلك الزمان من التحية ، ولئلا ما كانت إلا انحناء ، لأن هذا هو اللائق بمركز نبى الله يعقوب ويوسف عليهما السلام ، ولا يعارض ذلك قوله ( وخرأوا ) لأنه يأتى بمعنى الزور كقوله ( لم يخرأوا عليها صا وعميانا «٧٣» )<sup>(١)</sup> أى لم يخرأوا عليها صا وعميانا ( وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا ) إشارة الى رؤية الكواكب الأحد عشر وسجودها له ، فذلك تأويلها وتعبيرها ، قد جعلها الله رؤيا صادقة ( وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن ) لم يعرض لمسألة الاخوة ورميهم له فى الحب لأنه قال لهم ( لاتعرب عليكم اليوم ) ( وجاء بكم من البدو ) أى من البادية ، وهى نعمة عظيمة نقل الله فيها آل يعقوب من البادية الى مصر صاحبة العظمة القديمة ( من بعد أن نزع الشيطان بنى وبين إخوتى ) تطف من يوسف إذ نسب نزع الشيطان ووسوسته إليه وإلهم ولم يجعلها لهم وحدهم ، لما قلنا من أنه لم يرد تأنيهم ( إن ربى لطيف لما يشاء ) لطيف التدبير لأجل الأمر الذى يشاؤه ويريده ، رفيق حتى يجىء على وفق الحكمة والصواب ، ثم علل ذلك بقوله ( إنه هو العليم الحكيم ) .

( رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث ) يذكر فضل الله عليه بأنه أعطاه

شيئا من الملك وهو ملك مصر، ولا يخفى ما في كلمة من من الأدب وهضم النفس، وفضله عليه بأن علمه شيئا من تأويل الأحاديث (فاطر السموات والأرض) مبدعهما لا على مثال سبق (أنت ولي في الدنيا والآخرة) ناصرى ومتولى شئى، ولولا أنك ولي وناصرى ما وصلت إلى ما وصلت وما خلصت من هذه الفتن للظلمة، والحوادث الجمة (توفى مسلما وألحقنى بالصالحين) أى أمتنى متقادا لأمرى ونهيك، واقفا عند حدودك، وألحقنى بالصالحين من آبائى، أو الصالحين من الأمم، وذلك آخر قصة يوسف عليه السلام، يعترف فيه أن الله وليه فى الدارين، وناصره فى الدنيا والآخرة ويطلب منه أن يمتته على الطاعة والالتقياد، وأن يلحقه بالصالحين فى منازلهم التى أعدها لهم وفى أعمالهم التى وفقهم لها.

ثم ختم قصة يوسف كعادته بقوله (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) يخاطب بذلك نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم، ويريه أن قصة يوسف مع إخوته ومع امرأة العزيز، ومع ملك مصر من الأنباء التى غابت عنك وعن قومك، وهى دليل من دلائل صدقك، وبرهان من براهين رسالتك، لأنك لم تكن معهم وهم يمكرون بيوسف، ولكنه تعليم من الله ووحى صادق منه، علمك إياه وجعله تسلية لك، وحجة على صدقك، فليعتبر بذلك المعتبرون.

## دعوة شعيب

إلى الله تعالى

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتُومِرَ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الذِّكْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا<sup>(١)</sup> النَّاسَ أَشْيَاءَ هُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ «٨٥» وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُوتَهَا<sup>(٢)</sup> عِوَجًا وَإِذْ كُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ «٨٦» وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ

أَرْسَلْتُ بِهِ وَطَافِقَهُ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ  
الْحَكِمِينَ «٨٧» قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ بِشُعْبِ  
وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعْمُدُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كُرْهِينَ «٨٨»  
فَدَا فَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا  
أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا  
رَبَّنَا افْتَحْ <sup>(١)</sup> يَتَنَّا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ «٨٩» وَقَالَ الْمَلَأُ  
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَبِيًّا لِنَكُنَّ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ إِذَا الْخَاسِرُونَ «٩٠»  
فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جُثِينَ «٩١» الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَبِيًّا  
كَانَ لَمْ يَفْقَهُوا <sup>(٢)</sup> فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَبِيًّا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ «٩٢» فَتَوَلَّى  
عَنْهُمْ وَقَالَ لِقَوْمٍ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى <sup>(٣)</sup>  
عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ «٩٣» الأعراف

### شرح وعبرة

(١) يرينا الله تعالى أنه أرسل إلى مدين أخاهم في النسب أوالدار شعيبا . ومدين قبيلة سميت  
باسم أحد ذرية إبراهيم عليه السلام ، وأنه حينما بعثه الله إلى مدين (قال) لهم (يا قوم اعبدوا الله  
ما لكم من إله غيره) شأن جميع الرسل في بدء دعوتهم بالتوحيد (قد جاءكم بينة من ربكم)  
حجة وبرهان على صدق دعوى شعيب .  
ومن المفسرين من يرى أن هذه المعجزة لشعيب عليه السلام لم تذكر في القرآن كما ذكرت  
معجزة صالح وهى الناقة ، ومعجزة موسى عليهم السلام ، والأصل أن كل رسول يؤتیه الله من  
الآيات ما من شأنه أن يؤمن بمثله البشر .  
روى الشيخان من حديث أبى هريرة أن النبی صلی الله علیه وسلم قال « ما من الأنبياء  
نبی إلا وقد أعطى ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيت وحيا أوحاه الله إلى فأرجو  
أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة .

[١] انفصل واسم . [٢] من غنى بالمكان : طالع مقامه فيه مستغنيا به عن غيره .

[٣] أحزن الحزن الشديد .

ومنهم من قال : ان اليئة كل ما تبين به الحق فهي تشمل المعجزات الكونية ، والبراهين العقلية ، ويرجح الوجه الأول قوله ( فأوفوا الكيل والميزان الخ ) فان عطف الأمر بالفاء لا يصح إلا إذا كان مبنيًا على ما هو سبب له وهو اليئة على صدقه ، ووجوب طاعته ، ولو كان معطوفاً على قوله ( اعبدوا الله ) لعطف بالواو .

(٢) بدأ الدعوة بالتوحيد لأنه أساس العقيدة ، وركن الدين الأعظم ، وفقى عليه بالأمر بإيضاء الكيل والميزان إذا باعوا ، والنهي عن بخص الناس أشياءهم إذا اشتروا ، لأن ذلك كان فاشيا فيهم أكثر من سائر المعاصي ، فكان شأنه كشأن لوط عليه السلام إذ بدأ بنهى قومه عن الفاحشة التي كانت فاشية فيهم .

وكذلك يذنب للداعي إلى الله أن يتفقد القوم ليعرف مواطن الضعف منهم ، والجرائم المتفشية فيهم ، ليعمل على نهيم عنها ، وتغييرهم منها .

ومن الجهل الناضح أن ينهى القوم عن منكرات لا يعرفونها وليست مألوفاً لديهم ، وقد يكون كلام الداعي في هذه المنكرات مدعاة لسؤلهم عنها وتقرّ فهم لها ، فيكون الواعظ أشبه بداعية إلى المنكرات بدل أن يكون داعية إلى الفضائل ، وجلة القول أن مركز الواعظ من الأمة مركز الطبيب الذي يعرف الدواء فيصف الدواء ، وقد يكون هناك أدواء كثيرة ولكن بعضها أخطر من بعض ، فمثلا مرض الجيات والأوبئة أخطر على الناس من الأمراض الجلدية ، فهل من العقل أن يعنى الطبيب بمرض جلديّ يستطيع المريض أن يعيش معه أياما وشهورا ، ثم يغفل عن مرض من أمراض الحلى الفتاكة ، أو يتقاضى عن نوع من أنواع الوباء حتى ينتشر ، ويقضى على الأخضر واليابس ١١ .

فإذا كان للتفتش في قرى الريف قلع الزرع ، وتسميم البهائم ، وحرق الغلال ، وقتل النفس التي حرم الله قتلها ، وتأريث العداوة والبغضاء بين البيوت والأسر ، وكتان الشهادة ، ومداينة عصابات السوء ، وعدم التعاون على تأديبهم بواسطة الحكومة ، وعمالة الحكام على أخذ الرشاً - إذا كان ذلك هو التفتش في قرى الريف ، فعلى الداعي إلى الله تعالى أن يحرص همه في علاج هذه الأمراض ، وتطهير النفوس من أولئك الجرائم .

وإذا كان التفتش في المدن : مرض الزنا ، والواطء ، وشرب الخمر ، والادمان على المخدرات ، واتخاذ أصدقاء بدل الزوجات ، والكذب والنفاق ، وضف العزائم ، وما إلى ذلك من فساد ، فعلى الواعظ أن يكثر من الكلام على ذلك النوع من الجرائم .

ومن المضحك أن تسمع من واعظ في القاهرة مطالبة الناس بتقنية الزرع من السودة في أكبر مسجد من مساجدها ، وهو يعلم أنه لا يضمن بين جوانبه سوى الموظفين في مصالح الحكومة على اختلاف درجاتهم .

من المضحك أن تسمع من الواعظ أمثال ذلك اللغو في مكان لا صلة له بالمزارع ، ولا لأهل به ذلك الواجب ، ولو أن الواعظ كان بقرى الريف ، وأخذ يعاون الحكام على القيام بذلك الواجب إزاء الزراعة التي هي العماد الأول لثروة البلاد لاستعقّ من الله على عمله هذا الأجر ، ومن

الناس الشكر ، ولكنه مع الأسف الشديد لم يعرف قيمة نفسه ، ولم يحدد مركزه من عظمهم ، وهل هو طبيب يعالج أمراض الناس ، أو مهرج ، وهل هو قائم بعمل جدى سيحاسبه الله عليه ، أو هو مجرد رسوم ومظاهر ؟ .

الحق أن الأمة سئمت ذلك النوع من الوعظ الذى لا يتصل بحياة الأمة فى أخلاقها ، وعلومها وصناعاتها ، لا فى قليل ولا كثير ، والحق أن للأمة بعض العذر إذا هى قفرت من ذلك الوعظ فقور الشاة من الذئب .

وإذا كان السواد الأعظم من خطباء الساجد لا يزالون عاكفين على دواوين فائ زمانها ، وانهى وقتها ، وعمت ليل غير الليل ، وزمان غير الزمان ، فكيف نهض بأولئك الخطباء ، وكيف نسعد بقوم لا يحسون مانع ، ولا يشعرون بما تشعرون آلام ، وباليتم يأخذون من الديوان الفكرة ، ثم يهوونها فى أسلوب جذاب ، وقول طلى ، أوليتهم حفظوا ما فى الديوان من عبارات ثم أخذوا يؤدونها للناس ، ولكنهم مع الأسف يصعد الرجل منهم إلى المنبر ، وورقات الديوان فى جيبه ، فإذا جاء أو ان الخطبة وضع عينه فى الورقات ، لا يرفعها إلا حيث انتهت الخطبة .

فقل لى بربك : أى صلاح للأمة يربى من ذلك الواعظ البالى فى موضوعه وشكله ، وأى حياة للناس يطلبونها من هذه الطائفة التى لم تستطع أن تفهم ما تريد أداؤه ، فتؤديه بعبارة طليئة جذابة . وانك لو حاولت أن تصلح من شأن أولئك الضعفاء لرجعت بأساخاب الأمل .

فهذا كتاب [ مفتاح الخطابة والوعظ ] الذى طبعته منذ ثمان سنين ، وقد فتحت فيه للواعظ باب الارتجال فى الوعظ والخطابة ، ومهدت له الطريق ، وسهلت له ذلك العمل الى أقصى حدود التسهيل ، جمعت فى الكتاب كل ما يحتاجه الواعظ من أبواب العبادات ، والمعاملات ، والأخلاق ، والنكورات الظاهرة ، ثم جعت فى كل باب ما يناسبه من آيات القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعلقت عليه بعض تعليقات تشرح غريبه ، وتبين بجملة ، وتلفت إلى حكم الشريعة فى أبوابها المختلفة ، طبعت ذلك الكتاب بعد أن عرض على لجنة من كبار العلماء ، وقررت أن الكتاب صالح لأن يكون مادة يستعين بها الواعظ فى دورهم ومواعظهم ثم عرضه على وزارة الأوقاف فأخذت منه ألف نسخة وزعتها على مساجدها وزواياها ، ليكون مرجعا للواعظ يحضر منه خطبته ، ويستعين به على درسه .

ولو أن الواعظ أراد أن يخطب فى موضوع من مواضع الكتاب ، ثم لم يكن منه إلا أن يتلو آيات القرآن الكريم ، وما معها من أحاديث ، لكان ذلك العمل اليسير خطبة مللة بالموضوع الذى يخطب فيه ، فكيف إذا أضاف الى الآيات شيئا من التعليل والتفسير .

طبعت ذلك الكتاب وقدمته لوزارة الأوقاف مقتنعة بأن الكتاب سيعمل نهضة واسعة فى الوعظ والخطابة ، ولكن مع الأسف ، الوعظ هو الوعظ ، والجود على القديم هو الجود ، والتعويل على دواوين الخطباء بالغ أشده ، والكتاب ملقى عند أئمة الساجد كهدة من عهد الأوقاف ، أو قطعة من الحصى البالى ، تركت فى زاوية من زوايا المسجد .

والعلة فى ذلك كله هم أولئك الأئمة الذين قعد بهم الضعف عن أن يجاروا الزمن ، فيطهروا له

ما يناسبه من أساليب ، وانك لو فعلت معهم ما فعلت لكى تغير من أساليبهم ما وجدت لذلك سبيلا هذا رأينا فى جبهة أئمة الساجد وان كان القليل منهم على ما نحب من قوة ونشاط ، وفهم لما يحيط بهم من ظروف ، وما يلزمهم من علل وأمراض ، ونرجو أن تنقلب تلك القلة ، فيصبح الجميع أو الأكثر مؤدباً لعمله ، مضططاً بما كلفه الله به من مهام وواجبات .

أما أملنا فى وعظ المراكز والأقاليم فهو فى جلته فوق أملنا فى أئمة الساجد ، ورجاؤنا أن يكونوا ممن يدعون الى الله على بصيرة بدينهم وديانهم وشئون أممهم ، وأن يكونوا منها بمنزلة الروح من الجسد ، وأن يسدد الله خطاهم ويرفق ولاية الأمور لمساعدتهم فى مهمتهم ، والأخذ بناصيرهم .

(٣) بطالب نبي الله شعيب عليه السلام قومه بإبقاء الكيل والليزان لأن التطفيق كان شائعا فيهم ، وقد توعده الله المطففين بالويل ، فقال (ويل للطففين (١) الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون (٢) وإذا كالوهم أو وزنهم يخسرون (٣) ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون (٤) ليوم عظيم (٥) يوم يقوم الناس لرب العالمين (٦) (١) وفى الآيات بيان التطفيق ، وهو أن الرجل إذا أخذ من الناس مكيلا أو موزنا استوفى حقه ، وإذا كال الناس أو وزنهم أخسر الكيل والليزان ، وهو خلق ردىء ، يوجد الآن فى المسلمين ولاسيما التجار منهم ، فتجدهم يعملون نوعين من الكيل : نوعا للشراء ونوعا للبيع ، وإذا لم يستطيعوا الوصول لذلك العمل خوفا من سلطة الحاكم فانهم يستبقون عندهم المكيال القديمة .

والشأن فيها أن يتأكد كلها القدم ، فتقص عن المكيال الجديدة - يستبقون ذلك النوع من المكيال ليكيلوا الناس به إذا هم باعوه ، أما فى شرائهم فيعمدون الى الجديد منها ليكتالوا بها ، وهو ضرب من النش والخذعة ، يلجأ إليه التجار وأصحاب الحبوب والمزارع ، ولذلك نزع الله البركة من التجارة : كما نزعها من الزرع فسلط عليها الآفات .

ومما نهى الله عنه نبي الله شعيب أن لا يبخسوا الناس أشياءهم . والبخس : هو النقص ، والأشياء أهم من المكيل والموزن ، كالمواشى والعدودات ، ويشمل البخس فى المساومة ، والغش والحيل التى تنقص بها الحقوق ، ويشمل بخس الحقوق المعنوية كالعلوم والنصائل ، وكل ذلك فاش فى هذا الزمان فأكثر التجار باخسون مطففون ، يخسرون فيما يبيعون ويشترون ، وأكثر أهل العلم والأدب وكتاب السياسة باخسون لحقوق صنفهم ، وينكرون على غيرهم ما أعطاه الله يباعث البنى والحسد والغرور .

وأكبر أنواع البخس ، مازاه من رجال السياسة ودعاة الاستعمار ، إذا نبغ فيهم رجل شادوا بذكراه ، ووضعوا له النماثيل ، وأحلوه من المكانة العلمية أو السياسية حيث يستحق ، أما إذا نبغ فى البلاد التى احتلها فرد أو جماعة ، فاهم لا يعترفون لهم بنبوغهم ، ولا ينزلونهم حيث أترزتهم مكاتبتهم فى العلم أو الثقافة ، بل يتفاوضون عنهم ، ويتناسون ما أعطاهم الله من مواهب ، وما منحهم من مزايا وخصائص ، حتى يموت فيهم ذلك النبوغ ، وحتى لا يتأسى أحدهم فى الطريق الذى سلكوه ، والتضحيات التى قاموا بها ، وكثيرا ما يلجأ للمستعمر الى قتل النبوغ من ناحية أخرى



سوى تقييد النابغ ، والخط من شأنه .

تلك الناحية هي أن يصرفه عن الجهة التي نبغ فيها ، ويشغله بعمل لا يمت إلى مواهبه بصفة ، فثلا إذا نبغ في البلاد رجل مهندس ، فانه يشغله بعمل إداري ليعت فيه تلك الناحية الهندسية التي ترجو البلاد من ورائها نفعا كبيرا ، وخيرا واسعا ، وإذا نبغ رجل في علم الكيمياء شغله المستعمل بعمل كتابي أو ما يشبه ذلك العمل ، و بمرور الأيام على ذلك النابغ تتأكد معلوماته ، وتنتهي تجاربه ، ويصح أثره بعد عين ، لم تحن البلاد من نبوغه شيئا ، ولم تستفد من عبقرية فائدة ، ألا قاتل الله السياسة وأغراضها ، فانها هي العلة الأولى في حرمان البلاد من نبوغ أبنائها ، والحيلولة بينها وبين ثمرات رجالها ، قاتل الله السياسة فانها هي التي تحمل المستعمل على أن يخص أهل البلاد حقهم ، وينقصهم قيمتهم ، فان المستعمل إذا اعترف لأهل البلاد بالنبوغ ، واستفادهم أن يديروا دفنها ، ويقوموا بما عليهم لبلادهم من أعمال ونكاليه - فقد أقام على نفسه الحجة بوجود الجلاء ، وترك البلاد لقومها وأصحابها .

بقى من يخص رجال الاستعمار الناس أشياءهم نوع خفي من أنواع البخس ، لا يظن له سوى الخاصة من الناس ، ذلك النوع هو شراء ذلك النبوغ بمن زهيد ، لاستيفاد منه البلاد ، بل هو شر مستطير عليها ، شراء ذلك النبوغ بالمنصب الكبيرة ، وشغل أصحابه عن التفكير الجدي فيما يعود على الأمة بالخبر بتلك المنصب التي تشغل جميع أوقات الرجل ، وان الرجل متى أحس بأنه في منصب كبير يدر عليه مالا جبا ، وشعر بأنه ذوسلطان ونفوذ - متى أحس الرجل ذلك الاحساس ، ضعف احساسه بالواجب عليه نحو أمته ، وأصبح يفكر في بقاء ذلك المنصب ، ويعمل له حسابا وألف حساب ، وحين ذاك يأخذ في استعمال نبوغه فيما يسمونه الحكمة والنوذة في الأمور ، وإتيان البيوت من أبوابها ، وما إلى ذلك من الكلمات العسولة التي تحمل في طياتها الجبن . والخور ، والهزيمة والتردد ، كل ذلك بفضل سلطان المنصب الكبير ، والمال الجم والنفوذ الواسع . ولو نظر الانسان نظرة فيها شيء من الامعان لعرف أن المستعملين دائما يعمدون إلى الأزياء فيكبونهم بالمنصب ، كما يضمنوا كم أفواههم ، وصمم آذانهم . وبذلك يكون نبوغهم لهم لا عليهم ، وذلكهم مستخدما في تثبيت أقدامهم وشرعية بقائهم .

(٤) ( ولا تنفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ) بالظن وأكل أموال الناس بالباطل ، والبنى والعدوان على الأنفس والأعراض ، وافساد الأخلاق والآداب بالآثم والفواحش الظاهرة والباطنة وافساد العمران بالجهل وعدم النظام ، فقد أصلح الله تعالى حال البشر بنظام الفطرة ، وكما الخلقة ويمكنهم من اصلاح الأرض بما آتاهم من القوى العقلية والجوارح ، وبما أودع في خلق الأرض من السنن الحكيمة ، وبما بعث به الرسل من مكملات الفطرة .

يلفتنا إلى أن الاعراض عن دعوة الرسل ، ومناصبتهم العداوة هو إفساد في الأرض ، لأن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم إنما جاءوا بسعادة الناس في دينهم وديارهم ، جاءوا بالأخلاق المرضية والأعمال الصالحة ، جاءوا ليعملوا للناس الطيب ، ويحرموا عليهم الخبيث ، ومادامت دعوة الرسل هي دعوة إلى الإصلاح في الأرض ، فالخروج عليها فتنة في الأرض وفساد كبير ( ذلكم خير لكم )

الإشارة الى كل ما تقدم من أمر ونهى : أى هو خير لكم فى دينكم ودنياكم ، لم يكن تكليف إعانت ، فأنه تعالى لا يأمرم إلا بما هو نافع لكم ، ولا ينهىكم إلا عما هو ضار بكم ، وهو غنى عنكم ، ولو شاء لأعنتكم ، وقوله ( ان كنتم مؤمنين ) يريد أن مقتضى إيمانكم بالله ، وأنه للمشرع الذى لا يبدو حد الحكمة والصلحة ، ولا يحل للناس إلا الطيب ، ولا يحرم عليهم إلا الخبيث .

مقتضى ذلك الإيمان اتباع رسوله والعمل بجميع ما جاء به من عند الله ، وإن خالف الهوى ، أولم تظهر له منفعة بادية الرأى ، بل مقتضى الإيمان اتباع الرسول حتى فيما يظن المؤمن أنه مناف لمصلحته ، فتحصل له فوائده ومنافعه ، وإن لم يعلم أنه علة لما يحب حكمة الله وسننه ، فكيف إذا علم ذلك بالنفقه فى الدين ، والوقوف على حكمه وأسراره .

وقد عهد فى القرآن الكريم التقيد بهذا الشرط فى مواطن كثيرة فقرأه فى سورة البقرة يؤنب المفرقين بين رسول ورسول فى أصل الإيمان ، ويقول ( وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم . قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين «٩١» ) ليربهم أن مقتضى إيمانهم بما أنزل عليهم من الكتب أن لا يقتلوا رسولا من الرسل ، ومثله فى سورة آل عمران ( قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم فلم تقتلوه ان كنتم صادقين «١٨٣» ) .

وترى نبي الله عيسى عليه السلام وهو يعظ قومه وقد اقترحوا عليه ائزال مائدة من السماء - يقول لهم ( اتقوا الله ان كنتم مؤمنين «١١٢» <sup>(١)</sup> ) يريد أن مقتضى إيمانكم أن لا تخرجوا ، وترى القرآن الكريم فى سورة الأنفال يقول ( فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين ) .

وتراه وهو يحرض على قتال قوم نكثوا الإيمان ، وهو باخراج الرسول من بلده وهدموا المؤمنين بالعداوة ، يقول لهم فى سورة التوبة ( اتخشونهم فالله أحق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين «١٣» ) وتراه فى سورة النور بعد أن وعظ الذين جاءوا بالافك ، وأخذ يذكرهم بما يجب عليهم نحو اخوانهم المؤمنين من خلق الخير ، والاحتياط فى الرى بالزنا ، وبعد أن بين الله أنه لولا فضل الله عليهم لمسههم فيما أفاضوا فيه عذاب عظيم - بعد ذلك كله يقول لهم ( يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا ان كنتم مؤمنين «١٧» ) .

من ذلك كله تعرف أن الغرض من هذا الشرط حفز النفوس الى العمل ، وسوقها الى الامتثال مادامت قد آمنت بأن الله تعالى لا يشرع للناس إلا ما فيه الخير ، ولا يريد بشريعته إعانتها ، ومادام أساس تشريعه العلم المحيط ، والحكمة العادلة ، وأن الرجل منا إذا وثق بطبيب من الأطباء أسلم له نفسه ليعطيه من الأدوية ما شاء ، ويدخل على نظام معيشته من الأساليب ما يريد ، وقد يكون فى دوائه القضاء العاجل على ذلك المريض ، بل يسلم الرجل نفسه للطبيب ليترعوا من أعضائه لاغنى له عن بتره - يقبل للمريض على الطبيب راضيا مطمئنا ، ثم يكلف نفسه استساقه دوائه المر ، وعلاجه للمرض ، ويصبر على عملية البتر أو بقر البطن أو اخراج عضو من أعضائه الباطنة ، كل ذلك لأنه وثق بذلك الطبيب المحدود العلم ، القليل البضاعة فى صناعة الطب ، أفلا يسلم نفسه

لأله قادر حكيم ، له من العلم المحيط ، والقدرة الشاملة ، والحكمة الواسعة ، ما لا يعرفه غيره ، ولا يحيط به سواه . إذا كان الإيمان بالطيب - وهو عرضة للخطأ ولم يؤت من العلم إلا القليل - قد يصل بالرجل الى حد أن يسله نفسه ، فيحرم على نفسه من أنواع للأكولات والمشروبات ماحرمة عليه الطيب ، ويبيع نفسه ما أباح ، وقد عثت الشبهة أو الشهوة وهو يحس من بعض الأطعمة أشوق ما تكون إليه ، ومن بعض الأشربة آفة ما تكون عنده ، أفلا تكون الثقة بالله تعالى أعلى وأغلى من هذه الثقة ؟ والاطمئنان الى تحليه ونحرمة فوق الاطمئنان الى أوامر الطيب ونواهيه ؟ .

نعم ان الإيمان بالله تعالى أعظم من إيمان الناس بعضهم ببعض ، والثقة بشرع الله الذي لا يأتيه الباطل ، ولا يتعرض للخطأ أقوى وأشد ، وعلى المؤمن أن يتقوا بأمر الله تعالى ونهيه ، ووعده ووعيده ، فان فقه حكمة الله في تشريعه فذلك فضله ، وان جهل حكمته فليعمل على فقها ، ولا يجرم منه جهله بالحكمة أن يدع العمل بما جهل ، فان فقه العامة بحكمة الشارع فقيه عن فهم الحكمة الخاصة للباب الذي جهل حكمته .

وقد ضرب الامام التزالي مثالا لذلك الطيب بصفائك دواء قد ركب من عقدة عقابر ، على نسب خاصة ، فهل من العقل أن تقول للطيب لا أعطاك دوائك إلا بعد أن أعرف ماحواه من عقابر ، وما اشتمل عليه من نسب ، أو العقل والحكمة أن تضع ذلك التفصيل للرجل الذي درس العقابر ، وعرف خصائصها ، ودرس الأمراض فعرف علاجها ويركب لها من الأدوية ما يناسبها ، وشرط فيها من النسب والأوضاع ما يمكن من القضاء عليها ، فالدين في جلته معقول واضح ، وفي أوامره ونواهيه على وفق الحكمة والصلحة وقد يعرض لبعض الناس شبهة في حكمة عمل خاص فتقف به تلك الشبهة عن الاطمئنان لذلك العمل ، كالخج شرعه الله ليكون وسيلة من وسائل التعارف واتصال الشعوب بعضها ببعض .

وقد أشار الله تعالى الى لك الحكمة بقوله ( جعل الله الكعبة اليت الحرام قياما للناس <sup>(١)</sup> ) وقال ( وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق «٢٧» ليشهدوا منافع لهم <sup>(٢)</sup> ) فإذا جهل الانسان حكمة السعي بين الصفا واللروة ، أو حكمة رمي الجمار لحسبه أن يعرف الحكمة العامة ، وكالصلاة شرعها الله تعالى لأنها تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر كما قال ( ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر <sup>(٣)</sup> ) فإذا جهلنا حكمته في أن جعلها خمسا في كل يوم وليلة ، وجعل الظهر أربعين ركعة والغرب ثلاثا ، والصبح اثنين ، فلنكمل حكمة ذلك التفصيل الى التشريع الحكيم ، كما وكلنا حكمة نسب السواء الى الطيب الذي يعرف جلته وتفصيله ، وكالصوم شرعه الله تعالى ليعدنا به للثبوت ، كما قال ( لعلمكم تتقون «١٨٣» <sup>(٤)</sup> ) فإذا جهلنا حكمته في جعله شهرا في كل عام ، فلا يقف بنا جهل حكمة العدد عن أداء الصوم ، وهكذا .

وحسبنا أن نعرف أن العبادات معقولة في جلتها ، وإن كانت تصبغ في تفصيلها ، ولعلنا بعد زمن نفقه هذه الحكم ، وتقف على أسرار التشريع ، ( ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله

واسع عليم «٥٤»<sup>(١)</sup> (يؤتى الحجة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب «٢٦٩»<sup>(٢)</sup> ) .

(٥) (ولا تعبدوا بكل صراط توعدون وتصتوبون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا) روى عن ابن عباس رضى الله عنه قال : كانوا يجلسون في الطريق فيقولون لمن أتى عليهم : ان شعبيا كذاب فلا يفتنكم عن دينكم . وفي رواية عنه . بكل صراط : طريق - توعدون قال : تحذرون الناس أن يأتوا شعبيا .

وروى عن مجاهد تفسيره بالسبيل المجارى : أى بكل سبيل حق . ويصح إرادتهما معا فهو ينههم أن يعبدوا بكل طريق يتوعدون للمؤمنين ويهددونهم إذا هم آمنوا ويصتوبون عن سبيل الله ودينه الحق للمؤمنين بالقوة أو بضروب الفتنة والتعذيب كما حصل من قريش في بدء الاسلام كانوا يعذبون ضغفاء المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم ، وبصرفهم عن الحق - كبلال بن رباح كان مملوكا لأمية بن خلف الجحفي ، فكان يجعل في عنقه حبلا ويدفعه الى الصبيان يلعبون به وهو يقول : أحد أحد ، وكان أمية يخرج به في وقت الظهيرة في الرمل الشديد الحرارة لو وضعت عليه قطعة لحم لنضجت ، ثم يؤمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى ، فيقول : أحد أحد . ومثله عمار بن ياسر وأخوه وأبوه وأمه ، كانوا يعذبون بالنار ، فرتبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : صرا آل ياسر فوعدهم الجنة . وخباب بن الارت سبي في الجاهلية فاشترته أم أعمار ، وكان حدادا ، فلما أسلم كانت مولاته تأتي بالجديدة المحماة فتحملها على ظهره ليكفر ، فلا يزيد ذلك إلا إيمانها ، هذه مثل من فعلته قريش مع المؤمنين ليفتنوهم عن سبيل الله ، وهو يرينا مقدار حق أعداء الحق على المؤمنين ، وتألمهم من إيمانهم في كل زمان .

أما قوله ( وتبغونها عوجا ) فالمراد أنهم أضافوا الى قعودهم بكل طريق يتوعدون المؤمنين فيه ، ويصتوبونهم عن سبيل الله .

أضافوا الى ذلك أنهم يغترون طريقة الرسل معوجة أودات عوج : أى غير مستوية ولا مستقيمة فأصحاب الظلم العظيم - وهو الشرك - يشوبون التوحيد بشوائب كثيرة من الوثنية ، أمعها الشرك في العبادة ، فلا يتوجهون فيه الى الله وحده ، بل يشركون معه في الدعاء والتوجه غيره (وما أسروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء<sup>(٣)</sup> ) وإذا أنكروا عليهم منكر يتأولون فيقول العالمى : المحسوب منسوب ، الواسطة لا تنكر ، ويقول دعى العلم : هذا توسل واستشفاع ، لاعبادة ولادعاء ، والأولياء أحياء في قبورهم كالشهداء ، والظالمون بالابتداع يغفونها عوجا بما يزيدونه في الدين من البدع والمحدثات ، ومستقدم في هذه البدع النظريات الفكرية ، والتأويلات الجدلية ، واستحسانات ينكرون أصولها ، ويأخذون بفروعها ، وعواتهم يقولون قال فلان من المؤلفين ، وفعل فلان من الصوفية الصالحين ، ونحن لانفهم كلام الله ولا كلام الرسول ، وإنما فهم كلام هؤلاء الفحول .

والظالمون بالزندقة والنفاق يغفونها عوجا بالشكيك فيها بضروب من التأويل يقصد بها بطلان الثقة بها والصد عنها .

والظالمون في الأحكام يغفونها عوجا بترك تحريم ما أمر الله تعالى به من التزام الحق ، وإقامة ميزان العدل ، والساواة فيها بين الناس بالقسط ، بأن لا يحابي أحدا لفناء أو قوته ، ولا يهضم حق أحد لضغفه أو فقره ، ولا لفسقه أو كفره (ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى «٨»<sup>(١)</sup>) والظالمون بالغلوق فيها جعلوا يسرها عسرا ، وسعنها ضيقا وحرجا ، وزادوا على ما شرعه الله من أحكام العبادات ، والمحظورات والمباحات أضعاف ما أنزله الله في كتابه ، وما صح من سنة رسوله ، مما ضاقت به مطولات الأسفار ، التي تنقضي دون تحصيلها الأعمار ، ومنهم من جعل غاية الاهتمام بها الفقر والمهانة ، والفلة والاستكانة ، خلافا لما نطق به الكتاب من عزة المؤمنين ، وكونهم أولى بزيينة الدنيا وطيباتها من الكافرين .

فهذه أمثلة لمن يغفونها عوجا من اللتين إليها ، والدعيتين لهدايتها ، وأما أعداؤها الصرحاء فهم يطعنون في كتاب الله وفي خاتم رسوله جهرا بما يخلقون من الافك ، وما يخترعون من الشبهات ، وما يفتنون من للشككات .

ثم أخذ نبي الله شعيب عليه السلام يذكركم بنعم الله عليهم ، إذ كانوا قليلى العدد فكثرتهم الله تعالى بما بارك في نسلهم ، فعلمهم أن يقابلوا أمثال هذه النعمة بشكره ، والعمل برصايه ، ثم أمرهم أن ينظروا كيف كان عاقبة المفسدين من الشعوب المجاورة لهم ، كقوم لوط وقوم صالح ، وكيف أهلكهم الله بفسادهم ، فيجب أن يكونوا عبرة لهم في ذلك .

ثم أخذ يقول لهم إذا كان بعضكم قد آمن بما أرسلني الله به إليكم من التوحيد والعبادة والأحكام المقررة للإصلاح ، وبعضكم لم يؤمن بها ، فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وبينكم بالفعل ، وهو خير الحاكمين ، لأنه يحكم بينكم بالحق والعدل ، فإن لم يعتبر كفاركم بعاقبة من قبلهم ، فسيرون ما يحل بهم .

(٦) (قال الملا الذين استكبروا من قومه لنخرجك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا) كان هذا ردهم على دعوة نبي الله شعيب لهم أن يعبدوا الله وحده ، وأن يوفوا الكيل والميزان ، ولا يبخسوا الناس أشياءهم ، ولا يفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ، ولا يصدوا الناس عن سبيل الله ودينه ، ولا يشككوكم في عقائدكم ، وأن يذكروا نعم الله عليهم وفضله معهم .

كان ردهم عليه الوعيد والتهديد ، بدل أن ينظروا في هذه الدعوة أي حق أم باطل ، وهل هي دعوة الى مكارم الأخلاق أم الى الفاسد منها ، فأقسموا ليكون من الملا المستكبر اخراج شعيب والذين آمنوا معه من بلادهم ، أو لتعودن في ملتهم ، وعلى شعيب ومن معه أن يختاروا لأنفسهم . قيل التعبير بالعود يقتضى أن شعبا ومن معه كانوا على ملتهم ثم خرجوا منها ، وهو صحيح بالنسبة للجموع فجاز أن يخاطبوا بذلك [ وفيهم نبي الله شعيب ] من باب التغليب ، لأن شعيبا

وجميع الأنبياء معصومون من الكفر حتى قبل النبوة ، أولأن شعبيا لم يعرف عند قومه قبل النبوة بجملة تخالف ملتهم ، لأنه وقف من عقائدهم وأعمالهم موقفا سلبيا ، لم يشاركهم فيها ، ولم ينههم عنها بحسبه واحدا منهم ، كما قالوا لصالح عليه السلام ( يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ) وكان رجائهم فيه لوقوفه منهم ذلك للوقف ، ومنهم من قال : العود الرجوع الى الشيء بعد الانصراف عنه بالذات أو بالقول والعزيمة ، ومنه ذمّه والمعوذ الى غيره ، ولا يقتضى هذا المعنى سبق الكون فيه ولا عدمه .

يقول نبي الله لم بعد ذلك التهديد ( أولو كنا كارهين ) يريد أنعود في ملككم على كل حال حتى حال الكراهة لها الناشئة عن اعتقاد بطلانها وقبحها ، وما يترتب عليها من الفساد في الدنيا والآخرة ، أولو كنا كارهين لأحد الأمرين ، وهو استفهام تعجب من صنعهم واستنكار لطلبهم ، ووجه التعجب والاستنكار جهل هؤلاء بكنه الدين والملة ، وكونه عقيدة يدان الله بها ، وأعمالا يتقرب إليه بأدائها ، وجعلهم يكون حب الوطن وألف السكن لا يبلغ هذه النزلة ، ويجهلهم هذا ظنوا أن شعبيا عليه السلام قد يؤثر هو ومن معه التمتع بالاقامة في وطنه ، ومجاراة أهله في كفرهم وردائهم على مرضاة الله تعالى بالتوحيد والفضائل ، ذلك بأن الله عند أولئك الملا رابطة تقليدية ، وعصبية قومية .

وملة الرسل عليهم السلام ليست كذلك ، بل هي دين مالك للفس ، حاكم على الوجدان والعقل ، يقصده الكمال البشرى الأعلى بمعرفة الله تعالى والقرب منه ، وما يتبع ذلك من صلاح الدنيا وسعادة الآخرة ، فان تمكن صاحبه من إقامته في وطنه وإصلاح أهله به فهم أحق به بداء ودواما ، وان متع فيه حرّيته ففقد في دينه كان تركه واجبا .

( إن الذين توفاهم الملائكة ظلمى أنفسهم قالوا فيم كتمت قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا «٩٧» إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا «٩٨» فأولئك عسى الله أن يسفو عنهم وكان الله عفوا غفورا «٩٩» ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما (١) كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يتركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما «١٠٠» (٣) .

هذا وان طريق نبي المصالح ، والحيلة بينه وبين وطنه ، ومسقط رأسه : هو طريق الفسدين وأعداء الإصلاح منذ زمن بعيد ، فهؤلاء قوم لوط يدعوم نبي الله لوط عليه السلام الى عبادة الله الى ترك الفاحشة ، فيكون جوابهم له ( أخرجهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون «٨٢» (٣) يتعاونون على اخراج لوط وشيعته من بلده ، ثم يملكون ذلك الاخراج بأن لوطا ومن معه أناس يتطهرون من الفاحشة الذين تلوّثوا بها ، فأصبحت الطهارة من الفواحش جريمة عند أولئك القوم ، يستحقّ ذوبها أن يحال بينهم وبين وطنهم ، كما أصبحت هذه الفاحشة عادة مألوفة

[١] منجبا يذهب إليه . [٢] النساء . [٣] الأعراف .

لأتمجها الطباع ، ولا تنفر منها النفوس ، وبذلك صار المعروف عندهم منكرا ، والمنكر معروفا ، وذلك أحط دركات النفوس ، وأدون مغزلة فصل إليها الفطر .

وهؤلاء اللآلئ للستكبر من قوم شعيب يتوعدونه باخراجه من بلده ، أو يرجع إلى باطلهم ، فيسفه عقله ، ويدنس فطرته ، ويهمل مواهبه ، ويلقى مانصبه الله له من أدلة وبراهين على حقبة دعوته ، ووضوح طريقه ، يهددونه ذلك التهديد ، ويهددون من معه من المؤمنين المخلصين ، الذين عرفوا أن طريقه حق فاتبعوه ، وأن ماعد القوم بلطل فتركوه ، وكأنهم يقولون لشعبة نبي الله شعيب : يجب أن تلفوا عقولكم وتهملوا مواهبكم ، وتنكروا إنسانيتكم ، فلا يكن لكم الحق في أن تختاروا من الطرق أيئنها ، ومن الخطط أضعها ، ومن الأدلة أقواها ، والذي يختار لكم غيركم ، ويرسم لكم الطريق سواكم ، وسواء عليكم بعد ذلك رضيتم أم سخطتم ، أطمأنتم إلى ذلك العمل أو اضطررتم .

وهؤلاء الذين كفروا بالرسول جميعهم يقولون لهم ( لنخرجكم من أرضنا أو لنعودن في ملتنا » ١٣ )<sup>(١)</sup> وهؤلاء المستعمرون وصنائع المستعمرين يقولون لطلاب الاستقلال وزعماء الأمم قالة الكفار للرسول ( لنخرجكم من أرضنا أو لنعودن في ملتنا ) وملة المستعمرين أن تبقى البلاد ملكا لهم ، يتمتعون بخيراتها ، ويستأثرون بالحكم فيها ، يوظفون فيها رجالهم ، ويصرفون تجارتهم ومصانفهم ، ويوجهونها خيرهم وخير بلادهم .

ملتهم أن لا يسمحوا لأحد أن يصيح في وجه الظالم ليطالبه بالعدل ، أو يرفع رأسا للطالبة بحق ، ملتهم أن تبقى الناس عبيدا لهم مسخرين ، وأداة طبع ، يعملون وهم يتمتعون ، ويكدون وهم مترفعون ، إذا ظلمهم شكروهم على ظلمهم ، وإذا استعبدهم جدومهم على أحكامهم .

تلك هي ملة المستعمرين وصنائع المستعمرين ، يزعمون أن الله بضمهم الخير الانسانية ، وخلقهم ليكونوا أوصياء على الشعوب والأمم ، يعملون لهم الصالح ، ويتجنون لهم الضار ، لا يبلغ شعب من الشعوب سق الرشدا إلا حيث شهدوا له بذلك ، ولا يصل إلى المكانة اللاتقة به من الثقافة إلا حيث اعترفوا له بالوصول ، ولم لم يعشوا إلا لشر الانسانية ، والخيولة بينها وبين المكان اللاتق بها .

ألا ترى كيف يحولون بين الأمم وبين السلم النافع ، والتعليم الثمر المفيد ، وكيف يسلطون عليها من جيوش الشهوات ما يفسد أخلاقها ، ويذهب بكرامتها ، وكيف يحولون بين النبوغ والأمة حتى لا تستطيع أن تنفع بالناس من أبنائها ، والاختصاصين من علمائها .

يفشرون السلم النافع في بلادهم ويحرمونه على غيرهم ، يتمتعون بالعدل والانصاف في ممالكهم ، ويقوضون أركانها في مستعمراتهم ، يملأون العالم بأساطيلهم في البر والبحر ، ومعقداتهم الحربية في السلم والحرب ، ثم لا يسمحون لما معهم من البلاد أن يكون له جيش يذكر ، أو معدات تنفع وتفيد ، أهذه هي الوصاية التي انتدبهم الله لها على جمع الشعوب والأمم ، أهذا هو الرق الذي يدعون أنهم خدمته المخلصون ، ورجله العاملون ، أم ذلك هو الخداع والتعريض ؟

إن الشعوب والأمم قد عرفت كيف تأخذ لها مكانا تحت السماء ، وتخطط لها طريقا للبقاء ، وعرفت أن الذي وهبكم من أسباب القوة ووسائل البطش ما وهبكم لم تنفذ خزائنه .

وفي الحق أنه لم يعد الناس يفتحون آذانهم لأولئك الكلمات العسولة ، بعد أن جرّبوا من دول الاستعمار كلّ بلاء ، وذاقوا منهم الحلو والمرّ ، وعرفوا أنهم قوم لا يرهبهم سوى القوة ، ولا يخضعهم إلا السلطان والنفوذ ، ومقياس الطفولة عندهم وبلوغ سن الرشد : القوة والضعف . فالشعب الذي لا يزال ضعيفا في حريته ، محدودا في علمه ومؤهلاته ، فقيرا في رجاله وأبنائه ، هو ذلك الشعب الذي يستحقّ عند القوم الوصاية .

أما شعب استطاع أن يكسر لهم عن نابه ، ويقلب لهم ظهر الجحش ، ويبدل راحتهم تعباً ، وصفاءم كدرا ، ويوقعهم في مشا كل لا قبل لهم بها - شعب هذا حاله يستحقّ منهم العناية والنظر ، وأن يدخل في مصاف البشر ، يستحقّ أن يستضيء بالشمس ، ويستظلّ بالسّماء ، يستحقّ أن يفتتح بغيراته ، ويجمع ثمرات بلاده .

وترى أولئك السّول مع اعترافهم بنبوغ الشعب وقوته براوغون معه ويداورن ، فإذا طالبهم بالغاء الحماية التي وضعوها ظاماً ألغوا اسمها ، وأبقوا حقيقتها ، تحت عنوان لنبيذ ، واسم جذاب ، وإذا طالبهم بالاستقلال أجابوه الى اسمه ، وكبلوه بقيود تذهب بثمرته ، وتضيع الفائدة منه كلّ ذلك ليكون مظهرهم أمام العالم التمددين مظهر للنصف المسير للزمن .

هذه هي وصايتهم على الأمم ، ورعايتهم على الشعوب ، وإذا قام نفر من القوم يواجهون هذه الحقائق ، ويصرخون في وجه الاستعمار ، قابلوهم مقابلة منكرة ، وقالوا لهم ماقاله الكفار للرسول ( لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا ) وقد نسوا أن الله أوحى إليهم ( لنهلكن الظالمين ) ولفسكنكم الأرض من بعدهم ) وهو وعد من الله لا يتخلف ولا يتخلف ، وانا آمنّا بوعد الله ووعيده ، وأنه لا يرضى ظملا في الأرض ، ولا أن يتعد الناس بعضهم بعضا ، وانما يرضى للناس العزة والكرامة ، والعدل والاستقامة ، فليجرب الظالمون من أنواع الاستبداد بالمصلحين مشاءات لهم التجارب ، فان الصرحيف التقيين ( ولقد سبقت كلتنا لعبادنا الرسلين « ١٧١ » ) انهم لهم المنصورون « ١٧٢ » وان جذدنا لهم الغالبون « ١٧٣ » ( ١ ) .

( ٧ ) ( قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ) بيان من نبيّ الله شعب عليه السلام لأهمّ الأميين وأولاهها بالرفض والكراهة ، وهو انشاء في لفظ الخبر - فاما أن يكون قسما مؤكدا لرفض دعوة الملائم الى العود في ملتهم ، كما يقول القائل : برئت من الفتنة أو من رجة الله تعالى ان فعلت كذا . فيكون مقابلة لقسمهم بقسم أعرق منه في التوكيد واما أن يكون تعجبا خرج على غير مقتضى الظاهر ، وأكد بقده والفعل الماضي .

والعنى ما أعظم افتراءا على الله تعالى ان عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ، وإذا كان من يتبع ملتكم بعد مفتريا على الله تعالى بقوله عليه ما لا يعلم ، لاهدية من الوحي ولا برهان من العقل ، فكيف يكون حال من افترى عليه وضل عن صراطه على علم ( بعد إذ نجانا الله منها ) .

قد علمت أن شعبا عليه السلام مستثنى من ذلك لأنه معصوم ، والكلام على التعليب ، والمراد بعد أن نجانا الله من الانثناء إليها ، ومشايعة أنصارها .

( وما يكون لنا أن نفود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ) رفض آخر للعود في ملتهم مؤكدا ببلغ



التأكيد معطوف على مناسبه ، والتعير يدل على نفي الشأن وهو أبلغ من نفي الفعل ، لأنه نفي له بالليل ، وهو كونه غير مستطاع ، ولا جار على سنن الله في الاجتهاع .

والعنى : ليس من شأننا أن نعود فيها إلا حال مشيئة الله للتصرف في جميع الشئون ، فهو وحده القادر على ذلك لا يقدر عليه غيره ، لا أتم ولا نحن ، لأننا موقوفون بأن ملتكم باطلة ، وملتنا هي الحق ، والوقوف لا يستطيع إزالة يقينه ولا تقييره ، وأما ذلك يد مقلب القلوب سبحانه ، ورحمن مشيئته ، وقوله (وسع ربنا كل شيء علما) يرينا أن مشيئته تجري بحسب علمه ، وحكته في خلقه . ومن حكته وسننه في خلقه أن يقيم حجته بأهل الحق على أهل الباطل ، وينصرم عليهم بالقول والفعل ، وكأنه يقول لهم : إذا كان الأمر كذلك فلا تطمعوا إذا أن يشاء ربنا الحق بنا عودتنا في ملتكم بعد إذ نجانا بفضلها منها ، وأقام الحجة عليكم بنا ، وما كان تعالى ليدحض حجته ، ويطل سفته ، فيبدل الهدى ضلالا ، والنور ظلمة ، والبصر عمى ، حتى يحولنا من إيمان الى كفر ، ومن سعادة الى شقاء ، فقوله (إلا أن يشاء الله ربنا) استثناء مؤسس للأن من قوم شعيب من عودته عليه السلام مع من آمن معه في ملتهم فهو لتأكيد النفي ، ونظيره قول الله تعالى (ستقرئك فلا تنسى « ٦ » إلا ما شاء الله <sup>(١)</sup>) إذ ليس المراد أن الله تعالى يشاء نسيانه وقتلنا ، وإنما المراد أنه لا ينسى ما قرأه عليه مطلقا ، والايثار بالمشيئة للتنبيه على أن عدم النسيان بفضل الله وكرمه ، لا بالاجاب عليه ، فلو شاء أن يحمله كذلك لفعل ، وعلى ذلك جاء الاستثناء في قوله تعالى في سورة هود (وأما الذين سعدوا في الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير محذوذ « ١٠٨ » ) <sup>(٢)</sup> أى غير مقطوع ، فالاستثناء في مثل هذا للتنبيه على أن ذلك التأيد والتخليد بكرم الله تعالى وسعة جوده ، لا بتحتيم عليه واجباب ، وأنه لو أراد أن يسلب ما وهب لم يعمه من ذلك مانع .

(أ) ان من يقابل اللات المستكبر العاقى بتلك المقابلة لا غنى له عن ركن شديد يأوى إليه ، وحصن حصين يعتمد عليه ، فليس غريبا أن يقول شعيب بعد أن هدده قومه بالخراج من بلده إلا أن يعود في ملتهم و بعد أن يأثمهم من ذلك العود ، وأقام لهم الأدلة على أنه غير مستطاع . ليس غريبا أن يقول نبي الله شعيب (على الله توكلنا) أى إليه وحده وكلنا أمرا ، مع قيامنا بكل ما أوجبه علينا ، فهو يكفينا أمر تهديدكم ، وكل ما لم يحمله في استطاعتنا من جهادكم (ومن يتوكل على الله فهو حسبه « ٣ » ) <sup>(٣)</sup> وهكذا يجب أن يتوكل على الله كل داع إليه ، ويتأوى بنبي الله شعيب إذا جد به الجد ، فتأب عليه أعداء الحق وأنصار الباطل ، وأخذوا يهددونه بألوان من العذاب لا قبل له بها ، فيقوم بما أوجبه الله عليه وما اقتضته حكته من أسباب النصر الكونية التي تدخل تحت استطاعته ، ثم يرجع إلى الله تعالى فيما لا يقدر عليه من الأسباب ، فإذا كان واعظا استوفى الموضوع الذي يعظ الناس به بحثا ، وأحاط به من جميع نواحيه وكون له رأيا في ذلك الموضوع خالصا من الشبه ، بعيدا عن الشكوك ، وبذلك يكون داعيا إلى الله على بصيرة .

ثم بعد ذلك كله ، وبعد أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والوعظة الحسنة ، بكل أمره إلى الله تعالى في أن يصرف عنه أذى القوم ، ويحول بينهم وبين أن ينالوه بسوء ، ثم يرجع إليه فيما يجد من المشاكل مما لم يعمل له حسابا .

وكثيرا ما رأينا شكوكا وشبهات توجه إلى الله تعالى ثم يلهمه الله عليها الجواب النافع والرد الحسن ، كل ذلك بفضل توكله على ربه ، ورجوعه إلى خالقه وبارئه ، بعد أن يعد لموضوعه العدة ، ويهيئ له الأسباب والمقدمات ، فمن يترك العمل بالأسباب فهو جاهل مغرور ، لا متوكل منصور ولا مأجور ، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لمن سأله : أيترك سائبة وتوكل على الله تعالى « اعقلها وتوكل » رواه الترمذى . وقال تعالى لرسوله بعد أن أمره بمناورة أصحابه في غزوة أحد ( فإذا عزمتم فتوكل على الله إن الله يحب للمتوكلين » ١٥٩ » ( ١ ) ) وانما يكون العزم بعد الأخذ في الأسباب . ومن أراد أن يكون تاجرا لا يكفيه أن يكون عنده مال يشتري به ما يريد ، بل عليه أن يدرس للوضع الذي يريد أن يعمل فيه ، وقد أصبحت التجارة فنا من الفنون العظيمة التي ألقت فيها الأسفار ، وأنشئت لها المدارس المختلفة .

ومن السفه والحق أن يأتي الرجل الذي لا يتصل بالتجارة لا في قليل ولا كثير ، لم يتصل بها علما ولا عملا ، ثم يعمد إلى طائفة من المال ليشتري بها بقالة أو أقمشة أو ما يشبه ذلك . إن تاجرا هذا حاله لابد أن يكون حظه الفشل ، ولا يفنيه أن يقول : إنه متوكل على ربه ، لأنه كاذب في ذلك التوكل ، ولا يفنيه أن يكون مسلما طيب السيرة والسمعة ، فإن ذلك كله شيء والاستعداد للتجارة شيء آخر ، فإن الله تعالى جرت سنته بأن يمد من يعمل للدنيا من طريقها المعتاد ، وأسبابها الصحيحة أيا كانت نحلته ، وأن يخذل من لا يأتى اليوت من أبوابها ، وإن كان على دين صحيح ، وأخلاق طيبة ، ويخطئ بعض الناس حينما يعجبون من صنع الله معهم إذا رزى عنهم الدنيا وأعطاهم لأجرهم ، الذين هم على دين باطل ووفية منكورة .

وسبب خطئهم أنهم حسبوا أن الدنيا يعطيها الله تعالى لمن يحب وإن خالفوا سنته ، ويحرمها من لا يحب وإن حذقوا طريق جمع المال وتخميره بطرق الاقتصاد ( من كان يريد العاجلة لمجئنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا » ١٨ » ) ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا » ١٩ » كلاً تمتد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا » ٢٠ » انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض والآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا » ٢١ » ( ٢ ) .

هذه أمثلة ضربناها للقارى حتى لا يفهم أن التوكل هو التواكل ، بل التوكل الصحيح القيام بما أوجبه الله عليه من الأحكام الشرعية ، وصراعاة ما اقتضته حكمته من الأسباب والسفن الكونية والاجتماعية .

ثم قال نبي الله شعيب ( ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ) . يطلب من الله تعالى بمد أن أذى ما عليه من بلاغ وبعد أن صبر على إيذاء قومه حتى بلغتهم

العودة كاملة غير متقوصة ، وقامت عليهم الحجة أن يفصل بينه وبين قومه بلحقى الذى مضى به سفته فى التنازع بين الرسلين والكافرين ، وبين سائر المحققين الصالحين والمبطلين الفاسدين فى الأرض ، وأنت خير الحاكمين لاحاطة علمك بما يقع به التخاصم ، وتزهك عن الظلم ، واتباع الحق فى الحكم .

(٩) لما ينس اللأ من عودة شعيب ومن معه أخذوا يقولون لمن معهم (لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون) لشرفكم ومجدكم ، بإيثار ملته على مله آبائكم وأجدادكم ، وخاسرون لثروتكم وربحكم ، بما حذقتموه من تطفيف السكيل واليزان ونحس الناس أشياءهم ، وقد أكدوا قولهم هذا فى قولهم (لئن) الفاعلة على القسم وتوسط (إذا) بين طرفي الجملة ، وبحجج الجملة اسمية ، كل ذلك من المؤكيدات لضمونها ، الخادعة لسامعها ( فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين) وفى سورة هود ( وأخذت الذين ظلموا الصيحة ) .

وقد علمت من قصة نبي الله صالح أن الذى حلّ بجمود صاعقة يصحبها صوت شديد هو الصيحة ترجف منها القلوب ، فالعذاب قد اشتمل على ذلك كله : كذلك عذاب قوم شعيب هو رجفة وصيحة ، فأصبحوا فى دارهم التى أرادوا إخراج شعيب منها ، والخيولة بينه وبينها جاثمين على ركبهم من هول ما أصابهم .

ثم أراد أن يصور لنا ما أصاب القوم من هلاك ، وما حلّ بهم من تدمير ، فقال ( الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين ) ليرينا أنهم أصبحوا أثرا بعد عين ، فانتهمت عظمتهم ، وزال كبرياؤهم ، وجعلهم الله أحاديث .

واظركيف يكرر الله علينا كلمة ( الذين كذبوا شعيبا ) بأسلوب الخطابة المؤثرة فى الوجدان والتوبيخ كما نقول ، كما نقول : أنت الذى جنيت علينا ، أنت الذى سلطت علينا أعداءنا ، أنت الذى فرقت كلمتنا ، ثم يختم ذلك الأسلوب بقوله ( الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين ) وهو رد على قولهم ( لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون ) ليريهم أن الذى خسروا دينه ودينه هم الذين كذبوا شعيبا ، أما المؤمنون بشعيب فقد أنجاهم الله فى الدنيا وسينجيهم فى الآخرة .

ثم كان من نبي الله شعيب أن تولى عن قومه بعد أن حلّ بهم من عذاب الله ما حلّ ، وأخذ يخاطبهم بأنه أبلغهم رسالات ربه ، ومحضهم النصيح ، ولكنهم لا يحبون الناصحين ، فالعيب عليهم لا عليه ، فكيف يحزن عليهم ، وقد أعذر إليهم ، وبذل جهده فى سبيل هدايتهم ونجاتهم وانما يأتى من قصر فيما يجب عليه من النصيح والارشاد .

### شعيب عليه السلام

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَنفَعُوكُمُ الْمِكْيَالُ وَالْمِيزَانُ إِنِّي أُرِيكُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَلَيْكُمْ عَذَابٌ يَّوْمٍ

مُحِيطٌ <sup>(١)</sup> «٨٤» وَيَقُومُ أَوْفُوا لِلْكَيْلِ وَالزَّيْزَانِ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ «٨٥» بَقِيَتْ <sup>(٢)</sup> اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِمُحْفِظٍ <sup>(٣)</sup> «٨٦» قَالُوا بِشُعْبُ أَصْلُوكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ «٨٧» قَالَ يَقُومُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَدَيْهِ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمُ إِلَى مَا أَنْهَيْتُكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ «٨٨» وَيَقُومُ لَا يَنْجِرِ مَنُكُمُ <sup>(٤)</sup> شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ «٨٩» وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثَوَّبُوا إِلَيْهِ إِنْ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ <sup>(٥)</sup> «٩٠» قَالُوا بِشُعْبُ مَا نَفَعَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْمُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَزِيرٍ «٩١» قَالَ يَقُومُ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخِذُوا وَرَاءَ كُمُ ظَهْرِيَا <sup>(٦)</sup> إِنْ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ «٩٢» وَيَقُومُ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَاتَتِكُمْ <sup>(٧)</sup> إِنِّي عَلِيلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ «٩٣» وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْئَةَ <sup>(٨)</sup> فَاصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جُثُمِينَ <sup>(٩)</sup> «٩٤» كَأَن لَّمْ يَفْنَوْا فِيهَا إِلَّا بُعْدًا لِذَيْنَ كَمَا بَعَدَتْ نَمُودُ «٩٥» هُودُ

[١] مهلك : أو مستأصل . [٢] ما يبقى لكم من الحلال ، أو طاعته . [٣] أحفظكم من الغيابة أو أحفظ عليكم أعمالكم فأجزيكم عليها أو منبئ عليكم نعم الله تعالى مع سوء صنيعكم . [٤] يكسبكم مآرائي . [٥] عظيم الاحسان بالاتباعين . [٦] مندوب إلى الظاهر ، والكسر من تغييرات النسب . [٧] مصدر مكن مكاة فهو مكين : أي اعملوا على قدرة منكم على هداوتي . [٨] صوت العذاب . [٩] ميتين لازم من لأما كنهم « ينفوا » يقبوا .

## شرح وعبرة

(١) بعد أن دعاهم شعيب الى عبادة الله وحده ، وعلم قصص المكيال والميزان ، قال لهم ( انى أراكم بخير ) يريد أنكم فى ثروة واسعة تنفيكم عن التطفيف ، أو أراكم بنعمة من الله حقها أن تقابل بنير ما تفعلون ، ثم خوفهم من عذاب الله تعالى إذا هم خالفوه وخرجوا عن حدوده ، فقال ( وانى أخاف عليكم عذاب يوم يحيط ) توعدهم بعذاب يحيط بهم بحيث لا يخرج منه أحد ، والمحيط من صفة اليوم فى الظاهر ، وفى المعنى من صفة العذاب ، وذلك مجاز مشهور ، كقوله ( هذا يوم عصيب ) قيل انه تخويف من عذاب الاستئصال فى الدنيا الذى يحيط بهم كاحاطة الدائرة بما فى داخلها ، فينالهم من كل وجه ، وذلك مبالغة فى الوعيد ، كقوله ( وأحيط بجره « ٤٣ » ) (١) وقيل انه تخويف من عذاب الآخرة لأنه اليوم الذى نصب لاحاطة العذاب بالمعذنين فلا يشذ منهم أحد ، وهو صالح للاسمين جميعا .

وبعد أن أمرهم ثانيا بإفناء الكيل والميزان بالقسط والعدل ، وأن لا يبخسوا الناس أشياءهم ، قال ( بقيت الله خير لكم ان كنتم مؤمنين ) وهو كقوله فى سورة الأعراف ( ذلكم خير لكم ان كنتم مؤمنين ) والمراد أن ثواب الله خير لهم من التطفيف والاختصار والبخس ، وانما أطلق على الثواب بقيت لأنه الذى يبقى لصاحبه ، أو المراد أن ما يبق لهم من الحلال بعد إفناء الكيل والوزن خير من التطفيف ، لأن الناس إذا عرفوا إنسانا بالصدق والأمانة ، والبعد عن الخيانة ، وشقوا به ورجعوا إليه فى معاملاتهم ، فيفتح عليه باب الرزق ، وإذا عرفوه بالخيانة والمكر انصرفوا عنه ، ولم يحالطوه فتضيق عليه أبواب الرزق .

ومن ذلك نعرف أن طاعة الله تعالى تفيد صاحبها فى دنياه وأخراه ، وتكسبه من سعة الرزق وثقة الناس به ما لا يكسب غيرها ، ويستطيع التاجر الصدوق أن يعيش ورأس ماله تلك الثقة الغالية ، يستطيع أن يعيش على حساب ما لغيره من المال موفورا الكرامة محترما .

أما التاجر الكذوب فلا يلبث أن ينكشف أمره ، وتفضح أعماله ، وإذا عاش سنة فلا يستطيع أن يعيش سنين ، لذلك كانت ( بقيت الله ) خيرا للناس فى دنياهم ، وخيرا لهم فى أخراهم ، ولعل فى ذلك عبرة لتجارنا الذين مسّوا على الكذب ، وتعدّوا النش والخديعة .

أما قوله ( إن كنتم مؤمنين ) فهو مطالبة بمقتضى الإيمان ، وقد استوفينا الكلام على هذه الجملة فى قصة شعيب من سورة الأعراف .

( وما أنا عليكم بحفيظ ) ما بشت لأحفظ عليكم أعمالكم وأجازيكم عليها ، وانما بعثت مبلىا ، ومنبها على الخير وناصحا ، وقد أعفرت حين أنذرت ، أو لأستطيع أن أحفظ عليكم نعم الله إذا أتم كفرتموها ، فهو تهديد لقومه بزوال نعم الله عليهم إذا هم استمروا على عصيانه ، والخروج على حدوده وتعالجه .

( ٢ ) ( قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن تترك ما يعبد آبائنا أو أن تفعل فى أموالنا ما نشاء )

قابلا دعوة نبي الله شعيب الجادة بكلمات التهكم الساخر ، وأراد أن هذا الذي يأمر به من ترك عبادة الأوثان باطل ، وأن مثله لا يدعوك إليه داعي عقل ، ولا يأمرك به أمر فطنة ، فلم يبق إلا أن يأمرك به أمر هذيان ووسوسة شيطان ، وهو صلاتك التي تداوم عليها في ليالك ونهارك ، وهي عندهم من باب الجنون الذي يتولع به المجانين والموسوسون ، فقد سخروا [ أولا ] من نبي الله شعيب عليه السلام في عبادته ، ثم سخروا منه [ ثانيا ] في أمره ونهيه ، وقد أضافوا الأمر الى الصلاة في تهكمهم ، لأنهم ينكرون أن يكون طريقه الوحي السماوي .

وما أقرب الشبه بين [ اللائع المستكبر ] من قوم شعيب وبين طائفة من شبابنا اليوم ، الذين لا يقفون من المصلين موقفا سليبا خصب ، بل يسخرون من صلاتهم ، ويتكبرون بهم في ركوعهم وسجودهم ، ويستقبحون من الرجل أن يضع جبهته على الأرض ، وأن يضر وجهه بالتراب ، خضوعا لله واعترافا له بالجليل ، وفي الوقت نفسه يسمحون لأنفسهم أن يخروا ساجدين لأرباب النفوذ وأصحاب السلطان ، رغبة فيما بأيديهم من حطام ، أو رهبة عما عندهم من بطش وقوة ، يستقبحون أن يخضعوا للخالق صاحب السلطان الأعظم ، ومالك السموات والأرض ، ويسخرون لأنفسهم أن يذلوا لعبد لا يملك نفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، بل يستبيح فريق منهم أن يذل أمام قبر من قبور الصالحين متوسلا بصاحب القبر أن يدفع عنه شرا ، أو يجلب له خيرا .

فنحن أمام تيارين متناقضين : تيار الاخلاص والادنيين ، الذي ينكر أن هناك إلها يستحق أن تخضع له الرقاب ، وتذل له النفوس ، وتبار الشراك الذي دخل على المسلمين كما دخل على غيرهم من الأمم ، تفلطوا إيمانهم بظلم ، وهم القبور يرون الذين يالتون في تعظيم الصالحين ، حتى طلبوا منهم ما لا يطلب إلا من الله تعالى ، ووضعهم موضعا غير لائق بهم ، وسيتبرون منهم ومن شركهم وكلا الطرفين : طريق الاخلاص ، وطريق الشرك : ظلم بين ، وخروج عما ينبغي .

أما الاخلاص فإنه إنكار لما لله من آيات ودلائل في النفوس والآفاق ، وهي أوضح من أن تذكر ، وأكثر من أن تعد ، وأما الشرك فلائنه تسوية للمخلوق بالخالق ، والمد بالرب ، والفقر بالفتى ، والملوك بالمالك .

فهاتان نزعتان متناقضتان : إحداها تبالغ في العزة حتى تنكر الخضوع لاله ، وأخرى تمتهن إنسانيتها حتى تخضع لعبد من عباد الله ، وقد تمعن في امتهانها نفسها حتى تخضع لحجر تنحته يدها ، أو خشب من صنعها وعملها . نفوذ بالله من الافراط والتفريط ، ونعوذ بالله من جهل الرجل نفسه ، ونسيانه خالقه ورازقه ، كما نفوذ به من خضوع الانسان للانسان ، وعبادة المخلوق للمخلوق . ( يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون « ٦٤ » » (١) ) .

وقوله ( أو أن تفصل في أموالنا ما نشاء ) عطف على قوله ( ما يعبد آباؤنا ) فالمراد أن تترك أن تفصل في أموالنا ما نشاء : من تظريف وإحسار وغير ذلك . ينكرون على نبي الله شعيب أن

يأمرهم بترك عبادة الأوثان ، وترك أن يضعوا في أموالهم عند البيع والشراء ما شاءت لهم الشهوات وزيفت لهم الصالح .

( إنك لأنت الحليم الرشيد ) أرادوا نسبته الى غاية السفة والقي ، فعكسوا ليتكوا به ، كما يقال للشحيح الخسيس : لوراك حاتم لسجد لك ، أو أرادوا إنك معروف عند قومك بالحلم والرشد فلماذا تأمرهم بترك دين ألقوه عن أبائهم وأسلافهم وترك عمل يعود عليهم بالثراء والمال الجيم ؟ وفاتهم أن الرشد في أن يعرف الانسان ربه ويشكره على ما وهبه من النعم ، ويضع نفسه حيث وضعها الله من إجلال وإكرام ، وأن مام عليه من عبادة الأوثان ، وأكل مال الناس بالباطل لا يتصل بالرشد في قليل أو كثير .

وانما الرشد فيما دعاهم إليه ، وحضهم على الوصول له من سعادة في الدنيا والدين .  
( ٣ ) قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وورقني منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ) .

يطالب قومه أن يخبروه ان كان على بينة من ربه بالعلم والمداية ، والدين والنبوة ، ورزقه رزقا حسنا استغنى به عن أن يسأل الناس أجرا على هدايتهم وتبليغهم الدين ، ولا يريد أن يخالف قومه إلى ما ينههم عنه فيستأثر به دونهم ، وانما يريد أن يصلح ما استطاع إصلاحه ، ولا يعتمد في إصلاحه إلا على ربه ، فهو الذي يوفقه ، ويزيل من بين يديه عقبات الإصلاح ، وهو الذي يرجع إليه ويعتمد عليه . يطالب قومه أن يخبروه ان كان على هذه الصفات أليق بهم أن يقولوا في شأنه ما قالوا وأن يتكوا به ذلك التهم الشأن ؟ وقد خاطبهم بأسلوب غير القاطع فأني بأن ترفقا بهم ، وكأنه يريد أن أولئك الصفات لاتتفق والسفة بحال من الأحوال فان الرجل الذي آتاه الله علما وهداية ، فكان على بينة من ربه ، ورزقه الرزق الحسن فكان يعيش من كسبه وكده ، ولم يطلب من قومه أجرا على دعوته ، ولا يريد أن يسبقهم الى شهواتهم التي نههم عنها ، من تطفيف الكيل وإخسار الليزان ، وما الى ذلك ، وانما هو مؤمن بما يدعو إليه ، قدوة صالحة في تمسكه بالفضيلة وبعده عن الرذيلة ، وهذه العسفة من أخص صفات الدعاة الصادقين ، ولئلا يلفتنا الله إليها في قوله ( انعموا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون « ٢١ » » (١) ) وما دام لم يرد بدعوته أجرا من المدعوين ، وهو مؤمن بما يدعو إليه ، مقتنع بأحقية ، فهو لا يريد سوى إصلاح قومه جهد استطاعته . ورسول ذلك حاله ، وتلك دعوته لا يصح أن يقابل بالتهكم والمهزء ، وانما يقابل بالاجلال . ( ) يا قوم لا يجرمنكم شقاق أن يصيكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد ) .

يحذروهم نبي الله شعيب أن لاتحملهم مشاقهم له أن يعصوا الله ويخرجوا عن حدوده فيصيبهم من العذاب ما أصاب من قلمهم من المكذابين ، وكثيرا ما يجر التهادي في العداوة إلى ما لاتحمد عقبا ، وكأنه يقول لهم : كونوا قوما عقلاء مفكرين وزنوا الأمور بميزان الحكمة والانصاف ،

انظروا في دعوتي لكم ، لتروا أي دعوة أساسها الشهوة والهوى ، أم أساسها الصلحة وطلب مرضاة الله تعالى ، ولاتساروا الهوى وداعية الانتقام ، فان ذلك يجركم الى مآثم لا قبل لكم بها .  
بهؤلاء قوم لما كذبوا الرسل أغرقهم الله وجعلهم آية للناس ، وهؤلاء قوم هود لما عتوا عن امر الله وخرجوا عن حدوده أرسل الله عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات ليديقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ، وهؤلاء ثمود هدام الله فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ، ثم قال لهم (وما قوم لوط منكم ببعد) يريد أنهم أقرب المالكين منكم فكان عليكم أن تعتبروا بهم ، وتذكروا بما حصل لهم ، ثم أمرهم أن يستغفروا ربهم وأن يتوبوا ليه فانه رحيم بمن استغفروه ، ودود لمن إليه أواب .

(٤) (قالوا يا شعيب ما تنقذ كثيرا مما تقول) كان جواب قومه بعد ذلك الترفق البالغ ، والأدب الجلم ، وبعد أن أقام عليهم الدليل على حقيقة دعوته ، وبعد أن خوفهم من عذاب ربه - كان ردكم بعد ذلك كله أن يقولوا له (ما تنقذ كثيرا مما تقول) وهو كقول قريش لمحمد صلى الله عليه وسلم (قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون «٥»<sup>(١)</sup>) قالوه على وجه الاستهانة به ، كما يقول الرجل لصاحبه إذا لم يعبأ بحديثه : لا أدري ما تقول . أو جعلوا كلامه هذيانا وتخليطا لا ينفهم كثير منه ، أو قالوا ذلك اخبارا بالواقع لأنهم كانوا لا يلقون إليه أذهانهم رغبة عنه وكراهية له ، فعاقبهم الله تعالى على ذلك الاعراض بعدم فقهه والوقوف عليه (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت بداه إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإن تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا «٥١»<sup>(٢)</sup>) (وإذا قرأت القرآن جئنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا<sup>(٣)</sup>) مستورا «٤٥» وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على آذانهم نفورا «٤٦»<sup>(٤)</sup>) .

لم يقنوا من نبي الله شعيب عند ذلك الحد بل قالوا له ( وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز) ربت فيهم نفرة الجاهلية ، وتقلب عليهم بطش الجبارة ، فأخذوا يهتدون به بالضعف ، ويعيونه بأنه لا يقدر على الامتناع منهم إذا أرادوا به مكروها ، ثم أروه أنهم لولا رهطه لم يختاروه عليهم ، ولم يتابعوه في الدين - لقتلوه شر قتله (وما أنت علينا بعزيز) وإنما يعز علينا رهطك ، لأنهم من أهل ديننا ، وعلى ملأ آبائنا .

وانظر كيف رد عليهم ردًا مؤثرا فيقول (يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله) فعمالون لهم حسابا دونه ، وتخشونهم وهو أحق بالخشية ، وكيف يليق بكم أن تتخذوه كالشيء النبوذ وراء الظهر لا يعبأ به ، وذلك جهل فاضح ، وضلال بعيد .

فمن أسوأ ضروب الجهل ، وأبشع أنواع الضلال : أن يعمل الناس حسابا للخلق وينسون بطش الخالق ، وأن يهون عليهم رسل الله فيكذبونهم ويهتدونهم بالنفي والقتل وما إلى ذلك ، ويمز عليهم أن ينضبوا رهطاً من الناس ، وطائفة من البشر ، لأنهم ماثرون في الشهوة ، وشاركونهم



في الآثم ، وإذا كان المخافق يعمل لنضبه حساب فأولى بذلك المخالف ، لأن غضبه سبب في الشقاء الأبدي ، والعذاب المقيم .

وقد عقب ذلك الأسلوب المؤثر بقوله (إن ربى بما تعملون محيط) قد أحاط بأعمالكم علما ، فلا يخفى عليه شيء منها ، وسيحاسبكم عليها الحساب العادل ، ويجزيكم الجزاء الأوفى ، ثم قال لهم يا قوم اعملوا ما شاء لكم الهوى على تمكينكم من العمل ، وقدرتكم على الكيد ، معزين بمالك من قوة وعدة ، ناسين ربكم وخالفكم ، إني عامل على مبدئى وعقيدتى سوف لا أحيده عنه ، وسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخجله أمام الناس ، ويحقره عند الجاهل ، وسوف تعلمون الكاذب من الصادق ، وانتظروا انى معكم منظر ، وأنا واثق من وعد ربى بالنصر ، وعنايته بجنده وحزبه ولما جاء أمر الله بالهلاك أنجى شعبا والذين آمنوا معه بفضل من الله استحقوه بالطاعة ، وأخذ الذين ظلموا صيحة العذاب ، فأصبحوا في ديارهم يركبن على ركبهم ، من شدة ما أصابهم ، كأن لم يقيموا في البلاد ، ولم ينعموا بنجراتها .

ثم ختم القصة بالدعاء على مدين بالهلاك كما هلكت ثمود ، والغرض من ذلك الدعاء أنهم استأهلوا عذاب الله تعالى بعصيانهم ، وتكذيبهم لرسولهم ، وهى عبرة ما أشدها من عبرة ، ونكال ما أعظمه من نكال .

### شعيب عليه السلام

كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ <sup>(١)</sup> الْمُرْسَلِينَ «١٧٦» إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ «١٧٧» إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ «١٧٨» فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا «١٧٩» وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْمَالِينَ «١٨٠» أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ «١٨١» وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ «١٨٢» وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَمْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ «١٨٣» وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّ <sup>(٢)</sup> الْأُولِينَ «١٨٤» قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ «١٨٥» وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ «١٨٦» فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا <sup>(٣)</sup> مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ «١٨٧» قَالَ رَبِّى أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ «١٨٨» فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ <sup>(٤)</sup> إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ

[١] شجر ملف . [٢] الخلق . [٣] قطا جمع كفة ، والهاء السحاب .

[٤] سحاب يظل ، وأكثر ما يستعمل فيها يستوضع ويكره .

يَوْمٍ عَظِيمٍ «١٨٩» إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ «١٩٠» وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ «١٩١» الشعراء.

### شرح وعبرة

(١) الجديد في هذه السورة أن الله أرسل نبيه شعيبا إلى أصحاب الأيكة ، وهي غيضة نبت ناعم الشجر كانت بقرب مدين ، وكان شعيب أجنبيا منهم ، أما شعب مدين فلم يكن شعيبا أجنبيا منهم ، ولذلك جعله أخا لهم دون أصحاب الأيكة ، ومكانهم كان بالحجاز عما يلي الشام (١) على خط عرض يوافق خط عرض قنط في البر الافريقي ، فهي إلى الجنوب من القصير في الجهة المقابلة . وقد نسب لهم تكذيب للرسلين جميعهم مع أن الذي أرسل إليهم شعيب لما قلنا من أن دعوة الرسل واحدة في صدقها وقيامها على الحق والبرهان ، فالذي يكذب رسولا من الرسل مع قيام الأدلة عنده على صدقه مكذب للرسل جميعهم .

وترى في هذه السورة أن شعيبا عليه السلام قال لأصحاب الأيكة ما قاله لشعب مدين ، ومنه تعرف أن أخلاق الشعيبيين كانت واحدة ، وزاد في هذه السورة مطالبهم بقوى الله الذي خلقهم وخلق من سبقهم من الأجيال .

بعد هذه الدعوة الواحدة الرشيدة قابله بقولهم (إنما أنت من السحرة) الذين غلب على عقولهم ، فأصبحوا لا يعنون ما يقولون (وما أنت إلا بشر مثنا) ومن كان بشرا لا يصلح أن يكون رسولا .

وقد سبق في قصة نبي الله نوح عليه السلام الرد على هذه الكلمة ، ونعيد منها الحكمة البالغة التي وردت على لسان بعض المفسرين .

[عجبا لأهل الضلال لم يرضوا للرسالة ينشروا رضوا للألوهية بحجر] وهي حكمة يصف بها كل من قال (وما أنت إلا بشر مثنا) ثم هو مع ذلك يعبد من خلق الله ما يعبد ، ثم قالوا (وانظنك لمن الكاذبين) في دعوى الرسالة عن الله تعالى .

والعجب لأولئك القوم يعرفون أن شعيبا لم يكذبهم فيما يخبرهم به من أمور الدنيا ثم يزعمون أنه يكذب على ربه في أمور الدين ، فإذا كان لا يستحل الكذب على الناس فكيف يستحل الكذب على الله تعالى ؟ ثم كيف يلقونهم إلى أنه لم يسألهم أجرا على تبليغهم الدين ، وإنما يطلب الأجر من الله تعالى ، وذلك شأن الساذق الذي يعمل عن اقتناع ، ويدعو وهو مؤمن بما يدعو إليه ، وهذه أمانة الصدق ، ودليل الثقة بصاحب الدعوة ، ومع ذلك يقولون له (إنما أنت من السحرة) وهل السحرة يدعو الناس على ذلك الأساس ، ويرشدهم بذلك الأسلوب ؟ وإذا كان شعيب يدعوهم إلى أن يعطوا كل ذي حق حقه ، فلا يطففوا كيلا ، ولا يخسروا ميزانا ، ولا يبخسوا أحدا شيئا من حقه .

إذا كانت هذه الدعوة دعوة مسح ، فكيف تكون دعوة العقلاء ؟ وإذا كان ذلك الأسلوب أسلوب كاذب ، فكيف يكون أسلوب الصديق الصدوق ؟ وإذا كان شعب مسعرا في عقله ، فلماذا خافه اخوانهم شعب مدين ؟ ولماذا كانوا يصدقون بكل طريق يوعدون المؤمنين به ويصوتونهم عنه ؟ ولماذا توعدهم بالتقى هو والمؤمنون من القوم إذا لم يعد في ملتهم ؟ وما قيمة رجل مغلوب على عقله ؟ ولماذا لا يستوى عندهم رجوعه في ملتهم وعدم رجوعه ؟ وبقاؤه في البلد وعدم بقائه ؟ أليس للناس عقول تعرف بها الدعوة للبغية على العقل والحزم ، وتفرق بينها وبين الدعوة التي يقوم بها مجنون ، ويدعو إليها كاذب ؟ إذا كان مغلوبا على عقله فدعوه لجنونه يقضى عليه ، وإذا كان كاذبا في دعوته فكذبه سيفضحه يوما ما .

الحق أن القوم كانوا مضطرين ، فلا تستطيع أن توفى بين قولهم وعملهم ، ولا تستطيع أن تبني عملهم على المنطق ، فكان طبيعيا أن يكون موقفهم مع نبي الله شعب موقف جاحدين لدعوته ، مكذبين لرسالته ، لذلك كان موقفهم منه أن يقولوا .

(٢) ( فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين ) وهو نظير قول عاد هود : ( فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين « ٧٠ » )<sup>(١)</sup> وقول نوح لنبي الله صالح ( يا صالح اتقنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين « ٧٧ » )<sup>(٢)</sup> ويشبه قول كفار قریش لمحمد صلى الله عليه وسلم ( اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم « ٣٣ » )<sup>(٣)</sup> وهو أسلوب من الجحود بليغ يطلبون فيه أن كان القرآن هو الحق من عنده أن يعاقبهم على إنكاره كما فعل بأصحاب الفيل أو يعذب آخر ، يريدن نفي كونه حقا وإذا اتفق كونه حقا لم يستوجب منكره عذابا كما تقول : إن كان الباطل حقا فأمطر علينا حجارة وتسمية القرآن حقا على سبيل التهكم ، وكان في وسعهم أن يقولوا [ إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ] ولكن القوم جاحدون ، وبآيات الله مكذبون ، وعلى حدود الله خارجون ، ولشهوواتهم يميلون ، فيقابلهم نبي الله شعب بقوله ( ربي أعلم بما تعملون ) محبط بما تستوجبون عليها من العقاب ، فإن أراد أن يعاقبك عليها بإسقاط كسف من السماء فعل ، وإن أراد عقابا آخر عاقبك به وإن أراد أن يؤخر عذابك إلى أجل فهو صاحب الشأن في ذلك كله ، كما قال نبي الله نوح عليه السلام حين قال له قومه ( يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين « ٣٣ » ) قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين « ٣٣ » )<sup>(٤)</sup> .

( فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ) .

ربنا الله تعالى أن سبب عذابهم هو تكذيبهم لنبي الله شعب ، وأنه لم يكن هناك فاصل بين التكذيب والعذاب ، وهو تهديد لكل من يكون منه مثل ذلك التكذيب .

يرى أن الله سلط عليهم الحرأيا ، فأخذ بأفئسهم لا ينفعهم ظل ولا ماء ولا سرب ، فاضطروا إلى الخروج للبرية ، فأظلمت سحابة وجدوا لها بردا ونفيا ، فاجتمعوا تحتها ، فأمطرت عليهم نارا ، فاحترقوا جميعا ، والله أعلم .

ويظهر أن عذاب ذلك اليوم كان معروفاً ، وقد عقبه بقوله ( إنه كان عذاب يوم عظيم ) .  
وقد ختم القصة بقوله ( إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك له العزيز  
الرحيم ) ليرينا أن فيها صنعه الله مع قوم شعيب عبرة لمن أراد أن يعتبر ، وذكرى لمن كان له قلب ،  
وفيه مع ذلك تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم إذا لم يطعه قومه ، حتى لا يتحسر على عدم  
إسلامهم ، ولا يأسى على قوم لم يحرصوا على سعادتهم ، وتذكير بمزة الله وغلبته ، وأنه الظاهر  
فوق عباده ، ولولا رحمته بالناس لجهل لهم العذاب كما عجل لقوم شعيب ومن تقدمهم من الأمم .

## دعوة موسى إلى الله تعالى

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ  
أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مِمَّا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ «٢٠» يُقَوْمِ  
ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا  
خُسْرَيْنِ «٢١» قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنُودِلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا  
مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دُخِلُونَ «٢٢» قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْتَمَ  
اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا  
إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ «٢٣» قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنَنُودِلُهَا أَبَدًا مَاذَا مَأْوَاهُ فِيهَا فَاذْهَبْ  
أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا غَائِبُونَ «٢٤» قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي  
فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ «٢٥» قَالَ فَإِنَّهَا مُرِثَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً  
يَتِيمُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ «٢٦» لسانه

شرح وعبرة

(١) لقد كانت مهمة نبي الله موسى عليه السلام من أثنى للهمات .

[أولاً] لأن بني إسرائيل صرّوا على الفلّ ، وألقوا الاستعباد ، فكان ثقلهم من ذلك الحال من أشقّ الأعمال .

[ثانياً] ملاقاه من جبروت فرعون وطيابه .

وقد كان من علاجه لقلّة بني إسرائيل أن يذكرهم بنم الله تعالى عليهم ، وهو أسلوب حكيم في الوعظ يبدأه الداعي إلى الله بإحياء إحساس الشرف وشعور الكرامة في نفوس الموعوظين ، لتستعمل بذلك لقول الموعظة ، وللفظ [نعمة] يفيد العموم بإضافته إلى اسم الله تعالى .

ثم بين مراده بذلك العموم بذكر ثلاثة أشياء ، وهي أعظم أركان النعم ومجامعها .

[الأول] وهو أشرفها جعل كثير من الأنبياء فيهم ، وهو يصدق بوجود البلغ نبى الله موسى وأخيه هارون ومن كان قبلهما عليهم السلام .

[الثاني] جعلهم ملوكاً وقد غاير في الأسلوب فقال (وجعلكم ملوكاً) ولم يقل وجعل فيكم ملوكاً للإشارة إلى أن معظم رجال الشعب صاروا ملوكاً ، بعد أن كانوا كلهم عبيداً للقبط ، ومعنى الملك هنا: الحرّ المالك لأمر نفسه ، وتدير أمر أهله ، فهو تعظيم لنعمة الحرية والاستقلال ، بعد ذلك الرق والاستعداد .

ففي التفسير للأثور من حديث أبي سعيد الخدريّ مرفوعاً عند أبي حاتم «كانت بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم ودابة وامرأة كتب ملكاً» وهو مجاز تستعمله العرب ، يقولون لمن كان مهنثاً في معيشته ، مالكا لمسكنه ، مخدوماً مع أهله : فلان ملك ، أو ملك زمانه : أى يعيش عيشة الملوك .

[الثالث] إيتاؤهم ما لم يؤت أحد من على زمانهم وشعوبه التي كانت مستعبدة للملوك العتاة كالقبط والبابليين . وقيل : المن والسوى . وقيل : الغمام الذى ظلهم في اليه ، وهو يشمل كل هذا وغيره من نعم الله التي اختصهم بها .

(٢) (يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم) وسماها الله مقدسة لطهارتها من الوثنية بما بعث الله فيها من الأنبياء دعاء التوحيد .

ومنهم من فسرها بالبركة ، وهو يصدق بالبركة الحسية والمعنوية .

روى ابن عسّاكر عن معاذ بن جبل أن الأرض المقدسة ما بين المريش إلى النترات ، وعن قتادة أنها الشام ، والمعنى واحد ، وهي القطر السوريّ في عرفنا اليوم . وقيل : هي بيت المقدس ، والأوّل هو الصحيح ، فإن بني إسرائيل ملكوا الشام وفيه فلسطين (كتب الله لكم) كتب لهم الحقّ في سكناها إذا أنتم أطعتم الله تعالى ، فهي كتابة مشروطة بشرط هو الطاعة والإصلاح في الأرض ، ويؤيد ذلك ماورد في سورة الاسراء التي تسمى أيضاً سورة بني إسرائيل .

(وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً «٤» فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأساً شديداً ففاسوا خلل الأسيار وكان وعدنا مفعولاً «٥» ثم رددنا لكم الكثرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً «٦» إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما

دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تقيرا «٧» عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا «٨» وهي تفيد أن الله قضى على بني إسرائيل أن يفسدوا في أرض الشام مرتين قبل الاسلام ، فسلط عليهم كل مرة من يذلهم ويستولى على مدينتهم ومسجدهم ، ويهلك ما استولوا عليه اهلاكا ، وقد كان ذلك .

ثم ختم القصة بقوله ( عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا ) .

قال المفسرون : وقد عادوا وعاد انتقام العدل الالهي منهم ، فسلط عليهم الروم قبل المسيحية وبعدها ، ثم المسلمين ، وخرجوا في الأرض كل ممزق .

( ولا ترتدوا على أدباركم فتتقلدوا خاسرين ) لا ترجعوا عما جئتمكم به من التوحيد والعدل ، والهدى إلى الوثنية ، والفساد في الأرض بالظلم والظلمة ، فيكون هذا الرجوع إلى الوراء انقلاب خسران لهذه النعم ، ومنها الأرض المقدسة ، ف تعود الدولة فيها لأعدائكم ، ووجه آخر في الارتداد وهو التكرس عن دخولها ، والجبن عن قتال من فيها من الوثنيين ، وقد فرض عليهم قتالهم ، والخسران على هذا خسران ثواب الجهاد ، وخيبة الأمل في امتلاك البلاد ، وعقابهم بالتبعية أو بعين سنة ينقرض فيها المرتدون على أعقابهم .

(٣) ( قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين ) .

قلنا : إن مهمة نبي الله موسى شاقة ، فقد كان استعباد المصريين لبني إسرائيل قد أذلهم ، وأفسد عليهم بأسهم ، وكان بنوعنا القين يسكنون أمامهم في الأرض المقدسة أولى قوة وأولى بأس شديد ، وكانوا كبار الأجسام طوال القامات ، وهو المراد من كلمة [ جبارين ] من قولهم : نخلة جبارة : أى طويلة لا ينال ثمارها بالأيدى ، والجبار من أسماء الله تعالى ، فيه معنى العظمة والقوة ، والعلو على خلقه ، وكونه لا يمكن أن يناله أحد بتأثير ما .

فنبى الله موسى لما قرب بقومه من حدود الأرض المقدسة العاصمة الآلهة ، أمرهم بدخولها مستعدين لقتال من يقاثلهم من أهلها ، وأنهم لما غلب عليهم من الضعف والذل باضطهاد المصريين لهم أبوا واعتفروا بضعفهم ، وقوة أهل تلك البلاد ، وحاولوا الرجوع إلى مصر [ كما كان بعض العبيد يرجعون باختيارهم إلى خدمة سادتهم في أمريكا بعد تحريرهم ومنع الاسترقاق بقوة الحكومة لأنهم ألفوا تلك الخدمة والعبودية ، وصارت العيشة الاستقلالية شاقة عليهم ] وقالوا لموسى إنا لن ندخل هذه الأرض ما دام هؤلاء الجبارون فيها ، كأنهم يريدون أن يخرجهم منها بقوة الخوارق لتكون غنيمة باردة لهم ، وجعلوا أن هذا يستلزم أن يبقوا على ضعفهم وجبنهم ، وأن يعيشوا بالخوارق ماداموا في الدنيا ، لا يستعملون قواهم في دفع الشر عن أنفسهم ، ولا في جلب الخير لها .

وحينئذ يكونون أكفر الخلق بنعم الله ، فكيف يؤيدهم بآيانه طول الحياة ؟ .

( قال رجلان من الذين يخافون أنهم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب ) .

من رحمة الله بالشعوب أنها إذا فسدت لم يكن الفساد عاما شاملا ، بل تبقى أقلية محتفظة

بصلاح فطرتها ، معتزة بكرامتها ، فالشعب الاسرائيلي على إيمانه في القل ، وإخلاده إلى الجبن

لم يخل من رجلين قد أنعم الله عليهما بالطاعة والتوفيق ، حتى في حال الخوف من الجبارة ، يقولان للشعب ( ادخلوا عليهم الباب ) ويعدانهم بالغلب إذا هم دخلوه ، ويأمرسون الشعب أن يتوكل على الله إن كان مؤمنا به ، فلا يعمل حسابا للجبارة ، ولا يخشى بأسا للأقوياء ، بعد بذل الوسع فيما يصل إليه كسبهم من وسائل القوة ، وأسباب الثور ، وقد وعدوا الشعب بالغلب لما يعلمون من سنة الله مع الرسل وعادته مع الصالحين .

وما أحسن قول الرجلين ( إن كنتم مؤمنين ) لنعرف منه أن الإيمان لا يجمع الجبن والخور وإنما المؤمن كله شجاعة وإباء ، لا يرضى بالضعيف ، ولا يخنع للذلل ، والشأن فيه أن يعيش كريما أو يموت كريما .

ولولا شجاعة سلفنا الصالح وسخاؤه بأعز شيء لديه وهى نفسه التى يأن جنبيه ، فى سبيل إعلاء كلمة الدين - لولا ذلك ما انتصر حق على باطل ، وما بقى للمسلمين عز ، وللمؤمنين شوكه - ( ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع <sup>(١)</sup> وبيع وصاوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولنصرن الله من يصره إن الله لقوى عزيز « ٢٠ » (٢) ) .

(٤) لم تنفع موعظة الرجلين للشعب الاسرائيلى ، لأن المرض أقوى من الدواء فلا بد أن يتقلب عليه كما هى سنة الله تعالى فى تنازع القوى والضعيف فأكدوا له أنهم لا يدخلون الأرض المقدسة مادام فيها الجبارة ، لأن دخولها يستلزم القتال وهم ليسوا أهلا له ( فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ) إذا كنت قد أخرجنا من أرض مصر بأمر ربك لنسكن هذه الأرض فاذهب أنت وربك الذى أمرك بذلك فقاتلا الجبارين واستأصلا شأقتهم ( قال رب انى لا أملك إلا نفسى وأخى ) يث حزنه وشكواه الى الله تعالى ويتصل عن فسق قومه عن أمره فهو يقول : لا أملك أمر أحد أحله على طاعتك إلا أمر نفسى وأمر أخى ولا أثنى بغيره أن يطيعك فى العسر واليسر ، والمنشط والمكره ( فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ) بقضاء تقضيه بيننا إذ صرنا خصما لهم وصاروا خصوما لنا ، أو افصل بيننا وبينهم إذ أخذتهم بالعقاب على فسوقهم ، فلا تعاقبنا معهم فى الدنيا ( قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يقيمون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين ) قضى الله ولا راد لقضائه أن نكون الأرض المقدسة محرمة على بنى اسرائيل تحريما فعليا ، لا تكليفا شرعيا ، مدة أربعين سنة ، يسبرون فى برية من الأرض تائبين ، متحيرين ، لا يدرون أين يفتنون فى سيرهم ، من الله ، وهو الحيرة يقال : تاه بيه ، ويته افتة . ويقال : مفازة تها ، إذا كان سالكوها يتحيرون فيها ، عاقبهم الله بحرماهم من الأرض أربعين سنة ، عقابا عادلا حتى يبيد ذلك الجيل الذى نشأ على الذل ، وترقى على العبودية لغير الله تعالى ، ولئلا يكتم القصة بقوله ( فلا تأس على القوم الفاسقين ) .

يسليه حتى لا يبالغ فى الحزن على أمثال هؤلاء الذين فسدت فطرم ، وانحطت مداركهم ، وتزلوا عما يليق بالإنسان . وعلمنا أن تعتبر بهذه الأمثال التى بينها الله لنا ، ونعلم أن اصلاح الأمم بعد فسادها بالظلم والاستبداد إنما يكون بانشاء جيل جديد ، يجمع بين حرية البدابة واستقلالها

وعزتها ، وبين معرفة الشريعة والفضائل والعمل بها ، وقد قام بهذا في العصور السالفة الأنبياء ، ويقوم به بعد ختم النبوة ورتة الأنبياء الجامعون بين العلم وبين الله في الاجتماع ، وبين البصيرة والصدق والاخلاص في حبة الإصلاح ، وإثارته على جميع الأهواء والشهوات .

ويقول الأستاذ النجار : ان قوله تعالى (أر بعين سنة) ليس طرفا لقوله (محرمه) فان تحريم هذه الأرض عليهم تحريم أبدي لا مقيد بأربعين سنة ، فان الرجال الصالحين للحرب الذين عصوا أمر موسى ماتوا في البرية أثناء السنين الأربعين ولم يدخل أحد منهم أرض الموعد فكانت محرمه عليهم بالطلاق ، ولذلك يرى الوقف على قوله (محرمه عليهم) .

وأنا أرى أن لضرورة الى ذلك ، فان سنة القرآن أن يخاطب الشعب متكافلا متضامنا ، وكثيرا ما تكون النعمة للأبناء ، ولكنه يفتن بها على الأبناء ، انظر الى قوله (يا بني اسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم ووعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى) وإعما نجي آباءهم ووعدهم ما وعدهم ولكنه يخاطبهم بما كان لأبائهم ليربهم أنهم متكافلون مع آبائهم في الخير والشر ، والنعمة على الوالد نعمة على الولد .

فاذا كان الله تعالى قد حرّم الأرض على بني اسرائيل فانما يحرمها على الشعب نفسه عقوبة له على الجبن ، وان كان ذلك العقاب في شخص الحاضرين ، فالغني يستقيم سواء وقفنا على قوله (محرمه عليهم) أو وصلناها بما بعدها .

أما الأرض التي تاهوا فيها فهي أرض سيناء ، تاهوا في برّيتها من عهد خروجهم الى أن مات موسى عليه السلام وعبروا نهر الأردن وملكوا أريحا . وما معها من الأرضين .

والسرّ في ذلك كما أوضحه ابن خلدون أن نفس بني اسرائيل كانت حقيرة لأنهم ألفوا الفل والموان في ملك المصريين ، ومن كان كذلك لا يصلح لقتال ولا استقلال ، والعلماء يقرّرون أن حضارة العلم خمس عشرة سنة ، أما حضارة الأخلاق فثلاثون سنة ، فاذا أخذت أمة تستمسك بالأخلاق فها هي لانجي الثمرة إلا بعد أربعين سنة ، حتى يفي الجيل الذي نشأ في الاستعداد ، وينشأ جيل ألف الحرية .

### موسى عليه السلام

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنظَرُ  
كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُفْسِدِينَ ١٠٣ وَقَالَ مُوسَى يُفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ  
الْعَالَمِينَ ١٠٤ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ  
مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ١٠٥ قَالَ إِنَّ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ



قَالَتْ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴿١٠٦﴾ فَأَتٰى عَصَاهُ فَاِذَا هِيَ ثُبٰنٌ ﴿١٠٧﴾ مُبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَاِذَا هِيَ نَيْصَاءٌ لِلنّٰظِرِيْنَ ﴿١٠٨﴾ قُلِ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ اِنَّ هٰذَا لَسِحْرٌ عَلِيْمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيْدُ اَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ اَرْضِكُمْ فَاِذَا تَأْمُرُوْنَ ﴿١١٠﴾ قَالُوْا اَرْجِهْ ﴿١١٠﴾ وَاَخَاهُ وَاُرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حٰثِرِيْنَ ﴿١١١﴾ يٰاَتُوْكَ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيْمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَ السّٰحِرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوْا اِنَّ لَنَا لَآجِرًا اِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغٰلِبِيْنَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَمَمْ وَاِنْسِكُمْ لِمَنِ الْمُقَرَّبِيْنَ ﴿١١٤﴾ قَالُوْا يٰمُوسٰى اِنَّمَا اَنْ تُلْقٰى وَ اِنَّمَا اَنْ نَكُوْنَ نَحْنُ الْمُلْكِيْنَ ﴿١١٥﴾ قَالَ اَنقُضُوْا فَلَمَّا اَلْقَوْا سَحَرُوْا ﴿١١٦﴾ اَعْيٰنَ النَّاسِ وَاَسْتَرْهَبُوْهُمْ وَجَاءَ وَ بِسِحْرِ عَظِيْمٍ ﴿١١٦﴾ وَاَوْحَيْنَا اِلٰى مُوسٰى اَنْ اَلْقَ عَصَاكَ فَاِذَا هِيَ تَلْقَفُ ﴿١١٧﴾ مَا يَافِكُوْنَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ ﴿١١٨﴾ فَعَلِبُوْا هٰنَالِكَ وَاَنْقَلَبُوْا صٰغِرِيْنَ ﴿١١٩﴾ وَاَلْقٰى السّٰحِرَةُ سُجْدِيْنَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوْا ءَاٰمَنَّا بِرَبِّ الْاٰلِهِيْنَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسٰى وَهٰرُوْنَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَاٰمَنْتُمْ بِهٖ قَبْلَ اَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ اِنَّ هٰذَا لَمَكْرٌ مَّكْرُ ثَمُوْهُ فِى الْمَدِيْنَةِ لِيُخْرِجُوْا مِنْهَا اَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُوْنَ ﴿١٢٣﴾ لَا قَطْعَنَ اَيْدِيَكُمْ وَاَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلْفٍ ثُمَّ لَا صَلَبَتُكُمْ اَنْجَعِيْنَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوْا اِنَّا اِلٰى رَبِّنَا مُنْقَلِبُوْنَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا نَنْقِمُ ﴿١٢٥﴾ مِّنْ اِلَّا اَنْ ءَاٰمَنَّا بِبَآئِتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبِّنَا اَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِيْنَ ﴿١٢٦﴾ الاعراف

### شرح وعبرة

(١) يرينا الله تعالى في هذه القصة أنه بعد أن أرسل هودا وصالحا ولوطا وشعبا عليهم السلام بعث موسى بن عمران الى فرعون وملكه ، وقد ذكرت قصة نبي الله موسى في عدة سور مكية

[١] الذكر العظيم من الجبال . [٢] آخر امره وأمره أخيه . [٣] موّاهوا دليهم وأوقوا في قلوبهم الرهب وال خوف . [٤] تناوله وتبطل « ما يافكون » يصرفون به الناس عن الحق من السحر . [٥] تنكر بالبال أو بقوة .

بين مطوّلة ومختصرة، وتكرر ذكره في خطاب بنى اسرائيل من سورة البقرة المدنية حتى زاد ذكر اسمه في القرآن على ١٣٠ مرة .

وسبب ذلك أن قصته أشبه قصص الرسل عليهم السلام بقصة خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه من حيث أنه أوتي شريعة دينة دنوية ، وكون الله تعالى به أمة عظيمة ذات ملك ومدنية . أما فرعون فهو لقب ملوك مصر القدماء ، كلقب قيصر الملوك الروم ، وكسرى الملوك الفرس الأولين ، والشاه الملوك الإيرانيين في هذا العصر ، وكانوا يطلقون على فرعون لقب الملك أيضا . وقد اختلف في اسمه الحقيقي وزمنه ، وأحدث الأقوال أن اسمه ريان أبا .

وقد اكتشفت جثته في أحد التوابيس وكتب بشأنه للرحوم أحمد نجيب بك الأثرى الشهير «صاحب الأثر الجليل في قدام وادى النيل» مقالا ضافيا في المؤيد أيام العثورة على جثة ذلك الرجل وأكد أنه فرعون موسى ، وأن قوله تعالى ( فاليوم نتجيك بيدك لتكون لمن خلفك آية ) تحقق بالشور على جثته ، ومن علاماته أن ذلك الرجل أرنبة أنفه مأكولة غير موحودة ، فقل ذلك بأن السمك أكل ذلك المكان من جسمه ، وأنه ألقى الى الساحل ، وأن المصريين أخذوه وحطوه ودفنوه . قال الأستاذ النجار : وأنا أميل الى رأيه .

وهناك رأى آخر في فرعون موسى هو أنه منفتح سليل الأسرة التاسعة عشرة وهو ابن رمسيس الثاني الذى ملك من سنة ١٢٩٢ الى سنة ١٢٢٥ قبل المسيح ، وقد نشر ذلك البحث بأهرام ٧ مايو سنة ١٩٣٢ (١) .

أما ملا فرعون فهم أشراف قومه ورجال دولته، ولم يقل الى فرعون وقومه بل وجه الدعوة الى فرعون وملائه ، لأن فرعون ورجال دولته هم الذين كانوا مستعبدين لبنى اسرائيل ويدهم أصهم ، وليس لسائر المصريين من الأمر شيء .

وقد بعث الله نبيه موسى لاقاذا قومه بنى اسرائيل من فرعون ورجال دولته ، فليس من الحكمة أن توجه الدعوة الى قوم لا يملكون من أمر أنفسهم شيئا، إنما الحكمة أن توجه الدعوة الى من يدهم الأمر ، وإن كان المتصود بالدعوة الشعب الاسرائيلى ، والآيات هي الدلائل التي تدل على صدقه فيما يبلغه عن الله تعالى ( فظلموا بها ) ظلموا أنفسهم وقومهم بالكفر بها كبيرا وحجودا فكان عليهم إثم ذلك وإثم قومهم الذين حرموا من الإيمان بانباعهم لهم ( فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ) وهو تشويق لتوجيه النظر لما سيقصه الله تعالى من عاقبة أمرهم ، إذ نصر رسوله موسى عليهم وهو فرد من شعب مستعبد لهم ، وهم أعظم أهل الأرض دولة وصوله .

نصره عليهم بإبطال سحرهم ، ثم بارسال أنواع العذاب على البلاد ، ثم باقاذا قومه واغراق فرعون ومن تبعه من ملائه وحجوده ، وهي عبرة ظاهرة وحجة قائمة مدى الدهر على القائلين ان القلب للقدرة المادية على الحق ، ولا سيما النورانيين بمظمة دول أور وبا الظالمة لمن استضعفتهم من أهل الشرق ، وحجة على أولئك الباغيين بالأولى .

(٢) ( وقال موسى يا فرعون انى رسول من رب العالمين ) الخ سيدهم ومالكهم ، وأنه

بمقتضى هذه الرسالة لا يقول على إلا الحق ، إذ لا يمكن أن يبعث رسولا يكذب عليه ، وهو الذى بيده ملكوت كل شيء ، فهو حقيق بالصدق والتزام الحق فى التبليغ عن ربه ، وهو شديد الحرص على ذلك الصدق .

وقد اشتمل كلامه على عقيدة الوجدانية ، وهى أن للعالمين كلهم ربا واحدا ، وعقيدة الرسالة المؤيدة منه تعالى بالعصمة فى التبليغ .

وقد ناقته فرعون البحث فى وحدانية الربوبية المأتمنة لله تعالى فى سورة الشعراء ، فوصفه موسى بما يلقى به تعالى كما سأله هو وهارون عن ربهما فى سياق سورة طه ، وجاء فيما حكاه الله عنهما فيها ذكر البعث والجزاء .

فعلم من هذا أن موسى قد باغ فرعون وملائه أصول الإيمان الثلاثة : التوحيد ، والرسالة ، والبعث والجزاء ( قد جئكم ببينة من ربكم ) حجة واضحة عظيمة الشأن ، ثم بنى على هذا قوله ( فأرسل مى بنى اسرائيل ) باطلاقهم من أسرك ، وعقبتهم من رق قهرك ، ليذهبوا مى الى دار غير دارك ، ويمدوا فيها ربي وربك ، فكان جواب فرعون على هذه الدعوة المتواضعة أن ( قال ان كنت جئت بأية فات بها ان كنت من الصادقين ) .

شك أولا فى محبة بآية ، ثم شك ثانيا فى صدقه فيما يخبر به عن الله تعالى ( فألقى عصاه فاذا هى ثعبان ممين وزرع يده فاذا هى بيضاء للناظرين ) .

لم يلبث موسى أن ألقى عصاه التى كانت جيمته أمام فرعون ، فاذا هى ثعبان بين لاختفاء فى كونه ثعبانا يسعى وينتقل من مكان الى آخر تراه الأعين - وزرع يده : أخرجها من جيب قميصه بعد أن وضعها فيه فاذا هى بيضاء للناظرين إليه ، وهم فرعون وملؤه ، أولكل من ينظر . والظلمة : هم الذين يجتمعون لرؤية الأمور الغريبة .

وقد وصف الله تعالى بياضها فى سورة طه والنمل والتقصص بأنه ( من غير سوء ) أى من غير علة كالبرص .

( ٣ ) ( قال اللاء من قوم فرعون ان هذا لاسحر عليهم يريد أن يخرجكم من أرضكم فاذا تأمرون ) لزمتهم الحجة وقام عليهم الدليل وسد عليهم أبواب التفكير بدينك الآيتين الواضحتين آية العصا ، وآية اليد ، فاذا كان منهم ؟ كان منهم أن رموا موسى بالسحر ، وأنه عليهم بذلك السحر ماهر فيه ، ومن الذى رماه بذلك ؟ رماه اللاء من قوم فرعون وأعوانه فى الاستبداد والظلم .

ثم حاولوا استغزاز فرعون وإطابة من ماحية موسى فقالوا : إن موسى يريد بذلك العمل أن يخرج فرعون وشيعة فرعون من أرضهم بسحره ، ولاشك أن وطن فرعون عزيز عليه فضلا عن ملكه وسلطانه ، فاذا قيل لرجل مستبذ : ان فلانا من الناس يعمل على تقويض ملكك وذهاب دولتك وهو يؤلف الناس حوله على ذلك الحساب - إذا قيل لملك مستبد ذلك القول ذهب صوابه وطار له - لذلك لجأ اللاء من قوم فرعون حين عرفوا أن موسى عليه السلام سيظهر عليهم ، يأخذ الشعب منهم الى تلك السيسة السيئة ، وذلك الأسلوب اللئيم ، فأخذوا يؤلبون عليه

فرعون من ناحية ملكه ، ويحترضونه عليه من جهة سلطانه وعظمته ، وهى ناحية حساسة تفعل بنفوس المستبدّين فوق ما تفعل الخمر .

ولاندري كيف ينهمون نبيّ الله موسى بتلك التهمة ، وليس لموسى حظّ سوى انقاذ بني اسرائيل من بطش فرعون ، وتعرضهم باله هورب فرعون ، وشيعة فرعون ، و سواء عليه بعد ذلك بقى فرعون فى أرض مصر أم خرج منها ، فذلك شئ . لم يكن فى حساب موسى ، ولم يدخل فى حدود دعونه ، ولا برنامج رسالته ، ولكن العجز عن مقابلة الحجة بالحجة والدليل بالدليل ، يعمل أصحابه على هذه الفرية وأمثالها . نعوذ بالله من الخذلان بعد التوفيق ، والفضالة بعد الهدى .

## السحر وأنواعه

كان السحر فنا من فنون قدماء المصريين يتعلمونه فى مدارسهم العالية مع سائر علوم الكون ، وكان كذلك عند أقربائهم من البابليين ، وكذا الهنود وغيرهم ، ولا يزال يؤثر عن الوثنيين منهم أعمال سحرية غريبة اهتمت علماء الافرنج وغيرهم الى تحليل بعضها ، أو كشف حقيقته ، ولا يزالون يحللون تحليل بعضه .

والعنى الجامع للسحر أنه أعمال غريبة من التليس والحيل تخفى حقيقتها على جماهير الناس لجهلهم بأسبابها ، ولذلك كان الأقوام الجاهلون يعدّون آيات الرسل الكونية التى يؤيدهم الله تعالى بهامن قبيل السحر ، ويحفلون هذا مانعا من دلالتها على صدقهم ، لأن السحر صناعة تتلقى بالتمرين والتعاطى ، والسحر لا يروج إلا بين الجاهلين ، ولا يكاد يوجد فى البلاد التى ينتشر فيها العلم ، بل يسمى أهله بأسماء أخرى كالشعوذين والمختالين والمسجلين .

ومن ذلك يخفى من يقول: ان السحر من خوارق العادات الذى هو الجنس الجامع لمعجزات الأنبياء وكرامات الأولياء ، لأنه صناعة تتلقى بالتعليم كما ثبت بنص القرآن ، وبالاختبار الذى لم يبق فيه خلاف بين أحد من علماء الكون وهو أنواع :

[ أحدها ] ما يعمل بالأسباب الطبيعية من خواصّ المادة المعروفة للعامل المجهولة عند من يحجرهم بها ، ومنها الزئبق الذى قيل ان سحرة فرعون وضعوه فى جبالهم وعصيم ، ولوشاء علماء الطبيعة والكيمياء أن يجعلوا أنفسهم سحرة فى أواسط افريقية الممجة وأمثالها لأروهم من عجائب الكهر باء وغيرها ما يخضعونهم به لعبادتهم لو ادعوا الألوهية فيهم .

[ النوع الثانى ] الشعوذة التى مدار البراعة فيها على خفة اليدين فى اخفاء بعض الأشياء . و اظهار بعض ، وإرادة بعضها بشير صورها ، وغير ذلك مما هو معروف فى هذه البلاد وغيرها .

[ النوع الثالث ] نوع مداره على تأثير الأتفس ذوات الارادة القوية فى الأتفس الضعيفة ذات الأمزجة المصبية القابلة للأوهام والانفعالات التى تسمى فى عرف هذا المصر بالهستيرية ، وهذا النوع هو الذى قيل ان أصحابه يستعينون على أعمالهم بأرواح الشياطين .

ومهم الذين يكتبون الأوفاق والطلسمات للحب والبغض وغير ذلك .

ومن هذا النوع ما استحدث في هذا العصر من التنويم الغناطيسى ، أما مأخذ السحر من اللغة فهو كل ما لطف مأخذه ودق وخفي ، وقالوا سحره وسحره<sup>(١)</sup> بمعنى خدعه وغلله ، وقالوا : عين ساحرة وعيون سواحر ، وفي الحديث الصحيح « إن من البيان لسحرا » والسحر بالفتح والتحريرك الرثة ، وهى أصل هذه المادة ، والرثة إلى الباطن ، فما لطف مأخذه ودق صنعه حتى لا يهتدى إليه غير أهله فهو باطن خفي ، ومنه الخداع ، وهو أن يظهر لك شيئا غير الواقع في نفس الأمر فالواقع باطن خفي ، وتأثير العيون في عشاق الحسان ، والكلام البليغ في عشاق البيان مما يخفى مسلكه ويدق سببه ، حتى يسر على أكثر الناس الوقوف على الغلة في تأثيره .

( فإذا تأمروا ) من قولهم : صرني ، بمعنى أشر على . وقولهم : تأمر القوم واتمروا مثل تشاوروا واشتوروا : أى فما الذى تشيرون به فى أمر ذلك الرجل ؟ ( قالوا أرجه وأخاه ) . قال اللأ فرعون بعد المشاور : أخر أمره وأمر أخيه ، ولا تفصل فيه بادئ الرأى ، وأرسل فى مدائن ملكك ( حاشرين ) جامعين للسحرة منها ( يأتوك بكل ساحر عليم ) بفنون السحر ماهر فيها ، وهم يكشفون لك كنه ما جاء به موسى .

(٤) رضى فرعون بذلك الرأى فبعث فى طلب السحرة فجاءوا ، وقالوا لفرعون ( إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم لمن المقربين ) .

طلبوا من فرعون أجرا إن هم غلبوا موسى ، فأجلبهم إلى ما طلبوا ، وزاد عليه أن لهم مع ذلك الأجر المادى أجرا أدبيا هو أن يكونوا من المقربين منه فيجتمع لهم المال والجاه ، وذلك منتهى نعيم الدنيا ، وقد حكى عدتهم بالقربى بصيغة المؤكد لنفعهم منه أن كان حريصا على القلب لموسى ( قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين ) .

خبروه لتفتهم بأنفسهم ، واعتمدتم بسحرم ، وإرهاها له ( قال ألقوا ) .

أمرهم أن يتقدموه فيما جاءوا لأجله ولا بد لهم منه وهو السحر ، وأراد التوسل به إلى إظهار بطلان السحر ، وإلى بناء ثبوت الحق على بطلانه ، ولم يكن ثم وسيلة لإبطاله إلا ذلك ، وقد صرح به فيما حكاه الله عنه فى سورة يونس [ قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيضلله إن الله لا يصلح عمل المفسدين ويحى الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ] ( فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبهم وجاءوا بسحر عظيم ) . وفى سورة طه [ فإذا جالهم وعصيم يخيل إليه من سحرهم أنها نسي فأوجس فى نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ] وانما أضاف السحر إلى العين لبرينا أن ذلك النوع من السحر تحويه وتخيل ، ولذلك شرحه فى آية طه بقوله [ يخيل إليه من سحرهم ] .

والمراد أنهم أوقعوا فى خيال الناس أن لتلك السحر حقيقة فى الخارج مع أنه لم يكن إلا مجرد صنعة وخيال .

وقد قيل : انها كانت عصيا مجوفة قدمك زنبقا ، وكذلك الجبال كانت معمولة من آدم :

أى جلد محسوسة زنبقا ، وقد حفروا قبل ذلك تحت اللواضع أسرابا وجعلوا فيها أزراجا (١) ملثوها نارا فلما طرحت عليه وحى الزنبق حركها لأن من شأن الزنبق إذا أصابه النار أن يطير ، فأخبر الله أن ذلك كان بمؤها على غير حقيقته ، ويحتمل أن يكون بجيلة أخرى كاطلاق أبخرة أثرت في الأعين فجعلتها تنصر ذلك ، أو يجعل العصي والحبال على صورة الحيات وتحريكها بمحرّكات خفية سريعة لا تتركها أبصار الناظرين ، وكانت هذه الأعمال من الصناعات وتسمى السيمياء .  
(وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك الخ) .

أوحى الله إلى موسى بأن ألق عصاك فقد جاء وقتها فإذا هي تتلع ما يافكون من السحر ، وسعى السحر إفسا لأمه يأفك الناس ويصرفهم عن الحق إلى الباطل .  
وللعنى : أن عصا موسى أزال ما أحدثه - حرم في أعين الناس من تمويه وخداع ، ولذلك عقبه بقوله (فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون) أى فثبت الحق وفسد ما كانوا يعملون من الحيل والتخيل ، وذهب تأثيره (فضلوا هناك واخلوا صاغرين) غلب فرعون وملؤه في ذلك المجتمع العظيم الذى كان في عيد لهم ، ويوم زينة من مواسمهم ، لتكون التضحية ظاهرة لجواهر الناس ، ولم يصف القلب لموسى لأن ذلك لم يكن بكسبه وصنعه (واقبلوا) عادوا من ذلك المجمع صافرين : أدلة بما رزقوا من الخلدان والخيبة (وألقى السحرة ساجدين) خروا سجدا كأنما ألقاهم ملق لشدة خوررم .

وللرأى أن ظهور بطلان سحرم ، وإدراكهم لجأة حقيقة آية موسى ، وعلمهم أنها من عند الله تعالى قد ملأت عقولهم يقينا ، وقلوبهم إيمانا ، فكان هذا اليقين في الإيمان البرهاني الكامل والوجداني الحاكم على الأعضاء والجوارح: هو الذى ألقاهم على وجوههم سجدا لله رب العالمين ، ولم يبق في أنفسهم أدنى مكان لفرعون وعظمته المتنبوية الزائلة . (قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون) .

فانظر كيف يجمعهم فرعون من اللدائن ، ويسددهم ويمنهم إذا هم غلبوا موسى عليه السلام ، فيأخذهم موسى منه بقوة الحجة ، ونسوح البرهان فينقلبون حرا عليه وقوة لموسى عليه السلام . وفى ذلك عبرة كبرى لمن يحاولون صرف الناس عن الحق ، والحيلولة بينهم وبين عقائدهم .  
ولو كان لسلطان اللدنة على النفوس مالم سلطان العقائد ما ظلت السحرة من فرعون على ماله من سلطان ونفوذ ، وما انضموا إلى نبي الله موسى ويسخره بقوة فرعون وسلطان فرعون ، وانظر ماذا صنع فرعون بعد ذلك الخلدان الفاضح (قال فرعون آمتم به قبل أن أذن لكم) .

فهم فرعون أن قلوب الناس بيده ، وإيمانهم تحت سلطانه ، فعاب عليهم أن يؤمنوا بموسى قبل أن يأذن لهم ، وجعل أن القلوب لا تنضج إلا للحجة ، وأنها متى اتجهت إلى الحق ، وظلمت إليه ثم صادفها البرهان لا تستطيع أن تقاومه ولا غنى لها عن الخضوع له .

جعل فرعون تلك السنة التى جعلها الله تعالى للنفوس ، فزعم أن سلطانه عليها كسلطانه على الأجسام ، فكما لا يستطيع الناس أن تتحرك حركة في عهد استبدادى بدون إذن من السقبة

لا تستطيع القلوب أن تنقل من باطل إلى حق ، ومن ضلال إلى هدى إلا بأذن منه ، وذلك منتهى النبوة .

ثم عقب ذلك بقوله ( إن هذا لمكر مكرموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها ) .

وامام بالتواطئ مع نبي الله موسى ، وأن ما فعلوا من إظهار الرغبة في القلب عليه كان خديعة لفرعون وملأه ليخرجوا من المدينة أهلها ، وجاء في سورة طه ( إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ) . وجلة القول أن فرعون قد سقط في يده بإسلام السحرة ، فرة يعتب عليهم أنهم آمنوا بموسى قبل أن يأذن لهم ، وسمرة يتهمهم بأن موسى كبيرهم في السحر ، وأهم دبروا ذلك العهل مع موسى قبل اجتماعهم به ليخرجوا من المدينة أهلها ، وأخيرا لجأ الى الوعيد والتهديد فقال ( فسوف تعلمون ) ما يحل بكم من العذاب على ذلك المكر والخداع .

ثم فصل ذلك الوعيد بقوله ( لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين ) وهو وعيد يحاول به فرعون أن يعوّده به على قومه المصريين حتى لا يتبعوا السحرة في الايمان بموسى . وكذلك يفعل كل ملك وكل رئيس مستبد في شعب يخاف أن ينقضّ عليه باجتماع كتلة على زعيم آخر ، بدعوة دينية أو سياسية ، وهو وعيد شديد ، وتهديد لهم بالتخيل بهم ، وتقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، حتى لا يستطيعوا أن يتنفصوا بما بقى لهم من الأيدي والأرجل ، وبعد ذلك التتطيع بصلبهم في جنوع النخل حتى يكونوا عبرة لغيرهم من يفكر في الايمان برب موسى وهارون . وقد جاء ذلك الوعيد بصيغة التأكيّد ليرى القوم أنه فاعل ذلك ولا بد ، وأنه لم يكن هاذلا في ذلك الوعيد وإنما هو جاد .

لم يهتدم فرعون بحبس أجسامهم ، ولا باخراجهم من أوطانهم ، ولا بمصادرتهم في أموالهم ، ولا بحرقائهم من وظائفهم ، وإنما هتدم بما هو أشد من ذلك كله : هو التخيل بهم ، وجعلهم عبرة ونكالا لغيرهم .

توعد فرعون السحرة بذلك الوعيد ، وهتدم ذلك التهديد ، فإذا كان جوابهم له وردم عليه ؟ ( قالوا إنا إلى ربنا منقلبون ) يريدون أنهم لا يبالون بما يكون من قضائه عليهم وقته لهم ، لأنهم راجعون إلى ربهم راجون مغفرته ورحمته بهم ، فتعجيل قتلهم سبب لقربه لقائه ، والتمتع بحسن جزائه ، ويجوز أنهم أرادوا إنا وإياك سنقلب إلى ربنا ، فلئن قتلنا فما أنت بخالد بعدنا ، وسيحكم عز وجل بيننا وبينك .

وجاء في سورة طه ( قالوا لن نؤثر على ما جاءنا من اليّنات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدّنيا إنا آمنا ربنا ليغفر لنا خطيائنا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى ) .

( وما نتقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ) لا نكرهنا ولا تعيب علينا إلا أمرا لا يصح أن ينكر : هو أنهم آمنوا بآيات الله ، ودلائل ربوبيته لما جاءتهم ، وهو كقولهم ( وما تقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ) فإذا كان هذا ذنبا فعاقب عليه ونستحقّ عليه ذلك الوعيد

فأفعل ما شئت أن تفعل ، واستبدت ما زرين لك الاستبداد ، ولذلك ختموا قولهم بذلك الدعاء (ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين) .

طلبوا من الله تعالى أن يهبهم صبرا واسعا يفرغه عليهم كما يفرغ الماء من القرب حتى يثبتوا على الايمان ، وأن يتوفاهم إليه مسلمين له ، مدعنين لأمره ونهيه ، مسلمين لقضائه ، غير مفتونين بتهديد فرعون ، ولا مطيعين له في قول أو فعل .

والصبر من صفات النفس التي تعينها على احتمال المكاره والآلام بغير تبرم ولا حرج يحملها على ما لا ينبغي من ترك الحق أو اجتراح الباطل ، ولا شيء كالايمان بالله تعالى والخوف منه والرجاء فيه يقوى هذه الصفة في النفس .

### موسى عليه السلام

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ <sup>(١)</sup> مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ  
وَيَذَرُكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي <sup>(٢)</sup> نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ  
قَاهِرُونَ «١٢٧» قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّا الْأَرْضُ لِلَّهِ يُورِثُهَا  
مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ «١٢٨» قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ  
بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَمَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَذُوكُمْ وَيَسْتَخْلَفَكُمْ فِي الْأَرْضِ  
فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَتِمَّلُونَ «١٢٩» وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ <sup>(٣)</sup> وَتَقْصِي مِنَ  
الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ «١٣٠» فَلَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ  
تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا <sup>(٤)</sup> مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ إِلَّا إِنَّمَا يَطَّيَّرُ عَنْهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ  
أَكْثَرَهُمْ لَا يَتْلُمُونَ «١٣١» وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَتَحَرَّنَا بِهَا فَآ  
نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ «١٣٢» فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ  
وَالدَّمَ ءَايَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ «١٣٣» وَلَمَّا وَقَعَ  
عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ <sup>(٥)</sup> قَالُوا لِمُوسَى اذْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَتَكُنْ كَاشِفَتَ عَنَّا

[١] ترك . [٢] نستحي . [٣] الجذب وشيق اللبشة . [٤] ابتشأوا .

[٥] كل عذاب تضطرب له القلوب أو يضطرب له الناس .



الرَّجَزَ لِنُؤْمِنِي لَكَ وَلِنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ  
الرَّجَزَ إِلَى أَجَلٍ مِمَّنْ يَلْعَوُهُ إِذَا مِمَّنْ يَنْكُثُونَ (١٣٥) فَأَتَيْنَاهُمُ مِنْهُمْ فَاغْرَقْنَاهُمْ  
فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ  
كَانُوا يُسْتَضَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ  
الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ  
وَمَا كَانُوا يَمْشُونَ (١٣٧) وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ  
يَمْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ  
قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَبُ (١٣٩) مَا مِمَّنْ فِيهِ وَبَطِلٌ مَا كَانُوا يَمَكُونُ (١٣٩)  
قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَخْبَيْنَاكُمْ  
مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ  
نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١) الأعراف

### شرح وعبرة

(١) (وقال الملا من قوم فرعون أنذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض الخ).  
لما لم ينجح الملا من قوم فرعون في دسيتهم الأولى ، وهى أن موسى ساحر عالم بالسحر  
يريد بسحره أن يخرج فرعون وملاه من أرضه ، وتبين أن ما أتى به ليس سحرا وإنما هو مبطل  
للسحر ، ثم كان من وراء ذلك إيمان السحرة الذين جمعهم فرعون ليهزموا موسى ، ثم نزع السحرة  
في الإيمان حزب .

لما كان ذلك كله لجأوا إلى أسلوب جديد يألون به فرعون على موسى وشيعته ، فقالوا  
لفرعون : أنت ترك موسى وقومه ؟ وهم الذين نعو السحرة في الإيمان ليفسدوا في الأرض وليرتك  
وأهلكك كالشيء اللقا (٣) فيظهر للصريين عجزك ، يستفزون بذلك الأسلوب فرعون للسفد  
ليحول بين بنى إسرائيل وبين موسى : إما بحجبه ، وإما بقتله .

وانظر الى قولهم ( ليفسدوا في الأرض ) وكيف يعدون دعوة موسى الى التوحيد ، وإتخاذ  
الناس من ظلم فرعون وبطشه إفسادا في الأرض ، وبالتالي يعدون ما هم عليه من باطل إصلاحا

ولا ندري أقالوا ذلك بمالأة لفرعون وإرضاء لشهوته ، وقضاء لآبائهم هم ، لأن أعوان السبذ ويطانات الظالم التي تنفع من ظلمه واستبداده ، وتعيش على حساب بطشه وسلطانه ، يظهرون جبهة الشعب أمام ذلك الظالم مظهر غير مظهره الحقيقي ، فيسمون الإصلاح فسادا ، والدعوة الى الحق تهريجا ، أو أن ذلك اللا بلغم من حقه وغباوته أن كان الإصلاح الذي يدعو إليه نبي الله موسى في نظره إفسادا في الأرض .

والذي تميل إليه النفس أن ذلك القول وأمثاله شأن بطانة السوء التي تلتف دائما حول الظالمين ، وتعيش في أحضان الحكام المسبذين ، لاقتناعها أنها لا تستطيع أن تعيش إلا في أولئك الأوساط المظلمة ، ولا تستطيع أن تصيد إلا في الماء العكر ، فليس لها من المؤهلات ما تستطيع أن تعيش به على حساب نفسها ، ولامن الأخلاق ما يسمح لها بقول الحق والاعتراف بالأمر الواقع . وقد ساعدتم على ذلك أنهم رأوا من حاكمهم المسبذ استعدادا لتلك القول ، ولولا علمهم أن ذلك القول وأمثاله يتفق وشهوة صاحبهم مآلوه ، فهم انما يصارحون الناس بما يجيش في صدره وما يناسب مع أطماعه وشهوته ، فهو شريركم في الجرم ورئيسهم في الاتم ، عليه وزره ووزرم . لتلك صور اللا من قوم فرعون موسى وخزبه تلك الصورة البشعة - صورة المفسد في الأرض . ويعلم الله أن إفساد موسى في الأرض هو إلقاء نبي إسرائيل من استبدادهم ، والحيلولة بين الشعب وبين بطشهم ، فإذا كان فيه إفساد فهو إفساد سياستهم ، وإحباط تديريهم ، وتفتت الجمهور من أيديهم ، وذلك ما يحشاء فرعون وملأ فرعون الذين يعيشون على حساب غيرهم ، وينعمون بشقاء أمتهم ، ويثرون بافتقار إخوانهم ، ويرقون مناصب الدولة ووظائفها الكبرى على حساب إذلال نبي جلدتهم . ألا قائل الله قوما ذلك حالمهم ، وبعدا لطائفة تلك أخلاقهم . بقي أن اللا يقول لفرعون ( ويدرك وألتهك ) وهل كان لفرعون آلهة ، وهو يقول ( أنا ربكم الأعلى ) .

قيل : إن فرعون وضع لقومه أصناما صنارا وأمرهم بعبادتها ، وقال : أنا ربكم الأعلى ورب هذه الأصنام .

واستظهر بعض المفسرين أن فرعون لم تصل به العبادة أن يعتقد في نفسه أنه خالق للسموات والأرض . وليس هناك من العقلاء من يعتقد فيه ذلك ، لأن فسادا معلوم بضرورة العقل ، والأقرب أنه كان دهريا ينكر وجود الصانع ، وكان يقول : مدبر هذا العالم السفلي هو الكواكب والربى لتلك الطائفة طائفة بني إسرائيل هو نفسه . فقلوه ( أنا ربكم الأعلى ) أي مريكم ، ولنعم عليكم والمطمح لكم . وقوله ( ما علمت لكم من إله غيري ) أي لا أعلم لكم أحدا يجب عليكم عبادته إلا أنا ، وذا كان مذهبه ذلك لم يبعد أن يكون قد اتخذ أصناما على صور الكواكب يعبدها ويتقرب إليها على ما هو دين عبدة الكواكب .

والعهود في تاريخ قدماء المصريين أنهم كانوا يعبدون الكواكب ومنها الشمس ، واسمها في لغتهم [ رع ] وأن مصر هي السليبة الوحيدة للعبود [ رع ] منذ وجود الآلهة ، وأن فرعون مصر الملك [ متفتح ] سليله أيضا وهو الجالس على سدة العبود [ شو ] وأن الإله [ رع ] التفت الى

مصر فولى [منفتح] ملك مصر ، وشىء له أن يكون مناضلا عنها فتخنع له الولاة .  
وإذا كان فرعون مصر يعتقد أنه سليل الشمس وابنها ، والشمس معبودة لقدماء المصريين .  
فلا يبعد أن يتطلع إلى عبادة الناس له ، ولا بد في أن يقول ( أنا ربكم الأعلى ) لأنه سليل  
المعبود [رع] وحال فيه .

( قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون ) يريد فرعون أنه سيحول بين  
موسى وبين الشعب من طريق إبادته ، وذلك بأن يقتل أبناء المؤمنين ويسبى نساءهم كما كان  
يفعل ذلك من قبل .

ثم أراد أن يبين أن ذلك ميسور له وسهل عليه ، لأنه فوقهم بالسلطان والنفوذ ، مستغل  
عليهم بالغلبة ، فلا يستطيعون إفساداً في الأرض ، ولا إخراج بني إسرائيل من تعبد فرعون ،  
وفي سورة المؤمن ( فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم  
وما كيد الكافرين إلا في ضلال « ٢٥ » ) وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن  
يمثل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد « ٢٦ » ) .

وهو يريدنا أن التهديد كان لحزب موسى المؤمنين كما ترى آية المؤمن أنه كان من قوم فرعون  
من يدافع عنه ويحول بين فرعون وبين بطشه بموسى ، ولذلك يقول ( ذروني أقتل موسى ) .

( ٢ ) قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده  
والعاقبة للمتقين ) ذلك هو الجواب الطبيعي الذي كان ينتظر من نبي الله موسى بعد تهديد فرعون  
لمن آمن معه بقتل أبناءهم واستحياء نساءهم ، يقول لهم استعينوا بالله على هذا الطاغية ، واصبروا  
على إبذائه ، فإن الأرض التي وعدتم دخولها ، وهي فلسطين أو الأرض مطلقاً ملك لله يورثها من  
يشاء من عباده ، وليست ملكاً لفرعون ولا للأفرعون ، فهي بحسب سنة دول ، والعاقبة الحسنة  
التي ينتهي إليها النزاع بين الأمم للذين يتقون بمرعاة سنة الله تعالى في أسباب إرث الأرض ،  
كالاعتدال وجمع الكلمة ، والاعتصام بالحق ، وإقامة العدل ، والصبر على المكارِه ، والاستعانة بالله تعالى  
ولاسيما عند الشدائد ، ونحو ذلك مما هدى إليه وجهه ، وأيدته التجارب .

وسماه عليه السلام أن العاقبة ستكون لكم بارئ الأرض بشرط أن تكونوا من المتقين  
له بإقامة شرعه والسير على سنته في نظام خلقه ، وليس الأمر كما تتوهمون ويتوهم فرعون وقومه  
من بقاء القوى على قوته والضعيف على ضعفه ، فإذا كان من تأثير وصية موسى عليه السلام  
لقومه ، وبم أجابوه ؟ ( قالوا أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ) يعنون أنهم لم يستفيدوا  
من إرساله لاقادهم من ظلم فرعون شيئاً فهو يؤذيهم ويظلمهم بعد إرساله كما كان يؤذيهم من قبله  
أو أشد ؟ قال عيسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظركم تعملون ) فهو  
يرجو لهم من فضل الله تعالى أن يهلك عدوهم الذي سخرهم وأذامهم وظلمه ، وأن يجعلهم خلفاء  
في الأرض التي وعدهم إياها ، فينظر سبحانه كيف يعملون بعد استخلافه إياكم فيها ، هل تشكرون  
النعمة أم تكفرون ، وهل تصلحون في الأرض أم تفسدون ؟ ليجزىكم في الدنيا والآخرة بما  
تعملون ، وقد عبر بـسى ولم يقطع بالوعد لئلا يشكوا ، ويتركوا ما يجب من العمل ، أو لئلا يكذبوه

لضعف أنفسهم بما طال عليهم من النذل والاستخذاء لفرعون وقومه ، واستعظامهم للملك وقوته وهو أسلوب آخر من أساليب القسيلة والعزاء بعد أن أمرهم بالاستعانة بالله تعالى والصبر ، وأمرهم أن الأرض ملك لله يعطيها من يشاء ويحرمها من يشاء ، وإطعامهم في تقويض ملك فرعون واستخلافهم في الأرض مصحوب باحتياط من نبي الله موسى ، وتحريضهم على بقاء الملك والقوة فيهم إذا هم حصلوا عليه .

(٣) (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الخيرات اعلمهم يذكرون) تفصيل لمقدمات الملاك الوعود به فيما قبل هذه الآية ، وانجاز وعد الله تعالى لبني اسرائيل بالاستخلاف في الأرض وقد صبرت الجلة بالقسم الدالة عليه لانه لتأكيد مضمونها وتعظيم شأنه ، كيف لاهو من أظهر آياته على تأييد ربه ، وقدرته على الادانة للظالمين المستصفين من الأقوياء الظالمين .

وقد كثر استعمال مادة الأخذ في العذاب كقوله تعالى (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد «١٠٢»<sup>(١)</sup> - فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر «٤٢»<sup>(٢)</sup> - فأخذناه أخذنا وببلا «١٦»<sup>(٣)</sup>) وآل فرعون قومه أو خاصته وأعوانه في أمور الدولة وهم اللأ من قومه الذين كثر ذكركم في قصته ، ووجهه أنهم هم الذنون المعاندون لموسى ، وانما وقوع العذاب على غيرهم بالتبع لأنهم كانوا موافقين ومقررين لهم على ظلمهم (واقفوا فتنه لاصيين الذين ظلموا منكم خاصة «٥»<sup>(٤)</sup>) وتأمل قوله تعالى (اعلمهم يذكرون) لتعهم أن الله تعالى ما أخذهم بالسنين المجدية وضيق العيشة االرجاء أن تذكركم هذه الشدة بضعفهم أمام قوة الله تعالى . وعجز ملكهم الجبار المنفطرس ، وعجز آلهتهم ، ولعلمهم إذا تذكروا اعتبروا ، فرجعوا عن ظلمهم لبني اسرائيل ، وأجابوا دعوة موسى ، فان الشدائد من شأنها أن ترقق القلوب ، وترجع الأنفس الى مرضاة الله (فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه) .

يرينا الله تعالى بهذه الآية أن أولئك الشدائد التي أخذها بني اسرائيل رجاها التذكر لم تقدم شيئا ، فبقوا على عنادهم وأصرّوا على شركهم ، فاذا جاءتهم الحسنة من خصب ورياء قالوا : هي لنا دون غيرنا ، ونحن المستحقون لها لما لنا من التفوق على الناس ، وان تصبهم سيئة من جذب أوجاعها أو مصيبة أخرى في الأبدان أو الأرزاق تشاءموا بموسى ومن معه من الأنصار ، ورون أنهم أصيبوا بشؤمه وشؤمهم ، وغفلوا عن سيئات أنفسهم وظلمهم لقوم موسى ، لأن هذا عندهم من الحقوق كما هو شأن المستبدّين في ظلمهم لمن يستضعفونهم .

وقدر الله تعالى عليهم بقوله (ألا إنما طأرهم عند الله ولكن أكثركم لا يعلمون) فالشؤم الذي نسبوه الى موسى عليه السلام وعدوه من آثار وجوده فيهم : هو عند الله لا عند موسى ، فهو تعالى قد جعل لكل شيء قدرا من حسنة وسيئة ، ووضع لنظام الكون سناناكون فيها السببات على قدر الأسباب ، وبمقتضى هذه السنن والأقدار ينزل السلا عليهم ، وهو امتحان لهم بما يسوؤهم ليرجعوا عن ظلمهم ، ولكن أكثركم لا يعلمون حكم التصرف الرباني في الخلق ولا أسباب

الخير والشر ، ولو كانوا من أهل العلم والمعرفة ما نسبوا الى موسى السيئات والى أنفسهم الحسنات فهم قوم جمعوا بين رذيلتين : رذيلة الضاد للرسول صلى الله عليه وسلم ، ورذيلة الجهل .

ونأمل احتياط القرآن الكريم في قوله ( ولكن أكرم ) ولم يقل ( ولكنهم ) ليرينا أن فيه قلة من أهل العلم والانصاف لم يقتنوا بملك فرعون ولا بجبروت الملك . وأن هذه القلة هي التي كانت تناصر موسى عليه السلام سراً ، وفيهم مؤمن آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه ويقول : ( أنتقلون رجلاً أن يقول ربى الله ) الى آخر الآيات ، ومن هذه القلة الحزب الذي آمن بموسى بعد إيمان السحرة وهم الذين هدم فرعون بقتيل أبنائهم واستبقاء ناسهم .

(٤) ( وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ) فالقوم لم يتربوا بالحسنات ولا بالسيئات ، ولم يدعوا لما أبد الله تعالى به موسى من الآيات ، بل أصرّوا بعد إيمان كبار السحرة على عدّ آيتى موسى من السحر ، وقالوا له : انك ان تجتأ بكل نوع من أنواع الآيات التي تستدل بها على حقيقة دعوتك لأجل أن تصرفنا بها عما نحن فيه من ديننا ومن تسخيرنا لقومك في خدمتنا فما نحن لك بمصدقين ( فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والهم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ) .

أنزل الله تعالى بهم هذه المصائب والنكبات آيات واضحات على صدق نبي الله موسى ، فاستكبروا عن الإيمان به استكباراً مع اعتقاد محمّ رسالته ، وصدق دعوته باطناً ، وكانوا قوما واسخين في الاجرام والنزوب مصرّين عليها .

أما الطوفان فغناه في اللغة : ما طاف بالشيء . وغلب في طوفان الماء سواء كان من السماء أو الأرض . قيل : هو الأمطار العرقة الملتفة للزرع والثمار ، وكذلك أرسل الجراد فأكل الزرع واجتاح الثمار .

وأما القمل فعن ابن عباس : هو السوس الذي يخرج من الخنطة ، وعنه أنه الدبس ، وهو الجراد الصفار الذي لا أجنحة له ، و به قال مجاهد وعكرمة وقتادة ، وعن ابن جرير أنها دواب تشبه القمل تأكل الابل ، وجزم الراغب أن القمل صفار النباب ، وسواء قلنا انها السوس الذي يفسد الزرع والحبوب أو الجراد الصغير أو دواب تشبه القمل أو النباب ، فهي من الضربات التي أصيب بها قوم موسى عليه السلام في زرعهم أو إبلهم أو في محبتهم ، لأن النباب قدر يحمل العدوى وجراثيم الأمراض ، فاذا كثرت في جهة من الجهات نقص على أهلها عيشتهم ، وأفسد عليهم محبتهم وانظر كيف أذل الله للاستكبريين من فرعون وملائه الذين يدعون الألوهية - أذلهم الله بأضعف المخلوقات ، وكأنه يقول لهم : إذا كنتم ضعفت عن مقاومة في أضعف خلقي فكيف يدعى زعيمكم فرعون أنه ربكم الأعلى ، وكيف تماثلونه في ذلك الزعم الخاطيء ؟ .

وما أقرب الشبه بين أولئك القوم في تفرع الله لهم وقرعهم قيمتهم بذلك الأسلوب وبين المشركين إذ يقول لهم ( يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وان يسلبهم النباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » ٧٣ )

ماقدروا الله حقّ قدره إن الله لقوى عزيز » ٧٤ (١) .

وأما الضفادع فقبل إنها كثرت عندهم حتى نقصت عليهم عيشتهم بسقوطها في طعامهم وشرابهم ووجدانها في فراشهم وبين ملايسهم .

وأما السم : فقبل هو الرعاف سلطه الله عليهم . وقيل : دم كان في مياه للصريين (ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك ) الخ .

لما حلّ العذاب الذي تضطربه النفوس بقوم موسى لجأوا إليه وقالوا : ادع لنا ربك بما عهد عندك أن تدعوه به فيعطيك الآيات ويستجيب لك الدعاء - أن يكشف عنا هذا الرجز ، ونحن نقسم لك لأنّ كشفته عنا ( لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل . فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل هم بالغوه ) فلما كشف الله عنهم العذاب الى حدّ من الزمان هم بالغوه لاحالة معذبون فيه لا ينفعهم ما تقدم لهم من الامهال وكشف العذاب الى حواله ( إذا هم ينكثون ) في عهدهم ويخشون في قسمهم ( فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم ) وهو البحر ويطلق على النيل ، وعلى هذا الانتقام كما علل أمثاله ( بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ) .

(هـ) (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها ) الخ . بعد أن أرانا الله تعالى ما فعله بأعداء الحقّ من الانتقام منهم وإغراقهم في اليمّ بسبب تكذيبهم بآيات الله وغفاتهم عنها - بعد ذلك عرفنا أنه قد كافأ أنصاره وعباده المخلصين الذين كانوا مستضعفين بالأمس ، كافأهم بتوريتهم أرض الشام وجعلهم خلفاء الله فيها ( وتمتّ كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا ) والمراد أن كلمة الله ووعده لبنى اسرائيل بأهلاك عدوهم قد نفذ ومضى كاملا ، وذلك بسبب صبرهم على الشدائد التي كابدوها من فرعون وقومه ( ودسّمنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ) أحبط الله على فرعون وقومه ما كانوا يصنعون من باطل ، وأفسد عملهم عليهم ، والعرش : رفع المباني والسقاقت للنبات والشجر المنسلق كمرائش العنب ، ومنه عرش الملك ، والمراد أن الله تعالى أدخل الخراب على عمل فرعون جميعه ، ولا سيما ما يتعلق ببقاء عرشه ، والاحتفاظ بملكه ، فقد كان حربه لحزب الله احتفاظا بالعرش ، وخوفا على الملك ، فدمر الله عليه عمله وأفسد عليه تدبيره ، لأن الله لا يصلح عمل مفسد .

وقد أرانا الله بعمله هذا مع فرعون أن الملك الذي يرمى ملكه بظلم الناس والاستبداد معهم فخير ملكه مقيم فرعون وملأته .

(وجاوزنا بنى اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ) الخ . برينا الله تعالى أنه تخطى بنى اسرائيل البحر الذي أغرق فيه فرعون وملأته ، فترّوا على قوم عاكفين على أصنام يعبدونها فطلب أصحاب موسى أن يجعل لهم الهام مثل آلهة هؤلاء ، لأن الوثنية عالة بنفوسهم ، وخلق التقليد متمكن منهم ، ونسوا أن مهمة موسى عليه السلام محاربة الوثنية وأنه إنما بعث إليهم ليفرس في قلوبهم حبّ التوحيد ، ويبحث عنها عروق الشرك .

جهلوا ذلك كله وغفلوا عنه ، ولذلك كان ردّه عليهم أن قال لهم ( إنكم قوم تجهلون ) وصفهم بالجهل المطلق غير متعلق بشيء ، وهو يشمل كل ما يصلح له من الجهل الذي هو فقد

العلم ، والجهل الذى هوسه النفس ، وطيش العقل ، وأهمه للناسب لتمام جهل التوحيد ، وما يجب من أفراد الرب بالعبادة ، وما يقتاسب مع مهمة رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم .  
ثم قال ( إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ) أى إن هؤلاء القوم الذين يكفون على هذه الأصنام مقضى على ما هم فيه بالبار والملاك ، وباطل ما كانوا يعملون من الأصنام وعبادة غير الله لا بقاء له .

ثم أراد أن يشكر عليهم ذلك الطلب الذى طلبوه من موسى عليه السلام ف(قال أغير الله أفيكم إلها وهو فضلكم على العالمين) والاستفهام فى الآية للانكار للشرب معنى التعجب .  
ثم أيد ذلك الانكار بما يعرفون من آيات الله تعالى فيهم ، وهو تفضيلهم على أهل زمانهم برسالة موسى وهارون منهم ، وتجديد ملة أبيهم فيهم .  
ثم عطف عليه أظهر نعمه عليهم فقال ( ولذا أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ) .

### موسى عليه السلام

وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنٍ مَّيْقَتُ رَبِّهِمْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُقْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ «١٤٢» وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى <sup>(١)</sup> رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَمَلَهُ ذُكِّرَا وَخَرَّ مُوسَى صَحِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ «١٤٣» قَالَ يَمُوسَى إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ «١٤٤» وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ «١٤٥» سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَسْكَبُورُونَ <sup>(٢)</sup> فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا

[١] انكشف وظهر بعد خفاء ، والذوق : الذوق ، أو ضرب منه ، يقال ذاق ذكاه لاسام لها ، ( وبطله ذكاه ) : أى أرضاً مستوية ، ( وخر ) : سقط من طو شامق ، ( وصفاً ) : مفتشاً طيه من تأثير الصاعقة . [٢] صيغة تكلف ، من التكبر ، وهو نمط الحق بدم الحضور له واحتقار الناس ، ( الرشد ) : الصلاح والاستقامة ، وضده الذى ، وهو الفساد .

وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ «١٤٦» وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أُعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ «١٤٧» وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلَئِهِمْ عِجْلًا <sup>(١)</sup> جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَنْهِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ «١٤٨» وَلَمَّا سَقِطَ <sup>(٢)</sup> فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا إِنَّ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ «١٤٩» وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبًا أَسِفًا قَالَ إِنَّمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعْمَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ <sup>(٣)</sup> وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَفُّونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِالْأَعْدَاءِ وَلَا تَجْمَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ «١٥٠» قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ «١٥١» إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الدِّجْلَ سَيِّئَاتِهِمْ غَضَبَ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتِرِينَ «١٥٢» وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ «١٥٣» وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ <sup>(٤)</sup> أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسَخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ «١٥٤» الأعراف

### شرح وعبرة

(١) (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة) الخ عطف على قوله (وجاوزنا بني اسرائيل البحر) . وهذه الآيات نزلت في بيان بدء وحى الشريعة لموسى عليه السلام ، أما الوحى المطلق فقد بدأ

[١] ولد البقرة ، (جسداً) لا يأكل ولا يفر ، يريد أنه هيك من الحلي وليس بهكل خفية ، (خوار) : سوت . [٢] ندموا . [٣] من عجلة : سبقه ، والحق : أجهل عن أمره ، وهو انتظار موسى لحظتين ليهده وما وصاكم به ، فنبهتم الأمر على أن اليباد قد بلغ آخره ولم أرجع إليكم . [٤] كان الغضب يذره ويقول له : قل لقومك كفوا وهو تمثيل .



في جانب الطور الأيمن من سيناء منصرفه من مدين إلى مصر ، وانما المذكور هنا بدء وحى كتاب التوراة .

يرينا الله تعالى بهذه الآيات أنه ضرب لموسى موعدا لمكالمته وإعطائه الألواح الشتملة على أصول الشريعة فقبل ذلك ، وجعل ذلك الموعد ثلاثين ليلة ثم أتبعها بشر ، وأن موسى عليه السلام قال لأخيه هرون لما أراد الذهاب إلى ميقات ربه ( اخلفني في قومي ) وترأس عليهم للحكم بينهم والاصلاح فيهم ، ونهاه عن اتباع سبيل الفسدين ، وهو لا يكون من نبي ، لأن الافساد منه ماهو واضح جلي ، ومنه ما هو خفي ، ومنه الفرائع المشبهات التي يختلف فيها الاجتهاد ، يأخذ التقى فيها بالاحتياط . واتباع سبيل الفسدين يشمل مشاركتهم في أعمالهم ، ومعاشرتهم والاقامة معهم ، في حال اقترافها ولو بعد العجز عن إرجاعهم عنها .

ومن ذلك ما يجوز وقوعه من الأنبياء عليهم السلام فيصحّ نهيمهم عنه تحذيرا من وقوعهم فيه بضرب من الاجتهاد كالذي وقع الاختلاف فيه بين موسى وهرون عليهما السلام في قصة مجل السامري الذي حكاه الله تعالى عنه في سورة طه ( قال ياهرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا « ٩٢ » ألا تبصير أفصيت أمسى « ٩٣ » قال يا ابن أمّ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترق قولي « ٩٤ » ) . ( ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه الخ ) .

لما حضر موسى عليه السلام لميقات الذي وقته الله له للكلام وإعطاء الشريعة وكلمه ربه من وراء حجاب استشرفت نفسه العالية للجمع بين فضيلتي الكلام والرؤية فقال : رب أرني ذاتك المقدسة بأن تجعل لي من القوة على حمل تجليك ما أقدر به على النظر إليك ورؤيتك ( قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني ) أي إنك لا تراني الآن ولا فيما يستقبل من الزمان ، ثم استدرك بما يدل على تعليل النبي ، ويخفف عن موسى وطأة الرد بأعلامه ما لم يكن يعلم من سنته ، وهو أنه لا يقوى شيء في هذا الكون على رؤيته ، ولكن انظر إلى الجبل فاني سأجعل له فان ثبت لدى التجلي وبقي مستقرا في مكانه فسوف تراني ، لمشاركته في مادة هذا العالم الفاني .

وإذا كان الجبل في قوته ورسوخه لا يثبت لهذا التجلي لعدم استعداد مادته لقوة تجلي خالقه فاعلم أنك لن تراني أيضا وأنت مشارك له في كونك مخلوقا من هذه المادة ، وخاضعا للسنن الربانية في ضعف استعدادها ( وخلق الانسان ضعيفا ) . ( فلما تجلى ربه للجبل ) انتهت وهبط من شدته وعظيمته وصار كالأرض المدكوك أو الناقة المدكاه ، وسقط موسى على وجهه مشفيا عليه ، كمن أخذته الصاعقة ، والتجلى إنما كان للجبل لا لموسى فكيف لو كان له ؟ ( فلما أفاق ) موسى من غشيته ( قال سبحانك ) تنزهها لك وتقديسا عما لا ينبغي في شأنك مما سألتك أو من لوازمه ( ثبت إليك ) أن أسألك الرؤية وأن أتخطى ما رسمته لي ( وأنا أول المؤمنين ) أن لا يراك أحد في هذه الحياة .

( قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ) هنالك قال الله لموسى : إني استخلصتك من الناس ، واخترتك مفضلا لك على أهل زمرك برسالاتي ، وجعلها باعتبار تعدد

ما أرسل به من العقائد والمبادئ ، والأحكام السياسية والحربية والدنية والشخصية ، وقرئ برسالي بالأفراد ، واصطفيتك بكلامي بتكليمي لك بعد وحي الانعام من غير توسط ملك وان كان من وراء حجاب ، وهو ما طلب موسى رفعه ليحصل على الرؤية مع الكلام فأعلمه الله تعالى أنه غير مستعد له (غذا ما آتيتك وكن من الشاكرين) خذ ما آتيتك من الشريعة والتوراة وكن من الشاكرين نعمتي بها عليك وعلى قومك . يشير بذلك إلى أنه لا ينبغي لموسى أن يتخطى ما أعطاه الله تعالى ولا يطلب من ربه ما لا ينبغي لئله أن يطلبه لأنه رسول ، والشأن في الرسول أن يأخذ ما آتاه الله ، ويدع ما لم يكلفه به ، ويشكر ربه على ما آتاه وهده .

(وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء) أعطيناه ألواحاً كتبنا له فيها من كل نوع من أنواع الهداية موعظة من شأنها أن تؤثر في القلوب ترغيباً وترهيباً وتفصيلاً لكل نوع من أصول التشريع ، وهي أصول العقائد والآداب ، وأحكام الحلال والحرام (غذاها بقوة) قبلها مجد وعزيمة وحزم ، لأن المراد بها تكوين شعب جديد بترية جديدة ، تغالمة كل المخالفة لما نشأ عليه من النمل والعبودية لفرعون وقومه ، فإذا لم يكن التولى تربية هؤلاء القوم ، وللرشد لهم ما حب عزيمة قوية وبأس شديد ، فانه يعجز عن سياستهم ، ويفشل في تنفيذ أمر الله فيهم (وأمر قومك بأخذوا بأحسنها) .

قيل : إن (أحسن) هنا بمعنى ذى الحسن النام ، وليس فيه تفضيل شيء على آخر ، وهو ما يعبرون عنه بقولهم : اسم التفضيل على غير بابه . وقيل : إن فيها الحسن والأحسن ، فأصول العقائد من الإيمان بالله تعالى وتوحيده أفضل من الأحكام العملية ، والفرض مثلاً أحسن من الفل ، والأوامر أفضل من النواهي ، والمراد بأخذهم بأحسنها الشروع والابتداء تديماً للأمر على اللهم (سأريكم دار الفاسقين) أى وقل لهم : سترون عاقبة من خالف أمرى وخرج عن طاعنى ، كيف يصير إلى الهلاك . وقال ابن جرير : هو كما يقول القاتل لمن يخاطبه . سأريك غداً ما يصير إليه حال من خالفنى . وقيل : معناه سأريكم دار الفاسقين من أهل النام وأعطيكم إياها . وقيل : منازل فرعون .

(٢) (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بين الحق والباطل) بيان لسنة من سنن الله تعالى في ضلال البشر بعد مجيء البنات لهم ، وهى تسلياً لبينا محمد صلى الله عليه وسلم من جهة كفار قريش ، لأن شأنهم شأن جميع الأمم الذين أضلهم الله بعد أن قامت عليهم الحجة بالبيان كما قال في سورة التوبة (وما كان الله ليضلّ قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون إن الله بكلّ شيء عليم «١١٥» ) .

وقد ذكر هذه السنة عقيب بيان ما أنزله على قوم موسى عليه السلام من التوراة ، دفعها من اللواغظ ما يكفي هدايتهم لو كانوا يريدونها ، ليرينا أن قوم موسى قد حرمهم الله تعالى الهداية ، وحال بينهم وبين فهمهم لآيات التوراة ، وشرح صدورهم لما فيها ، لأن هذه سنة في التكبرين للعائدين . وقد وصف أولئك الذين يصرفهم عن الهداية بصفات :

[أولاً] أنهم يتعالمون في الأرض ويظهرون للناس أنهم من طبقة فوق طبقتهم ، ومن طبقة

غير طيبتهم ، ومن لوازم ذلك أنهم لا يأبهون لما يأتي على أيديهم من الحق ، وما يصلهم منهم من خير .

وقد وصف ذلك التكبر بقوله ( بغير الحق ) لأن ذلك هو الشأن في التكبرين فهو لبيان الواقع ، ولك أن تفهم أن الآية تشير إلى أن هناك تكبرا بالحق ، وهو التكبر على المتكبرين ، وأنصار الباطل ، وأصحاب الشهوات ، فهؤلاء وأمثالهم إذا تكبر الرجل عليهم ورأى أنه أعظم منهم ، واستهان بما هم عليه من باطل ، فلا يدخل فيمن يصرفهم الله تعالى عن آياته لأن تكبره بالحق لا بالباطل .

وقد ورد تفسير التكبر بغط الحق وعدم الخضوع له ، واحتقار الناس بحيث يرى المتكبر أنه أكبر من أن يخضع لحق ، أو يساوى نفسه بشخص آخر ، وكثيرا ما يفهم الناس من الرجل الذي لا يخاطب الناس ولا يتصل بهم أنه متكبر ، وكذلك يفهمون من رجل متأق في ملبسه أنه متكبر وهو فهم خطأ ، ولذلك ورد « التكبر غمط الحق » وبطو الخلق .

[ ثانيا ] عنادهم وإسرافهم في ذلك العناد المشار إليه بقوله ( وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ) فان كثرة الآيات وتعددتها إنما تنيد طالب الحق الذي عنده جهل أو شك أو سوء فهم ، فاذا خفيت دلالة بعضها فقد تظهر له دلالة غيره ، أما الذي لا يطلب الحق فلا يجديه كثرة الآيات ولا وضوحها .

[ ثالثا ] أنهم ( إن يروا سبيل الرش لا يتخذوه سبيلا ) لأنهم صرّوا على الضلال واستمروا مصرعي التي والفساد ، فاذا رأى أحدهم سبيل الرشاد وانحمة جلية لا يختار لنفسه جعلها سبيلا له بإشارها وتفضيلها على ما هو عليه ، وما كل أحد يصل إلى هذه الدرجة من التي ، لأن من الناس من يسلك سبيل التي على جهل ، فاذا علم بما تنتهي به إليه من الفساد ، ورأى لنفسه مخرجا منها تركها ، واختار سبيل الرشاد عليها .

[ رابعا ] أنهم ( إن يروا سبيل التي يتخذوه سبيلا ) وهذه الصفة شر مما قبلها ، فان هذه صفة إيجابية وتلك سلبية ، وبينهما حال أخرى هي حال من ليس فيه من نور البصيرة ما يحمله على سلوك سبيل الرشاد إذا رآه لضعف همته ، ولكنه يكره التي والفساد ، إذ لم يصل من اعتلال الغفلة وظلمة البصيرة إلى تفضيله على الرشاد ، فمن اجتمعت له هذه الصفات فهو الذي أضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فلم تبق له سبيل من أسباب الحق يسلكها .

وقد علل الله تعالى ذلك الجزاء العادل بقوله ( ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ) ليرينا أن الله تعالى لم يخلفهم مطوعين على الضلال ، ولم يكرهم عليه إكراها ، بل كان ذلك بكسبهم واختيارهم للتكذيب بآياته الله تعالى على الحق والصمود عن سبيله للوصول للرشاد ( وكانوا عنها غافلين ) لا يعطونها حقها من النظر والتدبر ، لاشتغالهم عنها بأهوائهم ، وبذلك قطعوا على أنفسهم طريق الهدى ، فالغفلة هنا : هي الغفلة للماعة لهم من أسباب العلم والفتنة الناشئة من إهمال العقول وتعطيل الأذان والسمع ، وهي اللينة في قوله تعالى من سورة الأعراف ( ولقد

ذرأنا لجهنم كثيرا من الحق والانس لم قلوب لا يفقهون بها ولم أعين لا يبصرون بها ولم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلّ أولئك هم التافلون (١٧٩) « وهي الغفلة التي يقولون عنها وهم في جهنم ( وقالوا لو كنا نسمع أو نقل ما كنا في أصحاب السعير » ١٠ ) فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير (١١) » (١) .

وقد وضعت باللسنة الله تعالى في الهداية والاضلال في كتاب [ آيات الله في الآفاق ] واستوفيت فيه كل الآيات التي لها تعلق بذلك الموضوع ، وهي مشكله القضاء والقدر التي ضلّ فيها كثير من الناس وشرحتها شرحا يوفق بين بعضها وبعض ، ويزيل ما فيها من شبه ومشاكل .

(والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) الظاهر أن الآيات في الآية السابقة هي المعجزات والبينات : من براهين عقلية وعلمية وكونية ، والآيات هنا المنزلة من حيث اشتغالها على الهداية والاصلاح ، وتركيز النفس من خرافات الشرك ، وفساد الأخلاق ومنكرات الأعمال ، ولقاء الآخرة هي ملاقات الله عز وجل والصبر إليه (واصلوا أنكم ملائكة (٢٢٣) » (٢) ) .

والمراد أن الذين كذبوا بآيات الله المنزلة بالحق والهدى وكذبوا بقاء الآخرة وما يكون فيها من الجزاء على الأعمال لا يجزون هناك إلا ما كان من تأثير أعمالهم النفسية والدنية في أرواحهم وأنفسهم من خير زكاه وأصلحها ، أو من باطل وشرّ دساها وأفسدها ، فالجزاء في الآخرة أثر للعمل مرتب عليه ترتب السبب عن السبب كأنه هو نفسه ، ولذلك ختم الآية بقوله ( هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ) وقال في سورة الأنعام (سيجزيهن وصفهن إنه حكيم عليم « ١٣٩ » ) (٣) ( واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم مجلا جسدا له خوار ) الخ في الوقت الذي توجه فيه موسى ليقاها ربه اتخذ قومه من الذهب والفضة مجلا جسدا له صوت يشبه صوت المعجل ، وذلك لانهم الوثنية وتمكن الشرك من قلوبهم ، وفي سورة طه إن الذي اتخذ لهم ذلك الخلق مجلا يصعد هو السامري ، إذ يقول ( فأخرج لهم مجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى ففسى « ٨٨ » ) .

وقد نسب الاتخاذ هنا الى قوم موسى لأنهم رضوا عمل السامري وأقرّوه وكانوا مستعدين له ولذلك نسب إليهم الاتخاذ كما نسب عقر الناقة الى قوم صالح ، مع أن الذي عقرها واحد منهم ، وكذلك نسب المعاصي والمنكرات الى القوم جميعهم إذا كانوا بها راضين ، ثم أراد أن يوضح أولئك القوم على اتخاذهم صورة مجل من الخلق ليعمدوه فقال ( ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا ) وفي سورة طه ( أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضررا ولا نفعا « ٨٩ » ) . والراد أن أولئك القوم جماعة بلغوا من السفه والحق إلى أقصى حدود الحماقة والسفه إذ يستعبدون الخلق من الذهب والفضة من نساء المصريين ثم يعطونها للسامري ليصنع لهم مجلا ويزعم أن ذلك المعجل الذي صنعه يده هو الإله الذي يستحق العبادة ، أو أنه إله موسى الذي كان يطلبه ففسى وأخذ يطلبه في طور سيناء ، ولو كان عند هؤلاء شيء من العقل لعرفوا أنه مجل مصنوع

لا يستطيع أن يكلمهم ولا يستطيع أن يهديهم سبيلا ضالوه ولا يحجبهم إذا هم خاطبوه ولا يملك ضرهم إذا خالفوه ولا قطعهم إذا أطاعوه ، ومعبود ذلك حاله لا يستحق أن يعبد بحال .

وبعد أن بين أن اتخاذ ذلك العجل معبودا سفه وحق لأنه صنع أيديهم أعاد إنكار اتخاذ وقال ( اتخذوه وكانوا ظالمين ) فأضاف اتخاذ إليهم مرة ثانية ، وأرانا أنهم كانوا ظالمين لأنفسهم بذلك اتخاذ لأنهم يرون أنه لا يكلمهم بما فيه صلاحهم ، ولا يهديهم لما فيه رشادهم ، فهم لم يتخذوه عن دليل ولا شبه دليل ، بل عن تقليد لما رأوا عليه المصريين من عبادة العجل ( آيس ) من قبل ، ولما رأوه من العاكفين على أصنام لهم من بعد ( ولما سقط في أيديهم ) وندموا على عملهم هذا ( ورأوا أنهم قد ضلوا ) بعبادة العجل ( قالوا ) وأكدوا القول ( لأنهم لم يرجعوا ربنا ويفر لنا لنكون من الخاسرين ) لسعادة الدنيا ، وهي الحرية والاستقلال في الأرض التي وعدنا بها الله تعالى ، وسعادة الآخرة ، وهي دار الكرامة والرضوان .

( ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا ) الخ .

ربنا الله تعالى أن موسى عليه السلام لما رجع من البقاع غاضبا على أخيه هارون ، وذلك أنه ضعف في سياسته لهم ، ولم يكن ذا عزيمة في خلافته فيهم ، حزننا على ما وقع منهم من الشرك وإغضب الله عز وجل ( قال بسما خلفتموني من بعدى ) أى بسما خلافة خلفتمونيها بعد ذهابي عنكم إلى مناجاة الرب تعالى ، وكان الواجب عليكم أن تخلفوني باقتفاء سيرتي ، ولكم كم خلفتموني بصداء ، إذ صنعت لكم صنما كأصنام أولئك القوم ، فعده بكم ، ولم يردكم عن ذلك سائركم ، فالتو بين عام ، وفيه تعرض بهارون عليه السلام ، وفيه من العبرة أن المصلح إذا رأى تيار الفساد قد غلب على مابذله من مجهود ، وقضى على ماخلفه هو أو غيره من أثر صالح مرضى فانه يحزن لذلك حزنا عميقا ويعمل على استرجاع ذلك الأثر ، ويحزن على من كان سببا في ذلك الفساد من قريب أو بعيد .

فهذا نبى الله موسى يعصى الأيام في دعوة القوم إلى توحيد الله تعالى ، وبدأب على محاربة الشرك والوثنية أياما وليالي ، ثم يترك أخاه هارون عليه السلام يقطع القوم في حله ولين جانيه ، فيفترس السامرى تلك الفرصة ، ويضل القوم بعمل عجل من حلى الذهب والفضة على صخورا بحيث إذا صر الهواء منه صوت كصوت العجل ، ويستقل سداجة بنى إسرائيل وجهلهم بحقيقة تلك الصنعة ، ويريه أن ذلك هو الذى ينبغي أن يعبد ، فيعود نبى الله موسى فيحزن على ذلك العمل الحزن العميق ، ويأسف غاية الأسف على إضاعة مجهوده بسبب ضعف قومه ، واستعدادهم لكل أنواع التخريف ، ثم يصنع بأخيه هارون من أنواع التعنيف والشدّة ما يصنع - كل ذلك ليرينا أنه ينبغي للؤمن أن يطمئن للإصلاح ، وأن يزعج من الوثنية والشرك كما ازعج لذلك نبى الله موسى ، وغضب على أخيه ذلك الغضب الشديد الذى جعله يندى ألواح التوراة ويلقيها من يده ، ويأخذ برأس أخيه هارون يحرقه إليه فيتألم لذلك أخوه هارون ، ويعتذر عن عمله هذا وموقفه من قومه ذلك الموقف السلبى - بأن القوم استغفوه واستلنا جانيه وقاربوا أن يقتلوه ، فلو وقف منهم موقفا إيجابيا في إنكار الشرك وعبادة العجل لكان منهم ما كان مما لا يفت عند حد .

وقد توسل إليه نبي الله هارون بأسلوب من شأنه أن يرقّ القلوب ، ويكسر من حدة الغضب ، فقال يا ابن أمّ أن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت في الأعداء ، ولا تجعلني مع القوم الظالمين يريد يا من تجعلني بك أمّ واحدة لا تجعل بتعني ومواخذتي ، فإني لم آل جهداً في الإنكار على القوم والنصح لهم ، ولكنهم استضعفوني فلم يراعوا نصحي ، ولم يمتثلوا أمرى وكادوا يقتلونني ، فلا تفعل بي من الإهانة واللعانة ما يشمت في الأعداء ، ولا تجعلني مع القوم الظالمين لأنفسهم بعبادة العجل في درجة واحدة من الغضب والمواخذة فليست منهم في شيء . هنالك (قال) موسى (رب اغفر لي ولأخي) طلب من الله أن يغفر له ما أغلظ به على أخيه من قول وفعل ، وأن يغفر لأخيه ما عساه قصر فيه من مواخذة القوم لما توقعه من إبدائهم له (وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين) وهوناء على الله تعالى يدل على مزيد الثقة في الرجاء ثم قفى على ذلك ببيان عاقبة عبادة العجل من غضب الله عليهم وذلتهم في الحياة الدنيا . وقيل : إن هذه القصة هي للسامري الذي أضلّ القوم واتخذ لهم العجل ، حيث قال له ( اذهب فإن لك في الحياة أن تقول لامس « ٩٧ » ) (١) أي لا يمسك أحد ولا تمس أحداً ، ثم قال ( وكذلك نجزي للمفترين ) أي هذه سنة الله في جزاء المفترين على الرسل في كل زمان .

ثم أراد أن يرينا أن هذه عاقبة من عمل السيئة وعكف عليها وبقى على ذلك حتى الموت ، أما من عمل السيئة ثم تاب منها وآمن فإن الله يغفر له ما قدم من سيئات ( والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ) وهو حكم عام يدخل فيه متخذو العجل وغيرهم ، ليرينا أن الذنوب وإن عظمت وجلت فإن عفوه وكرمه أعظم وأجل ، ولكن لا بد من حفظ الشريعة ، وهي وجوب النوبة والالتابة ، وما وراءه طمع فارغ ، وأتصية باردة ، لا يلتفت إليها حازم .

ثم يرينا الله أن الغضب لما سكنت عن نبيه موسى ( أخذ الألواح وفي نسخها ) أي ما نسخ منها وكتب هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبونه ويخشون عقابه وغضبه .

### موسى عليه السلام

وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا رِيقَتَنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ أَنِّي أَتَيْتُكَ بِمَا فَعَلَ الشَّقَاءُ مِنَّا لَإِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ (٢) تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (٣) وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا مُدْنَا (٤) إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَدِّعْنِي وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ

فَسَأَلَ كُتُبَهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ «١٥٦»  
الَّذِينَ يَذَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَحْدِثُونَ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ  
وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهِيهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ  
عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ <sup>(١)</sup> وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ  
آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ <sup>(٢)</sup> وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ  
الْمُفْلِحُونَ «١٥٧» قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ  
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ  
الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ «١٥٨» الأعراف

### شرح وعبرة

(١) (واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا) .

يرينا الله أن موسى عليه السلام انتخب من قومه سبعين رجلا يصحبونه لليقات الذي ضربه  
له ربه ، فلما أخذتهم رجفة الجبل الذي تجلى الله عليه عند سؤال موسى الرؤية حزن موسى ،  
وتننى أن لو أهلكهم الله قبل خروجهم مع موسى لتلك للوعد حتى لا يقول بنو اسرائيل : قد  
ذهبت بخيارنا لاهلاكهم فيقع في حرج شديد معهم ( أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ) وهم الذين  
طلبوا رؤية الله جهرة ، أو الذين عبدوا العجل ، أو كلاهما ( إن هي إلا فتنتك ) بلاؤك واختبارك  
بالأمور الشاقة تبلى بها الناس ليظهر استعدادهم وما انظروا عليه من ضلال وهداية ، تضل بهذه  
الفتنة من نشاء من عبادك ، ولست بظالم في تقديرك ، وتهدي من نشاء ، ولست بمحاجب لهم في  
توفيقك ، بل أصح مشيتك دائر بين العدل والفضل ( أنت ولينا ) متولى أمورنا والقائم علينا  
بما تكسب نفوسنا ( فاغفر لنا ) ما يترتب عليه المواخاة ، والعقاب من مخالفة سنتك ، أوالتقصير  
فبما يجب من ذكرك وشكرك ( وارحنا ) برحمتك الخاصة فوق ما شملت به الخلق من رحمتك  
العامة ( وأنت خير الغافرين ) حلما وكرما وجودا ، فلا يتعاطمك ذنب ، ولا يعارض غفرانك  
ما يعارض غفران سواك من عجز أو ضعف أو هوى نفس ( واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة )

[١] تعلم الذي يأخذ صاحبه ومحبه من الحراك لظله ، وهو مثل لثقل التكليف ، والأغلال : مثل لما  
كان في شرائهم من الأشياء العاقة .

[٢] نموه حتى لا يقوى عليه عدو من الزر والنخ ، ومنه انتعير لأنه منع من معاودة الفصح .

من العافية ، وبسط الرزق ، وعن الاستقلال والملك ، والتوفيق للطاعة ( وفي الآخرة ) بدخول جنتك ، ونيل رضوانك ، وهو كقوله ( ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » ٢٠١ ) (١) ( إنا هدنا إليك ) تبنا إليك ، وربنا مما فرط من سفهائنا .

( قال عذابي أصيب به من أشاء ) الخ : أى قد كان من سبق رحمتي غضبى أن أجعل عذابى خاصا أصيب به من أشاء من الكفار والعصاة المجرمين ، وأما رحمتي فقد وسعت كل شيء فى العالمين ، فهى من صفات القديعة الأزلية التى قام بها أمر العالم ، والعذاب ليس من صفات الله تعالى ، بل من أفعاله المرتبة على صفة العدل .

ولهذا عبر عن التعذيب بالفعل المضارع ، وعن قطي الرحمة بالفعل الماضى ، وهذه الرحمة هى العاقبة المبذولة لكل مخلوق ، ولولاها لملك كل كافر وعاص عقب كفره وجفوره ( ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا مازك على ظهريها من دابة « ٤٥ » ) (٢) . وهناك رحمة خاصة يوجبها الله تعالى ويكتفها لبعض المؤمنين المحسنين ، وما كتابته الأفضل منه ورحمة ، أما العذاب فلم يرد فى الكتاب ولا فى خبر المعصوم أن الله تعالى كتبه على نفسه ، ولكن أثبته وتوعده به ، فكان لابد من وقوعه بمقتضى ذلك الوعد ( فسأكتبها للذين يتقون ) الخ ، سأكتب رحمتي كسبة خاصة وأثبتها بمشيتي اثباتا لا يحول دونه شيء لقوم جمعوا بين أولئك الصفات الآتية .

[ أولاها ] ( للذين يتقون ) وقد حذف متعلق التقوى ليفيدنا أنهم يتقون كل ما يغضب الله تعالى من الكفر والمعاصي والمقصد على الرسل وما إلى ذلك ، وليرينا أن التقوى أصبحت عادة لهم وخلقاً من أخلاقهم ، وصاروا جديرين بذلك الوصف وهو أنهم ( يتقون ) وإذا وقعوا فى محرم من المحرمات فأنما يكون ذلك على وجه الشذوذ والندرة لأسباب وقتية تزول المعصية بزوالها ، وذلك لا يخرجهم عن كونهم من أهل التقوى .

[ ثانياً ] أنهم ( يؤتون الزكاة ) فلم يكن فى تقومهم شح بالمدل ، وخصم الزكاة بالذكر لأن فتنه حب المال تقضى بنظر الفعل والاختبار أن يكون المانعون للزكاة أكثر من التاركين لغيرها من الفرائض ، وفيه إشارة الى حب اليهود للدنيا واقتنائهم بالمال وجهه ومنع بذله فى سبيل الله تعالى .

[ ثالثاً ] ما أشار له بقوله ( والذين هم بآياتنا يؤمنون ) أى يصدقون بجميع آياتنا التى تدل على توحيدنا وصدق رسلنا تصديق إذعان منى على العلم واليقان دون التقليد الآباء وعصبية الأقوام . [ رابعاً ] ( الذين يتبعون الرسول النبى الأسمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ) والأسمى نسبة إلى الأم ، والمراد به الذى لا يقرأ ولا يكتب ، وكان أهل الكتاب يسمون العرب بالأميين ( ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل « ٧٥ » ) (٣) ( هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم « ٢ » ) (٤) ولم يقل أن الله تعالى بعث نبيا أميا غير نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فهو وصف خاص لا يشارك محمدا صلى الله عليه وسلم فيه أحد من النبيين ، والأمية آية من آيات نبوته فانه جاء بعد النبوة بأعلى العلوم النافعة ، وهو ما يصلح مافسد من عقائد البشر ، وأخلاقهم



وآدابهم وأعمالهم وأحكامهم ، وعمل بها ، فكان لها من التأثير في العالم ما لم يكن ولن يكون من خلق الله .

وقوله ( الذى يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل ) معناه الذى يجدون صنته ونعته مكتوبة عندهم في التوراة والانجيل بحيث لا يشكون أنه هو ، وقوله ( عندهم ) لزيادة التقرير وبيان أن شأنه عليه السلام حاضر عندهم لا يغيب عنهم ، وقوله ( يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ) استئناف لبيان أهم ما يحتاجون إليه عند بعثه . والمعروف ما تعرف العقول السليمة حسنه ، وترتاح القلوب الطاهرة له لنفعه وموافقته للفطرة والصلة ، بحيث لا يستطيع العاقل النصف أن يردّه أو يعترض عليه ، والمنكر ما تنكره العقول السليمة وتنفر منه القلوب وتأناه .

قال الحافظ ان كثير هذه صفة الرسول صلى الله عليه وسلم في الكتب للتقدمة ، وهكذا كانت حاله لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر كما قال عبد الله بن مسعود : إذا سمعت الله يقول ( يا أيها الذين آمنوا ) فارعها سمعتك فانه خير تؤمر به أو شر تنهى عنه .

ومن أهم ذلك وأعظمه ما بعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له ، والنهي عن عبادة ما سواه كما أرسل به جميع الرسل قبله كما قال ( وأقد بعثنا في كل أمة رسولا أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » (١) ) .

وروى الامام أحمد بسنده إلى أبي حنيفة وأبي أسيد رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ( إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم ، وتلين له أشعاركم وأبشاركم ، وترون أنه منكم قريب فأنا أولاكم به ، وإذا سمعتم الحديث عنى تنكره قلوبكم ، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم بعيد فأنا أبعدكم منه ) رواه أحمد بأسناد جيد ، وقوله ( ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ) بيان لصفة أخرى من صفات ذلك النبي . والطيب ما نستطيع الأذواق من الأطعمة وتسفيد منه التغذية النافعة ، ومن الأموال ما أخذ بحق وتراض في المعاملة . والخبث من الأطعمة تمنعها الطباع السليمة وتسقنفره ذوقا كالميتة والدم السفوح ، أو تصد عنه العقول الراجعة لضرره في البدن كالخنزير الذى تتوله منه البودة الوحيدة - أولضرره في الدين كالذى يذبح للتقرب به الى غير الله تعالى على سبيل العادة ، أى لا ما يذبح لتكريم الضيفان ، والذى يحرم ذبحه أو أكله لتفريع باطل لم يأذن به الله كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامى . والخبث من الأموال ما يؤخذ بغير حق كالربا والرشوة والسرقة والخبانة والنصب والسحت ، وقوله ( ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ) تمثيل لثقل تكليف بنى اسرائيل وصعوبته كاشتراط قتل الأنفس في محبة توبتهم ، وهو يشير الى أنهم كانوا فيما أخذوا به من الشقة في أحكام التوراة من العبادات والمعاملات الشخصية والمدنية والعقوبات كالذى يحمل أثقالا يثبط بها ، وهو مع ذلك موثق بالسلاسل ، والأغلال في عنقه ويديه ورجليه ، فجاءت الشريعة المحمدية بالتييسر والسماحة كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « بعث بالحنيفية السمحة » وقال صلى الله عليه وسلم لأمرية : معاذ ، وأبى موسى الأشعرى لما بعثهما الى اليمن « بشروا ولا تنفروا

ويسروا ولا تصروا وتطاولوا ولا تختلوا) رواه الشيخان وغيرهما ثم ختم الآية بقوله (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون) .

واللغنى أن الذين يؤمنون بالرسول النبي الأمي عند مبعثه من قوم موسى ومن كل قوم ، ويعزروه ، بأن ينعوه ويحموه من كل من يعاديه مع التعظيم والجلال ، لا كما يحمون بعض ملوكهم مع الكره والاشتماز ، ونصروه باللسان والسنان ، واتبعوا النور الأعظم الذي أنزل مع رسالته وهو القرآن ، أولئك هم المفلحون الفائزون بالرجة العظمى والرضوان .

ولعل في الآيات السابقة عبرة لقوم اعتمدوا على سعة رحمة الله تعالى ، وغفلوا عن عدله وحكمته اعتمدوا على قوله (ورحمتي وسعت كل شيء) وما دروا أن تلك الرحمة هي الرحمة التي تشمل المؤمنين والكافرين ، والبر والفاجر ، كما تشمل الانسان والحيوان والأنجم ، وتشمل الموات والحشرات فهي جميعها في رحمة الله تعيش ، فمن رحمة بهم أن سخر لهم الرزق ، ومنهم بالصحة ، وأمدم بالعاية وصورهم فأحسن صورهم ، وهداهم كيف يعيشون في هذه الحياة ، وكيف يتعلمون ، كل ذلك رحمة من الله بنى الانسان .

أما الرحمة الخاصة التي يمتاز بها المؤمن فقد كتبها على نفسه فضلا منه وإحسانا (الذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون) الى آخر الآيات ، وما كتبها لفاجر أو فاسق ولا لبخيل شحيح ، كتبها لقوم يتقون الرسول النبي الأمي الذي بشرت به التوراة ، وأخبر به الانجيل ، الذي يأمرهم بما تعرفه قلوبهم ، ويهاهم عما تنكره فطرتهم ، ويحل لهم الطيب ويحرم عليهم الخبيث ، ويضع عنهم أثقلمهم من التكاليف الشاقة .

ثم ختم الآية بذلك المحصر الخفيف وقال (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون) ولا فلاح لغير هؤلاء ممن صرنا على العصيان ، ونعقدوا الفسوق والفجور ، وهي آية ما أشدها على نفوس أرباب الشهوات ، وما أقساها على قلوب المنهائين بأوامر الله تعالى ونواهيه ، وكان على الذين يمنون أنفسهم بقوله (ورحمتي وسعت كل شيء) أن لا يفتلوا عن الآية التي تليها ليعلموا أن أصحاب أولئك الصفات هم الذين كتب الله على نفسه لهم الرحمة ، وقضى لهم بالفوز والملاح .

ولعل وعظما اليوم يفتنون لذلك النوع من الاغراء على المعاصي ، وتهوين المنكرات على الناس - لعلهم يفتنون لذلك ، ولا يقفون من الناس موقف البشر برضوان الله ورحمته خصب ، وإنما يقفون مبشرين ومنذرين ، مبشرين برحمته ، مخوفين من بطشه وعذابه ، مذكرين بقوله سبحانه وتعالى (يأيها عبادي أني أنا الغفور الرحيم «٤٩») وأن عذابي هو العذاب الأليم «٥٠» (١) فهو واسع الرحمة ، ولكنه لا يضعها إلا في الوضع الذي يستحق ، والمكان الذي يذوق أن تكون فيه ، فانه حكيم والشأن في الحكيم أن يكون كذلك ، وقد بين الله ذلك الموضع بقوله (فأكتبها للذين يتقون) الى آخر الآيات .

(٢) قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا .

هذا خطاب عالم لجميع البشر من العرب والعجم ، وجهه إليهم محمد بن عبد الله النبي العربي بأمر الله تعالى ، يفتهم به أنه رسول الله تعالى إليهم كافة ، لا إلى قومه العرب خاصة ، كما زعمت العيسوية من اليهود فهو كقوله (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون « ٢٨ » (١) ) وقوله (وأوحى إلى هذا القرآن لأذكركم به ومن بلغ « ١٩ » (٢) ) أي وأنذر به كل من بلغه من الثقلين ، فمن قال انه يؤمن برسالة الى العرب خاصة لا يعتد بإيمانه لأنه مكذب لهذه النصوص العامة القطعية ، وما في معناها كقوله تعالى (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا « ١ » (٣) ) وقوله (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين « ١٠٧ » (٤) ) . ثم وصف الله عز وجل نفسه في هذا المقام بتوحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ، وبالأحياء والاماتة فقال (الذي له ملك السموات والأرض لإله إلا هو يحيي ويميت) وبني على ذلك الدعوة الى الايمان على طريق التفريع (فآمنوا بالله ورسوله النبي الأتي) ليلفت النظر الى تلك المعجزة الظاهرة معجزة الأنبياء (الذي يؤمن بالله وكلماته) أي يؤمن بما يدعوكم إليه من توحيد الله تعالى ، وكلماته التشريعية التي أنزلها لهداية خلقه ، وهي مظهر علمه وحكمته ورحمته ، وكلماته التكوينية التي هي مظهر إرادته وقدرته .

وبعد أسرم بالإيمان أسرم بالاسلام فقال (واتبعوه لعلمكم تهتدون) أي رجاء اهتدائكم بالإيمان واتباعه لما فيه سعادتك في الدنيا والآخرة .

وهنا نكتة لطيفة : هي أنه قال في صفة الرسول صلى الله عليه وسلم (واتبعوا النور الذي أنزل معه) وهنا قال (واتبعوه لعلمكم تهتدون) فان تلك في اتباع القرآن خاصة ، وهذه تشمل اتباعه صلى الله عليه وسلم في العمل بالقرآن ، كاتباعه في صفة الصلاة وكيفيتها ، وعدد أوقاتها ، ومصراتها وجهرها وطولها وقصرها وما الى ذلك ، واتباعه في صفة الحج ، وصفة بقية العبادات التي أجعلها القرآن وبينها الرسول صلى الله عليه وسلم من طريق العمل كما يشمل اتباعه في اجتهاده واستنباطه من القرآن الذي أقره الله عليه إذا كان تشريعا - كتحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها قياسا على الجمع بين الأختين المنصوص في القرآن .

والتشريع : إما عبادة أسرنا بالتقرب الى الله تعالى بها وجوبا أو ندبا ، وإما مفسدة نهينا عنها اتقاء لضررها في الدين كدعاء غير الله فما ليس من الأسباب التي يتعاون عليها الناس ، وكأكل المذبح لغير الله ، أو لضررها في العقل أو الجسم أو المال أو العرض أو المصلحة العامة ، وإما حقوق مادية أو معنوية أسرنا بأدائها الى أهلها ، كالوارثات والنفقات ، ومعاشره الأزواج بالمعروف ، أو أسرنا بالانزاهة لنسبط المعاملات كالوفاء بالعقود .

وليس من التشريع الذي يجب فيه امتثال الأمر ما لا يتعلق به حق لله تعالى ولا خلقه ، لا جلب مصلحة ولا دفع مفسدة ، كالعبادات والصناعات ، والزراعة والعلوم والفنون المبنية على التجارب والبحث ، وما يرد فيها من أمر ونهي يسميه العلماء إرشادا لا تشريعا إلا ما ترتب عليه وعيد كلبس الحرير .

وقد ظن بعض الصحابة أن إنكار النبي صلى الله عليه وسلم لبعض الأمور الدنيوية المبنية على التجارب للتشريع كتقليح النخل ، فامتنعوا عنه فخرج عمر ردينًا بإيسا ، فراجعوه في ذلك فأخبرهم أنه قال ما قال عن ظن ورأى لا عن تشريع ، وقال لهم « أتم أعلم بأمس دنياكم » كما ورد في صحيح مسلم ، وحكمته تنبيه الناس إلى أن مثل هذه الأمور الدنيوية والمعاشية لا يتعلق بها لغاتها تشريع خاص ، بل هي متروكة إلى معارف الناس وتجاربهم .

وكانت الصحابة يراجعون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يشق عليهم أهو من رأيه صلى الله عليه وسلم واجتهاده الدنيوي ، أو بأمر من الله تعالى ؟ وإن لم يكن تشريعاً كسؤاله عن الوضع الذي اختاره للنزول فيه يوم بدر ، قال له الحباب بن النذر رضى الله عنه : أهدأ منزل أتركه الله ليس لنا متقدم عنه ولا متأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ فلما أجابه بأنه رأى لا وحى وأن العول فيه على للصلحة ومكايد الحرب أشار بغيره فوافقه صلى الله عليه وسلم .

ومنه يعلم أنه لا يدخل في باب التشريع مثل حديث « كلوا الزيت وادهنوا به فإنه طيب مبارك <sup>(١)</sup> » بل هو من أمور العادات ، بخلاف حديث « كلوا لحوم الأضاحي وادعروا <sup>(٢)</sup> » فإن الأضاحي من النسك ، والأكل منها سنة ، فأمر المضحي به للندب ، وادعارها جائز له ، ولولا الأمر به لظن نحرجه أو كراهته لملاقاة الأضاحي بالعيد ، فهي ضيافة الله تعالى للمؤمنين في أيام العيد ، وكذلك ليس من باب التشريع ما ورد في الشيب من صبغه بالسواد ، بل هو من الأمور العادية المتعلقة بالزينة المباحة ، إذ لا تعبد فيه ولا حقوق لله ولا للناس .

### موسى عليه السلام

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ «١٥٩» وَقَطَعْنَهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا <sup>(٣)</sup> أَمَّا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ <sup>(٤)</sup> مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَلْنَا عَلَيْهِمُ الْقَوْمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنِّ <sup>(٥)</sup> وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ «١٦٠» وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ <sup>(٦)</sup> وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَتَقَرَّ لَكُمْ حَظِيَّتِكُمْ سَتَرِدُ الْإِحْسَانِ «١٦١» فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ

[١] رواه أحمد . [٢] رواه أحمد والحاكم . [٣] فرقا وجماعات .

[٤] انضبرت . [٥] مادة يضاء تنزل من السماء كالظل ، حلو الطعم تشبه العسل ، وإذا جفت .

تكون كالصنع ، وهو التزجيج ، والسوى : طيب الشأن للمروء . [٦] الدعاء بأن يحط عنهم خطاياهم .

الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾  
وَسَلَّمْنَاهُمْ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً <sup>(١)</sup> الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ  
حِثَابُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّامًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا  
يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ  
عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا  
مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ  
بَئِيسٍ <sup>(٢)</sup> بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا <sup>(٣)</sup> عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ  
كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ <sup>(٤)</sup> رَبُّكَ لِيَبْعَثَ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ  
مَنْ يُسَوِّمُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٧﴾  
وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ <sup>(٥)</sup>  
بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ تَخَلَّفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا  
الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ <sup>(٦)</sup> هَذَا الْأَذَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ  
مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ  
وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالذَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ  
يُمَسِّكُونَ <sup>(٧)</sup> بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾  
وَإِذْ تَقْنَا <sup>(٨)</sup> الْجَبَلَ فَوَاقِهِمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ  
بِقُوَّةٍ وَادَّكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ الأعراف

[١] قرية منه « يدون » يجاوزون حكم الله بالصيد المحرم عليهم فيه « سبتهم » لعنايتهم لميت  
« عرما » ظاهرة على وجه الماء . [٢] شديد من البأس ، وهو الشدة ، أو البؤس ، وهو السكروه .  
[٣] تكبروا « خاسين » : صاغرين أدلاء . [٤] أعلم صيغة فعل ، من الإيذان وهو الإعلام .  
[٥] اختبرناهم : [٦] عرض هذا الخطام الحقيق من متاع الدنيا كالهدية والرشا .  
[٧] يمسكون به في جميع أحوالهم وأوقاتهم . [٨] رفعتاه أو زلزلته ، وهو مرفوع فوقهم مظل لهم ،  
من فوق السماء : هذه وهضمة ليخرج منه الزلزلة .

## شرح وعبرة

(١) (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) .

لما بين في الاستطرد السابق كتابه رحته الخاصة للذين يقبعون محمدا صلى الله عليه وسلم من قوم موسى وعيسى عليهما السلام وقال فيهم (أولئك هم المفلحون) قفى على ذلك بيان أن من قوم موسى طائفة تهدى الناس بالحق الذى جاءهم به من عند الله ، ويعدلون به إذا حكموا بين الناس لا يقبعون فيه الهوى ، ولا يأكلون السحت والرشا .

والظاهر أن هؤلاء ممن كانوا في عصره وبعد عصره ، فان الأمم العظيمة لتأخلو من أهل الحق والعدل ، وهذا من بيان القرآن للحقائق ، وعدله في الحكم على الأمم ، كقوله (ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما « ٧٥ » ) (١) ولا ينفى ذلك قوله (يهدون - يعدلون) المفيدة للحال ، لأن أمثاله مما حكى فيه حال الغابرين وحدهم بصيغة المضارع كثير ، فهو لتصوير الماضى في صورة الحاضر . وقال بعض المفسرين : الراد بهؤلاء من آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم من علماء أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه ، ولكن الآية ليست صريحة في هذا ، بل السياق ينافيه لأنها جاءت بعد بيان حال الذين يؤمنون به صلى الله عليه وسلم ، والصريح في ذلك النوع مثل آية آل عمران (وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم « ١٩٩ » . والآيات في خيار أهل الكتاب أنواع :

[ الأول ] ما هو صريح في الذين أدركوا النبي صلى الله عليه وسلم وآمنوا به ، وقد أئنت عليهم قبل الايمان به وبعده ، كقوله تعالى (الذين آتيناكم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به « ١٢١ » ) (٢) وقوله (الذين آتيناكم الكتاب من قبله هم به يؤمنون « ٥٢ » وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين « ٥٣ » أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا (٣) .

[ الثانى ] ما كان صريحا في الذين كانوا في عهد موسى عليه السلام واستقاموا معه ، ثم في عهد من بعده من أنبيائهم إلى عهد البعثة العامة قبل بلوغ دعوتها كالآية التي نحن بصدد تفسيرها . [ الثالث ] المحتمل للقسامين كقوله تعالى (من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون « ١١٣ » يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويبارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين « ١١٤ » وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين « ١١٥ » ) (٤) .

والعبرة في الآية التأسى بالقرآن الكريم في بيان الحقائق وعدله في الحكم ، فالرجل الذى اتخذ القرآن إماما له ، ونورا يهتدى به يتأشى به في حكمه على الأفراد والشعوب ، فلا يسرف في المدح

[١] آل عمران . [٢] البقرة . [٣] القصص . [٤] آل عمران .

أو النعم ، ولا يتنالى في بيان التاريخ .

ألا ترى القرآن يقول في أهل الكتاب (ونسوا حظا مما ذكرنا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحبّ المحسنين « ١٣ » ) (١) .

وإذا سمعت هذه القصة من رجل لم يتهذب بتهذيب القرآن ، ولم يتأدّب بأدبه ، تجد منه الأساليب الخطابية ، والمؤثرات الشعرية ، وتجده يبالغ في تحريف أولئك لديهم ، وإهالهم لتأليمهم حتى ليخيل إليك أن ما بقي من دينهم بدون تحريف لا يبلغ عشر مئتمرا أصاعوه ، ثم تراه يقول (إلا قليلا منهم) ليريك أن الفساد لم يكن عامًا فيهم بل كان فيهم فريق قليل على صلاحه ورشده . فالقرآن يرينا أنه لا يصح أن نحمّلنا المصيبة للدين أو الكتاب على أن ندمط أهل الكتاب حقهم أو نبخسهم أشياءهم ، وإنما الواجب على المؤرخ أن يذكر ما لهم وما عليهم ، ولا أدلّ على اهتمام القرآن بالعدل في الأحكام من قوله (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعملوا عدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خير بما تعملون « ٨ » ) (٢) .

(٢) (وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا أمما) .

يعتق الله تعالى على بني إسرائيل أن جعلهم الله أسباطا وجاعات يمتاز كل منها بنظام خاص في معيشته وبعض شؤونه ، وللشهور في معنى السبط أنه ولد الولد ، وقد خصّ بولد البنت ، وأسباط بني إسرائيل : سلال أولاده العشرة ، فالأسباط بيان للفرق والقطع التي هي أقسام بني إسرائيل كما سميت الفرق في العرب بالقبايل ، والأسم بيان للراد من معنى الأسباط الاصطلاحي ، والأمة : الجماعة التي تؤلف بين أفرادها رابطة أو مصلحة واحدة أو نظام واحد .

والمراد أن الله تعالى يعتق عليهم بأن كثرتهم وجعلهم أمما وشعوبا ، فكان عليهم أن لا يقابلوا هذه النعم بالكفران ، بل يقابلوها بالشكر .

ثم يعتق عليهم بأنه أوحى إلى نبيه موسى عليه السلام حين طلب قومه منه السقيا أن يضرب بعصاه الحجر فتنبجرت منه اثنتا عشرة عينا ، وقد عرف أناس كل سبط المكان الذي يشربون منه ، إذ خصّ كلا منهم بعين لا يأخذ الماء إلا منها ، لما في ذلك من النظام واتقاء ضرر الزحام ، وهي نعمة أخرى فوق نعمة الماء .

ثم سخر عليهم الغمام يلقي عليهم ظله فيقيهم لفتح حرارة الشمس من حيث لا يحرمون فائدة نورها ، وحرها المعتدل .

ثم أزل عنهم اللق والسوى ، وقال لهم (كلوا من طيبات ما رزقناكم) ولكنهم ظلموا بالكفر بهذه النعم ، وبمحدود آيات الله تعالى وشؤم ظلمهم عائذ إليهم ، ولا يعود على ربهم وخالقهم منه شيء ، ولذلك يقول (وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) .

ثم يذكرهم الله تعالى حين أسرهم بسكنى قرية معروفة لهم وأن يأكلوا منها حيث شاءوا من أنواع النعيم ، وأن يدخلوها خاشعين خاضعين داعين أن يحطّ عنهم خطيئهم ، ووعدهم أن سيزيد

المحسنين نعيما الى نعيمهم ، غفلوا أمر الله تعالى خلافا لا يقبل التأويل حتى كأنه قيل لهم غير الذى قيل ، فأرسل الله عليهم عذابا من السماء (بما كانوا يظلمون) .

وقال فى سورة البقرة (فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون «٥٩» ) وهو يرينا أن العذاب كان خاصا بالذين ظلموا ، لاعلماء ، ومجموع الآتين ربما أنهم كانوا جامعين بين الظلم الذى هو قصص للحق أو إيذاء للنفس أو الغير ، وبين الفسق الذى هو الخروج عن الطاعة ولو فى غير الظلم للنفس أو للناس .

والعبرة فى ذلك أن تتق الظلم والفسق ، ونعلم أن الله تعالى يعاقب الأمم على ذنوبها قبل الآخرة ، وأنه عاقب بنى اسرائيل على ذنوبهم ولم يحل دون عقابه ما كان لهم من المزايا والفضائل وكثرة وجود الأنبياء فيهم .

(٣) (واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر ) الخ ، وهو تفصيل لقوله فى سورة البقرة (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت) يخاطب بها علماءهم ، والخطاب فى قوله (واسألهم) لمحمد صلى الله عليه وسلم ، والسؤال فيه للتقرير المتضمن للتقريع ، والادلاء بعلم ماضيهم ، يريد واسأل بنى اسرائيل عن أهل المدينة التى كانت حاضرة البحر قرية منه رابكة نشاطه ، إذ يتجاوزون حكم الله بالصيد المحرم عليهم فيه (إذ تأنيبهم حينانهم) يوم تعظيمهم للسبت ظاهرة على وجه الماء (ويوم لا يسبنون لأتانيهم) .

قيل : إنها اعتادت أن لا يعترض لها أحد لصيدها يوم السبت فأمنت وصارت تظهر فيه ، وتخفى فى الأيام التى لا يسبنون فيها لما اعتادت من اصطيدائها فيها ، فلما رأوا ظهورها وكثرتها فى يوم السبت أغرام ذلك بالاحتيال على صيدها ففعلوا ( كذلك نبأهم ) مثل ذلك البلاء بظهور السمك لهم نبأهم ونخبهم (بما كانوا يفسقون) بسبب فسقهم عن أمر ربهم واعتدائهم حدود شرعه .

(٤) (وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة الى ربكم ولعلمهم يتقون) أى واسألهم عن حال أهل القرية فى الوقت الذى قالت أمة وجاعة منهم (لم تعظون قوما) الخ والآية تدل على أن الذين كانوا يعدون فى السبت بعض أهل القرية لا كلهم وأن أهلها كانوا ثلاث فرق : فرقة العادين التى أشير إليها فى الآية الأولى ، وفرقة الواعظين الذين نهوا العادين عن العدوان ووعظوهم ليكفروا عنه ، وفرقة اللاتمين للواعظين التى قالت لهم : لم تعظون قوما قضى الله عليهم بالهلكة أو العذاب الشديد ، فهو إما مهلكهم بالاسهصال أو بعذاب شديد دونه ، أو مهلكهم فى الدنيا ومعذبهم فى الآخرة .

والآية ترينا أن الأمة قد تسرف فى العدوان ، وتمادى فى الباطل ، وتغلب عليها الشهوات ججع حواسها ومشاعرها ، فيقل أمل الواعظ فيها ، وتغلب عليه روح اليأس ، وكثيرا ما يحسن المصلح ذلك الاحساس ، ويشير ذلك الشعور ، ولا سيما إذا رأى الفساد قد شمل الخلاصة والأمة ، ولم يدع فريقا من الأمة بدون أن يقرب إليه ، وخاصة العلماء الذين هم من الأمة بمنزلة الرأس من الجسم .



إذا رأى المصلح أن أولئك القوم جرفهم تيار الفساد ، فاندمجوا مع العامة في الشهوات وللأشياء وشابهاوا الجاهل من الناس في الملاءة والنفاق ، وأصبحوا يداجون ويداورون ، وجاء عرض من أعراض هذه الحياة ، ومتاع زائل .

إذا رأى المصلح ذلك فانه يحزن الحزن كله ، ويبأس اليأس كله ، ويستم لذلك القم كله ، وحين ذاك يقول في نفسه : ماذا أصنع وماذا يصنع المصلح ؟ أ يصلح العامة أو الخاصة ؟ يصلح الرأس أو الجسم ؟ وما سبيل ذلك الإصلاح ؟ وكيف يستطيع اصلاح العامة ، والخاصة قد ضربوا لهم الأمثال السيئة في الرذيلة ، وعبدوا لهم طريق الشهوات ، وهوتوا عليهم للنكرات ، وجروهم على ما لا ينبغي من المحرمات ؟ وكذلك يحزن المصلح حين يرى ولاء الأمور وأصحاب الحول والطول ، وذوى النفوذ والسلطان من الأمة ، قد فسدوا الى حد بعيد ، وتجاهروا بذلك الفساد ، فلا يبالون بأن يهصى الرجل منهم على رموس الشهداء ، ولا يستنصكف أن يغضب الله تعالى على مسمى من الجاهل .

والشأن في الناس أن تكون على دين رؤسائهم وأصحاب السلطان فيهم ، يفسدون بفسادهم ويصلحون بصلاحهم ، يتأسون بهم في الخير والشر ، ويقتدون بهم في كل عمل .

إذا رأى المصلح الفساد قد تغلغل في جميع طبقات الأمة ولم يدع فريقا منها بدون أن يصل إليه ضعفت عند ذلك نفسه ، وتسرب إليه اليأس ، فيأخذ في التحدث الى نفسه ، ما فائدة الوعظ ، وما غاية الارشاد ؟ وما هو الأمل في ذلك العمل الذي لا يجدي ولا يفيد .

يربنا الله تعالى بهذه الآية الكريمة أن طاعة من أهل القرية قد استولى عليها اليأس ، وانقطع فيها الأمل في صلاح من معهم من الذين يعدون في السبت ، فأخذت تنكر على الواعظين وعظهم وعلى المصلحين اصلاحهم وتقول لهم ( لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا ) وما فائدة الوعظ وما قيمة الارشاد ؟ فكان جواب الواعظين ( معذرة الى ربكم ) نعظهم وعظ عنر نعظ به الى ربكم عن السكوت عن السكر وقد أمرنا بالتناهي عنه ( ولعلمهم يتقون ) رجاء في انتفاعهم بالوعظة ، وحلا لهم على اتقاء الاعتداء الذي اقترفوه ، أي فنحن لم نياس من رجوعهم الى الحق .

وفي هذا بيان لما ينبغي أن يكون عليه الواعظ ، ينبغي له أن لا يياس من الإصلاح ، وأن يعلم أن الوعظ أثره وغايته في النفوس ، وإن كانت الغاية متفاوتة بمقدار استعداد النفوس للوعظ وتأهبها للتأثر به .

فن الخوس ما هو مستعد للإصلاح استعدادا قريبا ، فإذا وصل وعظ للمصلح الى ذلك الصنف ، فإن النفوس تستفيد من الوعظ في الحال ، ومنها ما هو مستعد له استعدادا بعيدا ، ولا غنى للواعظ عن الصبر على ذلك النوع من النفوس ، وإذا لم يجن هو ثمرة ذلك الوعظ فسيجنيه من بعده من المصلحين .

ومن الجهل أن يعتقد الواعظ أن ثمرة وعظه لابد أن يجدها في الحال ، وما مثل الواعظ إلا كفلاح يصلح الأرض ويعدها للزراعة والانبات ، والأرض معادن ، فيها الصالح الذي يجني ثمرة بمجرد وضع البذر فيه ، ومنها غير الصالح الذي يحتاج الى زمن طويل ، فإذا لم يجد الزارع ثمرة

ذلك النوع الآن فيسجد من بعده ، وكلّ مجهود يقوم به الزارع في الأرض لا يضيع ، وكذلك الواعظ والصلحون ، فكثيرا ما انتفع الواعظ باصلاح من سبقه ومجهد من تقدمه ، وكثيرا ما اصطدم الواعظ بافساد من سبقه ، وكتمان من تقدمه ، ولا أدلّ على ذلك من احتجاج العامة بسكوت العلماء السابقين ، وغفلة فريق منهم عما أوجبه الله عليه من بيان الدين للناس ، فكلم سمعنا منهم : قد كان فينا الشيخ فلان والشيخ فلان ولم نسمع منهم ذلك ، ولم ينكروا علينا ما نكروا ، وهل لذلك من معنى سوى تأييد ما قلنا من أن ترك الناس بدون اصلاح مدعاة لموت نفوسهم ، وقسوة قلوبهم ، وتسلب الشهوات عليهم ، وأن تعهدهم بالوعظ يخفف من وطأة الساد ، ويقلل من قيمة الشهوات ، ويضعف من سلطان الباطل ، وأن تجاوب الأصوات بالوعظ والارشاد ضرورة من ضرورات الأئمة ، وحاجة من حاجات البشر ( لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيم ١٦٥ » (١) .

إذا لاحظ الواعظ ذلك كله ، فإن اليأس لا يجد الى نفسه سبيلا ، وأقرب فائدة للوعظ أن يكون حجة على أفسار الباطل ومحباب الشهوات ، وأن يكون قد قام بما أوجبه الله عليه من انكار النكر وتقييح شأنه للناس وأن يكون وعظه عدّة لغيره من الصالحين فيما يستقبل من الزمان ونكّاة يعتمد عليه من يجيى بعده ممن يريد الاصلاح . ويهجنى ما حكى عن بعض الزارع أنه مرّ به رجل فوجده يزرع نوعا من الأشجار لا يمر إلا بعد مائة سنة فقال له لماذا تزرع وأنت واثق من أنك لا تجني ثمرته ؟ فقال له الزارع : قد زرعه آباؤنا فجنبنا ونحن نزرعه ليجني آباؤنا .

وما أحسن قول الله تعالى حكاية عن أولئك الواعظين (معدرة الى ربكم) وعلى الواعظ أن يكثر من تبرير هذه الكلمة حتى يخرج بلحمه ودمه ، فيؤدّي واجبه في الوعظ امتثالا لأمر الله تعالى ، وثقة بأنه أدرى بمصالح الناس ، وما يعود عليهم بالخير ، وأنه أعلم منا بفائدة الوعظ ، والدعوة الى الله تعالى ، وأنها ركن ركين من أركان الدين لا يستقيم أمر الناس بدونها ، ولذلك أوجب على الأئمة أن يكون منها طاقة تدعو الناس الى الخير وتأمّره بالمعروف وتنهيه عن النكر ، وأنه إذا فقدت هذه الطاقة صارت الناس فرقا وشيعا ، فينحاز كلّ فريق لشهوته ، ويتعصب لهواه ( ولتكن منكم أئمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن النكر وأولئك هم المفلحون » ١٠٤ ) ولا نسكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » ١٠٥ » (٢) .

وقوله (ولعلمهم ينقون) رجاء من الواعظين في أن أولئك القوم ينتفعون بتلك الموعظة كلهم أو بعضهم ، فقد يكون في الطاقة الفاسدة أفراد صالحون أو مستعدون للصلاح ، فخرمانهم من الوعظ خسارة كبرى على المستعد .

وما دام هناك احتمال أن طاقة تستفيد من الوعظ فلا بأس ، وهو ظاهر إذا كان الوعظ موجها لأئمة وطائفة ، أما إذا كان الوعظ موجها لشخص معين فإن الواعظ متى عرف بالاختبار من ذلك الشخص أنه ليس مستعدا للوعظ ، ولا متأهبا للتذكر فليس عليه بأس من ترك وعظه .

وإلّا ذلك هو محل قول الله تعالى ( فذكر ان تنفع الذكرى «٩» )<sup>(١)</sup> فشرط في التذكير أن تنفع الذكرى ، أما إذا لم تنفع فهي من العبث .

وهناك من فوائد الوعظ عدا ما تقدم حاية المؤمنين من الفساد ، ووقايتهم من الشر ، فهو بمثابة الحيلولة بين السلام والأجوب حتى لا يعديه الجرب فيصبح الكل مريضاً ، فإذا لم يقد الوعظ في تكثير سواد الأنحاء فهو يحمى في وقوف المرض وعدم انتشاره ، فان العدوى الخلقية أسرع من عدوى الأجسام ، والتأثر بأرباب الشهوات والأهواء أضعاف التأثر بالمصابين بالأمراض الجسمية ، وكلّ إنسان مستعد لأن يتأثر بالخير والشر استعداداً قريباً أو بعيداً ، فإذا سمع الصنف الصالح من الأمة الوعظ ، وتمهده المسلحون بالارشاد فان ذلك يكون وقاية له من التطلع لأرباب الشهوات والانتعاس معهم .

ومن أجل ذلك أوجبت الشريعة الاسلامية الوعظ على الناس في كلّ أسوع مرة عدا للواعظ التي يتبرع بها فريق من الأمة ، وكثيراً ما نرى في البيت الواحد الصالح والطالح ، و نرى صراخاً بينهم في صلاحهم وفسادهم ، نرى الصالح في البيت يمثل قول الواعظ وعمله ، ويحاول أن يظفر بأخيه الفاسد فيفسله من هدة الفسق ، ويذهب به الى حيث يذهب الصالحون المؤمنون .

ونرى صاحب الشهوة مغرماً باللهو والخلاعة ، تجري كلمات اللهو على لسانه ، وتظهر خفة الطيش على جوارحه ، وهو في طريقه هذا يحاول أن يضمّ إليه أخاه ويكسب صاحبه ، ولا يزال بينهما ذلك الصراع ان ظاهراً وان خفياً حتى يتقلب القوى على الضعيف سنة الله في كلّ صراع فإذا لم يحسن الوعاظ من وعظهم سوى حاية المؤمنين والحيلولة بينهم وبين الشهوات ، فلنا فائدة كبرى ، وغاية من أجل الغايات ، فكيف إذا كان وراء ذلك إعداد النفوس للصلاح ، وجعلها مهياً للرشاد ، وإقامة الحجة على أرباب الشهوات والمعاصي ، وإظهار هذه الطائفة بمظهر لا يليق بالاعل ولا يقاب مع الكرامة ، وبيان أن حياة الناس العنوية والمادية في طاعة ربهم ووقوفهم عند مآرسمهم ، وأن الفلّ كلّ الفلّ في أن يكون الناس كالبهائم لا يعينهم إلا أمل بطونهم وقضاء شهواتهم ، وأن الانسان قد أعدّه الله بما هيأ له حياة وراء هذه الحياة ومعيشة أرقى من تلك المعيشة ، ولا يستطيع الوصول الى تلك الحياة العالية الابتركية نفسه وطهارة روحه ، وإنما يكون ذلك كله بالدين الصحيح والعلم النافع .

وجلة القول أن اليأس من الشيطان ، فإذا تسلط عليك أيها الواعظ فخاربه بما تستطيع وقاومه بكلّ ما أوتيت من قوة ، وقم بما أوجبه الله عليك من وعظ وارشاد ، ودع ما لا تستطيع من هداية القلوب لخالقها وبارئها فهو القوي بصرها كما يريد ويقلبها كما يشاء ( وإما يترغّبك من الشيطان نزع فاعتد بالله انه سميع عليم «٢٠٠» )<sup>(٢)</sup> .

(٥) فلما نسوا ما ذكروا به أعجبتهم قوم ينهون عن سوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئس بما كانوا يفعلون) فلما نسي العادون في السبت المذنبون ما ذكروا به ووعظهم به اخوانهم المتقون ، بأن تركوه وأعرضوا عنه حتى صار كالشيء للنسي في كونه لا تأثير له ، أعجبنا الواعظين

من العقاب الذى استحقه فاعلوا سوء ، وأخذنا الذين ظلموا وهدم بعباد شديد .  
وانظر الى قوله ( بما كانوا يفسقون ) لتعرف أن زول العذاب بهم سببه فسقهم المستمر  
لاظلمهم فى الاعتداء فى السبب فقط ، ولو كان هذا هو السبب لكتفى أن يقول ( لأخذنا الذين  
ظلموا ) وكان وصفهم بأنهم ظلموا تعليلا لأخذهم بالعذاب على قاعدة أن تعليق الحكم أو الجزاء  
على المشتق يدل على أن المشتق منه عللة له ، ولكن الله أراد أن يرينا بذلك التعليل أن سفته  
فى أخذ الأمم والشعوب فى الدنيا قبل الآخرة بالظلم والذنوب أن يظهر أثر الذنوب فيها بالاصرار  
والاستمرار عليها ، وهو ما أفاده هنا قوله ( بما كانوا يفسقون ) وليس من سفته أن يؤخذ كل  
ظالم فى الدنيا بكل ظلم يقع منه قل أو أكثر لقوله ( ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا مترك على  
ظهرها من دابة «٤٥» <sup>(١)</sup> ) وقوله ( ويعفو عن كثير «١٥» <sup>(٢)</sup> ) بل قد يعاقب الظالم وقد  
يؤخره ، وهو حكيم فى ارجاء العقوبة ، علم بما تقضى به الصلحة .

والآية ناطقة بهلاك الظالمين الفاسقين ، ونجاة الصالحين الذين نهوم عن عمل سوء ، وسكتت  
عن الفرقة التى أنكرت على الواعظين وعظمهم ، فقيل انها كانت مع المالكين لأنها لم تنه عن  
المنكر ، بل أنكرت على الذين نهوا عنه . وقيل : بل نجت لأنها كانت منكورة للمكر ، ولذلك لم  
تعمله ، وإنما لم تنه عنه ليأسها من فائدة النهى وجزمها بأن القوم قد استحقوا عقاب الله  
باصرارهم فلا يفيدهم الوعظ .

ونستطيع أن نأخذ من الآية فائدة أخرى للوعظ والواعظين ، والاصلاح والمصلحين ، هى  
نجاتهم من سوء الذى أنزله الله تعالى بأصحاب الذنب ، ولولا ذلك الانكار الذى كان منهم لهلكوا كما  
هلك المذنبون ( وانقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب «٢٥» <sup>(٣)</sup> )  
( فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ) أى تطلعت إرادتنا بأن يكونوا قردة  
خاسئين صاغرين أذلاء ، فكانوا كذلك . قيل : إن هذا تفصيل للعذاب البئس فى الآية السابقة  
وقيل : هو عذاب آخر وأن الله تعالى عاقبهم أولا بالبؤس والشقاء فى المعيشة ، لأن من الناس من  
لا يريه إلا الشدة ، كما أن منهم من يريه الرخاء والنعمة ، وبكل يتلى الله عباده ( وبأولناهم  
بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ) ولكن هؤلاء القوم لم يزدحم البؤس إلا عتوا واصراروا على  
الفسق والظلم ، فدمدم عليهم ورحم بذنوبهم ، ومسحهم مسخ خلق وبدن ، فكانوا قردة بالفعل ،  
أو مسخ خلق ونفس ، فكانوا كالقردة فى طيشها وشرها وفسادها لما فصل إليه أيديها ، وهو  
قول مجاهد قال : مسخت قلوبهم فلم يوفقوا لفهم الحق ، وهى عاقبة من أوحى العواقب ، وغاية من  
أشد الغايات على النفوس ، ولعل فيها عبرة لقوم استهانوا بالمعاصى ، واستمروا فى الفواحش ما ظهر  
منها وما بطن ، وسقوا عن أمر الله وضلوا ضلالا بعيدا ، لعلهم يعلمون أن الله تعالى الذى مسح  
سلفهم فى الشهوات ، وأتهمهم فى الضلال ، فصاروا قردة وخنزير ، طباعهم طماعهم ، ونفوسهم  
نفوسهم - لعل يعلمون أنه قد مسح أولئك الأقوام بسبب فسقهم واصرارهم على المعاصى ، وأن فى  
قدرته أن يمسح من كان مثلهم ذلك المسخ العنوى الذى يقضى على كل فسيولة فى النفوس ،

ويعحوا كل خلق من أخلاق الانسانية الفاضلة ، لعل لهم مذكرا في أولئك الأقوام وماحل بهم من عقوبات فيقلعوا عن سيئاتهم ، ويرجعوا إلى ربهم وخالقهم ويشوبوا إلى رشدهم ، والله تعالى واسع الفضل يقبل التائب ، ويعفو عمن أساء ، متى أصلح سيئاته حسنات ، وعمل عملا صالحا (وإني لفتار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى «٨٢» ) (١) .

(٦) ( وإذ نأذن ربك ليعنّ عليهم إلى يوم القيامة ) الخ : أى اذكر لهم أيها الرسول إذ أعلم ربك هؤلاء القوم المرّة بعد المرّة أنه قد قضى عليهم في علمه وكتب على نفسه وفاقا لما أقام عليه نظام الاجتماع البشرى من سنّة ليلسلطنّ عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب أى يوقعه بهم عقابا على ظلمهم وفسقهم ، وهو هنا سلب الملك واخضاع القهر .

وقد فصله الله تعالى في سورة الاسراء ( وقضينا إلى بني اسرائيل في الكتاب لتصدقن في الأرض صرّتين ولتعلنّ علوا كبيرا «٤» فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأسا شديدا ففاسوا (٥) خلال السيار وكان وعدا مفعولا «٥» ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا «٦» ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وان أسأتم فأسأتم فلها فإذا جاء وعده الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تقيرا «٧» عسى ربكم أن يرجعكم وان عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا «٨» ) وقوله ( وان عدتم عدنا ) أى ان عدتم بعد عقاب للمرّة الأولى إلى الافساد عدنا إلى التعذيب والاذلال ، وقد عادوا فسلط الله عليهم النصارى فسلبوا ملكهم الذى أقاموه بعد نجاتهم من السبي البابلى ، وقهرهم واستذلهم ، ثم جاء الاسلام فعاداه أولئك الأقوام الذين كانوا هربوا من النل والنكال ، ولجئوا إلى بلاد العرب فعاشوا فيها أعزاء آمنين .

ثم عاهدهم النبي صلى الله عليه وسلم فأمنهم على أنفسهم وأموالهم وحرية دينهم ، فلم يوفوا له بل غدروا به وكادوا له ، ونصروا المشركين عليه ، فسلطه الله عليهم فقاتلهم فنصره عليهم ، فأجلى بعضهم وقتل بعضا ، إلى أن جاء عمر رضى الله عنه فأجلى من بقى منهم .

ثم فتح عمر سوربه بعضها بالصلح كييت للقدس ، وبعضها عنوة ، فانتقل اليهود من سيادة الروم الحاضرة إلى سلطنة الاسلام العادلة ، ولكنهم مع ذلك ظلوا أذلة بفقد الملك والاستقلال ( إن ربك لسريع العقاب ) للائم التي نفسق عن أمره وتفسد في الأرض فلا يتخلف عقابه عنها كما يتخلف عن بعض الأفراد ( وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا «١٦» ) (٣) أى أمرناهم بالحق والعدل ففسقوا عن أمر الله ، وأفسدوا وظلموا في الأرض ، فحق عليهم القول بمقتضى سنّته تعالى في الخلق فحق بهم الهلاك على الفور ( وإنه لففور رحيم ) لمن تاب بعد الذنب وأصلح ما كان أفسد ، كما قال في سورة طه ( وإني لفتار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى «٨٢» ) .

وقلما ذكر الله تعالى عذاب الفاسقين للفسدين إلاوقرّنه بذكر النفرة والرجة للاثنيين المحسنين

[١] طه . [٢] تردّوا « هجرا » من يفر مع الرجل من قومه « يتبرأ » يهاكوا .

[٣] الاسراء .

حتى لا يأس صالح مصلح من رحته بذنب عمله بجهالة ، ولا يأمن مفسد من عقابه اغترلوا بكرمه وعفوه وهو مصرّ على ذنبه .

ثم بين تعالى كيف بدأ إذلال اليهود بلزلة وحدتهم ، وتمزيق جامعهم ، فقال ( وقطعناهم في الأرض أما ) فرقناهم في الأرض أما متقطعة ، بعد أن كانوا أمة متحدة ( منهم الصالحون ) كالذين نهوا الذين اعتدوا في السبت عن ظلمهم ، والذين كانوا يؤمنون بأنبياء الله تعالى فيهم من بعد موسى الى عهد عيسى عليهم السلام ، والذين آمنوا بمحمد خاتم النبيين ( ومنهم دون ذلك ) فلم يبلغوا وصف الصلاح ، وهم درجات : منهم الغلاة في الكفر والفسق كالذين كانوا يقتلون النبيين بغير الحق ، ومنهم السامعون للكذب الأكالون للسحت ، وما إلى ذلك مما هو شأن الأمم الفاسدة ( وبأولاهم بالحسنات والسيئات لعلمهم يرجعون ) .

ابتلى الله سرارهم واستعدادهم بالعلم التي تحسن ، وتقربها الأعين ، وبالقلم التي تسوء صاحبها ، وربما حفت بالصبر والرضا عواقبها ، رجاء أن يرجعوا عن ذنبهم ، فيعود رحته وفضله عليهم ( غفلت من بعدهم خلف ) خلف من بعد أولئك الذين كان فيهم الصالح والطالح والبر والفاجر ( ورثوا الكتاب ) الذي هو التوراة عنهم ، وقامت به الحجة عليهم بوجود الكتاب في أيديهم بعد سلفهم يقرءونها ويقفون على ما فيها من الأوامر والنواهي ، والتحليل والتحرير ، ولا يعملون بها ( يأخذون عرض هذا الأدنى ) أي يأخذون عرض هذا الشيء الأدنى : أي هذا الخطام الحقير من متاع الدنيا وهوما كانوا يأكلون من السحت والرشا والانحجار بالدين والمحاربة في الحكم والقنوى ( ويقولون سيفقر لنا ) فانتا شعبه الخاص ، وسلالة أنبيائه ، ونحن أبناءؤه وأحبائه ( وإن يأتيهم عرض مثله يأخذوه ) جملة في موضع الحال : أي يقولون ذلك وهم مصرّون على ذنبهم إن يأتيهم عرض آخر مثل الذي أخذوه أولاً بالباطل لا يتصفون عنه .

وانما وعد الله بالفضرة للتائبين الذين يتركون الذنوب فلما وخفوا من الله تعالى ورجاء فيه ، ويصلحون ما كانوا أفسدوا ، وقيل ( يأخذون عرض هذا الأدنى ) يأخذون ما يمرض لهم من أعمال سلفهم السافلين المنحطين للشار إليهم بقوله ( ومنهم دون ذلك ) ويتركون أعمال سلفهم الصالحين ، ويقولون سيفقر لنا ، والحال أنهم مصرّون على الاجرام كما يفيد قوله ( وإن يأتيهم عرض مثله يأخذوه ) والأول أظهر .

وقد رد الله عليهم زعمهم أن الله سيفقر لهم أولئك الذنوب مع إصرارهم عليها في قوله ( ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ) ودرسوا ما فيه ) وهو رينا أن سيئات أولئك الأقوام كانت في تحريف الكتاب والمحاربة بأحكام الله تعالى في التحليل والتحرير في نظير ما يحصلون عليه من مال أوجه لدى الحكام وولاة الأمور كقوله ( اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصعدوا عن سبيله انهم ساء ما كانوا يعملون « ٩ » (١) ) وقوله ( وإذا أخذ الله ميثاق الذين أنوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبهوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون « ١٨٧ » (٢) ) .

وقد سرى كثير من ذلك الفساد إلى رجال الدين من المسلمين الذين ورثوا الكتاب الكريم والقرآن الحكيم ودرسوا مافيه ، غلب على أكتفهم الطمع في حطام الدنيا القليل وعرضها الدنيء والفرور بالنسبة إلى الاسلام والتحنى بقلبه ، والتعلل بأمانى المغفرة مع الاصرار على الذنب ، والانتكال على المكفرات والشفاعات ، وهم يقرءون مافى الكتاب من النهى عن الأمانى والأوهام ، ومن نوط الجزاء بالأعمال ، والمغفرة بالتوبة والاصلاح ، وكون الشفاعة لا تقع إلا بأذن الله لمن رضى عنه كقوله (ولا يشفعون إلا لمن ارضى وهم من خشيته مشفقون «٢٨»<sup>(١)</sup>) ولن يرضى الله عن فاسق ولا عن منافق (فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين «٩٦»<sup>(٢)</sup>) . وما قص الله علينا مثل هذه الآيات من أخبار بنى إسرائيل إلا لنعبر بأحوالهم ، وننقى الذنوب التى أخذهم بها ، ولكنتا مع ذلك كله اتبعنا سننهم شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ، وعمد الله إن لم يكن ذلك الاتباع فينا علما ، ولا يزال فينا طائفة ظاهرة على الحق إلى أن يأتى أمر الله . نسأل الله أن يجعلنا منها ، ويعصمنا من الفتنة فى ديننا ، ويجعل الحق رائدنا ، والاخلاص حليفنا . ثم قال (والله راآخرة خير) من ذلك العرض الخسيس (للذين يتقون) الرشا ومحارم الله (أفلا تعقلون) قيمة ذلك الوعظ ؟ .

ثم أراد أن يبه إلى أن الستمسكين بالكتاب وأقاموا الصلاة التى أرجبها الله عليهم [وخصها للإشارة إلى علو مكانها من الدين] لا يضيع الله تعالى أجرهم ، وعلى ذلك بقوله (إنا لا نضيع أجر المصلحين) وهو دليل لما قبله ، ومثله قوله تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لانضيع أجر من أحسن عملا «٣٠»<sup>(٣)</sup>) .

(٧) (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم) أى وادكر أيها الرسول النبىء الأئمة إذ نتقنا فوق هؤلاء الجبل: جبل الطور : أى رضىناهم كما عبر به فى الآيات الأخرى وهو المروى عن ابن عباس ، أو زلزلناه وهو مرفوع فوقهم مظل لهم ، كما يقال تنق السماء : إذا هزه ونفضه ليخرج منه الزبدة .

قال الجمهور : إنه اقتلعه وجعله فوقهم [فان قيل] : لو كان كذلك لكان ظلة بالفعل لا كالظلة فان الظلة : كل ما أظلك من فوقك ، ويصدق رفع الجبل فوقهم كالظلة بوجودهم فى سفحه ، واستظلالهم به .

قلنا : إنه وإن صح هذا التأويل فان رفع الجبل على الوجه الأول إنما كان لاختافهم - لا لاظلالهم ، وأما ظنهم أنه واقع بهم فانما جاء من زلزلته واضطرابه ، على أن الله تعالى قادر على قلعه وجعله فوقهم .

وكم رأوا من آياته ما هو أدل على قدرته تعالى من ذلك (خذروا ما أنبأكم بقوة) أى قلنا لهم فى تلك الحلة : خذوا ما أعطيناكم من أحكام الشريعة بقوة عزيمة ، وعزم على احتمال مشاقه (واذكروا مافيه لعلكم تتقون) اذكروا مافيه من الأحكام وأوامرها ونواهيها ، أو أعمالها به لتلا نسوه ، فان ذلك يمدكم للتقوى ، ويجعلها مرجوة لكم ، فان الجدة وقوة العزم فى إقامة الدين

يهذب النفس ويتركها ، والنهائى والاعخاص فيه يدسها ويفويها (قد أفلح من زكاها « ٩ » وقد خاب من دساها « ١٠ » ) .

وقد اعترض بعضهم رفع الجبل بأنه إكراه على الإيمان وإلجاء إليه ، وذلك يتنافى التكليف قال الأستاذ الامام فى ردّه على ذلك القائل : لاجابة لنا فى فهم كتاب الله إلى غير ما يدلّ عليه بأسلوبه النصيح ، فهو لا يحتاج فى فهمه إلى إضافات ولا ملحقات .

وقد ذكر لنا مسألة رفع الطور فوق بنى إسرائيل ، ولم يقل : إنه أراد بذلك الإكراه على الإيمان ، وإنما حكى عنهم فى آية أخرى أنهم ظنوا أنه واقع بهم ، فقد قال تعالى فى سورة الأعراف (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون) والتقى : الزعزعة والهزّ والجذب والنفض ، ونتى الشئ ينفقه وينتقه ، من بابى ضرب ونصر ، نتقاً : جذبه واقلمه ، وقد يكون ذلك فى الآية بضرب من الزلزال كما يدلّ عليه التعبير بالتقى ، وهو فى الأصل بمعنى الزعزعة والنفض .

والمفهوم من أخذ الميثاق أنهم قبلوا الإيمان وعاهدوا موسى عليه ، ورفع الطور وظنهم أنه واقع بهم من الآيات التى رأوها بعد أخذ الميثاق كان لأجل أخذ ما أتوه من الكتاب بقوة واجتهاد لأن رؤية الآيات تقوى الإيمان ، وتحرك التسعور والوجدان ، ولذلك خاطبهم عند رؤية هذه الآية بقوله (خذوا ما آتيناكم بقوة) أى تمسكوا به ، واعملوا بحجته ونشاط لا يلبس نفوسكم فيه ضعف ، ولا يصحبها وهن ولا وهم .

ثم قال (واذكروا ما فيه) بالمحافظة على العمل به ، فإن العمل هو الذى يجعل العلم واسخفاً فى النفس مستقرّاً عندها ، ويؤثر عن أمير المؤمنين على كرم الله وجهه أنه قال « يهتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل » : انظر تفسير آية « ٦٤ » من سورة البقرة .

### موسى عليه السلام

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ «٧٥» فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ «٧٦» قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلَحُ السَّحْرُ «٧٧» قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتْلِفَتَنَّا<sup>(١)</sup> عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمُ الْكِبَرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ «٧٨» وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُتُونَنِي بِكُلِّ سِحْرِ غَلِيمٍ «٧٩» فَلَمَّا بَاءَ السَّحْرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ



مَلْقُون «٨٠» فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ «٨١» وَيُخَوِّتُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ «٨٢» فَجَاءَ آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنْ فِرْعَوْنُ لَمَكِلُ<sup>(١)</sup> فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ «٨٣» وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ تَمُنُّونَ بِأَلْفِهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ «٨٤» فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً<sup>(٢)</sup> لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ «٨٥» وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ «٨٦» وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا<sup>(٣)</sup> لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً<sup>(٤)</sup> وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَابْشِرِ الْمُؤْمِنِينَ «٨٧» وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ<sup>(٥)</sup> عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ<sup>(٦)</sup> عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ «٨٨» قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ «٨٩» وَجُوزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا<sup>(٧)</sup> وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْفَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ «٩٠» ءَالْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ «٩١» فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَفُلُونَ «٩٢» يونس

[١] غالب ظاهر . [٢] موضع فتنة : أى عذاب لهم يفتنوننا به من ديننا ، أو فائتين لهم ، يقولون : لو كان هؤلاء على الحق ما أصبوا . [٣] من تبوءا للكمال : اتخذوا مبادء كقولك : اتخذته وطنًا . [٤] مسجداً . [٥] أزل أثرها ، والاتفاق بها . [٦] استوتق منها حق لا يدخلها الإيمان . [٧] طلب الاستعلاء من غير حق ، وعدواً : ظلماً .

## شرح وعبرة

(١) (ثم بحثنا من بعدم موسى) إلى آخر الآيات .

يرينا الله تعالى أنه بحث بعد رساله السابقين في الآيات السالفة الذكر (موسى وهرون إلى فرعون وملائه) مؤيدين بآيات الله تعالى ودلائل قدرته (فلستكبروا) عن قبولها ، وتناضلوا على الازدعان لها (وكانوا قوما) ذاهبين الاجرام ، وعادتهم الافساد في الأرض ، وأنهم لما جاءهم الحق من عند الله تعالى (قالوا إن هذا لسحرمين) وقد ستر الكلام على شرح السحر وأقسامه في سورة الأعراف عند الكلام على قصة موسى عليه السلام .

والعجيب من أولئك الأقوام أن يقطعوا بأن ما جاء به موسى سحر ، وأنه سحر واضح بين لا يشك فيه أحد ، فيقول لهم نبي الله موسى قول للعجب (أقولون للحق لما جاءكم) وحذف القول لأنه معلوم ، وكأنه استعظم أن ينطق به ولو على وجه الحكاية لقولهم ، فهو ينكر عليهم أن يقولوا في شأن الحق الذي جاء به ما قالوا ثم قال (أسحر هذا) أي هذا الذي جئت به عن الله تعالى سحر ؟ (ولا يفلح الساحرون) من كلام نبي الله موسى أيضا : أي أمكن أن يكون ما جئت به عن الله سحرا مع أن الساحر لا يفلح كما قال موسى للسحرة (ما جئتم به السحر إن الله سيبيطه إن الله لا يصلح عمل للفسدين) فإذا كان منهم بعد إنكار نبي الله موسى عليهم أن ما جاء به سحر ؟ كان منهم أن رجعوا إلى الآباء فنمسخوا بتقليدهم ، واعتصموا بسلفهم الطالح في التمسك بآثارهم (قالوا أجتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا) يريدون أن عمالك هذا من العبت ، ومحاولة باطلة ، فان ديننا هذا قد وجدنا عليه الآباء ، وورثناه عن السلف ، فلا يمكن أن نعيد عنه وهي حجة لانسمحها إلا من قوم قد أعوزتهم الحجة ، فرجعوا إلى الآباء فتمسحون بهم ، وإلى من تقدسهم في ذلك العمل يقولون على قيادتهم ، ولو كان آباؤهم لا يقولون شيئا ولا يهتدون . ثم أضافوا إلى ذلك قولهم (ونكون لكما الكبرياء في الأرض) يخشون من نبي الله موسى وأخيه هرون عليهما السلام أن تكون دعوتهما دعوة إلى الملك لا دعوة إلى الرسالة ، فيضيع الملك على فرعون وملائه ممن يدر عليهم الملك للال الجم والخير الكثير .

وهذه الكلمة من ملا فرعون هي إذكاء لشعور الملك وأبهة السلطان ، وتأريث للعداوة والبغاء لموسى وصاحبه ، لأنه يحاول بعمله هذا أن يسلب فرعون ملكه ، ويقضى على نفوذه وعظمته ، وهي دسيسة خبيثة ذنينة ألغناها من بطانات الملوك والأمراء ، وتقودناها من حواشي السوء ، إذا كرهوا رجلا دسوا عليه تلك الدسيسة ، واتهموه بذلك التهمة ، لأنهم يعلمون أن الملوك لا تتأثر بشيء ، تأثرها بما يمس ملكها ، ويتعلق بسلطانها ، فإذا لقنوم تلك الكلمة فانهم لا يناقشونهم فيها ، ولا يطلبون عليها دليلا ولا شبه دليل من ذلك المبلغ الداس ، وهي طيعة من طبائع الملك ، وخلق من أخلاقه ، لا تخص رجلا دون آخر ، ولا تنطق بجبل دون جبل .

وقد يعلم ملا فرعون أن موسى عليه السلام وأخاه هرون لا يريدان ملكا ، وإنما يريدان إصلاحا في الأرض وإتقادا لبني إسرائيل من بطش فرعون وظلمه ، ولكن بطانات السوء تأتي إلا أن تظهر للصالح تلك الصورة التي من شأنها أن يطير لها لب فرعون ومن على شاكلته من

الظلمة والمستبدّين ، ولذلك لجئوا إلى تلك المسيسة : دسيسة أنهما يريدان ملكا ، ولا يريدان رسالة . ويحتمل أن يكون ذلك القول من ملاء فرعون شعورا منهم بأن موسى وهرون إذا نجحا في دعوتهما انتهت إليهما العظمة ، وذهب فرعون وسلطان فرعون ، لأن عظمته أساسها الباطل ، أما عظمة موسى وأخيه هرون فأساسها الحق وبقاء الصالح ، فالعاقبة لعظمة موسى وأخيه ، وبذلك يصبح فرعون وملاء فرعون أفرادا عاديين لا يؤبه لهم ، ولا يقام لهم وزن ، بل ينظر لهم نظر الانسان للشيء البغيض المقوت .

إذا كان ذلك هو ما يشيه بطانة فرعون كان ذلك اعترافا منهم من قرارة نفوسهم بأن موسى وأخاه على حق ، وأن فرعون وملاء على باطل ، وأن العاقبة ستكون لموسى وأخيه ، والهلاك لفرعون ومن معه ، ثم الأسلوب مع ذلك أسلوب تحريض على موسى وأخيه ، وإيهام الناس أنهم طلاب شهرة وكبرياء ، لاطلاب حق ورسالة ، ومهما يكن من شيء فإنها أساليب شيطانية أساسها الشهوة والوقعة ، فإن فرعون متى وقر في نفسه أن موسى وهرون سقتهى دعوتهما للناس بالقضاء على ملكه ، أو صرف الناس عنه وتركه كالشيء اللقا المنبوذ ، متى وقر في قلبه ذلك فإنه لا بأل وجهدا في محاربة موسى ودعوته ، والتنكيل به في سبيل اعتزازه بملكه وحرصه على سلطانه وأهله ، ثم عقبا على ذلك بقولهم (وما نحن لكما مؤمنين) مصدقين فيما جئنا به .

(٢) ( وقال فرعون اتئوف بكل ساحر عليم ) الخ .

يرينا أن فرعون لما اضطرب أمره وخاف على نفسه من موسى وهرون ، قال للملائكة : اتئوف بكل ساحر عليم بالسحر ، ليتقلب بهم على موسى ، وأنهم لما جاءوا (قال لهم موسى ألقوا ما أتم ملقون ، فلما ألقوا قال لهم (موسى) إن ما جئتم به السحر إن الله سيبطله) بالمعجزة والدليل الواضح (إن الله لا يصلح عمل المفسدين) .

وقد فصل الله ذلك في سورة الأعراف وطه ، والجديد في القصة قول موسى عليه السلام (إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين) وهو وعد من نبي الله قد بناء على الثقة بخبر الله تعالى ، ثم علل ذلك بقوله (إن الله لا يصلح عمل المفسدين) وهي قاعدة من قواعد الاجتماع وسنة من سنن الله في الخلق ، إنه لا يصلح عمل مفسد ، لا يثبت ولا يديمه ، بل يسلط عليه السمار والهلاك ، وهو كقوله (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض «١٧» (١١) ومن آيات الله تعالى في المفسدين أن لا يوفقهم لخير ، ولا يعينهم على حق ، وإذا دبوا أمرا في سبيل الشيطان والهوى لابد أن يفلأوا عن مواطن ضعف في ذلك التدبير ، تقضى على تدبيرهم وتذهب بباطلهم من حيث لا يشعرون .

واضرب لهم مثلا الزور الذي يلجأ الى وثيقة فيزورها على رجل من الناس ، أو إلى شهادة فيلقها على برى ، ليلصق به جريمة من الجرائم ، تكفل الله ووعد بأن ذلك الزور لا يصلح الله عمله ، ولا يتم له تدبيره ، ولا بد أن يفض عن ناحية من النواحي يكون فيها هلاكه والقضاء عليه ، وإذا شئت أن تعرف كيف لا يصلح الله عمل مفسد ، فارجع الى الخبراء الذين لهم دين وذمة كيف يكشفون ما يعمل الزورون ، ويضحون ما يدبر المفسدون .

ثم ارجع إلى القضايا الجنائية التي تقام على حساب شهود مستزقين ، وأفراد فاسدين ، يحاولون أن يوقعوا بشهادتهم الأبرياء ، ارجع إلى هذه القضايا وما أ كثرها في أيام المحن والشدائد واضطراب السياسة العامة لتعرف كيف يكشف رجال الحمامة للواسطات التي تدبر للأبرياء ، وكيف يحبطون ما يحاك خيوطه للساكنين .

ولو فرض أن مفسدا نجح في عمله ، أو أن منقورا قضى له بتزويره ، فليس ذلك لأن الله أصلح عمله ، بل لأنه لم يجد من المودة ما يكشف تدييره ، ويفضح عمله فقل بطله على حق غيره ، لأن الحق لم يجد ناصرا ، والباطل لم يجد خاذلا ، كل ذلك مصداق لتلك الآية الكريمة ، وتحقق لتلك الوعد الالهي ( إن الله لا يصلح عمل المفسدين ) وهي آية عجيبة من آيات الله تعالى في الفرق بين المصلح والمفسد .

نرى المصلح دائما موقفا للخير ، وإذا عرض له مانع لم يكن في حسابه أعانه الله على تذليله ، وأزال من طريقه العقبات ، وألمحه كيف يسير ، وإذا أخطأ مرة استفاد من خطئه كما يستفيد من صوابه .

أما المفسد فإن الله تعالى لا يدعه ليتم عمله ، ولا ليؤديه على الوجه الكامل ، بل لابد أن يترك فيه من النقص ما يقضي على ذلك العمل ، ويوجد في سبيله من العقبات والعراقيل ما لا قبل له به ، ولا يترك ذلك الباطل ليبقى ويثمر لأنه غير صالح للبقاء .

والعبرة في الآية الكريمة التأمي بالله تعالى والتخلق بخلق ، في أنه لم يترك السحر ليفتن به الناس ، بل أبطله بالمعجزة ليرينا إذا نحن رأينا باطلا كيف لا نتركه ليقب ويقتن الناس به ، بل نقضي عليه بالحق ونكشف اسمه للجماهير .

فإذا رأينا رجلا مشهودا يؤثر على بسطاء العقول بما يريهم من أساليب السهوذة ، ويحاول أن يريهم أنه يملك لهم من أمر الله ما لا يملك أحد من خلقه كلمه بالغيب ، أو تحويله قلوب العباد من محبة إلى بغض ومن بغض إلى محبة ، إذا رأينا رجلا ذلك حاله فلا ينبغي أن نسكت عليه ، بل يجب أن نكشف باطله للناس حتى لا يتخذوا به ولا يباطله .

ثم قال نبي الله موسى ( ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ) أي يثبت الله الحق بأوامره تعالى وقضائاه التي قضى فيها بذلك ، أو بكلماته التي أنزلها على رسله ( ولو كره المجرمون ) ذلك ، فهو لا يبالي بكرهاتهم ، ولا يهتم لأمرهم ، وإنما يعني بأمره هو وإمضاء سفته .

والعبرة في ذلك أن نعمل على إحقاق الحق وإبطال الباطل ، ولا نزعى عاطفة أحد ولا أهواء فريق من الناس ، فإذا كره فريق من الناس أن نجهر بالحق أو نذيعه بين الجماهير فلا نعمل حسابا لكرهاته ولا نقيم وزنا لارادته ، لأنه لاطاعة للخلق في معصية الخالق .

( ٣ ) فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملأهم أن يفتنهم ( أي فلم يؤمن بموسى بعد ذلك الجهد إلا طائفة من أولاد قومه ، وهو يرينا أن الشأن في الآباء أن تكون متعصية على الدعوة ، حريصة على التقاليد ، قد شاخت منها العقول ، وأنت طريقه خاصة في تدبيرها ، فمن الصعب عليها الرجوع عن ذلك الاتق والتقاليد .

وإذا شئت أن تعرف كيف يكون خروج الشيوخ عن مألوفها مصعبا فانظر الى رجل ألف كيفا من الكيوف من صفوه ، وامتزج بلحمه ودمه ، ومضى على ذلك الحال زمنا طويلا ، ثم حاولت أن تحول بينه وبين ذلك الكيف ، فانك تجد من أعصابه وعادته المستحكة ما يحول بينك وبين محاربة ما ألف ، ويندر من الشيوخ من يقلعون عن عادة ألفوها من الصغر ، وتتودوها منذ زمن بعيد ، وكذلك الحال في كل مألوف ، فإذا ألف الناس ديننا تقليديا ورثوه عن الآباء ، وأخذوه بمقتضى المادة بدون بحث ولا تمحيص ، ثم حاولت أن تزعجهم عن ذلك الدين ، وتحملهم على البحث كنت قد كلفتهم غير مألوفهم ، وغير عاداتهم ، وقليل من هؤلاء من يستمع لتحليل أو ينصاع لحجة أو برهان ، ولابد أن يكون ذلك الصنف من الشيوخ الذين ينتصرون على عاداتهم ، ويثورون على إلتهم وعاداتهم ، ويأخذون في تمحيص آرائهم ومذاهبهم ، ووضعها تحت مشروط النقد ، وجعلها خاضعة لكل ما تضع له الآراء من حق أو باطل - لابد أن يكون ذلك الصنف من الشيوخ قد ظهرت نفسه ، وقويت إرادته ، وهلت همته حتى لا تحتكم فيه العادة ، ولا يتأثر بما ألفه - بين عدة ، كأبي بكر رضى الله عنه الذى كان أول شيخ قبل دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم وكان صديقه الأكبر ، ولعلنا نلمح من ذلك السر في أن مشيخة قريش كانت تحارب رسول الله صلى الله عليه وسلم الحرب العوان ، وتدبر له للكائد ، كأبي جهل عمرو ابن هشام بن العيرة المخزومي القرشي ، وأبي لهب بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان أشد عليه من الأبعد ، وعقبة بن أبي معيط الجار الثاني لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكعب بن الأشرف وغيرهم ممن قتل في غزوة بدر وأحد والخندق وغيرهم من صناديد قريش .

أما الشباب الذى لم يتأثر بأولئك الماديات ولم تألف نفسه طريقا خاصة في الدين والمذهب ، فانه مستعد لمناصرة الجديد من الآراء أكثر من مناصرة الشيوخ ، وقد أن نجد جودا في شاب ، كما يقال أن نجد مرونة في شيخ ، ونجد ذلك وانحاجليا في الجمعيات الخيرية ، والزعات الوطنية والقومية ، نجد الجمعيات لا تقوم إلا على الشباب ، والأعمال الحرة لا تسير إلا بالشباب ، وحرارة الوطنية تجدها أظهر ما تكون في الشباب .

وتجد الشاب مستعدا للتأثر بروح الجماعة فوق استعداد الشيخ ، بل قد يكون ضعفه في ذلك التأثر ، فإذا رأى جماعة في مظاهرة من المظاهرات رأبته يندفع إليها بدون شعور ولا تفكير ، وتجده أسرع ما يكون الى أولئك القوم وان لم يفهم دعوتهم أو يتدبر غايتهم ، ذلك أن حرارة الشباب فيه تدفعه الى أمثال ذلك العمل ، ولو حاول أن يجمع نفسه منه ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وسببه استعداد وطبيعته ، وما كان طريقه طبع الانسان ، واستعداده لا يمكن أن يقاوم بحال من الأحوال ، ولذلك تجد المحاكمات في القضايا السياسية قائمة على الشبان دون الشيوخ ، وعناصر المظاهرات والاجتماعات الشبان ، والناصرين لأرباب المبادئ للدافعين عنهم الشبان .

لذلك كان المؤمن من بنى اسرائيل إذعانا لمبادئ موسى عليه السلام ( ذرية من قومه ) لاشيوخ معمرين ، لأن الشأن في الشيوخ أن يكون إيمانها بعد إيمان الشبان ، وأكثر ما يكون فيها الإيمان نفاقا وقية .

وانظر الى قوله ( على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم ) لتعلم أن أولئك القترية التي آمنت بموسى قد آمنت به وسيف فرعون مسلول على من يؤمن ، وأحكامه العرفية مشهورة ، وإيمان في ذلك الظرف الصعب هو إيمان لا يعبأ صاحبه بتهديد ، ولا يعمل حسابا لوعيد ، هو إيمان الروائي بالله المطمئن لوعده ووعيده . وما أشبه ذلك الإيمان الذي وقع من السرية بإيمان السحرة الذين دعاهم فرعون لمناصرته فخذلوه ، وطالبهم بأن يكون في صفه فعادوه ، فهتدم بالحديد والنار ، وقال لهم ( لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أننا أشدّ عذابا وأبى »٧١) قالوا لن نؤثر على ما جاءنا من الينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا «٧٢» <sup>(١)</sup> إيمان وصل إلى القلب فلم تؤثر عليه المؤثرات ، ويمكن من النفس فلم ينفع معه وعيد ولاتهديد ، وهكذا العقائد متى تمكنت لا يقف شيء أمامها ، والعزائم متى صحت تغلب على كل قوة في هذه الحياة . لأنها من قوة الحق ، وقوة الحق لا يقوى عليها شيء .

ثم أراد أن يصور لنا جبروت فرعون ، وفضل المؤمنين بموسى في ظل هذه الأحكام فقال ( وإن فرعون أعل في الأرض وأنه لمن السرفين ) ليرينا أن فرعون كان متغلبا على بني اسرائيل قاهرا لهم في الأرض لا يستطيعون مقاومته ، وأنه من السرفين في الظلم المتجاوزين للحدود في الاستبداد بالأس .

(١) ( وقال موسى يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فليكنوا ان كنتم مسلمين ) .

قال موسى حين رأى خوف قومه من فرعون وبطشه بهم : يا قوم ان كنتم آمنتم بالله وصدقتم بوعده ووعيده فكلوا أموركم إليه وحده وأسندوها في العصمة من فرعون إليه لا الى غيره ، فهو الذي يحكمكم من كيده وينقدكم من بطشه ، وقوله ( ان كنتم مسلمين ) أى مستسلمين لقضاء الله متقادين له فافعلوا ذلك ، وليس هذا من تملق الحكم بشرطين ، فان الملق بالإيمان وجوب التوكل عليه تعالى فانه المقتضى له . والملق بالاسلام وجوده ، فان التوكل لا يتحقق بدونه .

ونظيره ان أحسن إليك زيد فأحسن إليه ان قدرت عليه ، فان الاحسان شرط في وجوب الاحسان ، أما القدرة فهي شرط في الوجود ، ولاغنى لموسى عليه السلام عن أن يربط قلوب قومه بربه ، ويصل بينها وبينه في مثل هذه الظروف الصعبة ، لأن صلتها بخالقها تكسبها قوة وثبتها على الحق ، وتجعلها تستهين بكل ما ينالها من أنواع الایذاء ، وتشق لها طريقا للخلاص من كيد فرعون . وكذلك يجب على المؤمنين إذا نالهم أمر في سبيل الحق وحل بهم مكروه ، أن يرجعوا الى ربهم وينيبوا الى خالقهم وبارئهم ، فيطلبون منه المعونة على خصمهم وتوفيقهم للخلاص منه ( فقالوا على الله توكلنا ) لأن التوكل كانوا مخلصين ( ربنا لا تجعلنا فتنه للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ) دعاء منهم أن لا يفتنهم فرعون وقومه ، لأنك لو ساطنهم علينا لوقع في قلوبهم أنا لو كنا على الحق لما ساطنهم علينا ، فيعبر ذلك شبهة في اصرارهم على

الكفر ، أو لاجتماعنا مفتونين بهم فننصرف عن الدين الحق القى قلبناه ، كما قال ( على خوف من فرعون وملئهم أن يقتلهم ) .

ثم طلبوا من الله تعالى أن ينجيهم برحمته منهم ، وقد أجاب الله دعاءهم ، ونجىهم وأهلك من كانوا يخافونه ، وجعلهم خلفاء في أرضه ( وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوأ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين ) .

أوحى الله إلى موسى وأخيه أن يتخذوا بمصر بيوتاهم مبادء ومرجعا لقومهم يرجعون إليها في العبادة والسكنى ، ويستوطنوها ، وأن يجعلوا بيوتهم مساجد متوجهة نحو القبلة ، قيل انهم أسروا بحمل بيوتهم مساجد خيفة من الكفرة لئلا يظهروا عليهم فيؤذوهم ويقتولهم عن دينهم كما كان المسلمون على ذلك الحال في أول أمرهم ، وقيل أسروا بذلك لما أمر فرعون بتخريب مساجد بني إسرائيل ومنعهم من الصلاة ، وقيل ان المراد من قوله ( قبلة ) أن تكون متقابلة في مكان واحد حتى يستند المؤمنون بعضهم ببعض ، ويتعاونوا على الحق الذى أمرهم الله تعالى به ، ويسلوا بعضهم بعضا على الشدائد التى تنوبهم ( وأقيموا الصلاة ) لتذكروا بها سلطان ربكم عليكم ورحمته بكم ، وامتسوا بأقامة ذلك الركن على يقينكم وإيمانكم ، ( إن الانسان خلق هادعا « ١٩ » إذا مسه الشر جزوعا « ٢٠ » وإذا مسه الخير منوعا « ٢١ » إلا الصلوتين « ٢٢ » الذين هم على صلاتهم دائمون « ٢٣ » » ( ١ ) .

ثم قال ( وبشر المؤمنين ) وترك البشر به لذهب قسمهم كل مذهب فيما يشرون به ، والمراد بشرهم بأن العاقبة لهم وبرضوان الله ورحمته بهم .

( هـ ) ( وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ) الخ ، ذلك مظهر آخر من مظاهر جبروت فرعون يتجلى في دعاء نبي الله موسى عليه السلام بعد دعاء قومه ، ليربنا كيف يرجع للكروب إلى ربه ، وينيب للضر إلى خالقه ، فيقول موسى مخاطبا لربه : ربنا انك أعطيت فرعون وملأه فرعون زينة ، وهى ما يتجلى به من لباس أوحى أو فرش أو أثاث أو غير ذلك من زينة الحياة ، وأعطيت أموالا يجمع بها فى هذه الحياة ، وقوله ( ربنا ليضلوا عن سبيلك ) .

قيل هو دعاء بلفظ الأمر كقوله ( ربنا اطمس ، واشدد ) وذلك أنه لما عرض عليهم آيات الله عرضا مكررا ، وردد عليهم النصائح زمنا طويلا ، وحذرهم عذاب الله وانتقامه ، ورآهم لا يزيدون على عرض الآيات إلا كفرا ، وعلى النصيحة إلا نبورا ، ولم يبن فيهم مطمع له ، وعلم بالتجربة أنه لا ينجي منهم الا التمسك بالصلوات ، وأن إيمانهم كالحال الذى لا يدخل تحت الصحة - وأعلم ذلك برضى من الله تعالى - اشتد غضبه عليهم ، وأفرط مقتله وكرهته لحالهم ، فدعا الله عليهم بما علم أنه لا يكون غيره ، كما يقول : لعن الله ابليس وأخزى الله الكفرة ، مع علمك بأنه لا يكون غير ذلك وليشهد عليهم بأنه لم يبق له فيهم حيلة ، وأنهم لا يستأهلون إلا أن يخذلوا ، كأنه قال ليبتوا على ما هم عليه من الضلال ، وليكونوا ضلالا ، وليطع الله على قلوبهم فلا يؤمنوا ، وما على منهم ،

هم أحقّ بذلك وأجدر ، وهو يشبه دعاء نبيّ الله نوح على قومه إذ يقول ( ولا تزد الظالمين إلا ضلّالا » ٢٤ )<sup>(١)</sup> وهو دعاء يتفق وسنة الله تعالى في الخلق ، فكان دعاء موسى عليه السلام على ملاّ فرعون من ذلك القليل .

وقيل اللام في قوله ( ليضلوا ) للتعليل والمراد أن الله تعالى أعطاهم الزينة والأموال في هذه الحياة مع كفرهم ليستدرجهم بها كما قال ( والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » ١٨٢ ) وأملى لهم أن كيدى متين « ١٨٣ »<sup>(٢)</sup> .

والمراد أن الله تعالى يجهل هؤلاء الكاذبين ويمدّ لهم في أسباب العيشة كيدا لهم ومكرا بهم لاحبا فيهم ونصرا لهم كما قال ( فذرهم في غمرتهم حتى حين » ٥٤ ) أيحسبون أنما نمدّم به من مال وبين « ٥٥ » نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون « ٥٦ »<sup>(٣)</sup> .

ونظيره ماورد في حديث الشيخين من حديث أبي موسى « ان الله ليملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » .

وقيل اللام للعاقبة والصبرورة ، والمراد أن الله تعالى أعطاهم تلك الزينة وذلك المال لتسكون عاقبة أمرها أن يشكروه بها فكان عاقبة أمرهم أن بدلوا نعمته كفرا ، وشكروه جحودا .

ونظيره قول الله تعالى في شأن موسى وهو صغير ( فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا » ٨ )<sup>(٤)</sup> لم تكن هذه غاية لآل فرعون من التقاطه ، وإنما التقطوه للتبني والرجاء النفع ، كما قال ( وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتله عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون » ٩ )<sup>(٥)</sup> ولكن كانت عاقبة التقاطهم أن صار عدوا لهم ، يبدّد ملكهم ، ويقضى على سلطانهم ، وكذلك الحال في المال الذي متع الله به فرعون وقومه ، أعطاه لهم ليشكروه فجعلوا عاقبة أمره أن كفروه وحاربوه ، وهو تحسر من موسى على أولئك الأقوام الذين صنعوا بدم الله عليهم ماصنعوا .

( ربنا اطمس على أموالهم ) دعاء من موسى عليه السلام أن يطمس على أموال فرعون وملكه ، والطمس : المحو وإزالة الأثر .

يطلب موسى من ربه أن يطمس على أموال آل فرعون حتى لا يفتقروا بها في هذه الحياة ، وحتى لا يستولوا بها على الناس ، لأنه المال زينة لهذه الحياة وقوة لصاحبه يربط الناس به ويجمعهم حوله ، والطمس على الأموال يصدق باهلاكها : كما يصدق بالحيولة بينهم وبينها ، فيضلهم عن معادنها وما أخذها ، أو عن طريق نحو يلها الى عملة يفتق الناس بها ، ويصدق على حرمانهم منها كما حرم قدماء المصريين من ثروتهم التي أودعوها جوف الأرض لأمر ما ، ثم انتقم بها غيرهم من بعدهم .

وزرى كثيرا من أثرياء الناس قد طمس الله على أموالهم ، وحال بينهم وبين الانتفاع بتلك الأموال ، لشحهم بها على الصالح ، وبخلهم بها على الفقراء ، فقرام في غنائم فقراء ، وفي عزهم بالمال أذلاء ، وتجدّم بذلك المال معدّتين ، يواصلون الليل بالنهار في جمعه ، تطير قلوبهم لضياح



شيء منه كما قال ( ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهد أقسامهم وهم كفرون » ٨٥ ) (١) .

أولئك إذا عاشوا عاشوا عيشة الفقراء ، وإذا ماتوا ماتوا ميتة الأذلاء ، يعيشون حرًا ما على المال ، محرومين من النعيم ، فهل يشك أحد في أن ذلك الفريق من الناس قد طمس الله على أموالهم ، فلم يكن لها أثر في الحياة يذكر ، لافي دور العلم ، ولا في دور الصناعة ، ولا في معاهد الدين ، ولا في ملاجئ أصحاب العاهات واللعوذين ، وأى فرقة بين هؤلاء وبين من سلب على أموالهم الشهوات فبعثتها ، والأهواء ففترقتها ، وصرفها أصحابها في محاربة الله تعالى ونشر الفساد في الأرض .

نعم هناك فرق بين موقف البخلاء من مالهم وموقف الأشحاء ، ذلك الفرق أن البخلاء كنزوه فلم يصرفوه ، وقد يبذله من بعدهم في وجوه الخير .

أما أرباب الشهوات فبذلوه فيما يفض ربهم ، ويهدم محتهم وكيانهم ، ويعود على نفوسهم بالتدسية والشر ، فهم شر من البخلاء ، لأن موقفهم من الشر إيجابي ، أما البخلاء فموقفهم من المال سلبي ، وكل من الفريقين مصداق للدعوة موسى عليه السلام ، قد طمس الله على ماله وحال بينه وبين الانتفاع به ، إما بامساكه وإما ببذله في وجوه الشر .

( واشدد على قلوبهم ) جعلها قاسية واطمع عليها حتى لا تنشرح للإيمان ( فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ) جواب للدعاء الذي هو ( اشدد ) أودعاء بلفظ النهي ( حتى يروا العذاب الأليم ) يعاينوه ويوقنوا به بحيث لا ينفخهم الإيمان إذ ذاك ، لأنه إيمان إلقاء وإكراه ، لا إيمان عن رغبة واختيار .

( قال قد أجيبت دعوتكما ) دعوة موسى وهارون ، وقد أضاف الدعوة إليهما مع أن الداعي موسى عليه السلام ، لأن هارون شريكه في الرسالة ، ووزيره في الدعوة إلى الله تعالى ، فدعوة أحدهما دعوة الآخر .

وفيه دليل على اجابة دعوة المضطر والظالم ، وبيان عاقبة الظلم والفساد ، ودليل على بطلان قول من يقول: ان الدعاء لا ينفذ الداعي ، والآية نص في اجابة الدعاء بما طلبه موسى عليه السلام ، وهو نظير قول الله تعالى لموسى عليه السلام في سورة طه ( ق- أوتيت سؤلًا يا موسى » ٣٦ ) . بعد أن طلب من ربه أن يشرح له صدره ، ويسر له أموره ويحل عقدة من لسانه ، ويحل له أخاه هارون وزيره له يعاونه في الدعوة .

ولا أدري ماذا يقول المكرون لاجابة الدعاء بنفس مسائل السائل في مثل ذلك النص القاطع ؟ ( فاستقم ) اثبتنا على ما اتفقا عليه من الدعوة والزام الحجة فقد لبث نوح عليه السلام في قومه ألف عام إلا قليلا ( ولا تقبعا سبيل الذين لا يعلمون ) أى طريق الجهالة بإرادة الله تعالى في تعليق الأمور بالمصالح كما قال لنوح عليه السلام ( اني أخذك أن تكون من الجاهلين » ٤٦ ) ( ٢ ) . ( ٦ ) ( وجاوزنا بيني اسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بنيًا وعدوا ) تخطينا بيني اسرائيل

البحر وقد نسب الله التخطي إلى نفسه ليعلم أنه من عمل الله تعالى لا من عمل موسى عليه السلام ، وقد شرح الله ذلك التخطي في سورة طه فقال ( ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبدى فأضرب لهم طريقا فى البحر يمسا لانتخاف دركا ولا تخشى » ٧٧ ) فأتبعهم فرعون بجنوده ففشيتهم من اليمّ ماغشيهم ( ٧٨ ) وأضلّ فرعون قومه وماهدى ( ٧٩ ) فكانت مجازاة البحر بينى اسرائيل يوحى من الله وأمر منه كما كان فرق البحر حتى صار فيه طريق يمس لأماء فيه تدبره وارادته ، وهى آية كبرى من آيات الله مع نبيه موسى ، وقوله ( فأنبههم فرعون بجنوده ) كأن فرعون لم يرض لبنى اسرائيل أن يتركوا له المكان الذى هو فيه ويفرّوا بدينهم إلى جهة أخرى وقضى عليه جبروته أن يتبعهم هو وجنوده ليحولوا بينهم وبين الهجرة ، ويجزؤهم على ذلك الفرار ، وذلك منتهى القسوة ، وامعان فى الظلم ، وكان يكفهم لو كانوا مقتصدى فى الظلم أن يدعوا بنى اسرائيل لينهبوا حيث شاءوا ويتركوا لهم وطنهم ، ولكن الجبروت قضى عليهم أن يحاربهم حتى فى طريق الفرار منهم ، ولذلك عقبه بقوله ( بنيا وعدوا ) أى ان فرعون وجنوده كانوا بقاء عادى فى تبعيتهم لبنى اسرائيل .

ويرينا من جهة أخرى أنهم ما تبعهم ليصالحهم على القاء ، ويضعوا حدا لهذه الخصومة الجائرة ، وإنما دعهم للبنى والعدوان ، وما دروا ما خبأ لهم القدر ، وما دبر الله لهم فى تلك الرحلة ( حتى إذا أدركه الفرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنوا اسرائيل وأنا من المسلمين ) هنالك آمن ذلك الجبار العاتى ، وهنالك عرف أن هناك قوّة فوق قوّته ، وجبروتا يضاد معه جبروته ، وهنالك وقد أحاطت به أسباب الهلاك ومقدمات الموت يؤمن بالاله الذى آمنت به بنو اسرائيل ، ويؤكد ذلك الايمان بقوله ( وأنا من المسلمين ) فبرّد الله عليه بقوله ( الآن ) أى أتؤمن الساعة فى وقت الاضطراب حين أهلك الفرق وأيست من الحياة ؟

ينكر الله تعالى عليه ذلك الايمان القهرى ، ويريه أنه لا قيمة لإيمان ذلك حاله ، وتلك أسبابه ، إنما الايمان الذى ينفع صاحبه هو الايمان الذى صدر من صاحبه وهو مختار ، طامع فى الحياة أمل فيها ، أما الايمان عند حضور الموت ، وحلول مقدماته وأسبابه فلا ينفع صاحبه ، لأنه إيمان اضطرارى لا فصل له فيه ( وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال ائنى ثبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما » ٩٨ ) ( ١ ) فلذلك ينكر الله تعالى على فرعون إيمانه عند الترق ويقول له ( الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ) الضالعين للضالين عن الايمان والحق ( فالقوم تنجيك بيدك لتكون لمن حلك آية ) وقرى تنحيك بالهام : فلذلك بناحية عما يلى البحر بيدك لا روح فيك أو بدتك كاملا لم ينقص منه شىء ( لتكون لمن خلفك آية ) علامة لمن وراءك من الناس وهم بنو اسرائيل . وكان فى أنفسهم أن فرعون أعظم شأنا من أن يفرق ، وقيل عبرة لمن يأتى بعدك من القرون يظهر بها للناس عبوديتك ومهاتك ، وأن ما كان يدعيه من الربوبية باطل ، وأنه مع ما كان فيه من عظم الشأن وكبرياء الملك آل أمره إلى ما زنون لعصيانه ربه عز وجل ، فما الظن بغيره من

الضعفاء ؟ أو تكون عبرة لمن بعدك من الملوك فلا يجترؤا على مثل ما اجترأت عليه إذا سمعوا بحالك وهوانك على الله .

وقد سبق لنا في قصة موسى من سورة اللئدة الكلام على جثة فرعون للوجود بدلو الآثار وهل هي جثة فرعون صاحب موسى أو غيره ( وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغاللون ) أى هذه آيات الله يطلع الناس عليها ويريهن لها ، وكان من حق الناس أن تقتنع بهذه الآيات ، وتذكر بهذه العبر ، ولكن الكثير منهم غافل عن آيات الله معرض عنها ، لا يعبرها التفاتا ، ولا تصل إلى قلبه .

فهذه آية الله في فرعون الذى ملا الأرض ظلما وبطشا ، وادعى أنه الرب الأعلى ، وقال لبني اسرائيل : ما علمت لكم من إله غيرى ، فأغرقه الله في اليم ، وأخرج بدنه جثة هامدة لا تستطيع حراكا ، قد حيل بينه وبين الحياة ، هذه آية الله في فرعون يجعلها عبرة لمن يأتي بعده من الملوك الظالمين ، والحكام للفقيرين ، الذين نسوا ربهم وخالفهم ، واشترؤا بسلطانهم الكاذب وعظمتهم الزائفة ، وينجيه بدنه وبقية دهورا وأعواما ليعلم الناس أن هذه جثة فرعون ، وجسد ذلك الطاغية الذى طبق الأرض نيا وظلما ، هذه جثته استوت مع جثة أقل الناس عزما وأضعفهم سلطانا ، وأصبحت خاضعة لكل منخفض له الأبدان من محبة وفساد ، وضف وقوة ، هذه آية الله في فرعون يذكرنا بها القرآن ، ويلهنا بها التاريخ ، ومع ذلك فالظالمون غارفون في ظلمهم ، متمسكون في شهواتهم ، لا يجترؤون إلا عن أهوائهم ، ناسين أن لهم ربا يربى ثوابه ، ويغشى بطشه وعذابه ، وأهم مهمما بلغوا من سلطان قلن يلبثوا مابلغه عدو الله فرعون ، وقد حل به ماحل .

اللهم وفق المسلمين لفهم كتب ربهم والاعتبار بماضى سلفهم ، والانتفاع بسيرة المتقدمين منهم ، وألهم الناس رشدهم حتى ينتفعوا بفضائل القرآن ، ويسعدوا به كما سعد سلفهم الصالح ، فلا يكون القرآن حجة عليهم بل يكون حجة لهم .

### موسى عليه السلام

وَلَقَدْ أَمْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجَ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ  
وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝ وَإِذْ قَالَ  
مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أُنْجِيَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ  
يَسُومُونَكُمْ ۚ سَاءَ الْعَذَابِ وَيَذُبُّونَ آبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَلِكُمْ

بَلَاءٌ <sup>(١)</sup> مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ <sup>(٢)</sup> وَإِذْ تَأَذَّنَ <sup>(٣)</sup> رَبُّكُمْ لَنْ يَشْكُرَنَّ  
لِأَزِيدَتِكُمْ وَلَنْ يَكْفُرَتْكُمْ مِنْ عَذَابِي لِشَدِيدٍ <sup>(٤)</sup> وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرُوا  
أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفِيٌّ حَمِيدٌ <sup>(٥)</sup> ابراهيم

### شرح وعبرة

(١) ( ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات الى النور ) أى كما أرسل الله تعالى محمدا لاجراج الناس من الظلمات الى النور ، كما قال فى أول السورة كذلك يرينا أنه أرسل نبيه موسى وسائر أنبيائه عليهم السلام لاجراج الناس من ظلم الضلال والجهل الى نور الهداية والعلم ، وقوله ( أن أخرج ) معناه : أى أخرج : أى قلنا له ذلك ، وأيام الله وقائه التى وقعت على الأمم قبلهم قوم نوح وعاد وثمود ، ومنه أيام العرب لحروبها وملاحمها كيوم ذى (٢) فار ويوم الفجار (٤) ويوم قصة (٥) وغيرها ، وعن ابن عباس أن أيام الله نعماءه وبلاؤه ، فأما نعماءه فإنه ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى وخلق البحر لهم وما الى ذلك ، وأما بلاؤه فاهلاك القرون ( إن فى ذلك لآيات لكل صابر شكور ) أى ان فى أيام الله عبرا لكل رجل صابر على بلاء الله حين يسمع بما أنزل الله من البلاء على الأمم ، وصابر : كثير الصبر ، وشكور : كثير الشكر ، وفى تذكره بآيام الله عبرة له وتثبت له على ما هو عليه . وقيل : أراد بصابر شكور المؤمن ، لأن الشكر والصبر من سجلياته ( واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم ) الخ : أى واذكر الوقت الذى قال فيه موسى لقومه اذكروا نعم الله عليكم .

ثم أخذ يعدد النعم ليريههم بها ، ويربطهم بمسديها وواهبها ، وقوله ( ويذبحون أبناءكم ) بعد قوله ( يسومونكم سوء العذاب ) مع أن تذبيح الأبناء من العذاب إشارة الى أنه نوع ممتاز من العذاب فصار كأنه جنس آخر لذلك عطف عليه بالواو ولم يجعل تفسيره له ، وفى سورة البقرة ( يذبحون أبناءكم ) بدون واو لأنه تفسير لما قبله ، والتفسير لا يعطف على المفسر ، وكان استبقاء النساء بلاء واختبارا ، لأن بقاءهن منفردات عن الرجال ليس عليهن من يقوم بأمرهن فى النفقة والاعفاف بلاء كبير .

(٢) ( واذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ) من جملة ما قاله موسى لقومه ، كأنه قيل واذكروا إذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم ، وحين تأذن ربكم ، ومعنى تأذن ربكم : أذن ربكم ، ونظير تأذن وأذن نوح وأوعد وتفضل وأفضل ، ولا بد فى فعل من زيادة معنى ليس فى أفعل ، كأنه قيل واذ أذن ربكم ايذا

[١] امتحان . [٢] أعلمكم إعلاماً بلغياً . [٣] يوم لبنى شيان انتصرت فيه الرب من العجم .

[٤] بكسر الهمزة ، كان بين قريش وقيس غيلا .

[٥] بكسر الهمزة ، اسم لموضع كان فيه موقعة بين بكر وثعلب .

بلغا تنقني عنده الشكوك وتنزاح الشبه ، فقال (لئن شكرتم) ماخولكم من النعم (لأزيدنكم) نعمة الى نعمة ، ولأضاعفن لكم ما آتيتكم .

وانظر الى تأكيد الوعد بنون التوكيد في الفعل ولام القسم ، فهو يعدّ بذلك وعدا مؤكدا (ولئن كفرتم) ما أنعمت به عليكم لأعذبكم وأسلمكم هذه النعم ، ثم دلل على ذلك بقوله (إن عذابي لشديد) فهو دليل الجزاء فد سّد مسدّه ، وذلك من بلاغة القرآن في الابتجاز .

وقد أكد ذلك الوعيد كما أكد الوعد ، أكدّه باللام في الخبر ، وتصدير الجلة بأن ، وجعل الجلة اسمية بدل أن تكون فعلية ، ثم أكد تأكيدا معنويا إذ أقام الدليل على مجازاته للكافرين بقوله (إن عذابي لشديد) وأن ما تأذّن به موسى قومه ليس خاصا بهم وإنما هو شأن عالم الله تعالى مع خلقه في كل الأزمان ، سنته معهم أنهم إن شكروه زادهم ، وإن كفروه عاقبهم .

(وقال موسى إن تكفروا أتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لعنّي جلد) .

يرى نبي الله موسى قومه أن انتقامه من كافري نعمه لم يكن سببه وصول ضرر إليه من ذلك الكفران ، ومكافأته للشاكرين لم تكن لأن نقما يصل منهم إلى الله تعالى ، وأراهم أنهم إن كفروا هم وأهل الأرض جميعا فلم يبق على وجهها مسلم فإن الله تعالى غيّر عن إيمانهم (جيد) مستحقّ للحمد بكثرة أنعمه وأياديه ، أو أن قوله (جيد) إشارة إلى أن الله تعالى مجود في غناه بخلاف غنى المخلوق فإن فيه المحمود والمذموم ، فالرجل الذي ينفع الناس بفضله ، ويضعه في المكان الذي يستحقّ هو محمود الغنى ، والذي لا ينفع الناس بماله ، أو يتعالى عليهم بذلك المال ، ويسخره لآذلائهم والتسكيل بهم ، أو يحارب به ربه وخالقه ، كل أولئك غنام ليس بحميد ، وإنما هو غنى مذموم .

أما غنى الله تعالى فلا يكون إلا حميدا ، لأنه لا يضعه إلا في المكان الذي يستحقه ولا يصرفه لخلقه إلا على وفق الحكمة ، وآية ذلك قوله (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) «٢٩» (١) خزان الرزق بيده وتحت سلطانه ، ولكنه لا ينزله للناس إلا بقدر ، ولا يسلطهم عليها إلا بحساب ، فمن عمل للدنيا وأحسن عمله لها حصل عليها أيا كانت نخلته الدنيوية ، كما أن من عمل للآخرة كان حظّه الحصول عليها (كلا نعمت هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا) «٣٠» (٢) .

وكما أن خزان الرزق بيده خزان العالوم والمعارف بيده يعطيها بمقدار ويهبها لمن يعمل ، يعطيها لمن يتعلم ، ويبدل النفس والنفس في تثقيف نفسه وترقية روحه ، وكذلك سيادة الناس بعضهم بعضا يعطيها بسنن وعلقها بنواميس ، لا يعطيها إلا لمن يستحقها ويأخذ الأسباب الطبيعية لها ، كل ذلك من آثار غنى الله تعالى ، وكونه حميدا في ذلك الغنى يهبه لمن يستحق ويعطيه لمن يستأهله .

موسى عليه السلام

وَهَلْ أَتَيْكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٩٩﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي

ءالنست نَارًا لَعَلَّى ءَاتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ <sup>(١)</sup> أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى <sup>(٢)</sup> فَلَمَّا  
 أَتَاهَا رُدِيَ يَمُوسَى <sup>(٣)</sup> إِلَى أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَمْلِكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ  
 طُوًى <sup>(٤)</sup> <sup>(٥)</sup> وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى <sup>(٦)</sup> <sup>(٧)</sup> إِنِّى أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ  
 إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِى وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى <sup>(٨)</sup> <sup>(٩)</sup> إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا  
 لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْمَى <sup>(١٠)</sup> فَلَا يَسُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ  
 هَوَاهُ فَتَرْدَى <sup>(١١)</sup> وَمَا تَلَكَ يَمِينُكَ يَمُوسَى <sup>(١٢)</sup> قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّوْا  
 عَلَيْهَا وَأَمْشِ <sup>(١٣)</sup> بِهَا عَلَى غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَى <sup>(١٤)</sup> قَالَ أَلْقِهَا  
 يَمُوسَى <sup>(١٥)</sup> <sup>(١٦)</sup> فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْمَى <sup>(١٧)</sup> <sup>(١٨)</sup> قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَتُعِيدُهَا  
 سَبِيْرَتَهَا الْأُولَى <sup>(١٩)</sup> <sup>(٢٠)</sup> وَأَضْمَمْتُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيَظًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ءَايَةٌ  
 أُخْرَى <sup>(٢١)</sup> <sup>(٢٢)</sup> لِنُرِيكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَى <sup>(٢٣)</sup> <sup>(٢٤)</sup> أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ  
 طَغَى <sup>(٢٥)</sup> <sup>(٢٦)</sup> قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى <sup>(٢٧)</sup> <sup>(٢٨)</sup> وَيَسِّرْ لِى أَمْرِى <sup>(٢٩)</sup> <sup>(٣٠)</sup> وَأَحْمِلْ  
 عُقْدَةً مِنْ لِسَانِى <sup>(٣١)</sup> <sup>(٣٢)</sup> يَقْفُوْهُمَا قَوْلِى <sup>(٣٣)</sup> <sup>(٣٤)</sup> وَأَجْعَلْ لِّى زَیْرًا مِنْ أَهْلِى <sup>(٣٥)</sup> <sup>(٣٦)</sup>  
 هَارُونَ أَخِى <sup>(٣٧)</sup> <sup>(٣٨)</sup> أَشْدُدْ بِهِ أَزْرِى <sup>(٣٩)</sup> <sup>(٤٠)</sup> وَأَشْرِكْهُ فِى أَمْرِى <sup>(٤١)</sup> <sup>(٤٢)</sup> كَىْ  
 نُسَبِّحَكَ كَثِيْرًا <sup>(٤٣)</sup> <sup>(٤٤)</sup> وَنَذْكُرَكَ كَثِيْرًا <sup>(٤٥)</sup> <sup>(٤٦)</sup> إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيْرًا <sup>(٤٧)</sup> <sup>(٤٨)</sup>  
 قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى <sup>(٤٩)</sup> <sup>(٥٠)</sup> وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى <sup>(٥١)</sup> <sup>(٥٢)</sup> إِذْ  
 أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى <sup>(٥٣)</sup> <sup>(٥٤)</sup> أَنْ أَقْذِفِيْهِ فِى التَّابُوتِ <sup>(٥٥)</sup> <sup>(٥٦)</sup> فَاقْذِيفِيْهِ فِى النَّيْمِ  
 فَلْيُلْقِهِ النَّيْمُ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَهُ <sup>(٥٧)</sup> <sup>(٥٨)</sup> وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ نَحْبَةً مِّنِّى  
 وَلَنُصَنِّعَ <sup>(٥٩)</sup> <sup>(٦٠)</sup> عَلَى عَيْنِى <sup>(٦١)</sup> <sup>(٦٢)</sup> إِذْ نَخَسَىٰ أَخْنُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ

[١] نار مقبسة فى رأس عمود أو فيلة أو غيرها . [٢] اسم مكان .

[٣] أنبط بها ورق الفجر ليقط فأكله ، وقرئ أمس بالين ، وهو زجر النمل وعدى بلى لتضيقه

معى الإنحاء ، أى متجها ومقبلا عليها . [٤] صنوق ، واليم : البحر ، وهو نيل مصر .

[٥] تربي تحت رطابى .

فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ <sup>(١)</sup> فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ <sup>(٢)</sup> يَمْحُوسٍ <sup>(٣)</sup> «٤٠»  
وَأَصْطَلَمْتَكَ <sup>(٤)</sup> لِنَفْسِي <sup>(٥)</sup> «٤١» أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا <sup>(٦)</sup> فِي  
ذِكْرِي <sup>(٧)</sup> «٤٢» أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ <sup>(٨)</sup> «٤٣» فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْنَا لَعَلَّهُ  
يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ <sup>(٩)</sup> «٤٤» قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ <sup>(١٠)</sup> عَلَيْنَا أَوْ أَنْ  
يُطْغَىٰ <sup>(١١)</sup> «٤٥» قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَأَرَىٰ <sup>(١٢)</sup> «٤٦» فَأَتَيْنَاهُ فَقُولَا إِنَّا  
رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ  
وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ <sup>(١٣)</sup> «٤٧» إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ  
كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ <sup>(١٤)</sup> «٤٨» ط

### شرح وعبرة

(١) (وهل أذاك حديث موسى) الخ .

بعد أن أرى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أنه ما أنزل عليه القرآن لبشقى به ، ويتعب بفراط  
تأسفه على قومه ، أراد أن يسليه بقصة موسى مع قومه ليتأني به في تحمل أعباء الرسالة ، ومؤاساة  
الشدائد ، حتى ينال عند الله تعالى الفوز واللقام المحمود ، فقال (وهل أذاك حديث موسى) وهو  
استفهام في الصورة ولكنه يقصد منه تقرير الجواب في قلبه .

وهذه الصيغة أبلغ في ذلك ، كما يقول المرء لصاحبه : هل بلغت خبركذا ؟ فيطلع السامع  
إلى معرفة ما يوحى إليه ، ولأن القصة يراد منها تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ختمها بقوله  
(كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق) أي كذلك القصص الذي يفت فؤادك ويقوى يقينك  
بآله وجزائه ، نقص عليك من أنباء ما سبق من الأجيال .

أما حديث موسى الذي يريد أن يقصه عليه فهو أنه رأى نارا بعد أن قضى الأجل الذي  
اتفق عليه هو وصهره ، كما قال في سورة القصص (فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من  
جانب الطور نارا) «٢٩» (والإناس : الرؤية ، ولذلك عبر في هذه السورة بقوله (رأى) .) فقال  
لأهله (أقيموا في مكانكم (إني آنست نارا لعل آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى) وكانوا

[١] حاصنك من محنة بعدنة . [٢] مقدار من الزمان يوحى فيه للأنبياء غير مقدم ولا متأخر .

[٣] استصلمتك واصطفتك . [٤] نقصا . [٥] يماجدا باللقاب .

في حاجة إلى الصفء بالنار ، كما كانوا في حاجة إلى من يهديهم لأنهم ضلوا الطريق ، ولذلك قال في القصص ( لعل آتيكم منها بجبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون « ٢٩ » ) .

( فلما أتاهما نودى يا موسى إني أنا ربك ) فهو وحى رحماني ( فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى ) ولعل سبب أمره بالخلع أن نعليه كانا من نوع قدر لا يلبق بموسى عليه السلام أن يلبسه في ذلك المكان المقدس ، روى أنهما كانا من جلد حار ميت غير مدبوغ ، وهو مروي عن علي رضي الله عنه ، وقول مقاتل والضحاك وقادة والسدي كما روى في بعض الأحاديث أن جبريل عليه السلام جاء محمدا صلى الله عليه وسلم وهو يصلي فأخبره أن في نعله أذى ، فخلعه في صلاته واستمر فيها ، فلما رآه أصحابه خلعوا نعالهم ، فسألهم لماذا خلعتم ؟ قالوا : رأيناك خلعت نعلك ، فقال إن جبريل عليه السلام أخبره أن في نعله أذى فخلعه ، فلا حق لكم في الخلع ، ولذلك روى البخاري عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي في نعله .

فقصة موسى عليه السلام وأمر الله له بخلع نعله لا تصلح حجة لمن ينكر الصلاة في النعال ، وهي ثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قال بعض السلف : إنها من الزينة التي أمر الله بالتخاذه عند كل مسجد ، وما من مذهب من مذاهب الأئمة إلا وفيه قائلون بجواز الصلاة في النعال ، واعتبرها بعض الفقهاء من السلف .

وكان الصدر الأول من الصحابة والتابعين يصلون في نعالهم إلى أن اتخذ البسط في المساجد فتعود الناس أن يخلعوا نعالهم عند دخول المسجد ، وقد اتخذ الجهلاء تلك العادة دينا ، وأصبحوا ينكرون علي من يصلي في نعله ، ويعتونه مبتدعا أو متطرفا ، ويناصروهم على ذلك بعض العلماء الجامدين ، وأما البدعة في نسيان هذه السنة التي كان عليها السلف السالط ، والحيواة بين الناس وبين يسر الدين وسهولته في مثل ذلك العمل .

وفي اعتقادي أن الدين لو بلغ للناس على طبيعته التي كان عليها في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهد أصحابه وتابعيه ، ما برّم له الناس تبرّمهم له الآن مثقلا بفشيدات الفقهاء ، وتنطعات بعض اللولفين ، ولله در الامام مالك إذ يقول [ لن يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أزها ] . وقد جربنا على كثير من متمدني هذا العصر الترحيب بتعاليم الدين حين تبلفه على بساطتها وسهولتها ، وفي الأمثال [ عدوّ عاقل خير من صديق جاهل ] .

نعم إن أولئك المتشددين أصدقاء للدين جاهلون ، لا يعرفون كيف يحبون الناس فيه ، ويزيحون من طريقهم العقبات والعراقيل .

(٢) (وأنا اخترتك) اصطفتك لرسالتى ، واجتبتك لتكون سفيرا بينى وبين خلقى ، وما أغلى هذه الكلمة التي خطب بها نبي الله موسى ، ولو كانت من عظيم من عظماء الدنيا أو ملك من ملوكها لكان لها قيمتها في نفس رجل قيلت له ، فكيف وقد قيلت من ملك الملوك : خالق السموات والأرض ( فاستمع لما يوحى إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكري إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كلّ نفس بما تسعى . فلا يصدك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى ) .



بدأ الله بتوحيده ، ثم عقبه بطلب عبادته ، وخص الصلاة لأهميتها . وقوله ( لتكرى ) أى لتذكرنى بها ، ثم عقب ذلك بقوله ( إن الساعة آتية ) وقوله ( أكاد أخفيها ) . قال أبو مسلم : أكاد بمعنى أريد ، وهو كقوله ( كذلك كدنا ليوסף ) . ومن أمثاله للتداولة : لا أفعل كذا ولا أكاد : أى ولا أريد أن أفعله ( لتعجزى كل نفس بما تسعى ) متعلق بقوله ( إن الساعة آتية ) .

بين لنا أن الساعة قد أعدها الله تعالى للجزاء ، فقد تضمنت الجمل للذكورة [ أولاً ] الدعوة إلى توحيد الله تعالى [ ثانياً ] الدعوة إلى عبادته [ ثالثاً ] الاخبار بالساعة وأنها آتية لا ريب فيها ليجزى كل أحد بما قدم من الأعمال .

( فلا يستدرك منها من لا يؤمن بها وانه هواء فتردى ) أى لا يستدرك عن ذكرها ومراقبتها أوعن تصديقها ، والمراد كن شديد الشكيمة صلب المعجم (١) حتى لا يلوح منك لمن يكفر بالبعث أن يطعم في صدك عما أنت عليه ، لأن من لا يؤمن بالآخرة متبع لهواه ، وأنت إن فعلت ذلك هلكت مع المالكين .

(٣) ( وما تلك بينك ويا موسى ) سأل موسى عما بينه وهو يعلم ليجيبه موسى بأنها عصاه فيها من الفوائد كيت وكيت ، حتى إذا تأكد موسى من ذلك كله أمر بالقائها ، وتغيب الله ذلك الاقاء بجعلها حية ، ولو قلبها حية قبل أن يسأله عنها ، ويتأكد من حقيقتها قبل الانقلاب لتشكك موسى عليه السلام في أن ذلك الهى صار حية هو العصا التى كانت بيده ، أو شئ آخر ؟ كما تقول لصاحبك : ما الذى فى يدك ؟ فيقول لك هو [ درهم ] فيقول لك سأحوله الى [ دينار ] تريد بذلك القول أن يتأكد منه ومن حقيقته حتى لا يشك فيه بعد التحويل ( فإذا هى حية نسي ) والحية : اسم جنس يقع على الذكر والأنثى ، والصغير والكبير ، أما الثعبان فهو العظيم من الحيات ، والجأن الحقى .

وقد عبر عن الحية مرةً بالثعبان ، ومرةً بالجأن للإشارة إلى أنها كان لها أطوار مختلفة ، فتبدو أول أمرها صغيرة دقيقة ، فصيح أن يبرعها بالجأن ، ثم تتورم ويتزايد حجمها حتى تصير ثعباناً ، أو للإشارة إلى أنها كانت فى شكل الثمان من جهة عظمها ، وفى خفة الجأن ومرعته ، ولذلك قال ( فلما رأها تهتز كأنها جان « ٣١ » ) (٢) . وقوله ( نسي ) تمتشى بسرعة وخفة ( قال خذها ولا تخف سعيدها سيرتها الأولى ) .

أمر الله نبيه موسى أن يأخذ العصا وقد زعر منها ، لأنه لم يتعود ذلك النظر الذى تنقلب فيه العصا حية ، فأمره الله تعالى بأخذها ، وأن لا يخاف من إيذائها له ، ووعد أنه سييدها عصا كما كانت ( واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء ) والجناح : الجنب استعير من جناح الطائر ، وهو المراد بإدخال اليد فى الجيب كما ورد فى سورة النمل .

ومجموع الآيات يدل على أنه أمر بأن يضم يده إلى جانبه واضماً عليها ذراعه ، وأن يكون ذلك الضم بواسطة إدخال يده فى شق قميصه . وقوله ( من غير سوء ) أى من غير آفة تنفذ

منها النفوس كالبرص أو غيره من الآفات (آية أخرى) علامة أخرى على صدقك بعد آية العصا (لربك من آياتنا الكبرى) أى خذ هذه الآية بعد آية العصا لربك من دلائل قدرتنا قل أن ندعو فرعون ، فتكون واقفاً من صدقك ، مؤمناً بأن الله معك .

وقد اختص موسى عليه السلام بقلب العصا حية له ، وإخراج يده بضاء بعد إدخالها تحت إبطه دون غيره من الرسل ، لأنه يعلم من بطش فرعون وجبروته ما ليس لغيره من أقوام الرسل ، فكان من الحكمة أن يثبت الله قلب موسى قبل أن يرسله إلى فرعون ، ويطمئن نفسه إعداداً له لتلك الدعوة الشاقة ، وهي دعوة فرعون وملائه للإيمان ، ودعوتهم لأن يسلموا بنى إسرائيل لنيّ الله موسى ويفهم من بطشهم وعذابهم ، ولذلك قال بعد هذا الإعداد لموسى عليه السلام (أذهب إلى فرعون انه طغى) والظنيان : مجاوزة الحد ، وهل هناك ظنيان فوق قوله لنيّ إسرائيل (أنا ربكم الأعلى « ٢٤ » )<sup>(١)</sup> . وقوله (وقال فرعون يا أيها الملا ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي ياهمان على الطين فاجعل لي صرحاً لئلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين « ٣٨ » واستكبر هو وجنوده في الأرض غير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون « ٣٩ » )<sup>(٢)</sup> (قال رب اشرح لي صدري) الخ .

لما طلب الله تعالى إلى موسى أن يتوجه إلى فرعون يدعوه وقال له في أسباب الدعوة (إنه طغى) عرف موسى عليه السلام أهمية الأمر وصعوبته ، فطلب من ربه استعداداً لتلك العمل أمورا .

[أولها] أن يشرح له صدره ، وشرح الصدر : بسطه بنور إلهي ، وسكينه من جهة الله تعالى . ولا شك أن شرح الصدر قوة معنوية يستعين بها نبيّ الله موسى على أداء تلك المهمة الكبرى فانه مدعاة للصبر واحتمال المشاق ، والاقبال على الدعوة بهمة ونشاط ، أما ضيق الصدر والسآمة فهو من أسباب الضعف ، وخور العزيمة واللل .

[ثانيها] أن ييسره أمره بتوفيق الأسباب ورفع الموانع والعقبات .

[ثالثها] أن يخلّ عقدة من لسانه لينهموا قوله . ولا شك أن قوة البيان يحتاجها الرسل ، وينتفعون بها ، وقد اعترف نبيّ الله موسى وهو يطلب من ربه مؤازرة أخيه هارون بأن أخاه أفسح منه لساناً ، ولعلّ الآية تشير إلى أن عقدة لسان موسى عليه السلام الاجال الذي كان في عبارته وقد علل ذلك بقوله (يقفها قولي) والفتحة : الوصول إلى أعماق القول والتغلغل فيه . ولا شك أن القول البين الواضح أعون على ذلك .

[رابعها] أن يجعل له وزيراً من قرابته هو هارون أخوه ، واشتقاقه من الوزر لأنه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنه ، أو من الوزر بفتح الزاي وهو اللجأ ، لأن الملك يعتصم برأيه ويلجأ إليه في أموره ، أو من المؤازرة ، وهي المعاونة (اشدد به أزري وأشركه في أمري) .

يطلب من الله أن يشدّ به أزره وقوته ، ويشركه في أمر الرسالة ، وفيه بيان لحكمة اختيار الوزير من قرابته ، لأن الشأن في القريب أن يكون حريصاً على نجاح قريبه ، فلم يطلبه لمحاباة أو

اثر بذلك للنصب ، لأنه منصب مخوف بالأخطار ، محاط بالأشواك ، ولعل السر في قول بعض الزعماء : وقد رلى الوزارة [ أريد أن أجعلها كذا لجا ودما ] انه يريد ما أرادته نبي الله موسى من وزارة أخيه هارون ، فهو حسن القصد طيب النية ، وإن كان خصومه السياسيون قد أخذوا عليه تلك الكلمة ، التي سبقه إليها نبي مصوم ، ورسول من خيرة الرسل ، والأمور بمقاصدها .

وقوله ( كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا ) بيان من نبي الله موسى لغايته من تلك الوزارة ، وهي غاية شريفة ومقصد جليل ، لم يرد بها أن يؤزره على إذلال الناس وظلمهم ، أو يعاونه على التنكيل بهم وتمكين قدم الناصب في بلادهم ، وإنما طلب أخاه وزيراً له لتكون الغاية من تلك الوزارة أن يسبحوا الله كثيرا ، ويذكروه بما يليق به ذكرا كثيرا فيعبده كما ينبغي ، ويوحده كما يجب ، ويشكروه على ما وهبهم من نعم ، وما أسداهم من فضائل ، وذلك ما ينبغي أن تكون عليه الوزارات في كل زمان ومكان ، يراد منها التعاون على البر والتقوى ، ولا يراد بها التعاون على الإثم والعدوان .

ولكن المستعمرين في زماننا هذا أصبحوا يعمدون في بعض الظروف الى أحط الأمة أخلاقا ، وأمعنها في الرذيلة وأبدها عن الخلق الفاضل والحياة ، يعمدون الى ذلك السنف من الأمة فيعطونه الحكم ، ويكونونه من السلطان والنفوذ ، فلا يجمع معه من الوزراء إلا من فسد ضميره ، وغاض منه معين الحياة ، ولا هم له إلا دراهم يجمعها ، وسلطة يتمتع بها ، وفي سبيل تلك العظمة الكاذبة ، وذلك النفوذ للستار ، يعطى الناصب بكلتا يديه ، ويمكن له في الأرض ، وينهب بمصالح البلاد ومرافقها الى هاوية الفساد والحراب ، هذه وزارة الناصب للعدو ، وأحكام المستعمرين في الأرض بواسطة رجال من الأمة المنصوبة للمهزومة ، أساسها التعاون على الإثم والعدوان واضطهاد الأبرياء والتضييق على الأحرار ، وتبديد أموال الدولة في الشهوات والأهواء وتخريبها من المصانع النافعة والعلوم المفيدة .

أما وزارة الرسل ، أما حكومة خيرة المصلحين في الأرض ، فهي وزارة أساسها الحق ليثبت ويبقى ، وعمادها التعاون على البر وكل ما يسود على الناس بالخير في دينهم ودنياهم ، وشتان ما بين الوزارتين : وزارة الحق ، ووزارة الباطل ، أو وزارة حزب الله وحجته ، ووزارة المستعمر وذنبه .

( ٤ ) قال قد أوتيت سؤلك يا موسى ) أجاب الله دعاءك ففرج لك صدرك ، ويسر لك أمرك ، وحل عقدة من لسانك ، وجعل أخاك هارون وزيرا لك . والسؤل : للسؤل ، وفي الآية ان الله تعالى قد أجاب موسى بنفس ما طلبه ، وهي دليل على قبح الدعاء ، ثم أراد أن يريه أن اجابته لما طلب ليست أول فضل لله تعالى عليه فقال ( ولقد مننا عليك مرة أخرى إذ أوحينا الى أمك ما يوحى ) اللهم ما ألهما .

وقد أبهم في الوحى به للإشارة الى أهميته ، لأنه كان نجاة موسى من كيد فرعون ، إذ كان من عادته أن يذبح الأبناء ، فلاجل أن ينجو ذلك للولود النسي علم الله أنه سيكون نبيا ألهم الله ما ألهم ، ثم بين ذلك بقوله ( أن اقذفه في التابوت فاقدفه في البئر ) ولم يكن إلهامه لأمر موسى لأنها من الأنبياء ، لأنهم لا يكونون إلا رجلا كما قال ( وما أرسلنا من قبلك إلا رجلا نوحى اليهم

من أهل القرى « ١٠٩ » <sup>(١)</sup> بل كان وحيه لها كوحيه الى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتا ومن الشجر ، ألهمها الله أن تجعل له صندوقا فتضعه فيه ، وأن تلقى بذلك الصندوق في نيل مصر وقال لها ( لا تخافي ولا تحزني ) على ولدك ، لأنه سيرده إليها بتدبيره وحكمته ، وألهمها أنه سيقبض ويكون رسولا من رسل الله ( فليقلق الله بالساحل ) أى إن الله تعالى قال لليمّ ألقه بساحل النيل ومتى قال للشيء كن فانه يكون ، وقول الله تعالى لليمّ هو قول كوفى ، لا قول لفظي ، ونظيره ( فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين « ١١ » <sup>(٢)</sup> ) . وقوله ( وقيل يا أرض ابلعي مادك ويا سماء أبلعي « ٤٤ » <sup>(٣)</sup> ) ( يأخذه عدو لي وعدو له ) جواب الأمر باللقاء ، وتكرير العدو للبالغة ، والاشعار بأن عداوته له مع تحققها لا تؤثر فيه ولا تضربه ، بل تؤدي إلى المحبة ، فان الأمر بما هو سبب للملاك من قدفه في البحر ، ووقوعه في يد عدو الله تعالى وعدو موسى يشعر بأن هناك لطفا خفيا مندرجا تحت قهر صوري ( وألقيت عليك محبة مني ) أى أحيتك ومن أحبه الله غسبه تلك المحبة ، فقله ( مني ) متعلق بقوله ( ألقيت ) . وقيل معناه : زرعت محبتك وأنت صغير في قلوب الناس بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك ، ولذلك أحبك عدو الله فرعون وآله ، ولذلك جاء في سورة القصص ( وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ) وهم لا يشعرون « ٩ » <sup>(٤)</sup> ) ( ولتضع على عيني ) متعلق بألقيت : أى ألقيت عليك محبة آل فرعون ليتعطف عليك ، ولترى بالحنق والشفقة بمراقبتي وحفظي ، أو علة لمحوذوف أى ولأجل أن تصنع على عيني وتحت إشرافي فعلت ذلك ( إذ تمشي أخذك ) .

بعد أن حرّم الله عليه الرضاع فلم يقبل لهم نديا ، وحزن لذلك آل فرعون جاءت أخته التي كانت نقصه وتبع أثره ( فتقول ) لهم في صفة الناصح ( هل أدلكم على من يكفله ، فرجعناك إلى أمك كي تقرّ عينها ولا تحزن ) .

هذه مئة يمين الله تعالى بها على نبيه موسى ، ويريه أن الذي حفظه وهو في البحر ثم حفظه وهو في أحضان أعداء الله وأعدائه ، وسخر له أخته لترشد آل فرعون إلى كاف له بعد أن امتنع عن الرضاعة ثم رده إلى أمه بعد ألمها الشديد ، وحزنها البالغ .

إن الذي صنع به ذلك كله جدير بأن يحفظه من بطش فرعون ، وهو رجل راشد كبير ، فهذه القصة هي تأنيس لنبي الله موسى ، ثم عقبها بقصة أخرى فقال ( وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفناك فتونا ) .

وقد بين الله قصة القتل في سورة القصص وسنشرحها في مكانها بمشيئة الله تعالى ، والمراد منها ههنا أن الله تعالى يمين عليه بالتنجية من غم القتل الذي وقع منه خطأ وتخليصه تخليصا من الذنوب ( فلبثت سنين في أهل مدين <sup>(٥)</sup> ) كلها شدائد وقتن ( ثم جئت على قدر يا موسى ) على مقدار من الزمن يبعث في مثله الرسل ليس بالتأخر ولا بالتعجل ( واصطعكتك لنفسي ) أعددتك لرسالاتي وهياأتك لخدمتي .

[١] يوسف . [٢] فصلت . [٣] هود . [٤] القصص .

[٥] هي في بلاد الحجاز مما على الشام إلى الجنوب من القصير من الجهة المماثلة .

(٥) (انذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكرى) .

بعد أن أجاب موسى إلى ما طلب ، وهباً للرسالة أمسه أن ينذهب هو وأخوه هارون عليهما السلام مؤيدين بآيات الله تعالى ودلائل ربوبيته ، ونهاهما أن يقصرا في ذكر الله تعالى ، لأن ذكره يزيدهما قوة إلى قوتيهما ، ثم أعاد ذلك الأمر بقوله (انذبا إلى فرعون انه طغى) والاطاعى لاغنى له عن دعوة إلى الله تعالى تقيم عليه الحجة ، وتقطع عنده أمام الله تعالى ، وقد كرر نسبة الطغيان إليه ليعلم أن الحاجة إلى التذكير تأكد متى كان هناك طغيان ومجازاة للحد (فقولا له قولنا لينا) بيان لآداب الدعوة وما ينبغي أن تكون عليه .

وقد بين الله القول اللين في سورة النازعات (فقل هل لك إلى أن تزكى «١٨» وأهديك إلى ربك فتحشى «١٩» ) لأن ظاهره الاستفهام والنشورة ، وعرض مافيه الفوز العظيم ، وقوله (له يتذكر أو يحشى) أى انذبا إلى فرعون على رجائكما وطمعكما في أن يتذكر أو يحشى ربه ، وباشرا الأمر مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر عمله ، ولا يخيب سعيه ، والناية من إرسالهما إليه مع العلم بأنه لن يؤمن الزام الحجة ، وقطع للمعذرة (ولو أنا أهلكنكم بعداب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلتنا رسولا ففزع آياتك من قبل أن نذلل ونحزى «١٣٤» (١) .

وإذا كان الله قد أمر موسى وأخاه أن ينذبا إلى فرعون على رجاء منهما فيه ، فذلك لأنه ينبغي لكل واعظ أن يتجه إلى من يعظ على ذلك الرجاء ، لأنه إذا يئس لا يستطيع أن يعظ ، وقد علم الله أن فرعون سيصرّ على إباطه ، ويبقى على كفره ، ولكنه مع ذلك أمر رسله بالذهاب إليه ، وإقامة الحجة عليه ، وأمرها بأن ينذبا إليه راجين لايائنين ، لتكون هذه سنة في الوعاظ والمرشدين ، وقاعدة في الإصلاح والصلحين ، لا ينبغي لواعظ أن يئس ، ولا يصلح أن يدع الإصلاح .

ومن ناحية أخرى يبين الله لنا أن من آداب الدعوة أن تكون إينة لا غليظة ، ولا سيما مع المتكبرين ، لأن الأغلاظ عليهم لا يزيدم إلا تكبرا وعتوا ( ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين «١٢٥» (٢) ) (قالا ربنا إنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى) مع ذلك الاعداد الذى أعد الله له موسى ومع إجابته دعاه ، ويبان أنه تعالى لطيف به من أول نشأته ، ومنان عليه في تربيته .

مع ذلك كله قال موسى وهارون حينما كانا بالذهاب إلى فرعون : ربنا إنا نخاف من فرعون أن يحول بيننا وبين الرسالة بالمعاجلة بالعقوبة ، أو أن يتجاوز الحد معنا في الإبداء ، وقد كانت مهمتهما من أشقّ مهمات الرسل ، فقد كان عدوهما عنيدا ، وهو فرعون وملا فرعون .

وقد استعبد الشعب الاسرائيلى وطالت عليه مدة الاستعباد حتى ألف القتل والجحور ، فكان اتقاده من مخالب فرعون [والحالة هذه] من أصعب الأمور وأشقها (قال لاتخافا إني معكما أسمع وأرى) معكما بالمعونة والحفظ أسمع وأرى مايجرى بينكما وبينه من قول وفعل ، لأنكما تواقى وحلفائى فى الأرض ، وقد أرسلتكما لافذاذ كلمتى وحفظ دينى ، والإصلاح فى الأرض ، فلا أدعكما

الجبار كفرعون ، بل أركاناً وأحافظ عليهما ، وليس ذلك الوعد خاصاً ببنى الله موسى وأخيه هارون ، بل هو عام لكل من يباغ دعوته ويحفظ عهده ( إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » ١٢٨ ) . (١) ( ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين » ١٧١ ) إسمهم لهم المنصورون » ١٧٢ » وان جندنا لهم الغالبون » ١٧٣ » ) (٢) وليس معنى كتابة النصر لرسول الله وجنده أنه لا يناهضهم من أعدائه أذى ، ولا يصيبهم سوء ، بل النصر لحزب الله أقامته الحجة على حزب الشيطان ، بحيث لا يتركون هذه الحياة إلا بعد وضوح الحق واختفاء الباطل .

وقد يلجأ الباطل إلى القوة المادية فيقتل بعض أنبياء الله ، ويغضب بعضاً آخر ، بعد أن تعوزه الحجة ، وينقصه البرهان والهيل ، فيكون التجاؤء إلى التعذيب والقتل عنوان خذلانه ، وعلامة على نصر أعدائه ، ورب معذب أو قاتل كتب الله له النصر ، ولدعوته الظفر والتأييد ، ورب جبار أو عنيد كتب الله عليه القتل وسجل عليه الخذلان ، فكان الأول حياً في موته ، منتصراً في قبره ، وكان الثاني ميتاً في حياته ، مكبوتاً في جبروته وكبريائه فهو نصر معنوى ، يظفر فيه الحق بالباطل ، وتظهر فيه الحجة على التقليد ، والبرهان على الشبهة ، وقوة الروح على قوة المادة ، وقد يكون مع النصر المعنوى نصر مادي ، كأنجاه الله موسى ومن معه من الفرق ، وإغراق فرعون وجنود فرعون ، وكأجاه الله إبراهيم من النار بعد أن دبروا له ما دبروا ، وصنعوا له ما صنعوا ، وإنجاء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من تدير قريش قتله ، كل ذلك نصر مادي معه نصر معنوى .

( فأبياه فقالوا إنا رسول ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعد بهم ) رسولان من قبل الله تعالى جئنا لانتقاد بنى إسرائيل من بطشك وظلمك ، وهو غرض كبير من أغراض الرسل أن ينقذوا الناس من أن يظلم قلوبهم ضيعتهم ، أو يستعبد كبيرهم صغيرهم . من أهم أغراضهم أن يبرزوا العدالة على الناس على السواء ، وبتجمع الجميع بحقه الطبيعي في هذه الحياة ، وقد عني القرآن الكريم بدعوة الناس إلى العدل ، وتفيرهم من الظلم ، ولم يقف عند ذلك الحد ، بل نهى الناس أن يقتربوا من الظالم ( ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون » ١١٣ » ) (٣) ولولم يكن من آثار الدين سوى الإقلاع عن الظلم ، وإيقاظ الإنسان من غلب الإنسان لكفى .

جاءت الرسل لذلك الغرض وأسأله ولكن الناس غفلوا عن ذلك ، فأخذ بعضهم يظلم بعضاً ، ولاسيما رجال الحكم ، أخفوا يستعبدون الناس ، ويعيدون لهم عهد فرعون مع الشعب الإسرائيلي فلا يقيمون لحقوق الناس وزناً ، ولا يعملون لربهم وخالقهم حساباً ، فساروا خلفاء لفرعون وجنودا له ، وسيحل بهم من الغضب والقتل ما حل بفرعون ( قد جئناك بآية من ربك ) بينة وبرهان يدل على صدقنا في دعوى الرسالة ( والسلام على من اتبع الهدى ) وعد من قلعهما لمن آمن وصدق بالسلامة له من عقوبة الدنيا والآخرة ، وفيه ترغيب له في اتباعهما على ألطف وجه

وأحسنه (إنّا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى) ولم توجه كلمة العذاب إليه تليطاً للخطاب لأنهما أمرا أن يقولوا له قولاً لنا .

هذه جملة الدعوة التي وجهها نبي الله موسى وأخوه هرون إلى فرعون ، وقد تضمن قولهما (إنّا رسولاً ربك) الدعوة إلى الرسالة ، وأن هذه الرسالة من قبل إله صمد للعالم ، ثم توعداه بالعذاب إذا هو كذب وأعرض ، ووعداه بالسلامة من العقاب إذا هو اتبع الهدى ، وهي كلمة جامعة للإيمان والعمل الصالح .

### موسى عليه السلام

قَالَ فَن رَّبُّكُمْأَ يُؤْمِسُ «٤٩» قَالَ رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى «٥٠» قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى «٥١» قَالَ عَلِمْنَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى «٥٢» الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى «٥٣» كُلُوا وَارْحَمُوا أُنْفُسَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّعَى «٥٤» مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى «٥٥» وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى «٥٦» قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَى «٥٧» فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَأَجَعَلَ يَتَنَبَّأُ وَيُنَبِّئُكَ مَوْعِدًا لَا تَخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوْىً <sup>(١)</sup> «٥٨» قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ <sup>(٢)</sup> وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسُ خُشْيَ «٥٩» فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ جَمْعَ كَيْدِهِ ثُمَّ أَمَرَ «٦٠» قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ <sup>(٣)</sup> يَعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى «٦١» فَتَوَلَّوْا أَمْرَهُمْ يَتَنَبَّأُ وَأَسْرُوا النَّجْوَى «٦٢» قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى «٦٣» فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى «٦٤» قَالُوا يَمُوسَى إِنَّمَا أَنْتَ مُتَلَقٍ وَلَئِنَّا أَنْ نَكُونَ

أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى «٦٥» قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِجَابُهُمْ وَعَصِيَهُمْ يُخَيِّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ  
 أَنَّهُمْ تَسْمَعُونَ «٦٦» فَأَوْجَسَ<sup>(١)</sup> فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى «٦٧» فَلَمَّا لَا تَخَفْ إِنَّكَ  
 أَنْتَ الْأَعْلَى «٦٨» وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سِحْرٍ  
 وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى «٦٩» فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ  
 هَارُونَ وَمُوسَى «٧٠» قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي  
 عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا تَقْطَعْنَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا تَنَبَّيْكُمْ فِي  
 جُذُوعِ النَّخْلِ وَاتَّعَمَلْنِ أَنْتُمْ عَذَابًا وَابْنِي «٧١» قَالُوا لَنْ نُؤْذِيَكَ عَلَى  
 مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ  
 الدُّنْيَا «٧٢» إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ  
 وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَابْنِي «٧٣» إِنَّهُ مِنْ بَيِّنَاتِ رَبِّهِ مُجْرِمًا فَإِنْ لَهُ جَهَنَّمُ لَا يَمُوتُ فِيهَا  
 وَلَا يَحْيَى «٧٤» وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ  
 الْعُلَى «٧٥» جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ  
 تَرَكَ «٧٦» وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي  
 الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا<sup>(٢)</sup> وَلَا تَحْشَى «٧٧» فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِمُجُنُودِهِ فَفَشَلَهُمْ  
 مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ «٧٨» وَأَصْلَ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَاهَدَى «٧٩» يَبْنِي إِسْرَءِيلَ  
 قَدْ أَنْجَيْنَاكَ مِنْ عَدُوِّكَ<sup>(٣)</sup> وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَرَرْنَا عَلَيْكَ  
 الْمُنَى<sup>(٤)</sup> وَالسَّلَوى «٨٠» كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ  
 عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى «٨١» وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ  
 تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى «٨٢» طه

[١] أضر الخوف . [٢] إدراكا . [٣] مادة حلوة تشبهه عمل النحل ، والسلى :  
 الطير الهان .



## شرح وعبرة

(١) قال فن ربكما يا موسى قال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى ) أى أعطى خلقته كل شئ يحتاجون إليه ويرتفقون به ، أو أعطى كل شئ صورته وشكله الذى يطابق المنفعة المنوطة به ، كما أعطى العين الهيئة التى تطابق الإبصار ، والأذن الشكل الذى يوافق الاستماع وكذلك الأنف واليد والرجل واللسان ، كل منها مطابق لما علق به من المنفعة غير ناب عنه (ثم هدى) عرّفه كيف يرتفق بما أعطاه ، وكيف يتوصل إليه .

قال الزمخشري ولله درّ هذا الجواب ما أخصره وما أجمعه وما أبينه لمن ألقى السمع ، ونظر بعين الانصاف ، وكان طالبا للحق ١

وقد شرحت هذه الآية الكريمة بما يصلح أن يكون رسالة فى كتاب [آيات الله فى الآفاق] . (قال فما بال القرون الأولى) سألهم فرعون عن شئون القرون الأولى ، فأجابه أن علمها لم يكن من شئون الرسل ، وإنما هو شأن من شئون الله تعالى ، يقصّ علينا ما يرى المصلحة فى تبليغه ، ويخفى عنا ما لا يحتاج إليه فى (قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضلّ ربى) ويبعد عن الصواب فى معرفة شئ منها (ولا ينسى) ما علمه لأن النسيان والضلال من شئون الخلق .

ثم عقب ذلك بقوله (الذى جعل لكم الأرض مهادا) فراشا صالحة للنسج والضرب فيها لطلب الرزق (وسلك لكم فيها سبلا) فلم يجعلها جميعها جبالا حتى لا تكون صالحة للنسج ، ولم يجعلها جميعها بحارا ، بل جعل فيها الماء واليابس ، وجعل فيها الجبل والسهل (وأزّل من السماء ماء فأخرجنا به نزوجا من نبات شتى) مختلف فى طوله وقصره ، ولونه وطعمه ، ودرجة حلاوته وجوضته (كلوا وارعوا أنعامكم) أى آذنين لكم فى الانتفاع بها ، مبيحين أن تأكلوا بعضها وتعلفوا دوابكم بعضها (ان فى ذلك لآيات لأولى البصيرة) فى ذلك كله من الأرض التى مهدها ، وجعل فيها السبل للعيشة ، وانزال الماء من السماء فأنبث به النبات المختلف - فى ذلك كله دلائل وعبر لأصحاب العقول .

وقد سأل فرعون موسى عن القرون الأولى ، فأجابه أن علمها عند الله فى كتاب ، ثم استطرد لذكر آيات الله تعالى ودلائل قدرته ، ليرى قومه آثار ربه فى الأرض . وآثاره فى الزرع الذى ينبت منه ، وآثاره فى الماء الذى ينزل من السماء ، وهى فرصة أتاحت لموسى كيف يصف له ربه ، ويقيم عليه الحجة من الآيات التى يقع عليها بصره وسمعه .

وفى قوله (فأخرجنا) انتقال من لفظ القصة الى لفظ التكليم حيث لم يقل (فأخرج) ايذانا بأنه مطلع تنقاد الأشياء المختلفة لأمره ، وتدعى الأجناس المتفاوتة لمشيئته ، لا يمتنع شئ على إرادته ، ومثله قوله تعالى (وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شئ - ٩٩) (١) وقوله (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ٢٧) (٢) (أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبثنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تغتربوا شجرها ٦٠) (٣)

ثم عقب ذلك كله موسى عليه السلام بالتمهيد للبعث فقال ( منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ) ليرى فرعون أن الاله الذى قدر على البدء قادر على الاعادة ، وإن نشأتنا من الأرض كما قال فى سورة المؤمنون ( ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين « ١٢ » ) وسنعود الى الأرض قصير جزاء منها كما كنا ، ثم يخرجنا الله من الأرض عند البعث .

يرينا الله تعالى بذلك البسط القوى واجه به فرعون مع أنه لم يسأل إلا عن القرون الأولى أنه ينبغي للواظف أن يتحين الفرصة لست وعظه ، وتبليغ دين الله ، وإقامة حجته على الطغاة .

وقد كان من توفيق الله تعالى لى أن طلب منى وأنا مدرس بمعهد طنطا قراءة القصة النبوية فى أيام المولى ، فافتتحت (١) هذه الفرصة ، وأخذت أبلغ الناس دين الله ، وأشرح لهم مضاميه ويسره ، وأنه جاء بسعادة الدنيا والآخرة ، ولاغنى لأحد عن تعليم الله تعالى وهديه الذى جاء به الرسل ، وقد قال وكيل من وكلاء مديرية طنطا بعد سماعه أول مرة : هذا درس علم وهكذا يجب أن تكون الحفلات .

وقد كانت هذه الحفلات تجمع للدير ووكيله ، والأطباء ، ورجال المحاماة ، والأعيان والوجهاء وكانت بفضل الله تعالى موضع سرور جميع الطبقات ماعدا طبقة العلماء الرسميين ! ! وكذلك كنت أطلب باحياء الليالى التى تعودوا إحياءها فى سططا كايلة القدر وعاشوراء والعراج والصف من شعبان . فكنت أحول هذه الحفلات الى عظات ، وتذكير للحكام بما يجب عليهم من العدل ، والتجار بما يجب عليهم من الصدق ، والعلماء بواجبهم من التعليم والإرشاد ، وكنت شديد تكبر على النفاق والمنافقين ، ومداومة ولاية الأمور بما لا يتفق وكرامة العلم ، ومشايعتهم فى الأهواء والشهوات ، وكان يتألم لهذه المحاضرات من يحسون من أنفسهم تلك الأخلاق البهيمية ، من رجال العلم والإدارة ، وكانت العاقبة لهذه المحاضرات نقل الى معهد أسيرت مرتين ليحال بينى وبين ذلك العمل ، ولكننى كنت أقابل ذلك النقل بما ينبغي أن يقابله به كل مصلح واثق بمايقول ، مؤمن بما يدعوا الناس إليه - كل ذلك استفلا للفرصة التى أناحت لى أن أعظ الحكام فى بيوت الله ، وأن أذكر التجار والأعيان الأطباء ، وأدعو كل صنف الى تقوى الله فى عمله ، ومراقبته فيما اتهم عليه .

(٢) ( ولقد أريناه آياتنا كماها فكذب وأبى ) .

يرينا الله تعالى أنه بصره إياها وعرفه مخنها فكذب بها لظلمه ، وأبى أن يخضع لها ويقبلها ، قيل : الآيات تشمل آيات التوحيد وآيات النبوة ، فأيات التوحيد هى التى عرض لها فى الآيات السابقة ، وآيات النبوة هى النسخ : من العصا واليد وخلق البحر وانفجار الماء من الحجر والجراد والقمل والضفادع والدم وتلق الجبل - وقيل المراد بها آيات النبوة فقط .

( قال أجثنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ) .

قال بعض المفسرين : يلوخ من جنب هذه الكلمة أن فرائصه كانت ترعد خوفا مما جاء به موسى عليه السلام ، لعله وإيقانه أنه على الحق ، وأن الحق لو أراد قود الجبال لا تقادت ، وأن

مثله لا يخذل ، ولا يقلّ ناصره ، وأنه غالبه على ملكه لامحالة ، وقوله (بسكرك) تغلل وتغير ، وإلا فكيف يخفى عليه أن ساحرا لا يقدر أن يخرج ملكا مثله من أرضه ، ويطلبه على ملكه بالسحر . وقد شرحنا قصة السحرة وجع فرعون لهم ووعدهم الأجر إذا هم غلوا ، وتهديده لهم بعد الإيمان وعدم مبالاهم بالتهديد - شرحنا ذلك كله في قصة موسى من سورة الاعراف كما بينا غباوة فرعون في قوله لهم ( أنتم به قبل أن أذن لكم ) وأنه لم يدرك أنه ان ملك أجسام الناس فلا يستطيع أن يملك قلوبهم .

والجديد في هذه السورة أن موسى عليه السلام حينما التقي بالسحرة في الموعد الذي ضربه أخذ يعظهم ويقول لهم ( ويلكم لا فتروا على الله كذبا فيسحقكم بعذاب وقد خاب من افتري ) فلا تدعوا آياته ومعجزاته سحرا ، لأنكم ان فعلتم ذلك أهلككم الله بعذاب ، وخيبتم في حياتكم لأن هذه عاقبة المفتري ، وهو ظرف ينفع فيه الوعظ ، ويفيد فيه التذكير ، ومع أنهم خصومه وعظهم ، ولم يئأس من ضمهم إليه وقد أفاد الوعظ ، ونجحت الذكرى ، فأصبحوا من أنصاره بعد أن كانوا من خصومه . وتجذ في هذه السورة أن سحرة فرعون حين أقروا حيلهم وعصيهم خيل الى الراى أنها تسمى ، وأن موسى حين ذلك أضمر خوفا في نفسه ، فطمأنه الله تعالى وقال له ( لا تخف انك أنت الأعلى ) لأنك على الحق ، وبالحق تنطق ، ومن كان على الحق فهو الأعلى ، فهو علو منزلة ومكانة ، وهو تطمين آخر لى الله موسى بأنه سيقب فرعون وملاه ، وستكون له العاقبة ، وهى بشارة لكل من يستعين بربه ، ويعتصم بحالقه ، بأنه لا يخاف من البطل ، ولا يذعر من حزب الشيطان ، لأن كيده ضعيف ، وباطله لا يبق ولا يدوم ، وفي هذا المعنى قول الله تعالى في سورة آل عمران وهو يحرض المؤمنين على الثبات والصبر على الجهاد ( ولا تنهوا ولا تخفوا وأتم الاعلون ان كنتم مؤمنين « ١٣٩ » ) .

وبعد إيمان السحرة وتهديد فرعون لهم بأشد أنواع العذاب ( قالوا ) له ( ان نؤثرك على ما جاءنا من الآيات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا إنا آمنا بربنا لينفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى ) وهى عظات بالغة ، وحكم غالية ، صدرت من قوم امتلات قلوبهم بالحق فازدروا كل شئ في سبيله ، حتى تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، والتمثيل بهم ، إذ رأوا أن ما جاءهم من الأدلة والبراهين لا يقدمون عليها مرصاة فرعون ، وكذلك لا يؤثره على الاله الذى فطرهم وخلقهم ، لذلك قالوا : أحكم بما شئت ، وانفذ ما تريد ، لأنك انما تحكم هذه الحياة المحدودة ، وسنلقى جزاءنا وتلقى جزاءك في حياة بعد هذه الحياة ، ولانستطيع أن نؤثر حياة ثانية على حياة باقية ، إنا آمنا بربنا لينفر لنا خطايانا وينفر ما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير منك وأبقى ، فهو الجدير بالإيمان به .

ثم ختموا العظة بقولهم ( انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ) لا يموت فيها فيستريح من العذاب كما يستريح الميت ، ولا يحيا حياة يستريح لها ، فهو بين الحياة والموت ، لم يتمتع براحة اللوى ، ولا ينعم الاحياء ( ومن يأت مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء من تركى ) ومن آمن ذلك

الإيمان ، ووثق من ربه تلك الثقة ، واقتنع ذلك الاقتناع ، جدير بأن يستخف بهذه الحياة الى حد عدم المبالاة بشيء في سبيل إيمانه . اللهم ثبت إيماننا ، وقوّ يقيننا ، وشدّ عزّمتنا ، كما شددت عزم الذين آمنوا بموسى من سحرة فرعون ، حتى لم يبالوا بتهديد فرعون ، ولا بجبروت فرعون ، ولم يحاولوا قلبهم سوى الخوف منك ، وجعلوا إجلالك فوق كلّ إجلال ، وتوحيذك فوق كلّ توقير وأصبحوا مثلاً عالياً في التضحية والفضيلة ، فكانوا قدوة حسنة وأسوة صالحة .

(٣) (ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبدى) الخ يجوز أن يكون سبب إحياء الله تعالى إلى نبيه موسى بالمجرة أن عدوّ الله فرعون آمن في الايذاء بعد حادث السحرة ، لأن إيمانهم غافله ، ولذلك تهتدّم بتقطع الأبدى والأرجل وتصلبهم في جذوع السخل ، ويدلّ لذلك أن السنة العائمة مع كل رسول أن يأذنه الله بالمجرة فراراً من الاضطهاد ، وليخلص مدين المؤمنين من أمتة من الفتنة .

ثم لما تبعهم فرعون بجنوده في المجرة ليؤذّوهم كان مدبراً له ولجنوده أن يفرق ولومى وقومه أن ينجو ، ويجوز أن يكون السبب الأوّل لمجرة موسى مع قومه هو انجائهم واغراق فرعون ، أما الطريق اليس الذى كان فيه العبور فلم يعلم بالضبط ، ويستبعد صاحب كتاب [قصص الأنبياء] أن يكون العبور من المكان الذى يسمى [بركة فرعون] بينها وبين السويس بضع ساعات يسير السفن .

وبرى أن خليج السويس كان يمتدّ في تلك الأزمان الى البحيرة المرة أو يقرب منها ، وفي هذا الخليج من تلك الناحية كان عبورهم ، وبصورة أخرى أنهم عبروا من مكان شمالى المكان المعروف بعيون موسى في البرّ الأسبوى وهى لاتبعد عن السويس كثيراً اه .

وقولهم (فاضرب لهم طريقاً) أى اجعل لهم ، من قولهم : ضرب له فى ماله سهماً : جعل له ذلك ، وضرب اللبن : عمله ، وتفسره آيات الشعراء ( فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كلّ فرق كالطود العظيم «٦٣» ) فاضرب الطريق نكويته وجعله بواسطة ضرب البحر بالعصى وانفلاقه انفلاقاً يباعده ما بين المرقين حتى صار قاع البحر يابساً يستطيع معه موسى وقومه أن يعبروا البحر ( لاتخاف دركا ولا تخشى ) فى موضع الحال . أى حال كونك لاتخاف أن يتركك فرعون ، ولا تخشى ذلك ، وقرئ ( لاتخف ) على الأصم ، وقوله (فتشيهم من اليمّ ماغشيهم) أى غطاهم من الماء شيء كثير لا يعلم كنهه إلا الله ( وأضلّ فرعون قومه وماهدى ) أضلهم طريق الهدى ، وأهدى عن الرشد ، ولم يرده الله بهذا أن يعتذر عن قوم فرعون ، وإنما يريد أن عقوبة طاعتهم لفرعون وبمالاته ذلك الضلال البعيد ، وماذا عليهم إذا هم خرجوا على فرعون ، ولم يبالوا بوعيده كما خرج عليه السحرة ؟ وهل أعان فرعون على ضلاله واضلاله سوى ضعف قومه وهوان شعبة عليه ؟ ولو أنه رأى منهم صلابة فى الحق ، ونفرة من الظلم ، واستنكاراً للباطل ، ما وصل فى طغيانه إلى ذلك الحد ، وحسبنا أن الله تعالى يقول فيه وفى قومه ( فاستخفّ قومه فأطاعوه ) انهم كانوا قوماً فاسقين «٥٤» (١) وقوله (وماهدى) تهكم بفرعون فى قوله (وما أهديكم إلا سبيل الرشاد «٢٩» (٢) ) .

ثم أخذ يذكر بني اسرائيل بنعمه ويسرد لهم فضله عليهم علمهم يستفيدون من ذلك التذكير ، ثم ختمه بقوله (واي لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) وهو كقوله تعالى حكاية عن الذين يحملون العرش ومن حوله في استغفارهم للذين آمنوا (فاغفر للذين تابوا وانبعوا سيلاك وقهم عذاب الجحيم «٧»<sup>(١)</sup>) حتى لا يطمع في الغفرة من هو مصير على العصية دائب على مغاضبة الله تعالى فان ذلك خلاف سنته ، ولذلك كان دعاء اللاتكة بالغفرة للذين تابوا وانبعوا سبيل الله ، وهو المراد بقوله (وعمل صالحا ثم اهتدى) .

### موسى عليه السلام

وَمَا أَتَجَلَّكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى «٨٣» قَالَ ثُمَّ أَوْلَاءَ عَلَى أَثَرِي وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى «٨٤» قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ «٨٥» فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَوْعِدِي «٨٦» قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا<sup>(٢)</sup> وَلَكِنَّا كُنَّا مُلْكًا أَوْ زَارًا<sup>(٣)</sup> مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلَقَى السَّامِرِيُّ «٨٧» فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا<sup>(٤)</sup> لَهُ خَوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ «٨٨» أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا «٨٩» وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي «٩٠» قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى «٩١» قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا «٩٢» أَلَا تَتَّبِعُنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي «٩٣» قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِمُخْبِتِي وَلَا بَرَأَيْتُ إِلَى خَشِيَّتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي «٩٤» قَالَ فَمَا خَطْبُكَ<sup>(٥)</sup> يَسْمِرِيُّ «٩٥» قَالَ بَصُرْتُ<sup>(٦)</sup> بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ<sup>(٧)</sup>

[١] غافر . [٢] بأن ملكنا أمورنا . [٣] جمع وزر ، وهو الثقل والحمل .

[٤] عيلا قد خلا من الروح ، وخوار : صوت . [٥] قمطك وشباك .

[٦] علت ما جهلوا . [٧] تعاليمه .

الرَّسُولَ فَبَدَّلَهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ قَاذِهِبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴿٩٧﴾ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ مَا كُفًّا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٨﴾ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٩﴾ ط

### شرح وعبرة

(١) (وما أعجلك عن قومك يا موسى) أى شئ يعجل بك عنهم ، ينكر عليه ذلك ، وكان قد مضى مع النقاء إلى الطور على الموعد المضروب وقد بين الله ذلك الموعد في سورة الأعراف بقوله (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأعمناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المنسدين «١٤٢» ) ثم قال ( واحتار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا «١٥٥» ) وهذه الآية التي نحن بصدد شرحها ترينا أن موسى عليه السلام سبق قومه في لقاء الله تعالى ، فسأله عن السبب منكروا عليه ذلك السبب ، فكان جوابه ( هم أولاء على أترى ) ليس بيني وبينهم إلا التقدم بسير لا يعتد به في المادة ، وليس بيني وبين من سبقته إلا المسافة قريبة ، يتقدم بثلاثها الوفد - رأسهم ومقدمهم .  
ثم عقب ببيان السبب في ذلك في قوله ( وعجلت إليك رب لترضى ) فقد سبقتنا النقاء تشوقاً إلى رضاك ، ونجحنا الموعدك .

( قال فإنا قد فتننا قومك من بعدك وأضلهم السامرى ) أخبره الله أنه قد اختبر قومه من بعده ، وابتلاهم بالعجل الذى صنع السامرى من حلى القوم .  
وقد نسب الضلال إلى السامرى ، لأنه هو الذى استغى جهالهم ، وألهمهم الوثنية وصنع لهم صورة تشبه العجل ، وجعله صوتاً كصوته ، ولولا أن السامرى وجد من القوم استعداداً لذلك الخرافة ماضياً ( فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً ) شأن الرجل الذى يحرس على الحق أن يذهب ، وعلى مجبوده أن يصنع سدى ( قال يا قوم أم يعدكم ربكم وعداً حسناً ) إذا أنتم بقيتم على الإيمان ( أوطال عليكم المهد ) مدة مفارقتي لكم ( أم أردتم أن يحلّ عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي ) .

يريد أم هي شهوة ومحبة للشرك حلّكم على ذلك العمل المضى لله تعالى فتقضتم موعدي معكم بأنكم لا تعودون إلى الشرك ، ولا ترجعون إلى الوثنية ( قالوا ما أخلفنا موعداً بملكنا ) باختيارنا وقدرتنا ( ولكننا حللنا أوزارنا من زينة القوم فقدفناها فكذلك ألقى السامرى ) حللنا أحمالنا من حلى القط التى استعناها منهم ، فقدفناها في نار السامرى التى أوقدها ( فكذلك ألقى السامرى ) أراهم أنه يلقى حلياً في يده مثل ما ألنوا ( فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار ) وقوله

(جدا) إشارة إلى أنه هيكّل خال عن الروح كقوله (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب «٣٤» (١))

يريد هيكلا قد خلا عن آثار الحياة (فقالوا هذا الحكم وإله موسى ففسى) أى نسي موسى أن يطلبه هنا وذهب ليطلبه عند الطور ، أوفسى السامرى وترك ما كان عليه من الإيمان (أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نقما) تفرغ لعباد العجل وتوبيخ لهم بأنهم بلغوا من الشبوة حدا كبيرا ، إذ يعبدون هيكلا لا يرجع إليهم قولا إذا هم طلبوه ، ولا يملك لهم ضرا إذا هم خالفوه ، ولا نقما إذا هم أطاعوه (ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتموني وأطيعوا أمرى قالوا لن نبرج عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى) .  
يرينا أن هارون قد نهام عن عبادته وحلهم على عادة الرحمن فعصوه وأصرّوا على شركهم (قال يا هارون مامنك إذ رأيتهم ضلوا أن لا تنبعن أفضيت أمرى) أى مادعاك وحلاك على أن لا تنبغى فى وصيتى إذ قلت لك (اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تنع سبيل المفسدين «١٤٢» (٢)) فلم ترك قتالهم ونأديهم ؟ (قال يا ابن أم لا تأخذ بلعيتى ولا برأسى افى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم تقرب قولى) يريه أن الحامل له على عدم قتالهم خشية التفرق لوقالت بعضهم ببعض نفثت عتابك على اطراح ما وصيتنى به من ضمّ التفرق ، وحفظ السماء ، ولم يكن لى بد من ملاحظة وصيتك ، والعمل على موجها ، وفى سورة الأعراف يقول (إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلونى فلا تشمت فى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين «١٥٠» (٣)) .

وعذر نبيّ الله هارون مجموع الأمرين : حرصه على وصية أخيه موسى ، وخوفه أن يتفرقوا إذا حارب بعضهم بعضا ، وضعفه أمامهم وقربانهم من قتله ، فرأى أن يدع للسألة الى حضور أخيه موسى فيأخذ رأيه فيما يجب أن يكون .

ومن المعجب أن يكون حرص هارون على وصية موسى مدعاة للوم أخيه عليه ، وعلى كلّ فالمسألة خلاف فى الاجتهاد فى الحطة التى كان ينبغي أن يكون عليها هارون ، فهو يرى رأيا لم يوافق عليه موسى ، والأمور الاجتهادية يختلف فيها الناس اختلافا كبيرا ، والخطأ فيها مغفور ، ولذلك قال موسى عقب غضبه على هارون (رب اغفرلى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين «١٥١» (٤)) .

(٧) (قال فما خطبك يا سامرى قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى) .

بعد انتهاء موسى من تعنيف أخيه هارون رجع إلى السامرى وسأله قصته ، فقال له السامرى (بصرت بما لم يبصروا به) علمت ما لم يعلموا (فقبضت قبضة من أثر الرسول) أخذت طائفة من تعاليم الرسول وهو موسى (فنبذتها) طرحتها (وكذلك سولت لى نفسى) زيفت وحسفت ، وهى مسألة انتصر فيها العلم على الجهل ، والقوة على الضعف ، فالسامرى كان أعلم من بنى إسرائيل بشئون المعادن ، وكيف تصاغ وتحول من شكل إلى شكل ، وأنها إذا وضعت على هيئة عجل ،

وجعل فيه تجويف يمرّ منه الهواء أحدث ذلك التجويف بواسطة مرور الهواء صوتا يشبه صوت العجل ، ثم يرى بنى إسرائيل أن ذلك العجل هو إله موسى الذى كان يطلبه ففسه فى ذلك المكان حين ذاك (قال) له نبيّ الله موسى (فأذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لامساس) .

وأظهر ما قيل فيه قول مقاتل : أن موسى عليه السلام أخرجه من محلة بنى إسرائيل وقال له اخرج أنت وأهلك ، فخرج طريقا إلى البرارى ، وللعنى أنى أجعلك ياسامرى فى بعدك عن الناس بحيث لو أردت أن تخبر غيرك من الناس عن حلاك لا تجد إلى ذلك سبيلا ، ولا تستطيع إلا أن تقول لامساس ، ومعناه نبيّ السامرى من ديار بنى إسرائيل ، لأنه مفسد مضلّ ، فمن المصلحة أن يحال يده وبين الشعب الاسرائيلى حتى لا يفسده مرة أخرى ، ذلك حظه فى الحياة ، أما حظه فى الآخرة فقد بينه الله فى قوله (وإنّ لك موعدا لن نخلفه) يعاقبك الله فيه العقوبة الكبرى ، ويجزيك الجزاء الأوّلى (وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقته ثم لنفسه فى اليمّ نسفا) وهو إصلاح آخر من نبيّ الله موسى ، وإهانة واضحة لعباد ذلك العجل الذى اتخذوه السامرى ، وهو تحريكه ولو كان عباد العجل فيهم ذرة من العقل لرجعوا إلى أنفسهم فحكموا عليها بالظلم ، إذ عبدوا إلهها لا يدفع عن نفسه ضرا ، ولا يجلب لعابديه نفعا ، وما أشبه ذلك بما صنعه نبيّ الله إبراهيم عليه السلام بالأصنام التى عبدها قومه ، فجعلها قطعاً صغيرة ، لينزل بها من يدها ، ويجرّكه للنظر ، ويلهب نفسه للبحث عن الحق ، وبعد تحريك ذلك العجل ينسفه فى البحر ، وعمل موسى عليه السلام هو قطع جذور الشرك ، وقضاء على ذرائع الوثنية ، وسدّ لمرائع الفساد ، فتنا بالسامرى ففاه وحال يدهم وبينه ، وعبدوا العجل الذى صنع من الذهب خرقه ونسفه فى البحر ، حتى لا يبقى فى نفوسهم ذرة من الاشباه فيه والفتنة به .

وكذلك فعل عمر حين رأى الناس أخذوا يتبرّكون بالشجرة التى حصت عندها البيعة وقطعها ليستأصل جذور الشرك ، وذرائع الوثنية . فاللهم وفقنا للتأسي بالسابقين الصالحين ، والاهتداء بأعمال الرسل المتقدمين ، وسألك أن تبصرنا بدينك ، وتهدينا للعمل بكتابك .  
ثم ختم النصّ بقوله (إعنا إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كلّ شيء علما) .

### موسى عليه السلام

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٥٥﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٥٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِبُدُونَ ﴿٥٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٥٩﴾ الْمُؤْمِنُونَ



## شرح وعبرة

(١) (ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين) أى إرسالاً مصحوباً بالآيات (وسلطان مبين) من السلطة، وهى الحكمة من الفهم (ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم «٩٠» (١)) ومنه سمي السلطان، وهو يقال فى السلطة نحو (ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً «٣٣» (٢)) وقوله (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون «٩٩» إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون «١٠٠» (٣)) . وقوله (يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان «٣٣» (٤)) (و يطلق السلطان على الحجة لما فيها من الهجوم على القلوب والتمسك عليها ، ومنه قوله تعالى (فأتونا بسلطان مبين «١٠٠» (٥)) أى بحجة واضحة ، فيحتمل أن يكون السلطان هنا هو الحجة ذات التسلط على الخصم ، ويكون ذكره بعد الآيات لبيان أن هذه الآيات هى دلائل على قدرة الله تعالى وصدق رسوله موسى عليه السلام ، ومن هذه الناحية كانت آيات ، ومن ناحية أخرى هى ذات سلطان وقهر لمن يطلق عليها معتبراً بها ، ويجوز أن يكون السلطان هنا حجة خاصة هى آية العصا ، وسماها سلطاناً مع أنها داخلية الآيات إشارة إلى أن قوتها قوة ممتازة حتى كأنها نوع آخر لتلك خصصها بالذكر وقيل : إن السلطان هنا هو سلطان القلب المعنوى ، والفهم الأدبى ، وهو فوق السلطان المادى وهو الذى يدل عليه قوله فى سورة طه (لا نحب إنك أنت الأعلى «٦٨» وأنى مافى بينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى «٦٩» ) وكأنه يقول : ولقد أرسلنا موسى مصحوباً بآيات الصدق وسلطانه للمعنى على فرعون وملاته .

وقد وصف السلطان بأنه مبين لأنه ظاهر لكل من قرأ قصة فرعون مع موسى ، وظاهر لقوم موسى ، وآية ظهوره استعانة فرعون بالسحرة ليطلوا عمل موسى ، ثم ازواجه من إيمانهم بموسى بعد أن عرفوا أنه رسول من قبل الله تعالى لا ساحر ، ثم تهديده لهم على الإيمان وربهم بأنهم متواطئون معه على هدم فرعون وملك فرعون ( إلى فرعون وملاته فاستكبروا وكانوا قوماً عابدين ) فاستكبروا عن الانقياد ، وكانوا قوماً شأنهم مجاوزة الحدود والتكبر ، والجهة تربنا أن ذلك خلق فيهم لم يكن من الأعراض التى تطرأ وتزول ( فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون ) قالوا ذلك فيما بينهم بطريق المناجحة ، أنؤمن لرجلين من البشر مماثلين لنا فى البشرية والحال أن قومهما هم بنو إسرائيل خادمون منقادون لنا كالعبيد ، وكأنهم قصدوا بذلك الحط من شأنهما عليهما السلام ، وتزول مرتبتهما عن منصب الرسالة من وجه آخر غير البشرية ، وهو أن بنى إسرائيل الذين يشعرون دعوتهم عبيد لنا ، ولا فرق بينهما وبينهم ، وكأنهم قالوا على وجه الإنكار : أنؤمن لرجلين مساويين لنا فى البشرية ؟ وتلك هى الشبهة التى أوردها أقوام الرسل عليهم وردّها الله عليهم فى سورة الفرقان وسورة الأعراف وكثير من السور .

ثم عرضوا بشأن الرسل وقالوا : إن قومهما عابدون لنا فكيف نؤمن بهم ونسوى أنفسنا .

بأولئك العبيد في طاعة موسى وهارون ؟ وهو كقول الملائكة من قوم نوح ( أنؤمن لك واتبعك الأزدلون ) يريدون أنه لا يصح أن نكون قراء لأولئك الأقوام الذين هم أدنياء في المنعة ونحن على ما نحن عليه من عظمة وقوة ، كذلك فرعون لا ينبغي أن يكون مع عابديه في قرن واحد ، تربطهم ملة واحدة ، ودين واحد ، وذلك هو الامعان في التكبر ، والغلو في احتقار الناس والاستخفاف بهم ( فكذبوا فما كانوا من المهلكين ) من كان هذا حاله فكذبه بالرسالة التي أرسله الله طيبي حالته الفسيفة ، فكان عاقبة التكذيب إهلاك الله لهم بالفرق ( ولقد آتينا موسى الكتاب لعلمهم بهتدون ) .

يرينا الله تعالى أن التوراة التي أنزلها الله على نبيه موسى كانت بعد غرق فرعون وأنها كقبة الكتب السماوية أنزلها الله نورا وهداية ، فأمن بها من آمن ، وكفر بها من كفر .

### موسى عليه السلام

وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ «١٠» قَوْمَ فِرْعَوْنَ  
أَلَا يَتَّقُونَ «١١» قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ «١٢» وَيَضِيقُ صَدْرِي  
وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ «١٣» وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ  
يَقْتُلُونِ «١٤» قَالَ كَلَّا فَإِذْ هَبَا بَيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ «١٥» فَأَتِيَا  
فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ «١٦» أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ «١٧»  
قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكُنَا وَلِيدًا وَلِئْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكُ سِنِينَ «١٨» وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ  
الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ «١٩» قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ  
الضَّالِّينَ «٢٠» فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَ خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي  
مِنَ الْمُرْسَلِينَ «٢١» وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتُ «٢٢» بَنِي إِسْرَءِيلَ «٢٣»  
قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ «٢٤» قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ  
كُنْتُمْ مُوقِنِينَ «٢٥» قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمِعُونَ «٢٦» قَالَ رَبُّكُمْ  
وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ «٢٧» قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ

لَجُئُونَ «٢٧» قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ «٢٨»  
 قَالَ لَنْبَنِ اتَّخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ «٢٩» قَالَ أَوْلَوْ جِشْتُكَ  
 بِشَيْءٍ مُبِينٍ «٣٠» قَالَ قَاتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ «٣١» فَأَلْقَى عَصَاهُ  
 فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ «٣٢» وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ «٣٣» قَالَ  
 لِلسَّلَا حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ «٣٤» يُرِيدُ أَنْ يُفْجِرَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ  
 بِسِحْرِهِمْ فَإِذَا تَأْمُرُونَ<sup>(١)</sup> «٣٥» قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ «٣٦»  
 يَا تُؤْكِبُ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ «٣٧» فَجَمَعَ السَّحَرَةُ لِيَقْتِ يَوْمَ مَعْلُومٍ «٣٨»  
 وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ «٣٩» لَعَلَّنَا تَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا مِنْ  
 الْعَالَمِينَ «٤٠» فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنْ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ  
 الْعَالَمِينَ «٤١» قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ «٤٢» قَالَ لَهُمْ مُوسَى  
 أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ «٤٣» فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِرِزْقِ فِرْعَوْنَ إِنَّا  
 لَنَحْنُ الْعَالِمُونَ «٤٤» فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ<sup>(٢)</sup> مَا يَأْفِكُونَ «٤٥»  
 فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجُودِينَ «٤٦» قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ «٤٧» رَبِّ مُوسَى  
 وَهَارُونَ «٤٨» قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي  
 عَلَّمَكُمُ السَّحَرَ فَلَا سَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلْفٍ  
 وَلَأَصْلَبَنَكُمْ أَجْمَعِينَ «٤٩» قَالُوا لَا صَبْرَ<sup>(٣)</sup> إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ «٥٠» إِنَّا  
 نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ «٥١» وَأَوْحَيْنَا إِلَى  
 مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِمَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ «٥٢» فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ  
 حَاشِرِينَ «٥٣» إِنَّ هَؤُلَاءَ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ «٥٤» وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ «٥٥»

وَأَنَا لَجَمِيعٌ حَاضِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ ﴿٥٨﴾ كَرِيمٍ ﴿٥٩﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتَتْهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَأَ الْجُمُاعَانِ قَالَ أَتَعْجَبُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمَذْكُورُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَقْنَا ﴿٦٤﴾ ثُمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ الشعراء

### شرح وعبرة

(١) بدأ في هذه القصة بعد قوله في أول السورة ( تلك آيات الكتاب المبين ٢٥ ) لئلا يخفى على القارئ أن لا يكتفوا بمؤمنين ﴿٣﴾ إن نشأ نزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴿٤﴾ .

بعد أن أراه الله أنه يشفق عليه أن يقتل نفسه حسرة على ما فاتته من اسلام قومه أمره أن يذكر قصة نبي الله موسى مع عدو الله وعدوه فرعون ليقبلى بهذه القصة ، ويتأسى بذلك الصبر الذي كان من نبي الله موسى وأخيه هارون ، فقال له ( وإذ نادى ربك موسى ) الخ ، وقوله ( ألا يتقون ) تعجيب لموسى عليه السلام من حالهم التي شغقت في الظلم والفساد ، ومن أمنهم العواقب وقلة خوفهم من أيام الله ( قال رب انى أخاف أن يكذبون ) الخ .

من عادة القرآن في القصص أن يحمل في بعض السور ما يسطه في بعض آخر ، وقد بسط الله خوف موسى من بطش فرعون ، وطلبه أن يحل عقدة من لسانه ، وأن يشرح صدره ، ويجعل أخاه هارون وزيراً له يساعده في الأمر ويشد به الأزر في سورة طه ، وقوله ( ويضيق صدرى ولا ينطق لسانى ) عطف على قوله ( انى أخاف أن يكذبون ) والمراد أنه يخشى بطش فرعون به . وعنده من عقدة اللسان ما لا يمكنه من بسط الدعوة وإقامة الحجة .

لذلك طلب أن يرسل الله إلى هارون ليكون وزيراً معه ، وهارون أفصح لساناً منه كما قال ( وأخى هارون هو أفصح منى لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقنى انى أخاف أن يكذبون ﴿٣٤﴾ ) (١) والردء : المعين والناصر ، وهو المراد بالوزير في سورة طه ، وقوله ( ولهم على ذنب فأخاف أن

يقتلون) قد شرحه الله تعالى في سورة القصص ، وبين أن رجلين اقتتلا وكان أحد المقتلين من شيعة موسى ، وأنه استغاثه الذي من شيعة على الذي من عدوه فضر به موسى فأت خطاً ، وسترها مفصلة في سورة القصص (قال كلا فاذهابا بآبائنا إما معكم مستمعون) لاعتذر لكما في التأخر عن دعوة موسى ، وعلل ذلك بقوله (إنا معكم مستمعون) وقال في سورة طه (لأنهما أتيا معك أسمع وأرى «٤٦» ) .

ثم طالبهما بأن يقولوا لفرعون ( إنا رسول رب العالمين أن أرسل معنا بني إسرائيل ) وفي سورة طه ( ولا تعذبهم ) فيقول فرعون لموسى بعد أن بلغه رسالة ربه ( ألم نريك فينا وليداً ولبث فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين ) فرد عليه موسى بقوله ( فقلها إذا وأما من الضالين ) أى قبل أن يهديني الله بالرسالة ، لأن الرسول قبل أن يوحى إليه ضال ( ووجدك ضالاً فهدى «٧» )<sup>(١)</sup> ( وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان «٥٣» )<sup>(٢)</sup> وأالضالين : المخطئين ، مكن يقتل خطأ من غير عمد للقتل ، أو الضالين : الضالين عن الصواب الناس من قوله ( أن تضلّ إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى «٢٨٢» )<sup>(٣)</sup> وقوله ( ففررت منكم لما خفتكم فوهد لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين ) رد على قول فرعون : ألم نريك فينا وليداً بأن لا مانع من أن أتربى عندك ثم بعثني الله إليك ، ولا مانع من أن يختص من شاء بما شاء من الفضل ، فتربى عندك في الصغر لا تظعن في رسالتى ودعوتى لك إلى الله تعالى ، وهل وجود فضل لك على فى الصغر يمنعنى من تبليغ رسالة الله إليك ؟ وأى صلة بين هذه وهذه ؟ وهل دعوتك إلى الله كفران لنعمتك على وأنا صابر ؟

ثم أراد موسى أن يكرّ على امتنان فرعون بالترية فيبطله من أساسه وأبى عليه أن يسمى هذه النعمة إلا نعمة فقال ( وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل ) يريد أن حقيقة انعامه عليه تعيد لبنى إسرائيل وإذلال لهم ، لأن سبب تربيته لموسى خوف أمه من ذبح الأبناء واحتياج النساء ، فكانت نعمة لبنى إسرائيل تسبب عنها نعمة لبنى الله موسى ، والشر إذا سبب حيراً لا يؤجر عليه فاعل الشر ، ولا يصح له أن يفتن به ، وكان موسى يقول أتريد أن تفتن على بالترية وما جاءت إلا لتنفيذ خطة استبعاد بنى إسرائيل وتذبيح أبنائهم ؟ دع النعمة بهذه الحسنة فانها مغمورة بنعمة أكبر منها .

وقد كان موسى فى هذه الحاجة شديد الذكاء حاضر البديهة ، لم يلبث فرعون أن يذكره بنعمة الترية حتى عقبها موسى بنعمة التعيد لبنى إسرائيل ، وحين ما قال له أنذكر نعمة الترية ، رد عليه بقوله : أنذكر سبب هذه النعمة والظروف المحيط بها ؟ وهل سلمت لك هذه النعمة وحببت لك فضلاً ؟ مع أنك لم تقصد إليها وإنما قصدت إلى الشر فكان الخير .

(٢) (قال فرعون وما رب العالمين) الخ أخذ فرعون يناظر موسى ويسأله عن رب العالمين الذى بعثه إلى الناس ، (فقال) له موسى : هو (رب السموات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين) أى من أهل الايقان .

هنا لك عجب فرعون من قول موسى، و (قال لمن حوله) من اللاء (ألا تسمعون) ففقب موسى على ذلك الانكار بقوله (ربكم ورب آبائكم الأولين) فهو الذى خلقكم وخلقه، وهو الذى رباكم فضله وربكم، فليس ربكم فرعون، وإنما هو عبد من عبيد الله، خاضع لسلطته، مستعد لما يقضى به عليه. عند ذلك تحرك فرعون، لأن موسى حاول أن يأخذ القوم منه فقال (ان رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون) وكيف لا يكون مجنوناً وقد تجاهل فرعون، وجبروت فرعون فزادهم موسى بقوله (ربّ للشرق والغرب وما بينهما ان كنتم تقاتلون) تفهمون قيمة ذلك القول، وحقية هذا الكلام.

هنالك عمد فرعون الى البطش، ولجأ الى الوعيد والتهديد، لأنه لم يجد حجة يردّ بها قول نبيّ الله موسى (فقال لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين). لم يقف فرعون عند تعذير قومه من اتباعه، وتخويفهم من الاستماع له، بل طمع في أن يتخذهم موسى إلهاً، وهو أسلوب خيث في تهديد القوم، وحلهم على بقائهم على ما هم عليه، وكأنه يقول لهم: ها أنا أهدد ذلك الرسول بالسجن إذا هو اتخذ إلهاً غيرى، ولا بدّ له من أن يدع ذلك الإله الذى يدعوكم إليه، ويتخذنى إلهاً.

وإذا كان موسى منبهاً عن اتخاذ إله غير فرعون فكيف بينى اسرائيل؟ فيقول له موسى عليه السلام في لطف (أولوجئتكم بشئ مبین) يريد أن تصرّ على أن تسجدى ولوجئتكم ببرهان بين واضح على صدق؟ وهو استدراج لفرعون حتى يدع التهديد بالقوة المادّية، وإلجاءه الى رؤية الأدلة، والاطلاع على الآيات، هناك (قال) فرعون (فأت به ان كنت من الصادقين) هنالك ألقى العصا فاقتلت ثعباناً واضحاً للناس (وترج يده فاذا هي بيضاء للناظرين) وهنالك استفسار أشرف قومه ماذا يصنع مع موسى؟ وهنالك استفسر أولئك اللاء بقوله (يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره) وهى كلمة تنفّ عن ضعف فرعون أمام الحق، وخذلانه أمام الدليل والبرهان، فأشار عليه لللاء أن يؤخر أمره وأمر أخيه ويبحث حاشرين في المدائن يأتيونه بكلّ - سحار عليم، (فلما جاء السحرة قالوا لفرعون آئن لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين) (فقال نعم) لكم الأجر، ومع ذلك تسكونون من المقرين منى، وهو دليل آخر على ضعف فرعون ومسالمة على الانتصار على موسى، وهنالك ألقى السحرة الحبال والعصى (وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون) يحتمل أن يكون هذا قسماً من إيمان الجاهلية، ويحتمل أنه استعانة بعزة فرعون على القلب، وقد خذلهم الله فغلب موسى، لأن المعتز بغير الله لابد أن يذلّ، ثم آمن السحرة بموسى، وإله موسى، فهتدم فرعون، فلم يبالوا بذلك التهديد، و (قالوا لاضير إنا الى ربنا منقلبون إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين) وقد بسطت شرح قصة السحرة والسحر في سورة الأعراف.

(٣) (وأوحينا إلى موسى أن أسر ببداى إنكم متبعون).

علل الأسراء باتباع فرعون وجنوده لهم ليوقصوا بهم الأذى، وسبب ذلك الاتباع إيمان السحرة وأن صاروا من جند موسى بعد أن كانوا من حزب فرعون، وكان إيمان السحرة مدعاة

لافتتاح فرعون ، لأنهم كانوا علماء لهم قيمتهم ، فكان لايمانهم ضجة كبرى ، وقد أحدثت في حاشية فرعون هزة عنيفة ، وزلازا كبيرا ( فأرسل فرعون في المداين حاشرين إن هؤلاء لشرذمة قليون وإنهم لنا لقاتلون وإنا لجميع حاذرون ) .

استصرخ فرعون قومه ، واستنثت عشيرته ، وبعث في مداين ملكه من يحشرون الناس إليه ، ويجمعونهم حوله ، ليكونوا تحت أمره ، قائلين في دعوتهم ( إن هؤلاء لشرذمة قليون ) يريدون حزب موسى الذى آمن به وفيه السحرة ، وأنهم مع قتلهم لقاتلون لنا ، واتنا جميعا لحذرون من ظفرهم بنا ، واتصارهم علينا ، وهى كلمة تمثل سلطان الحق على الباطل ، وما يحسن به حزب الشيطان من حزب الرحمن .

ربنا هذه الكلمة أن أنصار الحق على قتلهم هم قذى فى أعين حزب الشيطان ، وشعجى فى حاوقهم لا يبدأ لهم بال مع وجودهم ، ولا يستريح لهم ضمير ماداموا فيهم ، وهى آية كبرى من آيات الله فى الحق والباطل سبق ببقاء السنن .

يعترف فرعون وحزبه أن قوم موسى طائفة قليلة ، أما فرعون فعه الملك وصلواته ، والحكم وعظمته ، مع الخدم والخشم ( أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي « ٥١ » ) (١) معه ذلك كله ، وليس مع موسى إلا ربه الذى خلقه ، وقلبه الذى بين جنبيه ، وإيمانه الذى يتصم به ، وعقيدته التى يطمئن إليها ، يخاف فرعون موسى ، ويخشى عاقبته ، ويقول فى وصفه ووصف من معه بصيغة المؤكد ( وإيهم لنا لقاتلون وإنا لجميع حاذرون ) فليعتبر بذلك أرباب السلطان ، وأصحاب النفوذ والجاه ، وليعلموا أن سلطانهم لن يصل إلى سلطان فرعون ، وملكهم لن يبلغ ملكه ، ومع ذلك كان فرعون وجده خائفين من موسى وجلين ، شأن البطل مع الحق ، والتكبر مع المتواضع ، والمعتز بنفسه مع المعتز بالحق ( فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ) الخ .

ربنا أنه أخرج فرعون وقومه من هذه الجنات التى كانوا ينامون فيها ، والعيون والمفجرة فى هذه الجنات وفى غيرها ( وكنوز ) فيها المال ، وحال بينهم وبينها ، فلم ينتفعوا بها ، وكان ذلك إجابة لدعوة نبي الله موسى ( ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم « ٨٨ » ) (٢) .

ولاشك أن إخراج فرعون وملأه من المال الذى كنزوه طمس له ، وحرمان لفرعون وقومه منه ( ومقام كريم ) موضع للإقامة حسن وهى المنزل البهجة ، أخرجهم الله من تلك النعم وأورثها بنى إسرائيل ( فأتبعوهم مشرقين ) عند شروق الشمس ، وهوى يدل على حرص القوم على إدراك قوم موسى ( فلما تراوا الجمعان ) جمع موسى وجمع فرعون ( قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال كلا إن معى ربي سيهدين ) إلى سبيل النجاة منهم ، لأنه هو الذى أمرنى بالمجزة .

وما أحسن هذه الثقة التى بثها نبي الله موسى بربه إذ يقول لقومه حين خافوا ( كلا ) لا تخافوا ( إن معى ربي ) بالمعونة والتأييد ، ومن كان الله معه فلن ينلبه أحد ( سيهدين ) إلى ما فيه مصلحتى ومصلحتكم .

رحيم ذلك أوحى الله إلى موسى أن يضرب بصاه البحر ، فضربه موسى فانفلق البحر فرقين فكان كل فرق كالجلل العظيم في علاؤه ، وقرب الله الآخرين وهم قوم فرعون من بنى إسرائيل ، أو أدنى بعضهم من بعض حتى لا ينجو منهم أحد ، وأنجى الله موسى ومن معه أجمعين ، ثم أغرق الآخرين ، ثم قال ( إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك هو العزيز الرحيم ) في نجاة موسى ومن معه ، وغرق فرعون وشيعته آية كبرى من آيات الله في الأرض ، وما تنبه عليها أكثرهم ، ولا انتفع بها غالبهم ، وهو يفيدنا أن الذي غرق مع فرعون هم طائفة من قومه ، ولذلك قال في بعض الآيات ( فأتبعهم فرعون وجنوده ) وأن الذي بقي بلا غرق لم ينتفع بهذه الآيات ، وبقي على شركه ووثنيته ( وإن ربك هو العزيز الرحيم ) غاب على أممه لا يعجزه شيء ، رحيم بخلقه في عقوبته ..

### موسى عليه السلام

إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَاءَتِ بَكُم مِّنْهَا بَحِيرٌ أَوْ أَسَافٌ أَوْ يَشَافٍ قَدَسِيَ أَمَلُكُمْ تَصْطَلُونَ «٧» فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي الدَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ «٨» يُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ «٩» وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ «١٠» إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ «١١» وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ يَيْضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي ثِيَابٍ رَّابِتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَآوُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ «١٢» فَلَمَّا جَاءَهُمْ بَايَنًا مُّبِينَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ «١٣» وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَدْبَقَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ «١٤» النمل

### شرح وعبرة

(١) الجديد في هذه القصة أن موسى عليه السلام حينما وصل المكان الذي فيه النار نودي أن بورك من في النار ومن حولها ، وللمراد بمن في النار من في مكانها وهو موسى لقربه منها ، وبمن حول مكانها الملائكة ، والمكان هو البقعة المباركة التي وردت في سورة القصص ( فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين « ٣٠٠ »



ومجموع الآيات يعطينا أن الله تعالى بارك من في النار ، ومن حول النار ، كما جعل البقعة التي حصل فيها كلام الله لموسى مباركة . والسبب في أن هذه البقعة بورك وبورك من فيها وحواليها حدوث هذا الأمر العظيم فيها ، وهو تكليم الله موسى عليه السلام ، وجعله رسولا ، وإظهار المعجزات على يديه ، ولهذا جعل الله أرض الشام موسومة بالبركات في قوله ( ونجيناه ولوفا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين « ٨١ » )<sup>(١)</sup> وحقت أن تكون كذلك ، فهي مبعث الأنبياء ومهبط الوحي ، وكفأت<sup>(٢)</sup> الأنبياء أحياء وأمواتا ( وسبحان الله رب العالمين ) تنزيه لله تعالى عما لا يليق به من صفات المخلوقين كالكول أو اتحاد أو غير ذلك .

وذلك التنزيه كالتهميد لاعلام موسى أن كلام الله له ووحيه إليه لم يكن على نحو كلام المخلوقين بعضهم مع بعض ، وقيل : إنه تعجب لموسى من ذلك الأمر : كأنه يأمره بأن يقول ( سبحان الله رب العالمين ) واذن بأن ذلك الأمر مراده ومكوبه رب العالمين ، وفي اختيار كلمة ( رب ) إشعار بأن ماسيلقاه موسى عليه السلام من الله تعالى هو من باب تربية العالم تربية روحية ، لأنه شريعة والشرائع مربية للروح ، كما أن النعم الظاهرة تربي الجسم ، ولا غنى للإنسان عن تربية روحه مع تربية جسمه . وقوله ( ولم يعقب ) أى لم يرجع بعد أن ولى .

وقد خاف موسى لأنه لم يألف أن تنقلب العصا شعبا يمشى في الأرض بسرعة وخفة ، ولذلك أطلق عليه جان ، فانه الثعبان الصغير الذي يمشى بسرعة ، ومن جهة أخرى قد يظن موسى أن انقلاب العصا نسي لأمر أريد به تكفيرا لما حصل منه قبل النبوة ، ولذلك قال الله له ( يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدى للرسولون ) وهي كلمة عظيمة صدرت من إله يرى بها نبي الله موسى أنه لا ينبغي للرسول أن يخاف محضرتي ، لأنهم تحت رعايتي ولطفي .

ولما كان موسى قد يعلق بذهنه أن يكون ذلك الحادث له صلة بفعلة مع القبطي طمأنه الله تعالى بقوله ( إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإني غفور رحيم ) وهو من التعريضات التي يلفظ مأخذها ويدق مسلكها ، وقوله ( مبصرة ) أى وانحة جليلة .

وقد نسب الابصار لها مع أنه لتأملها ، لأنهم اتصلوا بها وكانوا متعلقين بها بنظرهم وتفكيرهم فيها ، فكان إبصارهم مافيه من جلاء كأنه إبصار لنفس الآيات ، أو جعلت كأنها تبصر فتهدى ومنه قولهم : كلمة عيناء ، وكلمة عوراء ، لأن الكلمة الحسنة ترشد ، والكلمة السيئة تقوى ، وقرئ مبصرة [ بفتح الميم ] وهي كقولهم : مجبنة وميخلة : أى مكان يكثر فيها التبصر ( قالوا هذا سحر مبين ) أى واضح لاشك في أنه سحر بعد مجيء الآيات واضحة جليلة ( وجحدوا بها ) أنكروها ، والحال أن أنفسهم قد أيقنت بها ، وعلمت أنها حق من عند الله ( ظلما وعلوا ) أى ان الحامل لهم على ذلك ظلمهم وترفعهم على نبي الله موسى ، وذلك أشد أنواع الكفر أن يوقن القلب وينكر اللسان .

وقد عزت الله تعالى بهذه الجملة أن فرعون وملاؤه كانوا يعلمون من قرارة نفوسهم أن موسى عليه السلام رسول صادق فيما أخبر به عن الله تعالى ، ولكن كبرهم وتعاليمهم على الناس قضى عليهم

أن يكذبوه ويخلقوا له التهم ، وذلك هو كفر الجحود ، وهو الذى يستحق به صاحبه الخلود فى جهنم ، ومثله ما حكاه الله عن أعداء محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم فى سورة الأنعام ( فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون «٣٣» ) أى اتهم لا يعتقدون أنك كاذب فى دعوى الرسالة لأنهم لم يجربوا عليك كذبا فيما بينك وبينهم ، ولكنهم يجحدون بآيات الله لظلمهم وخروجهم عما بيني وتعاليمهم على تعاليم الرسل ، ولعلك عقب الآية التى معنا بقوله ( فانظر كيف كان عاقبة للفسدين ) كان عاقبتهم ما فعل الله بهم من الاغراق فى اليم .

موسى عليه السلام

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَمُ<sup>(١)</sup> «١» تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ «٢» تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ «٣» إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِيئُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَذَّخُّ أُنْبَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ «٤» وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْمَلَهُمْ أُمَّةً وَنَجْمَلَهُمُ الْوَارِثِينَ «٥» وَتُمْكِنُ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَتُرَى فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ «٦» وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَشِيَ عَلَيْهِ قَالِقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ «٧» فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ «٨» وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ<sup>(١)</sup> عَيْنِي لِئَلَّا تُقْتَلَوْهُ عَلَى أَنْ يَقْنَعَا أَوْ تَخْذَعَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ «٩» وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَرِحًا<sup>(٢)</sup> إِنَّ كَادَتْ لِتُبْدِيَ بِهِ لَوْ لَا أَنْ رَبَّنَا<sup>(٣)</sup> عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ «١٠» وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ<sup>(٤)</sup> فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ<sup>(٥)</sup> وَهُمْ

[١] من قرأت عينه تهرت : سرت . [٢] صغراً من القتل .

[٣] شددنا عليه وقربناه بالصبر . [٤] اتبى أثره . [٥] بعد .

لَا يَشْعُرُونَ «۱۱» وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى  
 أَهْلِ يَنْتِ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيحُونَ «۱۲» فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ  
 عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ «۱۳»  
 وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ «۱۴»  
 وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ  
 شَيْعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَمْعَنَهُ الَّذِي مِنْ شَيْعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ <sup>(۱)</sup>  
 مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ «۱۵» قَالَ  
 رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَقَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ النُّفُورُ الرَّحِيمُ «۱۶» قَالَ  
 رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا <sup>(۲)</sup> لِلْمُجْرِمِينَ «۱۷» فَأَصْبَحَ فِي  
 الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ <sup>(۳)</sup> قَالَ لَهُ مُوسَىٰ  
 إِنَّكَ لَمَوِيٌّ مُبِينٌ «۱۸» فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْطَشِ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ  
 يَمُوسَىٰ أُتْرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ  
 جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ «۱۹» وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ  
 أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَأْتِمُرُونَ <sup>(۴)</sup> بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي  
 لَمَكٍّ مِنَ النَّاصِحِينَ «۲۰» فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ  
 الظَّالِمِينَ «۲۱» القصص

### شرح وعبرة

(۱) (تلاوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون) نقص عليك بإعجاز من خبر  
 موسى وفرعون ما فيه العبرة ، وقوله (بالحق) أى محقين فى ذلك القصص ، وقوله (لقوم يؤمنون)

[۱] الکر : هو الظن ، والدفع والغرب بمجمع الکف . [۲] معیناً . [۳] يستغيثه .  
 [۴] يتشاورون فیک .

بيان لمن يستفيد من ذلك القصص ، وهم الذين استعملوا للإيمان ، وهم الذين قال فيهم ( لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذين بين يديه وتفصيل كل شيء . وهدى ورحمة لقوم يؤمنون « ١١١ » ( ١ ) .

( ان فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم انه كان من المفسدين ) .

لقد كان فرعون مثالا من أمثلة الاستبداد ، وعنوانا للظلم واستعباد الناس ، وقدوة سيئة في الشر ، ولذلك قال في آخر قصته بصنعه هو وأعدائه ( وجعلناهم أئمة يدعون الى الدار ) .

[ فأول شيء حدثنا الله به عن فرعون ] أنه علا في الأرض وتجاوز فيها الحد وطغى ، ولم تكن سيرته في الحياة سيرة عباد الله طائمين ، بل سيرة صرمة متكبرين .

[ وثانيها ] أنه جعل أهلها شيعا وأحزابا يستعين ببعضهم على بعض ، ويذل بكل حزب ماعداءه من الأحزاب ، ويذلهم جميعهم بعضهم بعض ، ويأمنهم جميعا بواسطة ذلك التحزب الذي غرسه فيهم ، حتى إذا تحرك حزب لمناوئته قام حزب آخر ليدافع عنه ، لاهبة فيه بل إرضاء لشهوة الحزبية ، وكذلك فعل المستعمرون بالبلاد التي احتلوا ، جعلوا أهلها شيعا وأحزابا سياسية فشتاوا الأمم عنهم ببعضهم ، ووجهوا دفة الجهاد الى ناحية غير الناحية التي تريدها الأمة .

ومن عجيب أمرهم أنهم يخلقون هذه الأحزاب ، ويفنون فيها معنى الحزبية بأساليب شيطانية ثم مع ذلك يطلبون منها الوحدة ، إذا هي طلبت منهم مصلحة من المصالح أو عملا من الأعمال وكأنهم يعلقون اجابتها الى ما تطلب على محال أو قريب من المحال ، إذ الحزبية لا يمكن أن تزول مادامت الأمة الفاسدة بأسطة سلطتها على الأمة المنصوبة ، لأن الناصب من أهم أغراضه في الاستعمار أن لا يمكن الأمم من الوحدة ، وأن يحول بينهم وبين اتحاد الكلمة ، ولا سيما إذا كان المستعمر قد ممكن لجميع الأحزاب من الحكم ، وأذاقها لذة السلطة ، فأصبحت حريصة على استبدادها بالسلطان ، وذلك ما لا يتفق واتحاد الكلمة ، واجاع الأمر ، وكأن فرعون كان اماما للمستعمرين ، وقدوة للفاصلين ، ينسجون على منواله ، ويرسمون خطواته ، ولم نذهب بعيدا ، ونبعد بين فرعون وبين أولئك الفاصلين حتى نقول انه امام لهم وقدوة سيئة في الشر ، وفرعون أول الفاصلين ملك بني اسرائيل من أممائه ، وأول الخارجين على دستور الاله العادل الحكيم الذي يقضى بالشورى في مصالح الناس ومراقفها ، ويقضى بأن يخلق الناس أحرارا في بلادهم لا يتعبد لهم أحد ، ولا يذلهم أحد ، كما قال عمر بن الخطاب [ منذكم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ] .

فاذا كان الفاصلون خارجين على الساتير المألوفة للبشر ، وفرعون خارج على الدستور الالهي الذي رضيه لامة الناس في أنحاء الأرض ، فنكون مبعدين إذا قلنا ان فرعون قد فتح الباب للفاصلين ، وسن لهم السنن السيئة ، وإنما هو أولهم ، وعمودهم الفكري ، وهو ربهم الأعلى الذي على عليهم من وحيه الشيطاني ما يستقيحون به ارواح الناس وإذلالهم ، ولا غنى لكل

مستعمر من التفكير في سيرته والبحث في عاقبته ، وستكون نهايتهم كنهاية فرعون : خذلان بين ، وذلة فاضح ، وعبرة مكشوفة ، سيبيون بمآباه به إمامهم وقودتهم ، و يندمون حيث لا ينفع الندم ، كما ندم فرعون حين أُلجِه الترق ، و ( قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنوا اسرائيل وأما من المسلمين ) .

فقال الله له منكرا عليه ذلك ( آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين فالיום ننجيك بيدك لتكون لمن خلفك آية وان كثيرا من الناس عن آياتنا لنافلون ) لم يقبل الله منه إيمانا في الوقت الذي ذهب فيه سلطانه ، وأحاط به الموت ، لأنه كان عاصيا من قبل وكان من المفسدين في الأرض ، وإيماء ينفع الايمان في وقت يتمكن فيه فرعون من الابداء ثم يدعه طاعة لله ، وتزولا على أمره ونهيه .

وكذلك المستعمرون سيحل بهم من الموت الأدنى ما حل بفرعون ، ثم يقولون لمن ظلمهم [ وقد حل بهم من أسباب الهلاك ما حل ] لقد كنا مخلصين لكم ، حررناكم على مصالحكم ، فأشققوا علينا ، ولا تقابلوا الشر بالشر ، وهناك يقول لهم المظلومون [ آلآن وقد استجحتم ظلمنا من قبل وإذ لاننا في بلادنا ، والحيولة بيننا وبين ثمار أعمالنا ، نحن لا نقبل منكم في ذلك الوقت اخلاصا ولا نصدق لكم كلاما ] .

و [ الثالث ] من أخلاق فرعون أن يستضعف طائفة منهم ، وهي الطائفة التي ليس فيها من الناعة الخلقية ما يحول بينها وبين السبق ، ونحمد الله ان لم يقل يستضعفهم ، بل قال ( يستضعف طائفة منهم ) لعل أن الضعف الخلقى إذا حلّ يقوم لم يهضمهم جميعهم ، بل يحلّ بطائفة منهم ، وكذلك رجال الاستعمار وأذنابهم يستضعفون طائفة من الأمة [ ولا تغفلوا الأمم من ضعفاء ] فيغرونها بالمال تارة ، والمصعب تارة أخرى ، ليضموها إليهم ، حتى إذا أخذت الأمة تطالب بحقوقها ، وتزدود عن حياضها ، قامت لها تلك الطائفة فوقفت في سبيلها ، وحالت بينها وبين ما تريد .

وقد كان بلاد المسلمين في أنحاء الأرض على يد طائفة منهم ، تناصر العاص ، وتعاون المستعمر ، وتأخذ على عاتقها إخماد كل حركة من شأنها أن تنقص عليه عيشته ، أو تنقص مضجعه ، حتى يعيش في بلاد المسلمين آمنا بأيدي المسلمين أنفسهم ، وينفذ أغراضه الاستعمارية من طريقهم هم ، ويعطل شعار الدين ، ويخرب دور العلم ، ومساجد العبادة ، ويعمل كل ما يريد على حساب تلك الطائفة الضعيفة ، التي قنعت بالسلطان الزائف ، والحكم الستار ، ورضيت أن تعيش كالأنعام على بطها ، لا إرادة لها ولا اختيار .

وعلى المسلمين أن يظنوا تلك الطائفة ، وأن يأخذوا على أيدي الظلمة ويقفوا في وجه الاستبداد ، ويحولوا بين الأمة وبين سموم هذه العنة . حتى لا يتسرب الى فئات أخرى فيصبح الهاء عضلا ، والملاج مستجيلا ، فقد نهى الله عن الظلم كما نهى عن مظاهرة الظالمين ، بل عن قربانهم ، وتوعد الذين يركنون الى الذين ظلموا أن تمسهم النار ، كل ذلك ليبقى الظالم وحيدا في ظلمه ، فريدا في بيه ، وقد يفكر في اقلاعه عن الظلم إذا أحس تلك الوحشة ، وشعر بأنه يفيض بمقوت ، ولكن الأمة قفريه بالظلم إذا رأى منها من يصفه بالعدل ، ونحييه في الابداء إذا وجد

الناس تقبل عليه في ثناء وإطراء، فاللهم أبقذ الأمة من ظلم الظالمين، وضعف المستضعفين، وهبها حياة قوية مثمرة، وخلقاً متيناً تسبق به الضعف قوة، والهووان عزا (يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم) ذلك من جبروت فرعون وبطشه، وهو جبروت لم نسمع بمثله في التاريخ، وليست الآية تفسيرا لقوله (يستضعف طائفة منهم) بل كلام مستأنف جديد بين لنا علوه في الأرض، ولا عجب أن يصنع فرعون ذلك الصنع (انه كان من المفسدين) ومن كان خلقه الافساد في الأرض لا يستغرب منه ذلك العمل .

(٢) (وزيد أن نعى على الذين استضعفوا في الأرض) ذلك من نبأ فرعون عطف على قوله (ان فرعون علا في الأرض) والتعير بالمضارع لحكاية الحال الماضية، وقد وقعت هذه الجملة قصاصا لفرعون، وانتقاما منه، وكفأ له على ما قدم، فقد أهان فرعون الشعب الاسرائيلي وأذله، وأخذ يذبح الأبناء، ويستحي النساء، ونسى ربه وخالقه، وادعى أنه الرب الأعلى، فقال الله له: لقد كان منك ما كان، وكان منا أن تعلق لاردنا أن نعى على الشعب الذي استضعفته وأذقته العذاب ألوانا، ويجعلهم أئمة يقتدى بهم في الدين والعبادة، يتأسى بهم الناس، ويقتدون بهم في الخير، أو نجعلهم ولاة في الأرض وملوكا كما قال (وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآنا كم مالم يؤت أحدا من العالمين «٢٠»<sup>(١)</sup>) وهو خطاب للشعب الاسرائيلي وامتنان عليه عما أعطاه من قوة بعد ضعف، وعز بعد ذل، وملك بعد استبعاد، وأورثه ملك فرعون وعظمة فرعون، وكذلك الآيات التي معنا ربنا الله فيها أن فرعون علا في الأرض، وصنع بأهلها مالا ينفى، وطق أن عزه سبق، وأن ملكه لا يزول، ولكن الله أراد [ولاراد لما أراد] أن نعى على الذين استضعفوا في الأرض، ويجعلهم أئمة ولاة، ويجعلهم الوارثين لملك فرعون، وأن يمكن لهم في الأرض، ويثبت فيها أقدامهم حتى لا يستطيع أحد أن يخرجهم منها، ويطلق أيديهم في مصر والشام، ويهيئهم السلطان والنفوذ، ويرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يخافون من ذهاب ملكهم، وهلاكهم على يد مولود منهم، ذلك ما أراده الله تعالى لشعب بني اسرائيل، ومتى أراد الله شيئا نفذ .

والعبرة فيها صنعه الله مع الشعب الاسرائيلي أن سلط عليهم فرعون، فابتلاهم به فوجد فيهم استعدادا للذل، واستهلالا للعبودية، فبسط عليهم سلطانه، وتعالى في بطشه ونكاله، ولذلك يقول الله في وصفه (فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين «٥٤»<sup>(٢)</sup>) .

ولو أن فرعون وجد من قومه مقاومة للباطل، واستنكارا للظلم، فلبوه على أمره، ووقفوه عند حده، وقد بعث فيهم رسوله موسى لينقذهم من ذل فرعون، ويدعوهم إلى التوحيد، فكان من بني اسرائيل من يشايع فرعون على حرب موسى، وهم ماؤه للستكبرون .

وقد أيد الله موسى بآياته، وصدق به معجزاته، فجمع له السحرة رجاء أن يظفروا بموسى، فكانوا حرا با على فرعون وملا فرعون، فاشتد عليه الأمر، وقتله النيظ والحزن، لأن حزب فرعون سيكبر على الرغم منه، فضاعف الإيذاء فأذن الله لموسى بالهجرة، فأتبعهم فرعون

بجنوده ، خلّ به من الفرق ماحلّ ، وهناك ذهب سلطانه ، وتقوّض ملكه ، لأنه تعالى في الظلم ، وأمن في الإيذاء ، وأسرف في استعباد الناس ، فلم يبق إلا انتقام الله للعدل ، وغيرته للحق ، فجاء نصره بنجاة موسى وغرق فرعون آية عظيمة ، وعبرة واضحة .

وفي كلّ زمن فراعنة يظلمون الناس ويستعبدونهم ، ويستمرّثون الظلم لهم ، ومع أولئك الفراعنة بطانات شرّ ، يشكرونهم على الظلم ، ويطرونهم على استعباد الناس ، ويحبونهم في الشرّ الذي هم عليه ، لأنّ لهم من وراء هذا حظا في الحياة من مال أو نفوذ .

وفي كلّ زمن يسلط الله على فرعونه من ينقص عليه عيشته ، ويقض مضجعه ، فاذا كثرت حزب فرعون و بطانات السوء ، ورضى الناس بالظلم فإن الله يسلط عليهم ، ويبقى الحال كذلك حتى يشعروا بالفتنة ، ويعسوا العبودية ، ويستكروا ذلك العمل ، يأخذوا في الخلاص منه ، وهناك يحلّ بهم من تأييد الله ونصره ما لم له أهل ، فيجعلهم سادة بعد أن كانوا عبيدا ، وحاكين بعد أن كانوا محكومين (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم « ١١ » ) (١) ذلك هو الطريق الطبيعي لانقضاء على الفراعنة في كلّ زمان ، وقد يسلط الله عليهم من أنواع الهلاك ما سلط على فرعون موسى إذا بالقوا في الظلم وأغرقوا في العسف والجور ، فيقلب الله لهم ظهر المجنّ ، ويسلبهم السلطان والملك ، ويثّل عروشهم ، ويهدم ملكهم ، جزاء لهم على بشيم ، واتقاما منهم على سوء عملهم .

وعلى ملوك الأرض أن تعتبر بسيرة فرعون ، وما أزاله الله به من عقوبة ، وأن تدّكر بعرشه الذي تقوّض ، وملكه الذي ذهب ، بعد أن كان له من الحول والطول ما كان حتى قال وهو يستخفّ بموسى وهارون (أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تتصرون ! « ٥١ » ) (٢) وقد نسي فرعون السبق أنه كم من عروش ثلّت ، وممالك قوّضت ، فوق عرش مصر الذي يجلس عليه فرعون (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعزّز من تشاء وتذلّ من تشاء بيدك الخير إنك على كلّ شيء قدير « ٢٦ » ) (٣) .

ويربنا الله بهذه الآيات أن الضعيف لا يبق على ضعفه ، بل قد يتحوّل الصّيف إلى قوى ، والقوى إلى ضعيف ، والحاكم إلى محكوم ، والمحكوم إلى حاكم ، لأن الأيام دول ، والله يقلب الليل والنهار ، والفلك يدور ، والسكين هو للفرور .

(٣) (وأوحينا إلى أمّ موسى أن أرضعيه) الخ ، شروع في تربية الله لموسى ، واقتاذه من فرعون حيث ألمّ أمّه أن ترضعه ، فاذا خافت عليه من فرعون ألقته في اليمّ بوضعه في تابوت وجعله في النيل ، وقد طمأنها عليه ووعدا أن يرده إليها وأنه سيجمع له نبيا صريحا ، وقد ألقى محبة في آل فرعون حينما عثروا عليه وأوصوا بعدم قتله رجاء أن ينفعهم أو يتخذوه ولدا ، فالتقطوه فكان عدواً لهم وحزنا جزاء لفرعون وجنده على ظلمهم ، ثم تألّت أمّه لفراقه وأصبح فؤادها صفرا من العقل ، خلوا من الرضا ، لولا أن ربط الله على قلبها بالصبر لكشفت السرّ وأفسدت التدبير .

وحين ذاك أومت أخته أن تتبع أثره . فرأته على بعد بدون أن تشعر قوم فرعون ، وقد حرّم الله عليه الانتقام ندى المرضعات ، فتقدمت إليهم أخته في هيئة الناصح وقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ، فزولوا على رأيها ، وردّه الله إلى أمّه كي تسرّ ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله بارجاعه لها حق لاصرية فيه ، وقد شرحنا القصة في سورة طه .

كلّ ذلك التدبير من نعم الله على موسى يذكره بها ، ليعلم أن الذي حفظه وهو صغير في كنف عدوّ الله وعدوّه فرعون جدير بأن يحفظه وهو كبير راشد .

( ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين ) تصديق لوعده الله تعالى لأبيه وهو في الهدى أنّه سيّجعله رسولا ، فهو يرينا بهذه الآية أنه برّ بوعده لأبيه ، وأعطاه الحكم واللم ، فالحكم هو النبوّة ، والعلم هو علم التوراة حين بلغ أشده واستوى : أى كملت قواه الجسميّة العقلية . وقيل الحكم والعلم : هو الحكمة والعلم النافع كما قال ( واذكرن مايتلى في يونسكن من آيات الله والحكمة «٣٩» . ١ ) ) وقوله ( يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا «٢٦٩» . ٢ ) ) وقوله ( وكذلك نجزي المحسنين ) أى كما جزينا أمّ موسى بذلك الجزاء وهو حفظ ولدها وترتيبه في بيت الملك الذي خلق للقاء عليه ، ور بطنا على قلبها بالصبر ، وحرّمنا عليه المراضع ، وسخرنا له أخته لترشدهم الى من يكفله ، وألقينا عليه محبة من الله يجذب بها قلب امرأة فرعون إليه ، ووفينا لها بالوعد ، وجعلناه رسولا .

كلّ ذلك لأنّ أمّ موسى كانت محسنة ، فكافأناها على إحسانها بذلك العمل ، أو وكذلك نجزي المحسنين : أى كما جازينا موسى على إحسانه في الصغر ، واستعدادده للخبر المطلق بذلك التدبير والالطف ، نجزي كلّ محسن ، والله يعلم ماذا أحسن به موسى ، فهو أدري بأعماله ، وإن كان لم يقصّ علينا كلّ تاريخه ، بل قصّ خبر نشأته في بيت فرعون ، ولطفه به في بيت الظلم ومهد الجور والعسف ، كما قصّ علينا خبر قتله للرجل الذي كان يقتل جرحى من أنصاره .

(٤) ( ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ) الخ ، قيل للمدينة هي القرية التي كان يسكنها فرعون ، وهي على رأس فرسخين من مصر . وقال الضحاك : هي عين شمس ، وليس في الآية دليل على أن قتل القبطي كان بعد النبوّة ، لأنّ الواو لاتفيد ترتيبا ، والقولان الكريم لايسرد لنا الحوادث . كما يسردها كتب التاريخ على نظام وجودها ، بل هو كتاب عبرة ، وترية نفسية وخلقية ، فيصح أن يذكر الحوادث مستعدّا بأهمها ، وإن كان ترتيبه في الوجود متأخرا والمناسبة في قوله ( ولما بلغ أشده ) الخ أنه لما عرض لحديث نشأة موسى في حجر فرعون وبيته ، وأنه حفظه وهو صغير - مناسب أن يتم تاريخه ويقول : إن ذلك الطفل لما بلغ أشده واستوى آتاه الله الحكم والعلم كما وعد أمّه .

قصة اعطائه الرسالة جاءت بين قصة ترتيبه ، وقصة قتله للقبطي لمثل تلك المناسبة ، لأنها وقعت قبلها ، ويدلّ لذلك قول فرعون له في سورة الشعراء ( ألم نربك فينا وليدا ولبت فينا من عمرك سنين «١٨» وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين «١٩» ) قال فعلتها إذا وأنا من



الضالين «٢٠» ففرت منكم لما خفتكم فوهد لي ربي حكما وجعلني من المرسلين «٢١» .  
 فرعون يذكره بقصة قتل القبطي وأنه كافر بنعمة فرعون ، فيقول له موسى قد فعلتها قبل  
 أن يهديني ربي الى دينه ، كما قال في محمد صلى الله عليه وسلم ووجدك ضالا فهدى ، وأنه عقب ذلك  
 فرّ منهم لما خافهم ، فوهد الله له الحكم وجعله من المرسلين ، وعطفه بالفاء الدالة على الترتيب ،  
 وهو نص صريح في أن قتل الرجل كان قبل الرسالة ، أما الآية التي معنا فكل ما فيها أنها عطف  
 قصة القبطي على ايتائه الحكم بالواو ، والواو لا تقتضي تعقبا ولا ترتيبا ، وذلك على فرض أن  
 الحكم والعلم : ما حكم الرسالة وعلم التوراة ، أما إذا قلنا هو الحكمة والعلم النافع ولا يخلو عصر من  
 العصور عنها - إذا قلنا ذلك فالأمر أهون وأهون .

وقوله (قال هذا من عمل الشيطان) الخ لأنه خطأ وانطأ من الشيطان ، وقد جرّ الى ذلك  
 القتل ما يحصل كثيرا من الناس أن يشاجر حزبان فيستعين كل حزب بشيعة وتنتهى المشاجرة  
 في بعض الأوقات بقتل ، والقشاجران لم يقصدا الى القتل ، ولا خطر لهما على بال ، ولذلك لا يعاقب  
 القانون الوضعي على هذه المشاجرات عقوبة القتل ، بل يقولون هي مشاجرة أدت إلى قتل ،  
 ونسبه الى الشيطان ، لأن الحامل عليه غرض حزبي ، وما كان كذلك فهو من عمل الشيطان ،  
 وقد طلب موسى أن يفر الله له ذلك لأنه هو الذي أخذ في أسبابه ومقدماته ، وجريا على سنن  
 القرين في استعظام ما فرط منهم ولو كان من محمّرات الصغار ( قال ربّ بما أنعمت علىّ فلن  
 أكون ظهرا للمجرمين ) يحتمل أن يكون قسما : أى أقسم بأنعمك علىّ لأنّون فلن أكون بعد  
 هذا عوناً للمجرمين . وأن يكون استعظافا : أى بحق انعمك علىّ اعصمني فلن أكون معينا  
 لمجرم ، وسواء قلنا انه قسم أو استعظاف فهو يبرأ من أن يظهر رجلا أو طائفة على إجرامها ،  
 وهو خلق ديني انفقت عليه الشرائع السجادية ، وحتمته الأديان ، لذلك يقول الله تعالى (وتعاونوا  
 على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان «٢» «١» ) . ويقول ( ولا تجادل عن الذين  
 يخاتون أنفسهم ان الله لا يحب من كان خوّا ما أثمّا «١٠٧» «٣» ) .

فهو سبحانه ينهانا أن نتعاون على الاثم ، وهو المحرم ثم العدوان ، لأن أكثر تعاون الناس  
 عليه ، ونهانا أن نجادل عن الذين يخاتون أنفسهم بعصيان الله تعالى ، فلاندافع عنهم ، ولا نعتذر  
 عن أعمالهم ، أو نهونها أمام القانون .

وما أخرج رجال المحاكمة إلى تدبر هذه الآية ، فإن الرجل منهم قد يعلم أن موكله مجرم آثم ثم  
 هو مع ذلك يقبل التوكيل منه ، ويدافع عنه بكل ما أوتي من قوة .

ومن غريب أمر المحامين أنهم يستندون عن ذلك العمل بأنه قيام بالمهمة الملقاة عليهم ، ولا  
 ندري ما الذي أوجب عليهم أن يدافعوا عن مجرم ، ويعلموه كيف يخفى معالم الاجرام ، وكيف  
 لا يعترف أمام القضاء بما يكون حجة عليه ، أهو دينهم الذي ينههم عن الدفاع عن المجرم ، أم هو  
 القانون الذي خلق هذه المهنة خلقا لتزوير القضاء ، وتسهيل مهمته عليه ، فالقاضي والمحامى  
 شريكان في نشر العدالة ، ونصيران للحق والعدل ، ولكنه التعيش يلجئ كثيرا من المحامين

لقبول التوكيل من المجرمين ، كالقتلة والمصوص ، والمهربين للغدرات ، والتجربين بالأعراض ،  
حانا الله من ذلك كله .

( فأصبح في المدينة خائفا يترقب فاذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه ) يطلب منه اللعونة  
في حادث آخر ( قال له موسى إنك لقوى مبين ) لأنك تسببت في قتل رجل وتقاتل اليوم رجلا  
آخر ؟ و ( مبين ) بين الفوابة ظاهرها ، وهو يدل على فقرة موسى عليه السلام من معاودة ذلك  
العمل والرجوع إليه ( فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما ) الضمير للمستنصر لا لموسى فهو  
الذي أراد أن يبطش بقبطي آخر هو عدو له ولموسى عليه السلام ( قال ) القبطي ( ياموسى أنريد  
أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس إن تريد إلا أن تكون جبارا في الأرض وما تريد أن تكون  
من المصلحين ) .

وقد وجه القول إلى موسى لأن حادث قتله للقبطي قد أشيع ، وكان سبب هذا القتل استنصار  
الاسرائيلي بموسى ، وقد أعاد استنصاره له فظن القبطي لذلك كله أن موسى سيطاوعه ويقتله كما  
قتل أخاه ، فخطبه بذلك الأسلوب مذكرا عليه أن ينضم إلى صاحبه كما انضم إليه بالأمس .  
ومن البعيد جدا أن موسى يخطئ مرة في تشييعه للذي من شيعته ، ويكون من وراء ذلك  
قتل رجل بدون ذنب ، ثم يعاد الخطأ مرة أخرى ، وكذلك من البعيد أن موسى يقابل الرجل  
الذي يستنصره في المرة الثانية بقوله ( إنك لقوى مبين ) ثم ينحاز إليه مرة أخرى .

ومن البعيد أيضا أن يكون الخائف من موسى على نفسه في المرة الثانية هو المستنصر ، أما  
على التوجيه الذي ذكرناه فالآية مفسدة والمعنى مستقيم ، ولا سيما أن موسى تاب وأناب إلى ربه أن  
يكون ظهيرا للمجرم ، فلا يمكن أن ينقض توبته في اليوم الثاني ، ولابد أن ينفع بذلك الخطأ الذي  
وقع فيه في المرة الأولى ، وهو الشأن في المؤمنين فضلا عن أعدم الله للرسالة ، وهيام الزعامة  
في الدين ، ثم جاء رجل يباهى أن القوم يفتاؤون في قتله ليخرج من المدينة ، فخرج وهو يدعو  
الله أن ينجيهِ من الظالمين . وقوله ( من أقصى المدينة ) يفيد أن مسألة القتل أشيعت وعلم أمرها  
لنوعون وغيره ، فلا مانع أن يوجه القبطي الخطاب إلى موسى على ذلك النحو الذي ترى . ووجه  
القول أنه بعد بعد أن قال في شأن قتله للقبطي ( هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين ) .

و بعد أن قال ( رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي ) و بعد أن قال ( رب بما أنعمت علي فلن  
أكون ظهيرا للمجرمين ) - يبعد بعد ذلك أنه أن يكون المراد بالبطش هو موسى سواء أكان  
يريد البطش بالقبطي أو يريد البطش بالاسرائيلي الذي استنصره ، لأن معناه أن موسى لم ينفع  
بذلك الخطأ الذي أسف له وندم عليه . وهناك سبب آخر يمنع من أن يكون البطش من موسى  
بالاسرائيلي : هو أن الاسرائيلي من شيعة موسى فلم يعرف بالمعاودة له راعيا هو عدو للقبطي فقط ،  
اللهم إلا إذا ادعى أن العداوة جديدة بسبب أنه أوقع موسى في قتل القبطي للمرة الأولى فأصبح  
بهذا الاعتبار عدوا لموسى ، ولكن ذلك خلاف الظاهر ، وكل ما يؤخذ على الوجه الذي اخترته  
أن يكون مرجع الضمير في قوله ( أراد ) للاسرائيلي ، والضمير في قوله ( قال ) للذي هو عدو  
وهو القبطي ، وهو اعتبار لفظي قد عهد مثله في التراكيب لا يرجع على الاعتبارات المعنوية التي  
ذكرناها مرجحة للوجه الذي اخترناه .

موسى عليه السلام

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ «٢٢»  
وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ  
أَمْرَاتَيْنِ تَذْوَدَانِ <sup>(١)</sup> قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرَّمْلُ <sup>(٢)</sup> وَأَبُونَا  
شَيْخٌ كَبِيرٌ «٢٣» فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ  
مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ «٢٤» فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ  
لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَبَوْتُ  
مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ «٢٥» قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتُنْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ  
اسْتُنْجِرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ «٢٦» قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ  
هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي كَمَنْيَ حَجِيجٍ <sup>(٣)</sup> فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ  
أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّاحِينَ «٢٧» قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي  
وَبَيْنَكَ أَيُّمَا الْأَجْلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ «٢٨»  
فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ  
امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيَكُمُ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَصُوفٍ <sup>(٤)</sup> مِنَ النَّارِ  
لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ «٢٩» فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ  
الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْشِيَ إِلَى آتَا اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ «٣٠» وَأَنْ آتَى عَصَاكَ  
فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ <sup>(٥)</sup> يَمْشِي أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ  
مِنَ الْأَمِينِينَ «٣١» أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ  
إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ <sup>(٦)</sup> فَذُنُوكَ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ

[١] تدفعان عن الماء لزمام الناس عليه . [٢] يصرف رعاة الغنم . [٣] سنين .

[٤] بنية . [٥] يرجع . [٦] الفرع .

إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ «٣٢» قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ «٣٣» وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا <sup>(١)</sup> يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ «٣٤» قَالَ سَتَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا <sup>(٢)</sup> فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّقِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ «٣٥» فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا يَبَيِّنُ لَهُمْ مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُقْتَرَى وَمَا مَعِنَا بِهِدَايِىَ ؕ إِنَّا بَنَيْنَا الْأَوَّلِينَ «٣٦» وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا أَعْلَمَ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِمْ وَبِمَنْ تَكُونُ لَهُ عِقَبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ «٣٧» وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهُنُّ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا <sup>(٣)</sup> لَعَلِّي أَطْلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ «٣٨» وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ «٣٩» فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَأَنْظَرَ كَيْفَ كَانَتْ عِقَبَةُ الظَّالِمِينَ «٤٠» وَجَعَلْنَاهُمْ أَتْعَةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ «٤١» وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ <sup>(٤)</sup> «٤٢» القصص

### شرح وعبرة

(١) (ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل) . لما فرّ موسى من مصر بسبب قتل القبطي توجه جهة مدين ، وهي بلاد واقعة في شبه جزيرة سيناء في شمال الحجاز وجنوب فلسطين ، فنسب الى مدين ، وسميت القبيلة باسمه . وقد طلب موسى من ربه أن يهديه الطريق السوي (ولما ورد ماء مدين) اطع يان لقضته في الزواج وسببه وهو مروهته ونجدهته وأمانته بعد أن رأى من الرأتين ضعفا عن مقاومة الرعاة وبعد أن أخبراه أن أباهما شيخ كبير لا يستطيع أن يسام مع الساميين في سقى النعم ، وان إحدى

[١] معينا . [٢] غلبة وقوة . [٣] جتا طالبا ، وأطلع : أصدر .

[٤] اللطرودين البعدين .

الرأتين جاءتته تمشى في أدب وحياء ، وأخبرته أن أباهما يدعو له ليجزيه أجر السقي ، وأن ذلك الشيخ حين وصل إليه موسى وقص عليه قصصه طمأنه وأزال خوفه ، و(قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين) .

وهناك طلبت إحدى الرأتين من أبيها أن يستأجره للسقي وشهدت له بالقوة والأمانة ، وذلك ما يحتاجه الأجير ، ولا سيما إذا كان معه في البيت الذي يعمل فيه بنات ، أما القوة فقد عرفتها منه حين سقى لهما ، وأما الأمانة فقد عرفتها فيه وهو في ذلك العمل ، ثم عند عودته معها لاجابة طلب أبيها ، والنساء تعرف أمانة الرجل من غضب بصره وأدبه في ملاقاتهن ، والمفسرون يذكرون روايات في أدب موسى مع إحدى الرأتين وهو ذاهب معها ، وهي قد تل على أدب موسى مع هذه المرأة ، وإذا لم يكن موسى من الأمانة مع النساء إلى حد يحجبها في استئجاره ، ويطلق لسانها بالثناء - إذا لم يكن موسى كذلك وأكبر من ذلك فمن الذي يكون ؟

وهالك اقتنع الشيخ بصدق ابنته ، فطلبه ليكون زوجا لإحدى بناته ، ولم يعين القرآن لنا البفت التي عرضها على موسى ، والظاهر أنها البفت التي شهدت له بالقوة والأمانة ، وقد جعل مهرها أن يخدمهم ثمان سنين ، فان أتمّ عشرا فن عنده ، ولا يريد أن يشقّ عليه في ذلك الزواج ، ويظهر أنه وجده معدما فلم يطالبه بمال ، ثم قال له (ستجدني ان شاء الله من الصالحين) الذين تأنس بهم ، ويأمنون بك ، لأنه لمح في موسى خلق الصلاح ، ومن الصالحين أيضا للقيام بحقوق النفس ، ومن أدب الشيخ أن يقول (ان شاء الله) فيكل المستقبل الى الله تعالى ، فأجابه موسى الى ذلك ، وقال له (أيما الأجلين قضيت) أجل الثمان أو العشر (فلا عدوان على) لا يعتدى على في طلب الزيادة (والله على ما نقول وكيل) شاهد ومهيمن على ذلك العهد الذي قضياه . وقد اختلف المفسرون في ذلك الشيخ أهو شعيب أم ابن أخيه أم غبرنا ؟ والأحسن تفويض علمه الى الله تعالى ، والعبرة لا تتوقف على معرفة اسمه .

(٢) قصة النار والعسا واليد قد شرحت في سورة طه ، والجديد هنا أن موسى عليه السلام يقول (رب انى قلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلوا وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معي رداء يصدقني انى أخاف أن يكذبون) فيجيبه الله الى طلبه بقوله (سنشدّ عضدك بأخيك ونجعل لك سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون) .

والمراد أن فرعون وملأه لا يستطيعان قتلكما ، وسنجعل لك سلطانا وغلبة عليهم ، فلا تعمل حسابا لهم ولا ملأكمهم ، ولا لسيئتك القديمة معهم ، وقوله (بآياتنا) اما متعلق بقوله (فلا يصلون إليكما) أى ان آيات الله ودلائل قدرته وسلطانه تحول بينهم وبين وصولهم إليكم بأذى .

ثم عقب ذلك بقوله (أنتما ومن اتبعكما الغالبون) واما متعلق بقوله (الغالبون) والمراد أنهم سيفعلون فرعون وملأه بسبب الآيات التي أيدم الله بها .

( فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مقترى وما سمعنا بهذا في آياتنا الأولين ) فسموا آيات الله ودلائل صدقه سحرا ، ثم وصفوه بأن موسى هو الذي اختلقه ليصرف به الناس عن فرعون .

ثم عقبوا ذلك بأنهم ما هموا بدعوة موسى في آياتهم الأولى، وهنالك (قال موسى ربى أعلم من جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار) يريد نفسه : أى هو الذى يعلم الحق من للبطل ، والرسول المؤيد بآيات ، من الساحر ، ويعلم من تكون العاقبة الحسة له والثواب للقيم ، وهو ترميض فرعون ورجوعه الى الله تعالى في حسابه للحق والبطل .

ثم عقب ذلك بقوله (انه لا يفلح الظالمون) وكأنه يقول : لو كنت ساحرا كما يزعم فرعون ما أفلحت ، لأن الساحر لا يفلح ، ولو كنت مفتريا ما أيدنى الله ، لأنه لا يؤيد كذبا ، وإنما يؤيد الصادقين ، ويناصرهم ، ومادام الله مؤيدا لى فلست بالظالم ، وإنما الظالم غيرى .  
(وقال فرعون يا أيها اللأ ما علمت لكم من إله غيرى) .

لما لم يستطع أن يعارض دلائل موسى توجه الى بطائنه (وقال يا أيها اللأ ما علمت لكم من إله غيرى) وكلامه هذا قد تضمن نفى إله سواه : كما تضمن إثبات إلهية نفسه ، ولم يرد فرعون أنه خالق للسموات والأرض والبحار والجبال وخالق لنسوات الناس ، فان العلم باستناع ذلك من أوائل العقول ، وبدهيات المسائل ، بل الإله هو المعبود ، فالرجل كان ينسب الصانع ، ويقول لا تكليف على الناس إلا أن يطيعوا ملكهم ، ويقادوا لأمره ، لا ما ظن به الجمهور من ادعائه كونه خالقا للسماء والأرض ، ولم يقل ذلك إرضاء لعقيدته ، بل قاله يتفعل به بسطاء العقول ، وصغار الأحلام ، أما هو فكان موقنا بصدق موسى في دعوته ، وأحقته فيما يقول ، وآية ذلك قول نبي الله موسى له (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر «١٥٢»<sup>(١)</sup>) وقوله (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا «١٥٣»<sup>(٢)</sup>) . (فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعل أطلع إلى إله موسى) وهو دليل تحجير فرعون وتكبره وتغله لمن معه من القوم ، يومهم أن فى استطاعته أن يعمل قصرا عاليا من الطين المحروق فيصعد عليه ليرى إله موسى الذى يتبعه ، وهو تهكم بموسى عليه السلام ، ولذلك عقبه بقوله (وإلى لأظنه من الكاذبين) فى دعواه .

ولقد كان فرعون مقتصدا حيث ظن كذب موسى ولم يقطع به ، أو استعمل الظن موضع اليقين كقوله (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون «٤٦»<sup>(٣)</sup>) .

(واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون) تعالى فرعون وجنده بغير الحق ، وظنوا أنهم لا يرجعون إلينا فتحاسبهم على ذلك التحجير .

(فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم) أخذهم الله أخذ عزيز قادر ، وأخذ جنده معه فألقاهم فى اليم إلقاء من لا يعتد به ولا يؤبه له ، كقوله (ليذبن فى الحطمة «٤»<sup>(٤)</sup>) . وقوله (فنبذوه

وراء ظهورهم «١٨٧»<sup>(٥)</sup>) .

ثم قال (فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) جعلهم الله عبرة ونكالا لمن يأتى بعدهم من القرون والأجيال (وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار) خذلناهم وحرمانهم التوفيق لأنهم ليسوا أهلا له بسبب

[١] الإسراء . [٢] النمل . [٣] البقرة . [٤] المزنة . [٥] آل عمران .

عنادهم وتكبرهم على الحق وأهله ، مع إيقان قلوبهم به ، فصاروا بذلك أئمة في الباطل ، وقدة في الشر ، يدعون بسيرتهم التي ساروا عليها ، وتاريخهم الأسود إلى النار ، ذلك حالهم في الدنيا (ويوم القيامة لا ينصرون) كما ينصر الدعاة إلى الجنة ، فهم أشقياء في الدنيا تعساء في الآخرة (وأنبئهم في هذه الدنيا لعنة) طردوا وإبعادا عن رحمة الله (ويوم القيامة هم من المقيوحين) أي موسومين بحالة منكورة من سواد الوجوه ، وزرقة العيون ، وسجهم بالسلاسل والأغلال ، وغير ذلك .

والعبرة في هذا أن ذلك حزاء للتكبر على رسل الله ، المستخف بأوامر الله ونواهيها الناهض للرسول في دعوتهم ، وللصلحين في إصلاحهم ، سلط الله عليهم من وسائل الهلاك ماسلط ، وحال بينهم وبين التوفيق بما كسبت أيديهم ، وجعلهم أئمة في الشر ، وقدة في الفساد ، وأتبعهم لعنة في الدنيا وسيخزيهم يوم القيامة ، وهل هناك جزاء فوق ذلك الجزاء ، وخزي فوق ذلك الخزي الذي ناله فرعون وجند فرعون ؟

(ولقد آتينا موسى الكتاب) الخ يريدنا أنه بعد أن أهلك فرعون وجنده بالترق أعطى موسى كتاب التوراة ليصربه الناس من الضلال ، ويهديهم من النقي ، ويرجمهم من الفوضى ، شأن سائر الكتب السماوية والشرائع الإلهية .

### موسى عليه السلام

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ «٢٣» إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَمَجَنَ وَقُرُونٍ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ «٢٤» فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ «٢٥» الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ «٢٦» وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ «٢٧» وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَنَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ «٢٨» يَقُومُ

لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَهَرْنَا فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ  
فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ «٢٩» وَقَالَ الَّذِي  
ءَامَنَ يَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ الْآخْزَابِ «٣٠» مِثْلَ ذَابِ قَوْمِ  
نُوحٍ وَعَادٍ وَهَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلَمًا لِلْعِبَادِ «٣١» وَيَقُومُ إِنِّي  
أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ «٣٢» يَوْمَ تَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ  
حَاسِمٍ وَمَنْ يَضِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ «٣٣» وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ  
بِالْبَيِّنَاتِ فَاذْنَبْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ  
بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٍ «٣٤» أَتَذِنُ لِمَنْ يُحْدِثُونَ  
فِي آيَاتِ اللَّهِ يَغْيِرُ سُلْطَانُ أَتَمُّهُمْ كِبَرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ  
يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ «٣٥» وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمُنُ ابْنُ لِي صَرَحًا «٣٦»  
لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ «٣٦» أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي  
لَأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ فِرْعَوْنَ سُوهُ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ  
فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ «٣٧» وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقُومُ أَتَبْعُونَ أَهْدَكُمُ سَبِيلَ  
الرَّشَادِ «٣٨» يَقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ  
الْقَرَارِ «٣٩» مَنْ عَمِلَ سَنَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صُلْحًا مِنْ ذَكَرٍ  
أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ «٤٠»  
وَيَقُومُ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَىٰ التَّجْوَةِ وَتَدْعُونِي إِلَىٰ النَّارِ «٤١» تَدْعُونِي  
لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَاشْرِكُ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَىٰ الْعَزِيزِ  
الْعَفْرِ «٤٢» لَا جَرَمَ «٤٣» أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي

[١] الجاهات المانية ، و (دأب) : مادة . [٢] شاك .

[٣] بيتا حاليًا ، والأسباب : الطرق والأبواب .

[٤] هي نظير لابد ، كقولها : لا جرم أن لهم النار من المجرم وهو الفطع : أي لا قطع لاستحقاقهم النار .



الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَعْظَمُ النَّارِ «٤٣» فَسَتَذَكُرُونَ  
مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَؤُصُّ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ «٤٤» فَوَقَّيْهِ  
اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَعَاقِبَةُ «١» نِثَالِ فِرْعَوْنَ سُوهُ الْمَذَابِ «٤٥» النَّارُ  
يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ  
الْعَذَابِ «٤٦» طاهر

### شرح وعبرة

(١) ليس في القصة حديد إلا قول الله تعالى (وما كيد الكافرين إلا في ضلال) يريد أن  
تديرهم مقضى عليه بالفشل ، فقد دبر فرعون لبقاء ملكه أن يقتل الأبناء ، ويستحيي النساء ،  
فسخر الله له من يتولى هو بتريته ثم يكون حربا عليه وهو نبي الله موسى ، ثم عاد فرعون الى  
مثل كيد السابق وهو فاشل فيه .

(وقال فرعون ذروني أقتل موسى) يوم الناس ويريهم أن من حربه من يمنعه عن قتل  
موسى وأن في استطاعته ذلك مع أنه خائف من قتله ويخشى أن يكون قتله سببا في تعجيل عقوبته  
لأنه موقن من قلبه أنه رسول صادق وإن كان ينكر ذلك بلسانه (وليدع ربه) تجبر من فرعون  
أنه لا يبالي برب موسى إذا دعاه لينصره على فرعون (إني أخاف أن تبدل دينكم) مام عليه  
من عبادة فرعون أو عبادة آلمته (أو أن يظهر في الأرض الفساد) وذلك أيضا تماكر من فرعون  
بقومه ، يريهم أن موسى يفسد عليهم معيشتهم إذا هم تبعوه .

وما علمنا رسولا كانت دعوته مدعاة إلى فساد ، إنما الفساد في تحزب الناس عليه ومعاداتهم  
له ، والحقيقة أن الفساد الذي يحشاه فرعون هو فساد قومه عليه وخروجهم من قبضة يده ،  
وذهاب سلطته وسلطانه ، فالفساد الذي يحشاه هو ذهاب ملكه ، لأنهم إذا رأوا الفرق بين طريق  
رسول الله ، وبين طريق آله أعدائه رغبوا في طريق موسى ، وفي ذلك فساد خطة فرعون وضياح  
ملكه (وقال موسى إني عنت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب) .

برينا الله تعالى أن فرعون فوق تكبره وتجبره ينكر البعث والفسور ويوم الجزاء ، ومن  
كان كذلك فهو جدير بأن يستعاذ منه ، وسيأتي ما يفيده أنه ينكر البعث في سورة النحل .  
(٢) (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه) الخ .

قد رأيت أن أضم إلى قصة موسى وعظ مؤمن آل فرعون ، لأن فيه من أساليب التذكير  
بالله واليوم الآخر ما تطمئن له النفوس ، وتخشع له القلوب ، وفيه من اللطائف المستقيم ما تقوم به  
الحجة وتظهر به المحجة .

وما أوحى الواعظ الى مثل ذلك الوعظ الذى يتقدم به مؤمن آل فرعون إلى قومه وعشيرته ألا ترى إلى قوله (وإن يك كاذبا فضليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم) يريد إن يك كاذبا فسيرديه كذبه ويوقه فى الهالك ، ويكفيكم مؤنه قتله ، وإن يك صادقا فى دعواه يصبكم بعض الذى يعدكم من العذاب ، ثم يقول (يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا) فلكم لا يدوم ، ولا تستطيعون أن تدفعوا عنا عذاب الله إذا جاء ، ثم خوفهم من أيام الأحزاب الذين مضوا وما فعل الله بهم من البطش والكيده . وخوفهم من يوم الجزاء الذى لا عاصم فيه من أمر الله ، وذكرهم بما فعلوه بنى الله يوسف ، ثم دعاهم الى اتباعه ، وزهدهم فى الدنيا ومتاعها الزائل ، ورغبهم فى الآخرة ومتاعها القيم ، وقال لهم لماذا أدعوكم الى النجاة وتدعوني أنتم الى النار ، تدعوني للكفر بالله ، وأن أشرك به ما لا أعلم من الأصنام والأوثان ، وأراهم أن ما يدعونه من الآلهة ليس له دعوة مستجابة فى الدنيا ولا فى الآخرة . وأن مرده الجميع إلى الله (وأن المسرفين هم أصحاب النار) وأراهم أنهم سيدكرون فى وقتا ما قدمه لهم من النصح (و) قال لهم (أفؤض أمرى) بعد نصحي لكم (إلى الله) انه (يسير بالعباد) . وأرانا الله تعالى أن ذلك المؤمن الذى تقدم بالنصح لآل فرعون حفظه الله من سيئات مكرم وحل بال فرعون سوء العذاب .

وقد أجلنا فى شرح هذه القصة لأن الكلام على قصة موسى وهارون عليهما السلام قد طال ولأنها ذكرت على سبيل الاستطراد .

### موسى عليه السلام

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَنصَحُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهُ السَّاحِرُ الدَّعِىُّ لَنَا رَبُّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْذَبُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنصَحُونَ ﴿٥٠﴾ وَتَأَذَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يُقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أَلَّتِي عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلِئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا

قَوْمًا فَاسِقِينَ «٥٤» فَلَمَّا اسْقَفْنَا<sup>(١)</sup> أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ «٥٥»  
فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ «٥٦» الزخرف

### شرح وعبرة

(١) برنا الله في هذه السورة أن موسى قد أرسله الله الى فرعون وملائه ، وأنه لما جاءهم بالآيات الواضحة فابالوها بالضحك والمزء ، وأنه بعد أن أتاهم بالآيات أخذهم بالعذاب رجاء أن يرجعوا ولما كشف عنهم العذاب فكثروا .

بعد ذلك كله أخذ فرعون يعزّز بسلطانه ، ويخاخرم بملكه ، وكان يوم الناس أن من أعطاه الله ملكا أسحح بملكه غيا عن رسالة الله ودينه ، ومن وهبه سلطانا في هذه الحياة لا يصح أن يخضع لرسول ليس له هذا السلطان ، فلكل نادى في قومه و(قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون) .

نعم : لك ملك ، والله ملك السموات والأرض ، لك الملك اليوم ، وستمحض الملك غدا لله ، فهل ملك مصر يمتنع عن عذاب الله من شيء ؟ وهل ملك مصر يبيع لك نسيان ربك وخالقك الذى وهبك ذلك الملك ، وسخروك من نعمه ماسخر ؟ ثم قال ( أفلا تبصرون ) يريد أفلا ترون الفرق بينى وبين موسى الفقير المعدم ، وهى كلمة ان حازب على البسطاء لا تجوز على العقلاء ، وان حازت على الدهماء ، لا تجوز على المفكرين ، ثم قال ( أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين ) بولوا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين) .

يريد أن يفهم قومه أنه خير من موسى الذى هو ضعيف في نظره حقير ، ولا يكاد يفصح عن عرضه ، وأراد بالقائه الأسورة من الذهب عليه إلقاء مقابله الملك ، لأنهم كانوا إذا أرادوا تسويد رجل سؤروه بسوار وطوقوه بطوق من ذهب .

يريد فرعون أن موسى ليس معه من العدد وآلات الملك والسياسة ما يعتضد به ، وهو في نفسه مخجل بما يعت به الرجال من اللسن والفصاحة ، ثم قال ( فاستخف قومه فأطاعوه ) إنهم كانوا قوما فاسقين) .

يريد أن فرعون لم يكن مستقلا بالانتم ، بل يشاركه قومه وعشيرته ، لأنه وجد فيهم استعدادا للشر واستهلالا للعبودية ، فاستخف بهم فأطاعوه ، ثم علل ذلك بقوله ( إنهم كانوا قوما فاسقين ) أى ان الفسق عادة لهم وخلق من أخلاقهم ، فلكل وجد فرعون منهم النصير والعين ، ووجد منهم البطانة التى تعينه على ظلمه ، وتحسن له جبروته وكبرياه .

ومن ذلك نعرف أن الظلم إذا انتشر في الأرض كان سببه ضعف القوم وعدم مكافئهم له ، وفي الأمثال العاتية [ لماذا قرعنت يا فرعون ؟ لأنى لم أجد أحدا يردنى ] وهو في معنى هذه الآية

الكرمية (استخف قومه فأطاعوه) وعلينا دائماً أن لانسى هذه السنة في خلق الله ، وهو أن الباغي لا يستمر على بنيه إلا إذا وجد من قومه ما يحسن له عمله ، ويرث له بطشه وظلمه .

ومن عجب أمر الناس أن اللستبة بظلمهم فيحلمونه على الظلم ، ويديء إليهم فيشكرونه على الاساءة ، ويرى بعضهم بعضاً ففرحون بذلك الاغراء ، ويخرب بيوتهم بأيديهم ، ويفتر بلادهم بمعوتهم ، يعمل ذلك كله فلا يجد من الناس إلا المعين والناصر ، ولبت الناس يقفون منه موقفاً سليماً فلا يقاومونه ولا يناصرونه ، ولو كانوا كذلك لكان الخطب ، ولكنهم يقفون منه موقفاً إيجابياً ، حتى إذا فكر في ترك ما هو عليه جنوه على البقاء فيه ، أولئك هم الذين ضرّوا أنفسهم ، وأصبحوا كالأنعام بل أضلّ منها ، لا يعرفون لأنفسهم قيمة ، ولا يحفظون لها كرامة ، يرضون من هذه الحياة كما يرضى الحيوان الأعجم بل بطنه ، وقضاء شهوته ، ولو كان مع ذلك هدم كرامتهم وضاع كيانه .

(ولما أسفونا انتقمنا منهم فأغرقهم فغطاهم سلفاً ومثلاً للآخرين) فلما أغضبوا الله تعالى ذلك الغضب الشديد وحاربوه هذه المحاربة انتقم منهم «أغرقهم أجمعين ، غطاهم سلفاً فربما سالفاً وحديثاً عجب الشأن للآخرين الذين يأتون بعدم يعتبرون به ويتعظون بما فيه .

### موسى عليه السلام

وَلَقَدْ قَتَلْنَا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَذُوا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَىٰ اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عَذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا إِلَيَّ فَأَعْتَزَلُوكَ ﴿٢١﴾ فَقَدَا رَبُّهُ أَنْ هُوَ لَا قَوْمَ تُجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِمَا دِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًا <sup>(١)</sup> إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّزْقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جِثَّتٍ وَعُيُودٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَكَانَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ <sup>(٢)</sup> ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلَاقًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ عَلَىٰ

عَلِمَ عَلَى الْعَالَمِينَ «٣٢» وَءَاتَيْنَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ «٣٣» إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ «٣٤» إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ <sup>(١)</sup> «٣٥» فَأَتَوْا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ «٣٦» أَهْمُ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبِعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ «٣٧» الدخان

### شرح وعبرة

(١) يطالب موسى آل فرعون في رفق ويقول لهم: اني لكم رسول أمين على وحي الله تعالى وأطلب إليكم أن لاتعالموا على الله في عدم طاعته ومناذرة رسله ، اني آتيكم بحجة واضحة ، ثم يستعيز بربه ويربهم أن يرجوه ، والمواد قتله ، فهو يعتصم بالله أن يحفظه من ايذائهم ، يقول لهم (وان لم تؤمنوا لي فاعتزلون) لاتعترضوا لي بشركم (فدعا ربه) قائلا (أن هؤلاء قوم مجرمون) فقال الله له (فأسر بعبادي ليلا اسك متبعون) من فرعون وجنده (واترك البحر رهوا) .  
 قيل : لما جاوز موسى البحر أراد أن يضربه بعصاه فينطق كما كان ، فأمره الله أن يتركه ساكنا على افلاقه قارا على حاله ليدخله القبط فاذا دخلوا فيه أطبقه الله عليهم ، وقيل : أمر أن يتركه فجوة واسعة لايحاول انطباقه بعد مسوره ومسور قومه .  
 وقد بين سبب ذلك في قوله (إنهم جند مغرقون) وقوله (فابكت عليهم السماء والأرض) يريد ماتا لم أحد ، وفيه تهكم بهم وبجاهل المنافية لحال من يعظم على الناس فقداه فيقال فيه : بكت عليه السماء والأرض (وما كانوا منظرين) لما جاء وقت هلاكهم (إن هؤلاء ليقولون) الخ ، اخبر من الله تعالى بأن فرعون وملائه يقولون (ان هي إلا موتتنا الأولى) يريدون أنه لا يأتينا شيء إلا الموتة الأولى ثم عقبوه بقولهم (وما نحن بمُنْشَرِينَ) مبعوثين بعد الموت ، ثم أخذوا يتهكمون بقولهم (فأتوا با آبائنا ان كنتم صادقين) ،  
 وقد رد الله عليهم في قوله (أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم انهم كانوا مجرمين) الخ .

### موسى عليه السلام

هَلْ أَتَيْكَ حَدِيثُ مُوسَى «١٥» إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى «١٦»  
 انْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ «١٧» فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ «١٨»

وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى «١٩» فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى «٢٠» فَكَذَّبَ وَعَصَى «٢١» ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى «٢٢» فَخَشَرَ فَتَادَى «٢٣» فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى «٢٤» فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى «٢٥» إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى «٢٦» النازعات

### شرح وعبرة

(١) عرضنا للقصة من هذه السورة لتلفت النظر الى إعجاز القرآن الواضح ، وأسلوبه الفاهر وكيف تؤدي القصة بأسلوب طويل ، وأسلوب وسط ، ثم بأسلوب في غاية الاختصار ، ومع ذلك نجد الأسلوب جميعه أخذاً مؤثراً في النفوس ، ولو تأمل الانسان القصة في السور الطوال ثم تأملها في هذه لرأى أنها على اختصارها لم تدع من القصة شيئاً ، ألتراه أشار الى المكان الذي رقع فيه النداء ، ثم دعوة موسى ليذهب الى فرعون لأنه طغى ، ثم قوله له (هل لك الى أن تركي وأهديك الى ربك فتخشى) .

ثم أشار الى آيات موسى ، ثم تكذيب فرعون وإبائه ، ثم حشره الناس وقوله لهم (أنا ربكم الأعلى) ثم أخذ الله له ، وجعل هذا الأخذ نكال الدنيا والآخرة ، ثم قال (ان في ذلك) العمل الذي صنعه مع فرعون (لعبرة لمن يخشى) الله من الناس ، فذلك اجمال للقصة وقد فصلها القرآن في السور التي عرضنا لها ، وهي في جللتها وتفصيلها في منتهى البلاغة ، وغاية التأثير .

## دعوة داود وسليمان

### إلى الله تعالى

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِن بَنِي إِسْرَءِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ أَهْبِثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ «٢٤٦» وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ

بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ أُفَّةَ أَصْطَفَيْتُهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ <sup>(١)</sup> فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ <sup>(٢)</sup> بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْمَئِنَّ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِطَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ كَمِ مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِمْ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا مَبْرًا وَتَبَّتْ أَفْدَانُنَا وَأَنهَضْنَاهَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ البقرة

### شرح وعبرة

(١) (ألم تر إلى اللأثم من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتال أن لا تقاتلوا) الخ .  
عرضت لهذه القصة من سورة البقرة لأن لها صلة بدأود عليه السلام من ناحية استعدادده للحرب : كما تبين لنا حال طاعة من بنى إسرائيل طلبوا الحرب ، ثم جنبوا عنه بعد أن كتب عليهم ، وقد وضعنا هذه العظة تحت عنوان [داود وسليمان] وإن كانت في داود وحده ، لأننا رأينا

أن نضع داود وسليمان في عنوان واحد ، وقد تكون القصة في داود وحده ، أو شاملة لهما معا وكلمة ( ألم تر ) إذا خوطب به من سبق له العلم بما يذكر بعدها تكون للتعجب والتقرير والتذكير ، وإذا خوطب به من لا يعرف ذلك تكون لتعريفه به ، وتصحيبه من شأنه ، وقد أجريت مجرى التل في هذا المقام ، فزل من لم يرماتعلق به منزلة من رآه ، كأنه لظهوره وتقريره في نفسه مما لا ينبغي أن يخفى ، أو يضل عن التعجب منه والاذعان له .

واللأ : القوم مجتمعون للشاور لاواحد له قاله البضاوى وغيره ، وقال غيرهم اللأ لأشراف من الناس ، وهو اسم للجماعة : كالقوم والرهط والجيش ، وجهه أملاء ، سموا ملأ لأنهم يملؤون العيون رواء ، والقلوب هيبة ، وكلا المعنيين يرجع الى الخاصة ولأعيان وما نسبهم بعلية القوم . وقوله ( من بنى اسرائيل من بعد موسى ) برنا أن ذلك اللأ من بنى اسرائيل ، وأن ذلك الحادث الذى يعجبنا الله منه ، وهو حادث طلبهم ملكا يقانلون تحت رايته ثم جنبهم عن القتال بعد أن كتبه الله عليهم - وقع لهم لانيهم . كإبرنا أن نبى الله داود ، وابنه سليمان عليهما السلام أرسلهما الله تعالى بعد نبية موسى .

( إذ قالوا لنبي لهم ابث لنا ملكا فقاتل في سبيل الله ) والقرآن لم يسم لنا ذلك النبي فهو من الرسل الذين لم يقص علينا القرآن قصصهم ، والظاهر أنه غير داود ، لأن داود لم يبنأ في ذلك الوقت ، لأنه قال في آخر القصة ( وقتل داود جالوب وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ) والمتبادر من هذا أن القتال وقع قبل النبوة .

( قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ) أى هل قاربتم أن تحجموا عن القتال ان كتب عليكم كما أتوقع - أو - أتوقع منكم الجبن عن القتال ان هو كتب عليكم ، ففسى للقاربة أو للتوقع ( قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ) يريدون أى داع لنا يدعونا الى أن لا نقاتل وقد وجد سبب القتال وهو اخراجنا من ديارنا بجلاء العدو إيانا ، وأهردنا عن أولادنا بسببه ايام واستعاده لهم .

والقتال في سبيل الله كما قال الأستاذ الامام هو القتال لاعلاء كلمته ، وتأمين دينه ونشر دعوته كي لا يعلبوا على حقهم ، ولا يصتدوا عن اظهار أمرهم ، فهو أعم من القتال لأجل الدين ، لأنه يشمل مع الدفاع عن الدين وحماية دعوته الدفاع عن الحوزة إذائم الطامع للمهاجم باغتصاب بلادنا ، والتمتع بخيرات أرضنا ، أو أراد العدو الباغي إذلالنا والعدوان على استقلالنا ، ولولم يكن ذلك لأحل فتنتنا في ديننا ، فإذا قال الله لنا ( وقاتلوا في سبيل الله ) فهو أمر مطلق ، كأنه أمر لنا بأن نتحلى بعلية الشجاعة ، ونفسر بل سرايل القوة والهمة ، لتكون حقوقا محفوظة ، وحرمتا مصونة ، لا نؤخذ من جانب ديننا ، ولا نقتال من جهة ديننا ، بل نبقى أعزاء الجانبين ، جديرين بسعادة الدارين ، ألا ترى أن من ساق الله لنا العبرة بحالهم - أى في قوله ( ألم ترالى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر اللوب فقال لهم الله موتوا ثم أحيام ) وذكرنا بسفته في موتهم وحياتهم لم يذكر أنهم قاتلوا وقتلوا لأجل الدين ، فاقبال لحاية الحقيقة كالقتال لحاية الحق ، كله جهاد في سبيل الله ، فتفسير [ الحلال ] سبيل الله باعلاء دينه تقييد للحلال ، وتخصيص لقول عام من غير دليل .



ومنه نعلم أن ما يعمله شعوب المسلمين اليوم في جميع أنحاء الأرض مع المستعمرين من السفاح عن بلادهم ، والنود عن حقيقتهم وحفظ استقلالهم ، ولقتهم وقوميتهم ، كل ذلك جهاد في سبيل الله وطريقته الذي يحبه ويدعو إليه ، وأن من يقاتل لحماية الحقيقة كاللهي يقاتل لحماية الحق ، لأننا مطالبون بحمايتهما معا ، لأن الذي يضطر في الحقيقة لا يستطيع أن يدافع عن الحق ، ولأن أسلوب العزة والكرامة والاستقلال لا يستطيع أن يقيم دين الله في الأرض ، ولا أن يقيم حدوده ، ولا أن يحفظ أخلاقه وأخلاق أمته ، إنما الذي يستطيع ذلك هو العزيز في بلاده ، القوي في وطنه ، وهو الذي له من النعمة والقوة ما يخيف العدو ، ويرهب الحصم .

وقد طالبنا الله تعالى بالقوة ، وصرفنا عن العزة واللمعة ، إذ يقول ( وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ) ثم علل ذلك بقوله ( ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لافعلونهم الله يعلمهم « ٩٠ » (١) ) فأرانا بذلك أنه ينبغي للمسلمين أن يكونوا من القوة بحيث يرهبهم أعداؤهم ويرهبهم من ليس بعدو . وفي المثل [ من لم يتذأب أكلته الذئاب ] أليست هذه القوة هي التي أصرنا الله تعالى بإعادتها لحماية الحقيقة والحق ؟ أليست هذه القوة لارهاب الأعداء وإخافة الخصوم ؟ وهل لذلك من غاية سوى أن الله تعالى يريد للمؤمنين أن يكونوا أعزاء لأذلاء وأقوياء لضعفاء ، وأن تكون بلادهم ملكا لهم ، وخيراتهم لهم لا لخصومهم ، وأن يعيشوا تحت سلطانهم لا تحت سلطان غيرهم ، وأن يحفظوا قوميتهم واستقلالهم ؟؟

ويتجلى ذلك في قول الملا لتيهم ( وما لنا أن لا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ) فانك تفهم منه أن أولئك الملا بعد أن توقع منهم نبيهم أن يجنبوا عن القتال بعد طلبه ينكرون من أنفسهم الجبن عن القتال في سبيل الله بعد أن وجدت أسبابه ، وتوفرت دواعيه ، وهو قولهم ( وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ) فأخرج الرجل من بلده ، ونفيه من موطنه ، والحيالة بينه وبين بنيه وأهله : سبب من أسباب القتال في سبيل الله .

قد يفهم ضغف العقول أن الإخراج من الديار خاص بالنفي والتغريب ، مع أن هناك نوعا من الإخراج هو شر من النفي والتغريب ، وذلك هو إخراج المسلم من بلده وهو مقيم فيه ، وإبعاده من خيرات بلاده وهي على صرأى منه ، وحرماته من مجهودات شعبه وأتمته ، وهي أدنى إليه من حبل الوريد .

ذلك النوع الذي يتأب المسلمين في بلادهم هو أضر عليهم من إخراجهم من وطنهم ، وتغريبهم عن بنينهم وفرايرهم ، لأن العيد من البلاد لا يرى كيف تبغز أموالها على الشهوات ، وكيف يتجمع بها الأجني ، وأذئاب الأجني ، وصاحب البلد في فقر مدقع ، وأزمة خائفة ، البعيد من البلاد يتألم لبعده ، ولكنه لا يتألم لذلك للنظر المحزون ، الذي يراه في أتمته كل يوم تطلع فيه الشمس ، يرى أتمته فقيرة وهي الثنية ، مجدبة وهي الحصبية ، شقية وهي السعيدة ، مهينة وهي العزيزة - كل ذلك لأنها في يد غيره ونحت سلطان سواء .

ومثل للرجل الوطني في ذلك البلد مثل رجل اعتدى عليه لموص وهو في بيته ، ووضعوا في

يديه السلاسل ، وفي رجليه الأصقار ، ثم أمسكوا لسانه عن الكلام ، وأخذوا يحربون في بيته ، ويستولون على خزائنه ويهيمنون على كل ما عنده من خير - كل ذلك وهو لا يستطيع حراكا ، اذا حاول أن ينطق بكلمة استغاثة وجد لسانه مغلولا ، واذا أراد أن يحرك من يده أو رجليه وجدها في السلاسل والأغلال ، فهل يستوى ذلك الرجل الذي صنع به ذلك ، ورجل آخر أخذته القوة الفاشحة ، فأبصته عن بيته وجيرانه ، وحالت بينه وبين ذويه ؟ ألق أن الفرق بينهما كبير .

فاذا لم يكن ذلك النوع من الإيذاء إخراجا من البلاد فهو شر من الإخراج ، واذا لم يكن نيا ونهريا فهو فوق النفي والتغريب ، فكل بلد محتل من بلاد المسلمين هو بلد قد أخرج منه أهله وحيل بينهم وبين خيراته ، واستولى فيه الغاصب على كل مصارفته ، فاذا عاش فيه أهله فاعما يعيشون غرباء ، واذا تمتعوا فيه بنىء من المتاع فاعما يتمتعون بما يفساط من فئات الغاصبين .

فاذا كان المتيّن يرى النفي والتغريب من أسباب الجهاد لحماية الحقيقة ، وبعد ذلك قتالا في سبيل الله ، وطريقه الذي يحبه ويرضاه ، فأولى أن يعدّ الجهاد في هذا السبيل قتالا في سبيل الله ويثيب الله عليه الثواب الذي أعدّه للجهاديين ، ويهاقب من يقف في سبيل ذلك الجهاد موقف المشط ، فضلا عن يقف موقف الموالى للغاصب .

(٢) (فاما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين) أى فلما أوجب الله القتال عليهم أعرضوا وحسبوا إلا قريبا منهم ، لأن الأمم إذا قهرها المدوّ ونكل بها يفسد بأسها ويفاب عليها الجبن والمهانة ، فاذا أراد الله إحياءها بعد موتها ينفخ روح الشجاعة والاقدام في خيارها وهم الأفقون ، فيعملون ما لا يعمل الأكثرون ، ولم يكن هؤلاء القوم قد استعدّ منهم للحياة إلا القليل .

قال الأستاذ الامام : وفي الآية من التوائد الاجتماعية أن الأمم التي تفسد أخلاقها وتصف ، قد تفكر في المدامعة عند الحاجة إليها ، وتعزم على القيام بها إذا توفر شرائطها التي يتخلونها ثم اذا توفر هذه الشروط يصفون ويحبون ، ويزعمون أنها غير كافية ليعذروا أنفسهم ومأم بمعدورين (والله عليم بالظالمين) الذين يظلمون أنفسهم وأمتهم بترك الجهاد دفاعا عنها وحفظا لحقتها فهو يمجزيهم وصفهم ، فيكونون في الدنيا إذلاء مستضعفين ، وفي الآخرة أشقياء معدّين .

وانظر كيف يصف الله الماركين للقتال بالظلم . ويصم الجبناء بمجاوزة الحد ، والمروج عما يدنى ، ويتوعددهم بأنه عليم بهم ، مطلع على أسرارهم وما سوّته له نفوسهم ، وهو كقوله في الآيات السابقة (وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله صمّيع عليم) يسمع قول الجبناء في اعتذارهم عن أنفسهم : ماذا نفعل ؟ ما في اليد حيلة ، ليس لها من دون الله كاشفة ، ليس لنا من الأمر شيء : لو كان لنا من الأمر شيء ما قعدنا مهنا : فهذه الألفاظ هي منفاخ الجبن ، وعلل الخوف والحزن ، ففى عند أهلها علات وأعذار ، وعند الله ذنوب وأوزار ، وما كان منها حقا في نفسه فهو من الحق الذي أريد به الباطل - وإن الله تعالى عليم بما يأتيه مرضى القلوب ، وضضاء الايمان من الخيل والوراغة ، والفرار من الاستعداد والمدامعة .

فاذا علمنا هذا وحاسبنا به أقصنا ، عرفنا أن كلا من المعتذر بلسانه ، والمتملل بنعاله مخادع لربه ، ولفسه وقومه .

قال الأستاذ الامام : وكثير من الناس يهزأ بنفسه وهو لا يدري ، إذ يصدق ما يعتاده من النوم ، وهذه شفتنة المحذولين الذين ضربت عليهم القلة ، وخيم عليهم السقاء ، تعمل فيهم هذه الوسوس مالا تعمل الحقائق ، وقد أئذرننا الله تعالى أن نكون مثلهم ، بتذكيرنا بأنه سميع عليم لا يتحادع ، ولا يخفى عليه شيء .

يتوعد الله الجبناء في الآية التي معنا بأنه عليم بهم ، مطلع على سرهم ونجواهم ، ويصفهم بأنهم ظالمون لأنفسهم ، ولا غرو فقد رضوا لأنفسهم بالمهانة وقد أكرمهم الله ، كما رضوا بالقلة ، وقد كتب الله العزة للمؤمنين ، لم يرعوا لأنفسهم كرامة ، ولم يماروا على الحقيقة ، وبذلك كانوا ظالمين ، وأن الذي يظلم نفسه بذلك البوع من الظلم ، ويرضى لها هذه المرة سيعاقبه الله تعالى على ظلمه ، ويضعه في الموضع الذي رضى لنفسه .

(٣) وقال لهم فيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال) .

أخبرهم فيهم أن الله قد بعث لهم طالوت ملكا . وأجابهم إلى ما طلبوا في قولهم ( ابعث لنا ملكا نتاقل في سبيل الله ) فأذكروا أن يكون طالوت ملكا عليهم ، وقالوا في إنكارهم ( أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ) ؟

لم يبين لنا القرآن وجه كونهم أحق بالملك منه ، وإن كان المفسرون يروون في ذلك روايات ( ولم يؤت سعة من المال ) جروا على المألوف من طباع الناس ، يرون أن الملك لابد أن يكون وارثا للملك ، أو ذائب عظيم ، يسهل على شرفاء الناس وعظمائهم الخضوع له ، أو ذا مال عظيم يدبر به الملك ، وسبب هذا أنهم تعودوا الخضوع للشرفاء والأغنياء ، وإن لم يمتازوا عليهم بمعارفهم وصفاتهم الثمانية .

(قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم) يخطئ الله القوم في زعمهم أن استحقات الملك يكون بالنسب وسعة المال ، وقوله (اصطفاه عليكم) اختاره بما أودع فيه من الاستعداد الفطري للملك ، ولا ينافي هذا كون اختياره كان بوحى من الله ، لأن هذه الأمور هي بيان لأسباب الاختيار ، وهي الاستعداد الفطري ، والسعة في العلم الذي يكون به التدبير ، وبسطة الجسم المعبر بها عن سمته وكإل قواه ، للاستزاد لصحة الفكر ، على قاعدة [ العقل السليم في الجسم السليم ] وللشجاعة والقدرة على الدافعة ، وللهيبة والوقار ، وتوفيق الله تعالى الأسباب ، وهو ما عبر عنه بقوله ( والله يؤتي ملكه من يشاء ) .

قال صاحب المنار : من الناس من يظن أن معنى اسناد النبوة الى مشيئة الله تعالى هو أن الله يفضل بلا سبب ، ولا جريان على سنة من سنته في نظام خلقه ، وليس كذلك ، فان كل شيء بمشيئة الله تعالى ( وكل شيء عنده بمقدار ) أى بنظام وتقدير ، موافق للحكمة ، ليس فيه جواز ولا خلل ، فابتأوه الملك لمن يشاء بمقتضى سنته ، إنما يكون بجعله مستعدا للملك في نفسه وتوفيق الأسباب ليعيه في ذلك : أى هو بالجمع بين أمرين : أحدهما في نفس الملك ، والآخر في حال الأمة التي تكون فيها ، وفي الأحاديث للشهيرة على ألسنة العامة « كما تكونوا يولى عليكم »

[قال في السرر المشعة : رواه ابن جريج في معجمه من حديث أبي بكره والبيهقي عن أبي اسحق السبيعي مرسلا ] .

فم إذا أراد الله إسعاد أمة جعل ملكها مقويا لما فيها من الاستعداد للخير ، حتى يعلى خيرها على شرها ، فتكون سعيدة ، وإذا أراد إهلاك أمة جعل ملكها مقويا لشرها ، فلا تزال فيها ، حتى يغلب شرها على خيرها ، فتكون شقية ذليلة ، فتعدو عليها أمة قوية ، فلا تزال تنقصها من أطرافها ، وتفتت عليها في أمورها ، أو تناوشها الحرب ، حتى تزيل سلطانها من الأرض ، يريد الله تعالى ذلك فيكون بمقتضى سنته في نظام الاجتماع ، فهو يؤتى الملك من يشاء ، وينزعه من يشاء ، يعدل وحكمة ، لا يظلم ولا عبث ، ولذلك قال ( ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون « ١٠٥ » )<sup>(١)</sup> وقال ( إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين « ١٢٨ » )<sup>(٢)</sup> فالمتقون في هذا المقام ، مقام استعمار الأرض والسيادة في الملك - هم الذين يتقون أسباب خراب البلاد ، وضعف الأمم ، وهى الظلم في الحكم ، والجهل وفساد الأخلاق في السولة والأمة ، وما ينبع ذلك من الفرق والتنازع والتخاذل . والصالحون في هذا المقام هم الذين يصلحون لاستعمار الأرض وسياسة الأمم ، بحسب استعدادها الاجتماعى .

أطلت في بيان معنى مشيئة الله تعالى في إتيان الملك ، لأننى أرى عامة المسلمين يفهمون من مثل عبارة الآية في إنجازها أن الملك يكون للأول بقوة إلهية هى وراء الأسباب والسبب التى يعبرى عليها البشرى في أعمالهم الكسبية ، وهذا الاعتقاد قسيم في الأمم الوثنية ، وبه استعبد الملوك الناس الذين يظنون أن سلطانهم شعبة من السلطة الإلهية ، وأن محاولة مقاومتهم هى كتحاول مقاومة البارئ سبحانه وتعالى والخروج عن مشيئته ، وكان الأستاذ الامام أوجز في المرس بتفسير قوله تعالى ( والله يؤتى ملكه من يشاء ) إذ جاء في آخره أن له تعالى سنة في تهيئة من يشاء للملك ومثل هذا الاجال لا يعقله إلا من جمع بين الآيات الكثيرة في إرث الأرض ، وفي هلاك الأمم وتكوتها ، والآيات الواردة في أن له تعالى سنة في البشر لا تتبدل ولا تتحول ، وقد ذكرنا بعضها ومنها قوله تعالى ( إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم « ١١ » )<sup>(٣)</sup> فخالفة الأمم في صفات أنفسها وهى عقائدها ، ومعارفها ، وأخلاقها ، وعاداتها ، هى الأصل في تغير ما بها من سيادة أو عبودية ، وثروة أو فقر ، وقوة أو ضعف ، وهى التى تمكن الظالم من إهلاكها .

والفرض من هذا البيان أن نعلم أنه لا يصح لنا الاعتذار بمشيئة الله عن التقصير في اصلاح شئوننا اتكالا على ماوكونا ، فان مشيئة الله لاتعلق بإبطال سنته تعالى ، وحكمته في نظام خلقه ، ولادليل في الكتاب والسنة ولا في العقل ولا في الوجود على أن تصرف الملوك في الأمم هو بقوة إلهية خارقة للعادة . بل شريعة الله تعالى وخليقته شاهدان بضد ذلك ، فاعتبروا يا أولى الأبصار . ( والله واسع عليم ) واسع التصرف والقدرة ، إذا شاء شيئا وقع ( عليم ) بوجوه الحكمة يضع لهم السنن الحكيمة ، والظلم المعادلة فلا يتركهم سدى .

(٤) (قال لهم نبيهم ان آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سَكينة من ربكم وبقية مما ترك آباؤكم موسى وآل هارون تحمله لللائكة ان في ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين) .

قد كان انكار الملا أن يبعث الله لهم طالوت ملكا بمثابة أن يطلبوا آية على صحة ذلك الاصطفاء ودليلا على صدقه ، ويظهر أنهم كانوا مؤمنين بنبيهم ، لأنهم طلبوا منه أن يبعث لهم ملكا يقاتلون معه في سبيل الله ، فلذلك قال لهم نبيهم: ان علامة ملك طالوت عليكم ، واصطفاه الله له : ( أن يأتيكم التابوت ) وهو الصندوق الذي كان موسى عليه السلام يضع فيه التوراة ، وكانت تسكن إليه نفوس بني اسرائيل لأنه فيه كتاب الله ، ولذلك يصفه بقوله ( فيه سَكينة من ربكم ) وقوله ( وبقية مما ترك آباؤكم موسى وآل هارون ) أى أثر من بيت النبوة ، ويحتمل أن يكون ذلك الأثر هو التوراة أو بعضها ، ويحتمل أن يكون شيئا آخر ( تحمله اللائكة ) تسوقه إليكم وقد كانت العمالة استولت على ذلك التابوت لما حاربوهم وأذلّوهم ، وشقّ على بني اسرائيل أن يصعب عليهم ذلك الأثر ، فجعل الله آية طالوت في ملكه أن يجيئهم التابوت بعد ضياعه منهم من طريق خارق للعادة ، عبر عنه بقوله ( تحمله اللائكة ) ( ان في ذلك ) العمل الخارق ( لآية لكم ) علامة على أن طالوت قد اختاره الله ملكا عليكم ( ان كنتم مؤمنين ) بالآيات ، مصدقين بالدلائل .

( فلما فصل طالوت بالجنود قال ان الله مبتليكم بنهر ) الخ ، أوجز القرآن كعادته في اتيان التابوت الذي هو آية على أن ملك طالوت كان باستحقاق وجدارة ، وأنه أهل لذلك الملك ، وكأنه يقول : فلما رآه إليهم التابوت قبلوا أن يكون طالوت ملكا عليهم ( فلما فصل طالوت ) أى انفصل هم من مقامهم ، وقادهم لقتال أعدائهم .

ولما كانوا من قبل كارهين للملك عليهم ، ثم أذعنوا من بعد ، وكان اذعان الجمع ورضاهم مما لا يمكن العلم به إلا بالاختيار أراد الله أن يبتلي هذا القائد حنّده ليعلم الطبع والعاصي ، فيختار الذي يرجى بلاؤه في القتال ، وثباته في معامع النزال ، وينقى من يظهر عصيانه ، فان طاعة الجيش للقائد وقتنه به من شروط الظفر ، وأحوج القواد الى اختبار الجيش من ولى على قوم وهم له كارهون .

أخبر طالوت جنوده أنهم سيمعرون على نهر يمتنعهم به باذن الله ، فمن شرب منه فلا يعدّ من أتباعه للتحدثين معه في أمر القتال ، ومن لم يذقه بلمرة فانه منه ، وهو الذي يركن إليه ويوثق به تمام الثقة ، وأخبرهم أن من اغترف غرفة يسده لا يسده عمله مانسا من الاتحاد ، ولكنّ الذي لم يذقه أصلا هو في المرة الأولى .

( فشرّبوا منه إلا قليلا منهم ) لأن القوم كانوا قد فسد بأسهم ، وتزلزل إيمانهم ، واعتادوا العصيان ، وشقّ عليهم مخافة الشهوة ، وان كان فيها هوانهم ، ولم يبق فيهم من أهل الصدق والزعامة سوى القليل ( فلما جاوزوه ) والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ( وكان جالوت أشهر أبطال أعدائه الفلسطينيين ، والعبارة تشعّر بأن جنود الفلسطينيين كانوا أكثر من الاسرائيليين ) .

قيل ان الذين آمنوا معه هم القليل ، وهم الذين قالوا ( لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ) وان أولئك المؤمنين ( قال ) المخلص منهم وهم ( الذين يظنون أنهم ملاقوا الله ) أى يوقنون بذلك

(كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله) والمؤمنون مختلفون في قوة اليقين ونسوع البصيرة ، وقيل الضمير في (قالوا) للكثيرين الذين انخلوا ، والذين يظنون أنهم ملاقوا الله هم القليل الذين ثبوتوا معه ، كأنهم تناولوا بذلك والنهر متوسط بينهما ، يظهر أولئك عندهم في الانخزال ، ويرد عليهم هؤلاء فيما يعتدرون به .

والظاهر أن ابتلاء الله لهم بالنهر لم يكن الحد الفاصل بين الإيمان والكفر ، بل هو حد فاصل بين قوة الإرادة وضعفها ، ويظهر أن الوقت كان وقت قيظ شديد ، وحر بالغ ، فابتلاه الله بالنهر ليظهر قوى الإرادة من ضعفها ، وسلم العزيمة من مريضها ، فإذا شرب الكثير من النهر فليس ذلك لأنهم كفار ، بل لأنهم ضعفاء العزيمة .

وعليه فالذين جاوزوا النهر مع طالوت فيهم المؤمن الذي لم يشرب والذي شرب وهم كثير . أما الذين قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ، فالضمير فيه للذين يتحدث عنهم القرآن الكريم ، وهم الذين شربوا إلا قليلا منهم . يرينا أن أولئك في جملتهم قالوا بعد مجاوزة النهر (لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) وسواء أكان ذلك القول من الفريق المؤمن أم الكافر ، والكل قد جاوز النهر ، أو كان من الفريقين مع بقاء الكافرين بدون تجاوز للنهر ، ومجازة المؤمنين ، لأن النهر صغير لا يمنعهم من محاذته بعضهم بعضا في ذلك الشأن .

ونأمل الفرق الكبير بين كلمة الجبن وكلمة الشجاعة ، وما تتركه الأولى في النفس من هلع ، وما تتركه الثانية من سكون وطمأنينة ، فكلمة الجبن كقولهم (لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) يريدون أننا قوم ضعاف لا نستطيع أن نواجه جالوت وجنود جالوت ، لأنه جبار من العماقة ، وهي تشبه قول بني إسرائيل أنفسهم لموسى حينما طلب منهم أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم (يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داحلون) « ٢٢ » (١) .

هذه الكلمات وأمثالها تترك أثرا سيئا في نفس سامعها ، وتبطلهم عن العمل النافع والجهاد المفيد ، وكل ربي الجبناء بأمثل هذه الكلمات أناسا على الجبن ، ونشتمهم على الضعف ، ولكنهم لا يسمون الجبن باسمه ، وإنما يحبونهم فيه باسم الحزم ، والمحافظة على النفس :

يرى الجبناء أن الجبن حزم وتلك جريرة الطبع السقيم

أما كلمات الإيمان الصادق ، والعقيدة القوية ، والإرادة الحديدية ، فهي كلمات الآمل الذي لم يجد اليأس إلى نفسه سبيلا ، الطمأن الذي لم يتوصل إليه الشك والتردد ، هي كلمات المؤمنين المخلصين ، والأتقياء المصلحين ، وفرق كبير بينهما وبين كلمات الصنف الأول من القوم ، كقولهم (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله) أي إن نصر الله لم يكن دائما في صف الكثرة ، فقد تكون الكثرة على باطل ، وليس عندها من القوة المعنوية ما عند القلة ، وأن القوة المعنوية في القتال تفعل ما لا تفعل القوة الحسية .

وقد نهى القرآن الكريم إلى أن هذه القوة هي قوة العقيدة في الله ، والثقة بشوابه وعقابه ، وأن النقاد لهذه العقيدة لا يستوى هو وصاحبها ، ألا تراه يقول في التحريض على القتال (ولا تنهوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تأملون فإنهم يأملون كما تأملون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليما حكيما « ١٠٤ » (١) ) .

فتراه يريك أنك إذا حاربت القوم وليس لهم عقيدة في الله ، وعندك هذه العقيدة ، فإنهم يشتركون معك في آلام الجسم ، ومشقة القتال ، وأنت تمتاز عنهم بأنك ترجو من الله من الثواب ما لا يرجوه ، وهي قوة معنوية أثرها ظاهر محسوس في جماعة المؤمنين إذا اشتبكوا مع غيرهم في قتال ، أو وقعوا في نزال .

(٥) وكما شهد التاريخ بصدق هذه الكلمة ، وهي قولهم (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله) وهؤلاء أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا في قلة من جهة عددهم وعددهم ، وفشحو في نصف قرن من الممالك ما سجله لهم التاريخ ، ودانت لهم الملوك والأكابر بالطاعة ، وخطبوا ودفم ، وبذل الله قلتهم كثرة ، وضعفهم قوة .

وهذه غزوات المسلمين في أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عهد خليفته الأول والثاني تريك العجب العجيب ، وتحقق لك صدق هذه الكلمة ، وانظر الى قوله (باذن الله) لتفهم أن النصر الذي يناله المسلمون المؤمنون إنما هو بتيسير الله تعالى وتوفيقه ، وهدايتهم إلى وسائل النصر ومقدمات الفلب ، وأن في بعض جزئياته ما يشبه المعجز والخلق ، لذلك أضافوه إلى الله تعالى ، وقالوا (باذن الله) ولم يكفوا بذلك بل عتوا الكلمة بقولهم (والله مع الصابرين) بنصره ومعوته وتوفيقهم إلى أسباب النصر ، ومن كان الله معه فلا يقبل .

ومن حق كل مؤمن أن لا يهوله زخرف الباطل ، ولا كثرة الفسدين ، ولا استعدادهم للحروب ، وتأهبهم للقتال ، عليه أن لا يأس من أن ينقلب القوى ضعيفا ، والضعيف قويا ، لأن الأيام دول ، ويوم لك ، ويوم عليك ، وعليه أن يعمل مع ذلك على نشر روح الرجاء في النفوس وأن يبنه قومه وذويه إلى سنن الله الحكيمية في قيام الأمم وسقوطها ، وضعفها وقوتها ، وإلى عدله تعالى في أن يولي بعض الظالمين بعضا ، وأن سننه بقاء الأصلح (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض « ١٧ » (٣) ) .

وان للمستعمرين ما استولوا على بلادنا إلا لضعفنا في العلم والعمل ، وعدم نهوضنا إلى علوم الحياة ، فكانوا بذلك أصلح منا للبقاء ، وأمثل لطول الحياة ، ولذلك غلبونا على بلادنا ، واستولوا على نواصينا (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال « ١١ » (٣) ) لأنه لا يريد إلا بقوم استحقوه ، ويأس من صلاحهم ، وأخذوا في أسباب الهلاك والفساد ، وكل شعب وصل إلى ذلك الحد من المرض لا يرجى له برء ، ولا ينتظر له شفاء .

ونصيحتي لكل مصلح أن يجعل هذه الكلمة هجيرا ، ويمرّها كثيرا على لسانه ، وهو قوله

( كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين ) حتى لا يجد اليأس إلى نفسه سيلا ، وحتى يندى بها إيمانه ، ويقوى بها يقينه ، وأما زعيم بأن تكون هذه الكلمة أنيسه في التربة ، وسميره في الوحشة ، إذا قاطعه الناس وصلته بالله ، وإذا اضطهده الظالمون منته باحسان الله إليه ، واعاته له ، وإذا قلب عليه سلطان الباطل ذكر هذه الكلمة فيضع أمامه كل قوى ، ويصغر في عينه كل كبير ، وتهون عليه كل صعبة ، لأنه يستمد قوته من الله ، ويستعين في دعوته بالله ، ويصبر على مايناله في سبيل الحق .

( ٦ ) ( ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ) أى لما ظهر طالوت وجنوده لجالوت وجنوده وهم أعداؤهم الفلسطينيين ، واشتبك الجيشان في القتال ( قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا ) على مشاق القتال ( وثبت أقدامنا ) بثبات القلوب ، والطمأنينة بالإيمان والثقة به ( وانصرنا على القوم الكافرين ) عدة الأوتان ( فهزمهم باذن الله ) الذى أعطاهم ما سألوا ببركة توجيههم إليه ، وتذكر ما يؤمنون به من قوته التى لا تغالب ( وقتل داود جالوت ) وكان جالوت عملاقا جبارا فقتله داود ، وهى مقبة لداود لا نسى .

( وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ) فسروا الحكمة هنا بالنبوة ، ويرى صاحب النار أنها الزبور الذى أوحاه الله إليه ، كما قال في آية أخرى ( وآتينا داود زبوراً « ١٦٣ » ) ( ١ ) وبه كان نبيا ، وأما تعليمه مما يشاء فقد فسرها بصنعة الخروع كما قال في سورة الأنبياء ( وعلمناه صنعة لبوس لكم لنحجكنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون « ٨٠ » ) ( ٢ ) .

وعندى أن الآية عامة تشمل هذا وتشمل غيره من فقه معاني النوراة ، ومعاني الزبور الذى أوحاه الله إليه ، وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله تعالى .

( ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ) أى لولا أن الله يدفع أهل الباطل بأهل الحق ، وأهل الفساد فى الأرض بأهل الصلاح لعلب أهل الباطل والافساد فى الأرض ، وبضوا على الصالحين ، وأوقعوا بهم حتى يكون لهم السلطان وحدهم فتفسد الأرض بفسادهم .

فكان من فضل الله على العالمين أن أذن لأهل دينه الحق ، الصالحين فى الأرض ، بقتال الفاسدين فيها من الكافرين ، والبناء للمتدين ، فأهل الحق حرب لأهل الباطل فى كل زمان ، والله ناصرهم مانصروا الحق ، وأرادوا الإصلاح فى الأرض .

والآية ترينا سنة عامة من سنن الاجتماع ، وهى مايمبر عنه علماء الحكمة فى هذا العصر بتنازع البقاء ، ويقولون ان الحرب نسيعة فى البشر ، لأنها من فروع سنة تنازع البقاء العامة ، وهو عام لكل نوع من أنواع التنازع بين الناس الذى يقتضى للدافعة والمغالبة ، وقوله ( لفسدت الأرض ) يؤيد السنة التى يعبر عنها علماء الاجتماع بالانتخاب الطبى أو بقاء الأمل ، ووجه ذلك جعل هذا من لوازم ماقوله ، فكأنه تعالى يقول « ان ما فطرت عليه الناس من مدافعة بعضهم بضاً عن الحق وللصلحة هو المانع من فساد الأرض » : أى هو سبب بقاء الحق ، وبقاء الصلاح ، ويعزز



ذلك قوله تعالى في بيان حكمة الاذن للسلين بالقتل في سورة الحج (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير « ٣٩ » الذين أخرجوا من ديارهم بشير حتى إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصالات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز « ٤٠ » الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأسلموا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور « ٤١ » )<sup>(١)</sup> . وقوله تعالى ( فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال « ١٧ » )<sup>(٢)</sup> .

### داود وسليمان عليهما السلام

وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ<sup>(٣)</sup> فِيهِ غَمُّ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ « ٧٨ » فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ « ٧٩ » وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ<sup>(٤)</sup> لَكُمْ لِنُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ « ٨٠ » وَإِسْلِيمَانَ الرَّيْحَ حَاصِفَةً تَجْرِي بِأَثَرِهِمْ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ « ٨١ » وَبَنَى الشَّيَاطِينُ مَنْ يَفُوصُونَ<sup>(٥)</sup> لَهُ وَيَمْتَلُونَ عَمَلًا ذُوْنَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ « ٨٢ » الأنبياء

### شرح وعبرة

(١) (وداود وسليمان إذ يحكما في الحرث إذ نفشت فيه غم القوم وكنا لحكمهم شاهدين فههمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلا) .  
 أى واذكر لهم يا محمد داود وسليمان ( إذ يحكما في الحرث ) وهو الزرع وقد انتشرت فيه غم القوم ( وكنا لحكمهم شاهدين ) أى مطلعين على حكمهم ( فههمناها سليمان وكلا ) من الرسولين أعطيتاه حكما وعلا ، اذكر لهم هذه القصة لتكون دليلا على صدقك ، وبرهانا على حقيقة قولك ، لأنك نقص عليهم من أبناء داود وسليمان ما كان غائبا عنك وعنهم ، ولولا أنك رسول صادق مؤيد بالوحي السماوى ما اطلعت على شئ من هذا . وقوله ( إذ يحكما في الحرث )

[١] الحج . [٢] الرعد . [٣] انتشرت . [٤] البرع في الحرب .  
 [٥] يندخلون تحت الماء ليخرجوا منه شيئا ، أو يستخرجون له الأعمال البديعة .

بصفة المضارع مع أن القصة قد مضت وصارت عليها من الفرون مالا يعلمه إلا الله تعالى - استحضر للصورة العجيبة ، وتصور لماضي بصورة الشيء الحاضر ، وفرضه كأنه حاصل الآن .  
والقصة التي يتلوها القرآن علينا ترينا أن الحادثة حادثة زرع انتشرت فيه غنم ، ومن شأن الغنم إذا أنتشرت في زرع تفسده ، وأن أصحاب الزرع اختصموا مع أصحاب الغنم ، ورفعت القضية إلى داود وسليمان ليحكمها فيها .

ويقول المفسرون : ان داود أعطى رقاب الغنم لأصحاب الزرع فخرجوا من عنده وصرا سليمان ، فقال كيف قضى بينكما ؟ فأخبراه ، فقال سليمان : لو وليت أمركما لتقضيت بغير هذا ، أو قال غير هذا أرفق بالثريين ، فبلغ ذلك داود ، فدعاه وقال : كيف تقضى ؟ قال : أدفع الغنم إلى صاحب الحرث ينتفع بذرّها ونسلها وصوفها ومنافعها ، ويزرع صاحب الغنم لصاحب الحرث مثل حرثه ، فإذا صار الحرث كهينته يوم أكل دفع إلى صاحبه ، وأخذ صاحب الغنم غنمه ، فقال داود : القضاء ماقضيت ، وحكم بذلك .

والآية تحتل ذلك ، ولامانع منه إذا وردت رواية صحيحة فيه عن المعصوم ، وتحتل غيره . وكل مانع من الآيات قطعاً أن داود وسليمان حكما حكمتين مختلفتين ، وسبب الاختلاف أن المسألة اجتهادية وأن الله تعالى أخبرنا أنه فهمها سليمان ، فكان حكمه صواباً ، أما حقيقة ماحكم به كلّ واحد منهما فلا تدلّ عليه الآية ، فان ورد به حديث صحيح فيها ، وإلا فلا ، والعبرة في الآية لا تتوقف على إضافة رواية إليها .

وتأمل قوله ( وكلا آتينا حكماً وعلماً ) بعد قوله ( ففهمناها سليمان ) لتعرف أن الله تعالى أعطى كلا من الأب الكريم وولده العظيم مقدرة على الحكم بين الناس وعلماً يرشده إلى طريق الحكم ، غير أن الذي أوقى قوة الحكم قد يخطئ وجه الصواب . لأنه ليس هناك وحى ، والمسألة اجتهادية . وقد يكون الحادث له وجوه مختلفة من جهة قياسه بأشباهه وظواهره ، فيختلط الأمر على المجتهد ، فيخطئ الصواب ، وهو مأحور على كلا الحالين ، ان أخطأ فهو مأجور على اجتهاده ، وان أصاب فهو مأجور على اجتهاده وتوفيقه ، وقد ورد عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، فإذا حكم واجتهد ثم أخطأ فله أجر » رواه الشيخان .

غير أن الفرق بين النبي وغيره : أن النبي لا يقره الله على الخطأ بل يرشده إلى الصواب . أما غير المعصوم فلا طريق إلى إرشاده إلى الصواب .

ثم كيف يحرص الاله على النبيين العظيمين : نبي الله داود ، ونبيه سليمان ، ويريك أن قوله ( ففهمناها سليمان ) لم يكن لنقص في داود وعدم استعداد للحكم والقضاء ، غير أنه قد تتفاوت القضاء والحكم مع استعداد الكلّ للقضاء ، كما كانت تتفاوت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما ورد عن بعض الصحابة أنه قال « أقضانا على وأقرؤنا آي » مع أنه كان في الصحابة قضاة كثيرون وقرّاء ، ولكن استعداد على القضاء كان فوق استعداد غيره ، وإتقان آي للقراءة فوق إتقان كثير من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

فلما كان قول الله تعالى ( ففهمناها سليمان ) قد يسيء السامع فهمه ، ويخطئ فيه وجه الصواب ، عقه بقوله ( وكلا آتيا حكما وعلمًا ) .

(٢) والآية ترينا فقه نبي الله سليمان في القضاء ، وكمال استعدادده للحكم ، وقد أخرج الشيخان عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « كانت امرأتان معهما ابناهما ، جاء الذئب فذهب بابن إحداهما ، فقالت صاحبتها إنما ذهب بابنك ، وقالت الأخرى إنما ذهب بابنك . فتحاكما إلى داود فقضى به للكبرى ، ففرجتا على سليمان بن داود عليهما السلام فأخبرتهما ، فقال اتنوني بالسكين أشقه بينهما ، فقالت الصغرى : لا تفعل يرحمك الله ، هو ابنها ، فقضى به للصغرى .

وذلك من فقه سليمان عليه السلام ، وكمال استعدادده للقضاء ، حكم أبوه داود للكبرى بناء على قرينة من القرائن ، أولأن الولد كان تحت يد الكبرى ، والصغرى لم تستطع أن تقيم بينة على أنه ابنها . أما سليمان فعمد إلى أسلوب عجيب اكتشف به وجه الصواب في ذلك الحادث ، فأرى المرأتين أنه مستعد لأن يشقه نصفين . ويعطى كل واحدة نصفًا ، وهنا تجلت العاطفة ، وظهرت شفقة الأم جلية واضحة ، لأن الأم لا ترضى أن يقتل ابنها على مرمى منها ، وتؤثر أن يعيش بعيدا عنها وتحت سلطان غيرها في سبيل حفظ حياته .

فهاه أفتى سليمان بذلك وأراهم أنه منفذ ذلك لاحالة لنقض النزاع بين المرأتين ، قالت الصغرى [ لا نعمل يرحمك الله ] ولا نزاع بيننا [ هو ابنها ] فصرف سليمان أن هذه أمه ، فقضى به للصغرى . وذلك من إعمال سليمان للقرائن ، وتحكيمه للشواهد ، وهي مما يتبين به وجه الصواب في المسائل ، فهي بينة ، لأن البينة ما يتبين به وجه الصواب ويظهر به الحق ، وقد أطال الحافظ ابن القيم في ذلك الباب في كتاب [ الطرق الحكيمة ] وفي كتاب [ إعلام الموقعين ] ولو رجعت إليه في ذلك لرأيت ما يبلغ صدرك ، ويتفكك على علمه الواسع ، وفقهه العميق ، ثم ترى كيف تكون السريعة حكيمة عادلة سالحة لأن تسعد الناس في دينهم ودنياهم . وكيف لا يقف القاضي من الحوادث مكتوف الأيدي ، لأن عنده من القرائن والأدلة ما يمكنه من كشف الحقيقة وإزالة الغطاء ، ويرى ابن القيم أن العمل بالقرائن هو شأن الناس في كل زمان .

وقد استدلل بقوى داود في مسألة الولد التي رواها الشيخان ، وقال : ان ذلك لم يكن قضاء بشهود ، وإنما هو قضاء بني على قرينة ، هي شفقة الأم التي جبلت عليها ، كما استدلل بقول الشاهد في قضية امرأة العزيز مع يوسف ( ان كان قيمه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين » ٢٦ ) وان كان قيمه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين » ٢٧ فلما رأى قيمه قد من دبر قال إنه من كيدك ان كيدك عظيم » ٢٨ ) وهو تحكيم للقرائن وعمل بمقتضى للنطق والعقل ، وقد وفينا الآية حقها في سورة يوسف ، كما استدلل بحوادث أخر وأفاض في المسألة ، واستوفى الكلام على معنى البينة واشتقاقها ، واستعمل القرآن الكريم لها ، جزاء الله عن دينه خيرا .

(٣) ( وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير ) قال الراغب : التسخير سياقه إلى الترض

المختص قهرا . قال تعالى ( وسخر لكم مافى السموات وما فى الأرض - وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار - وسخر لكم النلك - كقوله سخرناها لكم لعلكم تشكرون - سبحان الذى سخر لنا هذا ، وقد شرح ذلك التسخير بقوله ( يسبحن ) .

واختلف المفسرون فى تسبيح الجبال مع داود ، أهو خارق للعادة ، أو هو تسبح بلسان حالها على حد قوله تعالى ( وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ) والمراد أن الجبال تقدس الله بلسان حالها ، وتشهدله بأنه إله قادر حكيم ، منزه عن القصد والعبث ، وكأنها تقول : إذا كنت فى نظر بعض الناس خلقا لاغناء فيه ولا نفع ، فأتى عند أصحاب العقول الراجحة ، والفقه الواسع ، خلقت لحكم ومصالح لا تقف عند حد ، فمن حكمها أن الله تعالى ينزل الثلج عليها فيبقى فى قلبها حافظا لشراب الناس الى حين نقاده ، وجعل فيها ايدوب بالتدرج ، فتجىء منه السيول . ونسل منه الأنهار والأودية ، فنبت فى الروج ، والوهاد والرى ضروب النبات والفواكه والأدوية التى لا يكون مثلها فى السهل والرملى ، ولولا الجبال لسقط الثلج على وجه الأرض جلة ، فاحل بسرعة ، وعدم وقت الحاجة اليه ، وكان فى انحلاله جلة هلاك ماصر عليه ، وفيها من الأحجار ما يصلح للابنية ، وفيها معادن الذهب والفضة ، والحديد والنحاس ، والزرجد والزمرد وغيرها من أنواع المعادن ، وفيها من المنافع أنها ترد الرياح العاصفة وتسكس حداثها عما تحتها ، كما ترد عنهم السيول إذا كانت فى مجاريها .

والظاهر أن تسبيح الجبال مع نبى الله داود كان تسبيحا خاصا يفهمه داود عليه السلام ، وهو فضل من الله عليه ، لم يشركه فيه غيره ، ويدل لذلك قوله تعالى فى سورة سبأ ( ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبى معه والطير « ١٠ » ) أى رجمى معه التسبيح ، أو رجمى معه فى التسبيح كما رجم فيه ، ولو كان ذلك التسبيح بلسان الحال لما كان فضلا خاصا بنبى الله داود ، وقال فى سورة ( ص ) ( وإذ ذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه آوآب « ١٧ » ) انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعنى والاشراق « ١٨ » والطير محشورة كل له آوآب « ١٩ » ) أى كل من الجبال والطير لأجل تسبيح داود مسبح لأنها كانت تسبح بتسبيحه .

وقوله ( والطير ) منصوب على المنة ، والمعنى أن الطير كالجبال فى أن الله تعالى سخرها مع داود لتسبيح الله تعالى وتقديسه ، فجد الطير كان مسخرا لداود كالجبال ( وكنا فاعلين ) لذلك التسخير ، فليس يبدع منا ولا عجب ، وهو دليل آخر على أن تسبيح الجبال مع داود كان تسبيحا إيجابيا ، وإلا لما ساغ قوله ( وكنا فاعلين ) وهى كلة تدل على عظم الفعل وأهميته ، فإذا عجبتم منه فلاحق لكم فى ذلك ، لأن الكون جميعه بيد الله تعالى ، وهو الذى يسخره كيف يشاء ، وفى أى ناحية شاء ، لا يتعاصى عليه شئ ، ومتى قال للشئ كن كان .

( ٤ ) ( وعلناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ) أى علناه عمل البروع ، ثم بين لنا الغاية منها فى قوله ( لتحصنكم من بأسكم ) أى لتحفظكم اللبوس من بأسكم إذا وقعتم فى حرب ، وقد بين ذلك فى آية سبأ إذ يقول ( وألنا له الحديد « ١٠ » أن اعمل سابغات وقتر فى السرد واعملوا صالحا فى بما تعملون بصير « ١١ » ) وسابغات : دروع واسعة ضافية ،

والسرد نسج السروع ، وقدر فيه : اجعله بقدر يناسب مع المهمة التي عمل لها ، فهل الآية التي معنا شرح لآية سبأ . وإلانة الحديد لداود كناية عن تعليم الله له صناعة السروع ولبوس الحرب ؟ ومادامت للسائلة مسألة تعليم وارشاد فليست من خوارق العادة ، أوهناك إلانة حقيقة ومع الإلانة تعليم منه ؟ وموضع التعليم في آية سبأ هو قوله ( أن تعمل سابعات وقدر في السرد ) وهو المعنى من قوله ( وعلمناه صناعة لبوس ) فإله تعالى ألان له الحديد معجزة له ، ثم شفع ذلك بأن علمه صناعة السروع من ذلك الحديد اللين ، والآية تحتمل الفهمين .

وأنا أميل الى الوجه الأول وأن إلانة الحديد لداود عليه السلام هو المراد من قوله ( وعلمناه صناعة لبوس ) لأن الأصل في الآية أن تفهم على حسب المعتاد والمألوف ، ولا يذهب الى فهمها على وجه خارق للعادة إلا حيث تعذر فهمها على الوجه المعتاد ، والأصل في الآيات أن يفسر بعضها بعضا .

( فهل أتم شاكرون ) أى فضل الله عليكم بذلك التعليم ، وهو يرينا أن علم فنون الحرب ومعرفة الوقاية منه وحماية الدولة من أيدي الأعداء نعمة عظيمة يغني الشكر عليها ، وينبغي للقوم أن يهتموا بها ، لأنه لإحياة للعالم إذا لم يكن له قوة حريصة تحميه وتدافع عنه ، ولذلك يدعو القرآن الكريم الى أن نأخذ الحذر من العدو ، وأن نعد له ما تستطيع من قوة مادية ومعنوية ، ونكر القوة لاختلافها باختلاف المصور والأزمنة ، ففي عهد داود عليه السلام كان القتال بالحرب ولذلك أرشده أن ينسج دروعا للحرب من الحديد ، لنقي لابسها من السهام والحواب .

أما اليوم فتطورت العلوم والمعارف ، ودخل العالم في شأن جديد وأصبحت القوة الحربية للأمة تقاس بأساطيلها البرية والبحرية ، وطياراتها وغواصاتها ، بل وتقاس بصناعتها وفنونها ، وتجارتها ، فكما تحارب الأمم بعضها بعضا بالمقذوفات النارية ، والغازات السامة الخائفة ، يحارب بعضها بعضا بالمصنوعات والمنسوجات ، وهذه دولة اليابان تحارب العالم كله بصناعتها من جهة جودتها ، وسهولة ثمنها ، وهي حرب عوان يعمل العالم له حسابا وألف حساب ، لأنه يتعلق بمشكلة البطالة التي تهدد الأمم من وقت لآخر ، ولها اتصال وثيق بمرور الأمة وما ليتها ، ويقع ذلك توسعها في الاستعمار .

فوسائل الحرب في هذا الوقت كثيرة مختلفة ، وقد تطورت بنسبة تطور العالم في علومه ومعارفه ، واتساع مرافقه ومشاكله ، ومن لم يتذأب أكلته النشاب ، ومن لا يظلم الناس نظمه ، فليقنه لذلك السامون ، وليضربوا بسهم في هذه الحياة المليئة بالمشاكل ، وليلبسوا لكل وقت لبوسه ، وإلا ذهب ربحهم ، وقضى عليهم القضاء الأخير ، وليعتبروا بغيرهم ، ويذكروا بما حل بهم من مصائب ، وما انتابهم من ويلات ، وليذكروا تاريخهم المجيد ، وسلظمتهم الصالح ، وما خلفه لهم من دولة ، وما تركه من ميراث ، والله معهم يعينهم وينصرهم مانصروا تعاليمه . وآزرروا دينه وشريعته .

(هـ) (وليليان الريح عاصفة تجرى بأمره الى الأرض التي باركنا فيها وكننا بكل شيء عالمين) أى وسخرنا ليليان الريح حال كونها عاصفة ، أى شديدة الهبوب : أى ان الله تعالى سخر له الريح تجرى بأمره كما يريد على قوتها وشقتها ، وذلك فضل من الله تعالى على نبيه داود ، فالريح التي

يرسلها الله على الجبال فتفسفها نسفاً ، وتزورها قاعاً صمصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً . والريح التي يصفها الله بأنها لا تنثر من شيء أنت عليه إلا جعلته كالريم ، والريح التي وصفها الله بأنها ريح عاتية تقصف الرموس من الأجسام كما تقصف النخلة من جذعها — هذه الريح التي لها هذه القوة ، ولها هذه الآثار ، قد سخرها الله تعالى لداود تجرى بأمره رخاء سهلة ، حيث أراد داود ، ويقول بعض المفسرين إنها أحياناً تكون عاصفة ، وأخرى تكون رخاء ، لأن الله وصفها بالوصفين جيا ، مع أن الله تعالى وصفها بأنها عاصفة في سورة الأنبياء .

ثم عطف الوصف بقوله تجرى بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ، فهي تجرى لمصلحة داود عليه السلام ، ولا يتفق ذلك مع قوتها وشدةها ، إنما اللائح بهذه الريح أن تكون رخاء ، ووصفها في سورة (ص) بقوله (فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب) .

فالظاهر أن عصفها يبان لشدةها في نفسها ، وأن لينها يبان عند أمره لها وانتفاعه بها . وقوله (تجري بأمره) أى أنها تحت تصرفه وسلطانها ، وهي معجزة لداود وقوله ( إلى الأرض التي باركنا فيها ) المراد بها بلاد الشام (وكما بكل شيء عالين) أى بصحة التدبير فيه ، فجزبه على ما تقتضيه الحكمة ، وأنا نعلم أن سليمان سيعرف نعمتنا ويشكرنا عليها .

(ومن الشياطين من يعضون له ويعملون عملاً دون ذلك وكنا لهم حافظين) أى وسخرنا لسليمان من الشياطين من يعضون له في البعار ، ويستخرجون منه الدر والرجان وما يكون فيها (ويعملون عملاً دون ذلك) أى دون النوص كبناء المحاريب والمنايل ، والقصور والقصور والجنان (وكنا لهم حافظين) أن يزيفوا عن أمره ، ويخرجوا عن طاعته .

### داود وسليمان عليهما السلام

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْחَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ «١٥» وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ «١٦» وَخَشِيَ<sup>(١)</sup> لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ<sup>(٢)</sup> «١٧» حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِيطُكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ «١٨» فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي<sup>(٣)</sup>

[١] جمع . [٢] يأسون وعضون ، أو يحبس أولهم على آخرهم ليلحقوا .

[٣] اجعلني موزعاً بالفكر مولياً به .

أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ  
وَأَذْخُلِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ «١٩» وَتَقَعْدُ الطَّيْرُ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى  
الْهُدُودَ أَمْ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ «٢٠» لَا عَذَابَ لَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَا ذُبْحَهُ أَوْ  
لِنَايَتِنِّي بِسُلْطَانٍ <sup>(١)</sup> مُبِينٍ «٢١» فَكَتَّ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِطُ  
بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ «٢٢» إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُكُمْ وَأَوْتَيْتُ  
مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ «٢٣» وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ  
دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّمُوا عَنْ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ «٢٤»  
أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ <sup>(٢)</sup> فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ  
وَمَا تُنْظِرُونَ «٢٥» اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ «٢٦» قَالَ سَنَنْظُرُ  
أَصْدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ «٢٧» أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ  
تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ «٢٨» قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أَتِيَّتُ إِلَىٰ كِتَابٍ  
كَرِيمٍ «٢٩» إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمٍ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ «٣٠» أَلَّا تَعْلَمُوا  
عَلَىٰ وَأَتَوْتِي مُسْلِمِينَ «٣١» قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِ فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً  
أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ «٣٢» قَالُوا نَحْنُ أَوْلَا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ  
فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ «٣٣» قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا  
أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ «٣٤» وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمِ  
يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ «٣٥» فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمٌ قَالَ أَتُمِدُّونَ بِمَالٍ فَاءَ أَتَيْنِي اللَّهُ خَيْرَ  
مِمَّا أَتَيْتُكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ «٣٦» أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ  
بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ «٣٧» قَالَ يَا أَيُّهَا

الْمَلَأُوا أَيْكُم بِرَمَثِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ «٣٨» قَالَ عِفْرِيتُ مِنَ  
الْجِنِّ أَنَا أَتَيْتُكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِي أَعِيبٌ «٣٩» قَالَ  
الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا  
رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ  
شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌ كَرِيمٌ «٤٠» قَالَ  
تَكْرُؤًا<sup>(١)</sup> لَهَا عَزَّتْهَا نَنْظُرُ وَنَتَنَادِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ «٤١»  
فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا  
مُسْلِمِينَ «٤٢» وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ  
كَافِرِينَ «٤٣» قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ<sup>(٢)</sup> فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ  
سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ<sup>(٣)</sup> مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ  
مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ «٤٤» النمل

### شرح وعبرة

(١) (ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين)  
يخبرنا الله تعالى أنه أعطى داود وولده سليمان علما ، وهو علم القضاء بين الناس كما قال في آية  
الأنبياء (وَلَا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا «٧٩» ) فهم من قرنه بالحكم أنه علم منطبق به ، فالحكم الذي  
آتاه الله لهما حكم أساسه العلم ، فالتة تعالى يتلوا عليهما بأن آتاهما مقدرة على الحكم بين الناس ،  
وأن هذه المقدرة أساسها العلم بوجوه الحكم وطرق القضاء ، وإن تفاوتا فيه ، وكذلك آتاهما الله  
علما بسياسة العقول وتدير شؤونها ، كما علم سليمان منطق الطير ، وفي الآية تنويه بشأن العلم  
وعلاوة منزلته ، ولا سيما علم القضاء والسياسة ، إذ لا تستوي أمة عالة وأمة جاهلة ، وكذلك  
لا تستوي دولة فيها رجال قضاء وسياسة ، ودولة أقفرت من ذلك النوع من العلم .  
وقد أصبح القضاء بين الناس ، وكذلك السياسة فنونا تدرس وتعلم ، وتطور العالم هو الذي  
قضى بذلك ، ولعل المسلمين يهتمون بالعلم ويعنون به عنايتهم بأهم أمورهم ومصالحهم ، حتى



لا يستقيم الأجني في هذه العلوم ، وحتى لا يقفوا والقافلة تسير ، ولا يجمدوا والفلك يتحرك ويدور  
لعل المسلمين يفهمون أن نبي الله داود وولاه سليمان لم يكونا ملكا إلا على أساس العلم وقاعدة  
العرفه ، فإذا أرادوا أن يكونوا في عداد الأمم الناهضة والشعوب الحية فليهتموا بالعلم من جميع  
نواحيه ، فان الأجني قد سيطر عليهم ، لأنه علم وجهاوا ، وتقدم وتأخروا ، ونشط وناموا .  
( وقال الحمد لله الذي فضّلنا على كثير من عباده المؤمنين ) .

أى ان نبي الله داود وولاه سليمان شكروا الله على تفضيله لهم على كثير من عباده المؤمنين  
وهم الذين لم يؤتوا علما ، أو أوتوا علما ليس كعلمهما ، وتأمل كيف يستران بأنهما وإن آتاها الله  
علما فقد فضل غيرهما عليهما ، ولم يفضلهما على جميع الناس ، بل فضلهم على الكثير من المؤمنين ،  
ليعلمنا كيف لا يفتن الانسان بما أوتي من العلم ، وما وصل إليه من الفضل ، فان ما يعطاه الانسان  
من العلم في جانب ما جهله شيء قليل ، كما قال ( وما أوتيتم من العلم إلا قليلا « ٨٥ » (١) )

ومن جهة أخرى فان هناك من هو أعلم منه من المخلوقين ، ومنى عرف الانسان ذلك ، وأيقن  
أن فضل الله لم يكن حجرا عليه . وأنه فوق كل ذي علم عليم ، وعرف أنه لم يؤت من العلم إلا  
قليل - متى عرف ذلك بعد عنه النور ، وعرف قيمة نفسه ، وطلب المزيد من العلم ، وفهم معنى  
قول الله تعالى لبيه محمد صلى الله عليه وسلم ( وقد ربّ زدني علما « ١١٤ » (٢) ) .

(٢) ( وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن  
هذا هو الفضل المبين ) .

يرينا الله أن سليمان عليه السلام ورث أباه داود نونته وعلمه وملكه دون سائر أولاده ، ولم  
يكن ذلك الميراث كما يرث أولياء العهد آبائهم في الملك بمقتضى نظام الوراثة ، وانما هو توريث الله  
لسليمان واصطفاه له لذلك المنصب ، لأن الله أعده له بما آتاه من الخصائص والمزايا التي نعتده  
لذلك المقام .

( وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير ) المنطق والنطق كل لفظ يعبر عما في الضمير ، والأصوات  
الحيوانية من حيث انها تابعة للتخييلات منزلة منزلة العبارة ، سيما وفيها ما يتفاوت باختلاف  
الأغراض ، بحيث يفهمها ما هو من جنسه . قال البيضاوى : ولعل سليمان مهما صوت حيوان  
علم بقوته الحسية التخيل الذي صوته ، والنرض الذي نوحاه به .

ومن ذلك ما حكى أنه صرّ بلبل يصوت ويرقص ، فقال : يقول « إذا أكلت نصف ثمرة  
فعلى الدنيا العناء » وصاحت فاختة فقال : انها تقول « ليت الخلق لم يخلقوا » فلعل صوت البلبل  
كان عن شبع وفراغ بال . وصباح الفاختة كان عن مقاساة شدة وتألم قلب اه .

ولم يجزم البيضاوى بذلك الرأى ، بل صتره بكلمة [ لعل ] الدالة على الرجاء ، ولعله يرى أن  
التبادر من الآية أن تعليم منطق الطير لسليمان كان معجزة له ، وإن كان ذلك الوجه الذي قرره  
تحتله الآية ، فان قوله ( علمنا ) يحتمل أن يكون معناه أنه منحه الله أسباب العلم ومقتسماته ،  
فأعطاه من الحكاء والفراصة ما يفهم به لغة الطير في حزنها وفرحها ، وشدةها ورخاؤها ، ويسمع

من الطير في كل حالة من هذه الحالات ما يدل على غرضها الذي تقصه من التصويت ، وإذا سهل على الذين يراقبون الحيوان والطير أن يجدوا أصواتها تسكيف بكيفيات مختلفة باختلاف حاجتها ومطالبها ، فواء الهرة المحبوسة يغاز مواها إذا طلبت السقاء ، والطعام أو الماء ، فلكل صوت كيفيات وبران ليست في الصوت الآخر ، يفهم عنها أبناء جنسها - إذا سهل ذلك على أولئك أفلا يسهل على نبي قد اختاره الله أن يعطى من قوة الحدس والكفا ما به يفهم منطق الطير وما يريده إذا صوّت .

ان الآية تحتمل هذا ، ويكون قوله (علمنا منطق الطير) المراد به أن الله وهب من الكفا وقوة الحدس ما يستطيع به فهم أصوات الطير ، وهو فضل عظيم من الله عليه يستحق عليه الشكر ، ويكون ذلك الامتنان كقوله (وكلّا آتينا حكما وعلما) والحكم الذي آتاه الله إياه ، وامتّن عليه به هو للقدرة والاستعداد للقضاء بين الناس .

وكما تحتمل الآية ذلك تحتمل وجها آخر ، وهو أن الله اختصه بفهم لغة الطير لامن طريق الحدس ، بل من طريق الالهام ، فهو معجزة سليمان كتسخير الريح ، وقد يؤيد ذلك قصة المدهد ، فان ما دار بينه وبين سليمان من حوار وأخذ ورد لا يمكن تأويله بمثل ما أول به اليساوى ، فانه توعدده بالعذاب الشديد إلا أن يأتي بحجة وعفر ، وقوله سليمان : أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ يفا يقين ، وإخبره أنه وجد امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شيء ، ولها عرش عظيم ، وعلمه بأنها هي وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وأن الشيطان زين لهم أعمالهم فصدّهم عن السبيل فهم لا يهتدون ، وقول سليمان له (سنظروا صدقت أم كنت من الكاذبين) الخ

كل ذلك لا يتفق وما يفهمه اليساوى في الآية ، وكذلك لا يتفق وما يتأول به بعض الناس قصة المدهد بالطير الزاجل العلم ، فانه إذا سهل عليه أن يحمل رسالة من مكان الى مكان لا يسهل عليه ذلك الحوار وهذه الأجوبة (وأوتينا من كل شيء) المراد به كثرة ما أوتي ، كما تقول فلان يقصده كل أحد ، ويعلم كل شيء ، تريد كثرة قاصديه ، وغزارة علمه ، والظاهر أن الأشياء التي أوتيتها سليمان وأبره هي حجاب الملك ، ولوازم العظمة ، كقوله في شأن بلقيس (وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم) .

(ان هذا هو الفضل المبين) الإشارة الى ما أعطاه الله لداود وسليمان عليهما السلام ، وهو قول يراد به الشكر والمحمدة ، و (المبين) الواضح الجليّ فذلك اعتراف آخر بفضل الله عليهما بعد اعترافهما الأول (وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين) لتعرف من ذلك الخلق الذي كان عليه داود وسليمان أنه يفتي لكل أحد أن يعرف فضل الله في العلم أو المال أو الصحة أو النسل الصالح وغير ذلك مما لا يحد ، وأن يقابل نعمة الله عليه بشكره والاعتراف بنفسه ، لأن ذلك مدعاة للزيد من ذلك الفضل (وإذا تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد «٧» (١)) .

وانظر كيف ينسب الفضل في كل هذه الواطن الى الله تعالى ، فيقول داود وسليمان عليهما السلام ( الحمد لله الذى فضلنا ) ويقول سليمان ( يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ) أى ان الله هو الذى علمنا ، وهو الذى آتانا كل شيء ، ويقول الأستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى فى كتابه الجواهر : ان تعليم الله لنبية سليمان كان معجزة ، ولذلك قال علمنا ، ولم يقل تعلمنا ، أما نحن فنعرفه من طريق التعلم .

وقد عرف العلماء كثيرا من لغات الطيور : أى تنوع أصواتها لأغراضها المختلفة ، وفى هذا معجزة لهذا القرآن لقوله فى آخر السورة ( وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها ) وكأن الله يقول إنكم لا تعرفون لغات الطيور ، وقد علمتها سليمان ، وسأأتى يوم ينشر فيه علم الخلق ، ويطلع الناس على عجائبه ، فتعرفونها بالتعليم لا بالقوة القدسية كالأنبياء ، يريكم الله إياها . ويرشدكم الى مواطنها فتعرفونها ، لأنكم مأمورون أن تعرفوا آيات على قدر طاقتكم .

( ٣ ) ( وحشر سليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون ) أى جمع لسليمان جنوده السمسرة له من الجن وهو العالم الخفى الذى يقابل الانس ، ومن الانس والطير ( فهم يوزعون ) أى يبايئون ويقمعون ، وحكمة ذلك التعقيب أن كثرة الجيش قد تكون مدعاة للفوضى والهمجية ، فأرانا الله أن جيش سليمان مع كثرته وتنوعه هو سلس القياد سهل الصط ، أو يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا ، وذلك شأن الجيش عند الاستعراض يجمع أوله على آخره بحيث يتصل بعضه ببعض ، لأن ذلك أروع للعدو ، وأعظم فى نفس الرائي ، ولأمانع من ارادة المعين جميعا ، فالجيش على كثرته سهل القياد ، ويتصل بعضه ببعض عند الاستعراض .

( حتى إذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ) هو واد بالشام يكثر فيه النمل ، أطلق عليه ( وادى النمل ) لذلك .

يرينا الله تعالى أنه بعد أن جمع لسليمان جنوده الكثيرة ساروا فى الأرض ، حتى إذا مروا على وادى النمل ، قالت نملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم . وهل قالت ذلك لأنها لما رأت الجنود قد أتوا على الوادى فرت منهم ، وصاحت صيحة نهت بها مباحضرتها من النمل لمرادها ، فقبعتها فى الفرار ، فشب ذلك بمخاطبة العقلاء ومناعتهم ، فأجروا مجراهم حيث جعلت هى قائلة ، وما عداها من النمل مقولا لهم - أو أن لأمانع أن يخلق الله تعالى فيها النمل ، وفيها عداها العقل والفهم ؟ قيل بكل . وبدأ المفسر أبو السعود بالوجه الأول ، وكأنه يرجحه ويختاره .

ولسنا فى حاجة الى ادعاء أن الله تعالى خلق فيها نطقا ، وفيما عداها عقلا وفهما ، مادام سليمان قد علمه الله منطقها وفهمه لغتها ، فإذا صاحت بما حولها ، وفرت الى جهة غير الجهة التى فيها جنود سليمان ، فقد فهم سليمان من صيحتها وفراها ما تريد بهذه الصيحة ، وهى فى استعدادها وخلقتها .

ويظهر أن للمفسر قد فهم من قول الله تعالى ( قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ) أنها نطقت بمثل هذه الألفاظ ، لذلك يقول [ مع أنه لا يمنع أن يخلق الله فيها النطق وفى غيرها العقل والفهم ] مع أن المراد أنها صوتت بما يفهم منه سليمان ذلك ما تدل عليه الآية غير أنه هل فهمها

سليمان بطريق الفراسة والحدس أو فهمها بإلهام من الله تعالى معجزة له .  
ذلك هو موضع الكلام في الآية ، ولم يكن هناك نزاع في أن يتمتع أن يخلق الله فيها النطق  
وفي غيرها العقل والفهم أو لا يتمتع .

(لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) جواب الأمر في قوله (ادخلوا مساكنكم) أمر  
بدل منه مبين للفرض ، والذي لا تصحكونوا في المكان الذي أتم به فيحطمكم ، وقوله (وهم  
لا يشعرون) اعتذار عن سليمان وجنوده إذا فرض أن كان منهم تحطيم للنمل ، وكأنها تقول:  
لاخوتها من العمل كونوا على حذر من تحطيم جنود سليمان لكم ، وفروا إلى مساكنكم ، لأنه  
إذا حطمكم فقد حطمكم بدون شعور ، فأتم الجنان على أنفسكم .

(٤) (فتبسم ضاحكا من قولها) تعجبا من حذرها وتحذيرها ، وفي الوقت الذي تحذر فيه  
قومها تلفت نظر سليمان إلى أن في طريقه عالما هو أقل منه جسما ، وأضعف استعدادا ، ولا  
يليق بسليمان وقد آتاه الله ما آتاه من الملك والسلطان أن ينزل عن ذلك العالم الصغير ، فانه خلق  
من خلق الله ، لاذنب له في أن خلقه الله ضعيفا لا يستطيع أن يكافح من هو أعظم منه ، ولا حيلة  
له في تحويله من الضعف إلى كبر ، ومن الضعف إلى القوة .

تلفتة إلى أنه ينبغي للقوى أن يلحظ الضعيف ، وللأكبر أن يرحم الصغير ، حتى ولو لم يكن  
له به كائن مع الانسان . فما بالك بالانسان مع أخيه الانسان ، إذا كان للخالق الضعيف حق  
على المخلوق القوى أن يرعاه ويحتاطه لحايته ، وإن لم يكن من نوعه ، حق الانسان على الانسان  
في أن يرحم ضعفه ، ويحتاط للابقاء عليه أولى ثم أولى ، ويحق لسليمان أن يتبسم ضاحكا من  
قول النملة هذا ، وتلفظها في الاعتذار عن سليمان ، وأشعر سليمان بلطف أنه مسئول عن هذه  
العوالم الصغيرة التي يمر بها جيشه بعد أن نبه لذلك .

(وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه  
وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) .

طلب من الله بعد حديث النملة أن يلهمه شكر نعمته عليه وعلى والديه في أن حشر له ذلك  
الجيش الجرار ، ونعمته عليه بتعليمه منطق الطير ، وفهمه ما تريده النملة من صوتها وفوارها ،  
ولم يطلب نبي الله منه أن يلهمه ذلك الشكر فحسب ، ولكنه طلب منه مع ذلك أن يجعله مولعا  
بذلك الشكر ، معينا به ، لاهم له غيره ، كما تعطيه كلمة (أوزعني) فانها تدلّ فوق دلالتها على  
الالهام - على أن يكون ذلك الشكر بوزن يحفز به إلى الشكر ، ويحضره عليه ، بحيث لا يدعه  
وقتما بدون شكر لله تعالى ، ولما كان فضل الله عظيما على كل من سليمان وأبيه وأمه قال  
(على وعلى والدي) .

(وأن أعمل صالحا ترضاه) أي وأوزعني أن أعمل صالحا ترضاه ، لأن ذلك هو الغاية من  
الشكر العملي ، بل هو الشكر فيكون تضيقه له ، ولذلك يقولون [ الشكر صرف البذل جيع  
ما أنعم الله به عليه إلى ما خلق لأجله ] ويقول الله تعالى (وقليل من عبادي الشكور «١٣» (١١)) .

وقوله (رضاه) إشارة الى أن العمل قد يكون صالحاً في نظر صاحبه ولا يكون صالحاً عند الله تعالى ، لأنه عمل لم يبن على العلم الصحيح والوحى الساوى ، وهو ما أخذ من مشكاة النبوة ، بل أخذ من طريق التقليد الأعمى ، واتباع الآباء والأجداد ، كما عليه كثير من مسلمى اليوم ، يأخذون عبادتهم عن عجائز البيوت ، وما عليه القوم ، وفيها كثير من البدع والخرافات ، فلا تهنذب نفوسهم ، ولا تصل بهم الى الغرض من كل عبادة شرعها الله على لسان نبيه .

أما الذى يأخذ دينه عن الله تعالى ، ويهتدى بهدى رسوله للعصوم ، فيرجع إليه فى أشكال العبادات ، ومعرفة الحلال والحرام ، ويعنى بشأن العبادة العناية اللائقة ، فلا يقلد فيها بدون حجة أو برهان ، وإنما يأخذها بأدلتها وبراهنها ويسأل أهل الذكر ان لم يكن فى استطاعته أن يفهم ذلك بنفسه . فذلك هو الذى يعمل العمل الصالح الذى يرضاه الله ويعبه ، وإذا أخطأ السبيل بعد ذلك الجهد ، ولم يوفق للعواب ، لأن للسألة التى أخطأ فيها الصواب مسئلة اجتهادية ، فهو معذور فى خطئه ، مأجور على المجهود الذى بذله ، لأنه أدنى ما عليه ، وبذل ما ينبغي أن يبذل المؤمن التقي .

(وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين) يطلب من الله تعالى أن يدخله فى رحته فى الدنيا والآخرة فى جملة الصالحين للحياتين ، الجامعين بين الصلاحية لعمارة الأرض والصلاحية لآرث الجنة ، وهى السعادة الكاملتهم ، والنور الأكبر .

(هـ) (وتفقد الطير فقال ما لى لأرى الهدهد أم كان من الغائبين) أى تعرف الطيور فلم يجد فيها الهدهد ، (فقال ما لى لا أرى الهدهد) لأنه حاضر وهو محجوب عني بستر ؟ أم كان غائبا ولمالك لم يره ، وكأنه يقول أولاً : ما لى لا أراه ألسر ستره أو لسبب آخر ؟ ثم بداله أنه غائب فأضرب عنه ، وقال : أم كان من الغائبين .

(لأعذبه عذاباً شديداً أو لأذبحه أو ليأتينى بسلطان مبین)

يقسم نبي الله سليمان أن لا بد أن يذنب الهدهد عذاباً شديداً ، كنتف ريشه وجمله مع ضده فى قفص ، أو ليذبحه ليعتر به غيره ، إلا أن يأتيه بحجة تبين عذره فى تلك الغيبة (فكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتكم من سبأ نبأ يقين) أى فكث الهدهد مكتاً غير طويل فلما رجع سأله عما لنى فى غيبته (فقال أحطت بما لم تحط به) علمت ما لم تعلم . ولما كان الذى يعلم الشيء من جميع نواحيه يحيط بذلك الشيء عبر عنه بذلك ، وفى الآية دليل على أن الأنبياء تخفى عليهم أمور يعرفها غيرهم ، وذلك ليعرف الناس أقدارهم ، وليعلم الانسان من كل أحد ، لأن سليمان لم ير بأساً فى أن يتعلم من طريق الهدهد ، وهو ذلكم الطائر المعروف ألهمه الله فكافح سليمان بهذا الكلام على ما أوتي من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة ، والاحاطة بالمعاملات الكثيرة لينبه الله تعالى على أن فى أدنى خلقه وأضعفه من أحاط علماً بما لم يحيط به ليتماغر إليه علمه وتحاقر إليه نفسه ويكون ذلك لطفاً به فى ترك الإعجاب الذى هو فتنة العلماء ، وأعظم بها من فتنة .

فإذا كان سليمان لم يعرف أحوال سبأ وملكتها . وقال له الهدهد (أحطت بما لم تحط به) فلماذا

يأتف الانسان أن يتعلم من أخيه الانسان ، وإن كان أصغر منه سناً ، أو دونه في الواجهة والمكانة وفي الحكم المشهورة [الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها] وذلك اكبار لشأن العلم ، واعلاء لمزلته ، وأى اكبار أعظم من أن نبى الله سليمان يأخذه من طير من الطيور ، ويتلقاه من نوع غير نوعه ، ولا يرى غصاة على نفسه في ذلك ، ولعل الناس يظنون لهذا فيكبرون من شأن العلم كما اكبره سليمان ، ويهتمون به كما اهتم به سليمان ، ولاسيا العلم المتعلق بأحوال الممالك والأمم . (وجئتك من سبأ نبأ يقين) أى خبر محقق ، وسبأ هو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان كما يقول المؤرخون نسبت إليه القيلة .

(انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ . ولها عرش عظيم) بيان للنسب المتعلق بسبأ ، والراة هى بلقيس بنت شراحيل من نسل يعرب ، والضمير فى تملكهم لسبأ (وأوتيت من كل شئ) يحتاجه الملوك (ولها عرش عظيم) سرير كبير (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله) فكانوا يعبدونها ، وعبر عن العبادة بالسجود لأنه أظهر أشكالها (وزين لهم الشيطان أعمالهم) من عبادة الشمس وغيرها من الأفعال والاعتقادات (فصدتم عن السبيل) أى سبيل الحق والصواب (فهم لا يهدون) إليه .

(أن لا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون) بدل من (أعمالهم) بين المراد بها : أى زين لهم الشيطان أعمالهم ، وهى عدم سجودهم لله تعالى ، أو مفعول لأجله : أى زين لهم أعمالهم لئلا يسجدوا لله ، وقرئ (ألا يسجدوا) بالتخفيف فتسكون (ألا) للتفخيم ، وبأحرف تداء ، والنادى محذوف : أى يا قوم اسجدوا لله الذى يخرج المحبوء ، والغائب فى السموات والأرض ، من نبات وأمطار وغيرها ، والمراد أنه فعال يخرج للناس ما كان خفياً عليهم ، فالنبات قبل أن يولد كان خبأ فى الأرض فأظهره الله وأخرجه والأجنة فى بطون أمهاتها كانت كذلك ، فأخرجها الله وأظهرها ، وأتم خلقها وصورها ، والكواكب تخفى فى النهار ثم يخرجها الله تعالى فى الليل ، ويظهر ضوءها للعالم ، والشمس تضيئ عن طائفة بالليل وتظهرها بالنهار ، والأمطار يخرجها الله للعالم وينزلها من جهة العلو فتدفع بها الناس (ويعلم ما تخفون وما تعلنون) أى مع اخراجه الخبء يعلم ما تخفيه فى أنفسنا وما نعلن ، والآله الذى له هذه الآثار ، وله العلم المحيط هو الذى يستحق أن يعبد .

أما الشمس التى يعبدها ذلك القوم فهى خلق من خلق الله تعالى . وآية من آيات قدرته وعظمته ، فإذا كانت عظيمة الفوائد ، كثيرة النافع ، فذلك لا يجعلها أهلاً لأن تعبد ، والذى يستحق العبادة الآله الذى خلقها ، وأعدّها لما خلقت من حكم ومصالح ، وذلكها ذلك التذليل (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون «٣٧» (١) .

(الله لا إله إلا هو ربّ العرش العظيم) أى ان الذى يستحق السجود ، ، ويعلم الخبء ، ،

ويعلم ما نحن في وما نعلن هو الله ، وهو الذي لا يستحق العبادة غيره ، وهو ربّ العرش العظيم ، وقد نكر عرش بلقيس ، وعرف عرش الله تعالى ايذاناً بالفرق بين العرشين ، وأى مناسبة بين عرش امرأة باليمن ، وعرش إله له ماني السموات وماني الأوض وما بينهما ؟ ان عرش المخلوق وان عظم هو عرش محدود في زمانه ومكانه ، وسلطانه ، ومهتد بعروش آخر .

أما عرش الله تعالى فهو فوق العروش ، وسلطانه فوق كل سلطان ، هو عرش من يده ملكوت كل شيء له الآخرة والأولى ، السموات والأرض على كبرها ، وعظم ما فيها من أنهار وبحار ، ونبات وأشجار ، وحيوان وإنسان ، وكواكب سيار ، وأخرى واقفة ، وعوالم قد ملأت هذه الكواكب - كل أولئك خاضعة لله تعالى ، مسخرة لسلطانه وقدرته .

فأين عرش بلقيس من ذلك العرش ؟ بل أين عروش القياصرة الأكاسرة من ذلك ؟ وأين عرش أكبر ملكة في الأرض من عرش الله تعالى ؟ أليس صاحب ذلك العرش هو مالك الملك وهو الذي يؤتي الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير ؟ أليس أصحاب العروش جميعهم خاضعين لسنه ، مسخرين لارادته طامعين أو كارهين ، أليس هو مالك الأرض يورثها من يشاء من عباده وحمل العاقبة للمتقين الذين يقون أنفسهم بما يبد ملكهم ، ويتقون سلطانهم .

(٦) (قال سنظر أصدقت أم كنت من الكاذبين) يريد سنخبر أمرك ، ونمتحن قولك ، نعرف صدقك أو كذبك ، لأن ذلك شأن الملوك الدبرين ، لا يأخذون القول بالتسليم بدون حجة أو برهان (اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجون) حله سليمان كتابه ، وأمره أن يلقه إليهم ، وأن يتولى عنهم بعد اللقاء فينظر ماذا يقول بعضهم لبعض في شأن ذلك الكتاب ؟

(قالت يا أيها اللأثماني ألقى إلى كتاب كريم) هو إيجاز على طريق القرآن ، وهو أن يحذف الجلة لأن في الكلام ما يدل عليها ، وكأنه يقول فذهب المهدد بكتاب سليمان ، وألقاه إلى بلقيس فتلقته رجعت أشراف القوم وأصحاب الرأي ، وقالت (ألقى إلى كتاب كريم) الخ .

(إنه من سليمان وأنه بسم الله الرحمن الرحيم أن لاتعوا على واتقوا مسلمين) وقدوصفت الكتاب بالكرم لكرامة مضمونه وحسنه ، ولغرابه شأنه ، لأن طريقه المهدد ، وذلك غير مألف للقوم ، وقد عرفت أنه من سليمان لأن اسمه كان عليه .

أما نص الكتاب فهو الجمل الثلاث : [ الأولى ] بسم الله الرحمن الرحيم . الثانية ( أن لاتعوا على ) ومعناه لاتسكبروا ولا تعاظموا على الاجابة . الثالثة ( واتقوا مسلمين ) بيان للنرض من الكتاب ومعناه متقدين لله طامعين .

(قالت يا أيها اللأثماني أفتوتني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون) لجأت الى أشراف قومها وأصحاب الرأي ، وقالت لهم : أفتوتني في شأن ذلك الأمر الطاري ، وأشيروا على فيه ، ما كنت قاطعة أمراً حتى تحضرون ، ويظهر أن ذلك كان رسالة منها إليهم تدعوم فيها للاجتماع ليقشاوروا في الأمر ، ويقيموا وجه الصواب فيه ، شأن الملوك أصحاب العقل الراجح ، والتفكير

للتزن ، لا يشتغلون بشئون العولة ، ولا يستبدون في تصريف الأمور ، لأن رأى الجماعة فوق رأى الفرد ، وعقول مجتمعة أضع من عقل واحد .

ومنه نعلم أن مبدأ الشورى في الحكم مبدأ قديم ، قد اهتدى إليه الناس في عصورهم الأول ، وعملاوا به في القرون القديمة ، لأن فائدته واضحة ، وعمرته جلية لا يختلف فيها اثنان . ولذلك حارب الشريعة الإسلامية باعتباره أصلا من أصولها في سياسة العولة ، وقاعدة من قواعدها في المصالح العامة ، فأمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يستشير أصحابه في الأمر الذى يعرض له ولهم كالحرب والسلام ، وعقد الماهدات ، وما إلى ذلك ( فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر ) ثم قال له بعد هذا ( فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ١٥٩ ) (١) أى بعد أن تعد العدة للأمر ، ونجته من جيع نواجه ، وصممت مد ذاك على الامضاء ، فلا يحولن بينك وبينه تثبيط أو تشكيك ، لأن الردد لا يليق بأصحاب العزائم الصادقة والارادة القوية ، وكذلك التسرع والشروع في العمل قبل استيفاء محته ، واستكمال ما يلزمه من معدات . وقد كان ذلك شأن النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه فيما يعرض له من حوادث ، وما يقع له من مشاكل ، وهذا أحد الصحابة الحباب بن المنذر في غزوة بدر وقد نزل المسلمون في مكان يستعدون فيه لمنازلة السريكين ، يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أهدأ منزل أنزلك الله حتى لا تعيد عنه أم هو الرأى والمكيدة ؟ فيقول له بل هو الرأى والمكيدة ، فيقول الحباب : أنزل بنا منزلا آخر وكان أصلح للمسلمين ، فزلوا هذا المكان وكان فيه النصر والظفر .

لنعلم أن الأمر مادام شأنا من الشئون العامة التى تختلف فيه الأنظار ، ووجهة النظر ، يدعى أن يستشار فيه ، أما ما كان من باب العقائد أو العادات ، أو ما يشه ذلك ، كتحليل الحلال وتحريم الحرام ، فالأمر فيه موكول الى الوحي السماوى ، واللقى عن الله تعالى ، ولذلك يقول الله تعالى ليحث المسلمين على أن يرجعوا في أمورهم العامة لأهل الرأى ( وإذا حاكم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه الى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ) ثم يعقب ذلك بما يدل على فضل الله علينا بذلك الارشاد فيقول ( ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتعظم الشيطان إلا قليلا ٨٣ ) (٢) .

وأبلغ من الأمر بالشورى أن الله تعالى جعلها من صفات المؤمنين الذين يستحقون ثواب الله وجزاءه الحسن إذ يقول ( فما أوتيتهم من شئ فناع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ٣٦ ) والذين يحتفون كبار الأمم والعواض وإذا ما غصوا هم يغفرون ٣٧ ) والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم وبما رزقناهم ينفقون ٣٨ ) والذين إذا أصابهم البنى هم ينتصرون ٣٩ ) فأخبرنا أن الشورى شأن من شئون المسلمين ، وخلق من أخلاقهم ، كتركهم للأثم والعواض ، وعفوم عن ظلمهم ، واستجابتهم لربهم وخالقهم ، وصلاتهم وزكاتهم ، وانتصارهم إذا اعتدى الناس عليهم .

وكان ذلك الأسلوب أبلغ في الحث على الشورى لأنه يريك أنه الأمر الواقع في أمور المسلمين



وليس من شأنهم أن يتركوه ، ولا فرق عندهم بين طاعة أمر الله تعالى في الصلاة والزكاة وبين طاعة أمراء في الشورى .

فإذا كانت بلقيس قد عرفت فائدة الشورى بفطرتها وتجاربها ، فإن الاسلام قد جعلها مبدأ من مبادئه ، وأصلا من أصوله في سياسة الدولة ، وتدير الأمور العامة . أمر بهارسوله على أنه أكبر أصحابه عقلا ، وجعلها شأنا من شئون المؤمنين ، وخلقاً من أخلاقهم كصلاتهم وصومهم ، وقد عرف النريون قيمة هذه المبادئ فأقاموها في بلادهم ، وحرّموها على مستعمراتهم ، وإن سمحوا بها للشعوب فأعما يسمعون بها مبتورة مقصودة الجناح ، حتى لا يستطيع القوم أن يقتنعوا بها ، ويجنوا ثمرتها .

وقد عمل بها المسلمون في قروهم الأولى ، فانتفعوا بها وسادوا العالم ، عمل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم على قدر ما تحتمله حال المسلمين في ذلك الحين ، وكذلك فعل خلفاؤه الراشدون من بعده ، ومن ذلك استشارة أبي بكر فيمن يلى الأمر بعده . وجعل عمر الشورى في فزع عينهم من الصحابة : عثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبد الله ، وكان أولئك النفر هم أهل المكانة الذين تخضع الأمة لأمرهم .

وجعل اختيار من يخلفه في الامارة الى هؤلاء النفر .

مضى المسلمون على ذلك المبدأ الى أن أعرضت بنو أمية عن الشورى في عهد عثمان ، واستأنزوا بالاشارة عليه بما يرونه ، فكان ما كان من العفن . حتى استقرّ الأمر فيهم بقوة العصية لالشورى .

(٧) ( قالوا نحن أولوا قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين ) كما هم يشيرون بأن لا يخضعوا لسلطان ، لأنهم أصحاب قوة ، وأصحاب بأس شديد ، ثم نادىوا معها ، وقالوا والأمر إليك على عادة المشير إذا كان صرء . وما لمن يقتضيه ، ومن الناس من يفهم أن للحن أنهم قوم حريون ، ليسوا من أهل الرأى وللشورة ، بل هم جند مطيع ، لم يتعودوا أن يعطوا رأيا في مثل ذلك الحادث ، وهو بعيد ، فانه فضلا عن أنه تسفيه لبلقيس في توجيه الاستشارة إليهم ، وتعرض بعباوتها ، وعدم علمها بمن تحت سلطتها هل هم أهل حرب أم أهل رأى - لا يتفق مع قولها ( ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون ) فانه ظاهر في أنهم مجلس الشورى ، وأهل الرأى والتفكير ، ولذلك خاطبهم بقولها ( يا أيها الملأ ) وهم أشراف القوم وخصمهم .

وبدلت لصحة الرأى الأول في الآية قولها لهم بعد أن اعترفوا بقوتهم ( ان الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ) فهي تقول لهم : ان سليمان ابن قائلنا ربما دخل بلادنا فأضرّ بالأنفس والأموال ، والقرى والضيع .

( وكذلك يفعلون ) أى ان هذه صفة الملوك الفاتحين ، وهو الحاصل الآن في بلاد المسلمين على يد من استعمرهم من الفرنجة ، أذلّهم وقهروهم ، وجعلوا أعزة القوم أذلة ، وأدنياء النفوس أصحاب الحول والطول ، وغادى الأخلاق للميمنين على هذه الشعوب .

وكأنها تقول لهم : نحن على مالنا من قوة ، وما عندنا من بأس وشدة ليس من مصلحتنا أن ندخل معه في حرب ، ويظهر أنها اضطربت لكتاب سليمان على اختصاره ، وفزعته من أسلابه على سهولته ، إذ رأيت في كتاب سليمان أنه يبدوه باسم الله تعالى ، ثم يعقب بقوله ( أن لاتصلوا على واتوفى مسلمين ) فهتمت أن سليمان ملك لا كالمملوك ، ملك مؤيد من الله الذي يستعينه في أموره ، ويصعد راسه في مكاتبه ، فأربأت أن لاتدخل مع ذلك الملك في حرب . ولاتتقرب معه في قتال ، وقالت لقومها : إذا وقتنا من ذلك الملك موقفا معاديا فربما فتح بلادنا واستولى على خيراتنا ، وكان معه جيش فاح ، ومن شأن ذلك الجيش أن يضد الحرت ويحرب القرى ، ويجعل العزيز من القوم ذليلا ، والكبير صغيرا .

لذلك رأت أن تتقدم لقومها برأى يدل على عقلها الراجح ، وتضككها للزمن ، هو أن ترسل الى سليمان هدية ، من شأنها أن يستهوى النفوس ، وتملك القلوب ، فان كان سليمان ملكا مؤيدا من الله تعالى ردا للهدية ، وان كان من ملوك الدنيا ولاهم له إلا المال قبلها ، وهناك ثقيين قوته للعنوية ، ومقدار ما عنده من عزم وحزم ، ثم يكون لما شأن آخر بعد تبين حاله ، ووضوح اسمه .

وقد وافقها الملاء على ذلك الرأي ، وبشوا الهدية الى نبي الله سليمان .

( أ ) فلما جاء سليمان قال أتعدن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أتم بهديكم تفرحون ارجع إليهم فلأنهم يجنود لأقبل لهم بها ولنخرجهم منها أذلة وهم صافرون ) أى فلما جاء رسول بلقيس سليمان بحمل الهدية غضب سليمان ، وقال مسكرا لذلك العمل (أتعدن بمال؟) وهل أنا من طلاب المال الذين يفتنون به ؟ وذلك هو المنظر من نبي كنى الله سليمان ، لا يقل رشوة في سبيل سكوته عن مطالبته بالاسلام ، وتركها بدون أن يدعوها الى الله تعالى .

( فما آتاني الله خير مما آتاكم ) لأن الله أعطاه ملكا ونوة ، أما هم فأعطوا ملكا لم يكن معه نبوة ، أو المعنى فما آتاني الله من فيض رحمته ، وواسع فضله في العلم والحكمة : خير مما آتاكم من المال ، لأن المال عرض زائل ، أما ذلك الفصل الوافر ، والرحمة الواسعة ، ورزق الله للعنوى فهو خير من رزقكم الحسى ، وقد فطن الناس بالمال منذ خلقه الله ، وطبت بلقيس أن سليمان ممن فطن كفية الناس ، ولذلك أرسلت إليه بهدية لتتظر ماذا تركه في نفسه من الأثر ، وإلى أى حد تؤثر عليه وعلى دعوته ، وهل تلك الهدية تكون مدعاة لسكوته عن الدعوة ، واعراضه عن الفتح الذي أرسل الكتاب تمهيدا له ، أو هو سيقابل المال كما يقابله به أصحاب النفوس العالية . يقابله بالرفض والتعفف ، والاباء والعظمة ، كل ذلك من أغراض ملكة سأ .

فلم تجد من سليمان سوى هذه الكلمة الغالية ( فما آتاني الله خير مما آتاكم ) .

ويجنى لكل مصلح أن يقول هذه الكلمة كلما عرض عليه رشوة ، أو تقدم السبل إليه بمرض من الأعراض الزائلة ، فاذ عرض الناس عليه من صبا ليتلهم به عن دعوته ، ويسكت به عن مبادئه ، ويطيح به داعي الهوى ليقبل كما قال سليمان ( فما آتاني الله خير مما آتاكم ) لأنه أعطى خفعا عظيما ، وعقيدة صالحة ، وأصبح منرا يهتدى به السائرون ، ويستضيء به الضالون ، أعطى علما قد جهله

الناس ، وخذنا قويا متبعا ، نعم إذا طوبى المصلح أن يسكت عن إصلاحه ، وأن يتغافل عن أخلاقه ومبادئه في سبيل وظيفة أو مال ، وسواء أكانت تلك الوظيفة متعلقة بشخص أو بأحد أولاده وأسرته - إذا طوبى للمصلح بشئ من ذلك فلا ينسى ما قاله سليمان لأمرأى بلبقيس (آدمون بحال فما آتاني الله خير مما آتاكم) .

وكثيرا ما يلجأ المستعمرون الى ذلك النوع من الرشوة ، وهذا الأسلوب من تملك قلوب الناس فيغرسون القوم ، ويتعرفون العنصر المتحرك الذي من شأنه أن يقض مضاجعهم ، ويؤلب عليهم فبساومونه على الوظيفة ، ويتعاونون شرفه وكرامته بدرهم معدودة ، فمن كان همه المال أجابهم الى ما طلبوا ، ومن كانت دعوته خالصة أثر الفقر على الغنى ، وأبى أن يقبل ذلك ، وقدرته الصالحة ، وأسموته الحسنة : نبى الله سليمان ، إذ يقول للملكة سبأ (فما آتاني الله خير مما آتاكم) وإذا كان نبى الله سليمان أنكر على القوم أن يقدموا له رشوة حتى يسكت عن الدعوة ، ويتنازل عن طلبها الى الاسلام ، فان الله تعالى يخبرنا أن كثيرا من الأحرار والرهبان يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ، وكان ذلك أكلا بالباطل لأنهم يأكلونها باسم أنهم رؤساء دين ، يعلمون الناس ما يحثون ، ويرشدونهم الى دين الله الصحيح ، وتعاليمه الحقة ، ولكنهم يأكلون هذه الأموال ، ويكتمون عنهم تعاليم الرسول ، ولذلك يقول (اشترؤا بآيات الله ثمنا قليلا فصعدوا عن سبيله انهم ساء ما كانوا يعملون «٩» (١)) .

وقد أخذ الله الموائيق والعهود على الذين أوتوا الكتاب لبيئته للناس ولا يكتمونه ، فكان منهم أن نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا ، هو ذلكم المال الزائل ، والحظوة عند الملوك والأحرار .

وما أشبه ما صنعه أولئك الأحرار والرهبان بما تدعو إليه ملكة سبأ نبى الله سليمان ، غير أنها كانت لفة ، فساخت من المال ما سافت بأعم الهدية ، وما هي إلا رشوة ، ولا فرق بينها وبين هدية تقدم للقاضي من رجل له خصومة عنده ، وهل يشك أحد في أن الهدية التي نساق على ذلك الوجه هي رشوة مقبعة ، تقدم للقاضي لتوجهه الى الساحة التي يريد صاحب الهدية .

إذا كان نبى الله سليمان أنكر على ملكة سبأ ما صنعت ، فان الله تعالى قد قدم طاقة من أهل الكتاب بأنهم (ساعون للكذب أكالون للسحت) وهو الذى يجلب على صاحبه عار يسحت دينه ومروءته ، ويذهب بأخلاقه وكرامته ، وقد أطلقوا على الرشوة سحتا لأنها تجعل صاحبها في هذه المزلّة ، وكان ينبغي للربانيين والأحرار أن يكفوا الشعب عن أكل السحت وتناول المحرم ، ولكنهم مع الأسف وقع كثير منهم في ذلك البلاء ، وأصيب بفتنة المال ، فقبلاوا الرشوة ، وأكلوا مال الناس بالباطل ، وكتبوا شبا من الدين في سبيل إرضاء الرؤساء وأصحاب السلطان ، ولا ينتظر من ملوث بذلة من الرذائل أن ينهى الناس عنها .

ولقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرشوة بعد نهى القرآن عنها فيما قتمناه ، فقال فيما رواه أبو داود والترمذى « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الراشئ والمرتشئ » .

وقال فيما رواه الطبراني « الراشي والرتشي في النار » .

فإذا كان الراشي والرتشي طريدين من رحمة الله ، يمدن عن رضوانه ووجهه ، فكيف يقبلها نبي الله سليمان ؟ وكيف يأخذها من ملكة سبأ في سبيل أن يسكت عن دعوتها إلى الدين وجعلها على المدخول فيه ؟ ؟ .

لم يقف سليمان عند ذلك الحد من الإنكار ، بل أرانا أن هناك فرقاً بين ملكة سبأ وبين سليمان ، هي أنها تفرح بمثل هذه الهدية إذا قدمت لها ، وتأثر بها إذا هي سبقت إليها ( بل أتم بهديتكم ففرحون ) أما هو فلا يفرح بالمال وإنما يفرح برضا الله عنه وقضه عليه ، ورعايته بالاحسان نالوا الاحسان ، وذلك شأن الرسل الذين اختارهم الله لتبليغ دينه ، وإعزاز كلمته .

وقد أظالم المفسرون في بيان الهدية وما حوته ، وندع هذه الروايات جانباً ، لأنه يصعب إقامة الدليل على صحتها ، ولأن فهم الآية لا يتوقف عليها ، وكل ما تفيد الآية أنها هدية ملوك يراد بها التأثر على سليمان ، وتحويل وجهته ، واختيار مكانته ، وهل هو ملك مؤيد من الله تعالى أو ملك كبقية الملوك ؟ .

ومن شأن الهدية التي لها هذه الصفة ، ويراد بها ما أريد من هذه الهدية ، أو من شأن الرثوة التي تقسم من ملكة إلى ملك أن تكون عظيمة . أما نوع العظمة فلسنا في حاجة إلى بيانه أو تفصيله ، فإذا صحت فيه رواية فيها ، وإن لم تصح فلاية لبست في حاجة إليها ، ولو كان في بيانها عبرة لفصلها الله لنا .

( ٩ ) ( ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ) .  
قد غضب نبي الله سليمان من ذلك العمل ، وتأثر بنفسه بما صنعت بلقيس . وكأنها انتهت في دينه ، وتحدشه في كرامته وخلقه ، وفهمت أنه مستعد في الجلبة لقبول الرثوة ولذلك أقدمت عليها ، وكان من آثار غضبه لدينه وكرامته أن قال للرسول ( ارجع إليهم ) والبراد بلقيس وقومها ( فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ) أي لا طاقة لهم بمقاومتها ولا قدرة بهم على مقاتلتها ( ولنخرجنهم منها أذلة ) أي من سبأ لأعز لهم ( وهم صاغرون ) أسرى مهانون .

( قال يا أيها الملك أياكم يأتيني بعرضها قبل أن يأتوني مسلمين ) أراد أن يرهبها آية تدل على أن ما أعطاه الله من الملك فوق ما أعطاهم ، وأن ملك الدنيا في جانب عجائب الله وبديع قدرته يسير ، والعرش كرسى الملك ، عرض على اللأ من جنوده ذلك السؤال ، ووجه إليهم ذلك الطلب ، وهو ( أياكم يأتيني بعرضها قبل أن يأتوني مسلمين ) وهل أرسل لهم جيشاً كما وعد وهو يعلم أنه سيظفر بهم ويتقلب عليهم فيأتونه مسلمين خاضعين ؟ أو أن القوم لما عرفوا أن سليمان ملك موسى إليه ورفض الرثوة أذعنوا له وصمموا على أن يجيشوه وقد علم ذلك موسى من الله تعالى أو من طريق غير الوحي ؟ الآية تحتل الأمرين .

( قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوى أمين ) .  
العفريت : الخبيث المتمرد : أي إن ماردا من مرده الجن قوا يا قال لسليمان أنا آتيك به قبل أن تقوم من مجلسك لقوى أنت فيه . والبراد آتيك به بسرعة ، وإني على حله لقوى أمين على

ما فيه من الجواهر فلا أخفى منه شيئا ، والحقّ عالم خفيّ قد يستطيع أن يزاول من الأعمال فوق ما نزول نحن ، وستكشف الأيمل كيف أن العفريت من الجنّ يستطيع نقل عرش بلقيس من اليمن إلى ملك سليمان بفارس : بل قال بعضهم إن علم استحضار الأرواح قرب لنا هذه المعجزة وأرأنا أن من الأرواح ما يستطيع نقل الأمتعة من مكان إلى مكان .

(قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) .

اختلف المفسرون في المراد من ( الذي عنده علم من الكتاب ) قيل : هو آصف بن برخيا كاتب سليمان وكان صديقا علما ، وقيل : جبريل ، وقيل : ملك آخر أيد الله به سليمان ، وقيل غير ذلك . والظاهر من كلمة ( الذي ) أنه كان معروفا عندهم ومن مقابلته بعفريت من الجنّ أنه لم يكن متمرّدا غائبا ، بل كان من أهل العلم بالكتاب .

وقد أجل الله ( الكتاب ) ولم يبين المراد منه ، أهو الكتاب المنزل : وهو التوراة ؟ أو جنس الكتاب الشامل للتوراة وغيرها من الكتب ؟ أو المراد بالكتاب الكتابة ؟ الآية تحتمل كل ذلك ، فإذا كان المراد به جبريل أو ملك آخر فلا غرواية في أن يكون عنده من القوة على نقل عرش بلقيس ما لم يكن عند غيره ، وإذا كان رجلا من الانس فتكون قدرته على نقل ذلك العرش كرامة له ومعجزة لسليمان أظهرها الله تعالى على يد واحد من تابعيه ، وإن كان ذلك على غير المعروف في المعجزات : وهي أن تكون على يد الرسول نفسه ، ومهما يكن من شيء فإنا نؤمن بما جاء به من كتاب الله ، ونصدق تفسير هذه الخوارق للأيمل نكشفها ، ولا نحملها من التأويل فوق طاقتها .

والظاهر من عرض ( الذي عنده علم من الكتاب ) على سليمان أن يأتيه بعرش بلقيس قبل أن يرتد إليه طرفه أنه أقوى وأعلم من عفريت الجنّ بذلك العمل ، ولذلك استطاع أن يعده بالإنباين به في أقلّ زمن ، وأن سليمان رضى به ناظلا للعرش .

( فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبارك في ما شكر أم أكفر ومن شكر فأنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غنيّ كريم ) .

أي فلما رأى سليمان العرش حاضرا بين يديه قال : هذا من فضل ربي ، ومن حوله وقوته ، لا من حولي وقوتي ، ليختبرني بهذه النعم التي قدّمتها إليّ ، « أشكره عليها أم أكفره » ومن شكر الله أو النعم فأنما يشكر لنفسه ، لأن ثواب الشكر راجع إليه ، ومن كفر النعم فإن ربي غنيّ عن شكره ، كريم بالانعام عليه ( وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد «٧» وقال موسى إن تكفروا أأنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لتنتي «٨» (١) ) .

( قال نسكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون ) نسكروا لها عرشها بتغيير هيئته وشكله ، لنختبر بذلك العمل ذكاءها وعقلها ، ونمتحن استعدادها ، وهل تنظن لأن ذلك الذي نسكروا عرشها تقدّمها وقد تركته منغلقة عليه الأبواب ، موكلة عليه الحراس ، ومتى عرفت أنه عرشها كان ذلك داعية لا يمانها ، لأن للمعجزة في نقله مقرّونه بسبقه لها إلى سليمان ،

فإذا فطنت لذلك عرفت أن سليمان استطاع بجنوده ما لم يستطعه ملك من ملوك الأرض فيكون ملكاً ونبياً .

( فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو ) أى فلما وصلت ملكة ساء عرض عليها ذلك العرش الذى تركته ، ووجه إليها ذلك السؤال ، ولم يقل ( أهذا عرشك ) ثلاثاً يكون تلقينا للجواب وقد كانت لبقه فأجابت إجابة صرته ، وقالت ( كأنه هو ) لأن هناك احتمال أنه هو ، وأنه ليس هو ( وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ) هو من كلام بلقيس تتحدث عن نفسها بنون العظمة التى تمودها الملوك .

والمراد أنها أوتيت العلم بكال قدرة الله تعالى ، وصحة نبوة سليمان من قبل هذه المعجزة ، وكنا خاضعين لأمر الله تعالى ولأمر سليمان ( وصدها ما كانت تعبد من دون الله ) أى منعها سليمان ، أو صدها الله تعالى عما كانت تعبد من دون الله ، وحال بينها وبينه ( إنها كانت من قوم كافرين ) أى نشأت بين قوم يعبدون الشمس .

( قيل لها ادخلى الصرح ) القصر ( فلما رأت حبيته لجة وكشفت عن ساقها ) أى ظنت أن ذلك القصر لجة من الماء ، وكشفت عن ساقها ثلاثاً ( قال إنه صرح مجرد من قوارير ) أى ما تظنيه ماء قصر على من زجاج ، وليس بماء ، ففترت ساقها ، وعجبت من ذلك ، وعرفت أن ملك سليمان فوق ملكها ، وعظمتها ليست كعظمتها .

( قالت رب إني ظلمت نفسي وأسأت مع سليمان لله رب العالمين ) ظلمت نفسها بالكفر ، وظلمتها بعرض الرشوة على نبي كهذا ، وخضعت مع سليمان لله رب العالمين .

### داود وسليمان عليهما السلام

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَحْيَىٰ أَوْسَىٰ ۖ مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَنَّا لَهُ الْخَافِيَةُ ۝<sup>(١٠)</sup>  
 أَنِ اهْبِثْ بِسِفَتِ ۖ وَدَّرْ فِي السَّيِّدِ ۖ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝<sup>(١١)</sup>  
 وَلَسَلِمِينَ الرِّيحَ غَدُوًّا شَرُّهُ ۖ وَزَوَّاحَهَا شَهْرُهُ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِبِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَن يَرْغَبْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ۝<sup>(١٢)</sup> يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ ۖ وَتَمْلِيلٍ ۖ وَجِفَانٍ ۖ<sup>(١٣)</sup> كَالْجَوَابِ

[١] رَجَى مِمَّا السَّيِّئِ . [٢] أَيْ دَرَوْهَا وَأَسَاعَتْ « وَدَّرَ الرَّد » أَيْ أَجَلَ نَجَ الدَّرُوعِ بِقَدَرِ وَنَظَامِ . [٣] التَّمَالُ الْمَذَابِ . [٤] قُصُورٌ حَصِينَةٌ . [٥] جَمْعُ جَفْنَةٍ ، وَهِيَ الْقَصَّةُ ، وَالْجَوَابُ : جَمْعُ جَابِيَةٍ ، وَهِيَ الْحَوْضُ الْكَبِيرُ الَّذِي يَجِي وَيَجِي فِيهِ الْمَاءُ .

وَقُدُورٍ<sup>(١)</sup> رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا، الِ ذَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشُّكُورُ<sup>(٢)</sup> «١٣»  
فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ<sup>(٣)</sup>  
فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ  
الْمُؤِينِ «١٤» سَأَ

### شرح وعبرة

(١) (ولقد آتينا داود منا فضلا بإجبال أوتي معه والطير وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملا صالحا إني بما تعملون بصير) .  
يرينا الله بهذه الآيات أنه أعطى داود من لئنه فضلا ثم شرح ذلك الفضل بقوله (إجبال أوتي معه والطير) أى رجبى معه المسيح كما قال في سورة الأنبياء (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير) .

ثم بين فضلا آخر عليه بقوله (وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر في السرد) وقد تقدم الكلام على إلانة الحديد لنبيه داود، وأن ذلك معجزة أو لأنه له من طريق الصنعة كإقال (وعلمناه صنعة لبوس لكم لنحصنكم من بأسكم) كما في سورة الأنبياء ، وأن الآية تحتمل الأمرين . وقوله (أن اعمل سابغات) تفسير لقوله (وألنا له الحديد) . والوارد أنه يعمل دروعا تستر جسم الرجل في الحرب ، أو تستر للكان القدى هو معرض للإصابة ، فلا تكون ناقصة (وقدر في السرد) أحكم نسج البروع واجله بقدر كما قال (إنّا كلّ شئ خلقناه بقدر «٤٩» (١٣) . وقال (وكلّ شئ عنده بمقدار «٨» (١٤) .

(واعملا صالحا إني بما تعملون بصير) إرشاد الى إصلاح دينهم بعد أن أرشدتم الى إصلاح دنياهم ، يريناه أن الانسان فى حاجة الى الأمرين جميعا ، فيستعد لدينائه حتى لا يكون عرضة للأحداث والطوارئ ، ويصلح من دينه حتى يقوى بذلك إيمانه ، وتهذب نفسه ، ويصبح خيرا لنفسه ولأمتة ، وللانسانية جميعها .

فإنه تعالى يرينا بذلك الارشاد القدى قدمه لدارد ومن معه أنه فى حاجة الى الأمرين : أمر الدنيا وأمر الآخرة ، وأن من عمل للدنيا فاستعد لطوارئها ، وتوفى شرّها ، واجتهد فى خيراتها ، ثم قصر فى أمر الآخرة أعطاه الله من الدنيا ما عمل له ، ووصله الى ما يريد ، ثم جعل له جهنم جزاء فى الآخرة (و) كذلك (من أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن) فإن الله يعطيه نواب العاملين (من كان يريد العاجلة مجئنا له فيها ما نشاء لمن يريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما

[١] جمع قدر ، وهو ما يطبخ فيه اللحم ، و « راسيات » ثابتات فى أماكنها لظلمها .

[٢] عصاه و « خر » وقع . [٣] القبر . [٤] الرعد .

مدحورا «١٨» ومن أراد الآخرة وسمى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا «١٩»  
كلما نمت هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا «٢٠» (١) . وقال (من)  
كان يريد حرث الآخرة زد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من  
نصيب «٢٠» (٢) .

هذه سنة الله مع خلقه ، يعطي الدنيا من عمل لها أيا كان دينه ونحلته ، ويعطي الآخرة  
كذلك من يسعى لها ، وطلب من المؤمن أن يعمل لدنياء وأخراه ، لأن الدنيا منزعة للآخرة ،  
ولذلك يقول الله وهو مبين وصية قوم قارون له (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك  
من الدنيا «٧٧» (٣) .

وأمرنا بالعمل لطلب الرزق ، وأن نمشي في مناكب الأرض ، وأن ننشر في الأرض ونبتني  
من فضل الله ، كما أمرنا أن نعد لأعدائنا كل ما استطعناه من قوة معنوية أو مادية ، وأن نأخذ  
حذرنا ولا نتخذ بطانة من دوتنا - كل ذلك لنعيش في هذه الحياة عيشة الأعزاء ، لا عيشة  
القلل والهوان .

فإذا كان الله تعالى قد أمر نبيه داود أن يعمل دروع الحرب ، وأن يكون حكيما في صنع هذه  
الدروع ، ثم أمره بعد ذلك وأمر قومه أن يعملوا صالحا فذلك لأنه يريد منهم أن يكونوا صالحين  
لدينهم ودنيائهم ، سعداء في حياتهم الأولى والثانية ، حامين لحقيقتهم ولحقهم ، وذلك هو شأن  
المؤمن ، وكذلك دين عامة الرسل . كلف الناس به ليعيشوا به عيشة السعادة ، ويجمعوا به بين  
خيرى الدنيا والآخرة ، فلم يكن بدعا أن يكون دين خاتم الرسل دينا يحث الناس على العمل  
للدنيا والعمل للآخرة ، وعلى كل مسلم أن يحرص على الأمرين : أمر دينه وأمر دنياء ، وأن  
الذى يفرط في أحدهما هو رجل أحمق ليس من العقل في شيء .

وكذلك الأمة التى تعنى بأمر دنيائها وتظن أنها ليست فى حاجة الى أمر الدين ، هى أمة جاهلة  
فان أقل ما فى الدين خلق قويم ، لاغنى للأمة عن الخلق ، ومن ناحية أخرى ، فان الأمم التى لم  
يكن لها وازع نفسى يعصمها من المنكرات والنواحش لا يمكن أن يعصمها قانون ، أو تتأدب من  
طريق الحكومات ، وهذه سلسلة الجرائم تزداد كل يوم فى أمة العالم المتمدين وتتفاقم شرها يوما  
بعد يوم ، والقوانين تقف أمام هذه الجرائم مكتوفة الأيدي ، وبرهنت الأيام على فشل هذه  
القوانين ، وضعفها عن القيام بمهمة التهذيب العام .

وان الفرق بين سلطة القانون وسلطة الدين تريك أنه لاغنى للناس عن الدين ، ذلك أن  
الدين حارس بلزم صاحبه ، وشعور بوازع نفسى يهيمن على الرجل الدين ، ولا يستطيع صاحب  
ذلك الخلق أن يتخلص منه إلا بإرضائه والوقوف عند ما يريد ، فإذا همت نفسه بفاحشة من  
الفواحش سمع صوتا خفيا من ضميره يناديه لاتفعل ، ويذكره بما يعقب ذلك الفعل من ضياع  
خلقه وذهاب كرامته ، وإغضابه لربه وخالفه ، وأن ذلك الوازع لا يفارقه فى غيبة الناس ولا فى  
حضورهم ، ولا فى سر أو علانية .



أما الذى يمش على حساب القانون ، فلا يحسن من نفسه ذلك الوازع ، إلا إذا شعر أن وقوعه في السكر قد يطلع عليه الناس فيساق الى المحاكمة ، وهناك يفضح أسره ويهتك ستره ، وإذا استطاع أن يضل ذلك السكر حيث يفلت من يد القانون لأنه لم يكن عليه من الرقابة من يشود عليه - فانه له بدعة ، بل يقدم عليه ، دع ما يبيحه القانون الوضع من جرائم ومنكرات تجرime الزنا التى تحميها الحكومات ، وقطعي رخسا للبنايا للاعتراف بتلك الفاحشة ، وجريمة شرب الخمر الذى لا يعاقب عليه قانون ، ولا يساق الشارب فيه الى دار الحكومة إلا إذا عمل عريضة في الطريقين تفلن راحة الناس .

فالقانون عاجز عن تأديب الناس وتهذيبهم على فرض أنه يضع عقوبة لكل الجرائم ، فكيف اذا كان القانون أعرج مبتورا ؟ لذلك كان من مصلحة الناس أن يكون لهم دين يحرسون عليه ، ويبالون في الضاية به ، وأن يكون لهم دنيا تقاسب مع زمنهم القدي يعشون فيه ، ومع تطورات الحياة [ومن لم يتذأب أكلته الثأب] [ومن لا يظلم الناس يظلم] .  
( انى بما تعملون بصير ) فأحاسبكم عليه وأجزيك به ، وهو صالح لأن يكون وعدا بالثواب وتوعدا بالعقاب .

(٢) (ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر) أى وسخرنا لسليمان الريح جريها بالنعدة مسيرة شهر ، وكذلك جريها بالمشي ، وذلك فضل من الله تعالى على نبيه سليمان ، سخر له الريح تجرى بأمره ، وتقطع في النعدة ما يقطع المشي أو الراكب للبحر مثلاً في شهر كامل ، وكان ذلك معجزة لبني سليمان ، وأصبح الآن علما ، فسخر الريح لأوروبا ، واستطاعت أن تستخدمه في الأسفار بالطائرات التجارية والحربية ، وإن كانت في السرعة لم تصل الى الحد الذى وصل إليه سليمان عليه السلام كما سخر لها الهواء في الوقت الحاضر ، فانتفعت به بواسطة التيارات الهوائية في نقل الأخبار والأصوات والأشكال من طريق العلم ، وأصبحت ونحن بالشرق نسمع كل ما يدور في الغرب من خطب ومحاضرات وغيرها على بعد الشقة وطول المسافة ، وكذلك هم يسمعون خطبنا ومحاضراتنا وما يدور في بلادنا ، وهو تسخير من الله طريقه العلم والتفكير ، ولعل الله يقرب لنا أمر هذه المعجزات بهذه الخوارق العلمية ، وبرينا أنها لم تكن من قسم المحال كما فهم بعض الناس ، وإنما هي أمر ممكن ، والدليل على امكانها وقوع ما يقاربها من طريق العلم ، ولو كانت من قسم المحال ما وقعت ، وقد يؤيد ذلك قوله في سورة النمل (وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها ٩٣) ) أى يريكم لها من طريق العلم فتعرفونها بالتعلم ، كما أراها للرسول من طريق المعجزة ، لأنها خارقة لعادة القوم ، وجاءت على غير المألوف لهم .

(وأسلنا له عين القطر) أى من فضل الله عليه ، ودلائل صدقه أن أسأل له النحاس : أى جعله سائلا من معدنه ينبع منه كما يسيل الماء من ينبوعه ، ولذلك سماه عينا ، وذلك ليسهل عليه أن يحوله الى ما يريد ، وينتفع به في وجوه شتى .

(ومن الجن من يعمل بين يديه بأذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير) أى ومن فضل الله عليه أن سخر له من الجن من يعمل بين يديه ، ر قوله (بين يديه)

يشير الى أن الله تعالى ألقي في قلوب الجنّ الخوف من سليمان ، وبذلك سخرها له وجعلها مطيعة لأمره ، ولولا خوفها من سليمان على قوتها وتمردّها ما صنعت له شيئا ، فهي تعمل له ما يريد بالسلطان الذى جعله الله له عليها ، وقوله (بإذن ربه) أى لتسخيره لها ، ولولا أن الله سخرها له ما استطاع أن ينفع بها : كما قال فى معجزة عيسى عليه السلام ( وأبصرى الأكف والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله » ٤٩ ، ٥٠ ) .

(ومن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا يُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ) تهديد من الله تعالى للجنّ ، يربنا به أنه فوق تسخيرها تسخيرا كونيا لسليمان ، وتذليلها لأن تكون تحت سلطته ونصرته ، نهاها عن عصيان أمره ، وتوعدها أن يذيقها عذاب جهنم إذا هزأته عن أمر الله لها بطاعة سليمان وهو فضل كبير على سليمان أن يحمل عصيان أمره فى شئون الدنيا مدعاة لعذاب العاصي بالسعير (يملأون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات) بيان لعمل الجنّ السخرة لسليمان ، فهي تعمل له محاريب ، وهى القصور الحصينة ، بما فيها من القوة على حمل الأثقال وقتل لوازيم البناء ، وكذلك يملأون له تماثيل وهى مظهر من مظاهر العظمة وهو دليل على مشروعية التماثيل ، وأن الاسلام إذا حرّمها فأنما يحرمها إذا كانت ذريعة للشرك والوثنية كالتماثيل التى تعمل للصالحين ، أما ما يعمل للعظماء الذين ليس من شأنهم أن يبدؤوا بهذه التماثيل فليس هناك وجه لتعريمها ، وما ورد من الأحاديث فى النهى عن اتخاذ صورة أو تمثال فمحمول على ذلك ، ولو كانت التماثيل محرّمة لذاتها ما أباحها الله لسليمان ، لأن الرسل جميعهم متفقون على محاربة الشرك وذرائع الشرك ، لأن التوحيد من الأصول التى لا تختلف فيها الشرائع السماوية ولكنّ الجنّ كانت تعملها لسليمان ، وأقرّها على ذلك العمل ، وإدعاء أن ذلك النوع من التماثيل كان فى غير الحيوان كالأشجار مثلا خلاف الظاهر ، وكذلك القول بأن ذلك كان شرعا لسليمان ، وأنه مما يختلف فيه الشرائع .

والظاهر أنها لم تكن تماثيل لعبادة أمهاتها ، وإنما هى تماثيل لأغراض آخر ( وجفان كالجواب) أى الحياض الكبيرة التى يجمع فيها الماء ولعلّ نبيّ الله كان يحتاج ذلك النوع ليخزن فيه الماء (وقدور راسيات) أى قدور بطبخ فيها ثابتة لاتنقل من مكان الى مكان اعظمها وكبر حجمها ، وذلك شأن الممالك الكبيرة ، والدول الواسعة ، يحتاج رجالها من آلات الطبخ قدورا واسعة ثابتة لاتنقل اعظمها .

( اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور) أى اعملوا يا آل داود ما أمرتكم به لشكرونى على هذه النعم ، وأمر آل داود ، والراد داود وأهل بيته ، وفيهم سليمان ، أو الراد بآل داود كل من ينتمى إليه وإن لم يكن من أقاربه .

ربنا الله تعالى أنه يذيقى للانسان أن يقابل إحسان الله إليه بالشكر لا بالكفر ، وخاطب آل داود لأن نعمته على سليمان نعمة عليهم (وقليل من عبادى الشكور) أى قليل من عباد الله من خلقه الشكور ، وعادته الاعتراف بحميد الله تعالى عليه واحسانه إليه ، فلا ينسى نعمة ،

ولا يفضل عن فضله ، ومن شأن الذى يذكر ذلك دائماً أن لا يعصى ربه ، ولذلك يعرفون الشكر بأنه صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خلق له .

(فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خرت تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين) .

أى فلما قضى الله الموت على سليمان ما دلّ الجن على موته إلا دابة الأرض تأكل عصاه ، وقد كانت الجن فى أمكنة بعيدة عن سليمان لا يفترقون عن عملهم خشية أن يعاقبهم ، وبعد مدة لم يحددها القرآن علم أحد الجن بموته إذ رأى عصاه ملقاة على الأرض فرفعها فإذا الأرضة قد أكلتها ، فاستدل من أكل الأرضة لها أن سليمان قد تركها مدة طويلة ، وما كان ليتركها إلا لحادث من موت أو مرض ، وقد كانت العصا من شارات الرئيس والرياسة ، وبخاصة من كان ملكاً كسليمان لا يتركها مادام صحيحاً معافى .

وعلى ذلك الوجه فقوله (خرت) المراد به مات ، وفى القاموس وفى لسان العرب أن خرت نأقى بمعنى مات ، أو الضمير فى قوله (ما دلهم) لأهل سليمان ، والخرور : السقوط ، وقد كان سليمان عليه السلام وجدفى محرابه ، وقد أدركه الموت وهو جالس منكبى على عصاه فجاءت الأرضة وأكلت بعضه فانهار الجزء الذى أكلته ، فاختلّ التوازن فخرت ، فدلّ ذلك أهله على موته .

يقول الشيخ النجار بعد ذكر الوجهين السابقين : ومن رأى فعل الأرضة فى دققة المعجوز لا يستبعد ذلك ، فقد أخبرنى الشيخ محمد بك الخضرى أنه أهمل وضع أرجل مكتبته فى إناء فيه ماء وهو بدققة ، فلم تمض أيام حتى وجد الأرضة قد أثرت فى جزء مهم من تلك الأرجل اه .

(أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين) الغيب هنا : ما غاب عنهم من موت سليمان ، وهو يدلنا على أن الجن قد أخفى الله عنهم موت سليمان ، وأنهم أسفوا على بقائهم فى عملهم مدة مات فيها سيدهم ومسخرهم .

## دابة الأرض

(٣) قال صاحب كتاب : [الجواهر فى تفسير القرآن] ماملخصه : الأرضة دودة بيضاء تبنى على نفسها بيتاً مستطيلاً ، ولها شفران تنقر بهما الخشب والأجر والحجارة ، وجعها أرض - بفتح الراء - ويقال لها الخمل الأعشى ، ويقال انه يوجد ألف وخمسمائة نوع من الأرضة ، ولشهور منها لا يتجاوز الأربعين ، وكل نوع يمتاز عن سواء بصفات خاصة [فنه] البناء الذى يقيم هضبا فوق الأرض ، و[منه] ما يفتك بالأشجار الحية وينقبها ، وجنده كالكواسر أو الضواري على جانب عظيم من القساوة ، و[منه] ما تشبه شتاء قرون التيس فتتمدد وتقذف به الى مسافة عشرين ستيماً .

وبعض هذه الحشرات يعيش فى جذوع الأشجار التى يحفرها ، ويمتد منها مسالك وأسراب تذهب كل مذهب ، وتحفرها من كل ناحية حتى الجنود ، وبعضها يبنى عشه فى الأغصان ويوطدها حتى يقوى على مقاومة الأعصار ، وحتى يتمتع على الانسان الاقلاق عليه فيضطر الى

نشره بالمنشار .

وحيث أقامت الأرضة كانت عاملا للهدم والتخريب ، وما أقلت الأرضة في البلاد الحارة حشرة مثلها في حرب دأمة مع الانسان ، فتأكل بيوته من أساسها ، وتغني ماعنده من فراش وكساء وورق ومؤونة وخشب وفنال ونبات ، ولا ينجو شيء من موجوداته من هذا التخريب الفظيع الذي يتم في الخفاء فنعده من خوارق الوجود .

وإنك لتجد أشجارا كبيرة سليمة في الظاهر ، فلا تكاد تمد يدك إليها حتى تنهار ، لأنها مأكل من الباطن ، تلك أعمال الأرضة في التخريب للنزلى ، وقد ينسج نطاقها فيشمل مدينة بأسرها .

ففي عام ١٨٧٩ نشب الأرضة بسفينة حربية أسبانية في ميناء [فرول] فلم يبق ولم يذر ، وزعم الجنرال [لسرك] أن جزر الأنتيل الفرنسية لم تقو في سنة ١٨٠٩ على رد الانجليز ، لأن الحشرة المدامة كانت قد خربت المنازل ، وتركت المدافع والسخيرة في حالة لا تصلح معها للعمل .

ثم قال : إن النملة عدو الأرضة الألد ، ولولاها لكادت الأرضة قد اجتاحت القسم الجنوبي من الكرة الأرضية .

ومن الأرضة ما خلق لنفسه جندا خاصا يمتاز برأس كبير يستعمله لسد الفتحة كأنه صمامة من الفلين ، وترود النملة قرية الأرضة دائرة حولها ليل نهار ، باحثة عن صدع أو شق تنسل منه إليها ، ولهذا كانت الحيلة لها بالغة أقصى المستطاع ، وكانت مراقبة الشقوق شديدة ، ولا سيما الشقوق للصنوعة لتجديد الهواء ، فان منازل الأرضة تحتاج إلى الهواء للتجدد ، وقد أقيم لذلك هندسة ونظام ليس من ورائها لعناء الصحة اليوم مأخذ لعاب أو معلق لطاعن .

وإذا أتيح لعدو أن يصيب أحد هذه الشقوق فان أول ما يرى هو رأس أحد الجنود للدفاعين وقد أخذ يضرب الأرض بشفرته إنذارا ونفيا ، فيسرع الحرس ، ثم الفرقة بأسرها ، وتسد بجماجمها الفتحة ، وهي تمحرك في الهواء أحناكها الهائلة كأنها أوغال من الشوك ، أو تهجم على غير هدى هجوم الكلاب الضارية ، حتى تصيب العدو فتعض عليه عضا شديدا ، ولا تتخلى عنه إلا حاملة قطعة منه ، وجنود الأرضة تبقى بمدقهم العدو حيناً أمام الثغرة ، ثم تعود إلى قسلاقاتها فترجع العمال العدة للخدمة شارعة في ترميم ما تخرب بسرعة هائلة .

وقد روى [سافاج] أنه دمر منزلا للأرضة في الساء ، ولما عاد عند الصباح وجده قد أصلحه وأتم ترميمه ، وعلا ببطقة جديدة من الطين ، ولا عجب فان السرعة في العمل مسألة حياة أو موت وأقل إهمال في ذلك هو دعوة لأعداء كثار ، وخاتمة ذلك الاستعمار .

ثم ختم صاحب كتاب الجواهر بحثه الطويل بقوله : أيها المسلمون هذا اخترته من كتاب [ملكة الظلام] أو [حياة الأرضة] الذي عرّبه الدكتور [تقولا فياض] .

نعم أنا أفضت في الكلام على [الأرضة] ومعيشتها وسياستها ونظامها ، وإنما حرّكتي لذلك قوله تعالى (مادهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منه) يا سبحان الله ما لنا وللأرضة ، وما لنا ولمنساء سليمان ، وما لنا ولأكل الأرض لها ، وما لنا ولكون سليمان لم يعلم اليهود موته إلا بعمل الأرضة .

عجيب والله هذا القرآن ، عجيب والله أن تكون هذه الكلمات باعثة لى على تعقب أحوال الأرضة ، فإذا عرفنا منها ؟ عرفنا أن الله جنودا وجنودا ، وتلك الجنود لها ملوك ، ولها سياسات ونظم اجتماعية عجيبة ، وعرفنا أن فى أمم أوروبا من يدرسون هذه الحشرات ليستخرجوا منها علما عسى أن يرتقى به الانسان فى مستقبل الزمان .

أيها المسلمون : إن الناس تنموا الطيران فطاروا ، وهام أولاد يجمون عقولا أرقى من هذه العقول ، ويسعون لكسبها فسيروا مع الناس بل أنتم أولى ، فان إشارات القرآن نبعت السلم على العمل .

### داود وسليمان عليهما السلام

وَأَذْكُرُ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ <sup>(١)</sup> إِنَّهُ أَوَّابٌ <sup>(٢)</sup> «١٧» إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ «١٨» وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً <sup>(٣)</sup> كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ «١٩» وَشَدَدْنَا <sup>(٤)</sup> مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ <sup>(٥)</sup> الْخِطَابِ «٢٠» وَهَلْ أَتَيْكَ نَبَأُ الْخَضَمِ إِذْ تَسَوَّرُوا <sup>(٦)</sup> الْمَخْرَابَ «٢١» إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَنَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَخَكُمُ يَنِينًا بِالْحَقِّ وَلَا تَشْطِطْ وَأَهْدِنَا إِلَى سَوَاءٍ <sup>(٧)</sup> الصِّرَاطِ «٢٢» إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي <sup>(٨)</sup> فِي الْخِطَابِ «٢٣» قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْمِكَ إِلَى نَعْيِهِ وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ <sup>(٩)</sup> فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ «٢٤» فَفَقَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنْ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى <sup>(١٠)</sup> وَحُسْنُ مَّآبٍ «٢٥» يَذْكُرُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَأَخْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ

[١] القوة فى الدين . [٢] مجموعة « أواب » . مسج . كانت ترجع للتبجح . [٣] قوِّياته .

[٤] الخطاب : الفاصل فى القضاء ، وتدابير الملك والشورى . [٥] تصدوا سوره ، والمخرباب :

غرفة داود . [٦] وسطه ومجته : ضربه مثلا ليعين الحق وعضه . [٧] غلبى فى الحاجة والمطالبة .

[٨] اجليناه وامتنعنا . [٩] خطوة « مأب » مرجع .

عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ «٢٦» وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا  
 بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ «٢٧» أَمْ  
 نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ  
 كَالْفُجَّارِ «٢٨» كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ  
 أُولُوا الْأَلْبَابِ «٢٩» وَوَهَبْنَا لِذَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ «٣٠» إِذْ  
 عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّغِفَتُ <sup>(١)</sup> الْجِيَادُ «٣١» فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ  
 عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ «٣٢» رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَافِقْ <sup>(٢)</sup> مَسْحًا  
 بِالشُّوقِ وَالْأَغْنَاكِ «٣٣» وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا <sup>(٣)</sup>  
 ثُمَّ أَنَابَ «٣٤» قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي  
 إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ «٣٥» فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً <sup>(٤)</sup> حَيْثُ  
 أَصَابَ «٣٦» وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ «٣٧» وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ <sup>(٥)</sup> فِي  
 الْأَصْفَادِ «٣٨» هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ «٣٩» وَإِنْ لَهُ  
 عِنْدَنَا لَوْلَا وَحُسنَ مَأَبٍ «٤٠» م-

### شرح وعبرة

(١) بعد أن أقسم الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بالقرآن أن الكفار ما كفروا به عن  
 خلل في دينه ، بل لأنهم في استكبار ومناقاة لله تعالى ، وبعد أن هتدم بما أهلك من قبلهم  
 من القرون فاستأنوا حين حلَّ الهلاك بهم ، ولم يكن الوقت وقت فرار من عذاب الله تعالى ،  
 وبعد أن أخبره أنهم عجبوا أن يجيئهم رسول من بني جلدتهم ، وقالوا في شأنه : هو ساحر كذاب ،

[١] الخيول التي تطف على ثلاثة قوائم ، وقد أقامت الرجل الأخرى على طرف حافر ، ولا يكاد يكون ذلك  
 إلا في الرباب الخلس . [٢] جبل . [٣] بسبب مرض ألمَّ به فصار جسداً لا قوة فيه ، وأناب : وجع  
 إلى قوته . [٤] لينة طيبة لا تزعج ، وقيل طيبة له .  
 [٥] مسالين في القيود حيث يقرن بعضهم ببعض .

وانطلق أشرافهم وسادتهم يعمرون بالقوم أن امشوا على ما أتم عليه ، واصبروا على آلهتم ، وأنهم ماسموا بما قاله محمد في الملة التي وجدوا عليها الآباء والأجداد ، وأن ذلك أمر مختلق .

وبعد أن ذكرهم الله بقوم نوح وعاد وثمود ، وفرعون صاحب القوة والبطش ، وأنهم جميعهم لما كذبوا الرسل حق عليهم عقاب الله .

بعد ذلك كله يقول الله تعالى لبيه محمد صلى الله عليه وسلم ( اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب ) .

بأمره الله تعالى أن يصبر على أذام ، ويحتمل غلظتهم ، وأن يذكر عبد الله داود ليكون له فيه الأسوة الحسنة ، وقد وصفه بقوله ( ذا الأيد إنه أواب ) أي صاحب القوة في الدين ، والقوى في دينه لايهن للشدة ، ولا يضعف لاضطهاد ، بل يقابلهما بالحزم والعزم ، ويتلقاهما بقلب لا يعرف الضعف سيلا إليه ، وفؤاد في غاية الثبات ، لأنه يعلم أن الشدة التي حلت به ما لها إلى رضاء ، والايذاء الذي أوقعه به أعداء الحق والدين هو إعلاء لشأنه ، ورفع لمزله وتضحية في سبيل الله وسبيل الإصلاح العالم ، وأي إصلاح أعظم من نشر دين يهدي الناس إلى سعادتهم ، ويثبت عقائد ومبادئ ترشد القوم إلى صلاح دينهم ودنياهم ، وإذا جهل الناس قيمة هذا الدين اليوم فيعرفونها بعد ، ويتجلى لهم ما فيها من عناصر للحياة الحقة ، وأصول لا يسعد العالم بدونها ، ومن يحمل دعوة هذا أساسها ، وتلك غايتها ، فخير به أن يصبر على إيذاء القوم وجهلهم ، وأن لا يقابل السفه بسفه مثله ، وإنما يقابله بالأناة والحكمة ، والتأسي برسول الله في ذلك الباب ، والتخلق بأخلاقهم في هذا السبيل .

والله تعالى لم يقص على رسوله قصص الأنبياء إلا ليقوى به يقينه ، ويثبت به فؤاده ، لم يقص عليه ليكون أسلوا من أساليب الله ، أو ضريا من ضروب التفكك ( وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما ثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين « ١٢٠ » )<sup>(١)</sup> .

يذكر الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بمبدء داود صاحب القوة في دين الله ، ليكون كذلك قويا في دينه كما كان نبي الله داود ، مطمئنا لنصر الله له كما نصر عبده داود وأيده ، ثم وصف داود بقوله ( إنه أواب ) أي رجع إلى الله تعالى ، رجع إليه في شدته ورجائه ، رجع إليه في سره وعلايته ، رجع إليه كلما حزبه أمر ، أو جد به الجدة ، يستغفره ذنبه ، ويستعين به على شدائده ، ويستنصره على خصومه ، ويطلب منه مالا يقدر عليه غيره ، ولا يستطيعه سواه .

ثم عقب ذلك بقوله ( إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق ) وذلك من آثار أكثره من العبادة ، وشفه بتسبيح الله تعالى وتقديسه ، وولوعه بتزيه الله عن كل مالا يليق ، فكانت الجبال تسبح الله معه على وجه لا نعرفه نحن ، وقد لا يعلمه داود ، وإنما يعلمه الله تعالى ، ولا عجب فإن كل شيء يسبح الله تعالى ولا نفقه تسميحه ، وعدم فقها لذلك التسبيح لم يخرجها عن كونها مسبحة لله معنا .

والظاهر من أن الطير كذلك كانت تسبح الله مع داود وأنه علم منطقها ، أنه يفهم كيف تسبح ، وكذلك الجبال .

وعلى الجملة فالله تعالى يصف داود بأنه صاحب قوة في دينه ، ويعلم ذلك بقوله ( إنه آوآب ) وأنه من أجل ذلك أعطاه ما أعطاه ، ووهبه ما وهبه ، وسخر له ما سخر ، فسخر له الجبال والطير كل يسبح الله لأجل تسيحه ، وقوى ملكه ، وأعطاه العلم النافع ، وأقدره على فصل الخصومات والقضاء بين الناس ، وغفر له ما ظنه ذنباً حين تحاكت إليه الخصوم ، ووهبه سليمان ، ونعمت الهبة . كل هذا لأن داود قوى في دينه ، صلب في عقيدته ، شديد في قته بر به وخالقه ، كثير الرجوع الى مولاه في حاجاته وعبادته ، فلتكن يا محمد كما كان ، وليكن الناس كداود في قوة إيمانهم ، ورجوعهم الى ربهم ، ليكن الناس أقوياء القلوب ، واثقين بنصر الله لهم ، وتأيدته حقهم على باطل سواهم ، وأنهم إذا كانوا على هذه العقيدة لأن لهم الحديد ، وسخر لهم الجبال على قوتها وصلابتها ، وسخر لهم الريح على عصفها وشدتها .

والمراد أن الله تعالى يذل لهم كل صعب ، لأن قوة الإرادة تعمل مالا تعمله الحراب والدفاع وقوة الإرادة تصهر الحديد ، وتذيب النحاس ، وتنسف الجبال ، وتضطر العتو الجبار ، والخصم الألد أن يلين ويخضع ، ويذل ويخضع ، اجلالاً لقوة العزم ، وشدّة الحزم ، وتزولاً على الشدّة التي لاتجد هواده ، والتصميم الذي لا يعرف انحلالاً ولا تردداً .

(٢) (و شددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) .

يذكر الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بأنه شد ملك داود وقواه ، وهي نعمة عظيمة من الله تعالى يكافئ بها نبيه داود على قوته في دينه ، ورجوعه الى ربه وخالقه ، وهو كقوله في سورة طه ( واجل لي وزيراً من أهلي هارون أخى ) ٣٠٥ اشدد به أزرى ٣١ وأشركه في أمري ٣٢ ) . وقوة الملك نعمة عظيمة ، وذلك انما يكون بتوفيقه الى أسباب البقاء ، وإبعاده عن عوامل الخراب والفساد ، فجعل في دولته من رجال العلم والسياسة ، والفنون والصناعة ما تستطيع به أن تعيش منيعاً الجانب ، حصينة الأطراف ، كما جعل فيها من يقيمون العدل ، ويحرون الصواب والمصلحة ، وجعل فيها من القوة الحربية ما يهرب الأعداء ، ويخيف اللبر ، ومن أراد ملكاً قوياً في دولة تفشت فيها الرشا ، وفسدت فيها الأخلاق ، وأصبح الناس أسراء شهواتهم وأهوائهم ، من أراد ملكاً قوياً في بلد مقفر من العلم النافع ، والصناعة المفيدة ، والحريّة القوية - من أراد ملكاً قوياً في بلد ذلك حاله ، وتلك أخلاقه ، انما يتطلب محالاً ، لأنه طلب ما لا يتفق وسنة الله في حياة الأمم وموتها ، وضعفها وقوتها ، وقيامها وسقوطها ، ولا يمكن أن يدلل الله سنته أو يهدم نظامه .

ولعل المسلمين يظنون الى أن أهم شيء في أسباب شدّة الملك وقوية السلطان : هو الخلق الطيب الذي يعتمد على الدين ، ويرتكز على الفضيلة ، لعلهم يظنون لهذا فيستعيدون بدينهم ونشاطهم مجددهم ويستردون باستقامتهم عزهم ، لعلهم يظنون الى أن الملك لم يكن في وقت ما طريقاً لجمع المال من طريقه المعروف وغير المعروف ، ولم يكن سلباً لشتيع النفس بلزائد وشهوات من شأنها أن تزرى بصاحبها ، وتضعه في موضع لا يليق ، ولم يكن الملك «سبيلة» من وسائل ظلم



الضعفاء ، أو القنك بالأبرياء .

( وأتيناها الحكمة وفصل الخطاب ) نعمة أخرى على نبي الله داود عليه السلام ، هي نعمة الحكمة ، وهي العلم النافع الذي يعمل صاحبه على العمل ، ويسوقه الى التخلق بأخلاق طيبة وقد بين ذلك في آية أخرى إذ يقول ( ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالوا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين « ١٥ » )<sup>(١)</sup> ويصح أن يراد بالحكمة النبوة ، أو الحكمة التي تقابل الموت ، أو يراد بها كل أولئك للعاني ، لأنها غير متناهية ( وفصل الخطاب ) أى الخطاب الفاصل بين الحق والباطل ، والمراد أن الله تعالى أعطاه مقصرة على ذلك ، سواء كان ذلك في القضاء بين الناس ، أو في الجدل والتزاع في أمور العلم والدين ، أو غير هذا ، وكذلك أعطاه فصل الخطاب في سياسة السولة وشئونها العاتية .

كل ذلك لأن داود صاحب الأيدى أواب ، ومنه تعلم أن التقوى تتفجر بها ينابيع الحكم ، وأن القلب المعمور بطاعة الله وتقواه جدير بذلك الفضل الكبير ، وقد ورد « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » وكذلك تعلم من الآية أن نبي الله تعالى كان قوله الفصل ، لأنه بعيد عن الشهوة ، بعيد عن الهوى ، وكل قاض عنده من الاستعداد للقضاء بين الناس ما يؤهله لأن يحكم بينهم ، وتجوّد عن الهوى ، فإن قوله يكون هو القول الفصل ، وقضائه هو القضاء الأخير ، وإنما يباعد بين الناس وبين الحق الشهوات والأهواء والأغراض والأعراض . حانا الله منها ، وعصمنا بفضلته وكرمه .

( ٣ ) ( وهل أتاك نبؤا الخصم إذ تسوروا المحراب ) الخ .

يأبى للمفسرون إلا أن يأتوا بالاسرائيليات ومادسه اليهود على الدين من قصص ، ويأبى للمفسرون إلا أن يشحنوا سيرة الأنبياء بما يتبرأ منه القرآن الكريم ، ولا يتفق وكرامتهم في هذه الحياة الدنيا ، وما أعدم الله له من عمل ، وما هيأهم له من منصب ، فترام لأجل فهم قصة الخصمين الذين تسوروا المحراب يذهبون مذاهب شتى ، وترام في جلتهم يذهبون الى أن قصة الخصمين لم تكن قصة حقيقية ، بل هي قصة تمثيلية ، قام بها ملكان ليلفتا نظر داود الى ما كان منه ، ثم يذكرون في بيان سبب هذه القصة ما لا يرضاه لنفسه رجل من عامة المؤمنين فضلا عن خاصتهم ، وترام يخلقون على نبي الله داود الأكاذيب والأباطيل .

وكذلك ترى المفسرين يأبون إلا أن يفسروا [ النعجة ] بالمرأة ، ومن لنا بإسماع رجال العصر الذين لم يرضوا للمرأة من الحقوق ما رضى الاسلام لها ، بل يريدون أن يجعلوها كالرجل حتى فيما لا تهاودها عليه فطرته وطبيعتها - من لنا بقليل أولئك المصريين أن القرآن الكريم يعبر عن المرأة بالنعجة ، ويسميا باسم حيوان أعجم ، لتري ماذا يقابلونهم به ، وماذا يصنعون معهم إزاء ذلك الفهم العجيب ، والوصمة للشكرة التي يصمون بها المرأة شريكة الرجل في الحياة ، والعضو العامل في تكوين الأسرة ، وهل يتفق ذلك مع قول القرآن في شأن جماعة النساء ( ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة )<sup>(٢)</sup> فجعل للمرأة من الحق على الرجل مثل ماله عليها بناء على ما قضى به العرف ، وميز الرجل عليها بدرجة الرياسة في البيت .

ولا ندرى ما هو الهامى الى تأويل النعجة بالمرأة ، والخطـة من قيمة للرأه الى ذلك الحد ، ولصق ذلك بالقرآن الكريم ، وما الهامى الى اعتبار القصة من ملكين لامن وجلين ؟ واعتبارها رمزا لحادثة وقعت من نبي الله داود .

لماذا ذلك كله والأصل فى الكلام الحقيقة دون المجاز ، والنعجة هى الأشي من الضأن لا المرأة ، ولماذا لا تكون القصة حقيقة من خصمين تحاكى الى داود وشرحا له قضيتهما ، فأفنى صاحب النعجة أنه مظلوم ، وأن صاحب النعاج هو الظالم ، ثم عقب ذلك بأن الشأن فى الخلطاء أن يبنى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

وقد اضطرب المفسرون فى تأويل قوله ( وظن داود أنما فتناه ) والآية كفية يبين هذه الفتنة ، فانها ترينا أن نبي الله داود أفى لمجرد سماعه قول صاحب النعجة ، ولم يسمع لقول صاحب النعاج ، والواجب على القاضى أن يسمع المجتنبين ، ويوازن بينهما ، وبعد ذلك يقضى .

ولم صاحب النعاج رأى أن أمر النعجة لا يستقيم بوجودها وحدها ، وبقائها منفردة عن أخوتها ، لأنها بذلك تكون عرضة لسطو الذئب عليها ، فمن مصلحته ومصلحة نعجته أن تعيش مع أخوتها ، ولم ذلك هو الذى جعله يقول ( وعزنى فى الخطاب ) ولصكن مالصاحب النعاج ومصلحة النعجة ؟ وماله ومصلحة صاحبها ؟ وهل جعله الله قيا عليه حتى يطلب منه أن يدفع إليه ماله ، ليشره له ويرعاه بما يعود عليه وعلى ماله بالخير ؟ وهل يجبر الرجل على تسليم نعجته لصاحبه مادام بقاؤها وحدها لغير مصلحتها ؟ .

وقد يجوز أن تكون حجة صاحب النعاج أن غنمه فى حاجة إليها ، وأن حياتها متوقفة على حياة غنمه أو حياة طائفة منها ، فطلبها منه لمصلحة تعود على غنمه لا لمصلحة لصاحب النعجة ، كل ذلك محتمل فى توجيه حجة صاحب النعاج ، والفتنة التى ظنها داود هى فتنة فى تلك الفتوى ، وسماعه لحجة واحد دون سماع حجة الآخر ، وفى الأمثال المشهورة [ إذا جادك رجل قد فقت عينه فلا تقض له حتى ترى خصمه ، فله قد فقت كلتا عينيه ] .

ذلك هو احتمال فى بيان الفتنة ، وهو احتمال قريب ، وهناك احتمال آخر هو أن داود عليه السلام وزع وقته ، فجعل وقتا للعبادة ، ووقتا للقضاء بين الناس ، فجاء الخصمان فى وقت كان متفرغا فيه للعبادة فى محرابه ، فنسقا الخصمان جدار المحراب ، وتصدوا سورة ، وبذلك فزع منهم ، لأنه لم يألف أن يجيئ الناس من ذلك السور .

فكانت فتنة أنه حجب نفسه عن الناس ، والواجب على القاضى أن يعد نفسه للقضاء دائما ولا يضع بينه وبين المتخاصمين حجبا .

فالفتنة التى ظنها داود أحد أمرين [ الأول ] قضاؤه بين الخصمين بعد أن سمع حجة أحدهما وقبل أن يسمع حجة الآخر . [ الثانى ] أن حجب نفسه عن الناس مما أدى الى تسوّر الخصمين المحراب ، ويجوز أن يراد أنه فتن بالأمرين جميعا .

( ٤ ) وفى الآية أن الخصم أن يعط القاضى ، ويذكره بما أوجبه الله عليه من العدل ، وكذلك كان شأن الناس فى الزمن الأول ، يعط بعضهم بعضا ، ولم يألف نبي الله داود وهو رسول

الله ومصطفاه أن يعظه الخصمان ، ويقول له ( فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ) والراد لآخبر ، بل عليك أن تقضى بيننا بالحق ( واهدنا إلى سواء الصراط ) أى أرشدنا بقضائك العادل إلى عين الحق ومحضه .

كان ذلك في العهد الأول ، يتناصح فيه الناس ، ويطلب الخصوم من القاضى - ولو كان رسولا - أن يقضى بينهم بالحق ، أما وقد صار القضاء مهنة ، وأصبح وظيفة لطائفة من الأئمة ، قد أعدت لذلك العمل تحت رعاية القانون وحايته ، - فلا يستطيع الخصم أن يطالب القاضى بمثل ما طولب به نبي الله داود ، ولو صدر ذلك من خصم لأحد القضاة في العصر الحاضر لقدم إلى المحكمة ، واعتبر ذلك انتهاكا لحرمه القضاء وتعريضا للقاضى .

وإذا كان المجال لم يتسع للخصم أن يقول للقاضى يجب عليك أن تعدل بين الخصوم ، وأن لاتحابي أحدا ، وعليك أن تطبق القانون على الناس على السواء - فان للواعظ العيني أن ينوب عن الخصوم في وعظ القاضى وإرشاده إلى طريق الصواب ، والبعد به عن الهوى والضلال ، وحسبنا أن الله تعالى يقول لنبيه داود وهو ذلكم النبي المصوم ، وهو الذى وصفه في الآية السابقة بقوله ( واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه آوآب ) ( ياداوود انا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ) .

ذلك خطاب الله لنبيه للمصوم ، ورسوله المختار ، فلماذا لا يتخاطب به من هم دونه في المنزلة ؟ لماذا نهاب أن تقول لحكامنا ما قاله الله لنبيه داود ؟ وهل هم أحوص على دينهم منه ؟ وأقرب إلى الحق منه ؟ أم ذلك سنة الله في التعليم ، ونظامه في نشر العدل ، يرسم لنا فيه الطريق ، ويهدينا إلى ما ينبغي أن يكون ، فيرينا واجب القاضى ، ويرينا ثقل المهمة الملقاة على عاتقه وعاقبتنا ، واجبنا الإرشاد ، وواجهه أن يسمع ، لنعلم أن الأئمة متضامنة في أداء واجبها ، متكافلة في القيام بمهمتها ، وعلى كل طائفة من طوائف الأئمة أن تكون صلتها بالأخرى صلة نصيح وإرشاد ، لاصلة غش وتضليل ، وأن يكون الحق فوق الأشخاص ، والعدل بنية الجميع ، ووصول الناس إلى حقوقهم غاية ليس بعدها غاية .

( وإن كثيرا من الخلطاء لينبئ بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل مأم ) يريدك الله أن الشأن في السواد الأعظم من الناس إذا كثرت شركتهم من اللواشى أو من الأموال الأخر أن يمتدئ بعضهم على بعض ( إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ) فلم يكن ذلك شأنهم ، بل شأنهم وقوف كل واحد منهم عند مرسوم له ، وأن يرضى بما قسم الله له من رزق ، ومن ذلك نفر أن الإيعان والعمل الصالح من شأنه أن يحول بين الناس وبين ظلم بعضهم بعضا ، وأن يكون حاجزا بينهم وبين الشرور .

أما الإيعان فلائنه إيمان بالجزاء ، وإيعان بالثواب على الطاعة ، والعقوبة على المعصية ، وما دام الرجل واقفا بالمسئولية ، مؤمنا بالله وعدله ، فلا يقع في ظلمه للناس ، وإن ظلم كان ظلمه

على غير عادته ، فلا يقع منه إلا نادرا ، كما قال في شأن المؤمنين ( ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون « ١٣٥ » )<sup>(١)</sup> .

وأما العمل الصالح فلأن من شأنه أن يهذب النفوس ، ويطهرها من الخبث ، ويحول بينها وبين المحرمات ، لأن العبادة تربطه بالله ، وتخفيفه منه ، وتجعله يخشاه في سره وعلايته ، فالعمل الصالح يثبت العقيدة ، وينمي الإيمان ، ويعطيه الغناء الصالح ، فيثمر ثمرة الرجوة ، ويؤدي وظيفته كاملة غير منقوصة ، ولا غنى للمؤمن عن الإيمان الصحيح ، والعمل الصالح .

ولهذا ترى القرآن الكريم لم يعد المؤمنين بالجنة إلا قرن إيمانهم بعملهم ، واشترط مع العقيدة عملا صالحا ( من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجنيه حياة طيبة « ٩٧ » )<sup>(٢)</sup> . وقال ( إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا « ٣٠ » )<sup>(٣)</sup> ( إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا « ١٠٧ » )<sup>(٤)</sup> وغير ذلك كثير وكثير ويشير بقوله ( وقليل مالم ) إلى أن ذلك الصنف القليل يقرون الإيمان بالعمل الصالح قليل في جانب الأوصاف الآخر .

وما أكثر الذين قنعوا من الإيمان باسمه ، واكتفوا من الدين بعنوانه ، وظنوا أن الله يحاسبهم على أسماء ، لا على حقائق ، وما داموا يسمون أنفسهم مؤمنين فليعملوا من المنكرات ما شاءوا ، وليقتصروا في الطاعات ما زيفت لهم النفوس ، وما أكثر أن يمدعوا أنفسهم بأنهم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهي خير أمة أخرجت للناس ، وبأن الله واسع الرحمة ، وأن الإنسان لا يأس من رحمة الله ، إلى غير ذلك من الحق الذي أريد به الباطل ( ليس بأمانيك ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا « ١٢٣ » ) ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا « ١٢٤ » ومن أحسن ديننا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا « ١٢٥ » )<sup>(٥)</sup> .

( وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأتاب فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب .

غلب على ظن داود أن الله قد ابتلاه واختبره في أمر الخصمين ، ولجورد ذلك الظن استغفر ربه ليرينا أن الإنسان ينبغي أن تكون معاملته لربه معاملة أساسها الاحتياط والحذر ، وأنه يكفي لأن يستغفر ربه أن يظن الخطأ ، فما بالك بمن ييقن الزلة ، ويعلم أنه قد عصاه وخرج على أمره ونهيه ؟ ويظهر أن هذه حكمة التعبير بالظن .

ومن جهة أخرى فإن المسألة ليست من الخطأ الواضح الجلي ، بل هي خطأ من شأنه أن يقع للخاصة ، فالفتنة إذا مظنونة لا مقطوع بها ، ومع أنها مظنونة لم يرض بها داود ، فاستغفر ربه وخر راكعا<sup>(٦)</sup> ( وأتاب ) رجع إلى ربه فغفر الله له ما ظنه ذنبا ، وإن له عند الله الخطوة وحسن الرجوع في الآخرة .

(٥) (ياداوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضاؤون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) .  
تأديب من الله تعالى لنبه داود ، وتعليم له كيف يحكم بين الناس ، ويقضى بينهم ، فيأديه أولاً بقوله (ياداوود) ليفته إلى أن ما يليه إليه أمر عظيم ، يجب أن يقبته له ثم يقول (إننا جعلناك خليفة في الأرض) أى صيرناك خليفة عن الله في أرضه ، تقيم العدل وتنشر الإصلاح ، أو جعلناك خليفة لمن سبقك من الأنبياء في ذلك ، وجدير بمن جعله الله خليفة أن يظن للهمة اللقاة على عاتقه ، ويعنى بها العناية اللائقة .

نم إنه جدير بمن يشمر من نفسه أنه نائب عن الله تعالى في عمارة الأرض ، والقيام على مصالح الناس ، أن يقتدر ذلك للركن الكبير ، وهذا للنسب الجليل ، ولو أن الناس فطنوا إلى مرا كرمهم ، وإلى مقدار المسئولية اللقاة على عاتقهم ما فرتوا في عمل ، ولم تلب عليهم الشهوات ، وكأن الله تعالى يريد أن يبيننا إلى طريق لفت الحاكم إلى واجبه ، وأنه يقبى دائماً أن يضع ذلك نصب عينيه ليكون ذلك وقاية له من التقصير ، وحماية له من الشطط .

(فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) .

يأمره أن يحكم بين الناس بالحق ، لأنه خليفة عن الله في ذلك ، وهو رسوله الأمين وخليفته في الحكم بين الناس ، وأن داود لو فرض أنه شطّ وحكم بين الناس بغير الحق لكان ذلك مدعاة لطعن الناس على دينه وربه ، لأنه خليفة ونائب عنه ، والحق الذى يدعو الله إليه مقابل الباطل وقد يكون الحق صريحاً لا يحتاج إلى بحث أو تمحيص ، وقد يكون الحكم بين الناس في أمور اجتهدية لم يتضح فيها وجه الحق .

والواجب على القاضى أن يحكم بين الناس بما يستند أنه الحق ، فإن كان الحق واضحاً تبهر ، وإن كان اجتهدياً بذل وسعه في تعرف الحق ، واجتهد في الوصول إلى الصواب ، وإذا أخطأ بعد ذلك فهو معذور مأجور ، كما وقع له في قصة التيم التى انتشرت في الحرث فأهلكته .

اجتهد داود عليه السلام فيما يجب لصاحب الزرع على صاحب التيم ، لحكم بما رأى ، ثم اجتهد سليمان لحكم حكماً آخر ، وكان حكم سليمان هو الصواب ، لأن الله تعالى يقول (فنهمنها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً) كما تقدم في سورة الأنبياء من القصة .

فأما تعالى عذر نبيه داود ، وإن كان سليمان هو اللوفى في الحادثة المذكورة ، وشهد لكل من داود وسليمان بأنه آتاهما حكماً وعلماً : أى أعطاهما مقلدة على الحكم ، ومنه نعلم أن المجتهد معذور في خطئه ، وحسبه أنه بذل طاقته في الوصول إلى الحق ، وذلك ما فى وسعه ، وهو الذى يكلفه الله به .

وكذلك القضاة والحكام يحكمون بالحق للنصوص التى لم يشك أحد في حقيقته ، ولا عذر لهم في الخطأ إذا كانت للسألة بدئية ليس فيها جدل أو نزاع ، ولم تشبه فيها الأنظار ، أما المسائل الاجتهادية التى تختلف فيها وجهة النظر ، وتختلف أحكامها مختلفة ، فليهم أن يبحثوها بحثاً بريئاً

بعيداهن الشهوة والهوى ، ثم بعد البحث يصدر عن أحكامهم ، وسواء عليهم بعد ذلك أصابوا أم أخطأوا ، لأنهم أدوا ما عليهم من واجب .

(ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) .

ينهى الله نبيه داود أن يكون تابعاً للهوى في قضائه وحكمه . والهوى : ما تهواه النفس وتميل إليه بما يخالف الحق والصواب ، سواء كان هوى للحاكم أو للحكوم له أو عليه ، أو كان هوى لهما معاً ، ولم يكن ذلك الوعظ خاصاً بنبيه داود ، بل وعظ الله به خاتم الرسل ، فقال (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذروا أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك «٤٩»<sup>(١)</sup>) . ويقول ( إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للفتنة خصباً «١٠٥» ) واستغفر الله إن الله كان عفواً رحيماً «١٠٦» . ولا يجادل عن الذين يخفون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوفاً آتياً<sup>(٢)</sup> «١٠٧» . وقال تعالى ( فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق «٤٨»<sup>(٣)</sup> ) .

فتراه قد أمر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يحكم بين الناس بما أراه الله سواء كانت الآراء ببيان الحق الذى عرفه له أو كانت من طريق اجتهاده ، فإن الأمور الاجتهادية قد أراها الله إلهاماً ، وعرفه طريقها وأصولها التى تبنى عليها ، فما أراه الله أهم من الحق الصريح والحق الاجتهادى ، ونهاه الله تعالى أن يخاصم لأجل خائن ، وأن يجادل عن الذين يخفون أنفسهم بالفساد والفسوق ، كما نهاه أن يقبض فى أحكامه أهواء القوم التى تلوها عما جاءه من الحق .

فإذا قال لى الله داود ( فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى ) فقد قال مثل ذلك لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم . وكذلك يأمر الله المؤمنين أن يحكموا بالعدل إذا كانوا حكاماً إذ يقول ( إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ) ثم يعقب ذلك بقوله ( إن الله نعماً يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً «٥٨»<sup>(٤)</sup> ) ليرينا أن ما يأمر به الحكم من العدل هو مصلحة تعود علينا ، وأن أمر الناس لا ينتظم بدونه ، فإذا لم يكن للأمة عاصم من القضاء ، وسياج من العدالة فى أشخاص الحاكمين ، اختل أمرها ، واعتل نظامها ، وسادت فيها الفوضى ، وكثر فيها الفساد ، وانتشرت الجرائم ، ثم يعقب ذلك الأمر بتهديد لمن يخرج عنه ، ووعيده لمن لا يرعاه إذ يقول ( إن الله كان سميعاً بصيراً ) .

(٦) (فيضلك عن سبيل الله) يرينا أن من شأن الهوى الذى يقود صاحبه أن يعميه عن الحق ، ويحول بينه وبين الصواب .

وجدير بمن يقبض هواه فى قضائه وحكمه ، ويعرض عن هداية ربه ، ولا يعنيه أن يصل إلى الحق ، بل همه أن يصل إلى شهوته ، ويرضى ميوله ، أن يضلل الطريق ، ويعمى عن الحق . ثم بين مغبة الضالين بقوله ( إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ) أى بنسيانهم اليوم الذى يحاسبهم الله فيه : أى تركه وراءهم ظهرياً كالنسيء للنسي ، كما

قال (ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون « ١٩ » ) (١) وكما قال (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى « ١٢٤ » قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا « ١٢٥ » قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم نفسى « ١٢٦ » ) (٢) .

فالنسيان فى كل هذه المواضع هو الامل والترك ، وجعل التروك كالنسي . الذى من شأنه أن ينسى فلا يعأ به ، ولا يهتم له .

وتريك الآية من ناحية أخرى أن التذاكر لتلك اليوم الذى يحاسب فيه الناس لا تطفى عليه الشهوة ، ولا يملكه الهوى ، بل ينطب عليه الخوف من الله والخشية منه ، فإذا قضى بين الناس ذكر أن الله محاسبه على قضائه ، وإذا حدثته نفسه بظلم تذكر سلطان الله عليه ، وأنه سميع لقوله بصير بعمله ، مطلع على نياته وخطرات قلبه ، ومن لنا بمن يذكر الناس دائماً يوم الحساب حتى لا يظلموا إذا حكموا ، ولا ينجحوا إذا اتقنوا ، ولا يبطشوا إذا قدروا ، ولا يفسدوا إذا عاهدوا . من لنا بمن يضع هذه العقيدة فى قوس قضائنا وحكمانا ، وينزع من قلوبهم حب المال والحرص عليه ، وحب الجاه والتزلف لأصحاب السلطان والتفوذ .

من لنا بترية القضاء على هذه المبادئ ، وإشراهم حب العدالة والانصاف ، وإكبارهم للحق وأهل الحق ، واحتقارهم للباطل وأنصار الباطل ، من لنا بذلك كله وقد حيل بين القضاء وبين المواعظ ، فترام بيدين عن الوعظ ، ومجالس التذكير ، إذا دعاهم الله إلى الجمع والجماعات لا يجيبون ، وإذا طالبهم بالصلوات لا يؤدّون ، وإذا أخذ الوعاظ فى عمل محاضرات للوعظ فى أماكن صالحة لا يحضرون ، وإذا نشروها بالصحف لا يقرءون .

نعم ان الأمر مشكل ، والعلاج صعب ، لا يستقيم أمر الناس ببلادين يهيمن عليهم ، وعقيدة يصدرون عنها ، ومبدأ يتقادون له ، والقانون الذى أعد لحماية القضاء من الهوى لا يكتفى لردعهم وتأديبهم ، وها هو القانون الذى يعاقب الرئى وللرئى قائم فى ممالك العالم ، ومع ذلك لم يؤدّ القاضى كل ما يجب عليه ، ويوجد فى أسرة القضاء فى العالم من يلوثون سمعته ، ويتهكون قدسيتها بما فى نفوسهم من شهوة ، وما فى قلوبهم من مرض .

وتجد القضاء يتفاوتون فى أهوائهم وشهواتهم ، فبعضهم الرئى بالنساء وجاهلن ، وذلك الصنف من القضاء يحد من سمارة السوء من برئيه من ذلك الطريق القفر ، ويشجع شهوته من هذه الناحية ، بأساليب تنفذ لها النفوس الآية ، وتضج لها الكرامة ومنهم الرئى بالتفرد والكيفيات ومنهم الرئى بجمع المال والحصول عليه ، ومنهم الرئى بالتفرد ، ومنهم ، ومنهم .

وكل هذه الشهوات يتقّم بها أرباب القضايا أو سمارة السوء الى ذلك الصنف من الحكماء ليكونوا فى صفهم فى القضاء ، ولسلطتهم فى الحكم .

وأخف أمراض القاضى أن يكون جباناً ، يخشى السلطة ، ويتخوف من له عليه سيطرة ذلك النوع إذا بلغه توصية من صاحب سلطان عليه اضطرب أمره ، واختل نظامه ، وأخذ

يضرب أخاسا لأسداس ، وقد يكون فيه من خوف الله ما يحمله على الشجاعة ، ويجعله لا يبالي بإشارة الرئيس ، وقد يظلب عليه الضعف فيجيبه الى ما يطلب ، ويتأسس لنفسه للعاذر بأنه يدفع بذلك عن نفسه ، ويدود عن مصلحته ، وقد يكون فقيرا فيزين له الشيطان أن الخير له في أن يسير مع القوم حيث ساروا ، حتى لا يضطهدوه بإبعاد أوفصل ، والمعصوم بعد ذلك الجهاد الطويل ، والشادة بين وازرع الخير ووازع الشر - من عصمة الله وحفظه .

وهناك نوع من الجبن يلجأ إليه بعض القضاة ، ويرى لنفسه العذر في اللجوء إليه ، ويظن أنه بذلك الأسلوب قد أرضى العدالة ، وأدى ما عليه من حق : هو أن يحسن القاضي من بعيد أن للسلطة الحاضرة ميلا خاصا في القضية المنظورة ، واتجاهها معينا ، وهو لا يريد أن يجاريها في ذلك الاتجاه ، ولا أن يصدماها ، فيعمد الى التخلص من القضية كي ينظرها غيره .

وهو تخلص حسن لو أنه عرف أن من تسند إليه سوف يقضى فيها بما يتطلبه الحق ، أما وهو يعلم أنها ستسند الى رجل يقضى فيها بما تحبه السلطة ، ويتجه كما أرادت - فذلك شريك للقاضي في الاثم ، ونصير له في الظلم ، واعداد للفساد ، فهو آثم بذلك العمل ، وإن ظن أنه يرى . والواجب عليه أن لا يترك ذلك النوع من القضايا لقضاء عابثين ، بل يتولاه بنفسه ، ويقضى فيه بما يرى ، ويحول بين القضية وبين اللب جهد الاستطاع ، مادام نظره للقضية لا يحمله مدينا أمام القانون ، أو مستولا أمام واجبه .

وعلى اللجنة فهمة القضاء مهمة شاقة ، وهي ابتلاء من الله تعالى أى ابتلاء ، واختبار للقاضي بكل أنواع الاختبار ، ولا سيما في العهد الحاضر الذى يلوحي فيه للقاضي بشهوات شتى ، يلوحي له بالنساء ، ويلوحي له بالمال ، ويلوحي له بالمرجات والترقيات ، ومال الى ذلك ، فلم يكن غريبا أن يهتم الله بالقضاء الى ذلك الحد ، ويعط فيه نبيه داود بما ترى ، ويحذره من اتباع الهوى ، ويعط نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بأكثر مما وعط نبيه داود ، فالأمر جد خطير ، والمعصوم فيه مجاهد في سبيل الله يستحق من الأجر الشيء الكثير .

(٧) وقد رأيت بعد أن أطلعت القارئ على عنابة القرآن الكريم بالقضاء بين الناس ووعظه داود في ذلك أن أختتم البحث بكتابتى عمر في القضاء لأبى موسى الأشعرى وشرح القاضي .

## كتابته الى أبى موسى

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد : فان القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلى<sup>(١)</sup> إليك ، فانه لا ينفع تكلم بحق لا نقاد له ، آس<sup>(٢)</sup> بين الناس في مجلسك ووجهك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك<sup>(٣)</sup> ولا يخاف ضعيف من جورك ، والينة على من ادعى ، واليمين على من أنكرو ، والصلح جائر بين المسلمين ، إلا صلحا أحل حراما أو حرّم حلالا ، ولا يملك قضاء قضيتك بالأمس راجعت فيه نفسك ، وهديت فيه لشدك أن ترجع عنه ، فان الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التهادى



في الباطل ، الفهم الفهم عند ما يتلجلج (١) في صدرك مما لم يملك في كتاب الله ، ولا في سنة النبي صلى الله عليه وسلم .

اعرف الأمثال أو الأشباه ، وقس الأمور عند ذلك ، ثم اعمد الى أحبا الى الله وأشبهها بالحق فيها ترى ، واجعل للذمى حقا غائبا أو بينه أمدا (٢) ينتهي إليه ، فان أحضر بينته أخذت له بحقه ، وإلا وجهت عليه القضاء ، فان ذلك أنفي للشك ، وأجلى للعمى ، وأبلغ في العذر .

المسلمون عدول بعضهم على بعض ، إلا مجالودا في حد ، أو مجرتيا عليه شهادة زور ، أو ظنينا (٣) في ولاء أو قرابة ، فان الله قد تولى منكم السرائر ، ودرا عنكم بالشبهات ، ثم إياك التلق والضرر ، والتأذى بالناس ، والتسكير للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر ، ويحسن بها النحر ، فانه من يخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ولو على نفسه يكفه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تزين للناس بما يعلم الله خلافه منه هتك الله ستره ، وأبدى فعله ، والسلام .

## كتابه لشرح القاضي

أما بعد فإذا جاءك شيء في كتاب الله فاقض به ولا يفتنك عنه الرجال ، فان جاءك أمر ليس في كتاب الله فانظر سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقض بها ، فان جاءك أمر ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله ولم يتكلم فيه أحد قبلك فاختر أي الأسمين شئت ، ان شئت أن تجتهد رأيك وتقدم فتقدم ، وان شئت أن تأخر فتأخر ، ولا أرى التأخير إلا خيرا لك اه (٤) .  
(أ) (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باعلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) .

لما عرض الله لجزاء الضالين عن سبيله ، وأنهم يحاسبون الحساب الشديد بنسيانهم يوم الحساب ، عقب ذلك ببيان أنه لم يخلق السماء والأرض وما بينهما خلقا باطلا بعيدا عن الحكمة والفرض ، بل أوجدها لحكم ومصالح ، وهو كقوله ( وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا عين «٣٨» ماخلقناهما إلا بالحق (٥) ) . وقوله ( أخسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون «١١٥» فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم «١١٦» (٦) ) أي نزهة أن يخلق الناس عابثا في ذلك الخلق ، وأن يتركهم سدى يعتدى بعضهم على بعض ، ويظلم القوى الضعيف ، ثم لا يكون لهم حياة وراء هذه الحياة ، يحاسب فيها كل أحد على ما قدم من خير أو شر .

ومن ذلك نعرف أن الجزاء في الآخرة أمر تقضي به الحكمة ، ولا يمكن لاله حكيم أن يخلق الناس ذلك الخلق الواسع من سماء وأرض ، وما بينهما ، وما فيهما ثم لا يجعل للناس حياة يوضع

[١] يتزدد . [٢] وقتا عبوداً . [٣] متها بسبب ولاء أو قرابة .

[٤] انظر أشهر مشاهير الإسلام في تاريخ عمر . [٥] السخا . [٦] اللؤنون .

فيها لليزان القسط، ينقلب فيها القوى ضعيفا، والضعيف قويا ، وترجع فيها كفة العمل الصالح على كفة الفساد .

ذلك ما تقتضيه الحكمة ، وتتطلبه الصلحة ، ومنى آمن الانسان بأن هناك إما قادرا حكما كان من لوازم ذلك أن يكون هناك ثواب وعقاب ، وهناك جنة ونار ، وهناك الفرق بين الطبع والمص ، والمحسن والمسيء .

(ذلك علن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) الإشارة الى إنكار الجزاء في الآخرة ، وعدم الإيمان بتلك الحياة ، وبين أن ذلك الزعم هو علن الذين كفروا ، وسماه علنا لأنه لم يكن على دليل ، بل هو قول توارثوه عن آبائهم وأجدادهم ، ثم قال (فويل للذين كفروا من النار) أي بسبب إنكارهم العث والجزاء .

(أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) . استفهام يراد به الإنكار ، والمراد أنه لو بطل الجزاء كما يقول الكافرون لاستوت عند الله أحوال من أصلح وأفسد ، واتقى وجر ، ومن سوى بينهم كان سفيا ولم يكن حكما ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

والآية تلفتتا الى أن صفة العدل والحكمة يقضيان بأن يحاسب الناس ، ويوضع كل أحد حيث وضعه عمله ، فالجزاء الحق مظهر من مظاهر أسماء الله وصفاته ، وأثر من آثار عدل الله وحكمته . وفي الآية إشارة الى خطأ من يقول : انه يجوز على الله تعالى أن يدخل من أطاعه النار ولو كان رسولا ، ويجوز عليه أن يدخل من عصاه الجنة ولو كان مشركا ، والسبب في هذا الخطأ الذي وقعوا فيه أنهم يأخذون عقائدهم عن كتب الكلام لاعت كتاب الله تعالى ، ولم تعرض كتب الكلام المشهورة بين الناس الى صفى الحكمة والعدل . وإن كانت عرضت لعموم قدرة الله تعالى وسعة مشيئته ، فكان من آثار الإيمان ببعض الصفات دون بعض ذلك القول ، على أنه قد وجد في التكلمين من أنكروا عليهم ذلك الجواز ، لأنه يؤدي الى جواز أن ينسى الله تعالى حكمته ، ويدع عدله ، ويحال على الله أن يتجرد عن حكمته كما يستحيل عليه أن يعرض له نقص في قدرته أو مشيئته ، ويدل لذلك قول الله تعالى ( أفجعل المسلمين كالمجرمين » ٣٥ ) مالك كيف تحكون » ٣٦ » (١) .

ينكر عليهم أولا أن يسوى المسلم بالمجرم ، ثم يعقب بقوله [مالك] أى شئ جعلكم تنسون حكمة الله وعدله ، وهو في المعنى إعادة للإنكار ، ثم قال ( كيف تحكون ) تعجب من حكمهم بأن الله يجعل المسلم بالمجرم ، وإذا كان الله تعالى لم يجعل للناس يوما للجزاء إلا لاقامة العدل بين الناس ولم يرش أن يدعمه بدون جزاء ، لأن تركهم في معنى التسوية بين المسلم والمجرم ، والصلح والفسد ، فكيف نجوز على الله تعالى أن يحاسب الناس ويقف منهم ذلك الموقف الذي أنكروه على نفسه على فرض أنه ليس هناك جزاء ؟

فإنه تعالى لم يرش لنفسه أن يقف من خلقه موقفا سلبيا ، فيتركهم بلا جزاء لأن ذلك الموقف

السلبى مناف للعدل والحكمة ، وفيه تسوية بين المحسن والسيء ، فكيف يرضى أن يقف الله من خلقه موقفا إيجابيا ومحاسبا للناس على أساس غير عادل ، وقاعدة بعيدة عن الحكمة .  
وجلة القول أن الآيات تدلنا على أن الله تعالى أقام البرهان والدليل على أنه لم يخلق الناس عبثا ، ولم يتركهم سدى ، وأن ذلك مناف للحكمة ، ولاغنى لهم عن حياة وراء هذه الحياة ، ولو لم يكن هناك جزاء لكان ذلك تسوية بين الخبيث والطيب ، وللصلح والفسد ، تعالى الله عن ذلك ، وهى تدل بالفحوى على استحالة أن الله تعالى يجوز عليه أن يحاسب الناس ، ثم يقف منهم الموقف الذى لم يرضه لنفسه إذا هو لم يحاسبهم .

ومنه نعرف أن مقتضى الحكمة والعدل أن يحاسب الله الناس ، وأن يكون حسابهم على قاعدة العدل وأساس الانصاف ( ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أثبتا بها وكفى بنا حاسين « ٤٧ » ) (١) .

( ٩ ) ( كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ) .

أى هذا كتاب أنزلناه إليك كثير البركة والخبر ، لأنه يحمل فى طياته سعادة الناس وهدايتهم ويرشدهم الى خبرى الدنيا والآخرة ( ليدبروا آياته ) بيان للغاية من ذلك الكتاب ، وهو التفكير فى آياته والنظر فيما تؤول إليه من وعد ووعد ، وترغيب وترهيب ، ولم ينزل الله تعالى لنجعله تماشى وتواويز ، وكذلك لم ينزله لنقرأه على القبور ، وننشره بين اللقى ، وإنما أنزله للغة ، أنزله للذكرى ، والمسلمون ماداموا يقفون من القرآن هذه المواقف ، ولا يتخذونه إماما لهم ، فى أمره ونهيه ، وقائدا لهم فى إرشاده وتعاليمه .

مادام المسلمون على ذلك الحال فلا تقوم لهم قائمة ، ولا يرجى لهم حياة ، وقد ختم قصة داود بهذه الجلة لأن هذه هى الناية من ذكر قصة داود ، والذى يقرأ أول السورة يعرف ذلك ، وفيها فوق ذلك أن ذلك الكتاب الذى أنزله الله مباركا ليتدبر الناس ما فيه من معان ، وما حواه من حكم وأحكام ، دل فى جلته وتفصيله على أن جزاء الله فى الآخرة واقع ولا بد ، وأن ذلك الجزاء هو جزاء عادل حكيم . وقوله ( وليتذكر أولوا الألباب ) أى أصحاب العقول أى ليتعظوا بذلك الكتاب وينتفعوا بما فيه ، وهو يلفتنا إلى أن العرضيين عنه قد ألغوا عقولهم ، كما عطلوا أسماعهم ومواهبهم . ألا ترى إلى أهل جهنم يقولون وهم يصطرخون فيها ( لو كنا نسمع أو نعلم ما كنا فى أصحاب السعير « ١٠ » ) فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير « ١١ » ) (٢) .

فالمؤمن ينتفعون بالقرآن هم الذين حكوا عقولهم ، وانتفعوا بأسماعهم وأبصارهم ، والذين عطلوا مواهبهم الله من حواس ، وما منحهم من نعم هم الذين حرموا الانتفاع بالقرآن والاهتداء به .  
وقد ورد عن الحسن « قد قرأ القرآن عبید وصبيان ، لا علم لهم بتأويله ، وحفظوا حروفه ، وضيعوا حدوده ، حتى إن أحدهم ليقول : والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفا ، وقد والله أسقطه كله ، ما يرى للقرآن عليه أثر فى خلق ولا عمل ، والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده ، والله ما هؤلاء بالحكماء ولا الوزعة لا أكثر الله فى الناس مثل هؤلاء » اهـ .

ويظهر أن أكثر المسلمين اليوم هم أولئك العبيد والصبيان ، الذين لا علم لهم بتأويله ، إن حفظوا حروفه فقد ضيعوا حدوده ، وإن حافظوا على شكله فقد فترطوا في جوهره ، وإن حذقوا ألفاظه فقد أغفلوا معانيه ، وإن قال أحدكم : والله ما أسقطت منه حرفا واحدا فقد أسقطه كله ، ما يرى للقرآن عليه أثر في خلقه أو عمل ، فإن المسألة ليست حفظ حروف مع إضاعة حدود ، وقد أقسم الحسن أن هؤلاء مأمم بحكماء ولاوزعة عن الشر ، ودعا الله أن لا يكثر في الناس مثل هؤلاء .

وكان الحسن رحمه الله كان ينظر الى طائفة القراء في زماننا هذا وهو يقول كلمته :

وإن من يطلع على أحوال هذه الطائفة ، ولاسيما الذين عرفوا [بالصيتة]<sup>(١)</sup> يرى منهم من الخلق السيئ والسيرة القبيحة ما يبرأ منه القرآن ، تراهم يدعون الناس الى حسن الخلق وهم أسوء الناس خلقا ، وإلى ترك ما حرم الله وهم متعمسون فيه ، وإلى القناعة والرضا وهم أسوأ الناس نفوسا ، يدعون الناس الى الخوف من الله والخشية منه وهم أقى الناس قلبا ، يتلون كتاب الله لا يتجاوز حناجرهم ، ولم يصل الى قلوبهم ، ولا عجب فانهم لم يقرؤوه للصداية والعظة ، وإنما يقرؤونه للطرب والكسب .

وما نزل القرآن لطرب به السامعين ، أو تفكه به الحضور ، وإنما نزل ليكون إماما للناس ، يعرفون به كيف يعملون ويتعلمون منه كيف يصلحون دينهم ودنيائهم ، وكيف يعترفون على أعدائهم ، ويفتخرون على خصومهم ، وإن القرآن ما سجد به سلفنا الصالح إلا لأنه عكف على دراسة معانيه قبل دراسة ألفاظه ، وتفهم أغراضه قبل حلق كلمته ، كما ورد عن إحدى أمهات المؤمنين « كانت الآية تنزل علينا فنعرف حلالها وحرامها قبل أن نحفظ ألفاظها » .

اللهم وفق المسلمين لحفظ كتابهم ، وفقه الفرض منه ، وللعمل به في أنفسهم وبيوتهم ودولهم حتى يتبدل حالهم من شقاء إلى سعادة ، ومن ضعف إلى قوة .

( ١٠ ) ( ووهبا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب ) .

بعد أن قص الله علينا قصة داود ، عرفنا أنه وهب لداود سليمان ، ثم عرفنا قيمة هذه الهبة . وأنها هبة عظيمة فقال ( نعم العبد ) أي سليمان ، ثم عقب ذلك بقوله ( إنه أواب ) أي رجع إلى الله تعالى كما هو حال أبيه داود ، فهو يشبه أبيه في التقوى ، وهو يابن لسبب مدح الله له .

( إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب ردها علي فطفق مسح بالسوق والأعناق ) .

كلمة ( إذ ) ظرف لمخوف أي أذكر الوقت الذي عرض عليه فيه الصافنات الجياد ، والبراد أن يذكر هذه القصة ، وهي قصة عرض الخيل الجياد عليه كما هي عادة الملوك الذين يهتمون بما عندهم من مظاهر القوة ، ويستعرضونها ليتعرفوا قيمتها ، ليكون ذلك الاستعراض تفقدا لها ، ومظهرا من مظاهر فضل الله تعالى ، وإرهابا للعدو . وقوله ( بالعشي ) بيان للوقت الذي عرضت فيه الخيل .

( فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي ) أي قال سليمان عند عرضها عليه إني أحببت

[١] الذين اتخذوا قراءة القرآن حرفة يتبعثون بها .

حب الخير حبا ناشئا عن ذكر ربى ، فكلما ذكرته ذكرت فضله وإحسانه ، فان أحبتها فذلك لأنى أحب مصدرها ، وان تعلقت بها فن هذه الجهة .

أو إني أحبيت حب الخير الذى منه هذه الخليل لأجل أن أذكر بها ربى ، فأنا أحبها لأمر الله وتقوية دينه ، ولا أحبها لأجل الدنيا ونصيب النى .

يرينا نبى الله داود أن ذلك هو الذى يبنى للؤمن كلما أحب شيئا فى هذه الحياة ، يبنى له أن يحبه لأنه يهينه على ذكر الله تعالى وشكره ، ويساعده على إقامة دين الله وإعلاء شأنه ، فإذا أوتى ولما أحبه طمعا فى أن يكون له من ذلك الولد الفرية الصالحة ، التى تعبد الله تعالى وتشكره ، وإذا أحب جاهها أو نفوذها يحبه لأنه يستعين به على نصر الضعيف ، وإغاثة اللهوف ، وإذا أحب علما أحبه لأنه طريق لفشر الفضيلة ومحاربة الجهالة ، وإذا أحب مركزا من مراكز الحياة أحبه لأنه يمكنه من الإصلاح ، ويساعده على ما يحبه الله تعالى ويرضاه .

والمراد أن نبى الله سليمان لم يفتن بذلك المال الذى أعطاه الله ، بل كان يشهد فيه دائما مصدرة ومنشأه ، ويقرأ فى صفحاته واهبه ومانحه ، فلم يبطره المال يوما ما ، ولم ينسه أن يشكر ربه عليه ، ويحفظ له فضله وإحسانه ، وذلك مكان العبرة من قصة الخليل (حتى توارت بالحجاب) غاية لقوله (إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد) .

والترض أن الخليل لما عرضت عليه أجروها أمامه ليعتوها للزوا ، وما زالت كذلك حتى غابت عن بصره ، ثم أمر بردتها إليه ، فأخذ يسمح سوقها وأعناقها تشرىفا لها ، لكونها للجهاد ، والجهاد من أعظم أمور الدول ، وليأشرا الأمور بنفسه ، ليقتردى به الوزراء ورجال الدولة ، وكذلك كان صلاح الدين الأيوبي ، كان ينقل الأحجار بنفسه فى بناء الأسوار أيام الحروب الصليبية .

(١١) (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب) .

للفسرين روايات كثيرة فى فتنة سليمان وبيان المراد بها : منها ما لا يتفق ومركز سليمان عليه السلام ، ومنها ما هو ضعيف من جهة سند وروايته ، وان كان صالحا فى جلته أن ينسب الى سليمان . ومن ذلك ما روى أن سليمان عليه السلام قال « لأطوفن الليلة على سبعين امرأة من نساء نأتى كل واحدة بفارس يجاهد فى سبيل الله ، ولم يقل ان شاء الله ، فطاف عليهم فلم تحمل إلا امرأة جاءت بشق رجل ، فو الذى نفس محمد بيده لو قال : ان شاء الله لجاهدوا فرسا » .

فهذا قوله (ولقد فتنا سليمان) ابتليانه (وألقينا على كرسيه جسدا) هو شق الطفل المذكور جى به على كرسيه (ثم أناب) رجع الى الله مما فعل وهو أنه لم يقل ان شاء الله ، والأنبياء يحاسبون على ما لم يحاسب عليه سواهم لشدة قربهم من ربهم .

وحديث طواف سليمان على نسائه وإغفاله للشيئة صحيح من جهة سنده ، وان كان غريبا فى معناه ، ولكن اعتباره تفسيراً لآية لم يصح .

وهذا صاحب [فتح البارى] يقول بعد أن ساق حديث طواف سليمان على نسائه : [حكى النقاش فى تفسيره أن الشق المذكور هو الجسد الذى ألقى على كرسيه - والنقاش : صاحب مناكير] اه .

وكثير من المفسرين يقع في ذلك الخطأ الذي وقع فيه النقاش ، فيفسر الآية بحديث قد يصح في نفسه ، ولكن لم يثبت أنه تفسير للآية ، ويبان لها ، وليس كل ما صح من الأحاديث يصح تفسيراً .

وقد اختار الفخر في بيان فتنة سليمان وجوها : أمثلها الوجه [ الثالث ] وهو أن الله فتن سليمان بسبب مرض شديد ألقاه الله عليه وألقى على كرسيه منه جسداً لشدة المرض ، والعرب تقول في الضعيف : انه لحم على وضم ، وجسم بلا روح ( ثم أناب ) رجع الى الصحة . و [ الرابع ] وهو أن الله ابتلاه بتسليط خوف أو توقع بلاء من بعض الجهات عليه ، وصار بسبب قوة ذلك الخوف كالجسد الضعيف للملقى على ذلك الكرسي ، ثم أزال الله عنه ذلك الخوف ، وأعادته الى ما كان عليه من القوة وطيب القلب .

أما قوله ( رب اغفر لي ) فوجهه : أن الانسان لا ينفك ألبتة عن ترك الأفضل والأولى . وحينئذ يحتاج الى طلب المغفرة . لأن حسنات الأبرار سيئات القربين . ولأن الأنبياء أبداً في مقام هضم النفس و اظهار النلة والخضوع . كما قال صلى الله عليه وسلم : إني لأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة . ولا يبعد أن يكون المراد من هذه الكلمة هذا المعنى . والله أعلم .

وقد عرض الفخر لوجوه أخرى في الفتنة كما عرض غيره من المفسرين . فنضرب عنها صفحاً لأنها لاتهم القارئ . ولا تتفق مع مركز سليمان الذي قال الله فيه ( ثم العبد انه آوآب ) . أما تفسير الفتنة بالمرض فهو معقول ، لأن المرض الذي يحل بالانسان في هذه الحياة ابتلاء من الله تعالى ، واختبار للعد ، وكذلك تسليط خوف أو توقع بلاء من بعض الجهات ، ولا سيما اذا كان الخوف شديداً فإنه يجعل صاحبه جسداً لاروح فيه ولا حراك به ، وان كانت كلمة ( أناب ) قد كثرت استعمالها في الرجوع الى الله من الذنب ، ولكن المعنى الأول للكلمة هو الرجوع . قال الراغب : الوب رجوع الشيء مرة بعد أخرى ، يقال ناب نوباً ونوبة ، وسمى النحل نوباً لرجوعها الى مقارها ، وابتة نائبة : أى حادثه من شأنها أن تنوب دائماً ، وفلان يقناب فلاناً : يقصده مرة بعد أخرى اه . فلا مانع أن يفسر ( أناب ) بمعنى رجع الى صحته ، أو أمنه الذي كان عنده . أما حديث الفخران فقد تكفل الفخر بالإجابة عنه ، ونستطيع أن توجه طلب الفخران بوجه آخر ، وهو أن المرض الذي حلّ بنبي الله سليمان قد يكون ناشئاً عن تقصير كما يقع لبعض الناس الذين يفرطون في صحته ، أو يسرفون في أعمالهم المجهدة المضنية ، فإذا حلّ بالانسان مرض ، وكان له دخل في حلول ذلك المرض تنبه الى الخطأ الذي وقع فيه ، وطلب من الله المغفرة ، لأن الله أوجب عليه أن يحفظ صحته ، ويحول بينها وبين الأمراض ، ولا سيما إذا كانت صحة نبي من الأنبياء ، أو ملك من ملوك الأرض الصالحين . فإذا مرض فقد مرضت المملكة جميعها . وإذا سلم سلم الناس عامة .

ومثل ذلك يقال في ابتلاء الله له بتسليط خوف أو توقع بلاء . فقد يكون له يد في تسليط ذلك الخوف أو توقع البلاء ، بسبب تقصير في حياطة الملك ، أو اغفال لتحسين البلاد . فسلط الله عليه

ذلك الخوف ابتلاء له واختبارا ، وليكون ذلك الابتلاء تعلما له ودورا نافعا في الحياة ، حتى لا يقع في ذلك التقصير مرة أخرى .

ومنه نستطيع أن نفهم كلمة [ أناب ] وهو أنه رجع الى الله وأحسن ذلك التقصير الذي وقع منه من جهة محبته ، أو من جهة ملكته .

(قال رب اغفر لي) أى مافرط مني مما سبب لي ذلك للرض أود ذلك الخوف ، أو اغفر لي ما بين شأنه أن يكون من مخالفة الأفضل وترك الأولى .

(١٢) (وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي انك أنت الوهاب) .

قدم طلب للمغفرة على طلب الملك ، لأن مهام الدين فوق مهام الدنيا ، ثم طلب من الله ملكا لا يصلح لأحد من بعده لعظمته ، أو لاستطاع أحد أن يسلبه مني بعد هذه الفتنة ، أو لا يقبله لغيري من البشر : بأن يكون معجزة لي ، ودليلا على صدقي ونيوتي .

( انك أنت الوهاب ) تهب الملك والنبوة لمن نشاء ، وقد أحب أن يخصه الله بخاصية ، كما خص أباه داود بالآلة الحديد ، وعيسى بأحياء الموتى .

وقد روى الشيخان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ان عمرينا من الجن نعلت على الباردة ليقطع صلاتي ، فأمكنني الله منه ، فأخذته فأردت أن أربطه الى سارية من سواري للمسجد [عمود] حتى تنظروا إليه كلكم ، فذكرت دعوة أخى سليمان - رب اغفر لي - وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي - فرددته خائفا » .

(فسخرناه الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب) أى أجاب الله دعوته ، وأعطاه سلطانا لم يعطه لأحد من بعده من الرسل ، وأول شيء من السلطان سلطانه على الريح ، وقدرته عليه . فجعله يجري بأمره حيث قصد ، وأنى أراد ، ووصف الريح بأنها رخاء : أى لينة للإشارة الى أن هذه الريح التي جعلها الله عاصفة شديدة قد ألانها ولطفها لئيبه سليمان ، فصارت رخاء تسير به . ونحت سلطانه الى المكان الذي يقصد ، وقد وصف الله سرعته في سورة سبأ بقوله ( غدرها شهر ورواحها شهر ) .

(والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الأصفاد) أى وسخر الله له الشياطين ومهم الباء ، والغواص الذي يستخرج الأؤلؤ من البحر ، وسخر آخرين من حمرة الشياطين بقرن بعضهم مع بعض في القيود والسلاسل للتأديب والكف عن الفساد . والصفد : القيد ، وربما كانت الأصفاد تمثيلا لكف شرهم وجلبهم حينا يناسب أجسامهم النارية .

(هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بنيرحساب) أى هذا الذي أعطيناك من الملك والمال والبسطة عطاؤنا ، فأعط منه ما شئت ، من المنة . وهى العطاء (أو أمسك) عن العطاء (بنيرحساب) حال من (عطاؤنا) أى هو عطاء كثير لا يكاد يقدر على عدّه (وان له عندنا لزلقى وحسن ما أب) ، أى ذلك عطاؤنا إياه في الدنيا ، وله عندنا فوق ذلك الخطوة وحسن الرجوع ، وهو الجنة ، ولله إكثني ثمته عن أن يقول قد أجنا دعوته بطلب المغفرة . لأن من له عند الله الخطوة وحسن الرجوع هو مغفور

الذنوب . ويلفتنا بالسكوت عن غفران ذنبه الى أنه لم يكن هناك ذنب لسلطان كدنوب عامة الناس ، وانما هو ظن منه واحتياط كظن داود ، فاستغفر لذلك ربه فغفر الله له .

## دعوة عيسى

إلى الله تعالى

إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُكَ إِنَّ اللَّهَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ «٤٥» وَيَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ «٤٦» قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ «٤٧» وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ «٤٨» وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ <sup>(١)</sup> وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبَشِّرُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ «٤٩» وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَحِلَّ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا <sup>(٢)</sup> «٥٠» إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ «٥١» فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْيَهُودُ «٥٢» نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ «٥٣» رَبَّنَا ءَامِنَّا





وهو يصدق بالآيات المتعددة .

ثم سرد الآيات فقال ( أنى أخلف لكم من الطين كهية الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا باذن الله ) وهو اخبار من الله تعالى أن أعطاه ذلك السر ، وهو أن يصور من الطين كهية الطير فينفخ في هذه الصورة فيكون طيرا ، ويرى الأكمة والأبرص ويحيى الموتى ، وقوله ( باذن الله ) أى بتيسيره وإعانه ، لا بقدرته عيسى ولا بكسبه ، لأن ذلك شأن الآيات التى يؤيد الله تعالى بها رسله .

وقد امتنع الله تعالى على نبيه عيسى عليه السلام بهذه النعم إذ يقول ( إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك روح القدس تكلم الناس فى الهدى وكهلا وإذ علمت الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل وإذ تخلفت من الطين كهية الطير باذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا باذنى وتبرى الأكمة والأبرص باذنى وإذ تخرج الموتى باذنى « ١١٠ » ) (١) والظاهر من ذلك الامتان وقوع هذه الآيات ، وقوله ( وأنتكم بمائنا تكون وما تدخرون فى بيوتكم ) فالمراد أن فى استطاعتى أن أخبركم بخاصة أمركم التى لا يعلمها سواكم وهى أقول آيات عيسى عليه السلام ، وقد أعطاه الله لمن دون الأنبياء .

ثم عقب ذلك كله بقوله ( ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين ) فيه علامة واضحة على صدق عيسى فيما يخبر به عن الله تعالى ، ان كنتم مؤمنين انتفعتم بهذه الآيات واعتبرتم بها ، ( ومصداقا لما بين يدي من التوراة ) أى وسرسلنى الله مصداقا لما بين يدي من كتاب التوراة التى أنزلها على موسى ، فهى تعتبر شريعة له كما كانت شريعة لموسى ( ولأحل لكم بعض الذى حرّم عليكم ) فقد كان حرّم على بنى اسرائيل بعض الطيبات بظلمهم وكفرهم فأحلها عيسى ، وهو نسخ لبعض أحكام التوراة الفرعية ( فاقفوا الله وأطيعون ان الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ) ذلك من تمام البشارة : أى وسأقول لهم بعد هذه الآيات : اقفوا الله وأطيعون فانه ربى وربكم ، فاعبدوه وحده ، هذا صراط مستقيم لا عوج فيه ولا أمت .

( ٢ ) ( فلما أحسن عيسى منهم الكفر ) الخ انتقال من البشارة بعيسى عليه السلام الى ذكر خبره مع قومه ، وطوى القرآن ما بينهما من خبر ولادته ونشأته وبشته مؤيدا بتلك الآيات ، وهو من اجتاز القرآن الذى قرئ به ، وكأنه يقول : فلما ولد عيسى وتربى وبش ، وأحسن من قومه الكفر ( قال من أنصارى الى الله ) الخ : أى فلما شعر عيسى من قومه بنى اسرائيل الكفر والعناد والمقاومة ، والتصد بالأيذاء ، توجه بالبحث عن أهل الاستعداد الذين ينصرونه فى دعوته منخلين عما كانوا فيه ، منزوين الى الله ، منصرفين الى تأييد رسوله ونصره على خذليه .

وجدير بكل من يدعو الى الله ويحسن من قومه ذلك الاحساس أن يبحث عن القوم الذين يشاركونه فى العقيدة ، ويعتقون معه الاسلام حتى يتصبر بهم على من عداهم ، ويؤمن بهم كيد الكائدين ويطش الباطنين ، وحتى يكونوا حرا به يأمنهم ويأمنونه ، ويسارروهم ويساررونه ويتشاورون معهم فى كل خطوة يخطوها وكل عمل يقوم به ، وقد يطلق الانسان عدوه ناصر له فى دين الله فيخذله عند حاجته الى النصر ، لذلك كان من الحزم تحسس ذلك النوع من الأنصار ،

والوقوف على جلية أمره ، حتى إذا جهدتهم السدائد ولعبت بهم الفتن كانوا كالجبال نباتا وقوة ، والله ما أحلى هذه الكلمة ، وما أربطها على قلوب المؤمنين حينما يوجهها لهم رسول من رسل الله كعيسى عليه السلام (من أنصاري إلى الله ؟) أنها تهز القلوب إلى الله هزاً ، وتحركها إلى مولاهم وخالقها ، وترى السمع لها أن رسل الله لم يكن لهم حظ من الدعوة سوى أن يصدعوا بأمر ربهم ، وينصاعوا لنصرة خالقهم ، ولم يطلبوا الناس ليؤدوا لهم عملاً يعود نفعه على شخصهم بحسب ، وإنما يدعون الناس ليحببوا داعي الله ويصلحوا في الأرض ، وكان على الناس أن تظن مثل ذلك ، ولكن العناد غلب عليهم ، والتقاليد طمست على قلوبهم .

(قال الحواريون نحن أنصار الله) قد انحازنا من تقاليدنا القديمة ، وأخذنا بتعليم عيسى عليه السلام ، وبذل منتهى الطاعة في تأييده ، فإن نصر الله لا يكون إلا بذلك ، قيل لفظ الحوارى مأخوذ من الحوارى [بضم الحاء وتشديد الواو] وهو لباب الدقيق وخالصه لأنه من خيار القوم ونصوتهم ، وفي حديث الصحيحين « لكل نبي حوارى وحوارى الزبير » ومن هنا قيل هو خاص بأنصار الأنبياء (آمنوا بالله واشهد بأنا مسلمون) مخلصون له منقادون لأمره ، وفي الآية دليل على أن الاسلام دين الله على لسان كل نبي وإن اختلفوا في بعض صوره وأشكاله ، وأحكامه وأعماله (ربنا آتينا بما أنزلت اتبعنا الرسول فاكفنا مع الشاهدين) صدقنا بما أنزلت من الإنجيل بعد تصديقنا بك ، واتبعنا الرسول عيسى ابن مريم عليهما السلام ، وقد أضافوا إلى الإيمان العمل لأنه أثره ونتيجته ، وبرهانه الذى يدل عليه ، كما قال (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم «٣١» (١)) (فاكفنا مع الشاهدين) للرسول ببليغ الدعوة ، وعلى قومه بما كان منهم من الكفر والجحود .

(٣) (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) دبوا قتل عيسى عليه السلام خفية ، ودبر الله نجاته من حيث لم يحتسبوا ، فكان مكر الله خيراً من مكرم ، لأنهم دبوا للشر ، والله تعالى دبر للخير ، فأنما يدبر لأقامة السنن وأتمام الأحكام ، وكأها خبر في نفسها ، أما مكرم فكان سيئاً ، وإن كان للسكر في نفسه فيه الحسن والسيء ، ولذلك يقول (استكباراً في الأرض ومكر السيء ولا يخفى السكر السيء إلا بأهله «٣٣» (٢)) (إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعتك إلى ومطهرتك من الذين كفروا) أى مكر الله بهم ، إذ قال لنبيه (إني متوفيك) قيل معناه مستوفى أجلك ، ومعناه أنى عاصمك من أن يقتلك الكفار ومؤخرك إلى أجل كتبته لك ويميتك حتف أفك ، لا قتلهم بأيديهم (ورافعتك إلى) إلى سمائي ومقر ملائكتي (ومطهرتك من الذين كفروا) من سوء جوارهم وخبث صحتهم . وقيل متوفيك قابضك من الأرض . وقيل : يميتك في وقتك بعد النزول من السماء . ورافعتك الآن ، والمراد أن الله تعالى لا يسلط الكفار عليه فيقتلوه وسيهدم عليهم مكرم (ويجعلن الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة) هي فوقية روحانية دينية ، وهي كونهم أحسن أخلاقاً وأكمل آداباً وأقرب إلى الحق والفضل .

ثم بعد ذلك قال إن مرجع الجميع إلى الله تعالى وهو الذى سيحكم بينهم فيما اختلفوا فيه فيعطى

كلّ فريق جزاءه (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم) الخ .

بعد أن بين خلق عيسى وبجئته بالآيات وما كان من أمر قومه معه كشف لنا شبهة للفتونين خلقه على غير السنة المعتادة والمهاجين فيه بغير علم فقال (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم) صفة في خلق الله إياه على غير مثال سابق كصفة آدم في ذلك ، ثم فسر ذلك المثل بقوله (خلق من تراب) قدر أوضاعه وكوّن جسده من تراب حيث أصابه الماء فكان طينا لازبا فيه لزوجة (ثم قال له كن فيكون) كونه تكوينا آخر بنفخ الروح فيه : أى ثم قال له كلمة التكوين التي تنأف من (كن فيكون) فهل يعزّ على صاحب هذه الشبهة أن يخلق عيسى من غير أب ؟ (الحق من ربك) أى ذلك هو الحق الذى لا شك فيه من ربك (فلا تكن من المترين) بعد بيان الله تعالى .

### عيسى عليه السلام

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ «٧٢» لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمِمَّنْ إِلَهٌ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ «٧٣» أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ «٧٤» مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ «٧٥» الثامنة

### شرح وعبرة

(١) (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم) الخ .

قد كانت عقيدة التثليث شائعة عند البراهمة الهند والبوذيين ، وقدماء المصريين ، وبعض الفرس ثم انتقلت من البراهمة والبوذيين ، وقدماء المصريين إلى النصارى ، أما كتب العهد القديم والجديد فلا يوجد فيها ما يصلح أصلا لهذه العقيدة الوفية ، بل وجد في الأناجيل ما يدل على التوحيد الخالص . وقد اختلف المفسرون في أبه هل كان يوجد في النصارى فرق ثلاثة : فرقة تقول : إن الله هو

السيح ، وأخرى تقول : إن الله ثالث ثلاثة فيها السيح ، وثالثة تقول : للسيح ابن الله ، وأهـى فرقة واحدة تقول : إن هناك أقانيم ثلاثة ، وأن كل واحد منها عين الآخر ، فالآب عين الابن ، وعين روح القدس .

ولما كان السيح هو الابن كان عين الآب وعين روح القدس ، فذهب ابن جرير إلى أن الذي كان عليه جواهر النصارى قبل أن يفرقوا إلى بقوية وملكانية ونسطورية أن الإله القديم جوهر واحد يمّ ثلاثة أقانيم : أباً والداً غير مولود ، وابناً مولوداً غير والد ، وزوجاً متبعة لهما ، وأن الذين يقولون : إن آلهتهم ثلاثة هم غير الفرقة التي تقول : إن الله هو السيح ابن مريم . وأن فرقة ثالثة تقول : إن السيح هو ابن الله ، وليس هو الله ولا ثالث ثلاثة .

وكلام ابن جرير يظهر أنه حقّ في متقدمى النصارى ، أما متأخروهم فاتهم يقولون بالأقانيم الثلاثة ، وأن كل واحد منها عين الآخر ، فإذا قال الله تعالى ( لقد كفر الذين قالوا إن الله هو السيح ابن مريم ) كان منطبقاً عليهم ، لأنهم قائلون باتحاد كل أقنوم مع غيره من الأقانيم ، وإذا قال ( لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ) كان كذلك ، لأنه ثالث أقانيم ثلاثة ، وإذا قال : إن النصارى قالت ( للسيح ابن الله ) كان ذلك حقاً .

والقرآن يرينا أنهم كفروا بكلّ فرية من هذه المفتريات وأشركوا ، كفروا بآدعائهم اتحاد الله مع عيسى ، وادّعائهم بقوة عيسى عليه السلام لله تعالى ، وادّعائهم أن الله ثالث ثلاثة فيهم عيسى ولذلك عقب قوله ( لقد كفر الذين قالوا إن الله هو السيح ابن مريم ) بقوله ( وقال السيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ) وعقب قوله ( لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ) بقوله ( وما من إله إلا الله واحد ) .

فكلّ هذه الأقوال ناقضة للتوحيد مقتضية للكفر ، وهو ما عليه مذاهب نصارى اليوم حتى [ البروتستانت ] الذين أصلحوا النصرانية منذ ثلاثة قرون ، والذين لم يستطيعوا أن يردوا النصرانية إلى أصلها من التوحيد الصحيح ، ولا يزالون يقولون بألوهية السيح ، وبالتثليث . ويعتدون الموحّد غير مسيحى ، كما يقول بذلك الفرقتان الأخريان الكبيرتان من فرق النصارى - وهم : الكاثوليك ، والأرثوذكس ، لجميع فرق النصارى فى هذا العصر تقول : إن الله هو السيح ابن مريم ، وأن السيح هو الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

والتثليث عند النصارى عقيدة يخطب فيها جهلاًؤهم ويتحير علماءؤهم ، ثم يفتنون إلى الاعتراف بأنهم يعتقدون ولا يفهمون ، ويكفون بها اللاس ولا يستطيعون إقناعهم بها ، وسأذكر لك قصة من كتاب [ إظهار الحق ] لرحمة الله الهندي يقول فيها : تنصر ثلاثة أشخاص ، وعلمهم بعض القسيسين عقيدة التثليث ، وكانوا فى خدمة القسيس ، فجاء محبّ من أحياء هذا القسيس ، وسأله عن تنصره فقال : ثلاثة أشخاص تنصروا . فسأل هذا المحبّ هل تعلموا شيئاً من العقائد الضرورية فقال : نعم . وطلب واحداً منهم ليرى صاحبه ، فسأله عن عقيدة التثليث فقال : انك علمت أن الآلهة ثلاثة ، أحدهم الذى فى السماء ، والثانى تولد من بطن مريم العذراء ، والثالث الذى نزل فى

صورة الحمار على الاله الثاني بعد ماضا ابن ثلاثين سنة فغضب القسيس وطرده ، وقال هذا مجهول ثم طلب الآخر منهم وسأله فقال : انك علمتني أن الآلهة كانوا ثلاثة ، وطلب واحد منهم ، فالباقى إلهان ، فغضب القسيس عليه أيضا وطرده ، ثم طلب الثالث وكان زكيا بالنسبة للأولين ، وحرىسا في حفظ العقائد ، فسأله ، فقال : بامولاي حفظت ما علمتني حفظا جيدا ، ونهمت فهما كاملا بفضل الرب المسيح ، ان الواحد ثلاثة ! ! والثلاثة واحد ! ! وطلب واحد منهم ومات ، فأت الكل لأجل الاتحاد ، ولا اله الآن ، وإلا يلزم نفي الاتحاد اه .

قال الشيخ رحمة الله الهندي : لا تقصير للمستولين ، فان هذه العقيدة يحبط فيها الجهلاء هكذا ويتحير علماءهم ، ويعترفون بأننا نعتقد ولا نفهم ، ويعجزون عن تصويرها وبيانها اه وهكذا الباطل لا يفسد العقول ، ولا ينطمئن له النفوس ، ولا يستطيع صاحبه أن يقيم عليه برهانا .

(٢) (ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) ماهو إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله ، يجري عليه ما يجري عليهم ، قد جاء بآيات من الله كما جاءوا ، فلم يكن إله ولا جزء من الاله ، فأمر عيسى عليه السلام محصور في الرسالة لا يتعداها الى الالهية بحال من الأحوال (وأما حقيقة كانا يا كلان الطعام) وأما من الأسماء السديقات المصطفاة ، لأن تكون أمنا لعيسى كما قال ( وإذ قالت الملائكة يا مريم ان الله اصطفاك وطهرتك واصطفاك على نساء العالمين «٤٣» (١) ) .

وتأمل الكناية المؤدبة في قوله ( كانا يا كلان الطعام ) ومن كان كذلك كان عبدا تجري عليه نواميس العبد ، فمن الخطأ اتقاده إلهما ، لأن الاله غنى ، وعيسى وأمه محتاجان الى الطعام والشراب ، ولا يجتمع ألوهية واحتياج ، ( انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون ) تعجيب للنبي صلى الله عليه وسلم أول لكل من يتأتى منه النظر لهؤلاء القوم بين لهم الله آياته واضحة ، دالة على وحدته وقدرته . ثم هم مع ذلك يصرفون عن الحق بعد البيان الواضح .

### عيسى عليه السلام

إِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْنَاكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ حَاطِرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ نُخْرِجُ الْمُوتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ

هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ «١١٠» وَإِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي  
قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ «١١١» إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ  
يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ  
مُؤْمِنِينَ «١١٢» قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا  
وَنَكُونَ عَلَيْنَا مِنَ الشَّاهِدِينَ «١١٣» قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ  
عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا  
وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ «١١٤» قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ  
مِنْكُمْ فَأَني أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ «١١٥» وَإِذْ قَالَ اللَّهُ  
يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ الْهَيْئَةَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ  
سُبْحَنكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ  
مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلمُ الْغُيُوبِ «١١٦» مَا قُلْتُ  
لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا  
مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ  
شَهِيدٌ «١١٧» إِنْ تَعَذَّبْتَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ  
الْحَكِيمُ «١١٨» المائدة

### شرح وعبرة

(١) يذكر الله تعالى نبيه عيسى عليه السلام نعمته عليه وعلى والدته مريم إذ أيدته بروح  
القدس ، وهو جبريل عليه السلام لأنه الملك الذي يؤيد الله تعالى به رسوله بالتعليم الإلهي والتثبيت  
في المواطن التي من شأن البشر أن يضعفوا فيها . قال تعالى في شأن القرآن (قل نزله روح القدس  
من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبنرى للمسكين «١٠٢» (١) وكان كلامه في الهدى  
والكهوة نعمة على والدته لأنه برأها بذلك القول من كلام الآئمين الذين أنكروا عليها أن يكون

لها غلام بدون أب ، أما كونه نعمة عليه فظاهر ، فن كلامه في الهدى ( انى عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا » ٣٠ ) وجعلني مباركا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا » ٣١ ) وبرأ بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا » ٣٢ ) ( ١ ) .

أما كلامه كهللا فهو كلامه بعد الرسالة وأقامته الحجة على خصومه وأعدائه ( وإذ علمتكم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ) يذكره بنعمته عليه بتعليمه الكتاب ، والمراد به ما يكتب أى علمتكم قراءة الكتاب : أى ما يكتب ، أو علمتكم الكتابة بالقلم . ووقفتم لتعلموها ( والحكمة ) هي العلم الصحيح الذى يبعث الإرادة الى العمل النافع ، بما فيه من الاقناع والعبرة ، والبصيرة وفقه الأحكام . والتوراة هي الشريعة الموسوية .

ومنه تعلم أن التوراة كانت شريعة لعيسى عليه السلام ، كما كانت شريعة لموسى قبله . والإنجيل : ما أوحاه الله إليه من الحكم والأحكام والبشارة بخاتم الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وجعل هذه النعم قسما مستقلا وفصلها بكلمة ( إذ ) لأنها نوع آخر من النعم يتخالف النوع السابق . إذ كان النوع السابق انعاما على نبي الله عيسى وعلى أمته ببراءتها من الفاحشة التى رماها بها الأفاكون ، أما هذه فهي نعم ترجع الى تعليم الله تعالى له الكتابة والعلم النافع ، وشريعة التوراة وكتاب الإنجيل .

( وإذ تخلق من الطين ) الخ انتقال الى نوع آخر من النعم وهو نعمته عليه بالحواريق والمعجزات . والخلق في أصل اللغة التقدير ، وجعل الشيء بمقدار معين ، يقال خلق الاسكافى النعل ثم فراه : أى عن شكله ومقداره ثم قطعه . قال الشاعر :

ولأن تفرى ما خلقت و به \* ض القوم يخلق ثم لا يهرى

يريد إذا قدرت شيئا وأعددت أمشيته ولم ترد فيه ، وبعض القوم يقدر ثم لا ينفذ ما أراد . وللمعى اذكر نعمتي عليك إذ تجعل قطعة من الطين مثل هيئة الطير في شكلها ومقادير أعضائها فتنفخ فيها بعد ذلك فتكون طيرا باذن الله ومشيته ، أو بفسيله وتكوينه ، فأنت تفعل التقدير والنفخ والله هو الذى يكوّن الطير ، و ( الأككه ) من ولد أعمى ، ويطلق على من عمى بعد الولادة واخراج المولى أحيائها ، وقد صرح بذلك في آية آل عمران ، وكرر كلمة ( باذن ) عقب كل معجزة حتى لاتنسى أن هذه المعجزات ليست من صنع عيسى عليه السلام بل هي من صنع الله تعالى على يد رسوله شأن سائر المعجزات ( وإذ كففت بنى اسرائيل عنك ) الخ انتقال الى نعمة أخرى وهي جهابته من بنى اسرائيل عند ما أرادوا قتله وصلبه ، وكان ذلك الذى أرادوه في الوقت الذى حاءهم فيه بالآيات الواضحة الدالة على صدقه في دعوى الرسالة ، فقال الكافرون منهم ان الذى جاء به من المعجزات هو من جنس السحر ، والتمويه الذى يرى الشيء على خلاف حقيقته .

( ٢ ) ( وإذ أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بى ورسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ) يذكر فيه عيسى عليه السلام بنعمة أخرى عليه : هي إلهامه الحواريين الإيمان به ورسوله عيسى وتوفيقه لهم لذلك الإيمان - في الوقت الذى كذب فيه جمهور بنى اسرائيل ، فجعل الحواريين



أنصاره يؤيدون حجته ، ويفشرون دعوته ، والحواريون جمع حوارى ، وهو من نخلص لك وأخلص سرا وجهرا في مودتك ، وقيل (أوحيت الى الحواريين ) أنزلت على أنبيائهم أطالهم بالإيمان في ورسولى ، فأجابوا داعى الله تعالى وقالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون : مدعون لما يترتب على الإيمان من الأجر والنهى ، وقد حكى الله عنهم في سورة آل عمران والصفه أنهم حين قال لهم المسيح (من أنصارى الى الله) قالوا (نحن أنصار الله) .

( إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ) أى هل يرضى ربك ويختار أن ينزل علينا مائدة من السماء إذا نحن سألناه أو سأله لنا ذلك ؟ والمائدة : الخوان الذى عليه الطعام .

( قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ) أى قال عيسى لهم : اتقوا الله أن تقترحوا أمثال هذه الاقتراحات التى كان سلفكم يقترحها على موسى ، لئلا تكون فتنة لكم ، فان من شأن المؤمنين الصادق أن لا يجرب ربه باقتراح الآيات ، أو أن يعمل ويكسب ، ولا يطلب من ربه أن يعين بخوارق العادات ، وعلى غير السان التى جرت عليها معاش الناس (قالوا نريد أن نأكل منها) الخ : أى نحن نطلبها لأننا فى حاجة إلى الطعام ، أو نريد أن نأكل منها أكل تبرك ، ونريد أن تطمئن قلوبنا بمشاهدة خرق الله تعالى للعاده ، فنضم علم الشهادة إلى علم النظر والاستدلال ، ونمل هذه المشاهدات أن قد صدقتنا فيها وعدتنا من ثمرات الإيمان كاستجابة الدعاء ولو بخوارق العادات . وأن نكون من الشاهدين على هذه الآية عند بنى إسرائيل ، فيؤمن المستعد للإيمان ، ويزداد الذين آمنوا إيمانا .

ذلك كله على القول بأن الحواريين بقوا على إيمانهم بعيسى عليه السلام ، وأن الطلب كان بحسن نية ، فلم يكن تعنتا منهم ، ولا إحراجا لعيسى باقتراح آية المائدة ، ويكون قول عيسى عليه السلام لهم ( اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ) تذكرا لهم بآثار الإيمان وثمرته . وهى أنهم لا يقترحون على الرسول آيات . وانما يكتفون بما أيد الله به رسوله .

أما إذا قلنا إنهم آمنوا بآدى الأمر بعيسى إيمانا سوريا وقالوا : نحن أنصار الله ، ثم كفروا بعيسى بعد ذلك باقتراح الآيات كما كان يقترحها كفار قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما حكاه الله عنهم فى سورة الاسراء (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا « ٩٠ » أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها فتجيرا « ٩١ » أو تنشق السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله واللآلئ كقبلا « ٩٢ » أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا « ٩٣ » ) . وكما حكاه الله عنهم فى سورة الفرقان (وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا اللآلئ أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا « ٢١ » ) .

إذا كان أولئك الحواريون من ذلك الصنف اللعننت تعين أن يكون وحى الله للحواريين بالإيمان مطالبتهم به من طريق الرسل ، ويكون قولهم ( آمنا ) فى أول أمرهم ، أو قول نفاق وملق وتعين أن يكون النرض من القصة تذكيره بنفاق قومه معه . وإحراجهم له حينما سأله مائدة

من السماء ، والشأن في الموائد أن تطلب من الأرض لامن السماء ، وأن الله تعالى أجابهم إلى المائدة ليقطع أعذارهم ، ويخلص رسوله من إعتابهم إياه ، أو أنه أجابهم إلى ذلك الطلب بشرط ، وهو أن من يكفر بعد نزول المائدة يعذبه الله عذابا لم يعذبه أحدا من الناس ، فلما رأوا ذلك الشرط وعرفوا أنهم لا قبل لهم بالعذاب أعرضوا عن طلب المائدة . وقالوا لاجابة لها على ما يأتي من آراء العلماء في المائدة التي اقترحها أصحاب عيسى عليه السلام .

(٣) (قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء) الخ .

طلب عيسى من الله تعالى إزال المائدة ، فتداه بهم القات الجامع لمعنى الألوهية والقدرة ، والحكمة والرحمة وغير ذلك ، فقال (اللهم) ثم باسم الرب الهال على معنى الملك والتدبير والترية والاحسان خاصة ، فقال (ربنا) وقد طلب من الله تعالى أن ينزل عليهم مائدة سماوية يراها هؤلاء المقترحون بأبصارهم ، وتنقذ بها أبدانهم وأرواحهم ، ثم وصفها بقوله (نكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا) وكمة العيد تستعمل بمعنى الفرح والسرور ، وبمعنى الموسم الديني أو المدني الذي يجتمع له الناس في يوم معين من أيام السنة للعبادة أو لشيء آخر من أمور الدنيا (وآية منك) علامة منك على حجة نبوتى ودعوتى (وارزقنا) أى من هذه المائدة أو من غيرها ما نحتاجه به أجسامنا أيضا (وأنت خير الرازقين) تروى من تشاء بحساب وترزق من تشاء بغير حساب ، وقيل وارزقنا الشكر عليها .

(قال الله انى منزلها عليكم فن يكفر بعد منكم فانى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين) وعد من الله تعالى لعيسى أن ينزلها عليهم ، ولكنه رتب على هذا الوعد شرطا أى شرط ، فقال (فن يكفر بعد منكم) الخ والفاء لترتيب ما قبلها على ما بعدها ، والمعنى أن من يكفر منهم بعد هذه الآيات التي اقترحوها فان الله تعالى يعذبه عذابا شديدا لا يعذب مثله أحدا من سائر كفار العالمين كلهم ، أو على أمتهم الذين لم يعطوا مثل هذه الآية .

وقد اختلف مفسرو السلف في المائدة أنزل بالفعل أولا ؟ فروى عن بعضهم أنها نزلت . واختلف هؤلاء في الطعام الذي نزل - أى على وجه المعجزة من الله - فأبهم بعضهم ، وعينه آخرون ، ورجح ابن جرير نزولها انجازا للوعد ، وأنه كان عليها مأكول لانعنه ، وقال : ان العلم به لا ينفج ، والجهل به لا يضر . وقال آخرون : انها لم تنزل ألبتة ، فروى لىث بن أبى سليم عن مجاهد فى قوله ( أنزل علينا مائدة من السماء ) قال هو مثل ضربه الله ولم ينزل شيء . رواه ابن أبى حاتم وابن جرير ، وكذلك روى ابن جرير عن الحسن أنها لم تنزل ، وأنه لما قيل ( فن يكفر بعد منكم فانى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين ) قالوا لاجابة لها فيها ، فلم تنزل . روى ذلك بأسانيد صحيحة الى مجاهد والحسن .

(٤) (واذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذونى وأبى إلهين من دون الله) الخ خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عطف على قوله تعالى ( إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك ) الخ . والمعنى اذكر أيها الرسول للناس يوم يجمع الله الرسل فيسألهم عما أجابهم به أنهم إذ يقول لميسى : اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك الخ ، وإذ يقول له بعد ذلك :

«أنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله؟ : أى يسأله أقوالاً ذلك القول بأمر منك أم اقتروه هم وابتدعوه من عند أنفسهم؟ و يعلم الله أن عيسى عليه السلام لم يقل لأحد اتخذنى إلها أو اتخذ أى إلها ، ولكن حكمة السؤال فى ذلك الوقت أن تظهر براءة عيسى من الشرك ، وإقامة الحججة على المشركين الذين ظلموا عيسى وأمه ذلك الظلم ، لأن رسل الله جميعهم جاءوا بالتوحيد الخالص .

ولايلىق بهم وقد آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة أن يقولوا للناس: كونوا عبادا لنا من دون الله كما قال ( ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » ٧٩ ، ولا يأمركم أن تتخذوا لللائكة والنبيين أربابا أيا أسركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون « ٨٠ » (١) . وسؤاله لعيسى عليه السلام فى الآخرة هو كسؤاله للرسول بعد أن يجمعهم ويقول لهم (ماذا أجبتم؟) فيقولون (لا علم لنا إلك أنت علام الغيوب) أى إلك أعلم منا بمن أجب دعوتنا ومن لم يجب ، ونحن لا نعلم من الناس الذين عاصرونا سوى الظاهر منهم ، أما من لم يعاصرنا من الأقوام فلا نعلم من أمرهم شيئا ، أما أنت ففعل ظاهرم وبطنهم . وتعلم من كان فى عصرنا ومن جاء بعدنا وقوله (من دون الله) أى حال كونكم متجاوزين بذلك اتخذ اتخذ توحيد الله وإفراجه بالعبادة ، وهو يصدق باتخاذ إله أو أكثر مع الله تعالى ، وهو الشرك ، سواء اعتقد للشرك أن هذا للتخذ ينفع ويضر بالاستقلال وهو نادر ، أو اعتقد أنه ينفع ويضر بأقدار الله تعالى إياه ، ونفويض بعض الأمر إليه فيما وراء الأسباب ، أو بالوساطة عند الله وحله تعالى بحاله من التأثير والكرامة على النفع والضرر ، وهو الأكثر الذى كان عليه مشركو العرب عند البعثة كما حكى الله عنهم فى قوله (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ١٨٥) (٢) وقوله (والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ٣٤) (٣) .

وقلما يوجد فى متعللى الحضرة من يتخذ إلها غير الله متجاوزا لعبادته الإيمان بخالق الكون ومدبره ، فإن الإيمان الفطرى للفروس فى غرائز البشر هو أن تدير الكون كله صادر عن قوة غيبية لا يدرك أحدكنها .

أما اتخذ المسيح إلها فلائهم قالوا (المسيح ابن الله) أو (إن الله هو المسيح ابن مريم) (إن الله ثالث ثلاثة) فيهم المسيح، ومن كانت له هذه العقيدة فقد اتخذ المسيح إلها من دون الله : أى أنه أشرك به ، ولذلك سعى الله أصحاب هذه العقائد مشركين بالله تعالى فى الألوهية التى لا تنفى إلا لله تعالى .

أما أمه فعبادتها كانت متفقا عليها فى الكنائس الشرقية والغربية بعد قسطنطين ، ثم أنكرت عبادتها فرقة البروتستانت التى حدثت بعد الاسلام بقرون ، وهذه العبادة التى توجهها النصارى إلى مريم والدة المسيح عليها السلام : منها ما هو صلاة ذات دعاء وتسابيح ، واستغاثة واستشفاع ، ومنها صيام ينسب إليها ويسمى باسمها ، وكل ذلك يقرون بالخضوع والخشوع لكرها ولصورها

وتمثيلها ، واعتقاد السلطة الغيبية لها التي يمكنها بها في زعمهم أن تنفع وتضر في الدنيا والآخرة بنفسها أو بواسطة ابنها .

وقد صرحوا بوجوب العبادة لها وإن لم يطلقوا عليها كلمة [ إله ] بل يسمونها [ والدة الاله ] ويصرح بعض فرقهم بأن ذلك حقيقة لا محالة ، والقرآن يقول هنا : [ إنهم اتخذوها وبنها الهين لا والاتخاذ غير القسمية . ]

ومن النصوص المثالة على عبادة الصاري لمريم قول [ الأب لويس ] في مقالة له عن الكنائس الشرقية [ أن تعبد الكنيسة الأرمنية للبتول الطاهرة أم الله لأمر مشهور ] . وقوله [ قد امتازيته الكنيسة القبطية بعبادتها للبتول المنبوبة أم الله ] .

(٥) (قال سبجناك) بدأ عليه السلام جوابه بتزييه إلهه وربّه عز وجلّ عن أن يكون معه إله ، ثم انتقل من هذا الى تبرئة نفسه العالة بالحقّ عن قول لا يذنب لمثله أن يقوله ، فقال ( ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ) لأنك أيدتني بالعصمة من مثل هذا الباطل ، وهو أبلغ في البراءة من نفي ذلك القول وانكاره انكارا مجردا ، لأن نفي الشأن يستلزم نفي العمل فنيا مؤبدا بالبدليل ، ثم أكد هذه النتيجة بحجة أخرى قاطعة فقال ( ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ) أي ان كان ذلك القول وقع مني فربما فقد علمته ، لأن علمك محيط بكل شيء ، تعلم ما أمرته وأخفيه في نفسي ، فكيف لا تعلم ما أظهرته ودعوت إليه فعلمه مني غيري ؟ ولا أعلم ما تخفيه من علمك الذاتية التي لا تهدى إليها بنظر واستدلال كسي إلا ما تظهرني عليه بوحى وهي ( انك أنت علام الغيوب ) أنت المحيط بالعلوم الغيبية وحدك ، لأن علمك المحيط بكل ما كان وما يكون علم ذاتي غير متزعزع من صور المعلومات ، ولا مستفاد بتلقين ونظر واستدلال ( ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم ) وهو التوحيد الخالص ، وهو أمرهم بعبادتك وحدك ، واعلامهم بأنك ربي وربهم وأنتي عبد من عبادك مثلهم ، لا مزيد لي عليهم إلا أنك خصصتني بالرسالة إليهم ( وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم ) كنت قائما عليهم أراقبهم وأشهد على ما يقولون ويفعلون ، فأقر الحقّ ، وأنكر الباطل مدة وجودي بينهم ( فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كلّ شيء شهيد ) فلما توفيتني إليك كنت أنت المراقب لهم وحدك إذ انتهت مدة رسالتني فيهم ، فلا أشهد عليهم ، وأنا لست معهم ، وأنت شهيد عليهم ، وشهيد بيني وبينهم .

ولما كان المراد من السؤال الذي أجب عنه بذلك الجواب هو إقامة الحجّة التي يظهر بها عدل الله تعالى يوم القيامة - فوض عليه السلام أمر الجزاء إليه تعالى بحسب ما تقتضيه شهادته تعالى وصفاته ، فقال ( ان تدبهم فانهم عبادك وان تنفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم ) أي ان تعذب أولئك الناس الذين أرسلتني إليهم ، فليتهم ما أمرتني به من توحيدك وعبادتك وحدك ، فضل من ضلّ منهم ، وقالوا ما لم أقل لهم ، واهتدى من اهتدى منهم ، فلم يعبدوا معك أحدا من دونك فانهم عبادك وأنت ربهم ، ولست أنا ولا غيري من المخلوق بأرحم بهم ، ولا بأعلم بحالهم ، وإنما تجزيهم بحسب علمك بظواهرهم وبواطنهم ، فأنت أعلم بالمؤمن الواحد ، والمشرک الثلاث ، والباطن

الصالح ، والعامى الفاسق ، والمقر للكفر والفسق والنكر لهما ، ولا تظلم أحدا مثقال ذرة .  
 فالمراد إذا ان تعذب قائما تعذب من يستحق التعذيب منهم ، ولا يمنع إرادة هذا المعنى إطلاق  
 الضمير الراجع الى جملتهم ، فانه ضمير الجنس الذى يصدق ببعض الأفراد ، وهو لم يرد بصيغة  
 العموم ، ولذلك أطلقه فى المقابل وهو قوله ( وإن تغفر لهم ) الخ : أى إن تغفر قائما تغفرون يستحق  
 المغفرة منهم ( فانك أنت العزيز ) القوى الطالب على أسمه ( الحكيم ) فى جميع تصرفه وصنعه  
 فيضع كل حكم وجزاء فى موضعه ، وهو أعلم بموضع العدل ، وموضع الرحمة والفضل ، وفى تعقيب  
 الآية بقوله ( فانك أنت العزيز الحكيم ) إشارة الى أن الله تعالى إذا منحهم مغفرة فلا يستطيع  
 أحد حرمانهم منها بحوله وقوته ، لأنك أنت العزيز الذى يظلم ولا يظلم ، ويمنع من شاء ما شاء  
 ولا يمنع ، ولا يتحوّل عن إرادتك ، فانك أنت الحكيم الذى تصع كل شئ موضعه ، فلا يمكن  
 لأحد غيرك أن يرجعك عنه بناء على أن غيره أولى منه ، فمن ذا الذى يستطيع الاستدراك أو  
 الافتيات عليك ؟ والمقام مقام تفويض مطلق الى الله تعالى وحده ، لا مقام شفاعة ، ولذلك ختم  
 الآية بصفتى العزة والحكمة ، ولم يحتجها بصفتى الغفران والرحمة .

وفى جزاء الشرط الأوّل إشارة الى أن تعذيب من يظن المخلوقون أنهم يستحقون المغفرة ان  
 وقع من الله فلا يكون إلا عدلا ، وفى جزاء الشرط الثانى إشارة الى أن المغفرة إن أصابت من يظن  
 البأس أنه يستحق العذاب فلا تكون من الله إلا لغاية اقتضاها عوّة الألوهية ، وحكمة الربوبية  
 فلا عبرة بالظواهر التى تبدو للمخلوقين بالنسبة الى علم علام الغيوب وحكمته ، ولا سببا فى ذلك اليوم  
 فالواجب أن يفوض إليه الأمر كله : يعذب من يشاء ، ويغفر لمن يشاء .

ومن ذلك كله نعرف أن الضمير فى قوله ( إن تعذبهم ) وقوله ( وإن تغفر لهم ) ليس  
 للمشركين حتى يترض بأنه كيف يغفر الله لمشرك وهو يقول ( إن الله لا يغفر أن يشرك به «٤٨» )<sup>(١)</sup>  
 ويقول فيما حكي عن عيسى عليه السلام ( إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة  
 وماواه النار وما للظالمين من أنصار «٧٣» )<sup>(٢)</sup> بل المراد جنس القوم الذين فيهم الشرك والموحد ،  
 والصالح والطالح كما تقدم .

### عيسى عليه السلام

وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ<sup>(٣)</sup> مِنْ أَمَلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا «١٦»  
 فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا «١٧»  
 قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ نَقِيًّا «١٨» قُلْ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ  
 لِأُمِّبَ لَكَ عَلِمًا نَكِيًّا «١٩» قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ

[١] النساء . [٢] السائدة .

[٣] تحت من أمليها إلى مكان شرقى ، « سويّا » . حسن الصورة مستوى الحق .

أَكْبَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْئٍ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرِسْعَةً  
 مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢١) فَخَمَلَتْهُ فَأَتَتْهُ بِهٍ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢)  
 فَأَجَاءَهَا (٢٣) الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْسَنِي مِثُّ قَبْلُ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا  
 مَنَسِيًّا (٢٤) فَتَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٥)  
 وَهَزِيءٌ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقُ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٦) فَكُلِي وَاشْرَبِي  
 وَقَرَى عَيْنَا فَلَمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ  
 أَكُلَ الْيَوْمَ لَنَسِيًّا (٢٧) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرُؤٌ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا  
 فَرِيًّا (٢٨) يَا خُتَّةُ هَؤُلَاءِ مَا كَانَ آبُوكَ أَمْرًا سَوْءَ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ  
 بَغِيًّا (٢٩) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٣٠)  
 قَالَ إِنِّي عِندُ اللَّهِ أَتَيْنِي الْكِتَابُ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ  
 مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ  
 يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ  
 حَيًّا (٣٣) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ  
 لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥)  
 وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦) فَأُخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ  
 مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) مريم

### شرح وعبرة

(١) يَا مَرْيَمُ إِنَّكِ عَلَى هَيْئٍ وَرَبُّكَ عَلَى هَيْئٍ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرِسْعَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْئٍ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرِسْعَةً

[١] بعيداً . [٢] ألباهما واضطرهما ، « سرياً » : جدولاً ، لأن الباء يبرى فيه .  
 [٣] النفس الطوى . [٤] عجيباً على غير العادة وقيل منكراً . [٥] يتكون .

المعجبة في جعلها يعيسى عليه السلام ( إذ اتقبت من أهلها مكانا شرقيا ) أى في الوقت الذى تباعدت فيه عن أهلها في مكان شرقى ، وقد اختارت مكانا بعيدا عن الناس لتعبد فيه ، والعبادة في حاجة الى مكان منعزل عن الناس ولاسيما من المرأة ، أو أن الله تعالى ألهمها أن تفصح عن القوم وتتخذ حجبا من دونهم تمهيدا لارسال جبريل عليه السلام إليها ، ولذلك عطف على الجلة قوله ( فأرسلنا إليها روحنا ) بالفاء ( فتمثل لها ) جبريل بشرا كامل الخلقة ، سوى الصورة ، فارتجبت من رؤيته ، وقالت ( إني أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا ) وهو دليل على عفافها وورعها ، وفقرتها من الرجال ، وقولها ( ان كنت تقيا ) أرادت ان كان يرجى منك أن تتق الله فاني عاتدة به منك ، لعلها أن الاستعاذة لا تؤثر إلا في التقى ، وهو كقوله ( وذرُوا ما بَقِيَ من الربا ان كنتم مؤمنين «٢٧٨» )<sup>(١)</sup> أى ان شرط الايمان يوجب هذا ، وليس الغرض أن الله تعالى يحشى في حال دون حال .

( قال انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا ) تطمين من جبريل لها ، وإيناسها بأنه لم يكن من جنس البشر ، بل هو من جنس الملائكة ، أرسله الله تعالى إليها ليهب لها الغلام بواسطة نفخ جبريل عليه السلام ، وقوله ( لأهب لك ) قرأ نافع وابن عاصم [ ليهب ] بياء مفتوحة والضمير يرجع الى الله تعالى : أى ليهب الله تعالى لك غلاما طاهرا من الذنوب ناميا ، أما على قراءة [ لأهب ] فيكون الضمير لجبريل .

وقد أضاف المحبة إليه على سبيل المجاز ، لأن المحبة لما جرت على يده بأن كان هو الذى نفخ فيها كان جبريل كأنه الذى وهبها ، وإضافة الفعل الى سببه سائق وكثير ، كقوله ( رب انهن أظنان كثيرا من الناس «٣٦» )<sup>(٢)</sup> أو لأن جبريل عليه السلام لما بشرها بذلك كانت تلك البشارة الصادقة جارية بجرى المحبة ( قالت أتى يكون لى غلام ولم يحسنى بشر ولم أك بغيا ) .

استغربت أن يولد لها غلام والحال أنها لم تتزوج بعشر ، وتوصل به اتصال الأزواج ، لأن ذلك هو الطريق للألوف ، فالسنة كناية عن الزواج الحلال ، كقوله تعالى ( من قبل أن تمسوهن «٣٧» )<sup>(٣)</sup> وقوله ( أو لمستم النساء «٦» )<sup>(٤)</sup> والزنا ليس كذلك وإنما يقال فيه : فجر بها ، وخبت بها وما أشبه ذلك ، وهو لا يستحق أن تراعى فيه الكنايات والآداب ( ولم أك بغيا ) أى فاجرة ، تتحدث عن نفسها بالعفة ، وقد تحدث الله عنها بذلك قبل أن تتحدث هي فقال ( إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين «٤٢» )<sup>(٥)</sup> .

وإذا كانت السيدة صميم عليها السلام لم تتزوج بعشر ، وليس من شأنها الفجور بل شأنها الطهارة والعفة ، فكيف يكون لها غلام ؟ ( قال كذلك ) أى الأمر كما قلت لك ، لاشك فيه ولا ارباب ( قال ربك هو على هين ) ومتى قال الله تعالى لشيء كن يكون ، فلا تستعزى أن يولد لك انسان بدون أن يمسك بشر ، مع عفتك وإحسانك ، وهو كقوله في سورة آل عمران ( كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون «٤٧» ) وقوله ( ولنجعل آية للناس ) علة لمحدوف : أى فعلنا ما فعلنا لنجعل عيسى آية للناس على قدرتنا ( ورحمة منا ) أى ولنجعل

عيسى عليه السلام رحمة للناس صادرة منا ، عليهم يمتدون بهديه ، ويقتدون به ( وكان أمرا مقضيا ) أى وكان اتيانك ببيسى عليه السلام بدون أن يسك بشر أمرا مقدرا فى علم الله تعالى لاغنى لك عن رؤيته .

( ٢ ) ( حملته فانقبت به مكانا قصيا ) طوى عملية الفتح ، وانتقل الى الاخبار بالمحل ، وقد بينها فى سورة أخرى ، إذ يقول فى سورة التحريم .

( ومريم ابنت عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القاتنين ١٢ ) .

طوى القرآن ذلك ، لأن المعنى واضح جلى ، ومن شأن القرآن أن يوجز حيث وضع المعنى ، وكأنه يقول : فاطمات مريم عليها السلام الى قول جبريل ، فدنا منها ، فنفخ فيها ، فوصلت النفخة الى بطنها فحملت ، وقوله ( فانقبت به مكانا قصيا ) فيه إيجاز آخر ، وهو فضت عليها مدة الحمل ، وكبرت بطنها كما تكبر بطون النساء عند قرب الوضع ، فتحت عن أهلها ، واختارت مكانا بعيدا عن الناس ، لأنها لاتزال مهدومة من ذلك الحادث من جهة قومها .

( فأجاءها المخاض الى جذع النخلة ) ألقاها الطلق ومقدمات الوضع الى جذع النخلة لتستتر به وتعتمد عليه عند الولادة شأن النساء عند الوضع ، وهناك قالت ( ياليتنى مت قبل هذا ) الخ لأكراهة منها لحكم الله تعالى ، بل لما لحقها من فرط الحياء من الداس على حكم العادة البشرية ( فنادها من تحنها أن لاتحزنى ) الضمير لجبريل عليه السلام : أى ناداها من مكان هو أسفل من مكانها مطمئا لما بقوله لما ( لاتحزنى ) من ذلك الحادث ، لأن الله تعالى لم يفساك بفضلته واحسانه فجعل تحتك نهرا تطهرين منه وتشرين ، وما أحوج النساء الى الماء ولاسما فى الأماكن المفقرة ثم قال لما ( وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا ) تسلية أخرى بقسخر الله لها طعاما بعد تسليتها بالشرب ، لتعرف مريم عليها السلام من هاتين البشارتين أن الله تعالى الذى تولاه بذلك العطف هو الذى سيدفع عنها افك القوم وتبييرهم لها ، وسيقيم الدليل وانحما على براءتها من الزنا ، وعقبتها واحسان فرجها .

ثم أمرها بالأكل من الرطب والشرب من النهر وزاد على ذلك قوله ( وقوى عينا ) والمراد أبعدى عن نفسك الرعب والخوف ، وطمئنى لفعل الله تعالى ، ولانكلمى أحدا من المخلق أيام ففاسك ، وإذا رأيت أحدا من البشر فاعتذرى له عن الكلام بقوله ( انى نذرت للرحن صوما ) امساكا عن الكلام ( فلن أكلم اليوم انسيا . فأنت به قومها تحمله ) أى فضت مدة فأت ببيسى عليه السلام قومها وهى حاملة له ( قالوا يامريم لقد جئت شيئا فريا ) عجيبا منكرا ( ياأخت هارون ) قيل كان أخا لها من أبيها من أمثل بنى اسرائيل ، وهو غير هارون أخى موسى عليهما السلام ، وقبل انهم عنوا هارون النبى ، وأرادوا بأخته شبيته فى الخلال والتقوى ، وكثيرا مايسى الشبيه أخا ، والنبي يامن أشبهت أنبياء الله فى التقوى والصلاح ( ما كان أولك امرأة سوء وما كانت أمك بنيا ) يريدون أن عمران أباهما لم يكن رجلا سوء ، وكذلك أمك لم تكن فاجرة فلماذا جئت بذلك للنكر وخالفت سنة أبويك ؟ .



ومن عادة الناس إذا رأوا أحدا جاء على غير طريقة أبويه أن يستغربوا منه ذلك (فأشارت إليه) أى هو الذى يجيئك إذا أتم ناطقتموه ، فقالوا (كيف نكلم من كان فى الهد صيا) ، ونكلم حكاية حال ماضية : أى كيف عهد قبل عيسى أن يكلم الناس صيا فى الهد فى سلف من الزمان حتى نكلم هذا .

(٣) (قال انى عبد الله آتاني الكتاب) الخ ، وقوله (آتاني الكتاب) الخ : أى إن ذلك سبق فى قضائه ، أو جعل الآتى لاحالة كأنه قد وجد ، وكثيرا ما يعبر عن المستقبل بصيغة الماضى كقوله (وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم ءأنت قلت للناس اتخذونى وأبى إلهين من دون الله «١١٦» (١)) وإنما يكون ذلك القول فى الآخرة يوم يجمع الله الرسل ويسألهم عن أقوالهم (وجعلنى مباركا أينما كنت) أى تقاضا حينما حلت أو معلما للخير ، وهى نعمة على نبي الله عيسى أن جعله مباركا حينما حلّ تحلّ البركة ويكثر الخير .

وبدأ قوله بعبوديته لله تعالى ليعلم الناس أنهم جدّ خاطئين فى اخراجه عن هذه العبودية ، وزعم بنوته لله تعالى ، و (الكتاب) يحتمل أنه صنعة الكتابة كما قال فى سورة آل عمران (ويمله الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل «٤٨» ) جُمع الكتاب مع التوراة والانجيل فهو غيرها ، ويحتمل وهو الظاهر أنه التوراة والانجيل ، والمراد بالنبي هنا الرسول الجامع لصفة النبوة والرسالة كما قال فى سورة آل عمران (ورسولا إلى بنى اسرائيل) وفى قوله (وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا) إشارة إلى أن الصلاة والزكاة من الشرائع القديمة ، وهما من أهم أنواع العبادات البدنية والمالية (وبرأ بالذنى) عطف على قوله (بالصلاة) أى وأوصانى أن أكون برأ بالذنى ، والبرّ كلمة جامعة لأنواع الخير (ولم يجعلنى جبارا شقيا) أى من فضل الله عليه أنه لم يجعله جبارا غليظ القلب ، بل جعل فى قلبه رافة ورحمة ، ولم يجعله شقيا بعصيان ربه ، بل جعله سعيدا باسطفائه له ، واجتنبه إياه (والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا) .

قال صاحب الكشف : الصحيح أن يكون هذا التعريف : أى تعريف السلام بلام الاستتراق - ترضى باللعن على من اتهم مريم بالزنا ، وتحقيقه أن اللام للاستتراق فإذا قال : والسلام على . فكأنه قال : وكلّ السلام على وعلى أتباعى ، فلم يبق للأعداء إلا اللعن . ونظيره قول موسى عليه السلام (والسلام على من اتبع الهدى «٤٧» (٢)) ذلك هو ماتكم به عيسى عليه السلام وهو فى الهد ، وهو خارق للعادة من ناحيتين .

[الأولى] أن مثله لا يكون إلا من رجل كبير مفكر ، فصدوره من صغير يجعله خارقا .

[الثانية] إخباره عن أمور غيبية مستقبلة كإخباره عن إعطائه الكتاب ، وجعله نبيا وإيصائه بالصلاة والزكاة ، وهما من العبادات التى لا يأمر بها إلا الأنبياء ، أو الآخذون عنهم ، فدلّ ذلك على براءة مريم عما رميت به من الفاحشة ، لأن إنبها رسول من رسل الله ، وكيف يكون رسول الله الذى أبده بمعجزاته من أولاد الزنا ؟

(٤) (ذلك عيسى ابن مريم) أى صاحب هذه القصة فى ولادته العجيبة ، وكلامه فى الهد ،

هو عيسى ابن مريم ، وهو عبد الله ورسوله (قول الحق الذى فيه يترون) خبر بعد خبر ، أو خبر مبتدأ محذوف : أى القول فيه هو قول الحق لا قول الباطل ، وقرئ (قول الحق) بالنصب على المفعولية : أى يقول الله تعالى فى شأنه قول الحق ، أو على اللوح ان فسر بكلمة الله ، وإنما أطلق على عيسى (كلمة الله) ، و (قول الحق) لأنه لم يولد إلا بكلمة الله وحدها ، وهى قوله (كن) من غير واسطة أب ، تسمية للسبب باسم السبب ، كما سمي العشب بالسما (الذى فيه يترون) من الرؤية ، وهى الشك ، أو تجارون ويتلاحون فيه ، قالت اليهود : انه ساحر كذاب ، وقالت النصارى : ابن الله وثالث ثلاثة .

(ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه) أى ليس من شأن الله ولا مما يليق به أن يتخذ من ولد حتى يتخذ عيسى ولدا له ، لأن الله خالق وعيسى مخلوق ، والصلة بين عيسى وبين ربه كلمة سائر الخلق ، وهو نبي للولد بطريق أبلغ ، لأنه نبي معه دليل ، وهو مخالفة ذلك لشأن الله تعالى وصفته ، وقوله (سبحانه) تنزيه له عن ذلك الاتحاد (إذا قضى أمرا) فاعما يقول له كن فيكون) اذا أراد أمرا تخلق عيسى بدون أب ، وحمل أمه به بدون أن يمسا بشر ، لا يتعاصى شيء على ارادته ، ولا يكون إلا الطاعة والامتثال (وان الله ربى وربكم فاعبدوه) .

قيل : هذا من كلام نبينا محمد صلى الله عليه وسلم : أى وقل لهم يا محمد (وان الله ربى وربكم) الخ . وقيل : من كلام عيسى عليه السلام عطف على قوله (انى عبد الله) أى وقال لهم عيسى (ان الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) لا اعوجاج فيه ولا أمت ، ويكون قوله (ذلك عيسى) الخ جلا معترضة بين كلام عيسى عليه السلام .

(فاختلف الأحزاب من بينهم) أى مع ذلك البيان اختلف الأحزاب فى شأن عيسى عليه السلام ولم يقفوا عند قول الله : إنه عبد الله ورسوله ، فمن مسرف فى الطعن والبذاءة ينسبه إلى الزنا كبعض اليهود ، ومن متثال فى تعظيمه وتوقيره ، حتى جعله ابنا لله ، وثالث ثلاثة فيهم الله ، ولكن القرآن يحددنا أنه عبد أنتم الله عليه بالرسالة والاصطفاء ، كما أنتم على أمه الصديقة بالطهارة والاجتهاد ، وجعله وأمه آية للناس ، ودليلا على كمال القدرة ، وسعة السلطان .

ثم توعد الذين كفروا برسائله بما ينالهم عند شهود يوم الجزاء وقال (فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم) .

### عيسى عليه السلام

وَلَمَّا ضَرَبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ «٥٧» وَذُلُّوا ، أَلْهَتُهُمْ  
خَيْرُهُ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ <sup>(١)</sup> «٥٨» إِنَّ هُوَ إِلَّا

عَبْدُ أُنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا <sup>(١)</sup> لِبَنِي إِسْرَءِيلَ «٥٩» وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ «٦٠» وَإِنَّهُ لِمَعْلُومٌ <sup>(٢)</sup> لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمُوتُنَّ فِيهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ «٦١» وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ «٦٢» وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ «٦٣» إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ «٦٤» فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الْيَوْمِ «٦٥» الزخرف

### شرح وعبرة

(١) (ولما ضرب ابن مريم مثلاً) الخ . روى أنه لما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على قریش (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون «٩٨» <sup>(٣)</sup>) امتعضوا من ذلك امتعضاً شديداً ، فقال عبد الله بن الزبيري : يا محمد أخاصة لنا ولأهلنا أم لجميع الأمم ؟ فقال عليه السلام : هو لكم ولأهلتمكم ولجميع الأمم ، فقال : خصمتك <sup>(٤)</sup> ورب الكعبة ألت ترعم أن عيسى ابن مريم نبيّ وثني عليه خيراً وعلى أمته ؟ . وقد علمت أن النصارى يعبدونها ؟ وعزير يعبد ؟ والملائكة يعبدون ؟ فإن كان هؤلاء في النار فقد رضيتم أن تكونوا نحن وأهلنا معهم ، ففرحوا ومهكموا ، فردّ عليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بقوله : ما أجهلك بلغة قومك ، أما فهمت أن ما لما لا يعقل ؟ فلم يدخل فيها عيسى ولا عزير ولا الملائكة ، كما روى أنه ردّ عليه بقوله : بل هم عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك . ويستدل المفسرون لذلك بقول الله تعالى في سورة سبأ (ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون «٤٠» قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون «٤١» ) وذلك انما ينفي عبادتهم للملائكة ، أما عبادتهم لعزير وللشيخ فلم يقيموا دليلاً على نفيها .

وإذا قلنا : إن عبادتهم للشيخ عليه السلام ولعزير ترجع في الحقيقة لعبادة الشياطين لأنهم هم الذين أمرهم بها فأطاعوهم . قلنا مثل ذلك في عبادة الأصنام : إن الشياطين هي التي أمرتهم بعبادتها ، وعليه فهم لم يعبدا الأصنام .

وقد أخبر الله عنهم بأنهم عبدوها ، وانما لم يخصّ النبيّ صلى الله عليه وسلم هذا الحكم

بآلهتهم حين سأله ابن الزبيري عن الخصوص والعموم ما دامت كلمة (ما) خاصة بغير العاقل ، لأن إخراج بعض العبودين عن هذا الحكم عند الحاجة موم للترخيص في عبادته في الجملة فعممه عليه السلام للكل .

ثم بين بقوله [ بل هم عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك ] أن الملائكة والسيح بمزول من أن يكونوا معبوديهم ، ومنهم من يذهب إلى أن الله تعالى أجاب عنه حيناً وجه إليه ذلك السؤال فأنزل ( إن الذين سبق لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون « ١٠٩ » ) <sup>(١)</sup> وأولئك سبق لهم من الله الحسنى فهم خارجون من عموم الآية الأولى على فرض شمولها لهم .

ومعنى الآية : ولما ضرب عبد الله بن الزبيري عيسى بن مريم مثلاً وجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعبادة النصارى إياه (إذا قومك) قرئش من هذا المثل (يصدون) ترفع لهم جلبة وضجيج فرحاً وجذلاً ، ونحكما بما سمعوا منه كما يرفع لجب القوم وجدلهم إذا أعوزتهم الحجة ثم عثروا عليها ، وقرئ (يصدون) بضم الصاد من الصدود : أى من أجل هذا المثل وبسببه يصدون الناس عن الحق ، ويعرضون عنه (وقالوا أآلهتنا خير أم هو) يريدون أن آلهتنا عندك ليست بخير من عيسى ، وإذا كان عيسى من حسب النار والرمي به فيها كان أمر آلهتنا هيناً .

وقيل : لما سمعوا قوله تعالى ( إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون « ٥٩ » ) <sup>(٢)</sup> قالوا نحن أهدى من النصارى لأنهم عبدوا آدمياً ، ونحن نعبد الملائكة فنزلت . وقوله ( أآلهتنا خير أم هو ) على ذلك القول تفضيل لآلهتهم على عيسى ، لأن المراد بهم الملائكة .

(٣) (ما ضربوه لك لإجلد لا بل هم قوم خصمون) يريد أن حاجة ابن الزبيري لرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقصد منها سوى الجدل والمناظرة ، ولم يرد بها إحقاق حق أو إبطال باطل ، لأن ابن الزبيري لا يجهل أن آية (إنكم وما تعبدون من دون الله حسب جهنم) خاصة بالأصنام ولا يجهل أن كلمة (ما) لما لا يعقل ، وأن العموم انتهى دلته عليه ظاهر كلام الرسول صلى الله عليه وسلم عند الحاجة لم يرد به عموم اللفظ لعيسى والملائكة عليهم السلام ، وإنما هو عموم لما يتناوله لفظ (ما) من الأصنام في جميع الأسم لا في قرئش وحدها .

يلم ابن الزبيري ذلك كله ولا يجهله ، ولكن الرجل الذي شغل بالجدل يتحرك في كلمة فيبني عليها من القصور ما شاء له الهوى وما زينه له الشيطان .

والله تعالى يرينا أن أولئك القوم ماضربوا لك هذا المثل لإبتناء الجدل ، وقد ألجأ الله الجدل ليكون وسيلة لكشف الحقائق أما أن يصير الجدل غاية لا وسيلة ، ومقصداً لا مقصدمة ، فذلك ما بذمته القرآن الكريم ، ويستقبحه العقل السليم .

والقرآن يرينا أن الجدل بالطريق التي هي أحسن لا مانع منه ، وقد طالبنا به مع أهل الكتاب إذ يقول (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون « ٤٦ » ) <sup>(٣)</sup> .

ينها القرآن الكريم أن يجادل من خالفنا في الدين من أهل الكتاب إلا بالطريق التي هي أحسن للخلق والنضلة ، والوصول إلى الحق ، وأن من ظلم منهم وتخطى الحدود ، ولم يرد الحق ، ندعه ولا نجادله ، لأن الجدل لا يجدى معه ولا يفيد ، وقد يكون ضرره أكبر من فقهه .

وقال تعالى وهو يبين لنا آداب الدعوة إلى الله تعالى ( ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » ١٢٥ )<sup>(١)</sup> ومن ذلك نعلم أن الجدل فيه المحمود والمذموم ، وأنه وسيلة لامقصد ، وطريق لتعرف الحق ومعرفة ما عند المتخاصمين من شبهة أو حجة ، فإذا صار غاية للرجل وكلف به ، وأصبح خلقا من أخلاقه يتلصسه أنى وجد ، ويخلق حيث حل كان مذموما تمجحه النفوس كما تمجج صاحبه ، لأنه يصبح لاهم له إلا الكلام والغلب ، وسواء عليه أكان محقا في ذلك الجدل أو مبطلا .

ولعل في ذلك عبرة لطائفة المحامين الذين تدودوا المقتاع عمن يوكلونهم وإن كان للوكل مجرما سفاكا ، ويجادلون خصومهم بالحق والباطل ، ولا هم لهم إلا إقناذ موكلهم وإن كانوا يعلمون أنهم مجرمون . وقد نهى الله أن نخاصم من أجل خائن ، أو ندافع عن مجرم ، إذ قال ( ولا تكن للخائنين خصما واستغفر الله إن الله كان عفورا رحيمًا » ١٠٦ ) ولا تجادل عن الذين يخناون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أتيا » ١٠٧ )<sup>(٢)</sup> .

وإذا علم المجرم أن من وراءه من رجال المحاماة من يستطيع إقناذه من جريمته ، فانه لا يبالي بأعراض الناس ولا بسمائهم وأموالهم ، يتجرأ على الأعراض فينتكح حرماتها ، وعلى العلماء غير يقها ، وعلى الأموال فيسلبها أصحابها ، ولو علم أن لا يوجد في رجال المحاماة من يرضى بالرفع عن مجرم ، أو الجدل عن خائن ما أقدم على مخالفة القانون إلا وهو خائف وجل ، ولكانت الأمة أضعف منها اليوم .

وما أحوج رجال المحاماة إلى أن يكتبوا هذه الآية الكريمة على صفحات قلوبهم ( ولا تجادل عن الذين يخناون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أتيا ) .

ولكن ماذا نصنع وقد أصبح المال مشكلة الشاكل ، وعقدة العقد ، وأصبح طلب العيش عنرا لدى الناس يستيجون في سبيله ما حل وما حرم : رزقنا الله العنة ، وحينما فيها عنده من ثواب ، وزهدنا فيها ينضبه من مآثم . وقوله ( بل هم قوم خصمون ) أى لئ ، شدة الخصومة ، وأبهم اللجاج ، وهو معنى لم يعرف مما سبقه من الآيات ، فقد يكون الرجل مجادلا في حادثة من الحوادث ، ولكن الجدل لم يصير خلقا من أخلاقه ، فانه يرى أن هؤلاء أصبحت الخاصمة خلقا من أخلاقهم ، وصار الجدل غرضا من أغراضهم .

( ٣ ) ( إن هو إلا عبد أئمننا عليه ) الخ : أى بالنبوة ( وجعلناه مثلا لبني إسرائيل ) أى مثلا في الصلاح والتقوى ، أو أمرا عييا يسير ذكره كالأمثال السائرة ، والفرص من ذلك تنزيهه عليه السلام من أن ينسب إليه ما نسب إلى الأصنام ، وأن يضربه ابن الزبير مثلا ويقول فيه ( ما ألهتنا خير أم هو ) وفيه كذلك تنبيه على بطلان رأى من رفضه عن رتبة اليهودية ، فكلما

الرأين خطأ وباطل الزول به الى مرتبة الأصنام ، والصعود به إلى رتبة العبود ، وما هو إلا عبد أنعم الله عليه بالنبوة ، فلم يتخط ذلك الحد حتى يكون إلها ، ولم ينزل عن عبد أنعم الله عليه حتى يكون في منزلة الأصنام ، وفيه تمرىض أيضا بضاد رأى من يرى رأيهم في شأن اللائكة صلوات الله عليهم وسلامه .

وعلى التفسير الثانى لقوله (ولما ضرب ابن مريم مثلا) وأنهم لما سمعوا قوله تعالى (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب) قالوا : نحن أهدى من النصارى لأنهم عبدوا آدميا ونحن عبدنا اللائكة - على ذلك التفسير يكون لبيان أنه قياس باطل بباطل ، فعبادتهم لللائكة باطلة كعبادة النصارى لعيسى ، ولا فرق بين اللائكة وبين عيسى في بطلان عبادتهم ، لأن الكل عبيد لله تعالى ، فقوله (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه) الخ : أى شأنه كذا العبد قمارى أمره أنه ممن أنعم الله عليه بالنبوة ، وخصه بعض الخواص بأن خلقه بوجه بديع ، وقد خلق آدم بوجه أبعد منه ، فأين هو من رتبة الربوبية ؟ ومن أين يتوهم الناس صحة مذهب من يعبده حتى يقتضخ عبدة اللائكة بأنهم أهدى منهم ؟ أو يعتدروا بأن حالهم أخف من حالهم . وجلة القول أنه تسفيه لأصحاب ذلك القول ، وتخطئة لهم في ذلك القياس ، وأنه قياس باطل بباطل ، وأن بطلان عبادة المسيح لم يجئ من ناحية أنه أقل من اللائكة ، وإنما جاء من ناحية أنه عبد خاضع لله تعالى ، فكل من شاركه في العودية لا يستأهل أن يعبد ، إنما الذى يستحق العبادة هو الخالق ، وتخطئة لهم في قولهم : انهم أهدى من عبدة المسيح ، لأن الهداية قد حرماها الله عابدى المسيح وعابدى اللائكة ، فلم يكن فيهم أصل الهداية ، بل فيهم الضلال البعيد (ولو نشاء جعلناكم من ملائكة فى الأرض يخفون) أى لو شئنا أن نزيكم أن عيسى عليه السلام ليس بيدعة من قدرة الله ، وأنه تعالى قادر على أبعد من ذلك وأبرع (جعلنا) خلقا بطريق التوالف (منكم) وأنتم رجال (ملائكة) كما خلقناهم بطريق الابداع (فى الأرض) مستقرين فيها كما جعلناهم مستقرين فى السماء (يخفون) أى يخفونكم فيما تأنون وتذرون ، ويباشرون الأغايل النوبة بكم ، مع أن شأنهم التسبيح والتقديس فى السماء ، فمن كانت له هذه القدرة على الخوارق إلى ذلك الحد كيف نفسونه وتعبدون عبدا من عبيده ، وخلقوا من خلقه ، لأنه جاء على خلاف المألوف من سنة البشر ؟ وما كان من حكم أن تقتنوا ببيسى هذه الفتنة ، وتركوا خالقه ومنشئه ، وما مثلهم فى ذلك إلا مثل من قن بالكواكب السيارة ، وما أودعه الله فيها من خصائص ومزايا ، فعبدها ونسى خالقها ومسخرها .

ويقول القرآن الكريم فى ذلك (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لاسجدوا للشمس ولالقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴿٣٧﴾) (١) .

فعيسى لم يعد أن يكون آية على قدرة الله ونفوذ سلطانه ، وذلك لا يقتضى أن يعبد ، إنما الذى يستحق العبادة خالق عيسى وغيره كآدم وخالق الشمس والقمر وغيرهما من الآيات .

(٤) (وإنه لعلم للساعة) أى شرط بفتح الراء ، من أشراطها ، وقرئ علم بفتح اللام : أى علامة ، وكان علما للساعة لحصول علم الساعة به ، أو أنه باعتبار خلقه بغير أب وإحيائه الموتى

بإذن الله كان دليلا على صحة البعث الذى ينكره الكفرة ، وكأن الله تعالى يريدنا أنه إذا قدر على بدء الخليقة وفيهم عيسى على ذلك الوجه العجيب فكيف لا يقدر على الاعادة ؟ أو إذا أعطى عبدا من عبيده قوة على إحياء الموتى بأذنه فكيف لا يقدر هو على إعادتها بعد الموت ؟ (فلا تترن بها) لانتشرك فى وقوعها مادام الدليل على صحة البعث قائما ، والحجة ناهضة (وابتعون) اتبعوا هداى (هذا صراط مستقيم) موصل الى الحق بعيد عن الضلال (ولا يصدنكم الشيطان) عن اتباعى (إنه لكم عدو مبين) ظاهر المداوة .  
(ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة) .

بعد أن تكلم على نشأة عيسى العجيبة ، ونفيه القوم إلى عدم الافتتان بها ، وتخطئهم فى تقاليدهم فى عيسى عليه السلام قال : إن عيسى لما جاءهم بالمعجزات الواضحة أخبرهم أنه جاءهم بالحكمة والعلم النافع الذى يسعدون به فى دينهم ودنياهم ، والحكمة التى جاء بها عيسى هى مافى التوراة من تشريع ، وما فى الانجيل من مواظ وأحكام (ولأين لكم بعض الذى تختلفون فيه) عطف على محذوف : أى لأعلمكم إياها (ولأين لكم بعض الذى تختلفون فيه) من أمور الدين ، لأن شأن الرسل أن يرسلهم الله ليعينوا للناس ما اختلفوا فيه ، ويرتفونهم الحق ليأخذوه ويعملوا به .  
ثم أمرهم بتقوى الله وطاعته ، ثم ختم القصة بقوله (إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه) ولست ربا لكم ولا معبودا ، وإنما أنا عبد من عبيد الله خاضع لنظام المبودية العامة إلا ما اختصنى به من أمر الحمل والولادة ، وإذا ظهر على يدى خارق للعادة قائما هو بأذنه وتيسيره ، ولا طاقة لى به بدون معاونته (هذا صراط مستقيم) أى هذا الذى دعوتكم إليه من أنه ربى وربكم ، وأنه هو الذى يعبد منى ومنكم ، وأنتى عبد لله خاضع لنظامه ، وقانون عبادته هو الطريق المستقيم لا يضل سالكه ، ومع ذلك البيان الواضح اختلف الأحزاب فى شأن عيسى من اليهود والنصارى ، وقد توعد الله الظالم منهم عذابه وسخطه فى يوم الجزاء .

### عيسى عليه السلام

ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَنِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ . الحديد

### شرح وعبرة

(١) (ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم) الخ .

يرينا الله تعالى بهذه الآيات أنه أتبع نوحا وإبراهيم ومن كان من الرسل في ذريتهم رسلا آخرين ، وقفي عيسى ابن مريم ، وأعطاه الإنجيل ( وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ) أى وفقهم للتراحم فيما بينهم فلم يجعلهم جبارين ولا غلاظ القلوب ، لأسبغهم برسولهم عيسى عليه السلام الذى قال الله فيه ( ولم يجعلنا جبارا شقيا » ٣٢ ) ( ١ ) وهو كقول الله تعالى فى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ( محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رخاء بينهم » ٢٩ ) ( ٢ ) وقوله ( ورهبانية ابتدعوها ) مفعول لفعل مخوف : أى واختلقوا من عند أنفسهم رهبانية ، ولا يصح عطفه على قوله ( رأفة ورحمة ) لأنه يقتضى أن الله جعل الرهبانية فيهم ووفقهم لها ، وهو لا يتفق وقوله ( ابتدعوها ) .

ومنه نعلم أن دين المسيح لم يكن فيه رهبانية ، وإنما هي مبتدعة فيه كسائر البدع التى يحدتها أهل الأديان ، وبدل لذلك قوله ( ما كتبناها عليهم ) بل هم الذين فرضوها على أنفسهم فرضا وقوله ( إلا ابتغاء رضوان الله ) استثناء منقطع : أى انهم ما ابتدعوها واختلقوها إلا لطلب الرضوان الله وزيادة ثوابه لهم ، شأن سائر البدع ، فان أصحابها ينشئونها ويزيدونها فى الدين لا بقصد الزيادة والاستعراك على المشرع ، بل بقصد التقرب الى الله تعالى ، كصلاة الرغائب التى ابتدعوها فى أول أسبوع من رجب ، وصلاة الظهر بعد الجمعة ، وكزيادة الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم بعد ألفاظ الأذان ، إلى غير ذلك من البدع التى أحدثت بعد عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وعهد خلفائه الراشدين ، لم يقصد بها أصحابها إلا زيادة الثواب والزلفى إلى الله تعالى ، فالنية حسنة ، ولكن حسن النية لا يكفي عننا للابتداع فى دين الله تعالى ، ولاغنى للسلم عن الوقوف عند حد الوارد ، وأخذ العبادة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن الله تعالى أخبرنا قبل انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى أنه أكل لنا الدين ، وأنتم نعمت علينا ، وقد روى عن مالك رضى الله عنه أنه قال : من ابتدع فى الاسلام بدعة براها حسنة فقد زعم أن محمدا صلى الله عليه وسلم خان الرسالة ، لأن الله تعالى يقول ( اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً ) ومالم يكن يومئذ ديننا فلا يكون اليوم ديننا .

وان أكثر البدع التى نشأت فى الأديان كانت بحسن نية ، وبقصد التقرب الى الله تعالى ، وجاءت من اللبالة فى التظيم والافراط فى الشناء ، ألا ترى إلى بعض المؤذنين الجملة وهو يزيد فى ألباظ الأذان والاقامة عند قوله ( وأشهد أن محمدا رسول الله ) كلمة [ سيد ] والذى حمله على ذلك محبة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم واكباره له ، وفاته أن الله تعالى أحرص على توفير الرسول وتظيمه من حرصه هو ، ولذلك قرن اسمه باسمه فى ألباظ الأذان والاقامة ، ولم يقبل من أحد الشهادة بالاسلام إلا حيث شهد له بالوحدة ، ولحمد بالرسالة ، وأن للسالة مسألة عبادة وتقرب إلى الله تعالى ، فينبغى الوقوف عند ماورد ، ولا تصح الزيادة عليه بحال ، ولو أبغنا لكل مخلص فى نيته أن يزيد فى أنواع العبادات ماشاء لفتحنا على الدين بابا من الابتداع لا يمكن أن يخلق ، ولقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبونه فوق محبتنا ، ويجاونونه فوق إجلائنا حتى



ليقف الواحد منهم في الحرب درأة له يتلقى دونه الخراب ، ومع هذه المحبة الصادقة لم يستسيحوا لأنفسهم أن يتدعوا في دينه ، وأن يحتلقوا أمورا ويستلوكوا على المشرع ، كيف وقد نهانا رسول الله عن الابتداع ، وأمرنا أن نتبع سنته وسنة خلفائه الراشدين ونفرض عليها بالتواجد .

ولعل في ذلك عبرة لقوم يستفرون عن بدعهم بأنهم لا يريدون بها سوى مرضات الله تعالى ، والتكبر من ثوابه ، وبأنهم حسنوا النية في ذلك العمل ، لأن الله لم يعف أصحاب عيسى من الاثم لأنهم ابتدعوا الرهبانية ابتغاء مرضات الله ، ولم يعف الأثم الجاهلة التي تقدم لابنها المريض الطعام الغليظ من الاثم ابتغاء انتفاعه بذلك الطعام ، ولم يعف الطبيب الجاهل الذي أودى طبعه بحياة رجل من الناس من العقوبة لأنه كان حريصا على شفائه مشغوبا بمصلحته ، ولم يعف القانون من خالفه لأنه كان حسن النية طيب السريرة .

كل ذلك دليل على أن حسن النية وحده لا يكفي عذرا في الابتداع في دين الله ، والاستدراك على التشريع .

ولعل منشأ ابتداع النصارى للرهبانية تأثير مواعظ المسيح عليه السلام عليهم في الزهد والاعراض عن لذات الدنيا ، مع العلم بأن كل رسول يحرض الناس على الزهد والاعراض عن لذات هذه الحياة والامراف فيها ، وإن كانوا يتفاوتون في هذه المسوعة على حسب تفاوت أقوامهم في الأمراض النفسية والخلقية ، فباتوا في هذه الأوامر التي صمرت من المسيح عليه السلام ، ولجئوا إلى الجبال وتركوا النساء جانباً ، وقيل الذي جعلهم على الرهبانية فرارهم من الفتنة في الدين مخلصين أنفسهم للعباد ، لأن الجبارة ظهروا على المؤمنين بمد عيسى عليه السلام ، فقاتلهم حتى لم يبق منهم إلا القليل ، غافوا أن يفتنوا في دينهم ، فاختاروا الرهبانية ، ومعناها : الفعلة المنسوبة إلى الرهبان وهو الخائف ، فعلم أن رهب كخشيان من خشى ، وقرى : ورهبانية بالضمة ، كأنها نسبة إلى الرهبان جمع راهب كراكب وركبان .

(٢) وكانى دين المسيح عليه السلام عن الرهبانية ، واعتبرها القرآن بدعة لهم في ذلك . الدين : نهى الدين الاسلامى عن الرهبانية في الاسلام والانتطاع عن النساء ، وأمر المؤمنين أن يتزوجوا ماداموا قادرين على الزواج ، وقال : إن الزواج سنة صلى الله عليه وسلم ، ومن رغب عن سنته فليس منه .

روى البخارى في صحيحه عن أنس بن مالك رضى الله عنه يقول « جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم فلما أخبروا كأنهم تالوها ، فقالوا : وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؟ فقال أحدهم : أما أنا فأصلى الليل أبدا . وقال آخر أنا أصوم الدهر ولا أفطر . وقال آخر أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا . فجاء إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إنى لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء . فن رغب عن سننى فليس منى » ( فما رعوها حق رعايتها ) أى مع أن أتباع المسيح هم الذين فرضوا الرهبانية على أنفسهم فرضا ونذروها ، وأن الله لم يكتبها عليهم - مع

ذلك مارعوها حتى رعايتها كما يجب على الناذر رعاية نفرة ، فكان فيهم الصادق والكاذب ، ولتلك عقبه بقوله ( فآتيننا الذين آمنوا منهم أجرهم ) وهم سلفهم المخلصون ( وكثير منهم فاسقون ) وهم خلفهم الرامون .

(٣) وهناك وجه آخر في فهم الآية هو أن قوله ( ابتدعوها ) لم يسبق مساق الفهم لأتلك الأقوام ، بل لارادة أن أولئك الأقوام كافوا أنفسهم مشاق ، فابتدعوا الرهبانية في المسيحية ، ولم يكتبها الله عليهم في أصل الدين ، وإنما فرضها عليهم بعد أن استحدثوها ، وأنه ما كتبها عليهم إلا ليعتقوا بها رضوان الله ويستحقوا بها الثواب ، فكتبها عليهم ليتخلصوا بها من الفتن في دين الله ، فمارعوها حتى رعايتها ، وإنما الذي رعاها بعضهم ، فآتيننا المؤمنين الراعين منهم للرهبانية ( أجرهم وكثير منهم فاسقون ) وهم الذين لم يرعوها .

والعبرة في الآية على الوجه الأول وهو الذي أميل إليه وأختاره النهي عن الابتداع في الأديان والوقوف عند مارسم الشارع لها ، والامتنان على أتباع المسيح بأن جعل في قلوبهم ( رافة ورحمة ) وكأن غلاة المستعمرين في وقتنا الحاضر ليسوا من أتباع المسيح ، ولا يتصاون به في قليل أو كثير ، وإلا فآين رحمتهم بالناس ورافتهم بهم ؟ وأين آثار تعاليم المسيح في نفوسهم ؟ أتباع المسيح جعل الله في قلوبهم ( رافة ورحمة ) ولكن غلاة المستعمرين قتلت قلوبهم من حديد ، وأكبادهم من فولاذ ، يستبيحون تيتيم الأطفال وتخريب البيوت ، وإراقة السماء في سبيل الاستعمار الجبش ، والاحتلال الممقوت ، وأين هم من أسلافهم الذين تأثروا بمواعظ المسيح حتى انقطعوا عن ملاذ الحياة ، وحرّموا على أنفسهم ما كان مباحا ؟ أين هم من تلاميذ المسيح الذين فروا بدينهم إلى قم الجبال ، وغليظ العيش ، حتى لا يظلمهم أحد ولا يظلمون أحدا ؟ إن المسيح عليه السلام ليبرأ إلى الله من ذلك العمل الوحشي ، ويقول لربه وخلقه حين يسأله عن قومه ( ما قلت لهم إلا ما أمرتني به ) ودعوتهم إليه من الرحمة بالناس وإقامة العدل ، والاصلاح في الأرض ، والبعد عن الفساد والظلم ، ولكن المستعمرين الذين يدعون في كنائسهم أنهم أشياء يسون كل تعاليمي إذا هم وضعوا أقدامهم في بلد أجنبي منهم ، فتبتدل رافتهم قسوة ، ورحمتهم غلظة ، وعدهم ظلما ، وصلاحيهم فسادا ، وتآليفهم بين الأفراد والجماعات تفريقا ، يحرصون على أن ينشروا فساد الأخلاق في البلد الذي أخذوه ، ويمسكون لأهلهم وسائر الشهوة ، ليشغلوا الناس بشهواتهم عنهم ، وحتى لا يفكروا في عمل جدي يعود على البلد بالخير ، كما يحرصون على تأليب الناس بعضهم على بعض وجعلهم شيئا وأخرابا ، لينوق بعضهم بأفس بعض ، فيصبح للمستعمر هادئ النفس قار الضمير ، لا تقف أمام أغراضه الاستعمارية عقبة من العقبات ، ويألتهم يعاملون الناس معاملة الانسان لأخيه الانسان ، وإنما يعاملونهم كقطع من النعم ، لا يقيمون لارادتهم وزنا ، ولا يعاملون لنفسيهم حسابا ، وكأنهم وكلاء الله في الأرض وأوصياؤه على الشعوب ، لا يخرج شعب من الوصاية إلا حيث اعترفوا له بالرشد ، وأقرروا له بالتقافة ، وههنا أن يعترفوا لشعب من الشعوب ذلك الاعتراف ، وكأن الناس ليسوا من أولاد آدم ، فهم عقل ولادة ، وفيهم رشاد وحزم ، وكأن العلم البني يزكي النفوس ويشقف العقول وقف عليهم وعلى أبناء جلدتهم ، أهؤلاء أبناء الذين جعل الله في قلوبهم

(رأفة ورحمة) أهؤلاء سلالة ذلك السلف الطيب القلب الذي لم يقنع بتكاليف الشريعة فأضاف إليها الرحمانية ؟ أم هم سلالة الفاسقين الجاحدين ، وأبناء الظالمين المعتدين ؟ وسوف يحاسبهم الله على ذلك العدوان الصارخ ، والظلم اليلين ، واضطهاد الشعوب بلا ذنب لها في ذلك الظلم إلا أن الله وهب المستعمر القوة ، وسلبها تلك الشعوب الضعيفة ، ومتى يمن الله على الذين استضعفوا في الأرض ويجعلهم أئمة إصلاح وتهذيب ، ويرى أولئك الظالمين جزاء سوء تصرفهم ، ومغبة استبدادهم ، إن رحمت الله قريب من المحسنين .

### عيسى عليه السلام

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذُنُكُمْ عَلَى نَجْوَةِ تُنَجِّيكُمْ مِنْ عَذَابِ إِلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَآخَرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ قَامَنْتَ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرْتَ طَائِفَةٌ فَأَبْدَأْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَى عَدُوهِمْ فَأَصْبَحُوا ظُلُمِينَ ﴿١٤﴾ الص

## شرح وعبرة

(١) (وإذ قال عيسى ابن مريم) الخ: أى اذكر لهم يا محمد الوقت الذى قال فيه عيسى ابن مريم (يا بنى اسرائيل إني رسول الله إليكم) .

ثم بين ما جاء به عيسى عليه السلام فى قوله (مصدقاً لما بين يديّ من التوراة) فهو معترف بشريعة موسى وكتابه الذى أنزله الله عليه وهو التوراة ، فكان شريعة له كما كان شريعة لموسى (ومبشراً برسول يأتي من بدى اسمه أحداً) .

وقد ثبت ذلك فى الانجيل فى عدة مواضع <sup>(١)</sup> (فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين) أى فلما جاءهم عيسى بالمعجزات الظاهرة الواضحة أنكروا عليه الرسالة ، وقالوا ان ماجئت به سحر واضح ، وليس من المعجزة فى شيء ، فأنه يأمر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يذكر الوقت الذى دعا فيه عيسى قومه إلى الله وقابلوا دعوته بالانكار ، وآياته يجعلها سحراً وتخيلاتاً لا حقيقة له اذكر يا محمد ذلك لتسلي ييسى كما تسليت بمن سبقه من الرسل ، وتصبر على ايذاء قومك كما صبر عيسى على ايذاء بنى اسرائيل وبهتهم له ، وتكذيبهم اياه ، فلم يقل لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك .

(ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى الى الاسلام) أى لا أحد أظلم من رجل يخلق الكذب على الله تعالى ويدعى أنه أوحى إليه وهو لم يوح إليه شيئاً ، والحال أنه يدعى الى الاسلام ، وينسب الى الانقياد لله تعالى ، ولا يعقل أن يكون عيسى أو غيره من الرسل من أولئك الطائفة التى أفرطت وبالت فى الخروج عن الحدود ، وادّعت على الله أنه أرسلها وهو لم يرسلها ، أو أنه أوحى اليها ولم يوح اليها شيئاً .

ثم عقب ذلك بقوله (والله لا يهدي القوم الظالمين) وكأنه يقول : ولو كانت الرسل من ذلك الصنف ما هداهما الله لحق ، ولا وفقها لأقامة حجة أو برهان ، مع أن التوفيق رائد الرسل ، والهداية حظهم فى كل زمان ومكان ، فدلّ ذلك على أنهم ليسوا قوماً ظالمين بدعوى الرسالة ، وانما هم مؤيدون من الله تعالى .

(يريدون ليطمثوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون) .

رجوع الى خصوم محمد صلى الله عليه وسلم وأعدائه الذين يحاولون بعدائهم للرسول صلى الله عليه وسلم أن يقضوا على ما بعث الله به من حق ، وما جعل على يده من هداية بكلمات تصدر من أفواههم ، كقولهم : ان الرسول ساحر أو كذاب ، وهيهات أن تؤثر هذه الكلمات على ذلك النور الساطع ، وهذا الهدى الذى طبق الأرض ، وقوله (بأفواههم) تهكم بهم وتعريض بغاوتهم ، وأن مثلهم فى ذلك مثل من ينفخ فى نور الشمس بغية ليطفئه ، فإذا كان هذا الفافخ يأمل النجاح فى إطفاء نور الشمس فكذلك هؤلاء (والله متم نوره) أى ان الله تعالى أخذ على

نفسه أن يؤيد دينه وينصر رسوله ، ويعلى كلمة الحق ( ولو كره الكافرون ) ذلك الاتعام بغير لهم أن لا يعادوا ذلك الدين ، ولا يحاربوا الحق ، لأنهم يحاولون عبثا ، ويجهدون أنفسهم في غير جدوى .

ثم أكد ذلك بقوله ( هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ) وهى بشارة من الله تعالى باظهار هذا الدين على ما سبقه من الأديان جميعها ، لأنه ملائم للفطر ، متفق وحاجات المصر ، وستنظر الناس الى العمل به اضطرارا ( ولو كره المشركون ) ذلك الظهور ، وهذه التلبة ، فان الله تعالى لا يبالي كراهتهم ، ولا يعمل حسبا لتألمهم ، ثم طالب الناس بتجارة نافعة وعمل نافع مفيد ، هى أن يؤمنوا بالله ورسوله ، ويجاهدوا في سبيل الله واعلاء دينه بأموالهم ، فيبذلوها عن طيب نفس ، وأنفسهم فلا يشحوا بها في سبيل الدعوة والرجل الذى يجود بنفسه وماله وهما أعزّ عزيز لديه هو المؤمن حقا ، ولذلك قال ( ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ) يفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم ) وأى فوز أعظم من هذا ؟ ثم قال ( وأخرى تحبونها ) ومزية أخرى تحبونها من قرارة نفوسكم ( نصر من الله ) على الأعداء ( وفتح قريب وبشر المؤمنين ) الذين يجودون بنفوسهم وأموالهم في سبيل مرضات ربهم .

( ٢ ) ( يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ) الخ .

يحث الله تعالى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بأن يكونوا أنصار الله كما كان أصحاب عيسى من الحواريين حين قال لهم من أنصارى إلى الله ، فقال الحواريون : نحن أنصار الله : أى انصروا دين الله مثل نصرة الحواريين عند ما قال لهم ذلك ومنصرة الله تعالى تكون في العمل بدينه ، والقفاع عن بيعته ، والوقوف عند ما رسم من الحدود ، وفي دعوة أصحاب محمد ومن بلفنهم دعوته الى مناصرة الله كما كان الحواريون يناصرون عيسى عليه السلام - في ذلك ما يدل على أن الحواريين أصحاب عيسى كانوا مؤمنين حقيقة ، ولم يكونوا منافقين ، وكان طلبهم مائدة من السماء عن اخلاص وحسن نية ، ولم يكن الغرض احراج عيسى أو اعنائه ، وهو أحد الرأيين في من طلبوا من عيسى مائدة من السماء ، ولو كانوا متعنتين في طلب المائدة ما طالب الله أصحاب محمد أن يكونوا مثلهم في مناصرة الله تعالى ، وما جعلهم مثلا صالحا يتأسى بهم ويقتدى بعملهم ، وقوله ( فأمنت طائفة من بنى اسرائيل وكفرت طائفة ) بيان لسنة الله مع كل رسول ، وهى أن يؤمن به فريق ويكفر به فريق ( فأيدنا الذين آمنوا على عقوبهم فأصبحوا ظاهرين ) ترغيب في الايمان وبيان لعاقبة المؤمنين ، وهى تأييد الله لهم ، وتمكينهم في الأرض كما قال ( ولقد سبقت كتبنا لعبادنا المرسلين « ١٧١ » انهم لهم المنصورون « ١٧٢ » وان جندنا لهم الغالبون « ١٧٣ » ) ( ١ ) .

وهذه سنة الله مع أنصار رسوله في كل زمان ومكان ، وهى لا تختلف ولا تتحلف ، جعلنا الله تعالى من أنصار دينه ، المؤيدين لرسوله .

## دعوة خاتم الرسل



صلى الله عليه وسلم

إلى الله تعالى

(١) أرانى وأنا قادم على ذلك القسم مقبلا على عمل من أشق الأعمال ، إذ أن غايى من ذلك القسم أن أصور للقارىء كيف كانت دعوة محمد صلى الله عليه وسلم الى الله تعالى ، وقد كان لهذه الدعوة عدوان لدودان : عدو بمكة ، وهم مشركو العرب وصناديد قريش ، وعدو بالمدينة ، وهم اليهود ، وكيف انتصر محمد صلى الله عليه وسلم عليهما جميعا ، ويمكن الله لهيبه فى الأرض بفضل اعتصامه بالحق ، وصبره على الأذى ، وتأديب الله تعالى له .

نعم هى مهمة شاقة أن يتناول مثل الدعوة المحمدية فيحيط بأطرافها ، ويجلبها للناس تقيية خالصة ، ولكن الذى هوّن على المهمة أننى لم أرد أن أعرض للدعوة من الناحية التى عرض لها علماء السبر ، وإنما أريد أن أعرض لها من طريق القرآن نفسه ، كما عرضت للدعوة من سبقه من الرسل من هذا الطريق .

أما الأحداث التاريخية التى وقعت له صلى الله عليه وسلم ولأصحابه بمكة والمدينة فقد كفانى مؤنة الكتابة فيها أولئك العلماء ، وبذلك تهون المهمة نوعا ما ، وتسهل على مثلى ، فقد نقلنا من تاريخ الرسل الذى حدثنا به القرآن الكريم قصبا كبيرا ، وشرحناه للقراء شرحا مجلى غامضه ، ويقف بالقارىء له على شىء كثير من العبر فيه ، ويطلعه على سفين الله فى المصالحين ، وكيف يؤيدهم الله وينصرهم على الرغم من وضع العقبات فى سبيلهم ، ويطلعه على سننه فى الفسدين ، وكيف يخذلهم ويخونهم ، ويجعلهم عبرة ومثلا لمن يأتى بعدهم .

وكذلك حالنا في دعوة رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم الى الله تعالى نبين لهم فيها مآلقاته من قومه من عنت وما صادفه من عقبات ، وكيف اخترق ذلك كله بما آتاه الله من صبر وحكمة وما هداه الله اليه من آداب وتعاليم شأن بقية الرسل صلوات الله وسلامه عليهم .

وسأجل حياة الرسول صلى الله عليه وسلم في الدعوة الى الله تعالى قسمين : قسما منها قبل هجرته الى مكة ، وقسما بعد الهجرة ، ثم أبين كيف كانت طريقة الرسول في مكة ، ثم في المدينة ثم أبين ماذا دعا اليه في مكة وماذا دعا اليه في المدينة ، وما انتهى لقاؤه في حياته الأولى وحياته الثانية ، مستشهدا بآيات من القرآن الكريم على كل ذلك .

## محل صلى الله عليه وسلم دعوته في مكة

(٢) بعث النبي صلى الله عليه وسلم وهو بمكة على رأس الأربعين ، ومدة أقامته بمكة بعد البعثة اثنتا عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوما من ١٧ رمضان سنة ٤١ من ميلاده إلى أول ربيع الأول سنة ٥٤ ، وما نزل من القرآن في هذه المدة يقال له المكي .

ومكث بالمدينة النبوة بعد الهجرة تسع سنوات وتسعة أشهر وتسعة أيام من ميلاده صلى الله عليه وسلم ، من أول ربيع الأول سنة ٥٤ إلى تاسع ذي الحجة سنة ٦٣ وما نزل من القرآن بعد الهجرة يقال له المدني .

## المكي والمدني من القرآن

مجموع القرآن الكريم أربع عشرة سورة ومائة : أولها الفاتحة ، وآخرها الناس ، والصور المدنية هي : البقرة - آل عمران - النساء - المائدة - الانفال - التوبة - الحج - النور - الأحزاب القتال - الفتح - الحجرات - الحديد - المجادلة - الحشر - المتحنة - الصف - الجمعة المنافقون - التباين - الطلاق - التحريم - إذا جاء نصر الله .

جملتها أولئك السور المدنية ثلاث وعشرون ، ومآعدها وهو مائة وإحدى وتسعون مكية ، والمختار عند العلماء أن المدني ما نزل بعد الهجرة ، وإن كان في غير المدينة ، كالنبي نزل في فتح مكة ، وللكي من السور ما نزل قبل الهجرة وإن لم يكن في نفس مكة .

والغالب في السور المكية أن تكون آياتها قصارا ، ولعل حكمة ذلك أن الخطابين بها مشركو العرب وهم أبغ العرب وأفصحهم ، وعلى الإيجاز مدار البلاغة عندهم ، ومعظم السور المكية زواجر ويان لأصول الدين بالأجلال .

أما السور المدنية ففي أسلوبها شيء من الاسهاب ، ولا سيما في مخاطبة أهل الكتاب . لأنهم أقل بلاغة وفهما من العرب الخالص ولا سيما قريش ، وفيها بيان مآلاته منه من الأحكام العملية في العبادات والعاملات الشخصية والمدنية ، والسياسية والحربية ، ولأصول الحكومة الإسلامية والتشريع فيها كما تراه في طوال الفصل منها كالبقرة والنساء والمائدة .

## المسكى من القرآن

(٣) أما المسكى من السور فهو يدور حول أصول الدين من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وتوحيده في الألوهية والربوبية ، والإيمان بالبعث والجزاء ، والعمل الصالح والدعوة إلى الأخلاق .

وقد أفاض القرآن الكريم في الكلام على أولئك الأثمة ، لأنها أصل الدين وعماده ، فهي جديرة بالعناية ، ولأن من فقد هذه العقيدة ، وهي العقيدة في الله تعالى ووحدته وجزائه فقد فقد الخير كله ، وليس من دين الله في شيء ، وفي اعتقادي أن الذي يجري الناس على التهاون في العبادات ، ويوقعهم في المعاصي ضف عقيدتهم في الله من جهة وعده ووعيده ، واعتمادهم على الشفعاء والوسطاء .

ولو أن الناس فهموا عقائد الدين فهما صحيحا ، وتمكنت هذه الأصول من نفوسهم تقيّة خالصة لكان لهم حال أحسن من ذلك الحال الذي نراه اليوم .

والعبرة للقارىء في ذلك أن يتأسى بالقرآن الكريم في عنايته بالعقائد والأثمة ، وجعلها في المحلّ الأول ، والعمل على تطهيرها من كلّ شيء يحاطها ، فانها متى كانت كذلك أنت أكملها كلّ حين باذن ربها ، وبسطت أشعتها على جوارحه ، فتنهض للخير راضية مطمئنة ، وتبعد عن الشرّ كذلك ، وكيف لا تكون العقيدة في تلك المكانة وهي في القلب الذي جعله الله مهيمنا على الجسد كله ، ورئيسا عليه يصرفه كما يريد ، ويستخدمة كيف شاء .

أليس القلب رئيس الجوارح تصلح بصلاحه وتفسد بفساده ، نعم هو رئيسها وقائدها ، وهو هو الذي يوحى إليها الخير والشرّ بعد أن يتلى بنور الخير أو ظلمة الشرّ ، فكان من الخير للناس أن يبنى القرآن الكريم بتثبيت عقائدهم ، وتخليصها من الشبه والشكوك ، وجعلها بحيث تقود صاحبها إلى سعادته في دينه ودنياه .

## وحدة الله تعالى

(٤) قد أفاض القرآن الكريم في الكلام على وحدة الله تعالى في خلقه ورزقه وإحيائه وإماتته كما أفاض في الكلام على وحدته في العبادة ، وأن لا يسمع أن نعبد غيره أو نلجأ إلى سواه . ولما كانت العرب يعترفون بأنه تعالى هو الذي خلق السموات والأرض ، لم يشأ أن يذكر ذلك النوع من التوحيد إلا على سبيل التذكير بتلك الوحدة ، وحمل القوم على الاعتراف بها . لينقلهم من ذلك الاعتراف إلى توحيد الله تعالى في العبادة ، وإفراده بإسلام الوجه له في هداية قلوبنا ، وإغاثة اللهوف منا ، وإجابة للضطرّ ، ومادام الناس موحدون لله تعالى في خلقه ورزقه . وإحيائه وإماتته فلماذا لا يوحى في عبادته والتوجه إليه ؟ وإني ذاكر نموذجاً من دعوة القرآن إلى التوحيد وتقييح الشرك وتسفيه أصحابه .



الآيات

قُلْ أَغْيِرَ اللَّهُ أَمْعِدُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ قُلْ  
إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ «١٤» قُلْ إِنِّي  
أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ «١٥» مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ  
رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ «١٦» وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ  
وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِنُحَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ «١٧» الأسماء

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا<sup>(١)</sup> لَهُ بَيْنَ وَبَيْنَ يَنْتَرِ عِلْمُ سُبْحَتِهِ  
وَتَمَلُّ عَمَّا يَصِفُونَ «١٠٠» بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ  
تَكُنْ لَهُ صُحْبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ «١٠١» ذَلِكُمْ اللَّهُ  
رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ  
وَكَيلٌ «١٠٢» الأسماء

أَيُّشْرَكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ «١٩١» وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ  
نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ «١٩٢» وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ  
عَلَيْكُمْ أَدْعَوْهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَمِتُونَ «١٩٣» إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ  
عِبَادُ أُنثَىٰ لَكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ «١٩٤» أَلَهُمْ  
أَزْجُلٌ يَمْسُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أُنْدٌ يَنْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ  
ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظِرُونِ «١٩٥» إِنْ  
وَلِيََّ اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ «١٩٦» وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ

دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ «١٩٧» وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى  
الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ «١٩٨» الأعراف

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ  
يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ  
اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ «٣١» فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَإِذَا بَعَدَ الْحَقُّ إِلَّا  
الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ «٣٢» كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ  
لَا يُؤْمِنُونَ «٣٣» قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ  
يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ «٣٤» قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ  
يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ  
لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ «٣٥» وَمَا يَدَّبَحُ  
أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا  
يَفْعَلُونَ «٣٦» يونس

وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا  
مِنَ الظَّالِمِينَ «١٠٦» وَإِنْ يَمَسُّنَكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ  
يُرِيدُكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ  
الرَّحِيمُ «١٠٧» يونس

يُصْحَبِي السَّجْنِ ۚ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ «٣٩»  
مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ تَمْيِثُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ ۖ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ

مُطْلَنَ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا قِطْعُهُ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ «٤٠» يوسف

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفْتِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِيهِ وَمَا دَعَا الْكُفْرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ «١٤»  
وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلْمُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ «١٥» قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتُخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُوا الْخَلْقَ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ «١٦» المد

أَفَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ «١٧» وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ «١٨» وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ «١٩» وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ «٢٠» أَمُوتُ غَيْرَ أَحْيَاءَ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ «٢١» إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ قَالَتِ الَّذِينَ لَا يَبُوءُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ «٢٢» النحل

وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارِهُونَ «٥١» وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ «٥٢» وَأَصَابَا أَفْصَحَ اللَّهُ تَقْوُونَ «٥٣» ثُمَّ إِذَا كُفِّرَتْ عَنْكُمْ إِذَا فَرِقَ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ «٥٤» النحل

أَفَاصْفِيكُمْ<sup>(١)</sup> رَبُّكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَأَتَّخِذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْسَانًا لِّتَقُولُوا  
قَوْلًا عَظِيمًا «٤٠» وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا  
تُفُورًا «٤١» قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا تَبْتَغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ  
سَبِيلًا «٤٢» سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا «٤٣» الاسراء.

قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِنْ دُونِهِ، فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ  
وَلَا تَحْوِيلًا «٥٦» أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ  
وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا «٥٧» الاسراء.

وَإِذْ كُنْ فِي الْكَتِّبِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا «٤١» إِذْ قَالَ لِأَيُّهَا  
يَا بَتِ لِمَ تَعْبُدُنَا مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا «٤٢» مريم.

أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ ثُمَّ يُنْشِرُونَ<sup>(٢)</sup> «٢١» لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ  
إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ «٢٢» لَا يُسْئَلُ عَمَّا يُفْعَلُ  
وَهُمْ يُسْأَلُونَ «٢٣» أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ  
مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ «٢٤»  
وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ «٢٥»  
وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ «٢٦» لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ  
وَهُمْ بِأَنزَارِهِمْ يَعْمَلُونَ «٢٧» يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ  
أَرَادَ تَحِيًّا وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ «٢٨» وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ  
فَذَلِكُمْ تَجْرِي بِهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ تَجْزِي الظَّالِمِينَ «٢٩» الأنبياء.

قُلْ مَنْ يَخْلُقُكُمْ<sup>(١)</sup> بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرِّيحِ بَلْ تُحِبُّونَ دُونَهُمْ  
مُعْرِضُونَ «٤٢» أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ  
وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ «٤٣» بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْمُرُ  
أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ «٤٤» الْأَنْبِيَاءُ

يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ  
يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ  
الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ «٧٣» مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَتَّى قَدَرُوا اللَّهَ لَقَوِيَ عَزِيزٌ «٧٤» الْحَجَّ

قُلْ لِيِنَّ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ «٨٤» سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ  
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ «٨٥» قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ «٨٦»  
سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ «٨٧» قُلْ مَنْ يَدِينُ مَلَائِكَةُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ  
يُخِيرُ<sup>(٢)</sup> وَلَا يُخَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ «٨٨» سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى  
تُسْحَرُونَ<sup>(٣)</sup> «٨٩» بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ «٩٠» مَا اتَّخَذَ اللَّهُ  
مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى  
بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ «٩١» هَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَمَالَى عَمَّا  
يُشْرِكُونَ «٩٢» الْمُؤْمِنُونَ

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ؕ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ «٥٩»  
أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ  
ذَاتِ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ؕ أَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ اللَّهُ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ «٦٠»

أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلْفَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوِاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ  
الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَوَّلُهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّنْ يُجِيبُ  
الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَوَّلُهُ مَعَ اللَّهِ فَلْيَلِدَا  
مَا تَدَّكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ  
بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَوَّلُهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّنْ يَبْدُو  
الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَوَّلُهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا  
بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ النمل

مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْفَكَّابِ أَخَذَتْ يَتِيمًا وَإِنْ  
أَوْهَنَ الْيَتِيمِ لَيَبْتَغِيَ الْفَكَّابُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعَوْنَ  
مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ النعكوت

قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ  
وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ سبأ

مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ  
مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ  
هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاقْنِي  
تَوَافَكُونَ ﴿٣﴾ طاهر

يُوجِلُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوجِلُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ  
يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ

مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ <sup>(١٣)</sup> « ١٣ » إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا  
مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكَكُمْ وَلَا يُبْنِتُكَ مِثْلُ  
خَيْبٍ <sup>(١٤)</sup> ططر

قُلْ أَنْتُمْ لَكُمْ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا  
ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ <sup>(٩)</sup> « ٩ » وَجَعَلَ فِيهَا رَوَابِي مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا  
أَقْوَامَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمَ <sup>(١٠)</sup> « ١٠ » ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ  
فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أَنْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ <sup>(١١)</sup> « ١١ » فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ  
سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا  
ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ <sup>(١٢)</sup> فصلت

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ  
شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنْتَوِي بِكُتُبٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ <sup>(٣)</sup> « ٣ » مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ  
صَادِقِينَ <sup>(٤)</sup> « ٤ » وَمَنْ أَضَلُّ يَمُنَّ بِدَعْوَا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ  
الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفُولُونَ <sup>(٥)</sup> « ٥ » وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ وَكَانُوا  
بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ <sup>(٦)</sup> الأحقاف

### الرسالة والجدل فيها

(٥) ان من ينجع نصوص القرآن الكريم يرى أن الجدل في الرسالة بدأ منذ عهد نبي الله  
نوح عليه السلام ، ثم انتقل من بعده الى قوم هود وثمود ، ومازال كذلك حتى وصل الى عهد  
نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد كان جدلهم فيها مبني على شبهة توارثها بعضهم عن بعض ،  
هي أن الرسول لا يصح أن يكون بشرا يأكل الطعام كما يأكل الناس ، ويعني في الأسواق  
كالمعشون ، ويجب أن يكون من صف اللاتسكة ، وإذا لم يكن منهم فليكن معه ملك ليدلنا على  
صدق ذلك الرسول من البشر .

وقد تكفل القرآن الكريم بالرد على هذه الشبهة الواهية ، وبيان أن سنة الله في جميع الأزمنة أن يرسل الى الناس واحدا منهم ، يختاره لذلك النصب ، ويصطفيه لهذا العمل .  
أما اللاتسكة فليس من سنته أن تكون رسالة الله للناس على أيديهم من طريق علني واضح ، لأن الله تعالى لو جعل الرسول من اللاتسكة لجعله على شكل الرجل ليقاسب مع القوم الذين أرسل إليهم ، وحين ذاك يرجعون الى جدهم فيه ويلتبس الأمر عليهم .  
على أن من سنة الله تعالى أن ينزل اللاتسكة عند إرادة العذاب بالقوم ، لذلك كله عنى القرآن الكريم بذكر هذه الشبهة والرد عليها في سور كثيرة منه .

على أن المسألة مسألة جدل وعناد ، لا مسألة شبهة احتوت على نفوس القوم فلم يستطيعوا إخلاص منها ولكن الله تعالى لم يرد أن يتركهم وشأنهم ، بل عرض لها ولما يدحضها ، وبين أنهم جده متعنتين ، ليس من مهمهم الوصول الى حق ، أو الفرار من باطل ، وهذه طائفة من آي الذكر الحكيم تريك مقدار تشبههم بتلك الشبهة ، كإترك قيمة الشبهة في ذاتها .

### الآيات

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا  
إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا  
لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ  
مَا يَلْبَسُونَ ﴿٩﴾ اللَّهُمَّ

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ  
أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ لِيَجْزِيَ قِرَاطِينَ<sup>(١)</sup>  
ثُبُوتَهَا وَتُحْفُونَ كَثِيرًا وَعُلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَلْمُؤُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلْ اللَّهُ ثُمَّ  
ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي  
بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ  
وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ  
أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلَ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ



الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ «٩٣» الأنعام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ «١» أَكَانَ لِلنَّاسِ عِجَابًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِדْقٍ <sup>(١)</sup> عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ <sup>(٢)</sup> يونس

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ «٢٥» أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ «٢٦» فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَايِكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَايِكَ أَتَبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا <sup>(٣)</sup> بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا تَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ تَنْظُرُونَ كَذِبِينَ «٧٢» مود

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَاُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ «٩» قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَلِىَّ اللَّهُ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنُتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَثُونَا بِسُلْطَنِ <sup>(٤)</sup> مُبِينٍ «١٠» قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ

[١] قدم صديق : منزلة رفيعة . [٢] أراذلنا : هزأونا ، بادى الرأي : بلا بحث .

[٣] سلطان : برهان .

إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ابراهيم

وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنْزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعٍ <sup>(١)</sup> الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ <sup>(٢)</sup> فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ <sup>(٣)</sup> ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ <sup>(٤)</sup> أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ الحجر

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمَشُّونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ الاسراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُوا

[١] شيع : فرق . [٢] نسله : نسله . [٣] يرجون : يصدقون .

[٤] سكرت : تمتت عن الابصار بالسر .

النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ «٣» الانبياء

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ «٢٣» فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ «٢٤» إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَبَرِّضُوا «١» يٰ هِ حَتَّى حِينٍ «٢٥» قُلْ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ «٢٦» المؤمنون

وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا «٧» أَوْ يُبَلِّغُنَا إِلَيْهِ كِتَابًا أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا «٨» أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا «٩» تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا «١٠» الفرقان

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَضْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا «٢٠» الفرقان

وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ «٤» أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنْ هَذَا إِلَّا لَشَيْءٌ مُجَابٌ «٥» وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ

أَمْشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِثْلَةِ  
الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ ﴿٧﴾ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ لَمْ يَكُنْ فِي شَكٍّ  
مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدْعُونَكَ عَذَابِ ﴿٨﴾ سَـ

### البعث والجـزاء

(٦) وكذلك من أصول العقائد التي أجمعت عليها الشرائع السماوية بعث الناس وجزاؤهم على ما قدموا في هذه الحياة .

وقد كان النزاع في ذلك الأصل كبيرا ، ولا يزال فريق من الناس ينكرون أن يكون لهم حياة وراء هذه الحياة ، وقد أكثر القرآن الكريم من الرد على هذه الطائفة التي تنكر البعث ، وأقام عليهم الحجة نلوا الحجة ، وأرأى أنهم يشاهدون عملية البعث تنكروا على صهاى منهم كل يوم ، إذ يرينا أن من آيات الله أن ترى الأرض خاشعة يابسة ، فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزت وربت وأن ذلك حياة لها بعد الموت ، وأن الذى أحياها هو الذى يحيى الموتى .

ثم أضاف الى هذه حجة أخرى ، هي أن الحكمة تقضى أن يكون للناس حياة ينصف فيها المظلوم من الظالم ، والضعيف الذى استغل ضعفه في هذه الحياة الدنيا ، من القوى الذى ناله شيء من آذاه ، والله تعالى يرينا أن ترك الناس بلا بعث ولا نشور هو ضرب من السفسفة الذى يتزده الله تعالى عنه ، فكان من الواجب بمقتضى حكمة الله وعده أن يفشر أجسام الناس من قبورهم ، ويعيد إليهم حياتهم ، ليحصدوا في تلك الحياة ما زرعوا في الدنيا ، ويجنوا ثمار ما قدموا ( أعجب الإنسان أن يترك سدى «٣٦» ألم يك نقطة من منى بمعنى «٣٧» ثم كان علقه نخلق فسوى «٣٨» فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى «٣٩» أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى «٤٠» ) من سورة القيامة .

### الآيات

وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ  
فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾  
وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُتَجَوِّرٌ وَجُنُودٌ مِنْ غُيُوبٍ وَزَرْعٌ وَنَحِيلٌ صِنْوَانٌ ﴿٤﴾ وَغَيْرُ  
صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفْضِلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ

لَا يَتْلُوهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ وَإِنْ تَعَجَّبَ فَسَعِبْ قَوْلَهُمْ أَهَذَا كُنَّا تُرَابًا أَوْ نَا  
لْنِي خَلَقِي جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ  
وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥٠﴾ الرعد

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ <sup>(١)</sup> لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا  
وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لَيُثَبِّتَنَّ لَهُمُ اللَّهُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ  
الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ  
لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ النحل

وَقَالُوا أَهَذَا كُنَّا عِظَمًا وَرُفُئًا <sup>(٢)</sup> أَهَذَا نَا لَمُبْعُونَ خَلَقْنَا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ  
كُونُوا حِجَارَةً <sup>(٣)</sup> أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ  
فَسَقُولُونَ مَنْ يُمِدُّنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ <sup>(٤)</sup> إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ  
وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ  
بِحَمْدِهِ وَتَنْظُنُونَ إِنَّ لَكُمْ إِلَهًا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ الاسراء

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ  
مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ <sup>(٥)</sup> وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنَبِّينَ لَكُمْ وَنُقَرُّ  
فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ  
وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ  
شَيْئًا وَرَأَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ

[١] جهد أيمانهم : مجتهدين فيها . [٢] رفأ : رفأ : ٢٢٥ .

[٣] كونوا حجارة الخ : أى فلا تصاحون على الحياة فكيف إذا كنتم عظاما .

[٤] ينضضون : يحركونها تحييا واستواء . [٥] مخلقة : ملء من اليب ، ( أرذله العمر ) : الهرم  
والخرف ، ( هامة ) : ميتة يابسة ، ( بهج ) : حسن سائر .

كُلِّ ذَوْجٍ بِرَجٍّ «٥» ذَلِكَ بَأَنَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ «٦» وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ «٧» الحج

بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ «٨١» قَالُوا أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ «٨٢» لَقَدْ وَعَدْنَا لَكُنْزُ وَءِابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ «٨٣» قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ «٨٤» سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ «٨٥» قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ «٨٦» سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ «٨٧» قُلْ مَنْ يَدِينُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُحْيِيهِ<sup>(١)</sup> وَلَا يُمَيِّتُهُ<sup>(٢)</sup> وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ «٨٨» سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ<sup>(٣)</sup> «٨٩» بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ «٩٠» المؤمنون

وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ «٢٧» الروم

اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتَنُفِثُ سَحَابًا فَيَنْسُطُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا<sup>(١)</sup> فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ «٤٨» وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ لُبِّلِسِينَ<sup>(٢)</sup> «٤٩» فَأَنْظِرْ إِلَى آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنْ ذَلِكَ لَخَيِّ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ «٥٠» الروم

[١] أساطير : أ كاذب . [٢] يجبر : يبعث ، ولا يجار عليه : لا يبعث أحد منه أحداً .

[٣] تسحرون : تخدعون عن توحيدهم وطاعته . [٤] كسفاً : قطاً ، الودق : المطر .

[٥] مبلسين : من الابلأس ، وهو الحزن المترس من شدة اليأس .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِقْتُمْ كُلٌّ مِرْقٍ لَأَنكُم لَنِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَقَلَّمْ يَرَوْنَ إِلَى مَا يَمِينُ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نُخَفِّفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا ﴿٩﴾ مِنَ السَّمَاءِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّتَّبِعٍ ﴿٩﴾ سبَا

فَاسْتَفْتِهِمْ أَمْ أَسْأَلُكُمْ أَنْ تَخْلُقُوا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ نَحْيِيكَ وَنَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا دُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمْ دَامِنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَمْ نَأْمُرُ الْمَلَكُوتَ ﴿١٦﴾ أَوْءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَسَمٌ وَأَنْتُمْ دُخْرُونَ ﴿١٨﴾ فَلِئِمَّا هِيَ زَجْرَةٌ ﴿١٩﴾ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾ الصافات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ق وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ نَحْيِيكَ أَنْ تَقُولَ هُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكُفَرُونَ هَذَا شَيْءٌ مُّحْيَبٌ ﴿٢﴾ أَمْ دَامِنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ ﴿٣﴾ بِمَيْدٍ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴿٥﴾ أَقَلَّمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْحِي وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَازِجٍ ﴿٧﴾ تَبَصَّرَةٌ وَذِكْرِي لِكُلِّ عَبْدٍ مُّتَّبِعٍ ﴿٨﴾ وَزَرَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ

[١] كسفا : قطعا «متتبع» راجع إلى الله . [٢] لازب : لزوج .

[٣] يستسخرون : يبالغون في السخرية . [٤] داخرون : صاغرون . [٥] زجرة : صيحة .

[٦] رجع : العودة إلى الحياة : [٧] مرجج : مضطرب .

[٨] فروج : فانس . [٩] الحصيد : الزرع الذي يحصد .

بِاسْقِيتِ<sup>(١)</sup> لَهَا طَلْعَ تَضِيدِ<sup>(٢)</sup> «١٠» رِزْقًا لِلْمَيَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ «١١» ق

## المعمل الصالح

(٧) من مقاصد القرآن الكريم دعوة الناس الى العمل الصالح ، وهو من آثار الإيمان بالله تعالى وجزائه ، والعمل الصالح من دلائل العقيدة الصحيحة ، فان من يقتنع بوعد الله ووعيده ، ولا يخالجه شك في ذلك الاعتقاد لا يقع في معصية ، وان وقع فيها كان ذلك على ندور ثم يتوب من قريب ، والقرآن يحدثنا أن الشأن في المؤمنين أنهم إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم بشيء ينضب الله تعالى ذكروا الله تعالى في وعده ووعيده ، وما أعدّه للعصاة من عذاب ، فاستغفروا لذنوبهم ولم يصروا على فاحشتهم ، وهم يعلمون أنها تقضب الله تعالى وتستوجب مقتله ، فإذا رأينا رجلاً مدمناً لمعصية من المعاصي ، وهو مطمئن الى عمله هذا راض به ، كان ذلك الادمان أماراً أنه ليست له عقيدة في الله صادقة ، وإذا رأينا آخر خلقه الاستقامة ، وإذا وقعت منه سيئة لسبب من الأسباب تاب من قريب ، دل ذلك على أنه صحيح الإيمان سليم الاعتقاد .

وجله القول أن العمل الصالح رهان على صحة العقيدة ، وثمرة من ثمارها فهي تمدّه ونستمد منه قوتها وثباتها ، فكلما أكثر المؤمن من المعمل الصالح قوى اعتقاده في الله ، وكلما كان اعتقاده في الله قوياً جله ذلك على العمل الصالح .

وحسبنا أن الله تعالى جعل سعادة المؤمن في الإيمان والمعمل الصالح ، ولم يجعلها لصاحب العقيدة ، وهذه آيات القرآن الكريم تدلّ على ذلك ، وتروشد الى أن العمل ضروري للمؤمن ، وأن الجنة لاتنال بغير العمل وأن من يدعى الإيمان بالله ثم يعصيه ، ويدمن على ذلك المعصيان ، لا يبالى الله تعالى بإيمانه ولا يقيم لعقيدته وزناً ، لأنها من الوهن والضعف بمكان .

## الآيات

وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ «١٣٣» الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُطُوبِ الْفَيْضِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ «١٣٤» وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى



مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ «١٣٥» أُولَئِكَ جَزَاءُكُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّتْ تَجْرِي  
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنَبِّئِ أَجْرُ الْمُغْلِبِينَ «١٣٦» آد مرث

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِذْنِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ  
الْأَنْهَارُ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ «٩» دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَنَحْمُكَ فِيهَا سَلَامٌ  
وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ «١٠» بونس

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْفَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً  
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ «٩٧» النحل

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا «١٠٧»  
خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا «١٠٨» الصكهف

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ  
كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ  
مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ  
فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ «٥٥» النور

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذِلُّكُمْ عَلَى نَجْوةٍ تُخَلِّصُكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ «١٠»  
تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَُمْ خَيْرٌ  
لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ «١١» يَقْرِزْ لَكُمْ دُوبِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ  
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّتِ عَذْنِ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمِ «١٢»  
وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ «١٣» الصف

فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ «٨» يَوْمَ يُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ لِمَا كَسَبَتْ يَوْمَ ذَلِكَ يَوْمُ التَّنَاقُصِ (١) وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ «٩» النِّعَان

إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (٢) «١٩» إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا «٢٠» وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا «٢١» إِلَّا الْمُسْلِمِينَ «٢٢» الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَأَائُونَ «٢٣» وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّأْلُومٌ «٢٤» لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ «٢٥» وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ «٢٦» وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ «٢٧» إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ «٢٨» وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ «٢٩» إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ «٣٠» فَمَنْ أَتَعْنَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ «٣١» وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ «٣٢» وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ «٣٣» وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ «٣٤» أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ «٣٥» المَارِج

مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ «٤٢» قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ «٤٣» وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمِسْكِينَ «٤٤» وَكُنَّا نَحْوُزُ مَعَ الْخَائِضِينَ «٤٥» وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ «٤٦» حَتَّى أَتَيْنَا الْيَقِينَ «٤٧» قَدْ تَفَهَّمُوا شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ «٤٨» الدَّر

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ «٤» ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ «٥» إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٣) «٦» التَّيْن

وَمَا أَمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ (١) وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ

[١] النِّعَان : يقين في المؤمنين الكافرين لأخذه من نارهم في الجنة . [٢] هَلُوعًا : يفسره ما بعده .  
[٣] مَمْنُون : مطيع . [٤] حُنَفَاءَ : مسيحين على دين إبراهيم .

وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ <sup>(١)</sup> «٥» إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ  
وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ «٦» إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا  
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ «٧» جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ  
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ  
خَشِيَ رَبَّهُ «٨» البينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْمَقْصَرِ «١» إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خُمُرٍ «٢» إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ  
وَتَوَصَّوْا بِالْحَقِّ وَتَوَصَّوْا بِالصَّبْرِ «٣» المص

## الأخلاق

(٨) من أهم مقاصد القرآن نشر الأخلاق والدعوة الى الفضيلة ، وهو يشمل الدعوة الى  
العمل الصالح والنهي عن المسكرات الظاهرة والباطنة ، كما يناول آداب الدعوة الى الله تعالى ،  
وآداب البيوت والارل ، وآداب الخدم مع مخدومهم .

وانك لترى من عبادة القرآن الكريم بذلك القسم ما يحقر أمامك ما عليه للتمدينون من أدب  
قل لى بر بك أى أدب يقارب ذلك الأدب الدينى الذى يلفتنا إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى  
(يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من  
قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم  
ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن) .

يطلب الى المخدومين أن يعلموا بماليكهم والذين لم يبلغوا الحلم من أولادهم وخدمهم الاستئذان  
عليهم فى أولئك الأزمنة الثلاثة ، من قبل صلاة الفجر ، وحين يخلعون ثيابهم للراحة عند الظهر ،  
ومن بعد صلاة العشاء ، لأن الشأن فيهم فى هذه الأوقات أن يكونوا على هيئة لا تسمح برؤيتهم  
وقد يقع نظر الخادم أو المملوك على عورة لهم ، ومن أجل ذلك أمروا بالاستئذان عليهم ، لأنها  
أوقات عورة ، وبعد هذه الأوقات يدخلون عليهم بلا حرج لأنهم مستعدون لمروهم بهم .

قل لى بر بك أنتستطيع المدنية الحاضرة أن نل لنا مثل ذلك الأدب أو ما يقاربه ؟ ولذلك  
يعقب الله عليه بقوله (كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم) نعم هى آيات انه أدب الهى  
وضعه علم لا يحجل ، وحكيم لا يعبث .

## الآيات

قُلْ تَعَالَوْا أَنزَلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّنْهُ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِلَيْنِ<sup>(١)</sup> نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ<sup>(٢)</sup> وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ وَالْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكُمْ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ<sup>(٣)</sup> الانعام

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ<sup>(٤)</sup> تُوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ<sup>(٥)</sup> وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ<sup>(٦)</sup> مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ<sup>(٧)</sup> يَتَّبِعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ<sup>(٨)</sup> إبراهيم  
وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ<sup>(٩)</sup> فِيهِ الْأَبْصَارُ<sup>(١٠)</sup> ٤٢ مُهْطِعِينَ<sup>(١١)</sup> مُقْنِعِي<sup>(١٢)</sup> رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنِدُثُهُمْ هَوَاءً<sup>(١٣)</sup> ٤٣ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنَ زَوَالٍ<sup>(١٤)</sup> ٤٤ وَسَكَتُهُمْ فِي مَسْكِنٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا

[١] إلاق : قرر . [٢] اجتثت : استوصلت ، وأخذت بجذعها كاملة .

[٣] تشخص : لا تهرق أماسها . [٤] مهطعين : مسرعين إلى الداع .

[٥] مقني : رافعي . [٦] هواء : خلاء من الفهم لفرط الدهشة .

أَنفُسُهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ «٤٥» وَقَدْ مَكَرُوا  
مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكَرُهُمْ لَتَرُولٍ مِنْهُ الْجِبَالُ «٤٦» فَلَا  
تَحْسِبَنَّ اللَّهُ مُخْلِفًا وَعَدِمَ رَسُولُهُ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ «٤٧» يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ  
غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ «٤٨» وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ  
مُقَرَّنِينَ <sup>(١)</sup> فِي الْأَصْفَادِ <sup>(٢)</sup> «٤٩» سَرَابِلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ  
النَّارُ «٥٠» لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيدٌ الْحِسَابِ «٥١»  
هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو  
الْأَلْبَابِ «٥٢» المجر

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ  
وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَمِيزُكُم مِمَّا كُنتُمْ تَدَّكُرُونَ «٩٠» وَأَذِقُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا  
عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنَفَّضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنْ  
اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ «٩١» وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَقَصَّتْ غَرْفًا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ  
أَنكَبُوا <sup>(٣)</sup> تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا <sup>(٤)</sup> بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى  
مِنْ أُمَّةٍ إِنْهَا يَتْلُوكُمْ <sup>(٥)</sup> اللَّهُ بِهِ، وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ  
تَخْتَلِفُونَ «٩٢» وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعْتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ  
وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ «٩٣» وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ  
دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمُ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا الشَّوْمَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ  
وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ «٩٤» وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنْهَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ

[١] مرفقون : قرون بعضهم ببعض . [٢] الأصناد : القيود .

[٣] أنكبا : جمع تكب ، وهو حل طائفت فتلها . [٤] دخلا : مفسدة .

[٥] أن تكون الخ : أى بسبب أن كانت أمة ، أو فر عدا من أمة أخرى تنفرون في عهدهم .

[٦] يلوكم : ينجبركم .

خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ «٩٥» مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ  
الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ «٩٦» النحل

أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْهُمْ يَأْتِيهِمْ  
أَحْسَنُ إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ «١٢٥» وَإِنْ  
هَاقَبْتُمْ فَمَا قَبُولُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُمْ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ «١٢٦»  
وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَلَالٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ «١٢٧»  
إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ «١٢٨» النحل

وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ  
أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا «٢٣»  
وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ<sup>(١)</sup> مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا «٢٤»  
رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا<sup>(٢)</sup> صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأُولَٰئِينَ  
غَفُورًا «٢٥» وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّبِيلَ وَلَا تُبَذِّرْ  
تَبَذِيرًا «٢٦» إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ  
كَفُورًا «٢٧» وَإِنَّمَا تَرْضَوْنَ عَنْهُمْ أَبْنَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ  
قَوْلًا مَيْسُورًا «٢٨» وَلَا تَحْمِلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ  
فَتَقْعَدَ مَكُومًا مَحْسُورًا<sup>(٣)</sup> «٢٩» إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ<sup>(٤)</sup> إِنَّهُ  
كَانَ بَعِيدًا خَيْرًا بَصِيرًا «٣٠» وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ<sup>(٥)</sup> نَحْنُ  
نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خِطَاكُمْ كَبِيرًا «٣١» وَلَا تَقْرُبُوا الزُّوْا<sup>(٦)</sup> إِنَّهُ كَانَ

[١] جناح الذَّلِيلِ : جناحه الدليل . [٢] إِنْ تَكُونُوا الخ : كلام جديد لاصلة له بما قبله ، الأولين :  
الرجاعين إليه . [٣] مَحْسُورًا : مُلَاقًا . [٤] يَقْدِرُ : يَضِيقُ . [٥] إِمْلَاقٍ : قُفْرٌ .

فُحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ۝٣٢ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ مَّسْطُطًا ۝٣٣ وَلَا تَقْرَبُوا أَمْوَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ۝٣٤ وَأَوْفُوا السَّكِينَ إِذَا كِلْتُمُ وَزَرْتُمَا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٣٥ وَلَا تَقْفُ ۝٣٦ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ۝٣٧ تَمْشِي فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۝٣٨ إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ۝٣٩ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ۝٤٠ الاسراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خُشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ ۝٣ مُعْرِضُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٥ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٦ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٧ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١١ المؤمنون

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْذِنُوا ۝١ وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَمَلِكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٢ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا

[١] سلطاناً : سلطاناً . [٢] تأويلاً : مأوية . [٣] تقف : تبتع .

[٤] مرها : اختيلاً ، إنك لن تخرق الأرض الخ : نيك به وإشعاره بأنه ضيف .

[٥] اللغو : مالا يمس من قول وعمل . [٦] العادون : الكاملون في العدوان .

[٧] تستأذِنُوا : تستأذِنُوا .

فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ اذْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكىٰ (١) لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ قُلِ الْمُؤْمِنِينَ يَفْعَلُوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكىٰ لَهُمْ إِنْ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُلِ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَمْضِيْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ (٢) وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّبِيعِينَ غَيْرَ أُولَى الْأَرْبَةِ (٣) مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ أَمَلَكُمُ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ النور

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيْسَ تُنْذِرُكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ (١) لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ هُنَّ طَوْفُونَ عَلَيْكُمْ بِفَضْلِكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

[١] أزكى : أظهر . [٢] جوبهن : فتحة الثوب التي تدخل فيها الرأس .

[٣] الأربة : الحاجة إلى النساء ، لم يظهروا : يستطعموا لها لضعف أو صغر .

[٤] ثلاث عورات : من شأن الإنسان أن لا يعقم فيها ، وذلك أعظم تأديب من الله لنا حتى مع

الأطفال والمسالك .



حَكِيمٌ ٥٩» وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ «٦٠» النور

إِنْ قُرُونٌ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ مُوسَى فَبَنَى عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوتُوا بِالْمُصْبَةِ <sup>(١)</sup> أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ <sup>(٢)</sup> إِنْ أَنْتَ إِلَّا يَحِبُّ الْفَرِحِينَ «٧٦» وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنْ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ «٧٧» قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي <sup>(٣)</sup> أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَتَعْدُ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ <sup>(٤)</sup> عَنْ دُؤْبِهِمْ الْمُجْرِمُونَ «٧٨» نَخْرَجُ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُرُونٌ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ «٧٩» وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ «٨٠» نَخْشَعُ نَفْسًا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضُ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِتْنَةٍ يَتَحَرَّوْنَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ «٨١» وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَسْكَانُ <sup>(٥)</sup> اللَّهُ يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ أَنَّ مِنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا وَيَسْكَانُهُ لَا يَفْلَحُ الْكَافِرُونَ «٨٢» تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ «٨٣» النصب

وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ <sup>(٦)</sup>

[١] لتنوء بالمصبة الخ : أى تنقل على الجماعة الأقوياء فكيف يفرح . [٢] تفرح : تبطر وترمو .

[٣] على علم عندي : أى علم بطريق جمع المال ينكر فضل الله عليه فيه .

[٤] ولا يسأل الخ : بل يأتيهم المذاب بنته . [٥] وى : كلمة تعجب ، كالأ : حرف تعبيه .

[٦] ظلم : مجاوزة الحد ، وهو تسوية بين خالى ومخلوق .

عَظِيمٌ «١٣» وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ <sup>(١)</sup> وَفِصْلُهُ فِي  
 تَامِينَ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ «١٤» وَإِنْ جُهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ  
 بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ  
 مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ «١٥» يَا أَيُّهَا  
 إِنَّمَا إِنْ تَكْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي  
 الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنْ اللَّهُ لَطِيفٌ خَبِيرٌ «١٦» يَذُنِّي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَآمُرُ  
 بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ  
 الْأُمُورِ <sup>(٢)</sup> «١٧» وَلَا تُصَعِّرْ <sup>(٣)</sup> خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا <sup>(٤)</sup> إِنَّ اللَّهَ  
 لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ «١٨» وَأَقْصِدْ <sup>(٥)</sup> فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ <sup>(٦)</sup> مِنْ صَوْتِكَ  
 إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ أَسْوَتُ الْهَمِيرِ «١٩» فصل

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا يَمُنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ «٣٣»  
 وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ <sup>(٧)</sup> فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ  
 وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ «٣٤» وَمَا يُلْقُهَا <sup>(٨)</sup> إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقُهَا  
 إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ «٣٥» وَإِنَّمَا يَنْزَغُكَ <sup>(٩)</sup> مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ  
 هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ «٣٦» فصل

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا

[١] وهنا على وهن : تعذب ضيقا فوق ضيق ، فضاله : فطامه .

[٢] عزم الأمور : عزوماتها التي يزم عليها لوجوبها . [٣] تصعر : تهل تكبرا . [٤] مرحا : اختيالا .

[٥] اقصد : توسط بين الديق والإسراع . [٦] اغضض : اخمس .

[٧] بالتي هي أحسن : أي بالطريق التي هي أحسن في الدفع . [٨] يلقيها : يسل تلك الحيلة .

[٩] ينزغك : من نزغه نفسه ، شبه الوسوسة بالنفس .

نِسَاءٍ مِنْ نِسَاءِ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا<sup>(١)</sup> أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا  
بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ  
الظَّالِمُونَ «١١» يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ  
إِنَّمَا وَلَا تَجَسَّسُوا<sup>(٢)</sup> وَلَا يَفْتَبْ بِمَفْضِكُمْ بَعْضًا أَيْحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ  
أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرْهَتْهُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ «١٢» يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا  
خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ  
عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ «١٣» الحبرات

## عجل صلى الله عليه وسلم

### وظيفته

(٩) بعث الله نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم كما بعث غيره من الرسل ليقم حجة الله على  
الناس بتبليغ دينه ، وتخويف الناس من عذاب الله تعالى ، وتبشيرهم ، وتعرفهم أنه مابعث  
ليحول قلوبهم من ضلال الى هدى ، فان ذلك الى الله وحده ، وكما بعث صلى الله عليه وسلم  
للانذار والتبشير بعث ليكون قدوة صالحة في الخير والفضيلة ، تناسى به الناس في عبادة الله تعالى ،  
وتتأثر طريقه في حسن الخلق ، لأن الناس من شأنها أن تنظر في أعمال من يدعوها إلى الخير ،  
فان رأيت منهم وقوفهم عند حدود ما يدعون إلى اتبعهم ، وان رأيت عملهم يخالف قولهم نبذهم  
ولذلك يقولون ان تأثير العمل على الناس فوق تأثير القول .

فوظيفة الرسول جمعت الى القول العمل الصالح ، والسيرة الطيبة المرضية ، ومن ذلك نعلم أنه  
من الحق أن يطلب من الرسول أن يكون له كنز أو ملك من ملائكة الله تعالى ، فان ذلك  
خارج عن حدود وظيفته ، وهي الدعوة الى الله تعالى والصبر عليها ، والصلابة في الحق ليهلك من  
هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة .

### الآيات

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ

[١] تلمزوا : تلميوا ، تنابزوا بالألقاب : ينادى بعضكم بعضاً بما يكره ، بعد الإيمان : أى مع الإيمان .  
[٢] تجسسوا : تبحسوا عن عوراتكم ، أجب أحدهم الخ : تخيل لما يطلع المقتاب من أخيه على الخس  
وجه وأنبه .

لَأَسْتَكْثِرْتُ مِنَ الْخَلْقِ وَمَا مَسْنِيَ الشُّوهُ إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ  
يُؤْمِنُونَ «١٨٨» الأعراف

فَلَمَّا كَ تَارِكَ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَصَائِقُ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا  
أُنْزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ  
وَكَيلٌ «١٢» مود

وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ «٢١٤» وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِئِنْ أَتَيْتَكَ مِنَ  
الْمُؤْمِنِينَ «٢١٥» فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ «٢١٦» وَتَوَكَّلْ  
عَلَى الْغَزِيِّزِ الرَّحِيمِ «٢١٧» الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ «٢١٨» وَتَقْلُبُكَ فِي  
السُّجُودِ «٢١٩» إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ «٢٢٠» الشعراء

إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمِرتُ  
أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ «٩١» وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَإِنْ أَهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدِي  
لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ «٩٢» النحل

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا «٤٥» وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ  
وَسِرَاجًا مُنِيرًا «٤٦» وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا «٤٧»  
وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذْهَبَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكُنْ بِاللَّهِ  
وَكَيلًا «٤٨» الأحزاب

قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ لِيَأْتِيَ عَمَلُكُمْ فَمَنْ تَعْلَمُونَ «٣٩» مَنْ  
يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ «٤٠» إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ  
لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَإِنْ أَهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ  
بِوَكِيلٍ «٤١» الرعد

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ «١٣»  
وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ مُنْهُمُ الْعِلْمُ بِفَيَأْ يَنْتَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِّى يَنْتَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَوْنِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ «١٤» فَلِذَلِكَ قَادَعُ وَأَسْتَقِمَ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ أَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ «١٥» الصورى

ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ «١٦» إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بِمَعْزِهِمْ أُولِيَاءَ بَعْضُ وَاللَّهُ وَلِىُّ الْمُتَّقِينَ «١٧» هَذَا بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ «٢٠» الحاقة

قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّى وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا «٢٠» قُلْ إِنِّى لَأَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا «٢١» قُلْ إِنِّى لَنْ يُخْرِجَنِى مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا «٢٢» إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا «٢٣» حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَقُولُونَ مَنْ أَضْمَرَتْ نَاصِرًا وَأَقْلَّ عَدَدًا «٢٤» الجن

## محفل صلى الله عليه وسلم وتريسة الله له

(١٠) ان من يتصدى لذلك المنصب الجليل ، منصب الرسالة ، ودعوة الناس الى الحق ، في حاجة كبرى الى أن يربى أحسن تربية ، ويهذب بأفضل أنواع التهذيب .  
وقد ربي الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم فأحسن تربيته ، فقص عليه من سيرة الرسل السابقين ما فيه العبرة ، وأراه من سلوكهم مع أقوامهم ما يكفي لتهذيب نفس الصالح ، وترويضها على الخير .

ثم أمره أن يقتدى بهم في المدى ويتأسى بهم في الصبر والاحتمال ، وأن يقول لقومه كما قال أولئك الرسل ، وهو أنه لا يسألهم على تبليغ رسالات الله أجرا ، وإنما يطلب للثوبة من الله تعالى ، ورسول ذلك شأنه من حق الناس أن تصنى إليه .  
وحسبه أن يقول الله له ( خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين «١٩٩» ) وأما ينزغناك من الشيطان نزع فاستعد بالله انه سميع عليم «٢٠٠» الأعراف ) .

ومن وسائل تربية الله تعالى له تزيده في زخارف هذه الحياة ، فلا يمد عينيه الى مامتع الله به أصنافا من الخلق ، فان رزق الله له من الحكمة العالية ، والقناعة والرضى ، والآداب ، هو خير له وأبقى من أولئك الزخارف .

وما أخرج الواعظ الى تدبر ذلك النوع من التربية ، وترويض نفسه على الزهد في هذه الحياة حتى لا يكون همه محصورا فيها ، وحتى لا يفرق عليه شمله ، وتضع عليه غايته ، وهي الدعوة الى الله تعالى .

وقد تضمن ذلك الباب آداب الدعوة ، وهي أن تكون بالحكمة واللواظ الحسنة ، وأن يكون الجدال بالتي هي أحسن ، وأن يعتصم صاحبها بالصبر على ما يناله من القوم من أذى ، ويعلم أن الله تعالى معينه وناصره ، وأنه يبرأى منه ويسمع ، متأسيا بأصحاب الغزم من الرسل .  
ولعل في ذلك العبرة لعامة اليوم وورثة الرسل ، فلا يأسون ، ولا يتضجرون إذا حل بهم مكروه أو نالهم شيء من جراء الدعوة .

### الآيات

أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ «٩٠» الأنعام

خُذِ الْعَفْوَ <sup>(١)</sup> وَأُثِّرْ بِالْعَرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ <sup>(٢)</sup> وَإِنَّمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ تَرْغٌ <sup>(٣)</sup> فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ <sup>(٤)</sup> إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ <sup>(٥)</sup> مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ <sup>(٦)</sup> وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي النَّفْسِ ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ <sup>(٧)</sup> وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا أُجْتَنِبَتْهَا <sup>(٨)</sup> قُلْ إِنَّمَا أُتِيَ سَعْدُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ <sup>(٩)</sup> مِنْ رَبِّكُمْ وَهَدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ <sup>(١٠)</sup> الأعراف

وَأَقْدَرُ أَتَيْنَكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي <sup>(١)</sup> وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ <sup>(٢)</sup> لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ <sup>(٣)</sup> وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ <sup>(٤)</sup> كَمَا أُنْزِلْنَا <sup>(٥)</sup> عَلَى الْمُتَقَسِّمِينَ <sup>(٦)</sup> الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ أَنْ عِضِينَ <sup>(٧)</sup> <sup>(٨)</sup> «٩١» قَوْرَبَّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ <sup>(٩)</sup> «٩٢» عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ <sup>(١٠)</sup> «٩٣» فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ <sup>(١١)</sup> «٩٤» إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ <sup>(١٢)</sup> «٩٥» الَّذِينَ يَخْتَفُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ <sup>(١٣)</sup> «٩٦» وَلَقَدْ تَنَادَّ أَنْتَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ <sup>(١٤)</sup> «٩٧» فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ <sup>(١٥)</sup> «٩٨» وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ <sup>(١٦)</sup> «٩٩» الحجر

أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُمُ الْبَالِيَّ هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ صَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ <sup>(١)</sup> «١٢٥» وَإِنْ

[١] العفو : اليسر من أخلاق الناس ولا يثبت عنها ، العرف : للستحس . [٢] نزغ : وسوسة .

[٣] طائف : شيء ألم بهم . [٤] إخوانهم : إخوانه الشياطين الذين لم يتقوا .

[٥] اجتنبها : طلبها من الله تعالى . [٦] بصائر : يصر بها الحق .

[٧] المثاني : الفاعلة لأنها تكرر في كل صلاة . [٨] كما أنزلنا الخ : أي خصصناك بانزال القرآن كما خصصنا أولئك بانزال العذاب بهم . [٩] عظيم : جمع عضة كعدة الفرقة ، أي جعلوه أجزاء آمنوا ببعض وكفروا ببعض . [١٠] اليقين : الموت .

فَاقْبَلْتُمْ فَمَا قَبِلُوا بِمِثْلِ مَا عُوْذِبْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ «١٢٦»  
وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ «١٢٧»  
إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ «١٢٨» النحل

وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا  
تَمُدُّ عَيْنَكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا  
وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا «٢٨» العنكب

فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا  
وَمِنْ أَنَاءِى «٢٩» الْيَلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى «١٣٠» وَلَا تَمُدَّنَّ  
عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ «٣١» فِيهِ، وَرَزَقُ  
رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْنَى «١٣١» وَأَمْرُ أَهْلِكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا  
نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى «١٣٢» طه

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي  
أُمْنِيَّتِهِ «١» فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتَهُ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ  
حَكِيمٌ «٥٢» لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً «٥٣» لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ  
قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ «٥٣» وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ  
مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ، فَتُخْبِتَ «٥٤» لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى  
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ «٥٤» وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ «٥٥» مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ  
السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ «٥٥» الحج

[١] فرطاً : هتما على الحق ونبأ له . [٢] آناه : ساعات ، جمع انا بالكسر والفتح ، أو آناه  
بالفتح واللام . [٣] لفتنهم : لتخبرهم . [٤] أميته : ما يمناه من نصر الحق ، يفسخ : يزيل .  
[٥] فتنة : ابتلاء . [٦] فتخت : تخضع . [٧] مرة : شك .



وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِئِنْ أَتَيْتَكَ مِنَ  
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِئَايَا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ  
عَلَى الْغَزِيرِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرِيكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقْلِبَكَ فِي  
السُّجُودِ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ الشعراء

وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا  
ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ  
مُسْلِمُونَ ﴿٤٩﴾ النصبون

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ يَقُولُوا  
الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ <sup>(١)</sup> اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ  
الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ <sup>(٢)</sup> الَّذِينَ  
لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ الروم

فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ  
وَالْإِبْكَرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِشَيْرِ سُلْطَانٍ <sup>(٣)</sup> أَتَاهُمْ إِنْ فِي  
ضُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرُ مَا هُمْ بِبِلَغِهِ فَاستَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ غافر  
فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرُ أُولُوا الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ  
مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلِّغْ فَهَلْ يَهْتَكُ إِلَّا الْقَوْمُ  
الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾ الأحقاف

كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾

[١] يطبع : يحول بينها وبين الحق جزاء تماميها عنه . [٢] يستخفك : يحلوك على الحق والطيش  
بعدم الصبر . [٣] سلطان : حجة .

أَتَوَصَّوْا بِهِ<sup>(١)</sup> بَلْ لَمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾  
وَذَكَرْ فَإِنَّ اللَّهَ كَرُمٌ تُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ القاريات

وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا<sup>(٢)</sup> وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٥٨﴾  
وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ ﴿٥٩﴾ الطور

### مجل صلى الله عليه وسلم وتعنت المشركين معه

(١١) لقد كان تعنت المشركين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم واحراجهم له بالفا أشده  
غزوة يقولون له انت لنا بقرآن غير هذا القرآن أو بدله ، فيعتذر لهم أن ليس في استطاعته أن  
يبدله من تلقاء نفسه ، لأنه متبع لامتدع ، ويريههم أنه لولا مشيئة الله أن يكون رسولا ما لاده عليهم  
ويستشهد على ذلك بأنه مكث فيهم دهورا طويلا قبل النبوة لم يحدثهم فيه بشيء ، وذلك برهان  
أن ذلك الكتاب من عند الله لا من عنده .

وأحيانا يقترحون عليه أن يأتيهم بملائكة تشهد له بالصدق ، وتدل الناس على أنه رسول  
من عند الله ، فيريهم أنه ليس من سنة الله تعالى أن يبعث مع الرسل ملائكة يمشون مطمئين  
على الأرض ليكونوا دلائل صدق الرسل .

ومهمة يسكرون أن يكون الرسول من جنس البشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ،  
فيريههم أن ذلك هو سنة الله تعالى في الرسل الماضين .

وأونه يقولون له لن نؤمن لك حتى تفجر لنا ينبوعا من الأرض ، أو تكون لك جنة من نخيل  
وعنب ، أو تسقط السماء قطعا على أعداك ، أو تأتي بالله والملائكة ليقابلوا الناس ، أو يكون  
لك بيت من زخرف ، أو تصعد إلى السماء ، ثم بعد صعودك تنزل علينا كتابا نقرؤه ، ويكون مؤيدا  
لصدواك ، فيجيبهم الرسول بقوله ( سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا ) وهذه الآيات لا يعملها  
الا إله ، فليست من عملى .

دع ما يرمونه به من السحر والجنون ، وأنه نقل كتابه من خرافات الأولين وأساطيرهم .  
وقد أخبر الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن أولئك العاندين ميؤوس من إيمانهم  
فلا تطمع في هدايتهم ، وأنه تعالى لو أنزل عليهم كتابا في قرطاس كما طلبوا ففسوه بأيديهم لقال  
الذين كفروا ان هذا إلا سحر مبين ، وكذلك لو أجابهم الى ما طلبوا من تنزيل الملائكة ، بل

[١] أتواصوا به : أى أوصى أولئك المفسدون بعضهم بعضاً بالاستيزاء بالرسول والظن عليهم بالسحر والجنون .

[٢] بأعيننا : تحت رعايتنا فلا تنساك ولا نسلطهم عليك .

لواحي الله الموقى وشهدت بصدق محمد ، وجمع لهم من الأدلة والبراهين كل شيء طلبوه ، ما كانوا ليؤمنوا ، لأنهم معاندون ، والمعاند لا يقنع بشيء ، لأنه لا يطلب حقا ، وإنما يبقى الاعتات والاحراج ولو كان يطلب الحق لكفاه مانصبه الله من الأدلة ، وما أيد الله به رسوله من البراهين ، وحسبه أنه أمي نشأ بين الأتمين ، ومكت أر بعين سنة على ذلك الحلال ، ثم أنطقه الله بالحكمة العالية ، وذلك الكتاب العجز الذي تعجى الله به العرب ، وسجل عليهم العجز عن الايمان بمثله ، بل بשרسور منه ، ثم تحذاهم بسورة واحدة .

كان يكفهم ذلك لو كانوا يطلبون الحق ، ولكنهم قوم خصمون كما وصفهم الله تعالى ، والمجادل الذي يجب الجدل للجدل لا للحق ليس في طاعتك اقناعه .  
وهذه طائفة من القرآن الكريم تريك مقدار تعنت القوم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وتريك أن أولئك لا يبليل الى هدايتهم بحال .

### الآيات

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ <sup>(١)</sup> فَلَسَوْهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ <sup>(٢)</sup> وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ <sup>(٣)</sup> ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ <sup>(٤)</sup> وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ جَعَلْنَاهُ رَجُلًا <sup>(٥)</sup> وَلَلْبَشَنَّا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ <sup>(٦)</sup> وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَخَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ <sup>(٧)</sup> الْأَنْعَامُ

وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِ الْمُبَشِّرَ وَالْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا <sup>(٨)</sup> مَا كَانُوا يَؤْمِنُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ <sup>(٩)</sup> الْأَنْعَامُ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ <sup>(١٠)</sup> رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ <sup>(١١)</sup> عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ <sup>(١٢)</sup> الْأَنْعَامُ

[١] قرطاس : ورق ، فلسوه : حتى لا يقولوا انه مزور .

[٢] لفضي الأمر : أى لحق إهلاكهم . لأن ذلك سنة الله إذا أجاب قوما في اقتراحهم فلم يجتدوا .

[٣] لجعلناه رجلا : على شكل الرجل ، وعند ذلك يختلط عليهم الأمر فيجودوا للاقتراح كما بدوا .

[٤] فلا جمع قبيل : كفلاء بما بعروا به أو جامعات . [٥] مثل ما أوتي : من الوحي .

[٦] صغار : ذلة .

وَإِذَا تُنْزِلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَأَنْتَ بِرُءُوسِنَا  
غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ أَفَلَا يَمْلِكُونَ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَرَادْتُ إِلَّا  
مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنَّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ  
اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا  
تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ  
لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ بوس

وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿١٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكِ  
إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٧﴾ مَا نُنْزِلُ الْمَلَكَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا  
مُنْظَرِينَ ﴿١٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نُزِّلُ الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ  
قَبْلِكَ فِي شَيْعٍ <sup>(١)</sup> الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ  
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ <sup>(٢)</sup> فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ  
بِهِ وَقَدْ خَلَقْتُ سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ  
فَقَالُوا فِيهِ يَرُسُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ <sup>(٣)</sup> أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ  
مَسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ الحبر

وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوتًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ  
جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْفِطَ السَّمَاءُ كَمَا  
رَعِمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا <sup>(٤)</sup> أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيَالًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ  
يَنْتُ مِنْ زُخْرَفٍ <sup>(٥)</sup> أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى تُنْزَلَ عَلَيْنَا

[١] شيع : فرق ، جمع شعبة . [٢] كذلك نسلك : على هذا النحو ، فذهبه ، وفسره . بقوله :  
لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ . [٣] سُكَّرَتْ : سَدَّتْ عَنْ الْبَصَارِ مِنْ أَجْلِ الْحَرِّ .  
[٤] كِسْفًا : قَطْعًا ، قِيَالًا : جَانِبَاتٍ . [٥] زُخْرَفٍ : ذَهَبٍ .

كِتَابًا تَقْرَوُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا «٩٣» وَمَانَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَتَ اللَّهُ بِشَرًا رَسُولًا «٩٤» قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مِثْلُكَه يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ ﴿١﴾ نَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا «٩٥» قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِمَا دِمَ خَبِيرًا بِصِيرًا «٩٦» الاسراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَفْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ ﴿٢﴾ إِلَّا أَصْنَمُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٣﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أُخْلُمٌ ﴿٦﴾ بَلْ أَفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٧﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿١١﴾ الأنبياء

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿١٢﴾ وَقَالُوا أَطُيَّرُوا بِالْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تَحْمِلُ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿١٣﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَنْشَى فِي الْأَنْوَاقِ

[١] مطمئنين : ساكنين كاليفسر . [٢] محدث : جديد لم يألوه .  
[٣] أضغاث أحلام : تخاليطها جمع ضغث ، وهو ما جمع من أخلط النبات .

لَوْلَا أَنْزَلْ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُنْزِلُ إِلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ  
جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ  
ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ فَضَلُّوا <sup>(١)</sup> فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ  
لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُصُورًا ﴿١٠﴾ الفرقان  
وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي  
الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً <sup>(٢)</sup> أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾  
وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلِكَةُ أَوْ تَرَى رَبَّنَا لَقَدْ  
اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلِكَةَ لَا بُشْرَى  
يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا <sup>(٣)</sup> ﴿٢٢﴾ الفرقان

وَإِذَا رَأَوْكَ إِِنْ يتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوعًا أَلَمْ يَكُنْ لَكَ الْهَيْبَةُ أَنْ تَأْخُذَ أُولَئِكَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ  
إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ هِجْرَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ  
الْعَذَابَ مَنْ أَصْلَ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ الفرقان

وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّنَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا  
أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ  
فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ يَنِينِي وَيَنِينَكُمْ  
شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ  
هُمْ الْمَحْسُورُونَ ﴿٥٢﴾ النكس

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَتَّبِعُهَا قُلُوبُهُمْ لَا يَسْمَعُونَ شَيْئًا وَهُمْ كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ

[١] فضلوا : يضرب هذه الأمثال ، ومنها أنه مسحور العقل ، وفيه رد لحديث السحر ، ودليل على عدم  
صحة لأنه يخالف الآية . [٢] فتنة : ابتلاء . [٣] لا يهوى : لخلول العذاب بهم .  
[٤] حجراً محجوراً : كلمة استعانة تقال عند لقاء عدو أو مكروه يطلبون بها من الله أن يمنع لقاءه منها .

عَمَّا كَانَ يَمْبُدُّ، أَبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ <sup>(١)</sup> مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا  
لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ <sup>(٢)</sup> وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ كِتَابٍ  
يَذَرُسُونَهَا <sup>(٣)</sup> وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ <sup>(٤)</sup> وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ  
وَمَا بَلَّغُوا <sup>(٥)</sup> مِيسَارَ مَا آتَيْنَهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ <sup>(٦)</sup> <sup>(٧)</sup>  
قُلْ إِنَّمَا أَعْظِيكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفُرَادَى <sup>(٨)</sup> ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا  
مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ <sup>(٩)</sup>  
قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ  
شَهِيدٌ <sup>(١٠)</sup> <sup>(١١)</sup> قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ <sup>(١٢)</sup> عَلمُ الْغُيُوبِ <sup>(١٣)</sup> <sup>(١٤)</sup> قُلْ جَاءَ الْحَقُّ  
وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ <sup>(١٥)</sup> <sup>(١٦)</sup> قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ  
أَهْتَدَيْتُ فَمَا يُوحِي إِلَى رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ <sup>(١٧)</sup> <sup>(١٨)</sup> سُبْحَانَ

كِتَابٍ فَصَلَّتْ، آيَتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ <sup>(١٩)</sup> <sup>(٢٠)</sup> بَشِيرًا وَنَذِيرًا  
فَاعْرِضْ أَوْ كَثُرْهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ <sup>(٢١)</sup> <sup>(٢٢)</sup> وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ <sup>(٢٣)</sup> <sup>(٢٤)</sup> مِمَّا  
تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ <sup>(٢٥)</sup> <sup>(٢٦)</sup> وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا  
نَحْمِلُونَهُ <sup>(٢٧)</sup> <sup>(٢٨)</sup> نَصَبُ

وَقُلُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ <sup>(٢٩)</sup> <sup>(٣٠)</sup> أَمْ  
يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ

[١] إفك: كذب. [٢] من كتب يدرسونها: أي تدلهم على شبهة في كفرهم.

[٣] وما بلغوا: الضمير لكفار مكة. [٤] نكير: إنكار.

[٥] مثنى وفرداى: جاءت ووحداً. [٦] يقذف بالحق: يرى به الباطل فيدمسه.

[٧] أكنته: أعطيه، جمع كنان. [٨] وفر: مسم. [٩] عظم: الجلاء والذل.

فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُرِّيًّا <sup>(١)</sup> وَرَنَحَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَحْمُؤُونَ <sup>(٢)</sup> وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً <sup>(٣)</sup> لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرِّمَنِ لِيُؤْتِيَهُمْ سُقْفًا مِنْ فِصَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ <sup>(٤)</sup> وَلِيُؤْتِيَهُمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُسْكِنُونَ <sup>(٥)</sup> وَزُخْرُفًا <sup>(٦)</sup> وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ <sup>(٧)</sup> الزخرف

## مجل صلى الله عليه وسلم وتسليية الله تعالى له

(١٢) بعد ذلك العنت الذى لقيه من قومه ، واقتراح الآيات ، كان فى حاجة الى تسليية الله تعالى له ، وبيان أن ذلك سنة الله مع كل رسول ، ومتى عرف أن ذلك لم يكن خاصا به ، وإنما هو عادة الناس مع كل رسول ، فإنه يصبر ويتسلى .

ثم أراه أنه ان كان قد عزّ عليه اعراض المشركين عن دعوته ، وانكارهم لنبوته ، فلاغنى له عن الصبر والاحتفال ، ولواستطاع أن يطلب سربا فى الأرض يخلص به من أولئك القوم ، أو سلما فى السماء فيأتهم بآية تخضع لها أعناقهم فليفعل ، فغيره أن يرضى ، وأن لا يذهب نفسه عليهم حسرات .

ولو شاء الله أن يجمعهم على الهدى لفعل ، ولكون حكمة الله قضت بأن يضل أمثال أولئك المتعنتين ، لأنهم لا يريدون الحق ، ولا يعملون للوصول إليه ، وعطوا مواهب الله فيهم ، وأعمالوا سمعهم وأبصارهم وعقولهم ، فكانوا أحقّ بذلك العقاب فى الدنيا من حرمانهم من الهدى ، والشقاء فى الآخرة بفقد السعادة .

وما أحوج الصالح الى تدبر ذلك النوع من الكتاب الكريم ، ليتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويصبر على ايذاء القوم وبلائهم ، لأن ما يصيب الرسل من جرّاء الدعوة الى الله يصيب أتباعهم ، فلذا كان من حقهم أن يتبعوا طريقهم ، ويسألوا تسليتهم ، ويوقنوا بأن هذه سنة الله فيمن سبقهم .

## الآيات

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ

[١] سرياً : بسره فى مصالحه . [٢] أمة واحدة : على لغة واحدة ، وهى الكفر . [٣] زخرفاً : ذهباً .



بَيَّاتِ اللَّهُ يَمْحَدُونَ «٣٣» وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَآوَدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ «٣٤» وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ أُسْطِطْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا<sup>(١)</sup> فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ «٣٥» إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ «٣٦» الْأَنَامُ

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَاُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ<sup>(٢)</sup> وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ، وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ<sup>(٣)</sup> «٩» قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفَرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ<sup>(٤)</sup> مُبِينٍ «١٠» قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ «١١» وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَيْنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا أَدْثَمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ «١٢» وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعْمَدُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ «١٣» وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ «١٤» إِبْرَاهِيمَ

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَعَنَّى<sup>(٥)</sup> أَتَى الشَّيْطَانُ<sup>(٦)</sup>

[١] نفقاً : متعففاً . [٢] في أفواههم : الضمير لرسول ، أي أسكنهم من الكلام .  
[٣] مرير : موقع في الرية . [٤] سلطان : حجة . [٥] تعنى : أي نصر الحق .  
[٦] الشيطان : شيطان الإنس ، أمتعته : ما يشناه .

فِي أَمْنِيَّتِهِ، فَيَنْسَخُ <sup>(١)</sup> اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتَهُ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ  
حَكِيمٌ <sup>(٥٢)</sup> لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً <sup>(٢)</sup> لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ  
قُلُوبَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ <sup>(٣)</sup> وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ  
مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ، فَتُخْبِتَ <sup>(٤)</sup> لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ <sup>(٥)</sup> : الحج

وَقَالَ الرَّسُولُ يُزَبُّ إِنْ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْءَانَ مَهْجُورًا <sup>(٦)</sup> وَكَذَلِكَ  
جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا <sup>(٧)</sup> : الفرقان  
وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ  
كَافِرُونَ <sup>(٨)</sup> وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ <sup>(٩)</sup> قُلْ  
إِنَّ رَبِّي يَنْصُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ <sup>(١٠)</sup>  
وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِندَنَا ذُلًّا إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ  
صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي التَّرَفُّتِ ءَامِنُونَ <sup>(١١)</sup> وَالَّذِينَ  
يَسْتَعْمُونَ فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ <sup>(١٢)</sup> : سبا

وَأَن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ  
الْأُمُورُ <sup>(١٣)</sup> : طه

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ كُرِ لِمَاجَاءِهِمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ <sup>(١٤)</sup> لَا يَأْتِيهِ  
الْبَطْلُ مِنْ يَمِينٍ يَدِينُهُ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ <sup>(١٥)</sup> مَا يَقُولُ  
إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَدُوٌّ مَّقْفُورٌ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ <sup>(١٦)</sup> فصل

وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ الزخرف

وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴿١﴾ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿٣﴾ قَالَ أُولَٰئِكَ جَشَكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٤﴾ فَأَتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٥﴾ الزخرف

كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُونٌ ﴿٥٢﴾ اتَّوَصَوْا بِهِ ﴿٥٣﴾ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٤﴾ قَتَلُوا عَنْهُمْ قَسَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٥﴾ وَذَكَرَ فَإِنَّ اللَّهَ كَرِهُ أَنْ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ النازعات

### الصلاة

(١٣) فرضت الصلاة العروفة قبل الهجرة بقليل في مكة ، وقد اهتم القرآن بها فوق اهتمامه بسائر الأمور ، وبين افتراضها بأساليب شتى ، فتارة بالأمر الصريح ، وتارة بالثناء على فاعليها والتمنئ لئلا يتركها ، ولم يبين القرآن صريحا أعداد الصلوات ولا أعداد الركعات ، وإنما ذكر أوقاتها اجالا ، وقد يفت السنة الكيفية عملا ، فكان عليه الصلاة والسلام يصلي بالمسلمين الصلوات الخمس والمسلمون وراءه جماعات ، وقال لهم « صلوا كما رأيتموني أصلي » .

ولأن الصلاة لها أهميتها لم يسقطها الله عن المسلمين لافي أمن ولا في خوف ، فأوجبها في ساحة القتال ، ليدكروا بها ربهم ، وتقوى بها عزيمتهم ، وأباح للمسافر أن يقصرها ، وللحارب أن يصلي كيف أمكنه ( وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يقتلكم الذين كفروا إن الذكرفين كانوا لكم عدوا مبينا » ١٠١ ) وإذا كنت فيهم فأقت لهم الصلاة فلتم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم - فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » (١٠٣) (١) .

[١] مثل الأولين : صفتهم في إهلاك الله لهم ، فتومك كذلك . [٢] مترفوها : متمتعوها .

[٣] أمة : ملة . [٤] اتواصوا به : كان الأولين والآخرين أوصى بعضهم بعضا بذلك القول حتى قالوه جميعا ، بل هم الخ : لإضراب نظرا لبعد الزمتين . [٥] النساء .

ولعلّ فيه عبرة لقوم يتكاسلون عن الصلاة ، لأنهم لا يعرفون لها من الأهمية ما جعله الله لها ، فلم يسقطها حتى في حالة الحرب .

ثم أوجب لها الطهارة من الحدث والخبث ، وأمرنا أن نأخذ الزينة عند كلّ مسجد ، وقد اهتم القرآن بذكر صلاة الجمعة لأنها شعبة كبرى ، وراية من أكبر الروابط بين المسلمين ، وقد شرط لها الجماعة ، لتكون مظهرا من مظاهر الوحدة ، وأمر الناس أن يسعوا إليها إذا نودى لها من يوم الجمعة ويتركوا ما بأيديهم من عمل (يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون «٩» (١) ) .

وكانت فرضية الجمعة بالمدينة بعد استقرار أمر المسلمين واستتباب الأمر لهم ، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم ركاتها وخطبتها بالعمل ، وكان يوم الجمعة في ذلك العهد يوما عظيما للمسلمين تستعرض فيه أعمالهم ومصالحهم الدينية والدنيوية ، وشئونهم في الحرب والسلام ، فكانت المساجد مجمعا علما يحضر فيه الناس ، ويسمعون ما ينفعهم ويفيدهم .

فكان الرجل من المسلمين يقصد إلى المسجد في ذلك اليوم ، فيخرج منه وقد تزود بنصائح غالية وشهد مجمعا من جماع المسلمين الحافلة بالفظات والمبر ، فيشعر وهو خارج من المسجد أنه قد ازداد بذلك الجمع إيمانه ، وقوى يقينه ، وعلت همته ، لأنه يرى قومه على أحسن ما ينتظر لهم ، من تأسيهم بإمام واحد يصلون إلى قلة واحدة ، ويعبدون لها واحدا ، على ملة رسول واحد ، وذلك العمل بتكرره كلّ أسبوع من شأنه أن يوحد القلوب ، ويربط بين الأشخاص المختلفة ، وبذلك يصبحون عبادا لله اخوانا ، لا يباغضون ، ولا يتحاسدون .

## محل صلى الله عليه وسلم

### هجرته

(١) لقد أفاض علماء السير في الكلام على هجرة النبي صلى الله عليه وسلم من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة وأسبابها ، وهي على كثرتها ترجع إلى نتائج أذى قريش عليه وعلى أصحابه من جرّاء دينهم وعقيدتهم ، ودعوة الناس إلى ذلك الدين ، حتى اضطروهم إلى أن يهاجروا إلى الحبشة بأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين .

ولما اشتد بهم الأذى ، وضيق قريش عليه وعلى أصحابه الخناق ، حتى أصبحوا يحارونهم في أرواقهم ، ويحاملون قريشا على مقاطعتهم في وسائل الحياة ، ودبروا الرسول الله صلى الله عليه وسلم مؤامرة ليقتلوه ، وإن كان تدير الله فوق تديرهم (وإذ يكره بك الذين كفروا ليقتلوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويكرهون ويكره الله والله خير للذين آمنوا ويكره الله عنه فاتجاه الله من مكرهم ، حين ذاك أذن الله له بالهجرة ومعه صديقه الأكبر أبو بكر رضي الله عنه فاتجاه الله من مكرهم ،

وكان له من المعجزة خبر نصير على اعلاء دين الله ، وحماية الحق (ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراعها (١) كثيرا وسعة «١٠٠» (٢) ) .

## مجل صلى الله عليه وسلم

دعوته بالدينه ، لليهود والنصارى

(٢) لقد أفاض القرآن في القسم الكلى منه في محاجة الشركين من العرب وتسفيه أحلامهم في عقائدهم الوثنية ، وأقام الأدلة على وجوب توحيد الاله في العبادة كما هو واحد في الخلق والرزق وكذلك أفاض في الكلام على الشبه التي لاكتها السنتم في الرسالة ، والكلام على البعث والجزاء ، وقد أريناك مقدار عناية القرآن بأولئك الأقسام في دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم بمكة ، أما في المدينة فكان أكبر همه التشرع العبنى والمدنى والسياسى ، و بيان نظام للعلامات ونظام الأسر والبيوت وما الى ذلك .

غير أنه لما كان في أهل الكتاب من اليهود والنصارى فريق دخل عليه الشرك في العقيدة كما دخل على مشركى مكة ، وكان فيهم من يتعالى في رسول الله عيسى حتى أخرجه من صف البشر ، وكان يتخذ من الآيات التي أيده الله بها في صغره وفي نشأته تكأة يقول عليها في ذلك الشرك ، وكان من اليهود أيضا من تعالى في بعض البشر كالعزيز حتى قال انه ابن الله (كبرت كلمة تخرج من أفواههم) .

لما كان فريق من اليهود والنصارى دخل عليهم الشرك ولم يبق لهم توحيد صحيح ، اهتم القرآن الكريم ببيان أمر أولئك ، فرة ببلنهم العقيدة بأسلوب بين واضح على طريقته في بيان العقائد ، ومرة بحاجتهم ويناقشهم فيما هم عليه عاهم يفقهون أمر التوحيد ، و يقيمونه كما أمره الله ، ومرة يوجه أسئلة لنبى الله عيسى في الآخرة يسأله فيها - وهو أعلم بما عند نبى الله عيسى - . أنت قلت للناس اتخذونى وأبى الهين من دون الله ؟ فيجيبه بكلمات التنزيه والتقديس ، ويقول له ما أمرتهم إلا بعبادتك وحدك ، وأنا برى من كل شرك يقع من أحد توابى . وهاك طائفة من القرآن الكريم يخاطب الله بها أهل الكتاب ، ويصحح بها أخطاءهم ، ويرشدهم بها الى التوحيد الصحيح .

## الآيات

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ «٥٩» الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ «٦٠» آل عمران

فَلْيَأْخُذِ الْكِتَابَ تَمَلُّوا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ يَتَنَبَّأُ وَيُنَبِّئُكُمْ إِلَّا اللَّهُ  
وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذْ بَعْضُنَا آرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا  
شَهِدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ آ مراد

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ  
كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيُنَا عِمَّا كُنْتُمْ مُعْمِلُونَ  
الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ  
وَالنَّبِيِّينَ آرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ آ مراد

يَأْخُذِ الْكِتَابَ لَا تَقْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا  
الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ ﴿١﴾ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَتَأْمِنُوا  
بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خِيَرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ  
يَكُونَ لَهُ وَلَهُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَنْ  
يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ  
عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَهُهُ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا  
الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا  
وَأَسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا  
وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ النساء

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ

[١] متخلفين بأفلاق الرب . [٢] كلمة البشارة من جبريل لأمه ، أطلق عليه كفة ، لأنه ليس له أب  
فنسب إلى كلمة البشارة ، وروح : روح من الله .

شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يَمْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَفِيهِ مُلْكُ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ «١٧»  
وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ  
أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَمْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَفِيهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ «١٨» الثالثة

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَنْبِئُنِي  
إِسْرَءِيلُ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ  
وَمَا وَهُ مِنَ النَّارِ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ «٧٢» لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ  
ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا  
مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ «٧٣» أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ  
رَحِيمٌ «٧٤» مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ  
صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى  
يُؤْفَكُونَ «٧٥» قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا  
وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ «٧٦» قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ  
الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ  
السَّبِيلِ «٧٧» الثالثة

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يُبْسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيْ إِلَهَيْنِ مِنْ  
دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ  
فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ «١١٦»

مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ، أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا  
مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ  
شَهِيدٌ «١١٧» المائدة

## محل صلى الله عليه وسلم ، والقتال

(٢) مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ثلاث عشرة سنة قائما بالدعوة الى دينه، وهو  
يصبر على صنوف الأذى ، والفتنة له ولأصحابه ، مما اضطر المسلمين الى أن يهجروا مكة فوارا  
يديهم الى بلاد الحبشة ، الى أن أذن الله له بالهجرة الى المدينة المنورة ، ثم أذن الله له بالقتال بعد  
أن مضى الشطر الأول من حياته الدينية ولا سلاح له سوى اعتمائه بالصبر ، وتسليته بمن سبقه  
من الرسل ، والصور المكيّة حافلة بضروب السلوى ، وقد عرضنا لها في الكلام على الدعوة  
في مكة .

وانك لو تأملت مايقصه الله عليه من أسباب القتال لعلمت أنه لم يشرع له القتال محبة في إراقة  
الدماء ، أو تخريب البيوت ، أو تهديم الأطفال ، وإنما شرعه على علمه تعالى بما فيه من اضرار  
لدفع ضرر أشد .

شرعه الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ليدفع عن نفسه وفلس أصحابه أنواع التعذيب  
التي كان يلقاها المسلم من جراء عقيدته ، يرجع عن دينه الذي اعتنقه واختاره لنفسه ، كما وقع  
لعمار بن ياسر وبلال ، وكثير من الصحابة الذين أسلموا أيام قلة المسلمين ، فكانوا يذيقونهم ألوانا  
من العذاب ، ويقولون لهم لاتزالون هكذا حتى تكفروا بمحمد ودين محمد ، فشرع الله القتال  
ليكون الناس أحرارا فيها يختارون لأنفسهم من العقائد ، لالاكراههم على الدين كما يظن فريق  
من الناس ، لأن الله تعالى يقول (لا اكراه في الدين «٢٥٦» (١) .

ولولا أن الله تعالى أباح للناس أن يدفعوا الشر بالشر ، والعدوان بالعدوان ، ما ثبت حق  
في الأرض ، وما عبد الله بنوع من أنواع العبادة .

أذن الله لنبه أن يقاتل قوما أخرجوه من بلده ، وحالوا بينه وبين وطنه ظلما وعدوانا ،  
ولا ذنب له إلا إيمانه بربه ، واعتمائه بالحق الذي بعث به (أذن الذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن  
الله على نصرهم لقدير «٣٩» الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع  
الله الناس بعضهم ببعض لفسدت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن  
الله من ينصره إن الله لقوى عزيز «٤٠» (٢) .

أذن الله لرسوله بالقتال حتى تكون الدعوة الى الله حرة ، لا يقف أحد في سبيلها ، وحتى



يكون الناس آمنين على أنفسهم وعقائدهم من سلطان الباطل ، وزلزلة الطغيان ، ولذلك جعل الله للقتال غاية ، وهي أن لا تكون فتنة للناس في عقائدهم ويكون الناس أحرارا فيما يختارون (وقاتلوا حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله «٣٩»<sup>(١)</sup>) فلا يقف شيء في سبيل الدعوة إليه .  
وآية أن القتال يرد منه اكراه الناس على الدين أن الله تعالى خصه بالمعتدين إذ يقول (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين «١٩٠» ) .

ثم يختم الآية بقوله (فان قاتلوكم فاقتلوا كذلك جزاء الكافرين «١٩١» فان انتهوا فان الله غفور رحيم «١٩٢»<sup>(٢)</sup>) الخ الآيات ، ويقول (وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم «١٩٣»<sup>(٣)</sup>) وقال (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوك في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤم وتسقطوا إليهم إن الله يحب المقسطين «٨» ) انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوك في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون «٩»<sup>(٤)</sup>) .

وجملة القول أن القتال لم يشرع لحل الناس على الاسلام بسلطان القوة ، فان العقيدة ليس من شأنها أن تعتمد الاكراه ، وإنما تعتمد الاقتناع ، ولو كان طريق الدعوة الى الاسلام هو السيف كما يزعم خصوم الاسلام فليحدثونا أين كان ذلك السيف أيام اقامة الرسول بمكة وسيف التعذيب وصلت على رقاب أصحابه من قريش ، والناس تدخل في دينه على الرغم من ذلك البطش القاهر ، وأين كان ذلك السيف وهو يمر بأصحابه وهم يعذبون فلا يستطيع أن ينقذهم من المذاب ، وبأمرهم بالصبر ، وبعدم الجنة ، كما وقع لعمار بن ياسر ، سر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وقريش تعذبه فقال «صبرا آل ياسر صبرا آل ياسر ان موعدكم الجنة» .

فم كان مع محمد صلى الله عليه وسلم في ذلك الحين قوة فوق قوة السيف ، وسلطان لا يعاوه سلطان ، ألا وهو قوة الحق الذي أتى به ، وسلطان الحق والبرهان الذي تملك القلوب ، فاستخفت بكل شيء ينالها في ذلك السبيل ، فان كان هناك اكراه على الدين فهو ذلكم الاكراه ، وان كان في يد محمد سيف فهو ذلكم السيف الصارم الذي لا تستطيع قوة في الأرض أن تقف في سبيله ، وإلى القارئ طائفة من آي القرآن الكريم في القتال والغاية منه .

### الآيات

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ «١٩٠» وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفُوهُمْ<sup>(٥)</sup> وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ<sup>(٦)</sup> أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ «١٩١» فَإِنْ أَنتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ

[١] الأهل . [٢] البقرة . [٣] الأهل . [٤] للجنة .

[٥] تقتلوه : وجدعوه . [٦] الفتنة : صرف الناس عن عقائدهم بأنواع المذاب .

غَفُورٌ رَحِيمٌ ١٩٢» وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أُنتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ١٩٣» الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ ١٩٤» قِصَاصٌ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ١٩٤» البقرة

وَمَا لَكُمْ لَا يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمُ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنَ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنَ لَدُنْكَ نَصِيرًا ٧٥» الَّذِينَ ءَامَنُوا يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ٧٦» فَاقْتُلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦» النساء

وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ أُنتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَفْعَلُونَ بَصِيرٌ ٣٩» الأعداء

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٥٥» الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ٥٦» فَإِذَا تَفَقَّهْتُمْ فِي الْحَرْبِ فَفَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ ٥٧» لَعَلَّكُمْ يَذْكُرُونَ ٥٧» وَإِنَّمَا تَخَافْنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ٥٨» إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ٥٨» وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ٥٩» وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ٥٩» وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ

[١] الحرمات : ما يجب احترامه ، قصاص : يقتص بثلثها إذا انتهكت . [٢] الطاغوت : الباطل .

[٣] ففرّد بهم من خلفهم : أخرجهم هزيمة منكورة ليكونوا عبرة لمن وراءهم من العدو .

[٤] على سواء : مستويًا أنت وهم في العلم بغرض الهدى . [٥] قوّة : نكر القوّة لأنها تختلف باختلاف

الزمان والمكان ، أما الخيل فهي عظمة في كل وقت تنزع بها الأمم ، ولذلك ذكرها بالنسب .

لَا تَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَمْلِكُهُمْ وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنْ جُنَحُوا لِلْإِسْلَامِ فَأَجْنَحْ لَهُمَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ الأعداء

وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتِلُوا أُمَّةَ الْكَافِرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّهَبُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَنْخَشَوْهُمْ فَلَا يَخْشَوْنَ اللَّهَ أَتَى أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ التوبة

أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَوَامِعُ<sup>(١)</sup> وَبَيْعُ<sup>(٢)</sup> وَصَلَاتُ<sup>(٣)</sup> وَمَسْجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا مِنْكُمْ اللَّهُ كَثِيرٌ عَلِيمٌ وَلَئِنْ نَصَرْتُمْ اللَّهَ مِنْ نَصْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الحج

لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتِلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا<sup>(١)</sup> عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ النجدة

### التحريض على القتال

(٣) علم الله أن القتال ضرورة من ضرورات حماية الدين لصدة عدوان الباطل، وكبح جاح الشهوة، فأذن به وأوجبه، وعلم أنه شاق على النفوس، فعدا إليه، وحبب الناس فيه.

[١] صامع : معابد الزمان ، بيع : كنائس النصارى ، صلوات : كنائس اليهود بالمعبرة .

[٢] ظاهروا : علونوا .

وقد سلك القرآن الكريم في سبيل الدعوة إليه أساليب شتى ، ووسائل مختلفة ، فترة يلجأ الى المواظف فيحركها ، والى النفوس فيلهب فيها النيرة ، والحية ، ويربها أن ليس من الكرامة أن يقف الناس من أولئك الاهانت التي تقع على للمستضعفين من الرجال والنساء والولدان موقف الخور والحين ، بل عليهم أن يدفعوا عنهم كل ماينالهم من أذى ، ويعترضهم من ضرر ، إذ يقول ( وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا «٧٥» ) .

ومرة يضرب لهم الأمثال بقوم تركوا ديارهم على كثرتهم خوفا من الموت . فضرب الله عليهم النلة ، وأماتهم موتا أدبيا ، ولما نهبوا لما يجب عليهم ، وأخذوا في وسائل الحياة ، وحياة الحق والحقيقة أحياء حياة طيبة ( ألم ترالى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياءم إن الله لنو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون «٢٤٣» ) .

وأحيانا يعمد الى مشبطات النفوس والمعوقات عن الجهاد ، من آباء وأبناء ، واخوان وأزواج ومال مكنت ، وتجارة يخشى عليها الكساد إذا تركها صاحبها ، فيرينا أن أولئك اللشبطات لا يفتنى أن تكون أحب إلينا من الله ورسوله ، وجهاد في سبيله ، ويهددنا إذا نحن تأثرنا هذه المشبطات أن ننظر عذاب الله وبطشه ( قل ان كان آبؤكم وأبنؤكم وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فترى صوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين «٢٤» ) .

ومرة يعدنا بالنصر ويرينا أن الأيام دول ، وأن الضعيف قد يصبح قويا ، والقوى يصبح ضعيفا ، وأن لا يصح لنا ونحن الأعلون أن نضعف أمام الباطل ، أو نحزن لعمل أولئك المفسدين ، وأنه ان منا ألم من القتال نخفوننا كذلك .

ومرة ينهانا أن نصنى لوساوس الشيطان ، وأن نقول لمن قتل من أصحابنا أو أبنائنا في سبيل الله ( لوكانوا عندنا ماماتوا وماقتلوا ) ليكون ذلك القول حسرة في النفوس .

ومرة يرينا أن الذين قتلوا في سبيل الله لم يموتوا ، وإعناهم أحياء عند ربهم ، يرزقون رزقا معنويا يلين بعملهم وجهادهم .

ومرة يرينا أن عدة النصر - بعد أن نعد للقوم ما استطعنا من قوة مادية - أن تثبت أمام العدو ، ونذكر الله لتقوى فينا العقيدة ، وأن نطيع الله ورسوله ، ولا نتنازع فنفسل وتذهب قوتنا ، وأن نصبر على ماينالنا من أذى .

وتلك هي القوة للعنوية التي يحتاجها المسلم بعد القوة المادية ، وهي قوة العقيدة ، والإيمان بالله تعالى ، ولجرائته العادل ، واثابته للجاهدين المؤمنين .

ومرة يرينا أن هناك فرقا كبيرا بين المؤمن الذي يجاهد في سبيل الله ، والكافر الذي يقاتل في سبيل الطاغوت ، على اشتراكهما في الآلام الحسية - هي أن للعقيدة في الله ، وليست لهم هذه العقيدة ، ولنا رجاء في ثواب الله تعالى ، أما هم فليس لهم ذلك الرجاء ، وذلك الفرق هو الذي يجعل المؤمن أقوى ما يكون في الحرب ، وكما قوى في نفسه ذلك الرجاء قويت روحه ، وآتى

بجوارق العادلات في الحروب ( ولا تمنوا في ابتلاء القوم ان تكونوا تألون قلوبهم يألون كما تألون  
وترجون من الله مالا يرجون وكان الله عليا حكما » ١٠٤ ) .  
ولعل في ماضي السالين ما يرشدك الى ذلك كله .

## الآيات

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ <sup>(١)</sup>  
اللَّهُ مُؤْتُوا نَمَ أَخِيهِمْ إِنَّ اللَّهَ لَهُ فَضْلٌ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ  
لَا يَشْكُرُونَ » ٢٤٣ « وَقْتُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » ٢٤٤ « البقرة

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَغْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » ١٣٩ « إِنْ  
يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا <sup>(٢)</sup> بَيْنَ  
النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ » ١٤٠ «  
وَلِيُمْتَحِنَ <sup>(٣)</sup> اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ » ١٤١ « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا  
الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَسْلَمْ <sup>(٤)</sup> اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ » ١٤٢ « وَلَقَدْ  
كُنْتُمْ تَخْتَوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ » ١٤٣ «  
وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَمْ يَمَاتِ أَوْ قُتِلَ أَفَلَنْتُمْ <sup>(٥)</sup>  
عَلَى أَغْصَانِكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَلَنْ يَضُرَّ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ  
الشَّاكِرِينَ » ١٤٤ « وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا <sup>(٦)</sup>  
وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي

[١] قال لهم الخ : أي ضرب عليهم القلة ، وهو موت أدنى جزاء جبنهم وخوفهم من الموت .

[٢] قرح : جرح . [٣] نداولها : نعرفها ونعملها دولا يوما لفرقة ، وريوما لأخرى ليعتبروا .

[٤] يمسس : يلمس فلو لم يمسسهم من الضعف . [٥] ولما يعلم : أي علم ظهور .

[٦] اعلمهم : رجسهم إلى الكفر . [٧] كتاباً مؤجلاً : أي كتب ذلك كتاباً موقتماً لا يهتدم ولا يباخر .

الشَّكِرِينَ «١٤٥» وَكَانَ <sup>(١)</sup> مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِيبُونَ <sup>(٢)</sup> كَثِيرٌ فَا وَهِنُوا <sup>(٣)</sup>  
لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَاتُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ «١٤٦»  
وَمَا كَانَ قَوْلُكُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا  
وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ «١٤٧» فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ  
الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ «١٤٨» آل عمران

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَانُوا لَا يَخُونُكُمْ إِذَا ضَرَبُوا  
فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى <sup>(١)</sup> لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ <sup>(٢)</sup>  
ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ «١٥٦» وَلَنْ  
تُقْتَلُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَغَفْرَةً مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ لِمَا يَحْكُمُونَ «١٥٧» وَلَنْ  
مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لِلَّهِ تَحْسِرُونَ «١٥٨» آل عمران

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاهُ عِنْدَ رَبِّهِمْ  
يُرْزَقُونَ «١٦٩» فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ  
يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ «١٧٠» يَسْتَبْشِرُونَ  
بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ «١٧١» الَّذِينَ اسْتَجَابُوا  
لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ  
عَظِيمٌ «١٧٢» الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ  
فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ «١٧٣» فَأَتَقَلَّبُوا نِيعَةً مِنَ اللَّهِ  
وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوْءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ «١٧٤» إِنَّمَا

[١] كانين : كم . [٢] ريبون : جمع ريب ، وهو الرابح المخلق بأفلاك الرب .

[٣] وهنوا : قتلوا . [٤] غزى : جمع غز ، كغاب وعزى .

[٥] ليجعل الله الخ : علة القول ، أى السبب فى ذلك القول أن يجعل الله ذلك القتل حسرة فى قلوبهم .

ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنْتُمْ  
مُؤْمِنِينَ «١٧٥» آل عمران

فَلْيَقْتُلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقْتَلْ فِي  
سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا «٧٤» وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ  
فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا  
مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ  
نَصِيرًا «٧٥» الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي  
سَبِيلِ الطَّاغُوتِ قَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ <sup>(١)</sup> إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا «٧٦» النساء  
وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَلَهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ  
وَرَرَّ جُودٌ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا «١٠٤» النساء

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا <sup>(٢)</sup> فَلَا تُولُوهُمْ  
الْأَدْبَارَ <sup>(٣)</sup> «١٥» وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ ذُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ <sup>(٤)</sup> أَوْ مَتَحِيزًا إِلَى  
فِتْنَةٍ <sup>(٥)</sup> فَقَدْ بَاءَ <sup>(٦)</sup> بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ «١٦» فَلَمْ  
تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ <sup>(٧)</sup> إِذْ رَمَيْتَ <sup>(٨)</sup> وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى  
وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ «١٧» ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ  
مُوْهِنٌ <sup>(٩)</sup> كَيْدَ الْكَافِرِينَ «١٨» الأعداء

[١] أولياء الشيطان : حزبه وأصاره . [٢] زحفاً : زاحفين عليكم .

[٣] فلا تولوهم الأدبار : لا تفرّوا من القتال . [٤] متحرّفاً لقتال : أى لصلحة حرب .

[٥] أَوْ مَتَحِيزًا إِلَى فِتْنَةٍ : جماعة من المسلمين يستجِدُّ بها . [٦] بَاءَ : رجع .

[٧] وما رميت : أصبت مقاتل القوم . [٨] إِذْ رَمَيْتَ : أتيت بصورة الرمي .

[٩] موهنٌ : مضعف .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ فِتْنَةً فَاتَّبِعُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَزْعَمُوا فَتَنَاسَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ <sup>(١)</sup> وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ الأعداء

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٤٥﴾ الثَّنِ <sup>(٢)</sup> خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلَّمَ أَنَّ فِيكُمْ صَفْعًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ الأعداء

قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا <sup>(٣)</sup> حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٤٧﴾ التوبة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَاهُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّمَا قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ <sup>(٤)</sup> وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ

[١] ريحكم : قوتكم ، سماها ريحاً لأن الريح قوة عظيمة تدرك كل شيء بأسرها ، وهي التي سلطها على المؤمنين ، وكذلك الأعداء قوة عظمى . [٢] الآن : أي وقت ضعفكم ، وآية بشاره من الله بأن المؤمنين تقوى نفوسهم حتى يكون الواحد مقارناً عشرة بما أعطاه الله من قوة القبضة ، وقد يؤيد ذلك بعض الفروقات . [٣] فتربصوا : انتظروا . [٤] يستبدل قوماً غيركم : كما هي سنة الله في أن يرت القوي الضعيف .



أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي النَّارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ «٤٠» انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً <sup>(١)</sup> وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ «٤١» التوبة

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا <sup>(٢)</sup> عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ «١١١» التوبة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ «١٢٣» التوبة

فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ <sup>(٣)</sup> حَتَّى إِذَا أَنتَحَسْتُمُوهُمْ <sup>(٤)</sup> فَشَدُّوا الْوُثَاقَ <sup>(٥)</sup> فَإِمَّا مَنًّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا <sup>(٦)</sup> ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِنَبْلُوَ <sup>(٧)</sup> بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ «٤٤» سَيَهْدِيهِمْ وَيُضْلِحُ بَالَهُمْ «٥٥» وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ «٦٦» يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ تَنْصُرْكُمُ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ «٧٧» وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَنَسَّا لَهُمْ <sup>(٨)</sup> وَأَصْلًا أَعْمَلَهُمْ «٨٨» ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ

[١] خِفَافًا وَثِقَالًا : لغة مبالغة وكثرتها . [٢] وعدًا : أى وعد بذلك الجزاء وعدًا .

[٣] فضرب الرقاب : فاضربوا الرقاب ضرباً . [٤] أنتحستمهم : أكثرتم قتلهم .

[٥] فشددوا الوثاق : فأمرهم . [٦] تضع الحرب أوزارها : آلتها وأعمالها كالسلاح ، والراد

حتى تنتهى . [٧] لنبلو : ليعتبر . [٨] قصصاً لهم : فشوراً وأعطائاً .

اللَّهُ فَأَخْبَطَ أَعْمَالَهُمْ «٩» أَقَلَّمْ بَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَمَلُهُ  
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ «١٠» وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا «١٠» ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ  
مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ «١١» إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ  
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ  
وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ «١٢» وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ  
أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتَكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ «١٣»

يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ «٢» كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ  
تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ «٣» إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقِيمُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَتْهُمْ بُنِينَ  
مَرَّصُوصٌ «٤» الصف

## الإيمان ، والكفر ، والنفاق

(٤) سنة الله في الخلق أن يصبر الناس أحزابا وشيعا إذا دعاهم إلى الإصلاح ، ففريق يناصر  
الداعي سرا وعلاية ، وذلك هو الفريق الذي آمن بالدعوة ، واطمأننت نفسه إلى صدق دعائها ،  
ولم يوجد في نفسه من الأمراض ، ما يحول دون قبولها ، ورأى عنده من الشجاعة ما يحمله على  
مناصرة الداعي ، والتعاون معه ، وأولئك الذين يسميهم القرآن المؤمنين .  
وفريق آخر شب على حب الألفة ، والتأني على الإصلاح ، وصرضت نفسه بالعظمة الكاذبة  
واستولت عليه التقاليد للورثة ، فيقاوم الدعوة وحامل الدعوة ، على الرغم من قيام الأدلة  
الكثيرة على خطئه في هذه المقاومة ، وذلك هو الصنف الكافر .  
وهناك فريق لم يجد عنده من الجرأة ما يحمله مع فريق الكفار ، ولم يجد عنده من سلامة  
الصدر وطهارة النفس ما يحمله مع طائفة المؤمنين ، فأخذ يوارب ويدأجى الفريقين : فريق للمؤمنين  
وفريق للكفار ، فإذا شئت أن تحكم عليه بالعداوة للمؤمنين خدعك ظاهره ، وإن أردت أن تضمه  
إلى المؤمنين حال دون ذلك فساد قلبه .

وقد عرفنا الله تعالى أوصاف المؤمنين وأعمالهم ، ثم أوصاف الكفار ، وأوصاف المنافقين ،  
وعلى المؤمن أن يعنى بنفسه فيعرضها على أولئك الأوصاف التي ذكرها الله في كتابه لكل من

هذه الفرق ، فقد يكون مخدوعا في نفسه ، ويرى نفسه مؤمنا وهو عند الله كافر أو منافق ، وقد يكون عنده شعبة من النفاق ، وهو لا يعلمها ، فيعالج نفسه حتى يصير مؤمنا حقا .

## الآيات في المؤمنين

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ <sup>(١)</sup> وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ «٣»  
وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ «٤»  
أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ «٥» البقرة

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ  
ءَامَنَ <sup>(٢)</sup> بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى  
حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَى السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ <sup>(٣)</sup>  
وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ  
فِي الْبَأْسَاءِ <sup>(٤)</sup> وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ  
الْمُتَّقُونَ «١٧٧» البقرة

ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ  
وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفَرَّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَهَلْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا  
وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ «٢٨٥» البقرة

وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ  
لِلمُتَّقِينَ «١٣٣» الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظَّيْنِ الْغَنَظِ وَالْمَافِينَ  
عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ «١٣٤» وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا

[١] الغيب : ما غاب عنهم كالايمان بالله وملائكته واليوم الآخر . [٢] من آمن : فعل من آمن .

[٣] وفي الرقاب : فكها من الأسر . [٤] البأساء : الفقر ، الضراء : للرض ، البأس : الضعة في القتال .

أَنْفُسَهُمْ ذَكَّرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا الذُّنُوبَ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتُ جَنَّةٍ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾ آل عمران

وَكَأَيِّنْ (١) مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِيثُونَ (٢) كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا (٣) لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ آل عمران

يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ (٤) لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءُ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانِ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ آل عمران

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٥) ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَكَ فَقِنَا الْعَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ

[١] كآين : كم . [٢] ريون : جمع ربي ، وهو الرباني . [٣] وهنا : جنوا عن القتال .

[٤] القرع : الجرح . [٥] الألباب : القلوب .

أَنْصَارٍ «١٩٢» رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا  
رَبَّنَا فَاعْرِضْ لَنَا دُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَفَتِنَا مَعَ الْأَبْرَارِ «١٩٣» رَبَّنَا وَآتِنَا  
مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ «١٩٤»  
فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنِّي بِمُتَضِّكُمُ  
مِنْ بَعْضٍ <sup>(١)</sup> قَالَتَيْنِ هَاجِرُوا وَأَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَوْدُوا فِي سَبِيلِي وَقُتِلُوا وَقُتِلُوا  
لَا كُفْرَانَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا ذَخْلَهُمْ جَنَّتِ بَحْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ  
عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ «١٩٥» آل عمران

الَّذِينَ آمَنُوا يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ  
الطُّغُوتِ <sup>(٢)</sup> فَقُتِلُوا أَوْلِيَاءُ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا «٧٦» النساء

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ مُلُوكُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ  
آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ «٧٧» الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيَمُوتُوا  
رِزْقَهُمْ يَتَّقُونَ «٧٨» أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتُ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَنْزِلَةٌ  
وَرِزْقٌ كَرِيمٌ «٧٩» الأعراف

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ  
آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ <sup>(٣)</sup> وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا  
مَالَهُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَفْضَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ  
النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ يَبِينُ بَيْنَهُمْ مِثْقَلُ ذَرَّةٍ مِنَ الْإِثْمِ فَأُولَٰئِكَ يَتَنَصَّرُونَ «٧٧» وَالَّذِينَ

[١] بعضكم من بعض : هم سواء في الجزاء على الأعمال . [٢] الطغوت : الباطل .

[٣] آووا : ضوا إليهم المهاجرين ، ومنه : آوى إليه أخاه : ضمه إليه .

[٤] أولياء بعض : نصراء بعض .

كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَقْمَلُوهُ<sup>(١)</sup> تَكُنْ فِتْنَةٌ<sup>(٢)</sup> فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ «٧٣» وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ «٧٤» وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ «٧٥» الأَعَال

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ «٧٦» وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ «٧٧» التوبة

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ إِنَّ مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنِعْمَتِ اللَّهِ الَّتِي بِآيَتِهِمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ «١١١» التَّائِبُونَ الْعَبِيدُونَ الْحَمِيدُونَ السَّخِيحُونَ<sup>(٣)</sup> الرُّكُوعُونَ السَّجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ «١١٢» التوبة

أَفَن يَنْفَعُ يَنْفَعُ أُنْمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ

[١] إلا تقملوه : من تواصى المؤمنين ومقاطعة الكافرين . [٢] فتنة : بلاء ومحنة .

[٣] السَّخِيحُونَ : أى فى الأرض فيتبروا بمن سبقهم كما قال : ( أظلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يضلون بها ) الخ .

أُولُوا الْأَلْبَابِ «١٩» الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ «٢٠» وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ «٢١» وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ «٢٢» بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ «٢٣» جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ «٢٤» مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ «٢٥» سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ «٢٦» الرعد

وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ «٢٧» الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ «٢٨» الحج

وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ «٢٩» الَّذِينَ إِنْ مَكَنْتُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ «٣٠» الحج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ «١» الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ «٢» وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ «٣» وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ «٤» وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ «٥» إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ «٥» فَإِنَّهُمْ فِتْنَةٌ مُلَمَّةِينَ «٦» فَمَنْ ابْتَدَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ «٧» وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ «٨» وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ «٩» أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ «١٠» الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفَرْدَوْنَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ «١١» المؤمنون

[١] الليثي . الله . [٢] يدرءون : يزيلون .

[٣] ومن صلح : أي دون من فسد فلا يدخلها لأنها دار استعفت بالسل . [٤] المحبين : للتواضعين .

[٥] ما مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ : النساء للمواكفات . [٦] العادون : للتجاوزون الحد .

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا <sup>(١)</sup> وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا <sup>(٢)</sup> «٦٣» وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا <sup>(٣)</sup> «٦٤» وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا <sup>(٤)</sup> «٦٥» إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا «٦٦» وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا <sup>(٥)</sup> وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا <sup>(٦)</sup> «٦٧» وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا <sup>(٧)</sup> «٦٨» يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا «٦٩» إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا «٧٠» وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا <sup>(٨)</sup> «٧١» وَالَّذِينَ لَا يَشْعُرُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللُّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا <sup>(٩)</sup> «٧٢» وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا <sup>(١٠)</sup> «٧٣» وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ <sup>(١١)</sup> وَاجْعَلْ لَنَا لِمَتَّقِينَ إِمَامًا <sup>(١٢)</sup> «٧٤» أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا «٧٥» خُلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا «٧٦» قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ <sup>(١٣)</sup> فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا <sup>(١٤)</sup> «٧٧» الرافض

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ

[١] هونا : هين . [٢] سلاما : سداداً من القول يملكون به من الأذى .

[٣] سجداً وقِياماً : خاضعين قائمين له بحق ربوبيته . [٤] غراماً : شدة ومصيبة .

[٥] يقتروا : يضيغوا . [٦] قواماً : وسطاً . [٧] أثاماً : جزاء لهم .

[٨] يبدل الله الخ : يبدل ملكة العصية و النفس بملكة الطاعة .

[٩] جنوب إلى الله متاباً : يرجع بذلك إلى الله متاباً مرضياً . [١٠] كراماً : مرضين مكرمين أعظمهم .

[١١] صبا وعيانتا : غير واهين ولا جبرين بما فيها .

[١٢] قررة أعين : ما تدرى به العين لتوحيهم الطاعة . [١٣] إماماً : قدوة صالحة للأتباع .

[١٤] يبا : يبتدئ . [١٥] دعاؤكم : مبادتكم . [١٦] لزاماً : لازماً يحمي بكم ولا بد .



وَمُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ «١٥» تَتَجَافَى<sup>(١)</sup> جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا<sup>(٢)</sup> وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ «١٦» فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ «١٧» السجدة

وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا «٢٢» مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا<sup>(٣)</sup> مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ<sup>(٤)</sup> وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا «٢٣» لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنْفِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا «٢٤» الأحزاب

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكُوعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيَّمَاهُمْ<sup>(٥)</sup> فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْطَهُ فَكَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا «٢٩» الفتح

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ «١٥» المجرات

[١] تتجافى : ترفع وتنتحي عن الفرس . [٢] خَوْفًا : من الخوف ، وطمَعًا : في التوابع .

[٣] صدقوا : وفوا . [٤] قَضَى نَحْبَهُ : مات .

[٥] سِيَّمَاهُمْ : علامتهم ، مَثَلُهُمْ : صفتهم ، شَطْطُهُ : فرخه ، وهو ما خرج منه وتفرع إلى جانبيه ، والراد أنه برز إلى وجه الأرض وصار له جوانب . فَكَازَرَهُ : قَرَّاه . فَاسْتَغْلَظَ : غلظ . فَاسْتَوَى عَلَى : استقام عليها ، لِيُغَيِّظَ : ليعطيهم بالزرع في زكائه واستحكاكه .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ «١٥» ءَاخِذِينَ مَاءً اْتَهُمُ رَبُّهُمْ لِإِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ «١٦» كَأَوْ أَقْلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ <sup>(١)</sup> «١٧» وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ «١٨» وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ «١٩» الداريات

إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا <sup>(٢)</sup> «١٩» إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا «٢٠» وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا «٢١» إِلَّا الْمُصَلِّينَ «٢٢» الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَأَعُونَ «٢٣» وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ <sup>(٣)</sup> «٢٤» لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ <sup>(٤)</sup> «٢٥» وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّتَ اللَّهِ الَّذِينَ «٢٦» وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ «٢٧» إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ «٢٨» وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ «٢٩» إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ «٣٠» فَمَنْ أَتَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمَكَادُورَ «٣١» وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ «٣٢» وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ فَأَعْمُونَ «٣٣» وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ «٣٤» أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ «٣٥» للمارج

إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا <sup>(١)</sup> «٥» كَأْفُورًا «٥» يَتَنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا «٦» يُقُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا <sup>(٢)</sup> «٧» وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ <sup>(٣)</sup> «٨» مِسْكِينًا وَتَقِيًا وَأَسِيرًا <sup>(٤)</sup> «٨» إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا «٩» إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبَّوسًا <sup>(٥)</sup> «١٠» قَطَرِيًّا «١٠» فَوَقَّهَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهَهُمُ <sup>(٦)</sup>

[١] يهجون : ينامون . [٢] هلوفا : شديد الحرس قليل الصبر .

[٣] المحروم : الذي لا يسأل لنفسه . [٤] مزاجها : ما تخرج به . [٥] مستطيراً : قاشياً منتفراً .

[٦] على حبه : أي الله أو الطعام . [٧] أسيراً : مملوكاً . [٨] عبوساً : بشبه الأسد العبوس ،

قطريراً : شديد العبوس . [٩] انعام : أعطاهم .

نُفْرَةً<sup>(١)</sup> وَمُرُوراً<sup>(٢)</sup> وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً<sup>(٣)</sup> مُكْتَبِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرْائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا<sup>(٤)</sup> وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ<sup>(٥)</sup> قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا<sup>(٦)</sup> ١٤٤ الإنسان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ<sup>(١)</sup> إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِيرٌ<sup>(٢)</sup> إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ<sup>(٣)</sup> العصر

تعلیق وعبارة

(٥) ان قلب الانسان ليضطرب حينما يقرأ الآيات السابقة في بيان أوصاف المؤمنين ثم يسائل نفسه هل أنا مؤمن ذلك الإيمان الذي بينه الله في كتابه أو أن الذي عندي إيمان ينابر ذلك الإيمان؟ ولا سيما عند ما يقرأ قول الله تعالى ( إِمَّا لِلْمُؤْمِنِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ) وهو لم يجاهد ولم يحمده نفسه بالجهد ، وكيف يتخلص من قول الله تعالى ( أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ) ومعناه أن إيماننا لم يكن على ذلك النحو هو إيمان كاذب ، لأنه هو الذي يقابل الصادق .

وكذلك يتفكر الانسان مبهورا حينما يقرأ قول الله تعالى ( قد أفلح المؤمنون ) - الى قوله ( أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفَرْدُوسَ هُمُ فِيهَا خَالِدُونَ ) ليسائل نفسه هل أنا من أولئك المؤمنين الذين كتب الله لهم الفلاح وجعلهم من ورثة الجنة ، وهل أنا خاشع في صلاتي ، معرض عن اللغو ، مؤد للزكاة ، حافظ للفري ، راع لأمانتي وعهدي ؟ .

وهل أنا قدمت لربي ثمن الجنة الذي فرضه على وهو الجود بالنفس والمال ، أو أنا نحيل بمالي وشجيت بنفسي ؟ وهل الرجل الذي لم يدفع ثمن الجنة وقد طلبه الله منه يحصل عليها ؟ ثم ان الذي يؤمن بالقرآن إذا تدبر هذه الآيات التي يصف الله بها المؤمنين ويرينا بها كيف يكون المؤمن مؤمنا حتى يدخله إيمانه الجنة - لاغنى له عن أن يفكر من جديد في إيمانه ، ليزنه بذلك الميزان العادل ، وهو القرآن الكريم ، فان رآه مؤمنا كما وصف القرآن الكريم فليحمد الله على ذلك ، وليزداد إيمانا الى إيمانه .

وان رأى نفسه في ناحية ، وأولئك للمؤمنين الذين أراهم القرآن الكريم في ناحية أخرى

فليرجع الى الله تعالى ، ويستعنه في أن يتخلق بأولئك الأخلاق ، ويأخذ نفسه بذلك العمل ليدخل في عداد المؤمنين عند الله تعالى .

ومن عجيب أمر بعض علماءنا اليوم أن يسلبوا الإيمان عن العمل ، واتخلق الطيب الكريم فبرضون للمؤمن أن يكون خائراً المزيجة جناناً ، كما يرضون له أن يكون شحيح النفس مقتراً ، وأن يكون قاسى القلب ، لا يلين لموعظة ، ولا تدمع عينه لتذكير .

رضوا للمؤمن بذلك كله ، وقالوا ان الإيمان الذى وصفه الله تعالى في كتابه بمثل هذه الآيات هو الإيمان الكامل ، وكأنهم لما عرضوا أولئك الأوصاف التى ذكرها الله تعالى للمؤمن وفيها الجهاد بالنفس والمال والتخلق بكلام الأخلاق - ورأوا أنهم لم يكونوا مؤمنين على ذلك النحو ، لأنهم أشحاء جبناء ، يكذبون ، وينافقون ، ويؤثرون - لما رأوا أنفسهم كذلك ، نلسوا لنفسهم ذلك المخرج ، حتى لاتأخذ الناس عليهم ذلك النقص ، ولا ندرى ماقيمة ذلك الإيمان الناقص إذا لم يدخل صاحبه الجنة ، وماقيمة ذلك الإيمان الناقص إذا كان إيماناً كاذباً ؟ ولماذا يرضون لأنفسهم بإيمان غير حق ؟ اللهم انا آمنا بكتابك الذى أنزلته على رسوك المصوم ، وآمنا بأن من شهد له بأنه للمؤمن حقاً فهو للمؤمن ، ومن لم يشهد له كتابك بالإيمان فلا قيمة لإيمانه وإن سعى نفسه مؤمناً ومؤمناً ، وإن سماه أهل الأرض جميعهم مؤمناً ، أو إماماً للمؤمنين .

### الآيات فى الكافرين

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦٦﴾  
خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ <sup>(١)</sup> وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ <sup>(٢)</sup> وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ <sup>(٣)</sup> وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ <sup>(٤)</sup> ﴿٦٧﴾ البقرة

وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا <sup>(١)</sup> كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ <sup>(٢)</sup> بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً <sup>(٣)</sup>  
وَنِدَاءً <sup>(٤)</sup> صُمٌّ بُكْمٌ تُعْمَىٰ تُصَمُّ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٧١﴾ البقرة

الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ  
الطَّاغُوتِ <sup>(١)</sup> فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ <sup>(٢)</sup> إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ النساء

[١] ختم الله على قلوبهم الخ : حال بيننا وبين الحق بسبب تمايمهم عنه باختيارهم .

[٢] غشاوة : غطاء . [٣] مثل الذين كفروا الخ : صفتهم ومن يدعوم إلى الهدى .

[٤] ينعق : يهتف . [٥] إلادعاء : يدعون فهم . [٦] الطاغوت : الباطل .

[٧] أولياء الشيطان : حزبه وأنصاره .

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ  
وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ  
سَبِيلًا «١٥٠» أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا  
مُهِينًا «١٥١» النساء

قَدْ نَسَلِمَ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ  
بَيَّاتِ اللَّهُ يَمْحَدُونَ «٣٣» الأنعام

فَن يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِذْ أَنْ يُضِلَّهُ يَحْمِلْ  
صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرِيًّا <sup>(١)</sup> كَأَنَّمَا يَصَّمْدُ <sup>(٢)</sup> فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَحْمِلُ اللَّهُ الرُّجْسَ <sup>(٣)</sup>  
عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ «١٢٥» الأنعام

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ  
أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ  
أُولَئِكَ هُمُ النَّفِلُونَ «١٧٩» الأعراف

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ «٢٢» وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ  
فِيهِمْ خَيْرًا <sup>(١)</sup> لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ <sup>(٢)</sup> لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ «٢٣» الأعراف

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ «٥٥» الَّذِينَ عَاهَدْتَ  
مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْفُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ «٥٦» الأعراف

[١] حرباً : شديد الضيق . [٢] يصد : يحاول الصمود .

[٣] الرجس : العذاب . [٤] خيراً : انتفاعاً ، لأسمعهم : سماع تفهم .

[٥] ولو أسمعهم : مع علمه عدم الخير فيهم لتولوا : عن الحق .

إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ «٩٦» وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ «٩٧» يونس

أَلَا إِنَّهُمْ يَقْتُونَ<sup>(١)</sup> صُدُّوهُمْ لِيَسْتَخَفُّوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَخَفُّونَ مَا يَبْهَمُونَ  
يَعْلَمُ مَا يُبْسِرُونَ وَمَا يُمْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ «٥٥» مرد

الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا<sup>(٢)</sup> وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ  
كَافِرُونَ «١٩» أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانْ لَهُمْ مِنْ  
دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضْعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا  
يُبْصِرُونَ «٢٠» أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ «٢١»  
لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِسِرُونَ «٢٢» مرد

إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَحِيدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ  
مُتَنَكِّبُونَ «٢٢» لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُبْسِرُونَ وَمَا يُمْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ  
الْمُتَنَكِّبِينَ «٢٣» وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أُسْطِيرُ<sup>(٣)</sup>  
الْأَوَّلِينَ «٢٤» لِيُخِيلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ  
بَغَيْرِ عِلْمٍ إِلَّا سَاءَ مَا يَزُرُونَ «٢٥» قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ<sup>(٤)</sup>  
مِنَ الْقَوَاعِدِ تَفْرِقَ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوَاقِهِمْ وَأَتَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ  
لَا يَشْعُرُونَ «٢٦» ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْرِجُهُمْ وَيَقُولُ بَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ  
تُشْفِقُونَ<sup>(٥)</sup> فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى

[١] يقتون صدورهم : يلوونها عن الحق ويصرفون عنه .

[٢] يبغيونها عوجا : يطلبونها موجبة تنقذ وهوام . [٣] أسطير : أبطل .

[٤] أتى الله بنيانهم الخ : تصور لهم تدمير من أساسه . [٥] تشاقون : تداون المؤمنين بسببهم .

الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ <sup>(١)</sup>  
مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا  
أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ النحل

إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ  
الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَنْ كَفَرَ <sup>(٢)</sup> بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مِنْ أَكْرَهٍ وَقَلْبُهُ  
مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ  
عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ  
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ  
وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفٰقِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ <sup>(٣)</sup> أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ  
الْخٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ النحل

وَمَا نَرْسِلُ الرُّسُلَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ  
لِيُدْحِضُوا <sup>(٤)</sup> بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا ءَايَتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا <sup>(٥)</sup> ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ  
مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى  
قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً <sup>(٦)</sup> أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا <sup>(٧)</sup> وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ  
يَهْتَدُوا إِذَا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ الكهف

قُلْ هَلْ تُدْبِكُكُمْ بِالْآخِرِينَ أَعْمَلَاءَ ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَمْعُهُمْ فِي الْحَيَاةِ  
الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ

[١] فَأَلْقَوْا السَّلَمَ : سالوا حين طافوا اللوت . [٢] مَنْ كَفَرَ : بدله من الدين وما بينهما معترض .

[٣] لَا جَرَمَ : لا شك . [٤] يُدْحِضُوا : يزِيلُوهُ عَنْ مَقَرِّهِ . [٥] هُزُوًا : استهزاء .

[٦] أَكِنَّةٌ : أغطية . [٧] وَقْرًا : تصامعاً عن الحق .

رَبِّهِمْ وَأَقَامَنَّهُ، خَفِطَتْ<sup>(١)</sup> أَعْمَلُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ<sup>(٢)</sup> يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنَا «١٠٥»  
ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُرُوءًا «١٠٦» الكهف

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ<sup>(٣)</sup>  
كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مِنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ «٤» الحج

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ<sup>(٥)</sup>  
ثَانِي عِطْفِهِ<sup>(٦)</sup> يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ  
الْحَرِيقِ «٩» الحج

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ<sup>(١)</sup>  
يَسْكَادُونَ يَسْطُونَ<sup>(٢)</sup> بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قُلْ أَفَأَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَُمْ  
النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ «٧٢» الحج

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ<sup>(١)</sup> لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ  
وَيَتَّخِذَهَا هُزُوءًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ<sup>(٢)</sup> وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا وَتِلْكَ  
مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرَآءَةً فَنَشْرَهُ بِمَدَابِرٍ أَلِيمٍ «٧٧» لقمان

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ<sup>(٣)</sup>  
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلَوْ كَانِ  
الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ «٢١١» لقمان

[١] خبطت : بطت فلا يابون عليها . [٢] فلا قيم لهم الحج : أى تزدريهم ولا تعترهم .

[٣] ثانى عطفه : متكبرا . [٤] المنكر : النبط والحق .

[٥] يسطون : يطمنون ، والآية تمثل عداوة الباطل للحق .

[٦] لهو الحديث : ما يتلوه به كفصول الكلام والمناجاة .



إِنَّ الَّذِينَ يُحَدِّثُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَغْتَرِ سُلْطَانٌ <sup>(١)</sup> أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ  
إِلَّا كِبَرُ مَا هُمْ بِيَلْفِيهِ <sup>(٢)</sup> فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ «٥٦» ظافر

أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ <sup>(٣)</sup> وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ <sup>(٤)</sup> وَقَلْبِهِ  
وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَنَ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ «٥٧» وَقَالُوا  
مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ  
عِلْمٍ <sup>(٥)</sup> إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ «٥٨» وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ  
إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبِعُوا بَنَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ «٥٩» المائدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ <sup>(١)</sup> «١» وَالَّذِينَ ءَامَنُوا  
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ  
سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ <sup>(٢)</sup> «٢» ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبُطْلَانَ وَأَنَّ الَّذِينَ  
ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ «٣» محمد

وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْصِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ <sup>(٤)</sup> وَأَسْتَغْشَوْا  
ثِيَابَهُمْ وَأَصْرَوْا وَاسْتَكْبَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا «٥» نوح

[١] سلطان : حجة . [٢] يالفيه : واصليه . [٣] على علم : أى من الله بأن استحق الانحلال .

[٤] وختم على سمعه الخ : أى حال بينه وبين مواهبه جزاء طاعته الهوى .

[٥] وما لهم بذلك من علم : أى حجة ودليل ، لأنهم يقولونه تقليدا .

[٦] أضل أمالهم : عدل بها الى طريق غير مستقيم لكفرهم وصدتم .

[٧] أصلح بالهم : وفقهم للخير . [٨] و آذانهم : ليدوا سامعهم عن استماع الدعوة ، واستغشوا

ثيابهم : تغطوا بها حتى لا أفرغهم .

## تعليق وعبرة

كما يستفيد العاقل من أوصاف المؤمنين بمرضها على نفسه ليعرف ان كان مؤمنا حقا ، أو كاذبا في الإيمان - كذلك يستفيد من بيان الله تعالى أوصاف الكافرين ، فعمل كثيرا من صفاتهم غالى بنفسه وهو لا يدري ، وأن الله تعالى ماعرض لصفات الكافرين إلا ليرينا أن أولئك الصفات هي التي حالت بينهم وبين الإيمان ، فاستحقوا الخلود في جهنم ، وأن الكفار على تباينهم في أسباب الكفر واختلافهم في دواعيه ، فجميعهم من يكفر بفسدة الشريك الى الله تعالى ، ومنهم من يكفر بانكار البعث ، ومنهم من ينكر الرسالة ، الى غير ذلك - انهم على تفاوتهم في ذلك فان لهم خصائص تكاد تجمعهم وتحيط بهم .

[ الأولى ] تعطيلهم ماوهمهم الله من عقل وسمع وبصر ، مما أدى بهم الى غلظة القلوب ، وابطال فائدة السمع والبصر ، حتى وصفهم الله في كثير من الآيات بأنهم شر العوالم ، وبأنهم الصم البكم الذين لا يعقلون .

وقد أرانا الله تعالى أنه ذرا لجهنم كثيرا من الحق والانس ، وعلامتهم أن لهم قلوبا لا يعقلون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، وأن أولئك الأقوام هم أهل النار الذين خلقوا لها وخلقت لهم ، وأولئك هم الذين يندمون في الآخرة حيث لا ينفعهم الندم ، ويقولون (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) .

وعلى كل أحد حين يسمع هذه الأوصاف أن يختبر نفسه ، ويستغنى استعدادده ومواهبه ، أهو ممن يستحقون القول فيجبون أحسنه ، ويعمل فيه عقله واستعدادده ، أم هو ممن ختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فلا يسمع إلا بأذن غيره ، ولا يبصر إلا بعين من تقدمه ، ولا يعقل إلا بقلب من سبقه .

[ الثانية ] حنقهم على الرسل وأتباع الرسل ، وامتلاء نفوسهم غيظا منهم ، حتى وصفهم الله بأنهم إذا نليت عليهم آيات الله بينة واضحة تعرف في وجوههم النفيظ والحق ، عداوة و بغضا لأهل الحق يكادون يبطشون بهم ، وقد ترى ذلك الوصف في فريق من أهل العلم الذين نشأوا على البدع والضلالات في عقائدهم وعبادتهم ، إذا دعاهم داع الى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ، وأخذ يتلو عليهم شيئا من آي القرآن الكريم ، فانك ترى حية الجاهلية سرت في عروقهم ، و تراهم قد ضاقوا به ذرعا ، وقد يقتمى بهم النفيظ والحق الى مقابلة بما لا يرضاه الله من العنف والشدة وضروب الايذاء [ الثالثة ] فرارهم من الدعوة الى الحق ومن الداعي إليه ، حتى انهم يثنون صدورهم ويلوونها عن الداعي ليستخفوا منه ، وما علموا أن الله تعالى يعلم سرهم وعلايتهم ، وذلك لأن الحق يعمل زلزلة في نفوسهم ، واضطرابا في أفئدتهم .

وقد مثل الله لنا فرار قوم نوح من دعوته في قوله ( وإني كذا دعوتهم لتفتر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا » ) .

[الرابعة] دفاعهم عن الباطل وقتالهم في سبيل الشيطان ، وأكبر مظهر لذلك الدفاع جلدتهم في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .  
وما أخرج أهل العلم الى التخوف من تلك الصفة فانهم قد أصيبوا كثيرا بالجدل ، وقد يصل الجدل بهم الى الدفاع عن الباطل بدون حجة ولا برهان ، معتمدين على زلاقة لسانهم أو قوة بيانهم ، وقد وصف الله الكفار بأنهم قوم خصمون ، يحبون الجدل للجدل ، لا للحق ، ولا للوصول إليه ، يجادلون أهل الحق لمرض في قلوبهم ، وكبر يحاولون أن يصلوا إليه ، وهم تغلبهم على الداعي وظفرهم به ، ولن يجدوا الى ذلك سبيلا .  
تلك هي خصائص الكافرين ، وصفات أعداء الحق ، وعلى كل مؤمن أن يحاسب نفسه حسابا عسيرا ، فعلى فيه صفة من أولئك الصفات أو طائفة منها ، فتكون أخلاقه أخلاق الكافرين وهو يحسب نفسه من عداد المؤمنين .

### الآيات في المنافقين

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمْ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ «٨»  
يُخَذِعُونَ <sup>(١)</sup> اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَذِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ «٩» فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ <sup>(٢)</sup> فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ «١٠»  
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ «١١» أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ «١٢» وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ «١٣»  
وَإِذَا لقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ <sup>(٣)</sup> قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ «١٤» اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ <sup>(٤)</sup> «١٥» أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَا رَبَّحَتْ تَجَارِبُهُمْ وَمَا كَانُوا مُتَبِينَ «١٦» البقرة

[١] يخادعون : من خدع الغيب إذا توارى في جبره ، يوم الصائد اقبله عليه ، ثم يخرج من باب آخر .  
[٢] مرض : شك ، وحقاق يحول بينها وبين وظيفتها . [٣] شياطينهم : رؤسائهم .  
[٤] يعمهون : من السه ، وهو الحيرة .

وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ  
وَهُوَ اللَّهُ الْخَصَامُ <sup>(١)</sup> «٢٠٤» وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ  
الْحَرْثَ <sup>(٢)</sup> وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ «٢٠٥» وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ  
الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ <sup>(٣)</sup> فَخَسِبَ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمَاهِدُ «٢٠٦» البقرة

وَمَا أَصْبَحْتُمْ يَوْمَ التَّنَاقُ الْجَمْعَانِ <sup>(٤)</sup> قَبِلْذَنْ اللَّهُ وَلَيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ «١٦٦»  
وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَمَالَوْا قَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ اذْهَبُوا <sup>(٥)</sup> قَالُوا لَوْ  
كُنَّا نَعْلَمُ <sup>(٦)</sup> قِتَالًا لَا تَبْنِيكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ يَقُولُونَ  
يَأْفُوهُمْ مَالِئِينَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ «١٦٧» الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ  
وَقَعَدُوا <sup>(٧)</sup> لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَتَلُوا قُلَّ فَأَذَرَهُ <sup>(٨)</sup> عَنِ أَنْفُسِكُمْ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ  
صَادِقِينَ «١٦٨» آل عمران

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَتَزَّلَ مِنْ قَبْلِكَ  
يُرِيدُونَ أَنْ يَتَخَفَتُوا إِلَى الطُّغُوتِ <sup>(١)</sup> وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ  
أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا «٦٠» وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَمَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ  
رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا «٦١» فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا  
قَدَّمَتِ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءَهُمْ بِخَلْقُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا «٦٢»

[١] أَلَدُ الْحَصَامِ : شديد الخصومة . [٢] الحَرْث : الزرع .

[٣] أَخَذَتْهُ الرِّبَّةُ بِالْإِثْمِ : حمله الأثمة على الإثم ضرارا وبلایا . [٤] يَوْمَ التَّنَاقُ الْجَمْعَانِ : يوم أحد ،  
فَبِإِذْنِ اللَّهِ : فضائه . [٥] أَوْ اذْهَبُوا : من الأتس والأموال .

[٦] لَوْ نَعْلَمُ الْخ : أى لو علم أنكم تقاتلون لغاتنا معكم لكنكم تقولون بأيديكم إلى الهلكة .

[٧] وَقَعَدُوا : أى م عن الضعفاء . [٨] فَأَذَرَهُ : أذروهوا : اذهبوا .

[٩] الطُّغُوتُ : غير الله ، من الطغيان ، وهو التمرد .

أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ <sup>(١)</sup> فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا <sup>(٢)</sup> «٦٣» النساء.

وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَن لَّيَبْطُلَنَّ <sup>(٣)</sup> فَإِنْ أَصَبَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا «٧٢» وَلَئِنْ أَصَبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ <sup>(٤)</sup> يَنْصَحْكُمْ وَيِنَّهُ مَوَدَّةٌ يَلْبِسُنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا «٧٣» النساء.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا <sup>(٥)</sup> «٧٧» النساء.

سَجِدُونَ لِأَخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ <sup>(٦)</sup> وَيَأْمَنُوا قَوْهَ هُمْ كُلٌّ مَّا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا <sup>(٧)</sup> فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَوْكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ <sup>(٨)</sup> وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ نَخَذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ <sup>(٩)</sup> وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا <sup>(١٠)</sup> مُبِينًا «٩١» النساء.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا <sup>(١١)</sup> ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا

[١] ما في قلوبهم : من مرض وفاق . [٢] بليغاً : يبلغ منهم ما تريد ويؤثر فيهم .

[٣] ليبتلن : من بطل بمعنى أبطأ ، أى تناقل عن الجهاد ، أو بطل غيره عنه .

[٤] كأن لم تكن الخ : جملة مترسزة بين القول ومقوله . [٥] فتلاً : ما يكون في شق النواة يضرب به المثل في الشيء الخفي ، أى لا يتصور شيئاً من ثوابهم وإن قل . [٦] أن يأمنوكم : بظاهر الإسلام ، ويأمنوا قوههم : بالكفر . [٧] أركسوا : تكسوا واغلبوا . [٨] السلم : بترك القتال .

[٩] تقفتموهم : وجدتموهم . [١٠] سلطاناً : حجة على جواز قتالهم .

[١١] آمنوا ثم كفروا : آمنوا بلسانهم إذا لقوا المؤمنين ، ثم كفروا إذا لقوا الكفار .

لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا «١٣٧» بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا «١٣٨» الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ <sup>(١)</sup> مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَّتُّنَا الَّذِي لَنَا مِمَّا خَلَقْنَا فَرِيقًا الْغَيْرَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ «١٣٩» وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَةَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا «١٤٠» الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ <sup>(٢)</sup> فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْنَةٌ مِنْ اللَّهِ فَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ <sup>(٣)</sup> قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْذِ <sup>(٤)</sup> عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ <sup>(٥)</sup> مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْمَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا <sup>(٦)</sup> «١٤١» إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ <sup>(٧)</sup> وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا «١٤٢» مُذَبِّذِينَ <sup>(٨)</sup> بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا نَبْجِدَ لَهُ سَبِيلًا «١٤٣» يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ يُجْعَلُوا اللَّهُ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا <sup>(٩)</sup> مُبِينًا «١٤٤» إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا «١٤٥» إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ

[١] أولياء : قسراء . فيما يخالف مصلحة المسلمين . [٢] يترصدون بكم : ينتظرون ما يحدث لكم من كسر أو نصر . [٣] نصيب : حظ من الظفر . [٤] نستحذو : نستول . [٥] ونمنكم : نحمكم . [٦] سبيلا : قلبة مادام المؤمنون قاطعين بحقوق الإيمان ، ويقبضون هديه ، ويمشون سبله في الحق . [٧] يجادعون الله : يجادعونهم لرسوله وللمؤمنين ، وهو خادعهم : ماكر بهم فيجزهم على نيتهم وقلوبهم . [٨] مذبذبين : مضطربين بين المؤمنين والكافرين . [٩] سلطاناً : حجة .

يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا «١٤٦» مَا يَفْعَلُ اللَّهُ<sup>(١)</sup> بِمَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ  
وَأَمَّنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا «١٤٧» النساء.

أَقْرَبُوا خِيفًا<sup>(٢)</sup> وَثَقَالًا وَجْهَدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ  
خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ «٤١» لَوْ كَانَ عَرَصًا<sup>(٣)</sup> قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا<sup>(٤)</sup>  
لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَدَدْتَ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةَ<sup>(٥)</sup> وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا  
مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ «٤٢» عَفَا اللَّهُ عَنْكَ<sup>(٦)</sup> لِمَ  
أَذْنَبْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ «٤٣» لَا يَسْتَنْذِنُكَ  
الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ  
بِالْمُنْتَبِينَ «٤٤» إِنَّمَا يَسْتَنْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ<sup>(٧)</sup>  
قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ «٤٥» التوبة

وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ<sup>(٨)</sup> «٥٦»  
لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً<sup>(٩)</sup> أَوْ مَغْرَاتٍ أَوْ مَدْخَلًا<sup>(١٠)</sup> لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ<sup>(١١)</sup> «٥٧»  
وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ<sup>(١٢)</sup> فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا  
إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ «٥٨» التوبة

[١] ما يفعل الله الخ : لاحظ له في أن يذب أحدا مادام مؤمناً شاكراً .

[٢] خيفاً : قلة عيالكم ، وثقالاً : لكثرتها . [٣] عرساً : مغنا دنوباً .

[٤] قاصداً : متوسطاً . [٥] الشقة : الساقة تقطع بمشقة .

[٦] عفا الله عنك : كناية عن خطئه في الاذن لهم بالتخلف . [٧] ارتابت : مرضت بالريب والنفاق .

[٨] يفرقون : يخافونكم فيظهرون الإسلام تقية . [٩] ملجأ : حصناً .

[١٠] مدخلا : نفقا في الأرض ، ولولوا : أقبلوا . [١١] يجمعون : يسرعون كالفرس الجوح .

[١٢] يلزمك في الصدقات : يبيك في قسمها .

الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ <sup>(١)</sup> يَدْعُونَ بِالنُّبُكَ وَيَنْهَوْنَ عَنِ  
الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ <sup>(٢)</sup> نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ «٦٧»  
وَعَدَ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ  
اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ «٦٨» التوبة

وَمِنْهُمْ مَنْ عٰهَدَ اللّٰهَ لَئِنْ اٰتٰنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُوْنُ مِنَ  
الصّٰلِحِيْنَ «٧٥» فَلَمَّ اٰتٰهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوْا بِهِ وَوَلَّوْا وَهُمْ مُّضِرُّوْنَ «٧٦»  
فَاَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِيْ قُلُوْبِهِمْ اِلٰى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ بِمَا اٰخَلَفُوا اللّٰهَ بِمَا وَعَدُوْهُ وَبِمَا كَانُوْا  
يَكْذِبُوْنَ «٧٧» اَلَمْ يَعْلَمُوْا اَنَّ اللّٰهَ يَلْمِ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَاَنَّ اللّٰهَ عَلٰمُ  
الْغُيُوْبِ «٧٨» الَّذِيْنَ يَلْمِزُوْنَ الْمُطَوَّعِيْنَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ فِي الصَّدَقٰتِ وَالَّذِيْنَ  
لَا يَجِدُوْنَ اِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُوْنَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللّٰهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ  
اَلِيْمٌ «٧٩» التوبة

فَرِحَ الْخٰلِفُوْنَ بِمَقْعَدِهِمْ <sup>(٣)</sup> خَلَفَ رَسُوْلُ اللّٰهِ وَكَرِهُوْا اَنْ يُجَاهِدُوْا بِأَمْوَالِهِمْ  
وَأَنْفُسِهِمْ فِيْ سَبِيْلِ اللّٰهِ وَقَالُوْا لَا تَنْفِرُوْا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ اَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوْا  
يَفْقَهُوْنَ «٨١» فَلْيَضْحَكُوْا قَلِيْلًا وَلْيَبْكُوْا كَثِيْرًا جَزَاءُ مَا كَانُوْا  
يَكْسِبُوْنَ «٨٢» فَلَمَّ رَجَعَكَ اللّٰهُ اِلٰى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاَسْتَشَدُّوْكَ لِلْخُرُوْجِ فَقُلْ  
لَنْ تَخْرُجُوْا مَعِيَ اَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوْا مَعِيَ عَدُوًّا اِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُوْدِ اَوَّلَ  
مَرَّةٍ فَاَقْعُدُوْا مَعَ الْخٰلِفِيْنَ <sup>(٤)</sup> «٨٣» وَلَا تُصَلِّ عَلَى اَحَدٍ مِنْهُمْ مَّتَّ اَبَدًا وَلَا تَقُمْ  
عَلٰى قَبْرِهٖ اِنَّهُمْ كَفَرُوْا بِاللّٰهِ وَرَسُوْلِهِ وَمَاتُوْا وَهُمْ فٰسِقُوْنَ «٨٤» وَلَا تُعْجِبْكَ

[١] بعضهم من بعض : متحابين في البعد عن الايمان كما يماس لشيء الواحد .  
[٢] ويقبضون ايديهم : عن الخير . [٣] بمقعدهم : قومهم عن القرب ، خلاف : بمسكنهم .  
[٤] الخالفيين : المتخلفين .



أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُمَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ « ٨٥ » وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَّاكَ أُولُوا الطُّوْلِ<sup>(١)</sup> مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا<sup>(٢)</sup> نَكُنْ مَعَ الْقَعِيدِينَ « ٨٦ » رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ « ٨٧ » التوبة

يَسْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَمْتَدِرُوا لَنْ نُوَافِيَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَاللَّهِ هُوَ فَاتِحُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ « ٩٤ » سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ<sup>(٣)</sup> إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ<sup>(٤)</sup> وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ « ٩٥ » يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ « ٩٦ » التوبة

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ<sup>(٥)</sup> كَمَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ « ١٠٠ » وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ « ١٠١ » الممتحنة

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا تُرَاتِ سُورَةٌ فَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ<sup>(٦)</sup> وَذُكِّرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ<sup>(٧)</sup> يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمُنْشَى

[١] الباول : النفي والسه . [٢] فرنا : دعنا : [٣] اعلمهم : عدتم .

[٤] رجس : قذر بالغ في تلوث غوسم وفساد ما حتى جعلها الفجارة غسبا .

[٥] فتنة الناس : أذام له ، كمذاب الله : بخرقه ، كناية عن ضعف إيمانه وضعفته .

[٦] محكمة : مينة لا تشابه فيها . [٧] مرض : ضعف .

عَلَيْهِ <sup>(١)</sup> مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ «٢٠» طَاعَةٌ <sup>(٢)</sup> وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرَ <sup>(٣)</sup> فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ «٢١» ۝

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَنِهُمْ <sup>(٤)</sup> «٢٩» وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ <sup>(٥)</sup> فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ <sup>(٦)</sup> وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ «٣٠» وَلَتَبْلُوَنكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ «٣١» ۝

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ لَكَاذِبُونَ «١» اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً <sup>(٧)</sup> فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ «٢» ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُوْنَ «٣» وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسْنَدَةٌ <sup>(٨)</sup> يَخْسِبُونَ كُلَّ صِيغَةٍ عَلَيْهِمْ ثُمَّ الْمُدَوُّونَ <sup>(٩)</sup> فَآخَذَرَهُمْ قَتْلَهُمُ اللَّهُ أَتَى يُؤْفَكُونَ «٤» وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّارًا وَهُمْ <sup>(١٠)</sup> وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ <sup>(١١)</sup> وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ «٥»

[١] المنفى عليه : المنفى عليه جيناً وهلمأ . [٢] طاعة : خبر عن قوله : ( فأول ) .

[٣] عزم الأمر : فرض القتال . [٤] أصغنائهم : أخطأهم . [٥] لأريناكمهم : عرضناكمهم فزعمهم بعلامتهم . [٦] لحن القول : أسلوبه ولعل من أساليبهم أنهم لا ينطقون بالحق واضحاً . [٧] جنة : الرافعة والملازمة . [٨] خشب مسندة : شبههم بالخشب المسندة إلى الحائط بدون نفع لأنهم أشباح خالية عن العلم والنظر ، أو جمع خشب ، وهي الخشب التي نخر جوفها ، شبهوا بها في حسن النظر وقبح النظر .

يخسبون كل صيغة عليهم : لجنتهم وضعت قلوبهم ، وذلك شأن من ليست له عقيدة .

[٩] المدو : جلة معرفة الطرفين تفيد الحصر : أي لاعدوا للسلين إلا م قال الكفار في جانبهم ليسوا شيئاً .

[١٠] لوارا رؤوسهم : عطفوها إعرافاً وتكبراً . [١١] يصدون : يعضون .

سَوَاعِدِهِمْ أَسْتَغْفِرْتُمْ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَاللَّهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿٧﴾ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٨﴾ يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ ﴿٩﴾ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠﴾ لِلْمُتَّقِينَ

### كبريات المبر في المنافقين

(٧) أراي قد اطلت عليك أيها القارى في آيات المنافقين بما لم تعهده منى في أبواب آخر ، ولو علمت أن المنافقين شر مستطير في كل زمان على كل إصلاح في الأرض لعذرتنى في هذه الاطالة ، بل ونظمت فوقها .

إنك لو تقيعت أى إصلاح في الأرض ، وأردت أن تعرف كيف يقابل ذلك الإصلاح من طيناب الناس ، لراأت رأى العين أن الناس أمام ذلك الإصلاح أقسام ثلاثة : قسم يرحب به ويناصره ظاهرا وباطنا ، ويضحى في سبيل مناصرته النفس والنفيس ، وقسم آخر يعاديه ظاهرا وباطنا .

وقسم ثالث يعاديه في الباطن ويصره في الظاهر ، وأولئك هم المنافقون المخادعون . ونظرة واحدة في هضاب البلاد وحزبتها ضد أعدائها التناصيين لها ، تريك كيف تقسم الناس على الصالح ، وكيف يكونون أجزاء وشيعا ، وكيف تنجلي أخلاقهم ، وتظهر غمائم قلوبهم ، ترى الفريق الذى صفت نفسه ، وطهرت عن الخبث أخلاقه ، يرحب بذلك الإصلاح ، ويدعو الناس إليه ، ناسيا ما وراء ذلك من آلام ومشاق ، وتراه يندفع الى ترويج الدعاية للبدل وهو لا يشعر ، ويرى سماده في أن ينفق ماله وحياته في ذلك السبيل ، وهو الفريق المؤمن .

وترى فريقا آخر كبر عليه أن يقوم بذلك الإصلاح رجل من القوم ، ويصبح وله ذلك الأثر الخالد ، والصيت الدائم ، فيرجع الى نفسه وقد امتلأت حقدا وحسدا ، وكبرا وغرورا ، فيسائل نفسه ماذا أنت فاعله بذلك الرجل ؟ وماذا أعددت له من عمل ؟ فتجيبه : أعددت له خذلانا لا يقوم بعده ، وموتة لا يحيا معه ، أعددت له أنواعا من الاهانة ، وضروبا من الايذاء . وأصنافا من العنت والاحراج ، أعددت له تحقيرا أمام مواطنيه ، وتسفها لعمله ، تقاطعه الأبناء عن الآباء وذلك هو الفريق الكافر بذلك الإصلاح المعادى له سرا وعلانية .

- [١] من عند رسول الله : للهاجرين . ينفضوا : من حول محمد صلى الله عليه وسلم .  
[٢] خزائن السموات والأرض : يده الأوراق كلها . [٣] يعقون : يعمون ذلك الجملهم بربهم .  
[٤] الأعز : يمتون أنفسهم . الأذل : يريدون للمؤمنين .

وترى فريقاً ثالثاً ، وهو شرّ من الفريق الثاني يشترك معه في خبث النفس ، وفساد الطوية والخلق على ذلك الصلح ، ويمتاز عنه بالجلين والخور ، وضعف القلب ، فلا يستطيع أن يصارع الصلح بأنه عدوّه اللدود ، ولا أن يظهر أمام المؤمنين بذلك المظهر ، فيضطره ضعف عقيدته ، وفقدانه للجرأة أن يدارى ويوارب ، فيكون بين الصديق والعدوّ ، وللناصر والمحارب : إذا رأى للمؤمنين أظهر لهم الإيمان ، وإذا لقي الكافرين قال لهم : إني معكم .

### المنافق حيوان خبيث

ومثله في ذلك مثل حيوان خبيث وهو الضبّ ، يعمل له جحراً في الأرض يسمى النفاق ، له بلبان ، إذا أراد صائده أن يدخل إليه من أحد البابين لوثّ له بذنبه أنه مقبل عليه ليطعمه ، ثم يخرج من الباب الآخر ، يخدعه بذلك العمل ، وهكذا المنافق ، واشتقاقه من النفاق وهو ذلك الجحر الذي يعمل الضبّ ، أو هو إحدى جحرة البربوع التي يعملها في الأرض ظاهرة يراها الناس ، حتى إذا ذهبوا إليها ليطلبوه ، إذا به قد أعد جحراً آخر قد أخفاه عن الناس ليكون فيه ذلك هو المنافق الذي يخادع الناس ويخادع الصالحين في كل زمان ، وهدامته في خداعه ونفاقه.

### الفتن والشدائد

(١) يتألم كثير من الناس للفتن والشدائد التي تقع على الأمم الناهضة ، ولو عرف الحكمة في هذه الشدائد ، والغاية من هذه الفتن لعل أنها تنطوي على حكم ومصالح لا غنى للإصلاح عنها . وأضرب لهم مثلاً الشدائد التي تقع بالمسلمين من خصومهم في الدين والعقيدة والحروب الطاحنة بين حزب الله وحزب الشيطان ، فانها تمحص من نفوس المؤمنين ، وتظهر قلوبهم حتى يكون إيمانهم قوياً خالصاً ، فلا يكون للشيطان حظ من أولئك النفوس . ومن ناحية أخرى إن الشأن في الله أي أو الصلح أن يقبل الناس عليه في بادئ الأمر ، وفيهم المؤمن والمنافق ، ولولا الشدائد لبقى جيش ذلك الصلح خليطاً من أنصاره وأعدائه ، فقضت حكمة الله أن يبتليهم بالشدائد ، ويختهم بالحن والخطوب ، ليمتاز المؤمن من المنافق ، والصادق من الكاذب .

وهذا تاريخ المنافقين في الاسلام يرينا أنهم دخلوا في الدين مع من دخل من المسلمين ، وكثروا سواد المسلمين ، وبعد أن فرض الله القتال على المسلمين ظهر ما عندهم من ضعف ، وانكشف ما انطوا عليه من نفاق ، وأخذوا يتفرون عن الحرب مع المؤمنين ، والكفاح في سبيل الله ، وقد كانت فرضية القتال فضيحة لهم وخزياً وعاراً ، ولا عجب فان بذل النفس لا يمكن أن يكون من منافق ، إنما يكون من مؤمن قوى لإيمانه ، وازداد في الله يقينه ، فانه لا شيء أغلى من النفس ، فمن له رجاء في الله ، وعقيدة خالصة ، لا يتورعها شيء من الوهن يسهل عليه أن يضحي بنفسه في سبيل دينه ، ولذلك كان أكبر دليل على الإيمان الجهاد في سبيل الله ، وقد

تلونا عليك من آيات الذكر الحكيم ما يريك مقدار فرار المنافقين من القتال ، واعتذارهم عنه وقد أنزل الله تعالى فيهم آيات لاتخصي فضحهم بها ، وأبان جنهم وخورهم ، وأكثرت سورة التوبة في ذلك النوع ، ولذلك سماها بعض السلف الفاضحة والمخزية ، لأنها خزي ووبال على أولئك القوم والعبرة في ذلك أن ما ينال للصلحين من أذى وما يعترض خربهم من عقبات ، سواء في ذلك ما يتعلق بهم أو نفوسهم - كل ذلك من شأنه أن يحصن للصلحين ، ويخلصهم من السخيل ، ويبعدهم من الضعف ، حتى يكونوا جسما قويا على الشدائد ، فيه مناعة تحول بينه وبين المؤثرات ( ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب « ١٧٩ » )<sup>(١)</sup> ( أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون « ٢ » ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين « ٣ » )<sup>(٢)</sup> .  
ولم يكن من آثار الشدائد سوى أن يميز الله بها الخبيث من الطيب ، ويجعل الخبيث بعضه على بعض لكني .

وقديما قالوا [ جزى الله الشدائد كل خير ] فاذا أخرجت الشدائد فريقا من الذين كانوا مع الصلح في بادئ أمرهم ، فأنما أخرجت مرضا كينا ، وداء دفينا في سواد المؤمنين أصبح الجسم بعده سليما قويا ، يستطيع أن يكافح وينافح ، ويستطيع أن يأمن على أسراره أن تداع بين الأعداء والخصوم ، فرص ثم مرض لهذه الشدائد .

## أخلاق المنافقين

(٢) يرينا الله تعالى في كتابه الكريم - وهو العالم بخفايا النفوس وما تكنه الضمائر - أن للمنافقين خصائص وأخلاقا بها يمتازون عن غيرهم ، ثم أرانا أن العلة في أولئك الأخلاق هي مرض القلب ، واضطراب العقيدة ، ولو كان قلبهم سليما من المرض ما كانوا على ذلك الخلق .  
[ الأولى ] من صفاتهم أنهم يعاملون الله معاملة المخادع ، لامعاملة المخلص ، ومادروا أنهم بذلك العمل يخدعون أنفسهم ، وأن وبأل خداعهم راجع إليهم ، ولو قدروا الله حق قدره ما علموه ، تلك اللامعة ، ( يخادعون الله والذين آمنوا ويصدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ) ولو كان عندهم شيء من العقل لاستحووا من ذلك العمل ، فإن الرجل العاقل يستكشف أن يخادع مخلوقا مثله إذا كان يعلم أن عنده من اليقظة والعلم ما به ينكشف خداع صاحبه ، فكيف إذا كان ذلك الذي نعامله إلها له العلم الشامل ، والمهيمنة على النفوس .

ومن آثار خداعهم لله أنهم يصاون بأجسامهم لا بقلوبهم ، فهم يصاون صلاة رياء لاصلاة إخلاص ( وإذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ) وكأنه يشير بكلمة ( إذا ) الدالة على التعليق الى أن الشأن فيهم أن لا يصاوا ، ولو فرض أنهم قاموا الى الصلاة قاموا كسالى ، فلم يأخذوا التكليف بقوة ، كما هو الشأن فيمن يعمل العمل وهو مقتنع بأنه نافع

مفيد ، بل يؤدونها كإهين متافلين ، لأنهم يراون الناس بصلاتهم ، ولا يبتغون بها وجه الله ، ومن كان كذلك لا يقوم الى صلاته بجد ونشاط ، وهم الذين قال الله فيهم (فويل للصلين «٥» الذين هم عن صلاتهم ساهون «٦» الذين هم يراون «٧» ويمنعون الماعون «٨» ) (١) .

وقل مثل ذلك في كل عبادة يقومون بها ، يؤدونها غافلين عن سرها ، فاقدين لروحها ، وما أحوجنا الى تدبير ذلك الخلق الذي وصف الله تعالى به المنافقين ، وعرضه على نفوسنا ، فكثير ممن يصدقون أنفسهم مؤمنين إذا قاموا الى صلاتهم قاموا متباطئين متكاسلين ، ساهين عن حكمتها غافلين ، لا يبالي الواحد منهم أن يترك وقتا من صلاته أو وقتا ، وإذ اصرى أدى صلاته ناقصة مستورة وقرها كما تنقر اللبكية ، وتراه وهو يصلي لم يأنس في صلاته بربه ، ولم يطمئن الى مناجاة خالقه وبارئه ، وكأن الصلاة عنده حركات جسمية كتمرين من تمارين رياضة الجسم لا أكثر ولا أقل ولو درى أن روح الصلاة إخلاص ذلك العمل لله تعالى وأنها صلة بين العبد وربّه ، وطهارة للصلى من الأوزار والأرجاس ، وتهذيب للنفس من كل فاحشة ومنكر - لودرى للصلى أن ذلك هو حكمة الصلاة وسرها لأدائها كاملة في شكلها وحقيقتها ، وقام إليها وهو مطمئن الى أن الوقت الذي يقضيه في أدائها هو أسعد وقت عنده ، وأفضل زمن يقضيه بين يدي ربه وخالقه ، وحسبه أن يناجيه بأنه عبده الخاضع ، وهو ربه الرحيم به ، ويثني عليه بما هو له أهل ، ويخصه بالعبادة والاستعانة على شئون دينه ودنياه ، ويطلب منه الهداية الى صراطه المستقيم ، ويقيم البرهان العملي على أنه عبده المطيع الذي لا يسهل على مولاه بوضع أشرف أعضائه على الأرض .

ولكن من لنا باقناع طائفة المنافقين بذلك وأمثال ذلك ، وهم قوم لم يدققوا للإيمان طعما ، ولا للأعمال الدينية حلاوة ، هم قوم تجار في تدينهم ، مخادعون مواربون ، لم تسلم قلوبهم من الرض ، ولا عقائدهم من الشك ، ومن أجل ذلك صرخت أعمالهم .

وعلى كل مؤمن أن يتهم نفسه ويحاسبها ذلك الحساب الدقيق ، فقد يكون فيه خلق الزيف وهو لا يدري ، ومن السهل عليه أن يعرف وهو يؤدى صلاته أهو نشط أم كسلان ، وهل هو يراى الناس بصلاته أم هو مخلف لربه وخالقه ، وهل هو يفر من الصلاة إذا دخل فيها فرار الكاره ، أم يطمئن إليها ويحتج أن تطول ، عليه أن يستقي نفسه في ذلك كله ، فإذا وجد نفسه صريضة عالجها ، وإن وجدها سليمة من ذلك الرض جد الله وطلب منه أن يزيده إيمانا الى إيمانه ويقينا الى يقينه ، ذلك هو شأن المؤمنين ، أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا ويراقبوا أعمالهم قبل أن يراقبوا .

بقى أن الله وصف المنافقين بعد ذلك بقوله (ولا يذكرون الله إلا قليلا) لا يذكرونه إلا جهوا حتى تسمعهم الناس فيقولوا هم مؤمنون ، أما فيما بينهم وبين أنفسهم فلا يذكرون ربهم ، لأن الصلاة بينهم وبينه منقطعة ، ولورضه لهم رباً مانسوه في قيام ولا قعود ، ولاليل ولا نهار ، كاهو الشأن في المؤمنين ، يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، أو المعنى أنهم لا يذكرون الله بقلوبهم

إلا على ندور ، كأن يقهوا في مصيبة أو تحل بهم كارثة ، فتلجئهم الصائب أن يرجوا الى ربهم ، ويتذكروا خالقهم .

ولله ما أدق تحليل القرآن الكريم لنفوس البشر ، وإتيانه على عيانتها وخصائصها ، لتكون موضع العبرة ومكان الادّكار ، فقد نرى بعض الناس لا يحاوله ذكر الله إلا أمام الناس ، فإذا صرّ على قبر أكثر من ذكر الموت وما بعد الموت بصوت يسمعه من معه ، وإذا جاءت مناسبة رأيته يتحرق أسفاً على تقصير الناس في دينهم وحقوق خالقهم ، وتراه يكتر من هذه النعمة ليرى صاحبه أنه جدّ حريص على أن يكون الناس صالحين مصلحين ، وعلى ربهم مقبلين ، وإذا خلى ونفسه لم يحفل بشيء من ذلك ، ورأيته على أبشع الأخلاق وأسفل الرذائل .

[ الثانية ] من صفات المنافقين القبذية والاضطراب بين حزب المؤمنين وحزب الكافرين ، فلا يستطيعون أن يكونوا مع أحد الفريقين ظاهرًا وباطنًا ، فإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلاوا الى شياطينهم وروّس الكفر منهم قالوا لم إننا معكم ، وما أظهرنا الايمان مع الحزب الأول إلا تهكمًا بهم ، وقد بين الله علة ذلك النفاق وهذه القبذية بقوله ( في قلوبهم مرض ) ومن مرض قلبه مرض كل شيء فيه ، فان القلب هو رئيس الجوارح ، والمهيمن على الانسان كله ، وبفساد الرئيس يفسد الروموس ، وذلك للرض لا يشركهم فيه الكافر وان كان قلبه مريضًا بحبّ الجاه ، وكراهة الحق ، والحقد على المصلح ، لأن قلبه لم يعرض بالضعف والخور والشرور ، فكان حريثًا في معاداة الحق ، وخذلان الاصلاح .

أما المنافق فكان خبيثًا في عداوته ، محتالًا في إفساده ، شأن الضعيف الذي لا يستطيع أن يشق غيظه ، يكر ويخادع ، ويدبج ويوارب ، مرض قلب ذلك المنافق فلم يثق بالله في وعده ووعيده ، ولم يؤمن به في ثوابه وعقابه ، فرض بذلك المرض صاحبه ، ولم يقص على الجسم نورا يسير به في الظلمات ، ويهتدي به في اللغات ، وكان مثل ذلك الجسم كجيتس اعتلّ قائده ، فهو يسير بلا قيادة ، وهيئات أن يهتدى أو يصل الى غاية .

[ الثالثة ] من أخلاق المنافق أن يعجبك قوله ، ويسوؤك عمله ، قوله قول الصوفية ، وعمله عمل الجبارة ، إذا تكلمت معه في الاصلاح والمصلحين ، والافساد والمفسدين ، أفاض معك في القول ، وأراك أن قلبه يتفطر حسرة لتلك الفساد ، الذي نراه كل يوم ، وأنه يخفى أن لو صلح أمر الناس ، وقد يصف لك طريق التخلص من ذلك الفساد ، كطيب ماهر ، وعالم خير ، وإذا ولي عملا من أعمال المسلمين رأيته شيطانًا من الشياطين ، رأيته ظم العباد والبلاد ، وعات في الأرض الفساد (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على مافي قلبه وهو آفة الخصاص «٢٠٤» وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد «٢٠٥» وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاتم تحسه جهنم ولبس المهلب «٢٠٦» «<sup>(١)</sup>) ولاعجب ، فان قوله لم ينشأ عن عقيدة ، ولم يصدر عن إيمان صحيح ، وهو يريد أن يعيش مع الكافر والمؤمن ، والبرّ والفاجر ، فإذا كان لسانه لسان مصلح فلا نه يريد أن يكون بظاهره مع

المؤمنين ، وإذا كان عمله عمل مفسد فلأن قلبه فاسد ، وطوبته خيثة ، فعمله عنوان قلبه ، ولسانه عنوان خداعه ومواربته .

[ الرابع ] أنهم نضيون ، لا يريدون إلا مصلحتهم الدنيوية ، وغايتهم المادية ، وهم من أجلها يواربون ويخادعون ، وللحصول عليها يدأرون . يحاولون أن يرضوا الفريقين ، ويصادقوا الخصمين ، لأنهم يخشون إذا هم ساروا الداعي إلى الإصلاح ، وأصبحوا من حزبه سرا وعلاية أن يكون حظه الفشل والاختراق ، وإذا انضموا إلى أعدائه فقد تكون له الغلبة فيهلكون مع المهالكين .

نظروا في مستقبلهم على ذلك الأساس ، وفكروا في عاقبتهم ذلك التفكير ، لا يريدون أن ينضموا إلى حزب يتحملون غرمة وغنمه ، شأن الأحزاب في هذه الحياة . بل أرادوا أن يكونوا مع الأحزاب كلها في الفهم ، ويعيدون عن الأحزاب كلها في الفهم . وفريق ذلك حاله ، وذلك غايته ، هو فريق غريب عجيب ، يريد أن يربح دائما وإن خسر الناس ، وأن لا يضحي بشيء وإن ضحى الناس مخطئين أو مصيبين ، ولا أدل على تمكن ذلك الخلق في نفوسهم من وصف الله لهم في محكم كتابه إذ يقول ( ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم ) يريدون أن يأمنوكم فيتظاهروا أمامكم بالإيمان ، حتى لا تعاملهم معاملة الكفار المحاربين ، وحتى لا تنفكوا بهم إذا كانت لكم الدولة ، ويأمنوا قومهم بقولهم لهم ( إنا معكم إنما نحن مستهزئون ) إذا قدر لهم القلب ، وقوله جل شأنه ( الذين يترصدون بكم فإن كان لكم فنح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ) .

فترى أن أولئك الأقوام يفتظرون بالمؤمنين ما يحدث لهم من كسر أو نصر ، أو خير أو شر ، فإن نصرهم الله قالوا لهم : ألم نكن معكم فنستحق أن نشارككم في نعمتكم ، ونسألكم في غنمكم ، وإن كان للكافرين نصيب من الظفر لأن الحرب سجل مشوا إليهم ، ومنوا عليهم بأنهم كانوا عوناً لهم على المؤمنين بتخديبتهم ، والتواني في الحرب معهم ، يقولون لهم : إنا قد استحوذنا عليكم ، ونمكنا من الإيقاع بكم ولم فعل ، بل منعناكم وحفظناكم من المؤمنين .

ذلك هو الفريق البغي الذي لا يعني إلا مصلحته ، ولا يهتم إلا بحصوله على شهوته ، وإنك لو نظرت ملياً فيها حولك وما يحيط بك لرأيت فريقاً كبيراً من الناس على ذلك الخلق الردي ، ترى ذلك الفريق مع كل الأحزاب السياسية وسواء عليه الحق في نظره والباطل ، لأن مصلحته في هذه الحياة تتطلب أن يكون مع الجميع . فهو يريد أن يضم ولا يفرم ، ويحاول من أجل ذلك أن يرضى كل الأحزاب ، ويربح في كل زمن ، إن كان من أصحاب الأموال حفظ ماله وثروته ، ونعاهما واشتهرها ، وإن كان من طلاب الوظائف له أو لبينه حصل عليها أيا كان لون الحكومة ، وأيا كان القائم على الأمور والمهيمن عليها ، وقد صدق فيهم قول زعيم سياسي كبير [ يدبرون القلاع بكل ربح ] .

وبمقدار افساد النافقين أمر الدين على المؤمنين ، يكون افساد النافقين في كل العصور على الناس أمر دنياهم ، فإن الغاصب يتنى لو تصبح الأمة كلها منافقة مخادعة ، لا يهجم إلا أن تملأ



يطونها ، وتشبع شهواتها وأطماعها ، وإن أكبر خاذل للمصلح السياسى ذلك الصنف الخبيث ، الذى يراوغ روغان الثعلب ، فلا تعرف له لونا ، ولا تستطيع أن تجد له حزبا ، ظاهره معك ، وباطنه حرب عليك ، إذا أردت أن تحاربته تظاهر بأنه من حزبك ، وإذا شئت أن تصادقه لم يخلص لك اللوذة ، وإذا كان الله تعالى قد توعد المنافقين بشرّ مما توعد به الكافرين إذ يقول :

(إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) فلا هم شرّ مستطير على الإصلاح ، وضمض وييل فى جسم الأمة فى كلّ زمان ومكان ، وإذا قال فيهم (هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله) فملينا أن نتخذهم أعداء لنا فى أمور ديننا ودنيانا ، لأنهم هم العدو فهما كما قال الله ، وعلينا أن نتقيهم ونقول فيهم كما قال الله (قاتلهم الله) .

وإذا كان الله تعالى قد كشف أمر المنافقين فى صدر الاسلام بفرضية القتال ، وضح أمرهم بذلك التكليف الشاق ، فإن الحوادث والفنن التى تحلّ بحزب الإصلاح فى كلّ زمان كفيلة بأن تميز الخبيث من الطيب ، والصادق من الكاذب .

[الخامس] من أخلاق المنافقين جنهم وخورهم ، فلا تجد لهم شجاعة أديّة . يتجلى ذلك الجبن الخالف فى تخلفهم عن القتال ، وتلمسهم للماذير ، حتى لا يكونوا مع المؤمنين فى شدائدهم ، وفى ذلك يقول الله تعالى ( ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا الى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون قليلا «٧٧» (١) .

ومع كونهم جبناء لم يقف ضررهم عند حد أن منعوا أنفسهم عن القتال ، بل يعوقون غيرهم عنه ، ويخذلونهم عن قيامهم بالواجب ، ودفاعهم فى سبيل الحق والحقيقة (قد يعلم الله المؤمنين منكم والقائلين لاخوانهم همّ إلنا ولا يأتون البأس إلّا قليلا «١٩» أشحّة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد أشحّة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا «٢٠» (٢) .

فأنت ترى من هذه الآية كيف تملكهم الجبن ، واستولى عليهم الضعف ، فإذا جاء الخوف وطولبوا بالقتال رأيتهم وقد دارت أعينهم ، واضطربت أصدارهم ، ينظرون إليك نظر من حلت به غشية الموت ، فإذا ذهب الخوف وتوجه المسلمون للقتال وتركوهم سلقوا المؤمنين بالسنة حداد ، ذلك هو حالهم فى أنفسهم إذا جدّ الجدد ، وطولبوا بالانتماج مع المؤمنين فى حروبهم ، وهم فوق ذلك يعوقون المؤمنين ويثبطونهم عن القتال ، ويقولون لاخوانهم همّ إلنا ودعوا اشتراككم مع القائلين ، يشحون بأنفسهم عن المساعدة ، ويخجلون عن القتال فى سبيل الله ، ثم علل الله ذلك الشحّ والتثييط بقوله ( أولئك لم يؤمنوا ) وماداموا غير مؤمنين فلا تسبق ذلك منهم .

[السادس] من أوصاف المنافقين أنهم لم يرضوا الله ورسوله حكما فيما يعرض لهم من خلاف ، فحكومتهم غير حكومة المؤمنين ، ومصلحتهم غير مصلحتهم ، فإن الله تعالى ربنا أن حكومة

المؤمنين عند النزاع هي كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وفيها يقول ( فان تنازعتم في شئ ، فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » ٥٩ « (١) ) .

أما هؤلاء فيتحاكمون إلى غير كتاب الله المعصوم ، وسنة رسوله الصحيحة ، يتحاكمون إلى طواغيتهم وأوليائهم ، ويحلونهم محل المعصوم ، وإذا طالبتهم بالحكمة إلى الله ورسوله صدوا عنك صدودا ( ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا ) .

وقد بين الله علة إعراضهم عن الحكمة إليه في قوله ( أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم ) أى من مرض وفاق ، وهو علة ذلك الاعراض ، وهو يريد بذلك أن المؤمن الذى سلم قلبه من الشك والنفاق لا يمكن أن يعرض عن حكومة المؤمنين

وما أشد هذه الآية على أنصار التقليد الذين يدافعون عنه بكل ما أوتوا من قوة ، ويعتقدون أنهم يدافعون عن دين الله . نعم ما أشدها على التقليد الذين إذا طالبتهم بالرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله أقروا ردووسهم ، وهزأوا أكثافهم ، وقالوا لك : أين نحن من كتاب الله وسنة رسوله ومن لنا بمن يهمننا هذه الآيات وأولئك السفن كما فهمها أئمتنا وشيوخنا .

ولو عرفوا أن الاعراض عن حكومة المؤمنين شأن من شئون المنافقين ، وأن هذه الحكومة قد نصها الله لتقوم بين الناس بالقسط إلى قيام الساعة - نوعروا ذلك لفكروا فى الأمر ، وتدبروا العاقبة ، ولكن من لنا بوصلهم بالقرآن وفقههم لمعانيه وأسراره . حتى يعرفوا أنه حجة عليهم فيها ادعوا . وشاهد عليهم عند الله ، وهم لا يقرمون القرآن إلا غافلين ، ولا يتلونه حق تلاوته : اللهم اهد قوبى قلوبهم لا يسلطون .

[ السابع ] من صفات المنافقين : اتصافهم بأعداء المؤمنين ، وموالاتهم إياهم ، وابتغائهم العزة منهم ، ولو كانوا مؤمنين حقا لعلوا أن أعداء الحق لا يملكون العزة لأنفسهم ، فكيف يملكونها لغيرهم ؟

نعم لو كانوا مؤمنين لعلوا أن مصدر العزة الحق وحزبه ، لا الباطل وجنده ( الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتعنون عندهم العزة فان العزة لله جميعا ) فاتخاذ الكافر وليا وناصرا فيما يعود على المؤمنين بالأذى هو شأن من شئون المنافقين .

نعم يقاسم القرآن الكريم عن أسباب ذلك الاتخاذ ، أهو ابتغاء العزة عندهم ؟ أم هو شئ آخر ؟ فان كان اتخاذهم لطلب العزة منهم فان العزة جميعها لله وحده . فلاننا لإيمان طريق طاعته ولا يحصل عليها الرجل إلا بوقوفه عند حدود الله وسنة .

وكما خطأهم القرآن فى ابتغائهم العزة من أعداء الحق وأنصار الباطل - خطأهم فى ادعائهم

العزة لأنفسهم ، والقلة للمؤمنين ( يقولون نحن رجعنا إلى المدينة ليخرجننا الأعداء منها الأذلّ وقلّة العزة ولسرّوه وللمؤمنين ولكنّ المنافقين لا يسمعون « ٩ » ) (١) .

والعبرة في ذلك أن فريقا من يدعون الإيمان في زماننا هذا يوالون الناصبين للبلاد ، ويصافونهم لا ليستعينوا بهم على تثبيت حقّ أو إبطال باطل ، بل يوالونهم ليكونوا عظماء أعزّاء ، أصحاب مكانة ومنزلة ، ويفخر الرجل بأنه صديق فلان أو محسوب به ، وقد تجرّبه هذه الصداقة إلى أن يصرّ أتمته لذلك الناصب بصورة حقيرة ممتنة ، بل قد يصل به إخلاصه لذلك الصديق أن يصبح خرابا على أتمته ، معوانا للناصب عليها ، وحظه من ذلك دراهم معدودة يصل إليها ، أو رتبة يحصل عليها وذلك عنده هو المزمع الدائم ، والعظمة الخالصة ، ولو درى أن ذلك المستعمر غلص لأتمته ووطنه قبل أن يكون مخلصا له ، وأنه لا يعطيه شيئا إلا حيث أخذ منه الثمن أضاما مضاعفة — لو عرف ذلك هذا المسكين لعم أن العزة في احترام نفسه ، وإمتنان العظمة الكاذبة التي لم يكن مصدرها الخلق والكرامة ، وأن العزة لا تنال من عدوّ يترصّ به الهوائل ، ويفترس به الفرس ، وأن الخيرة في أن لا يصادق عدوّ له ولبلاده ، بل يصادق من يناصره على الحقّ ، ويتعاون معه على البرّ والخير .

ولو شئت أن تجعل موالاة الناصب هي موالاة المنافق للكافر المحارب لسهل عليك الأمر ، ووضع أمامك السبيل .

وآية ذلك أن أولئك الناصبين لبلاد المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها لا تطيب لهم الإقامة ببلاد المسلمين إلا حيث عطلت حدود الله في الأرض ، وامتدت الحرمات ، وأبيح منها ما كان حراما ، وحرّم ما كان حلالا ، ولولا ذلك ما طابت لهم إقامة ، وما استطاعوا أن يعيشوا مع المسلمين .

وإلا فقل لي بربك أيّ بلد من بلاد المسلمين يحتل بأجنبي تقطع فيه يد سارق ؟ أو يقتل فيه زان محصن ؟ أو تحترّم فيه الخمر ؟ بل أيّ بلد من بلاد المسلمين لا يباح فيه الزنا العاني ؟ ويحلّ فيه التشريع الوضعي محلّ التشريع السماوي ، ويوجد فيه الفاسق والمجرم مباداة صالحة للأجرام والفساد ، وعونه على كلّ اللوثقات والمحرّمات ، ولو شئت أن تطالب بأقامة الحدود ، وتحريم المحرّمات ، والرجوع إلى دين الله في التشريع لقامت لذلك الدنيا وقعدت ، لامن الناصب وحده ، بل من الناصب وأذنان الناصب ، وعرضت نفسك لحرب شعواء لا قبل لك بها .

وحظّ الناصب من ذلك معروف جليّ ، وهو شغل الناس بشهواتهم وأهوائهم ، وصرفهم عن العمل الجدي المفيد ، ولو أن الناس صلحوا في دينهم ، وتهدّأوا في أخلاقهم ، ما استطاع الناصب أن يعيش بينهم يوما واحدا ، ومن أجل ذلك يعمل وسعه على إفساد الأخلاق ، وتفرق الجمع وإضرار نار الحسد بين الأفراد والجماعات ، فهو يغزو المسلمين بجيوش من للفساد والمحرّمات فوق غزوه لهم بجيوش من الاحتلال ، وآلاف من الدنترات والمهلكات ، وهي جيوش عجيبة للنفس يتقدّم بها العاصب للامة التي يحتالها باسم المدينة والرقّ ، لأن قطع يد السارق وحشية لا تلقى

في القرن العشرين ، وتحريم الزنا المعلن لا يتفق والحرية التي كفلها القانون ، وتحريم السكرات وجود وتأخر ، تلك هي سمومهم القتالة ، وآلاتهم القتالة ، التي بها يعيشون ، وعليها يعتمدون .  
لو عرف الموالي لهم أنهم يعيشون على ذلك الحساب ، ويعتمدون على أولئك العاقل المدامة للدين والخلق والفضيلة ، ان لم يكن من طريق مباشر فمن طريق غير مباشر - لو عرف ذلك المسلم لم أن موالاته لهم هي شر مستطير على المسلمين ، وحرب فتاة بآتته وشعبه ، وتعين لهم في الأرض ، وتعاون على الاثم والعدوان .

قد يوالهم بعض الناس ليأخذ منهم لا يعطيهم ، وينزع بهم لا يضر ، ويستغل نفوذهم لمصالح الناس - نعم قد يوالهم بعض الناس لذلك ، وقد تكون نيته صالحة في هذه الموالات ، ولكن الذين خبروهم وسبروا غورهم عرفوا أنهم لا يرعون لصديقهم عهدا ، ولا يرقبون له أخوة في الوقت الذي يحسون منه أنه خصم لاستعمارهم وسياستهم يقتلون له ظهر الخبز ، ويضجون به وبصدقاته ، ومن ناحية أخرى لا يمكن أن يعطوا صديقهم شيئا إلا حيث تقاضوه الثمن غالبا ، فهم يسامون في كل شيء . ويتجرون حتى على حساب الصدقات الشخصية ، فلا يعطون إلا وقد أخفوا ، ولا ينعفون إلا وقد أضروا ، ولو أن ضرورهم وقف عند حد الموالي لهم لمكان الأمر ، ولكهم يضررونه في آتته ، ويأخذون منه الثمن على حساب شعبه ، فانتهت المسألة بمصلحة شخص واضرار آتته ، وبالها من صفقة خاسرة . وتجارة بائرة ، ومن لم يعرف خبث الفاسين والمستعمرين فليس من خبرهم ، ووقف على نواياهم ، وبعد ذلك يختار لنفسه ما يحلو .

[الثامن] من صفاتهم إكثارهم من الخلف ، فترام كثيرى الأيمان ، وكثيرى الكذب والقرآن الكريم يحذثنا عنهم وعن أيمانهم فيقول ( يحلفون بالله إنهم لننكم ومام منكم ولكنهم قوم يفرقون <sup>(١)</sup> ) وزاه يقول ( يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهو بما لم ينالوا وما قموا إلا أن أغنام الله ورسوله من فله «٧٦» ) <sup>(٢)</sup> وزاه يقول ( سيحلفون بالله لكم إذا اقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس <sup>(٣)</sup> ) ومأواه جهنم جزاء بما كانوا يكسبون «٩٧» يحلفون لكم لترضوا عنهم فان رضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين «٩٨» ) <sup>(٤)</sup> .

وسبب إكثارهم من الأيمان أنهم لا يثقون بأنفسهم ، ولا يعتقدون أنهم صادقون ، والشأن فيمن فقد الثقة في نفسه أن يشعر يفقد ثقة الناس فيه ، فيجد نفسه في حاجة الى أيمان عليه يعقوض شيئا من هذه الثقة ، أما الرجل الذي يصدق ، ويعتقد في نفسه أنه صادق فما أغناه عن تأكيد أحاديثه بالأيمان ، وتقويتها بالخلف .

ولو أنك تأملت ذلك الخلق الردي الذي يحديه الله عن المنافقين لتكشف لك عن خلقين كامينين في نفوسهم .

[أولهما] : الكذب . [وثانيهما] : محاولة تغطية الكذب ، والتلبس على الناس به

حتى لا يظنوا أنهم كذبة ، ولو كانوا كذبة غير مدلسين لمان الأمر ، ولكنهم كذبة يريدون أن يروا الناس أنهم صادقون .

ولا ندري كيف يستطيع الكاذب أن يلبس على الناس ويربهم أنه صادق ، وأن الكاذب الذي يحس من نفسه الكذب ، وضاعت قننه بنفسه ، لا يستطيع أن يحمل الناس على تصديقه ، وأن اتخذ لذلك ما اتخذ من فنون وأسايب ، وكلما بالغ في ستر ما عنده من خلق كلما اقتضح أمره ، وبهتك ستره ، فأولئك المنافقون الذين يكثرون من الأيمان ليستروا ما انطوت عليه نفوسهم من نفاق ، يتقدمون إلى الناس يبرهان جلى على كذبهم ، وإضاعة الثقة بهم ، ذلك البرهان هو إكثارهم من الحلف ، ولو أنهم كانوا صادقين أمام ضائرهم ما احتاجوا إلى أولئك الأيمان ، وحسبنا أن الله تعالى يقول فيهم ( اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون ) .

والمراد أنهم ما اتخذوا الأيمان تعظيلا لاسم الله ، وتقديسا له ، كما هو وضع الأيمان ، من قطع النزاع بين المتخاصمين بالرجوع إلى اسم الله العظيم ، بل إن هؤلاء اتخذوا الأيمان وقاية لهم من كشف حالمهم ، وفضيحة أمرهم ، فدنسوا اسم الله بذلك التصرف ، وامتنوه بوضعه في غير وضعه اللائق ، كما اتخذوا نطقهم بكلمة الشهادة جنة لهم من حرب المؤمنين بإيham ، واتخذوا صورة الصلاة وقاية لهم من عذاب التاركين للصلاة في الدنيا ، وما كانت كلمة الشهادة لتقي صاحبها من العذاب في الدنيا ثم يحل به العذاب في الآخرة ، وكذلك الصلاة ، ما شرعها الله لتكون وقاية للناس من اللوم في الدنيا ، وإنما شرع الله ما شرع من كلمة الشهادة والصلاة وغيرها من أعمال الانسان ليسعد بها الانسان في الدنيا والآخرة ، ولكن المنافقين مرضت قنوبهم فرض فيهم كل شيء ، وصرفوا الأشياء عن حقيقتها ، وحولوها إلى غير وجهها الصحيح

وجلة القول أن الشأن في المنافق أن يكون كاذبا ، وأن يستر كذبه بالحلف ، ويبقى نفسه من النضيجة بالأيمان الباطلة ، لأنه يحس بأنه كاذب ، ولولا إحساسه ذلك أمام نفسه ما احتاج إلى هذه الأيمان ، والشأن في المؤمن أن يكون صادقا .

ومن أجل ذلك لم يكن في حاجة إلى تأييد قوله باليمين ، وإذا حلف فأنما يحلف لقطع النزاع معظما لله تعالى واسمه ، ومقدسا له حق التقديس . وقوله ( فصدوا عن سبيل الله ) أى إن المنافقين يمنعون الناس عن دين الله بذلك السيرة السيئة ، لأنهم معبودون من المؤمنين ومحسوبون عليهم ، فكل عمل يصدر عنهم من شأنه أن يشوه سمعة المسلمين ويؤذيهم ، ولذلك يقول الله بعد ذلك ( إنهم ساء ما كانوا يعملون ) فاللهم باعد بيننا وبينهم ، وطهرنا من أخلاقهم وأوزارهم . [ التاسع ] من أخلاقهم : كذبهم وتهاونهم بالصدق ، وامتهانهم لأنفسهم وكرامتهم ، وجدير بقوم فقدوا الشجاعة الأدبية ، ولم يكن لهم منهج معين في الحياة أن يكونوا كذبة ، لا يضنون بحق ، ولا يحفلون بصدق ، وهذا الخلق وهو الكذب كالأصل للخلق الساجع ، وهو إكثارهم من الحلف ، واتخاذهم الأيمان جنة ووقاية .

وقد كشف الله عن كذبهم في دعوى الاسلام ، فعرف نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن المنافقين إذا جاءوك وقالوا لك نشهد انك رسول الله فلا تصدقهم ، لأنهم لم يقولوا ذلك عن يقين

واقتناع ، كما هو الشأن في الشهادة ، وانما يقولون ذلك قية منك ومن أصحابك ، وان الله تعالى يشهد بكذبهم ، ومن شهد الله بكذبه لأحد يصدقه ( إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ) .

ولم يكن كذب المنافقين قاصرا على المؤمنين أعدائهم في الدين والعقيدة ، بل هو خلق متأصل فيهم لأنه أثر من آثار مرض القلب ، ولذلك تراهم يكذبون حتى على الكافرين الذين يقولون لهم إذا خلوا إليهم إنا معكم ومن أنصاركم .

ألا ترى إلى قول الله تعالى وهو يحكي عن المنافقين تحريضهم الكافرين على قتال المؤمنين ( ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لأن أخرجتم لنخرجن معهم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قولتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون « ١١ » ) لأن أخرجوا لا يخرجون معهم ولأن قولنا لا ينصرونهم ولأن نصرهم ليولن الأديار ثم لا ينصرون « ١٢ » لأنهم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون « ١٣ » ( ١ ) .

فأنت ترى أنهم كذبة حتى مع خزيم ، وجنأ حتى مع أنصارهم ، ومن صار الكذب خلقا له يكذب مع نفسه ، فكيف يصدق مع غيره ؟ وتأمل قول الله تعالى حكاية عنهم ( لأن أخرجتم لنخرجن معهم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ، كيف يؤكدون الوعد ، ويوقعون القول ، وكيف يفجأهم الله بقوله ( والله يشهد إنهم لكاذبون ) ثم يقول ( لأن أخرجوا لا يخرجون معهم ) لأنهم كذبة ( ولأن قولنا لا ينصرونهم ولأن نصرهم ليولن الأديار ) فلا يثبتون على القتال ، لأنهم لا يقاتلون بقولهم وعقائدهم ، بل بأجسامهم ، ثم قال الله ( ثم لا ينصرون ) أي أنه كتب عليهم الخذلان في النهاية .

[ العاشر ] من أخلاقهم : نقضهم العهد ، وإخلافهم الوعد ، وهو من فروع الكذب ، غير أنه نوع خاص منه يتعلق بالعهود والمواثيق ، وهو من أضر أنواع الكذب ، وأفتكها بمصالح الناس ، ولذلك لا يتفق والإيمان في شيء ، وقد جعل الله من أخلاق المؤمنين أنهم يراعون العهود والمواثيق ، كما جعل من صفات المنافقين نقضهم لها .

ومن عجيب أمر ذلك الخلق أنه علامة من علامات النفاق ، وهو في الوقت نفسه يزيد في النفس ويثبت ، فهو أثر من آثاره ، وسبب من أسبابه .

ألا ترى إلى قول الله تعالى ( ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله تخلفوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ) فتراهم يعد هذه الطائفة التي عاهدت ربها ثم أخلفت من المنافقين ، ثم يقول ( فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه ) ثم يسلل ذلك بقوله ( بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ) فالكذب والاختلاف أثر من آثار النفاق ، وكلما دأب عليه صاحبه تمكن نفاقه من النفس واستحكم .

وما أقرب ذلك الخلق خلق الكذب والاختلاف إلى رجال السياسة ودعاة الاستعمار ، فترام يمدون ويخلفون ، ويهادون وينغرون ، وقد تمت لهم العشرات من الوعود ثم لانكاد ترى لهم شيئاً من الوفاء ، لأن الرجوع عندهم مصلحةهم النافية ، وأغراضهم الاستعمارية ، ولا سيما مع الشعوب الضعيفة التي لا تستطيع أن تعاسهم على ذلك الفدرحاب الند للند ، والنظير للنظير ، فتجد المعاهدات عندهم قصاصات من الورق ، تلب بها القوة ، وترام ان صدقوا معك في أصل العهد كذبوا في فهمه وتطبيقه ، فترام يفسرونه كما شاءت لهم القوة وحسن لهم الاستعمار ، وندم في ذلك التأويل الذي يسخن العهد مسخاً ما عندهم من قوة ، وما عليه معاهدوم من ضعف وما أحوج الأمم إلى خلق يحفظ الضعيف من القوى ، ودين يضع حداً لأولئك الغلاة الذين لا هم لهم سوى ملء بطونهم ، وإشباع شهواتهم ، حتى يعيش الناس أميين مطمئين .

ولو أن أولئك النافذين للعهد ، الناكثين للأيمان ، عرفوا أنهم يخشون بكذبهم فوق ما يكسبون ، ويضعون على أنفسهم من قلة الشعوب بهم أكثر مما يرجون - لو أنهم علموا ذلك لآثروا الصدق على الكذب ، والوفاء على العذر ، وبنوا سياستهم على الحزم والعزم ، والعلم والعمل ، وهناك يكون لهم شأن غير ذلك الشأن ، وهناك يستريحون ويرجون ، وهل احتاج المسلمون في سياستهم الناس في الصدر الأول إلى الكذب والخداع ؟ أم لجأوا إلى ما يلجأ إليه المستعمرون من نقض وخيانة ، حتى استطاعوا أن يفشروا راية الاسلام على نصف المعمورة في نصف قرن ؟ لم يحتاجوا إلى شيء من ذلك ، بل رأوا أنفسهم في حاجة إلى العدل والصدق والوفاء حتى أصبحوا مضرب الأمثال عند خصومهم من رجال الغرب ، وشهدوا أن الأرض مارأت فاتحاً كالاسلام في عدله وورعته ، ومارأت منصفين كسلفنا الصالح أيام قوتهم وحكمهم .

[الحادى عشر] من أخلاقهم أن بعضهم من بعض ، والراد أنهم متشابهون في الباطل كما قال في آية أخرى (ذرية بعضها من بعض) وقال في المؤمنين (بعضهم أولياء بعض) فترى أن الله جعل من صفات المؤمنين أن ينصر بعضهم بعضاً ، أما المنافقون فقد فقدوا تلك الصلة القلبية التي بها يقنصون ، فهم متباغضون متخاذلون (بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون « ١٤ » ) (١) .

وجدير بمن كان مهمهم مصالحهم الذاتية أن يكونوا على ذلك الحال من التفرق والتخاذل ، نعم من كان همه في هذه الحياة أن يعيش مع كل الأحزاب ، وأن ينتم من كل الظروف أن لا يتصل قلبه بقلب غيره على أساس الدين والخلق ، بل يكون قلبه دائماً مع شهواته ، ومانهواه نفسه ، أما المؤمنون فقد وحد الدين بينهم ، وجعلهم حزب الله ، يهتمون لما يهتم به ، ويتألمون لما يفضيه ، فإذا انتهكت حرمة من حرمة الدين رأيتهم غلاظاً شداداً على من يقع منه ذلك العمل ، فلذلك والعقيدة الفضل الأول في ترابط المسلمين وتأزرهم ، وأخذ بعضهم يساعد بعض .

وقد وصف الله المنافقين بقوله (يأمرسون بالنسك وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم) كما وصف المؤمنين بضد ما عليه المنافقون فقال (يأمرسون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقبضون أيديهم) الصلاة ويؤنون الزكاة ويطيعون الله ورسوله .

أما ان المؤمنين من أخلاقهم ما وصفهم الله به فظاهر ، وإما ان المنافقين يأمرهم بالنكر وينهون عن العروف فلائهم يأمرهم بتخذيل المؤمنين وهو منكر ، وينهون عن معاوتهم وهو معروف ، وقد سبق لك أنهم يعوقون عن القتال مع المؤمنين ، ويقولون لآخوانهم هلم إلينا ، وإنهم أشجع على الخير .

وقد حكى الله عنهم أنهم يقولون لآخوانهم من أغنياء المدينة (لانتفقوا على من عند رسول الله حتى ينفصوا) وهو طريق لاذلال المؤمنين ، يحاولون به أن يصرفهم عن دين الله .  
وقد رد الله عليهم بقوله ( ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون ) أى لا يفقهون أن بيد الله خزائن السموات والأرض ، وهو الذى يعطى من يشاء ويمنع من يشاء ، ومن أراد الله غناه لا يستطيع أحد إذلاله بحال .

ولقد ذكرت هذه الآية عند ما حاول بعض الحكام الظالمين الحيولة بين مال الدولة الذى أعد لتفيس كربات المأذومين وبين رجال لا يوافقونه فى لونه السياسى ، ويعطيه بسخاء لمن يعاونونه على ظلمه ، ويؤازرونه فى سياسته ، عند ذلك قلت صدق الله وصدق كتابه الكريم ، الذى لا يزال جديدا تفسره الحوادث ، فأولئك المنافقون فى صدر الاسلام كانوا يوصون أغنياء المدينة حتى لا يساعدوا المهاجرين الفقراء ، الى أن ينفصوا من حول محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك الوزير الظالم جاء ليوصى بحرمان خصومه فى السياسة من سراق الدولة ، حتى ينفصوا من خزيمه الذى يفتنون إليه ، وما علم أن لله خزائن السموات والأرض ولكن الحكام الظالمين لا يعقلون شيئا من ذلك ، وأى فرق بين منافق زمن الرسول صلى الله عليه وسلم وبين منافق زماننا وظالمه ، طلاب الباطل ، وأعداء الحق والحقيقة ، والعديد على الحرمات ، والمسدحين لكل الجرائم صدق الله وصدق كتابه .

( المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ) وان تراخى الزمان وبعدت للسافة ، وإذا شئت أن ترى فريقا من الناس يشبه أولئك المنافقين فى أمرهم بالنكر ، ونهيهم عن العروف ، فان ذلك يسير عليك ، غير أن ذلك المنكر الذى يأمرهم به لا يحضون الناس عليه من جهة أنه منكر ، وكذلك العروف الذى ينهون الناس عنه ، لا ينفرونهم منه بصفة أنه معروف ، ولو فعلوا ذلك ماسمع لهم أحد ، وما تحجوا فى مهمتهم ، فلا فى لهم عن تحسين المنكر للناس حتى يصير عندهم فى لون العروف ، وتشويه العروف حتى يصير كالمنكر ، وبذلك يستطيعون أن يصلوا لغايتهم ، ويحصلوا على غرضهم .

ألا ترى الى شبائنا اليوم يحسنون الجزل للناس ، ويقولون لهم إنها تفيد الصحة ، وتحدث عند شاربها تفرحا ونشوة ، وتباعد بينه وبين الأذى ، وهى شراب على القوم وأصحاب المكانة من الأمة ، ويحملون آخوانهم بمختلف الأساليب على غشيان أياكن الشرب ، وبيوت القمار والزنا ، باسم أن ذلك مدينة ورقى ، وللتقصد منهم فى ذلك التهلكة يقول لصاحبه نشرب وتتب الى الله تعالى بعد وإذا رأوا شابا ينهب الى مسجد من المساجد أو ناد من أندية الوعظ والارشاد يبطوه عن ذلك العمل ، وحالوا بينه وبينه ، مرة من ناحية أن هذه أعمال [رجعية] لا تليق



بالمثقفين ، وصرّة من جهة أنه يجهد نفسه ويكلف نفسه أعمالا شاقة وهو شاب في مقتبل حياته ، والأولى بمثل هذه الأعمال الشيوخ دون الشبان ، كالذى ينهى صاحبه عن بذل المال في عمل من أعمال البر ويحببه في البخل من جهة أنه حرص على مصلحته ، ويهمله أنه يكون من أغنياء الناس لامن فقرائهم ، فهو يدعوه الى البخل باسم الاقتصاد ، ويحثه على التقير باسم المصلحة ، ويعده بالفقر إذا هو استمرّ على ذلك الحال .

وقد وصف الله الشيطان بأنه يعد الناس الفقر إذا هم بذلوا أموالهم في سبيل الخير ، ويأمرهم بالفحشاء من طريق تتبع النفس والطماعا في عفو الله وغفرانه ، فهو يهون على الناس الفاحشة وينفرهم من الصدقة ، فهم شياطين في ذلك العمل ، وخيائا بذلك الأسلوب ، وما أكثرهم في كل زمان ، فأولئك هم المنافقون وأولئك أعمالهم السيئة وآثارهم الخبيثة ، وهذه ذرائعهم وذريتهم نسأل الله السلامة منهم ومن ضرورهم .

[الثاني عشر] من أخلاقهم لينهم في القول ، ودهانهم في الحديث ، وهو ما يشير له القرآن الكريم في قوله ( وانعرفهم في لحن القول ) فترى لهم لحننا خاصا ، وأساليبهم يتنازرون به عن سوام ، ذلك اللحن هو ما نلاحظه عليهم من الضعف عند ما يطلب الى الرجل منهم أن يقول حقا ، أو يشهد على حادث ، فترى مضطربين ، لا يستطيع الواحد منهم أن يواجه الحقائق ، ويشهد بما يعتقد ، وإنما يتذبذب ويضطرب ، فلا تدري أهو معك أم عليك ، ولا تعرف في أى ناحية هو ، وفي أى صف يريد أن يكون .

ولاعجب ، فان ضعف العقيدة ومرض القلب جعلهم على ذلك الحال ، ولا تنتظر من قلب ضعيف أن يصدر منه كلام فيه قوة ، لأن الضعيف لا يلد إلا لضعيفا ، ولو صحت قلوبهم لصحت ألسنتهم . أما المؤمن فقد اختار له خطة يسير عليها ، وأخذ على نفسه أن ينصر الحق ، ولا يخشى إلا الله ، فتجد فيه شجاعة أدبية تصطره الى أن يجاهر بالحق وان تألم له الناس ، لأن غايته إرضاء الله ، فلا يهمله أغضب المخلوق أم رضى ، ومن كان همه إرضاء الله هان عليه كل شيء في ذلك السبيل ، وكثيرا ما يضحى للمؤمن في سبيل قول الحق ، وشهادة الحق ، وقوله للخطي أنت خطي ، وللصيب أنت مصيب .

أما المنافق فلائنه يعنى كثيرا : ضاء الناس ، ويحاول أن لا يكون له عدو ، تراه يداوى وبوارب ، ويخادع ويخايل ، ومن أجل ذلك كان حديثه مخنثا ، ليس فيه شيء من القوة ، ولا شبهة من الوضوح ، وما أكثر ذلك الخلق في كثير ممن ينسبون للإسلام ، بل وفي كثير من علمائهم وخاصتهم ، تجدهم لا يجرون على قول الحق والصدق به ، إما استبقاء على مركزهم أمام العامة ، أو حرصا على مكانتهم لدى الجاهل ، وإما مواربة لأمر أوحاكم ، وقد يكون للأمر أو الحاكم شهوات فيسخر بعض العلماء ليؤيده فيما يريد ، ويعاونه فيما يشتهي ، فيجد منه الخادم المطيع ، وأقل ما يجده الحاكم الظالم من علمائنا اليوم أن يكون موقفهم منه سليا إن لم يكن إمعانيا فيما يبينه من باطل . ويحرص عليه من ظلم ، ولو أنهم علموا أن الله كافهم قول الحق ولو على أنفسهم ، وطالبهم أن يصدعوا به في وجه الحاكمين والحكوميين ، وطالبهم أن يتعاونوا على

محاربة الظلم والظالمين - لوعلموا ذلك ، وعلموا أن الله تعالى محاسبهم على هذه اللواقف الربية مارضوا لأنفسهم أن يكونوا قدوة سيئة ، وأسوة غير سالحة ، ولو أنك أخذت تلومهم على ذلك العمل لسمعت فتاوى طويلة عريضة ، ومعاذير واسعة ، وكثيرا ما نسمع منهم « دارهم مادمت في دارهم » وأمثال هذه الكلمة كقول الشاعر :

ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بنفس

ناسين قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » . رواه النسائي ، وقول الله تعالى ( يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين « ١٣٦ » (١) .

وإذا كان علماء الأمة ذلك موقفهم من قول الحق وشهادة الحق فإذا يصنع العامة ، اللهم أرزقنا شجاعة على عمل الحق وقول الحق ، وابعد بيننا وبين الضعف ، واجعل همنا رضاك ، وغايتنا الوصول إليك ، وصبر أمامنا كل شيء في ذلك السبيل ، ولا تفتنا بزخارف هذه الحياة ، وابعد بيننا وبين البفاق كما باعدت بين الشرق والغرب .

[ الثالث عشر ] ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله ( وإذا رأيتمهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ) .

والظاهرة العامة لأولئك الصفات أنهم قوم يهتمون بظاهرهم ، فيصلحونه أمام الناس ، ولا يحفلون بقلوبهم وبأنهم ، فإذا رأيتمهم تعجبك أجسامهم ، لاهتمامهم بها ، وعنايتهم بإصلاحها ، وإن يقولوا تسمع لقولهم ، لأنهم يلبسون القول ولا ينظرون فيه ، ويهمهم أن يكونوا فصحاء باغاء ، ثم أراد الله أن يرينا أن ذلك الإصلاح الظاهر هو غايتهم التي يرمون إليها ، فقال ( كأنهم خشب مسندة ) فنبههم بالخشب المسندة الى الحائط ، وليس من شأن الخشب أن تسند ، بل الشأن فيها أن توضع لعروش ، فتقام عليها البيوت واللباني ، ولكن هؤلاء مثلهم في أنهم أشباح قد خلت من العلم والنظر ، وعطلت من وظيفتها في هذه الحياة مثل الخشب التي عطلت عن عملها ، وأسندت الى الحائط ، أو يريد الله أن يشبههم بالخشب التي نخر جوفها ، وظاهرها سليم أمام الناس فهم كهذه الخشب في حسن للنظر ، وقبح الخبر ، لأنهم لاقلوب لهم ولا عقائد ، بل هم مذبذبون مضطربون ، لأن من لاعتقيدة له لاتفق فيه ولا غناء .

وقد وصفهم الله بقوله ( يحسبون كل صيحة عليهم ) ليؤكد لنا التاية من التشبيه بالخشب للسندة ، ويرينا أنهم جناء ضفاف القلوب ، ومن أجل ذلك يظنون أن كل صيحة تقع هي عليهم وحدهم ، ومن كان كذلك لا يستقر له حال ، ولا ينظم له شأن ، وإعما حسبا كل صيحة عليهم لأنهم يتوهمون عند كل حدث من الأحداث أن سياستهم قد كشفت ، وخدايعهم قد فضح ، والرجل الذي يعيش مع الناس عيشة للواربة ، وياملهم معاملة الخنازع ، لا يأمن أن يكشف ستره ويضخ أمره ، فهو دائما مضطرب ، ودائما يتوقع الخزي والذكال .

وحسبنا أن الله تعالى يقول فيهم (هم العدو) فيحصر العداوة فيهم ، وكأن الكافرين في جانبهم ليسوا شيئا يذكر ، لأن الكافر قد ظهر بـداوته للمؤمن ، فيستطيع أن يأخذ منه حذره ، أما المنافق فهو السم في صورة العسل ، والعدو في ثوب الصديق ، والتخاذل في شكل الناصر ، ولو لم يكن من وصف الله لهم سوى هذه الجملة لكفت في التفسير منهم ، والحض على كراهتهم ، وكما كان المنافق في دين الله عدواً للحق وأنصار الحق ، هو عدو للإصلاح في كل شأن من شئون الحياة ، هو عدو الإصلاح في السياسة ، وعدو الإصلاح في الاقتصاد ، وعدو الإصلاح في العلم ، وعدو الإصلاح في الصناعة ، وعلى الناس أن تحذره وتنتق شره ، ومن ينفع تاريخ الإصلاح السياسي في كل أمة من الأمم يجد فيها المؤمنين والكافرين والمنافقين ، ويجد أن المنافقين هم أضرّ عليها من أعدائها الكافرين .

ومن أجل ذلك أطال القرآن في صفاتهم ، وأكثر من ذكر فضائعهم ، ليحذرننا من التخلق بخلقهم ، ويباعد بيننا وبين الانتساب إليهم ، ولم يكتف القرآن الكريم بذلك القدر من التحذير بل قال (فانلهم الله) وهو دعاء عليهم بالهلاك بعد أن حذرننا منهم ، وعرفنا أنهم هم عدو الأمة الألدود ، ودأواها الضال ، وهم طريق نكبتها ، وسبب استعباد العدو لها ، وشقاؤها في هذه الحياة .



## أشهر الغزوات

غزوة بدر <sup>(١)</sup> الكبرى

قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَتِ الثَّقَفَانَةِ تُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ «١٣» آل عمران

وَإِذْ يَدْعُكُمْ اللَّهُ لِإِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ <sup>(٢)</sup> أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ «٧» لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبُطْلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ «٨» إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِيفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ <sup>(٣)</sup> «٩» وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ «١٠» إِذْ يُضَيِّكُمُ الْمَوْتُ مِنْهُ وَمُنْزَلَ عَلَيْنَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رَجْزَ <sup>(٤)</sup> الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ «١١» إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ

[١] محل بين مكة والمدينة ، وهو الى المدينة أقرب في الجنوب النوبي منها على الطريق السلطاني ، وكان به سوق تقعد كل سنة ثمانية أيام ، وكانت غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة في رمضان .  
[٢] البير ، وهي الإبل تحمل الطعام والنفير القوم ، المشوك : القوة . [٣] تابعين .  
[٤] وسوسته ، يربط : على قلوبكم : يثبتها .

فَقَبِلُوا الدِّينَ ءَامَنُوا سَأَلْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ  
وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ «١٢» ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا <sup>(١)</sup> اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ  
اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ «١٣» ذَلِكَكُمْ فَذُوقُوا وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ  
عَذَابَ النَّارِ «١٤» يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفَا <sup>(٢)</sup> فَلَا  
تُؤْلَوْهُمُ الْأَذْبَارَ <sup>(٣)</sup> «١٥» وَمَنْ يُؤْلَمْ يَوْمَئِذٍ ذُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ <sup>(٤)</sup> أَوْ  
مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ <sup>(٥)</sup> فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبَلَسَ الْمَصِيرُ «١٦»  
قَلِمَ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ <sup>(٦)</sup> إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ  
وَلِيُبْلِيَ <sup>(٧)</sup> الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلََاءَ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ «١٧» ذَلِكَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ  
مُوهِنٌ <sup>(٨)</sup> كَيْدِ الْكَافِرِينَ «١٨» إِنْ تَسْتَفْتَحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا  
فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ  
وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ «١٩» الْأَعْلَامُ

وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ  
وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ  
الْفُرْقَانِ <sup>(١)</sup> يَوْمَ التَّنَجَّىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ «٤١» إِذْ أَنْتُمْ  
بِالْعُدُوِّ <sup>(٢)</sup> الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصُوفِ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ  
لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَدِ وَلَكِنَّ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ  
يَتَنَزَّ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ يَتَنَزَّ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ «٤٢» إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ

[١] حادوها . [٢] زاحفين لقتالكم . [٣] لاهزوا منهزمين . [٤] أصله قال .

[٥] جماعة من المؤمنين . [٦] ما سددت رمية حين رميت ، ولكن لله هو الذي سددته وحطه  
يصيب مقاتل القوم . [٧] يختبر . [٨] مضف .

[٩] الفرق بين الحق والباطل . [١٠] جانب الوادي الأقرب إلى المدينة ، والقصوى : البعيد ،  
الركب : الير في مكان أسفل منكم وهو ساحل البحر .

فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَايَكُمْ كَثِيرًا لَفَاسَلْتُمْ وَأَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ «٤٣» وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَالُ لَكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ «٤٤» يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ «٤٥» وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ <sup>(١)</sup> وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ «٤٦» وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا <sup>(٢)</sup> وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ «٤٧» وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ <sup>(٣)</sup> لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ «٤٨» إِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ وَدَيُّهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ «٤٩» الأفعال

### تعلیق وعبارة

(١) يربنا الله في آية آل عمران (قد كان لكم آية في فتنتين القتلى) الخ الآية أن لنا عبدة عظيمة في جاعتين القتلى للقتال : إحداهما فئة تقايل في سبيل الله لدى شرعه ، وهو إعلاء التوحيد وإحقاق الحق ، وفئة أخرى كافرة تقايل في سبيل الطاغوت والباطل ، قيل : هو إشارة إلى قتال المؤمنين للمشركين في غزوة بدر ، وما حصل فيها من النصر للمؤزر للمؤمنين على قتلهم ، كما قال في سورة آل عمران (ولقد نصركم الله بيدرؤأتم أذلة) .  
والعبارة في هذه الموقعة التي ترشدنا إليها الآية الكريمة هي قوله (يرونهم مثلهم رأى العين) أى أن المؤمنين يرون الكافرين مثلين لهم مع أن الكافرين كانوا ثلاثة أمثال للمؤمنين ، ونظيره قول الله تعالى في سورة الأفعال (إذ يريكهم الله في منامك قليلا ولو أراهم كثيرا لفتلتهم ولتوازعتهم

[١] قوتكم ، وصماه ربحاً ، لأن الريح أكبر قوة . [٢] نفراً واستملاء ، وراثه الناس : بقصد الرباه . [٣] مجير .

في الأمر واسكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور « ٤٣ » وإذ يريكم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقتلكم في أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور « ٤٤ » .

يشرح الله لنا بهذه الآيات الحكمة من إرادة الله لهم قليلا في أعينهم ، وإرادة الرسول لهم في منامه قلائل ، تلك الحكمة أنهم يتشجعون على اللقاء ولا ينجنون ، كما كان من تشجيع الكفار على قتال المؤمنين أن قتل المؤمنين في أعينهم كما هو الواقع ، ليدخلوا معهم في حرب ، فيكون من أمر خذلانهم ما يكتب الله به أعداء الحق ، وينصر به المؤمنين ، وهو ما أشار إليه بقوله ( ليقضى الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور ) .

أما قوله تعالى ( والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعلبة لأولي الأبصار ) فهو يريك أن ذلك ليس بعجيب أن تكون هذه الآية في الفئتين المقاتلتين ، يؤيد من تقاتل في سبيله ، ويخذل من تقاتل في سبيل الشيطان ، لأنه يؤيد بنصره من يشاء تأييده ، وهو ماقتضت الحكمة تأييده لتمشيه مع السنن ، ودفاعه عن الحق والحقيقة ، واعتصامه بالصبر والثبات .

وفريق ذلك حاله جدير بأن يؤيده الله بشئ الوسائل ، فيقلل عدوه في نظره ، ويربط على قلبه ، ويذهب من نفسه وساوس الشيطان ، وتكون له العاقبة ، وهو يرينا بذلك أن ذلك هو الشأن في كل حرب تكون بين حزين ، يؤيد الله فيها حزب الحق ، ويخذل فيها جند الباطل ، ولذلك ختم الآية بقوله ( إن في ذلك لعلبة لأولي الأبصار ) .

( ٢ ) ( وإذ يهدمكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ) الخ الآية : أي واذكروا وعد الله لكم أن تحصّلوا على إحدى الطائفتين ، العير أو النفير ، وتودّون أن الطائفة التي لم تكن لها شوكة وقوة تكون لكم وهي العير ، لأن فيها غنائم وليس فيها إلا فوارس قليلة ، وهو عرض بكراهتهم للقتال ، وطمعهم في المال .

يقول الزمخشري : يعني انكم تريدون الفائدة العاجلة ، وفسفاس الأمور ، وأن لا تلقوا ما يرزؤكم في أبدانكم وأموالكم ، والله عز وجل يريد معالي الأمور وما يرجع إلى عمارة الدين ، ونصرة الحق ، وعلو الكلمة ، والفوز في السارين ، وشتان ما بين المرادين ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة ، وكسر قوتهم بضعفكم ، وغلب كثرتهم بقلّكم ، وأعزّكم وأذلّهم .

وقوله ( إذ تستغيثون ربكم ) الخ بدل من قوله ( وإذ يهدمكم الله ) أي هو يهدمكم إحدى الطائفتين في الوقت الذي يطلبون فيه الثوث من ربكم ، والمراد بالوقت هنا : الزمن التسع الذي وقعت فيه هذه الحوادث ، وهو الزمن الذي كانت فيه غزوة بدر ، وليس المراد أن اللحظة التي وقع فيها وعد الله لهم ، هي تلك اللحظة التي طلبوا فيها الثوث من الله تعالى ، يذكركم بذلك استنصارهم بالله تعالى في وقت ظنهم وحكمتهم عدوهم ، ووعد الله لهم بالنصر والامداد بألف من الملائكة .

ثم بين الغاية من ذلك الوعد فقال ( وما جعله الله إلا بشري ولنطمئن به قلوبكم ) فتسكن بعد الزلزال والخوف ، فتلقون أعداءكم ثابتين موقنين بالنصر .

ثم أرانا الله في آية أخرى أنه سيلقي في قلوب الذين كفروا الرعب ، وبذلك تعرف مقدار نصر

الله المؤمنين ، وخذلانه للكافرين ، ثبت الله المؤمنين ، ويشرم بأنه معيهم وانصرهم ، وعظم بالملائكة ، ولا شك أن تثبيت القلوب في وقت الزلزال نعمة كبرى ، يكرم الله بها أنصاره المؤمنين ، وإلقاء الرعب في قلوب الكفار نعمة يخذل الله بها الكافرين .

وقوله ( وما النصر إلا من عند الله ) يرينا أنه تعالى الفاعل للنصر مهما تكن أسبابه المادية والمعنوية ، إذ هو المسخر لها ، وناهيك بما لا كذب للشرف به كفسخ الملائكة تحالط المؤمنين فتستفيد أرواحهم منها الثبات والاطمئنان ، ثم علل ذلك بقوله ( إن الله عزيز حكيم ) ومن كان غالباً على أمره ، ولا يضع شيئاً في غير موضعه لا يكون النصر إلا منه .

( ٣ ) ( إذ يفتشكم العاص أمنة منه ) الخ الآية بيان لثمة أخرى على المؤمنين هي إقاؤه تعالى العاص عليهم ، حتى غشيم وغلب عليهم فكان كالغاشية تستر الشيء ، تأمينا لهم من الخوف الذي كان يساورهم من الفرق العظيم بينهم وبين عدوهم في العدد والعدد وغير ذلك .

ثم أشار إلى ثمة ثالثة هي قوله ( وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ) أى من الأحداث التي تعرض لكم والأرجاس ( ويذهب عنكم رجز الشيطان ) وسوسه كأن يقول لهم : أترغمون أن فيكم نبيا وتصلون عهدين محبين ؟ ( ولا يبط على قلوبكم ) يشبها بما تجدون في ذلك الماء من نفع ( ويثبت به الأقدام ) حتى لا تسوخ في الأرض وقد يقاتل الرجل منكم واجلا لارا كبا ، وبذلك يكون قويا ثابت القدم ( إذ يوحى ربك إلى الملائكة أتي معكم فتبوا الذين آمنوا ) متعلق بقوله ( ويثبت به الأقدام )

والمنى أنه تعالى يشبها في الوقت الذي يوحى فيه إلى الملائكة آمرا لهم أن يشبوا به الأنفس بعبادتهم لها ، واتصالهم بها ، والمعية في قوله ( أتي معكم ) معية إعانة كقوله ( إن الله مع الصابرين ) وإذا كان الله هو الموحى للملائكة بأنه معهم ومعينهم ، وهو الذي أمرهم بتثبيت المؤمنين ، فهو يرينا بذلك مقدار نعمته على المؤمنين وفضله عليهم ، ولم يكن ذلك الفضل تكميلاً لأشخاصهم ، بل لأنهم يقاتلون في سبيل الله ، ولأن أعداءهم يقاتلون في سبيل الطاغوت ، ومن أجل ذلك نصر المؤمنين ، وخذل الكافرين .

( ٤ ) ( سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب ) هو وعد من الله تعالى أن يخيف الكفار من المؤمنين بإلقاء الرعب في قلوبهم حتى لا يقووا على محاربة المؤمنين بعد أن أصم الملائكة بتثبيت المؤمنين ، وقد علل ذلك في سورة آل عمران إذ يقول ( سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا » ١٥٢ ) فهي عقوبة للكافرين على شركهم وإيغالهم لعقولهم وموابعهم ، والمراد أن أولئك لا يحاربون عن عقيدة ، ولا يصدرون عن قلوب ، ومن كان كذلك كان ضعيف القلب ، مضطرب البال ، فإذا ألقى الله الرعب في قلبه ، وهزم أمام خصمه كان ذلك متمشيا مع السفن الالهية العادلة ، وجاريا على مقتضى الحكمة .

وقد أرانا الله تعالى أن المؤمنين يقاتلون في سبيل الله ، والكافرين يقاتلون في سبيل الباطل وشيطان بين من يقاتل في سبيل الله ، ومن يقاتل في سبيل الهوى والشهوة ، وأرانا الله أن من يقاتل في سبيل الباطل لا يعمل له حساب ، ولا يقام له وزن ( الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله



والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا » ٧٦ « (١) .

وقوله (واضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) إرشاد من الله لقاتل القوم ووسائل تعذيبهم ، ثم علل ذلك بقوله (ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب) وكأن الله يرينا السبب في إهدارهم لدمائهم ، وتسليط المؤمنين عليهم ، وكذلك يرينا السبب في إلقاء الرعب في قلوبهم ، وثبتت المؤمنين خصومتهم ، ذلك السبب أنهم عادوا الله ورسوله والله لا يريد لهم إلا الخير ، ولا يشرع لهم إلا ما فيه حياتهم وسعادتهم ، فهم حتى بذلك المداء ، وسفهاء جاهلون بهذه اللقطة .

وجدير بمن وقف من ربه ذلك للوقف أن يعذبه في الدنيا بمثل ذلك العذاب ، ويعذبه في الآخرة عذابا آخرى منه وأشق ، جدير بطائفة يأتيها الرسول ، ويقيم لها الأدلة والبراهين على صدقه ، فتقابله بالهز والسخرية ، وتقول (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » ٧٧ « (٢) .

جدير بطائفة هذا حالها أن يذلها الله على أيدي فرقيل من المؤمنين الذين أذاقهم الأمرين وعذبهم بألوان من العذاب واضطروهم إلى الهجرة فلما بدى بهم وعقيدتهم (وزيد أن نحن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين » ٥٥ « (٣) .

(٥) (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار) . إرشاد من الله تعالى لعباده المؤمنين أن لا يفروا إذا زحف عليهم الكفار ، لأنه معرفة وجبن لا يليق بمؤمن ، بل لا يليق رجل يحترم نفسه ورجوته ، ويتوعد الله المؤمنين إذا هم فروا من وجه العدو أن يرجعوا من عملهم هذا بظن عظيم من الله ، وأن تكون عقابهم جهنم ، ومصيرهم شر مصير .

(فلم تقاتلوه ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) تذكير آخر بفضلته تعالى على المؤمنين في هذه الواقعة ، يريهم أنهم ما قتلوا الكفار بعدد ولا بعدد ، لأنهم كانوا في قلة ، ولكن الذي سخر لهم أسباب القتل الذي نصروا به هو الله تعالى ، فثبت قلوب المؤمنين وألقى الرعب في نفوس الكافرين ، وغشام الناس ، ليبدل خوفهم الذي كانوا فيه أمنا ، وأتزل عليهم من ماء السماء ما طهر به أبدانهم وأحداثهم ، وأذهب عنهم وساوس الشيطان ، كل ذلك ليحق الحق ويبطل الباطل ، ولييق التوحيد في الأرض عزيزا منيعا هو وأعصابه .

(وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) روى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قبض كفا من الحصباء ورمى به في وجوه قريش ، وقال «شاهت أوجوه» فلم يبق مشرك إلا شغل برأيه عن القتال ، وانهمزوا ، فيكون المعنى (وما رميت) ذلك الرمي للصدق الذي أصاب أعين القوم (إذ رميت) كفا من الحصباء ، ولكن الله هو الذي سدد رميك ، حتى كان من أثره تعذيب القوم واشتغالهم بأعينهم عن القتال ، وقيل ما رميت بالرعب إذ رميت بالحصباء ، ولكن الله رمى ،

ويصح أن يراد من الرمي القتال الذي وقع منه ومن أصحابه في ذلك اليوم ، والمراد ما تقدمت في ذلك اليوم حينما قاتلت القوم ، واكثر الله هو الذي جعل عملك وعمل أصحابك مسددا منكلا بصناديد قريش . وأضاف الرمي الى الرسول مع أنه كان منه ومن أصحابه لأنه قائم الأعظم ، وقدرتهم في الحرب والسلم ، ومهما يكن من شيء فهو منة من الله عليه وعلى أصحابه في ذلك النصر الذي أحرزوه ، والتم الذي حصلوا عليه .

( وليلى المؤمنين منه بلاء حسنا ) أى ان الله تعالى فعل ما ذكر لاقامة حجته ، وتأييد رسوله ، وليلى المؤمنين منه بلاء حسنا بالنصر والغنية وحسن السمعة . والبلاء : الاختبار بالحسن والسيئ ( ونبلوكم بالنصر والخيبر فتنة « ٣٦ » ) ( ان الله سميع ) لما كان من استغاثة المؤمنين مع رسولهم لربهم ( عليم ) بصدقهم واخلاصهم .

( ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين ) أى ذلكم هو الذي سمعتموه ، ويضاف إليه شيء آخر ، هو أن الله مضعف كيد الكافرين ، ومكرم بالي ، ومحاولتهم القضاء على دعوته .

( ٦ ) ( ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وان تنتهوا فهو خير لكم وان تعودوا نعد ) قيل : إن الكافرين أعداء محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه استنصروا الله ، وقالوا : اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم الفتيين ، وخير القبيلتين ، فتحكم الله بهم ، وقال لهم إن تطلبوا الفتح والنصر فقد جاءكم الفتح بذلك الخذلان الذي رأيتم ، وهو تمك لاذع ، وكأنه يقول : لقد طلبتم من الله أن ينصر أعلى الجندين ، وأكرم الفتيين ، وخير القبيلتين ، وقد فعل ، فنصر محمدا وأصحابه ، وم الأعلون ، والأكرمون والخيرون .

( وإن تنتهوا فهو خير لكم ) إن تكفوا عن حرب الحق وحربه فهو خير لكم ، تحفظ به دماؤكم وكرامتكم ، ثم توعدهم إذا هم عادوا الى مثل ذلك العمل الذي قاموا به في غزوة بدر فقال ( وإن تعودوا نعد ) ان تعودوا لمহারبة الله ورسوله عدنا لنصر الله للمؤمنين عليكم .

ثم أراد أن يرهم أن يعتزلهم أنفسهم ، واعتزلهم بغيرهم لا يجديهم ، فقال ( ولن نغني عنكم فتكم شيئا ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين ) بالنصر والعونة ، ومن كان الله معه لا يستطيع أحد أن يخذله ، وهى عبرة للكافرين ، وذكرى للمؤمنين ، وسأوى للمصلحين الذين يطمعون دائما في أن ينصر الله حقهم على باطل غيرهم وان كانوا قليلي العدد ، ويخذل أعداءهم وان كانوا كثيرين .

( ٧ ) ( واعلموا أنما غنمتم من شيء ) الخ . يرينا الله تعالى بهذه الآية كيف قسم الغنائم ، وأن هذه الغنائم تكون أربعة أخماسها للقاتلين ، والخمس الباقي يقسم على هذه الأقسام . وقوله ( إن كنتم أنتم بالله ) أى فاحضعوا لهذه القسمة التى فرضها الله تعالى على عباده ، لأن الشأن في المؤمن أن يخضع لحكم الله كما قال في سورة النساء ( فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما « ٦٥ » ) وكما قال في سورة الأحزاب ( وما كان للمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالا مبينا « ٣٦ » ) .

وقوله (وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان) عطف على لفظ الجلالة : أى وآمنتم بما أنزلنا على عبدنا من الآيات والملائكة والفتح ، والمراد بالانزال الإيصال : أى إن كنتم آمنتم بالله ، وآمنتم بما أوصله الى نبيه من إمداده بالملائكة لتثبيت قلوب المؤمنين ، ومن نصرهم على عدوهم على قتلهم ، ومن الآيات القرآنية والكونية - فاعلموا أن الذى أنزل ذلك كله هو الذى قسم الغنيمة بينكم على ذلك النحو الذى وآيتم .

وقوله (يوم الفرقان) المراد به يوم بدر الذى فرق الله به بين الحق والباطل ، وقد كان يوما شديدا على المشركين ، أيد الله فيه التوحيد ، وخذل فيه الشرك . والجمعان : ما جمع للمؤمنين والكافرين .

وقوله ( والله على كل شيء قدير ) دفع لاستغراب ما حصل من نصر المؤمنين على قتلهم وضعفهم ( إذ أنتم بالعدوة الدنيا ) الخ ، بدل من قوله ( يوم الفرقان ) وفائدة ذكر مراكز الفريقين الدلالة على قوة شأن العدو وشوكته ، وضعف شأن المسلمين ، وأن غلبتهم في ذلك الحال لم تكن إلا صنعا من الله تعالى ، وبحوله وقوته ، فإن العدو القصوى التى أناخ بها المشركون كان فيها للماء ، وكانت أرضا لا بأس بها ، ولأما بالعدوة الدنيا ، وأرضها رخوة تسوخ فيها الأرجل ، ولا يتيسر المشى فيها إلا بمشقة وتسب ، وكانت العير وراء ظهور العدو مع كثرة عددهم فكانت الحماة دونها تضاعف جهنم .

(ولو تواعدتم لاختلقتم في البعاد) أى لتواعدتم مع أهل مكة على مكان تلتقون فيه لخالف بعضكم بعضا ، فنبطكم قتلهم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد ، وبطلمهم تهيبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يتفق لكم من التلاقى ما وفقه الله وسببه (ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا) هو نصر أوليائه وقهر أعدائه .

دبر مآدر (لهلاك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة) أى دبر مآدر لهلاك من هلك من الكفار عن حجة واضحة بأن النبى وأصحابه على حق فيما دعوا إليه ، وأن أعداءه كانوا على باطل فيما دافعوا عنه ، ويحيى من حي من المؤمنين عن حجة واضحة ، هى أن الله تعالى صدق رسوله فيما وعده إياه من النصر (وإن الله لسميع عليم) لا يخفى عليه شيء من أقوال أهل الإيمان والكفر وأعمالهم وعقائدهم ، وهو مجازيهم عليها .

(٨) (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا) الخ إرشاد من الله تعالى إلى أسباب الظفر ووسائل النصر :

[أولها] : الثبات وعدم الفرار ، وقد بين في أوائل هذه السورة عقوبة الفرار من العدو [ثانيها] : ذكر الله تعالى ليقوى قلب المحارب بما أعده الله للجاهدين من ثواب ، ومن جهة أخرى فإن المؤمن متى ذكر الله تعالى فقد ذكر سفته التى يعقها النصر ، وفيها الاستعداد للاقتال المدوم من الحاجة للمادية والعضوية ، وقد بين ذلك في جملة آيات كقوله (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم « ٦٠ » ) (١) .

وقد أشار إلى فائدة ذكر الله تعالى والثبات في قوله (لعلكم تفلحون) إربنا بذلك أن الاستعداد للفلاح طريقه ذلك .

[ الثالث ] : طاعة الله ورسوله بالوقوف عند حدود الله تعالى وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وهو إمام المسلمين وقائدهم الأعظم ، ولا شك أن طاعة القائد لها أثرها في النصر .

[ الرابع ] : عدم التنازع لأنه مدعاة التفرق ، وهو مدعاة الفشل ، وذهاب القوة .

[ الخامس ] : الصبر على مشاق القتال ، وقد بين عاقبة الصبر في قوله (إن الله مع الصابرين) ثم أشار إلى أدب آخر من آداب القتال وهو أن يخرج الإنسان مخلصا في خروجه ، محسبا به وجه الله تعالى ، فلا يخرج للقتال بطرا ولا رياء ، لأن الله تعالى يعلم نكث النفوس ، وأن الذي يخرج للقتال لا يحمله على خروجه إلا البطر ومراءاة الناس ليس أهلا لأن ينصره الله تعالى .

## غزوة أحد

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ<sup>(١)</sup> الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ<sup>(٢)</sup> ١٢١ إِذْ هَمَّ بَطَانَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ١٢٢ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِيَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ<sup>(٣)</sup> فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ ١٢٣ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبْعِدَ كُفْرُكُمْ بِبِلَاقَةِ الْفِ مِنَ الْمَلِكَةِ مُزِيلٍ ١٢٤ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُبْعِدْ كُفْرُكُمْ بِخَمْسَةِ الْفِ مِنَ الْمَلِكَةِ مُسَوِّمِينَ<sup>(٤)</sup> ١٢٥ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ١٢٦ لِيَقْطَعَ طَرَقًا<sup>(٥)</sup> مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبَهُمْ<sup>(٦)</sup> فَيَقْبَلُوا خَائِبِينَ ١٢٧ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ١٢٨ آل عمران

[١] جبل مشهور بين دين للمدينة ثلاثة أميال ، وهو في الشمال الشرق منها ، وكانت الغزوة في شوال سنة ثلاث من الهجرة . [٢] تنزل . [٣] بقلة العدد والصلاح .

[٤] بكسر الواو من سَوِّمَ على القوم : أغار عليهم ، وفتح الواو مكثين بقتل قلوب المؤمنين أو مكثين فيما يدلون بالنفوس من الخبيث والربط عليها . [٥] طائفة . [٦] يذلم .

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ «١٣٩» إِنْ  
يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا<sup>(١)</sup> بَيْنَ النَّاسِ  
وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ «١٤٠»  
وَلِيُمَحِّصَ<sup>(٢)</sup> اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ «١٤١» أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتَّخَلَّوْا  
الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ «١٤٢» وَلَقَدْ كُنتُمْ  
تَمْتَوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ «١٤٣» وَمَا  
مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى  
أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ  
الشَّاكِرِينَ «١٤٤» وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ<sup>(٣)</sup> كِتَابًا مُوَجَّلًا وَمَنْ  
يُرِذْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُفِثَ مِنْهَا وَمَنْ يُرِذْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُفِثَ مِنْهَا وَسَخَّرَ لِي  
الشَّاكِرِينَ «١٤٥» وَكَأَيُّ<sup>(٤)</sup> مِنْ نَجِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا  
أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ «١٤٦»  
وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا  
وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ «١٤٧» فَأَتَاهُمُ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ  
الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ «١٤٨» يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ  
كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ «١٤٩» بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ  
وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ «١٥٠» سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا  
بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ «١٥١» وَلَقَدْ  
صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعِدَهُ إِذْ تَحُسُّوهُنَّ<sup>(٥)</sup> بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَنْزِ

[١] جرح . [٢] نصرهما فتبدل تارة هؤلاء ، وتارة هؤلاء . [٣] يخلصهم من كل عيب .

[٤] ميثقه . كتاباً مؤبداً : أى كتب ذلك كتاباً مقروناً بأجل معين لا يتغناه .

[٥] كبير . ريدل جمع ردى ، وهو الرأى . [٦] غفلتهم قتلا ذرياً .

وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أُرِيكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ  
 الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَّفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى  
 الْمُؤْمِنِينَ «١٥٢» إِذْ تُصْعِدُونَ <sup>(١)</sup> وَلَا تَنَالُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي  
 أُخْرَايَكُمْ فَأْتَيْتُكُمْ غَمًّا بَغِيًّا لِيَكِيلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَبَكُمْ وَاللَّهُ  
 خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ «١٥٣» ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُسًا يَفْتِي  
 طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ  
 يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ  
 مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا ههنا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ  
 فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ <sup>(٢)</sup> اللَّهُ  
 مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ «١٥٤» إِنَّ  
 الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ النُّجْيِ الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ <sup>(٣)</sup> الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا  
 وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ «١٥٥» يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا  
 كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا  
 عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّمُ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ  
 بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ «١٥٦» وَلَنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ  
 وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ «١٥٧» وَلَنْ مِثْمٌ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ «١٥٨»  
 قَبَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلَابِ لَآنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ  
 فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ

[١] يعمدون في الأرض هارين ولا ترجون على أحد . [٢] يختبر .

[٣] تحزى زلتهم واستجروهم لها .

اللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ «١٥٩» إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا قَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ  
فَنَ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ «١٦٠» آل عمران

أَوْ لَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أُنِىَ هَذَا <sup>(١)</sup> قُلْ هُوَ مِنْ  
عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنْ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ «١٦٥» وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ  
فَإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ «١٦٦» وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَمَالَوْا قَاتِلُوا  
فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ أَذْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعُنْكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ  
مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا أَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ «١٦٧»  
الَّذِينَ قَالُوا لِأَخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا قُلْ قَادَرُوا <sup>(٢)</sup> عَنْ أَنْفُسِكُمْ  
الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ «١٦٨» وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا  
بَلْ أَحْيَاكَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ «١٦٩» فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ  
وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ  
يَحْزَنُونَ «١٧٠» يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ  
الْمُؤْمِنِينَ «١٧١» الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ <sup>(٣)</sup>  
لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ «١٧٢» الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ  
قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ «١٧٣»  
فَاتَّقُوا اللَّهَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ لَمْ يَمَسِّنْهُمْ سُوءَ وَاتَّبِعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو  
فَضْلٍ عَظِيمٍ «١٧٤» إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ <sup>(٤)</sup> فَلَا تَخَافُوهُمْ  
وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ «١٧٥» آل عمران

## تمليق وعبرة

(١) (وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال) أى اذكر يا محمد الوقت الذى غدوت فيه من أهلك بالمدينة تنزل المؤمنين مقاعد للقتال ، وتازمهم أن لا ينادروا مكائهم الذى أنزلهم به ، ولورأوا الطير تتخطف المسكر (والله سميع عليم) لم يخف عليه شئ مما قيل فى مشاورتك لمن معك فى أمر الخروج إلى لقاء للمشركين فى أحد ، أو انتظارهم فى المدينة ، وعلم فيه كل قائل ، وإن منهم المخلص فى قوله ، وإن أخطأ فى رأيه ، ومنهم غير المخلص فى قوله وإن كان صوابا كعبد الله بن أبى المنافق .

(إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا) هما بنو سلمة وبنو حارثة ، والهم : حديث النفس وتوجهها إلى الشئ ، والفشل : ضعف مع جين ، وسبب مهمما بالفشل تأثرها برجوع عبد الله ابن أبى المنافق وأصحابه ، وقوله : [علام قتل أنفسنا وأولادنا] .

ومنه تعلم كيف أن أعمال المنافقين وهزيعهم من شأنها أن تترك أثرا فى نفوس المؤمنين . وأن القدوة السيئة فى العمل لها أثرا ، والقدوة السالحة كذلك ، وأن الكلمة الخبيثة قد تترك فى نفوس الناس أثرا عظيما من الفشل ، والكلمة الطيبة قد تكون من أسباب النصر والغلب . (والله وليهما) أى متولى أمورها بصدق إيمانها ، كذلك صرف الفشل عنهما فلم يجيبا داعى الضعف الذى ألم بهما عند رجوع تلك العسكر (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) ليثقوا به دون غيره . (ولقد نصركم الله ببدر وأتم أذلة) الخ : يذكرهم بنصره لهم يوم بدر وهم فى قلة من جهة عددهم وسلاحهم (فاقولوا الله لعلكم تشكرون) نعمته عليكم بذلك النصر .

(إذ يقول للمؤمنين ألن يكفكم أن يدرككم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين) الخ بدل من قوله (وإذ غدوت من أهلك) أى أنك غدوت من أهلك تنزل كل واحد من القوم منزله من القتال فى الوقت الذى تعد فيه المؤمنين بأن يقدم الله ثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ، ولم تكشف بذلك العدد ، بل وعدتهم إذا هم صبروا واثقوا وآتوا القوم فى سرعة أمدهم الله بخمسة آلاف من الملائكة مكلفين من الله بالنصر ، والشيث للمؤمنين ، والربط على قلوبهم (وما جعله الله إلا بشرى) أى ما جعل هذه العدة إلا بشرى للمؤمنين (ولاعلمن) بذلك الوعد قلوبهم (وما النصر إلا من عند الله العزيز) الغالب الذى لا يضع نصره إلا فى الموضع الذى يستحقه . (ليقطع طرفا من الذين كفروا) الخ يقضى على طائفة من الكفار أو يذهبهم بالهزيمة فينقلبوا خائبين ، ولما كسرت رباعية الرسول صلى الله عليه وسلم وشج وجهه يوم أحد وقال : كيف فليخ قوم خضبوا وجه نبيهم بالهم - نزل قول الله تعالى (ليس لك من الأمر شئ) . وقوله (أو يتوب عليهم) الخ عطف على قوله (ليقطع طرفا من الذين كفروا) .

(٢) (ولا تنهوا ولا تحزنوا) الخ : يحرض الله تعالى على القتال بأساليب شتى ، فترة يريهم أنهم أعلى من الكفار فحسا ، وأشرف غاية وقصدا ، ولا يلبق بهم والحالة هذه أن يهنوا أو يحزنوا وصمة يقول (إن يمسك قرح فقد مس القوم قرح مثله) ليريهم أن الشدائد التى يلاقونها من



الحروب هي شدائد مشتركة ، لا يختص بها فريق دون فريق ، وأحيانا يريهم أن الأيام دول ، فبوم لهم وبوم عليهم ، وصمة يريهم أن هذه الشدائد هي ابتلاء من الله تعالى واختبار ، يظهر بها المؤمن من المنافق ، ويتخذ بها منهم الشهداء ، ويحص بها قلوب المؤمنين ، ويظهرها من كل ضعف يحل بها ، ويمحق الله بها الكافرين .

ثم يريهم أنهم إذا ظنوا أنهم يدخلون الجنة قبل أن يقيموا البرهان على صدقهم في إيمانهم وإقامة الدليل على يقينهم في دينهم - إذا غنوا ذلك فهم غثثون ، وهو ما أشار له بقوله ( أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ) ونفى العلم هنا بمعنى نفى العلم ، كنفى اللزوم وإرادة نفى اللزوم ، وللعنى : أظنتم أن تدخلوا الجنة ولم تجاهدوا ولم تصبروا وصمة يذكرهم بأنهم كانوا يفتنون الموت قبل غزوة أحد ، فلماذا تجبنون عند لقاءه ؟ .

( وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ) الخ : نزلت هذه الآية حينما أشيع يوم أحد أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد مات ، وقد تركت هذه الاشاعة أثرا في نفوس أكثر المسلمين ، وقال قوم من المنافقين : لو كان محمد نبيا ما قتل ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم . فأراهم الله تعالى بهذه الآية أن محمدا لم يعد أن يكون رسولا قد مضت الرسل من قبله فأتوا ، وقتل بعض النبيين ، ولم يكتب لأحد منهم الخلد ، ولابد أن تحكم عليه سنة الله بالموت ، فيخلو كما خلوا من قبله ، إذ لبقاء إلا لله وحده .

( أقفل مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ) ينكر عليهم أن يرجعوا عما كانوا عليه من أمر الإيمان بسبب إشاعة موت أو قتل ، ثم يهدم بقوله ( ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين ) .

وفي هذه الآية إرشاد لنا إلى أن لا نجعل المصائب الشخصية دليلا على كون من تصيبه على باطل أو على حق ، وزينا أن لا نتمادى في معرفة الحق والخير على وجود العلم ، بحيث نتركهما بعد ذهابه أو موته ، وإنما نتمادى على معرفتهما ، والسبر على منهما في حال وجود العلم بعده . ولقد كانت الآية للذكورة مقدمة وإرهاصا بين يدي موت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وظهر أن توبيخ الذين ارتدوا على أعقابهم بهذه الآية قد ظهر أثره يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا ينافي هذه الحكمة كون الوقعة قبل وفاته بيض سنين ، فإن توطين نفس الأمة الكبيرة على الشيء ، وإعدادها له لا يكون قبل وقوعه بيوم أو أيام أو شهر ، بل لابد من زمن يكفي لتعميمه فيها ، وأن يصير من الأمور السالطة المشهورة عندها ، حتى لا ينبى عن الأذهان .

( وما كان لنفس أن تعوذ إلا بذن الله ) الخ : رجوع إلى تطمين المؤمنين ، وتحريضهم على القتال ، إذ يريهم أنه ما ينبغي لنفس كاتنة ما كانت أن تفارق هذه الحياة إلا بمشيئة الله تعالى ، سواء أكانت نفس رسول ، أو نفسا أخرى من نفوس المجاهدين ، فالجهاد لا يضيع شيئا من الأجل ، والتخطي عن القتال لا يمتد لصاحبه في الحياة ، ثم عقب ذلك ببيان أن من يسئل للدنيا يحصل عليها ومن يعمل للأخرة يعطيه الله ثوابها ، وسيجزي الشاكرين على شكرهم .

( ٣ ) ثم عاد وأرانا أن كثيرا من النبيين قاتل معهم جوع كثيرة من المؤمنين ، فما ضفوا

لما أصابهم في سبيل الله وما استكانوا للذل والخنوع (وما كان قولهم) وهم يحاربون أعداء الحق إلا أن طلبوا من الله أن يفر لهم ذنوبهم ، وإسرافهم في أموالهم ، وأن يثبت أقدامهم أمام عدوهم وينصرهم على خصومهم ، وكانت عاقبتهم أن أعطاهم الله ثواب الدنيا بالفضيلة والقلب ، وحسن ثواب الآخرة (والله يحب المحسنين) .

يريه الله أن لهم سلفا في ذلك الجهاد ، وأن سلفهم كانت عاقبته النصر ، وستكون عاقبتهم كذلك إذا هم صبروا وأخلصوا (سنلقى في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشرِكوا بالله ما لم ينزل به سلطانا) وعد من الله بالقاء الرعب في قلوب أعدائه بسبب شركهم بالله ما لم ينزل به سلطانا ، فلا تعملوا لهم حسابا (ومأواهم النار) في الآخرة (وبئس مثوى الظالمين) جهنم (ولقد صدقكم الله وعده) الخ : يريهم أن وعد الله لهم بالنصر قد صدقهم الله فيه ، ولم يتخلف وعده لهم إلا بعد أن فشلوا وتنازعوا ، وخرجوا على وصية رسولهم الأعظم ، وقائدهم الأكبر ، وتطلعوا لعرض هذه الحياة ، وانتظروا الغنيمة .

وقد قال الرسول لهم حينما يؤامهم مقاعد للقتال : لا تتركوا هذه الأماكن وإن تخطفكم الطير . ليريه الله أن هذه عاقبة الخروج على نصيحة القائد ، ومغبة التطلع لعرض هذه الحياة ، فمنكم نصره حينما فشلتم وتنازعتم في الأمر : منكم فريق يطلب الدنيا فتترك مركزه الذي وضع فيه للغنيمة ، ومنكم من يطلب الآخرة ، فثبت حتى قتل (ثم صرفكم عنهم) بركم للزعمة (اليتلىكم) يمتحنكم فيظهر المخلص من غير المخلص ، ويريك عاقبة اختلافكم وخروجكم على نصيحة رسولكم (ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين إذ تصعدون) تبعدون في الأرض هاربين ، ولا ترجون على أحد (والرسول يدعوكم) من ورائكم (فأتاكم غما) بالزعمة (بغم) الخافقة (لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم) لأنكم الذين تسببتم في ذلك ، ومن كان سببا في نكبته لا يلامن إلا نفسه .

(٤) (ثم أنزل عليكم من بعد الفم أمنة ناعسا) الخ يعرفهم فضله عليهم بعد هزيمتهم وهو ، لإرساله النعاس عليهم ، حتى لا يفكروا فيما حل بهم ، وقد أنزل هذا النعاس على المؤمنين ، أما المنافقون فلم يفارقهم همهم ، لأنهم لاهم لهم إلا نجاة نفوسهم وبعدها من المشاق .

وقد وصف الله هذه الطائفة بأنها تظن برها غير الحق ظن الجاهلية ، ويقولون في أنفسهم (هل لنا من الأمر من شيء) يريدون أمر النصر الذي وعدوه كما وصفهم أنهم يخفون في أنفسهم مالا يبدون لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقد جعلهم الجاهل أن يقولوا (لو كان لنا من الأمر شيء ما قلنا ههنا) أي لم نخرج فلم نقتل ، لكننا أخرجنا كرها ، ومن أجل ذلك قلنا ، فإرد الله عليهم بقوله (لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتال إلى مضاجعهم) مصارعهم فيقتلوا ، ولم ينجمهم قعودهم كما قال في آية أخرى (أيمانكم أن يدرككم الموت ولو كنتم في بروج<sup>(١)</sup> مشيدة) . (وليتلى الله ما في صدوركم وليمحس ما في قلوبكم) أي فعل ما فعل من أجل هذه الحكمة والمصالح (والله عليم بذات الصدور) لا يخفى عليه شيء منها .

(٥) (إن الذين تولوا منكم يوم التقي الجمعان) الخ أساليب آخر من أساليب التحريض ، يرهم فيه أن الذين فروا يوم أحد إنما استجروهم الشيطان لافترار ، وكان ذلك بسبب ما كسبوه من السيئات ، لغرمهم من فضل الشهادة ، ومن فضل الثبات على الجهاد ، بما قدموه من سيئات (واقعد عفا الله عنهم) ما قدموه .

(يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا) الخ : ينفر الله المؤمنين أن يقولوا ما قاله الكفار في اخوانهم ، وهي قولهم (لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير) .

وكثيرا ما يحمل الشيطان المؤمن على مثل ذلك القول الفاحش ، وحظ الشيطان من هذه الكلمة أن تصير حسرة في قلوب المؤمنين ، تملؤها بالحزن والأسى ، والله تعالى هو المالك لحياة الناس وموتهم ، لا يمتهم إلا بقدر ، ولا يحبيهم إلا بقدر ، وهو العليم بأعمال الناس ونواياهم .  
(ولئن قتلتم في سبيل الله أو متتم لغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون) ترغيب آخر في القتال بأن عاقبته غفر الذنوب ورحمة الله ، وهي خير مما يجمعون من مال .

(٦) (أولما أصابكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا) ينكر عليهم استنكار أن يدال لهم مرة وعليهم مرة أخرى ، نصرورا يوم بدر ، وهزموا يوم أحد ، وكان غنمهم يوم بدر أكثر من غرمهم يوم أحد . ومع ذلك يستكبرون ذلك ، فيقول الله لهم (قل هو من عند أنفسكم) نسبتم فيه بتطلعكم إلى الدنيا ، ومخالفتكم أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، فجازاكم على هذه المخافة ، ثم أراهم أن ما أصابهم يوم التقي الجمعان من الهزيمة هو باذن الله ومشيئته .

ومن حكمه أن يعلم المؤمنين الذين يصبرون على السراء والضراء ويتفحجون بهذه الشدائد ، ويعلم المنافقين الذين آمنوا بلسانهم ولم تؤمن قلوبهم ، وهم الذين قالوا للمؤمنين (لو نعلم قتالا لاتصاكم) وهم الذين قالوا في شأن إخوانهم الذين قتلوا (لو أطعونا ماقتلوا) وقد رد الله عليهم في قوله (فادبروا عن أنفسكم للوث إن كنتم صادقين) .

(ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا) الخ : أساليب آخر من أساليب التحريض على الجهاد ، يرهم فيه أن الله تعالى قد أعد لمن يقتل في سبيله من الحياة ما لم يعد له غيره لما يعلم كنهه غيره ، ولا يقف عليه سواه ، كما أعد له من الرزق النبى عنده كذلك ، ولم يبين الله لنا هذه الحياة ، ولا ذلك الرزق ، فعلى أن نقف عند ما ورد بدون بيان ولا شرح ، فهي حياة غيبية ، ورزق غيبى ، أخبر الله بهما (فرحين بما آتاهم الله من فضله) أى فوق أجورهم التى استحقوها بعملهم .

(و يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم) أى يتوقعون أن يبشروا بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم بقدمهم عليهم مقتولين في سبيل الله كما قتلوا ، مستحقين من الرزق والفضل الالهى مثل ما أوتوا . وقوله (من خلفهم) أى الذين هم من ورائهم يقتفون أثرهم ، ويعبدون حذوهم قدما بقدم ، وهو أسلوب من أساليب الترغيب في الشهادة ، وفي الآية دليل على الحياة

البرزخية . وقوله ( ألا خوف عليهم ) أى بسبب أن لا خوف عليهم من شرّ يتوقع (ولام يحزنون) من شرّ واقع .

( يستبشرون بنعمة من الله وفضل ) أى أن أولئك الشهداء يستبشرون بما يتجدد لهم من نعمة وفضل ، وبأن الله لا يضيع على المؤمنين أجرهم ، وإعما يجزيهم عليه جزاء أوفى ، ثم وصفهم بقوله ( الذين استجابوا لله والرسول ) الخ .

ثم وصفهم وصفا آخر هو الشجاعة والجرأة فقال ( الذين قال لهم الناس إن الناس قد جموا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ) .

وقوم هذا حالهم لآبء أن تكون عاقبتهم كما قال الله تعالى ، وهى أن يعودوا بنعمة من الله وفضل وهى نعمة السلامة ، ونعمة القلب والفوز ، وانبعوا ما يرضى الله ولا يسخطه ، والله ذو فضل عظيم ، يضعه فى المكان اللائق به .

ثم أروانا الله أن التليط عن القتال ، وإيقاع الرعب فى نفوس اللقائين من عمل الشيطان من الانس أومن الجن ، يخوف به أنصاره وحزبه ( فلاتخافوهم ) أى لاتخافوا من يحاربونكم ، لأنهم يقانلونكم بدون قلوب ، وفى سبيل الباطل ، أما أتم فقاتلون فى سبيل الله والحق ، فلبسوا أهلا لأن يخاف منهم ، وإعما القى يستحق أن يخاف هو الله تعالى ، لأن ييده ملكوت كل شىء ، ثم ختم الآية بقوله ( إن كنتم مؤمنين ) أى فقفوا عند ما أمرنكم به ، لأن فيه حياتكم وسعادتكم ، وإن شقّ على نفوسكم .

### غزوة الأحزاب

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا «٩» إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ <sup>(١)</sup> الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ <sup>(٢)</sup> وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا «١٠» هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا «١١» وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا «١٢» وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ <sup>(٣)</sup> لَا مُقَامَ

[١] وتسمى غزوة الخندق ، وكانت فى شوال فى السنة الخامسة من الهجرة .

[٢] اضطربت ومالت عن سننها حيرة وشغوصاً . [٣] جمع حنجرة ، متهى الحلقوم ، وهو ثقل فى

اضطراب القلوب . [٤] المدينة .

لَكُمْ فَأَرْجِعُوا وَاسْتَغْفِرُوا مِنْهُمْ النِّبِيُّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ <sup>(١)</sup> وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا <sup>(٢)</sup> وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا <sup>(٣)</sup> ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَا تَوْحَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا <sup>(٤)</sup> وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَذْبُرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا <sup>(٥)</sup> قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُنْتَمُونَ إِلَّا قَلِيلًا <sup>(٦)</sup> قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِيكُمْ مِنْ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهْمَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا <sup>(٧)</sup> قَدْ يَمْلِكُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ <sup>(٨)</sup> مِنْكُمْ وَالْفَاقِلِينَ لِأَخَوِيهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ <sup>(٩)</sup> إِلَّا قَلِيلًا <sup>(١٠)</sup> أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَمِي عَلَى مَوْتٍ فَلِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَلِيرِ أُولَئِكَ لَمْ يُولَمُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا <sup>(١١)</sup> يَحْسَبُونَ الْأَخْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَخْزَابَ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ <sup>(١٢)</sup> فِي الْأَغْرَابِ يَسْتَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قُتِلُوا إِلَّا قَلِيلًا <sup>(١٣)</sup> لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا <sup>(١٤)</sup> وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَخْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا <sup>(١٥)</sup> مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ <sup>(١٦)</sup> وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا <sup>(١٧)</sup> لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا

[١] غير حصينة . [٢] نواحيها ، الفتنة : الدرك . [٣] للتبطين .

[٤] القتال . [٥] كانوا في البادية . [٦] مات .

رَحِيمًا «٢٤» وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِفَيْضِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا «٢٥» وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِبِهِمْ <sup>(١)</sup> وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْمُرُونَ فَرِيقًا «٢٦» وَأَوْزَعْتُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيرَهُمْ وَأَمَّا لَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَدِيرًا «٢٧» الأحراب

### تعلق وعبرة

(١) (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم) الخ : يذكر الله المؤمنين بنعمته عليهم في غزوة الخندق التي أثارها اليهود لما رأوا انتصار المشركين على المؤمنين يوم أحد ، فخرج أشرافهم إلى قريش بمكة يحرضونهم على غزو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأجابتهم قريش ثم خرجوا إلى غطفان ، وطافوا في قبائل العرب ، فخرجت قريش في أربعة آلاف تحت قيادة أبي سفيان ، ووافهم بنو سليم وأسد وفزارة وأشجع ، ووافي الخندق من الكفار عشرة آلاف فكانت جنود الباطل كثيرة .

(فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها) . قيل هي ريح الصبا أهلك الله بها من الكفار من أهلك ، والجنود التي أرسلها الله على للمشركين واليهود يحتمل أن تكون جنودا من الرعب ألقاه الله في قلوبهم ، وهي جنود ليس من شأنها أن ترى للمؤمنين ، وإنما يحس بها الكافر ، كما قال في قصة بدر وأحد (سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب) . ثم علل ذلك بأنهم أشركوا بالله ما لم ينزل به عليهم سلطانا ، ويحتمل أن تكون الجنود ملائكة أنزلها الله لتثبيت قلوب المؤمنين كما كان ذلك في غزوة بدر .

(وكان الله بما تعملون بصيرا) ومنه حفر المؤمنين للخندق الذي أشار به سلمان الفارسي ليتحصنوا به من الكفار .

(إنجاوكم من فوقكم ومن أسفل منكم) تصوير لكثرة الكفار (وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا) .

يذكرهم الله بنعمته عليهم في وقت اضطربت فيه الأبصار ، وخرجت عن سفتها في النظر لشدة الأمر ، وبلغت الشدة حدا عظيما ، حتى ليخيل إلى أحدهم أن قلبه قد وصل إلى منتهى حلقه ، كأنه قارب أن ينخلع منه .

(هناك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزلا شديدا) أي في ذلك الوقت اختبر المؤمنون بذلك

المرس القاسى ، واضطربت قلوبهم اضطرابا لا يقف عند حد ، وهناك يقول المنافقون والذين صرخت نفوسهم (ما وعدنا الله ورسوله) النصر الا قبرا بنا (و) هناك (قالت طائفة منهم يا اهل المدينة (لامقام لكم) بذلك المكان الذى تعاربون به ، فدعوه وارجعوا إلى بيوتكم (و) هناك (يستأذن فريق) من المنافقين النبى (يقولون إن بيوتنا) غير حصنة وعرضة لأن ينالها العدو ، فدعنا نذهب إليها (وماهى) كذلك (إن يريدون) بذلك القول (إلا فرارا) من الجهاد .

(ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا) لو دخلت أعداؤهم الذين يخشونهم عليهم بيوتهم من نواحيها المختلفة ، ثم سئلوا فى ذلك الوقت أن يرتدوا عن الإيمان إلى الكفر لفعلا ، وما انتظروا بعد السؤال إلا يسيرا من الزمن .

والغنى أنهم كاذبون فى قتلهم بعدم تحصين بيوتهم ، لأنهم لو هوجوا فيها من الأعداء ، وطلب منهم أن يكفروا فى ذلك الوقت لفعلا ، وكانوا على المسلمين لمقتهم الاسلام ، وشدة بغضهم لأهلها ، وجهم الكفر (واقعد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار) .

يذكرهم الله بيهودهم السابقة بعدم الفرار عند لقاء العدو ، وأنه محاسبهم على عهدهم ، ثم أراهم أن فرارهم من الموت أو القتل لا يجديهم ، وأنهم إذا عاشوا بعد فاعما يعيشون مدة وجيزة ، ثم ذكرهم بأنه لأحد يصمهم من الله إن أراد بهم سوءا وأراد بهم رحمة ، ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا .

(٢) (قد يعلم الله المؤمنين منكم) الخ : تهديد من الله للمثبطين عن القتال بأنه يعلم تثبيطهم للمؤمنين ، وسيحاسبهم عليه ، وتصور لحالة المنافق إذا جد الجدد ، تراه فى ذلك الوقت لا يستقر له بصر ، فتجد عينه تدور فى القوم من أقصام إلى أقصام وكأن عليه غشية الموت ، فاذا ذهب الخوف -لقى المؤمنين بأسنة حداد ، وتجده شحيحا بنفسه أن يقاتل ، وشحيحا بالخير أن يفعله ثم علل ذلك بقوله (أولئك لم يؤمنوا) ولذلك فعل ما فعل من التثبيط ، وحل به ما حل من الزلزال والفتنة ، ولو أنهم كانوا مؤمنين ما فعلوا شيئا من ذلك ، وقد كانت عاقبة أمرهم أن أحبط الله أعمالهم ، وكان ذلك الاحباط يسيرا على الله تعالى .

(يحسبون الأحزاب لم يذهبوا) أى لم ينهزموا فانصرفوا عن الخندق إلى المدينة راجعين لما حل بهم من الخوف (وان يأت الأحزاب) مرة ثانية (يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون) كل قادم منكم (عن أنباتكم ولو كانوا فيكم) ولم يرجعوا إلى المدينة (ماقاتلوا إلا قليلا) قلة ورياء .

(لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) الخ : يرهم أن الشأن فيمن يرجو الله واليوم الآخر أن يتأذى برسوله صلى الله عليه وسلم ولا يتأخر عما أمره به من الطاعات ، وأن أولئك قد تخلفوا عن القتال ، لأنه لم يكن لهم رجاء فى الله واليوم الآخر .

(ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله) الخ وهو شرح لحال المؤمنين بعد أن بين حال المنافقين والفرق بين الفريقين عظيم ، وقد عقدنا أبوابا خاصة للفرق بين المؤمنين والكافرين والمنافقين فارجع إليها إن شئت الزيد .

## الزكاة

فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَلَاخُوشَكُمْ فِي الدِّينِ وَتَفَصَّلُ  
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتْلُمُونَ «١١» التوبة

إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي  
الرِّقَابِ وَالنَّارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ  
حَكِيمٌ «٦٠» التوبة

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ  
سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ «١٠٣» التوبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ «١» الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ «٢» وَالَّذِينَ هُمْ  
عَنِ الْغَوَايِ مَنْرُضُونَ «٣» وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ «٤» التوبة

### شرح وتعليق

(١) فرض الله الزكاة على المسلمين في السنة الثانية من الهجرة ، وأرانا في الآية من سورة التوبة أن الأخوة في الدين لا نكون إلا من قوم أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، بعد توبتهم من الشرك ، فالذي يؤمن بالله ولا يؤدي ذلك الركن لا يكون أخاً للمؤمنين في دينهم . ولعل في ذلك عبرة لمنافى الزكاة من المسلمين الذين يظنون أنهم ناجون من عذاب الله لجرّد صلاتهم ، وان يغفلوا بأموالهم ، ناسين أن الله تعالى يتلى الناس بإيجاب جزء من مالهم ، يؤخذ من أغنيائهم ليرد على فقرائهم ، وأن للمؤمن لا يكون صادقاً في دعوى الإيمان إلا حيث أدى حق الله في ماله ، كما يؤديه في صلاته وصومه وحججه ، وأن اختبار الناس بالمال فوق اختبارهم بالصلاة فمن السهل على الرجل أن يؤدي أعمالاً لا تكلفه سوى حركات يتقّم بها كل يوم ، وليس من السهل أن يبذل نصيباً من ماله للفقراء والمساكين ومصالح المسلمين عن طيب نفس ورضا ،



ولذلك نجد المصلين والساكنين أكثر من الزكّين ، على أن الصلاة التي لا تزهّد صاحبها في المال ، ولا ترشده إلى حقّ الفقراء والساكنين ، ولا تزيهه أن ذلك المال هو مال الله استخلفه فيه ، لينظر أيقوم بحقه أم يبخل به على المصالح - هي صلاة لا يقيم الله لها وزناً ، ولا يبالي بمعل صاحبها ، لأنها صلاة العافلين والساكنين ، لا صلاة المؤمنين الناكرين ( أرايت الذي يكذب بالمؤمنين « ١ » ) فذلك الذي يدعّ التّيمم « ٢ » ولا يحضّ على طهارة المسكين « ٣ » فويل للمصلين « ٤ » الذين هم عن صلاتهم ساهون « ٥ » الذين هم يراون « ٦ » ويمنعون للماعون « ٧ » .

ومن سنة الله في القرآن الكريم أن يجمع بين الدّعوة إلى الصلاة ، والدّعوة إلى الزكاة ، ليرينا أن الصلاة من شأنها أن تحمل على الزكاة ما دامت قد أدّيت على وجهها الكامل في صورتها ومعناها ، ولذلك قرن الزكاة بالصلاة في سورة المؤمنين وأرانا الله أن المؤمنين هم الذين يمنعون في صلاتهم وهم الذين يؤدّون زكاة أموالهم .

(٢) (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّهم بها) إرشاد من الله تعالى لحكمة ذلك الركن الذي أضاعه المسلمون ، وهي طهارة نفوسهم من الشحّ ، والبعد بها عن البخل ، وهو داء دفين في الناس ، إذا استحكّم في قوم حلّهم على منكرات وفظائع لا تقف عند حدّ . روى أبو داود والحاكم « إياكم والشحّ ، فاعلموا هلك من قبلكم بالشحّ ، أمهرم بالبخل فبخلوا ، وأمهرم بالقطيعة فقتلوا ، وأمهرم بالفجور ففجروا » . وروى البخاري في تاريخه وأبو داود « شرّ ما في الرجل : شحّ هال « ١ » وجبن خال » .

وأن أمة من الأمم لا تقوم لها قائمة إذا كانت بخيلة على مصالحها ، شحيحة على طرق الخير فيها ، وإلا فكيف تبني فيها المآهد ، وتشيد فيها دور الصناعة ، وترقي فيها وسائل العمران مع الشحّ ، وكيف ينظم حال الناس ، ويؤدّي بعضهم حقوق البعض ، إذا لم يكن لهم نفوس طيبة ، وقلوب ملؤها القناعة والرضا .

ولعلّ من آثار الشحّ في زماننا هذا امتلاء دور الحكومة بقضايا اللوارث ، والنزاع على الحقوق المدنية ، ولا سيما بين الأقارب ، ولعلّ الإحصاء يرينا أن أكثر هذه القضايا بين ذوي الأرحام بعضهم مع بعض .

فكان من حكمة الله أن يمرّن المؤمن على بذل شيء من ماله لمصالح المسلمين ، ليبحث الله بذلك البذل عرق الشحّ من نفسه ، ويصبح رجلاً صالحاً للحياة ، إذا دهم إلى بذل ماله في سبيل الخير أجاب داعي المصلحة ، وإذا اشتبك مع بعض قراباته في تركه خلفها له أبوه أو أحد أقاربه خضع لقسمة الله في اللوارث ، ولم يلجئ أقاربه لمقاضاته ، وتعف عن الدنيا التي يرتكبها بعض الناس ليصل بها إلى حرمان أخته من ميراث أبيه ، كنزوير عقود للبيع ، أو اتحال دين لبعض الناس على أبيه ، وغير ذلك مما تأباه الرودة ، وقد فتّهي المسألة بصرفه على القضاء أكثر مما كانت تأخذه أخته عن طريق اللّراث ، بل قد فتّهي بفقر الطرفين للتقاضيين وحرمانهما من مال أبيهما .

كل ذلك لأن في النفوس شحا مطاعا ، وعدم رضا بقسمة الله في اللواريث .

وكما أن من آثار الزكاة تطهير النفوس من الشح ، من آثارها أنها تستل من نفوس الفقراء والعوزين حقهم على أبواب الأموال وحسدهم للأغنياء ، فإن الاحسان من شأنه أن يملك القلوب ، ويستعد النفوس ، فصيح النفي محبوا لدى الفقير ، والفقير خادما للنفي ، يحرس ماله ، ويدافع عنه ، لأن له نصيبا فيه ، فيه أنه يغو ويزيد ، وأن الناس يقاسون اليوم من شرور الشيوعية الممقوتة مالا يقف عند حد ، وبسبب ذلك أنهم لم يأخذوا بالاشتركية التي فرضها الاسلام بالزكاة ، فكان عاقبة محظهم أن سلط الله عليهم من يقض مضاجعهم ، ويزعجهم في حياتهم ، وتطرف بعض الشعوب فاستولى على رموس الأموال ، وجعلها حقا شائعا للناس ، وأخذ يحارب الاستثمار بالثروة ، ونسى أن ذلك العمل من شأنه أن يمت الروح للعزوى في العامل ، ويقضي على غريزة تنازع البقاء ، والتنافس في الحياة .

وقد فطنوا بعد لشرور ذلك العمل ، وأخذوا ينظمونه ليعالوا به الى ما يزعمون من سعادة ، وهيئات أن يعالوا الى شيء مما أرادوا ، فإن السعادة فيما شرعه الله ، وفي أن يبقى لكل عامل نتيجة عمله ، وتصير الحياة ومرافقها حقا مشاعا ، يتنافس الناس فيها ويتبايرون (نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفقنا بعضهم فوق بعض درجات ليستخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون «٣٣» (١) ) .

(٣) (إنما الصدقات للفقراء) الخ ، بيان من الله تعالى لمصارف الزكاة ، لجعل من مصارف الزكاة الفقراء والمساكين ، كأرباب العاهات الذين قعدت بهم عاهاتهم عن الكسب ، وكالصانع الذين لا يجدون طريقا للعمل ، ولا يستطيعون أن يعيشوا على حساب عمل آخر ، أما الأقوياء على الكسب فلا معنى لاعطائهم من الزكاة .

(والماملين عليها) بيان لنصف آخر ممن تعطى لهم الزكاة ، وهم الجباة لازكاة ، والكتاب والحراس عليها الذين وكل إليهم أمر الزكاة ، وقد أباح الله تعالى لهؤلاء أن يأخذوا من الزكاة مقابل عملهم في بيت مال المسلمين لابتصاف أنهم فقراء أو مساكين .

(والمؤلفة قلوبهم) المراد بهم من يكون إعطاؤهم سببا في قوة المسلمين ، سواء أكان ذلك الاعطاء لقوم ضعيفي الايمان لأنهم حديثو عهد به ، أو لقوم لم يسلموا ولكنهم يتطلعون الى الاسلام ، أو لغير ذلك .

(وفي الرقاب) أي فكها من الرق : أي إن من أغراض الزكاة التعاون على فك الرقاب من الرق ، كإعانة الأرقاء الذين اتفقوا وملاكهم على أن يدفعوا لهم شيئا من المال في نظير عتقهم ، وتسمى هذه مكانة شرعية ، وتسمى الأقطاط التي يدفعها الرقيق لسيده ليعتقه نجوم الكتابة .

ومنه تعلم أن الشريعة ما أباحت الرق إلا للضرورة ، ومع أنها أباحتها فهي تعمل على تضييق دائرته بشتى الوسائل ، ولا أدل على ذلك من أنها أعقدت قسما من بيت مال المسلمين لإعانة

الأرقاء الذين يريدون الخلاص من الرق باتفاقهم هم وسادتهم على أن يذلوا لهم شيئا من المال ، ويكون ذلك بمثابة شرائهم أنفسهم منهم ، وقدبت الشريعة الى الملاك أن يسروا على الأرقاء ، ويسهلوا عليهم مهمة العتق ، بتقليل المال الذى يطلبونه منهم ، وحط شيء منه ، حتى لا يعجزوا عن الأداء (والفارمين) وهم الذين استدانوا لغير معصية ، سواء أكان ذلك الدين لاصلاح بين طائفتين ، أو كان لعمل من الأعمال العامة ، كأن استدان الرجل لانشاء مصنع من المصانع التى تعود على الناس بالخير .

ويقول المفسرون : ان من استدان لاصلاح ذات البين يعطى من الزكاة لأداء دينه ولو كان غنيا ، وقد يدلّ لذلك عدّ الفارمين قسما مستقلا عدا قسم الفقراء والمساكين ، والمراد أنهم يعطون لغرامتهم في عمل شريف ، تشجيعا للناس على عمل الخير ، وأنهم إذا غرموا في ذلك السبيل لا يصحّ أن يتركوا بدون دفع لغرامتهم .

ويدخل في ذلك القسم التجار الذين استدانوا في سبيل تجارتهم ، ثم أصبحوا فقراء فانهم يعطون من الزكاة من ناحية أنهم غارمون في غير معصية ، ومن جهة أنهم فقراء ( وفي سبيل الله ) أى طريقه الذى يحبه ويرضاه كالجهاد ، وطلب العلم ، وترقية الصناعات ، والمعارف ، وغير ذلك من كل ما يرضى الله تعالى ، ويعود على الناس بالخير في دينهم ودنياهم ، لأن الله تعالى لا يريد للناس إلا سعادتهم في الدارين ، كبناء المستشفيات ، والجمعيات الخيرية التى ترقى الناس في أخلاقهم ودينهم ، وتحفظ عليهم عزم وكرامتهم ، كل ذلك سبيل الله الذى يرضيه ويحبه . (وابن السبيل ) أى للسافر يعطى من مال الزكاة ليستعين به على سفره ، وان كان له مال في بلدة المستوطن له ، فيعطى لسفره ، ومنه تعلم كيف أن الدين يحث الناس على الأسفار باعداده جزءا من الزكاة للأسافرين .

وقد عرف الغربيون قيمة الأسفار ، ومقدار تأثيرها عليهم في علومهم ومعارفهم ، وصناعاتهم فعنوا بها عناية عظيمة ، وقد حث القرآن الكريم على السير في الأرض .

( أفلم يسروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها «٤٦» ) (١) وقد أصبح من الأوليات ارتباط العالم بعضه ببعض في المصالح والمرافق ، حتى صار كالأسرة الواحدة ، ولا سيما بعد تسهيل أمم الوصلات والمخبرات ، فالأمة التى تحمد على الإقامة في بلدها ، ولا تتصل بغيرها من الشعوب لتستفيد من معارفها وعلومها - لا يمكن أن تعيش ، أو تأخذ منزلتها في الحياة ، والفضل الأول في الحث على الأسفار وصلة العالم ببعضه ببعض إنما هو للشريعة التى تكافئ السافر وتنفق عليه مادام مسافرا ، وتجعل له نصيبا من بيت مال المسلمين - ومن العلماء من يفسر ابن السبيل بالاقيط لأنه لا يعرف له أب ، والآية تحتل القسمين جميعا ، وتشملهما معا .

## الصيام

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لِمَلِكُمْ<sup>(١)</sup> تَتَّقُونَ «١٨٣» أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَمِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ<sup>(٢)</sup> فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ «١٨٤» شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ<sup>(٣)</sup> مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْكُم وَلِمَلِكُمْ تَشْكُرُونَ «١٨٥» وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ «١٨٦» أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ<sup>(٤)</sup> إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَاسٌ لَّكُمْ<sup>(٥)</sup> وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ لَهُنَّ عَلَّمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ<sup>(٦)</sup> فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ<sup>(٧)</sup> وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عُكُفُونَ<sup>(٨)</sup>

[١] لعلكم : لعلكم تتقون . [٢] يطيقونه : يؤدونه بحقة . [٣] بينات من الهدى : آيات

واضحات من الهدى . الفرقان : الفرق بين الحق والباطل . [٤] شهت : حضر .

[٥] الرفث : كلمة جامعة لكل ما يريد به الرجل من الرأفة . [٦] هن لباس لكم الخ : لباس مصدر

لابسه بمعنى خالعه ، وعرف دخاله . [٧] تختانون أنفسكم : تنقصونها بعض ما أحل لها ، أو تخفونها

بالعمل على خلاف ما تمقدون . [٨] ما كتب الله لكم من الفسل . [٩] حق يتبين لكم الخ : أى

يظهر الفجر الصادق ، وهو ضوء النهار . [١٠] ما كفون : مقيمون .

فِي السَّاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ البقرة

## شرح وتعليق

(١) فرض الله علينا الصوم في السنة الثانية من الهجرة ، وهي السنة التي فرض علينا فيها الزكاة ، وأرانا الله تعالى أنه كتب علينا كما كتبه على من سبقنا من الأمم إبرشدا :  
[ أوْلا ] إلى أن ذلك الركن من أركان الدين لاغنى عنه في تهذيب النفس وإصلاح الخلق ، ومن أجل ذلك شرعه لمن قبلنا كما شرعه لنا ، فنحرص عليه لأنه علاج ضرورى ، وإصلاح لاغنى عنه .

[ وثانيا ] أنه أسلوب من ألباب إيناس النفوس وترغيبها في قبول التكليف ، ولم يبين لنا القرآن الكريم أن الله فرض علينا الصوم كما فرضه على من قبلنا في كينته وكيفيته ، بل سكت عن ذلك ، واكتفى ببيان أنه فرضه علينا وعلى من سبقنا ، وقد يكون الصومان متذقين ، وقد يكونان مختلفين حسب ما تقتضى به الحكمة ، واختلاف الزمن .

(لعلكم تتقون) بيان لحكمة الصوم وسره ، وأن هذه الحكمة ليس من شأنها أن تعود إلى المشرع ، وإنما حكمة العبادات إصلاح حال المكلف ، وإعداد له للحياة الحقة ، كما قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحبيكم ﴿٢٥﴾ ) (١)

فالمنعنى أنه فرض علينا الصوم ليعدنا بذلك لتقوى الله ، والبعد عن محارمه ، والرغبة في طاعاته ، وبذلك يسعد المكلف ، ويقوم بنصيبه في الحياة ، ويعمل لسعادة الدارين .

أما الإعداد لترك ما نهى الله عنه فلا أن الصوم حبس النفس عن الطعام والشراب الذى أحله الله تعالى في غير ذلك الوقت الذى فرض فيه الصوم ، وحبسها كذلك عن مباشرة الفساد اللائى كن حلالا في غير نهار رمضان ، والذى يملك نفسه ويصبر عن طعامه وشرابه ، وعن إصرائه في الوقت الذى حددته الله له طائعا مختارا - جدير به أن يترك ما نهى الله عنه مما يفسد فطرته ، أو يضر ماله وصحته ، ويبعد أن يعف الرجل عن امرأته وهى حلال له ، لأن الله أمره أن يعف عنها في نهار رمضان ، ثم يتطلع إلى امرأة غيره ، وكذلك يبعد أن يعف الإنسان عن طعامه الذى هو حلال له لأن الله طالبه بذلك ، ثم يأكل مال غيره بالباطل ، كأكله من طريق الرشوة ، أو من طريق الربا أو السرقة ، أو غير ذلك .

وأما إعداد الصوم النفوس للطاعات فلا أنه سر بين العبد وربه ، لا يطلع عليه غير الله تعالى وهو من هذه الناحية يكسبه ملكة للراقة لله تعالى والخوف منه ، فتقوى فيه داعية الخير ، وتضعف منه داعية الشر ، يذكره بحاجة الفقير والمساكين ، وأن هناك أناسا يجوعون رغم أن غير

مختارين ، يجوعون لأنهم لا يجدون ما يستحق حاجتهم ، وحين ذاك يفكر في أن يواسيهم بشيء من ماله ، فهو مذكر بالزكاة والصدقة ، كما يذكر الإنسان بضعفه أمام دواعي الفطرة لللمعة ، سواء أ كان ذلك الضعف من جهة حاجته الى الطعام والشراب ، أم من جهة حاجة الى المرأة ، وهناك يتذكر أن العبد ضعيف أمام هذه الدواعي ، وأن الله تعالى غنى عن الطعام والشراب ، وغنى عن الصلابة .

وهناك حكمة كبرى من حكم الصوم ، هي تقوية الإرادة في السلم ، وشحذ العزيمة . حتى يكون الرجل رجلا كاملا لا تستهويه الشهوات ، ولا تستولى عليه الكيوف ، وأن الناس يتفاوتون في قوة الإرادة تفاوتا كبيرا ، وقد تضعف إرادة الرجل حتى تذهب بكل فضيلة فيه ، فيصبح أسير الشهوات والهوى ، لا يخلص من شهوة إلا وقد استولت عليه شهوة أخرى ، ومصيبة المسلمين بضعف الإرادة : هي مصيبة كبرى ، فإذا تصورت قاضيا ضعف الإرادة ، مكبلا بالشهوات سواء أ كانت شهوات نسائية ، أو شهوات خربية ، أو شهوات مالية — إذا تصورت قاضيا على ذلك الحال — وما أ كثرهم — فهل تستطيع أن تأمن ذلك القاضي على دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم ؟ وهل تطمئن الى العدالة في أيدي أولئك الضعفاء ؟

وهل يستطيع زعيم من الزعماء أن يقف من خصوم البلاد موقفا مشرفا إذا لم يتحصن بقوة الإرادة ، ويسلح بشدة العزم والحزم ؟ وهل إذا كان مريضاً بالحكم وحب السطة مثلا يستطيع أن يصل بأمره الى حيث تحب ؟

نعم لا يستطيع ضعف الإرادة أن يقوم بعمله في الحياة كاملا غير منقوص ، وإنما الذي يستطيع ذلك سواء أ كان رئيسا أم مرءوسا ، حاكما أم محكوما ، هو ذلكم الرجل الذي قوى عزمه وصلبت إرادته ، من أجل ذلك كله قضت حكمة الله أن يفرض على الناس في كل سنة أن يصوموا شهرا ، يمتنون فيه أنفسهم على الصبر ، ويعودونها الحزم والعزم ، حتى يصبروا عن شهواتهم ، ويصبروا على مصائبهم التي تنابهم في الحياة ، ويصبروا على طاعاتهم التي كلفهم الله بها ، ويصبروا على أعمالهم التي لا غنى لهم عنها ، وبالجملة يصبرون على كل عمل نافع مفيد ، ويصبرون على ترك كل خلق ذميم أو عمل ضار . وذلك جامع التقوى التي أجلها القرآن الكريم في قوله (لعلكم تتقون) .

(٢) . (أياما ممدودات) أي قلائل ، وهو ترغيب في الصوم من طريق تقليل زمنه (فن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر) بيان للأسباب التي تبرح للكلف أن يفطر [أولها] المرض ، وقد أطلقه القرآن الكريم ولم يقيد بالمرض الشديد الذي يسرمعه الصوم ، وقد روى هذا عن عطاء ، وابن سيرين ، وعليه البخاري ، والجمهور من العلماء قيدوه بالمرض الذي يسرمعه الصوم ، واستدلوا لذلك بقول الله تعالى ( يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ) وهو دليل لأصل رخصة الافطار ، وكلما أن لا يكون فيها تضيق ، والمؤمن يحاط لنفسه مادام حريصا على أداء ذلك الركن ابتغاء مرضاة الله تعالى ، ومادام مرضه لا يسقط عنه صومه

الى النهاية ، بل يجب عليه القضاء ، وربّ قضاء هو أشقّ على صاحبه من الأداء ، فإدام الصوم ميسورا له مع مرضه ، ولم يغلب على ظنه أن صومه يضاعف مرضه أو يطيل زمنه فلا يحوط أن يصوم .

[ثانيها] السفر وهو يشمل الطويل والقصير ، وقد جاء في السنة ما يؤيد ذلك الإطلاق . روى أحمد ومسلم وأبو داود عن أنس أنه قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خرج مسيرة ثلاثة أميال أو ثلاثة فراسخ صلى ركعتين » . ويرجح كون الرواية ثلاثة أميال حديث أبي سعيد عند سعيد بن منصور قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر فرسخا يقصر الصلاة » والفرسخ ثلاثة أميال ، بل روى ابن أبي شيبة بإسناد صحيح عن ابن عمر أنه كان يقصر الصلاة في الليل الواحد ، ولا خلاف بين المسلمين في أن السفر الذي يباح فيه قصر الصلاة يباح فيه الفطر . والمعنى أن المسافر من حقه أن يفطر ، وكانت الصحابة تسافر في الجهاد والغزو فيفطر البعض ، ويصوم البعض ، ولا يجب المفطر على الصائم ، ولا الصائم على المفطر ، وقد يرجح الإفطار إذا كان في الصوم مشقة وكان الفطر أقوى للمسافر وأعون له على أداء مهمته .

(وعلى الذين يطيقونه فدية) بيان اعذر آخر من أعذار الصوم ، وهو أدائه بمشقة وصعوبة يقال أطاق الشيء : إذا كانت قدرته عليه في غاية الضعف بحيث يتحمل به مشقة شديدة ، ولذلك لا يقال لغة : أطقت جل العسا . بل يقال : أطقت جل الصخرة ، وهو يشمل الشيوخ الضعفاء ، والحوامل والراضع يخفف على الأجنة والأطفال ، ويشمل للمرضى بالمعدة مرضا لا يمكنهم من مصابة الجوع .

وقد سألني يسور يارجل عمل عملية جراحية بالمعدة فصبرت حتى لاتسع من الطعام إلامقدارا صغيرا ، ولا يستطيع أن يصبر عن الطعام طول النهار ، فقلت له : عليك الفدية ، وذكرت له الآية ، وقلت له ان الدين لم يزل لاعنات الناس ، وإنما نزل لحياتهم ، ففرح وسرّ بذلك القول ودعا على بخير ، كما تشمل الآية الفعلة الذين جعل الله معاشهم الدائم بالأشغال الشاقة ، كالاستخراج الفحم الحجري من مناجه ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، فهو يشمل أيضا سائقي قطارات السكك الحديدية الذين يقفون نهارهم أمام النار . ويشقّ عليهم الصبر عن الماء في اليوم الشديد الحرّ ، والرائين الذين لا يستطيعون الصوم في أيام الصيف في البلاد الحارة . وتكليفهم ترك أعمالهم لا يتفق ويسر الدين في شيء ، لأن المفروض في التشريع أن يكون صالحا لجميع الطبقات وفيهم العمال وأصحاب الأعمال الشاقة ، فمن رحمة الله بهم أن يقبل منهم الفداء ، وهو إطعام مسكين عن كل يوم ، ومن أخذ منهم نفسه بالشفقة ، وألزمها الصوم ، وتحمل في ذلك المشاق فهو أمير نفسه ، فان الله لم يفرض عليه الفطر ، وإنما أباح له ، وهو صاحب الشأن فيه ، والله - الله عن دينه وصومه وعذره ، وهو أعلم به ان كان همه التخلص من التكليف ، أو همه إرضاء ربه ، والحفاظة على حياته ومصالحته .

(٣) (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) الخ .

يرينا الله أن الأيام للمعدودات هي شهر رمضان ، وقد اختاره الله لذلك لأنه أنزل فيه القرآن

أى كان بدء نزوله فيه ، وهو نعمة عظمى على الناس ، لأنه هدى للناس ، وآيات وانجحات من الهدى ، وكل كتب الله هدى ، وكذلك هو آيات في الفرق بين الحق والباطل .

( فمن شهد منكم الشهر فليصمه ) : يرشدنا الله تعالى بذلك الأسلوب الى أن من الناس من يشهد الشهر كأصحاب المناطق المعتدلة والمنطقة الاستوائية ، فأولئك فرضهم أن يصوموا الشهر ، ومن الناس من لا يشهد الشهر كأصحاب المناطق القطبية ، فإن نهارهم نصف سنة وليلهم كذلك ، فهؤلاء لم يشهدوا الشهر ، ولذلك يرى العلماء أنهم يقدرّون مدة توازى الشهر ويصومونها اجتهادا ويقول الأستاذ الامام : ان هذه الآية من دلائل كون القرآن من عند الله لامن وضع محمد صلى الله عليه وسلم الذى نشأ بجزيرة العرب ، وإلا فمن الذى أعلمه أن من البلاد من لا يشهد الصوم ولتلك قيد الحكم عن شهد الشهر .

( ومن كان منكم مريضا ) الخ ، أعاد الرخصة اهتماما بشأنها ، وإيدانا بأن الله تعالى يحب أن يتعبد برخصه كما يحب أن يتعبد بزمائه ، ولأن من شأن الناس أن تزهد في الرخصة وتحرص على العزائم ، فאלله تعالى يكررها كأنه يحث على العمل بها ويرغب فيها .

ثم عقب ذلك بقوله ( يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ) ليؤكد ذلك الطلب ( ولا تكملوا العدة ) عطف على قوله ( يريد الله بكم اليسر ) أى ويريد أن تكملوا العدة فمن لم يكملها أداء لعذرا أكملها قضاء ( ولتذكروا الله على ما هداكم ) لآيه من الأحكام النافذة لكم بأن تذكروا عظمته وجلاله ( ولعلكم تشكرون ) له هذه النعم بالقيام بها على وجهها فتكونوا من الكاملين .

( ٤ ) ( أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم ) إرشاد من الله تعالى لحقيقة الصوم في الاسلام ، وأنه يجوز الافضاء الى النساء في أى ليلة من ليالى رمضان ، لأن ( ليلة ) مفرد مضاف فيعم ، وقوله ( هو لباس لكم وأنتم لباس لهن ) بيان للسبب في إباحة الافضاء الى النساء في الليل أى إذا كان بينكم وبينهن هذه اللابسة والمخالطة فإن اجتنابهن عسر عليكم ، فلهذا رخص لكم في مباشرتهن .

( علم الله أنكم كنتم تخفون أنفسكم ) أى تنقصونها بعض ما أحل الله لها من اللذات نوها منكم أن من قبلكم كان كذلك ( فتأب عليكم ) بيان هذه الرخصة ( وعفا عنكم ) حيث أخطأتم في اجتهادكم الذى أدى الى التضيق على النفس وإيقاعها في الجرم .

ويحتمل علم الله أنكم كنتم تخفون أنفسكم إذ تعتقدون شيئا ثم لاتتزمون العمل به ، فهو مبالغة من الخيانة التى هي مخالفة مقتضى الأمانة ، وقوله ( فتأب عليكم ) الخ : أى قبل توبتكم وعفا عن خيانتكم أنفسكم ، وأذن لكم الآن إذا صريحا بأن تباشروا النساء بالنية الصالحة طالبن ما كتبه الله لكم من النسل ، لا مجرد الشهوة .

( وكلوا واشربوا ) الخ ، بيان لغاية الوقت الحلال ، وأنه ينتهى بظهور البجر الصادق ، والآية مثل ، وليست حقيقة .

وقد غفل عن ذلك بعض الصحابة فهم أنها حقيقة ، فأثنى بقالتين : أبيض وأسود ، وجهلها تحت رسادته ، وكان يقوم بأميل وينظر إليهما فلا يقين له الأبيض من الأسود ، فلما أصبح غدا



الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره فضحك ، وقال : إنك لمريض القفا ، إنما ذاك بياض النهار ، وسواد الليل . فأنه تعالى يبيح للانسان أن يأكل الى طلوع الفجر ، أما تركه للأكل والشرب قبل الفجر بنحو ثلث ساعة ، فهو احتياط من صنع الناس .

( ثم أتموا الصيام إلى الليل ) بيان للمدة التي يحسبك فيها الصائم ، فالآية ترينا أن اتيان النساء والأكل والشرب مباحة للمسلم من غروب الشمس الى طلوع الفجر ، وهذه هي العطرات التي نص عليها القرآن الكريم .

( تلك حدود الله فلا تقربوها ) الاشارة الى الأحكام التي تقدمت ، وسميت حدودا لأنها حددت الأعمال وبينت أطرافها وغايتها ، وقوله ( فلا تقربوها ) أبلغ في التحذير من قوله في آية أخرى ( فلا تعبدوها ) لأنه يرشد الى الاحتياط ، فمن قرب من الحقة أوشك أن يعتدي به ، كالشباب يداعب امرأته في النهار لا يثيق بالوقوف عند حد المباح له ، وقيل لا تقربوها بالتأويل ، ولا بالمهوى والرأى ، بل اقبلوها كما هي ( كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون ) على ذلك النحو من البيان يبين الله لهم آياته ليعدهم للتقوى .

## الحج

وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌ عَنِ الْعَالَمِينَ «٩٧» آل عمران

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا<sup>(١)</sup> لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقُلُودَ ذَلِكَ لِيَتَذَكَّرُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ «٩٧» المائدة

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ<sup>(٢)</sup> يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ «٢٧» لِيَشْهَدُوا مَنَاجِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا أَنَّمَا اللَّهُ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ عَلَى

[١] يقوم به أسر الناس في دينهم وديارهم . الهدى : ما يهده المهرم من الابل ، أو البقر ، أو الغنم انقراء المهرم . القلاد جمع قلادة : ما يجعل في عنق الهدى حتى لا يضره له أحد .  
[٢] ضامر : حفيف اللحم من الضل لان المزال . فج عميق : طريق بعيد .

مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْمَةٍ الْأَنْعَمِ <sup>(١)</sup> فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ «٢٨» ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ <sup>(٢)</sup> وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَوفُوا بِالْبَيْتِ الْمَشْرِقِيِّ «٢٩» الْحَجَّ

## شرح وتعليق

(١) فرض الله الحج في السنة التاسعة من الهجرة وقد خرج عليه السلام للعمرة في السنة السادسة فصَدَّقَهُ قُرَيْشٌ عَنْ الْبَيْتِ ، وقضى تلك العمرة في السنة السابعة ، وفي السنة التاسعة حج بالناس أبو بكر رضى الله عنه ، وفي العاشرة خرج النبي صلى الله عليه وسلم ، وحج بمجدهور المسلمين حجة الوداع ، وفيها بين للناس كيفية الحج ، وقال لهم «خذوا عني مناسككم» .

وقد أَرَانَا الله بقوله (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً) أنه أوجب على مستطيع الحج أن يحج إلى بيت الله لأداء هذه الفريضة ، ولم يبين الله لنا حد الاستطاعة ، لأن كل أحد يعلم من نفسه أن كان يستطيع الحج أولاً يستطيع ، وإن كان عامياً ، لأنها عبارة عن القدرة على الوصول إلى بيت الله ، وهي تختلف باختلاف الناس في أنفسهم ، وفي بعدهم عن البيت وقرى بهم منه .

واننا نرى جواهر المسلمين يذهبون إلى الحج في كل عام بدون أن يستفتي واحد منهم العلماء عن نفسه أهو مستطيع أم غير مستطيع ؟ فدل ذلك على أن الاستطاعة أمر موكول للشخص وهو أدري بنفسه - وإن كان عامياً - من غيره وإن كان عالماً نحريراً .

وقد استغبط بعض العلماء من الآية أن حج البيت من فروض الكفايات التي يجب أن يقوم بها طائفة من المسلمين في كل عام ، وإذا عطلوا هذه الشعيرة أتموا جيمهم ، والدليل على ذلك أنه وجه الوجوب في الآية إلى الناس عامة ، فتكون الآية دالة على وجوب الحج وجوباً كفاً على عامة المسلمين ، على معنى أنه يجب على عامة المسلمين أن يقوم فريق منهم ، وهو المستطيع - بأداء ذلك الركن ، وتدل فوق ذلك على وجوبه وجوباً عينياً على كل مسلم مستطيع ، وإذا تركه أثم ، وذلك الاستنباط لا يتم إلا حيث اعتبرنا (من استطاع) فاعل لقوله (حج) أما إذا قلنا إن (من استطاع) بدل من الناس وبيان له فلا تدل الآية على أن الحج فرض كفاً على عامة الناس .

بل يكون معناها : ولله على الناس الذين استطاعوا الوصول إلى بيت الله أن يقصدوا إلى ذلك البيت لأداء النك ، فتكون الآية بيانا لمن يجب عليهم الحج وجوباً عينياً - أما وجوب أحياء هذه الشعيرة كبقية شعائر الدين فهو مأخوذ من أدلة أخرى .

(ومن كفر فإن الله غني عن العالمين) أي من لم يذعن لوجوب ذلك الركن وما فرض الله

[١] بيمية الأنعام : الإبل والبقر والغنم . [٢] يوفوا أوصافهم . التقي : للكرم ، عطف الله أن نسوة الميابة .

من حج ذلك البيت فإنه لا يضر بذلك الجحود إلا نفسه ، فإن الله غنى عن العالمين ، لا يستفيد من عبادتهم ، ولا يتألم لعصيانهم ، ومنهم من حل الكفر هنا على ترك الحج ، وأيد رأيه بأحاديث منها مارواه ابن عدى عن أبي هريرة مرفوعاً « من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا أو نصرانيا » وهو بعيد ، والحديث لم يصح ، وكذلك ما روى بمعناه .

(٢) (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس) الخ : أى صير الله الكعبة التى هى البيت الحرام أمرا يقوم به أمر الناس ويتحقق ، أو يستقيم ويصلح بإبداع تعظيمها فى القلوب ، وجذب الأفئدة إليها ، وصرف الناس عن الاعتداء فيها وعلى مجاوريها وحجاجها ، وتسخيرهم لجلب الأرزاق إليها .

وبدل لذلك قول الله تعالى ( ربنا انى أسكنت من ذرى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون «٢٧» ) (١) .

وفى معناه قول الله تعالى ( وقالوا ان تتبع الهدى معك تتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شئ رزقا من لنا ولكن أكثرهم لا يعلمون «٥٧» ) (٢) وكذلك الشهر الحرام ، وهو ذو الحجة الذى تؤدى فيه مناسك الحج ، أو المراد به جنس الأشهر الحرم التى كانوا يتركون فيها القتال ، جعل حرمتها قياما للناس ومصلحة لهم - وجعل الهدى الذى يساق الى الحرم ، والقلائد التى يسمون بها الهدى حتى لا يعتدى أحد عليه هى مصلحة للناس فى الجاهلية والاسلام ، أو القلائد التى كانوا يقلدون بها أنفسهم وهم راجعون من الحج ليأمنوا على أنفسهم فى عهد الجاهلية هى أيضا مصلحة لهم ، وكان الناس إذا رأوا هديا عليه القلائد لا يقربونه ولو كانوا فى شدة الجوع ، كل ذلك يعمل إعظاما لبيت الله وما يتصل به ، ذلك هو الجبل التكويني الذى هو من خلق الله وتصديره .

ولك أن تقول (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس) أى بما شرعه من القصد إليها ، وتعب الناس باجلالها وتعظيمها ، وجعل حج ذلك البيت أصلا من أصول الدين ، وشعيرة من شعائره ، فجعلها بذلك التشريع قياما للناس يقوم بها أمر دينهم ودنياهم ، لأنها عبادة بدنية ، مالية ، روحية ، اجتماعية ، يجتمع فيها المسلمون على اختلاف ألوانهم ، وتباعد مساكنهم ، ليكون ذلك الجمع مؤتمرا عاما لهم ، يفكرون فيه فيما يصلحهم ، ويتشاورون فيما يحيط بهم ، وطرق الخلاص من أمراضهم .

وقد فطن لذلك أعداء الاسلام من زمن بعيد ، فأخذوا يضعون العقبات فى سبيل حجهم ، ويضيقون الخناق عليهم فى ذهابهم وإيابهم ، ولكن المسلمين غافلون عن كل ذلك ، خل بهم ماحل ، وحق بهم ماحق .

غير أن الذى يذهب إلى بيت الله ويختلط بأخوانه المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها ، يعلم أن هناك عقبة كشودا تحول دون اتفاع المسلمين بحكمة الحج ، وهى تفارقهم فى اللغة ،

وتباينهم في وسائل التفاهم ، فتجد الهندود تسود فيهم اللغة الأوروية ، وفريق منهم يحسن اللغة الانجليزية ، وتجد المغاربة والسوريين يحسنون اللغة الفرنسية ، وتجد المصريين جاهلهم يحسن اللغة العربية ، وتجد الأتراك يعرفون اللغة التركية ، وهكذا . . .

ولو أن المسلمين فطنوا لذلك الاشكال الذى يعترضهم ، وفكروا في طريق الخلاص منه لجعلوا لهم لغة رسمية قومية ، تجمع بين أشتاتهم ، وتوحد طريق التفاهم بينهم ، وهى لغة القرآن والدين وهى التى بها يفهم القرآن ، وفهم السنة على الوجه الصحيح ، وبها نزل التفسير السجوى .  
لو أنهم عملوا على ذلك ، واهتموا بدراسة اللغة العربية في جميع بلادهم ، لأفادوا من هذه الدراسة فائدتين :

[ إحداها ] : انتفاعهم بحكمة الحجج ، واتصال بعضهم ببعض لاتفاهم في اللهجات واللغة بدون حاجة إلى مترجمين .

[ ثابتهما ] : انتفاعهم بهذه اللغة وخصائصها في فهم الدين من ينبوعه الصحيح ، والوقوف عليه من مصادره الأولى ، بدل أن يأخذوه عن تراجم كثيرا ما تنوء جملته ، ولا تفي بأغراضه ومقاصده .

نعم ان الذى يذهب إلى الحجج يفهم مقدار ذلك الاشكال الذى سببه اختلاف الناس في لغاتهم وصعوبة وقوف كل شعب من الشعوب على أغراض الشعوب الأخرى ، والله ولى التوفيق .  
وكما يستفيد المسلمون من اتصال بعضهم ببعض في نفوسهم وأخلاقهم كذلك يستفيدون من جهة اقتصادهم ومتاجرم ، وكذلك يستفيد المؤمنون من ذلك المؤتمر الذى يجتمع إليه الناس طامعين في كل علم قوة إيمانهم ، وارتباط غنيمتهم بفقيرهم ، وشرقيهم بغربيهم ، وشمالهم بجنوبيهم حتى يشعر المؤمن بأن كل أولئك المؤمنين هم إخوان له في السراء والضراء ، وأعوان له على الشدائد التى تقابه ، وبذلك يقوى عنده الأمل في الإصلاح ، والرغبة في العمل الجدى النافع الذى يعود على المسلمين باخير في الدين والدنيا .

ولم يكن ذلك الاجتماع الذى دعا إليه الدين أول اجتماع إسلامي ، فان الدين يدعو إلى الجماعة في كل صلاة ، والجماعة في كل جمعة ، ويدعو إلى الجماعة في كل سنة في العيدين ، كل ذلك لينسج في المسلمين عاطفة الاجتماع ، ويقوى فيهم غريزة حب الصالح العام ، وكثيرا ما تكون ضعيفة في السلم ، فمن الصلحة أن تنهى .

من الصلحة أن يجتمع الناس على هذه الشجرة شجرة الحج الأكبر لابسين لباسا واحدا في إحرامهم ، طامعين حول بيت واحد ، مصلين خلف إمام واحد ، ساعين بين الصفا والروة في مكان واحد ، واقفين للتعارف على مكان واحد ، يمدون إلما واحدا على ملة أبيهم ابراهيم عليه السلام كل ذلك مما ينحى في المؤمن شعوره بروحدة المسلمين في أغراضهم ومقاصدهم ، ويفرس فيهم ملكة الشعور بهذه الوحدة ، وأنهم ينبغي أن يكونوا سواسية في مصافق الحياة ، لأفضل لأحد على الآخر إلا بالقوى ، ولا ميزة لمرئهم على أجمعهم ، ولا لنفهم على فقيرهم ، حتى ان الرجل الذى كبل

بالاتيزات في حكومته ليشعر وهو يحجّ إلى بيت الله الحرام أنها قيد قليل على نفسه وعلى أمته يجب الخلاص منها .

هذه حكمة الحجّ العاتية ، وعلى السلم أن ينظر إليه من هذه الناحية ، ويعرف أن الله تعالى قد اختار هذه الأماكن المقدسة لأداء ذلك النسك ، وجعل ذلك النسك على أسلوبه الخاصّ القدي شرعه ، لأنه يرى فيها من الخصائص ما لا يوجد في غيرها ، وإذا جهل الناس الحكمة الخاصة بهذه النسك وكيفيتها فلا يمنعهم ذلك من اقتناعهم بالحجّ ، لأنهم يعرفون حكمته العاتية . ومثل الرجل القدي ينكر الحجّ لأنه لم يعرف الحكمة في أن الله جعل عرفة بخصوصه مكانا لاجتماع الناس فيه ، ولم يعرف لماذا كان الطواف بيت الله سبعا ولم يكن ثلاثا ، أو أربعاً ، ولا الحكمة في أن السعي بين الصفا والمروة بذلك الأسلوب القدي نعرف .

مثل ذلك الرجل مثل مريض وثق بطبيب فقدم له نفسه ليفحص مرضه ، ويصف له الدواء وبعد أن فرغ من الفحص وكتب له الدواء قال له : لا أتعاطي دواءك إلا إذا علمت كيف تتركب ذلك الدواء ، ومقدار نسب التركيب ، ولماذا أخذت من العقاقير بهذه النسب ، ولماذا لم تكن النسب على نحو آخر ، فهل يشكّ أحد في أن ذلك المريض رجل أحمق ؟ .

فكذلك المؤمن القدي رضى الله ربا ، واقتنع بأنه حكيم في تشريعه ، وفوّض له أمر دينه ودينه ، وفهم الحكمة العاتية في الحجّ ، لا يضرّه أن يجهل الحكمة الخاصة بالتفاصيل ، لأنه لا بدّ من التعبد في صور العبادات ، وأشكالها وكيفيتها وكميتها ، ويمكن أن تكون معقولة في جلّتها ، ألا ترى الصلاة ، فرضها الله لأنها تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، ولكن لماذا كانت خسا في كلّ يوم وليلة ؟ ولماذا كان الصبح ركعتين والظهر أربعاً ؟ ولماذا كانت الركعة الواحدة فيها ركوع وسجودان دون العكس ؟ كلّ ذلك تعبدى لا يضرّ المؤمن أن يجهله ، وإذا فهم حكمته فذلك فضل من الله تعالى ، وكذلك فرض الله الصوم ليعتدنا به للتقوى ، ولكنه جعله شهرا في كلّ سنة لماذا ؟ أليس ذلك متروكا إلى الله تعالى ؟

فكذلك الحجّ عرفنا الله حكمته العاتية في الآية المذكورة ، وكذلك عرفنا في قوله (ليشهدوا منافع لهم) وسكت عن حكمة التفاصيل ، لأن ذلك متروك لله تعالى تأخذه منه ، كما يأخذ للمريض دواءه من الطبيب ، لأنه وثق به ، ورضيه طبيا له ، وهو أدري بتكوين الدواء ، ونسب الأجزاء بعضها إلى بعض ، وكذلك الإله - وله المثل الأعلى - عرفنا الحكمة العاتية من التكليف ، وترك الحكمة الخاصة لأن علمها عنده وهو المحيط بها .

## أصول المعاملات

لم يقف الإصلاح المحمدي عند دعوة الناس إلى العبادات التي تصلح نفوسهم كالصلاة والصوم أو اجتماعهم كلزكاة والحجّ ، بل تناول الإصلاح في المعاملات ، ووضع نظاما صالحا لها يحول بين الناس وبين الفساد .

## حل البيع وحرمة الربا

(١) ألا ترى القرآن الكريم يحل للناس البيع ، ويحرم عليهم الربا ، لأنه لاغنى لهم من البيع ، والربا لا يتفق ورحمة الانسان بأخيه الانسان ، وهو استغلال لحاجة الفقير .

وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴿٢٧٥﴾ البقرة

ثم يقول :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطْلِ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٧٩﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ النساء

ويقول : وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطْلِ وَتُدْخُلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ البقرة

ليرينا أن أكل أموال الناس بدون مقابل قد حرّمه الله إلا حيث كان ذلك المال كسبا في تجارة ، وكانت التجارة عن تراض من المتبايعين فانه يصير حلالا ، ويرينا الله تعالى بقوله (ولا تقتلوا أنفسكم) أن أكل مال الناس بالباطل من ذرائع القتل ووسائله الموصلة إليه ، والذي يرجع إلى بلاد الريف ويعرف آثار أكل المال بالباطل لا يشك في أن ذلك العمل قتل للنفس . فترى الرجل يشع ببيرات أبيه على أخته ، ويحتهد في حرمانها من ذلك الميراث ليأكل مالها بالباطل ، فيبرز له زوجها وأولادها ، ولا يزالون به حتى يقتلوه ، إن لم يكن قتلًا حسيًا فقتلًا أدبيًا يقتل بفقر الطرفين وسوء الحال بينهما .

فله ما أحكم هذه الآية ، وما أبعد مداها ، دع ما ندلّ عليه الآية من أمور ظاهرة ، كأخذ مال الغير من طريق الغصب أو السرقة أو التزوير ، فان هذه الحوادث من شأنها أن تجرّ إلى القتل ، فان السارق إذا اضطرّ إلى اللطاع عن نفسه يسقيح في ذلك السبيل القتل . وكذلك صاحب المال يسقيح أن يقتل السارق في سبيل حفظه لماله ، وتأمل قول الله تعالى (ولا تقتلوا أنفسكم) ولم يقل : ولا يقتل بعضهم بعضا ، ليرينا أن الرجل الذي يقتل أخاه للسلم هو قاتل لنفسه .

وكذلك الرجل الذي يأكل مال غيره بالباطل هو مضيع لماله بذلك العمل ، فالآية ترشدنا إلى وحدة الأمة وتكافلها ، في الخير والنشر ، وأن الاعتداء على الغير اعتداء على النفس ، وما أحسن قول الله تعالى بعد ذلك (إن الله كان بكم رحيمًا) .

ومن رحته بنا أن وضع لنا ذلك التشريع العادل ، ثم توعدنا إذا نحن لم نسمع لذلك النصيح بقوله (ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه ناراً وكان ذلك على الله يسيراً) لبرينا أن من الناس من يأكل مال غيره وهو يعتقد خطأ أنه ماله ، ورجل ذلك حاله ليس له هذا الوعيد .

## تحريم الرشوة

ثم تراه في آية البقرة ينهانا عن الرشوة ، وأن نتقدم بمالنا إلى الحكام لنستعين بذلك المال على أكل فريق من أموال الناس بالإثم ، لأن ذلك مفسد لأداة الحكم ، ومتى فسدت أداة الحكم كانت الطائفة الكبرى ، والأمة لاتزال بخير مادام قضائوها تزيها ، وحكامها لا يخضعون للوزرات ، وأن الأمة التي تقسو فيها الرشوة هي أمة قد تودع منها .

## كتابة الدين

(٢) ثم أرشدنا القرآن إلى العناية بالدين ، وأنه ينبغي أن يكتب ، وأن الكاتب ينبغي أن يكون عدلاً ، حتى لا يكون موضعاً للتجريح عند التقاضي ، وينبغي لذلك الكاتب العدل أن يكتب على النحو الذي علمه الله ، وأن الدين هو الذي على الكاتب ، وليتق الله في ذلك الاملاء ، فلا ينقص شيئاً من دينه ، وأن الدين إذا كان سفياً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن على فليمل عليه بالعدل والانصاف ، وينبغي أن تستشهدوا على ذلك الدين شهيدين من رجالكم ، فإن لم يوجد رجلان فليشهد رجل وامرأتان ، مخافة أن تفصل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ، وأنه ينبغي للشاهد أن لا يكتف شهدته إذا دعي إليها ، ولا ينبغي احتقار الدين وترك كتابته لصغره .  
ثم بين حكمة ذلك كله بأن ذلك العمل أقسط عند الله ، وأقوم للشهادة ، وأدنى أن لا توجد ريبة بين المتعاملين ، ثم اسقنى من ذلك التجارة الحاضرة ، فلا بأس من عدم كتابتها .  
أرشدنا الله تعالى إلى هذه المصالح في القرآن الكريم إذ يقول :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلِئَ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ يَمْنَنَ تَرْصُونَهُ مِنَ الشَّهَادَةِ أَنْ تَفْصَلَ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشَّهَدَةُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ ضَعِيفًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلٍ ذَلِكُمْ

أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٨٢﴾ البقرة

## العهود والمواثيق

(٣) من الأصول العامة التي وضعها القرآن الكريم لاصلاح المعاملات: الوفاء بالعقود والمواثيق وقد نصّ على ذلك نصوصاً مؤكدة ، فمنها ما هو عام ، ومنها ما هو خاص ، فمن العام قول الله تعالى في أول المائدة :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴿١﴾

وقوله تعالى في سورة النحل :

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾

وقوله تعالى في سورة الاسراء :

وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾

وأما اليهود الخاصة فمنها قوله تعالى في سورة التوبة بعد أن أعلن البراءة من المشركين .

إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظْهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾

فأرانا بهذه الآية الكريمة أن العهد محترم حتى مع المشركين المخالفين لنا في الدين والعقيدة ، ماداموا قايمين بشروط العهد ، ولم يعاونوا علينا أحدا من الكفار ، وأرشدنا إلى أن الوفاء بالعهد من التقوى التي يحبها الله تعالى ، ولا يصح لمسلم أن يتعرض لسخط الله تعالى بنقض العهد . وقال الله تعالى في السورة نفسها :



إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ  
إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٧﴾

فتراه يبحث على الوفاء ما دام المشركون لم ينقضوا العهد ، ثم كرر الحث على ذلك الوفاء  
في قوله (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) .

ثم ترى القرآن الكريم ينفر من النقض أشد تنفير ، ويصف الناقضين بأنهم شرّ الدواب  
على وجه الأرض ، ويبيح لنا - إذا علمنا من المعاهدين أنهم يريدون بنا الشر ، ولا يحافظون  
على العهد - أن نذب إليهم عهدهم ، ونعلنهم الحرب والعداء ، على علمنا ومنهم بذلك النقض  
إذ يقول :

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدْتَ  
مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْتَظُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرْجَةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِنَّمَا أَقْفَقْتُمْ فِي  
الْحَرْبِ فُقِرْتُمْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِنَّمَا تَخَافَنَ مِنْ قَوْمٍ  
خِيَانَةٍ فَاذْبُذِلْهُمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ الْأَعَال

بل إن القرآن الكريم أعلى من شأن العهد واليثاق إلى أبعد حدود الاعلاء ، فتراه يرشدنا  
إلى أن المؤمنين الذين لم يهاجروا معكم إذا استنصروكم في دين الله فعليكم الصبر لهم على الكفار ،  
إلا إذا كان الكفار بينكم وبينهم ميثاق فلا تنصروا المؤمنين عليهم ، قايما بحق العهد ، فجعل  
حقّ اليثاق فوق حقّ الأخوة في الدين .

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَبَالٍ لِيَبْغِيَ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ  
اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَمَلَيْتُمْ كُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ يَبِينَكُمْ وَيَبِينُكُمْ مِثْقُ

ثم هدّهم إذا لم يرعوا حقّ اليثاق بنابة إذ يقول بعد ذلك :

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ الْأَعَال

فهل فطن لذلك أعداء الاسلام والسليين ؟ وهل عرفوا مقدار عناية القرآن بحفظ العهد  
واليثاق ؟ .

## اليتيم والعناية به

(٤) علم الله أن اليتامى إذا أهمل شأنهم ، وتركوا بدون تربية كانوا مرضا في جسم الأمة يفسد عليها كل إصلاح ، فأمر القوامين عليهم أن يربوهم تربية صالحة في أخلاقهم ودينهم ، وأن يهتموا بما ترك لهم الآباء من مال فينموه لهم ، حتى إذا بلغوا وآسوا منهم الرشد دفعوا إليهم أموالهم كاملة غير منقوصة .

وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَالِصَاتِ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا <sup>(١)</sup> كَبِيرًا «٢» النساء.

وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ <sup>(٢)</sup> مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا <sup>(٣)</sup> أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا «٦» النساء

وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَاقِبَتَهُمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا «٩» إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا «١٠» النساء

ولعل في ذلك عبرة لجماعة الأوصياء الذين هم كالوحوش الضارية ، لعل لهم عبرة في قول الله تعالى ( وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَالِصَاتِ بِالطَّيِّبِ ) حتى لا تتبدلوا الخالص من أموالهم بالطيب من أموال اليتامى ، سواء أكان ذلك في العقار أو اللواشى ، ولعلمهم يعتبرون بقول الله تعالى ( وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ) وتضموها إليها ، ثم عقب ذلك النهي بقوله ( إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ) .

ولعل في القرآن الكريم عبرة لجماعة الأوصياء الذين يريدون أن تكون وصايتهم على اليتامى الدهر كله ، يأمرهم الله أن يختبروهم في الشئون المالية ، حتى إذا أبصروا فيهم الرشد لتدير المال

والاحتفاظ به دفعوا إليهم أموالهم ، ولكن أولئك الأوصياء لا يعترفون لليتامى برشد ، وإن أقاموا ألف دليل ودليل على رشدهم ، حتى يكونوا بقرة حلوبا يستدرّون أموالهم ، ويعيشون على حسابهم ، ومثلهم في ذلك مثل المستعمرين الذين احتلوا البلاد بحجة أن أهلها لم يستعقوا لحكم أنفسهم بأنفسهم ، فهم في حاجة الى قوم راشدين يهيمنون على مصالحهم وشئونهم ، يأخذون البلاد ويحتلونها بذلك الاسم ، ثم يضربون الرقّ على أهلها ماداموا قادرين عليهم ، وفي استطاعتهم أن يحتلّوهم ، وإن أقاموا الأدلة على رشدهم ، وقدرتهم على تصريف شئونهم ، فالأوصياء على اليتامى ، والأوصياء على المويلات الضعيفة سواء في الظلم ، واستغلال الضعف ، ووضع العقبات والعراقيل في سبيل انتفاع الناس بما أعطاهم من مال ومواهب ، وحسبنا الله في الفريقين .

وتأمل قول الله تعالى ( ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا ) لتعلم أن من الناس من يأكل مال اليتيم ، والحامل له على ذلك الإسراف والبذخ ، والخوف من أن يبقى ذلك المال تحت حيازة اليتيم الى أن يكبر ، فلا يستطيع الوصى أن يأكله بعد الكبر ، فيأبى بأكله وهو صغير ثم يأمر الله من كان غنيا منهم أن يتعفف عن الأكل من مال اليتيم ، ويحفظ له ماله بدون أجر ، ومن كان فقيرا منهم أباح له أن يأكل من مال اليتيم بالطريق المعروف ، فلا يسرف في ذلك . ثم يأمر الأوصياء بأن يشهدوا على الأيتام إذا دفعوا إليهم أموالهم بعد الرشد ، حتى لا يوجد نزاع ، ثم يعقب ذلك بقوله ( وكفى بالله حسيبا ) وهو تهديد شديد لجماعة الأوصياء إذا هم غالطوا اليتيم في ماله ، يريهم به أن الله تعالى رقيب عليهم ، حسيب على أعمالهم ، وما أشدّ قول الله تعالى في سورة النساء .

وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ «٩»

يهدد به الأوصياء ، ويريههم أن كل واحد منهم عرضة لأن يموت ، وتصبح أولاده يتامى في حاجة الى عطف الناس ورعايتهم ، فهل يرضيه إذا كان أولاده كذلك أن يظلمهم الناس ، ويضيعوا أموالهم ، ويحولوا بينهم وبين الحياة ؟ ذلك هو الوعيد الذي توعده الله به القوامين على اليتامى ، والناس جد غافلين عن اليتامى وعن حقوقهم ، ولا يعاملهم الأوصياء إلا شرّ معاملة . وإنك لتجد واحدا في الألب يحرص على حق اليتيم وماله ، ويعمل على تجميع ثروته والابقاء عليه .

## نظام البيوت

لما كانت الأمة لاتقوم إلا على أسر وبيوت ، وضع الله نظاما للبيوت يكفل حياتها وبقائها ، ويعتد هذه الأسر للقيام بوظيفتها في هذه الحياة .

## الزواج

(١) فشرع الزواج وحث عليه ، وامتنع على الناس أن جعل بين الزوجين مودة ورحمة ، وخلق لنا من أنفسنا الأزواج لنسكن إليها نفوسنا ، ونطمئن إليها أقدارنا .

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ الروم  
وقال تعالى :

وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ النور

وهو خطاب لأولياء البنين والبنات ، يطالبهم الله فيه أن يزوجوا من لازوج له ، والصالح للزواج من العباد والاماء . وقوله ( إن يكونوا فقراء يعنهم الله من فضله ) ترغيب في النكاح وتسهيل لأصممه ، ورد على من يشق في أمر الزواج ويرغب عنه بعلته الفقر ، وكأن الله يرينا أن الزواج من أسباب الفنى ووسائل الاقتصاد .

وكثيرا ما يكون الرجل مسرفا لا يستطيع أن يحافظ على ماله ، لأنه لم يكن له امرأة تحافظ على ذلك المال ، واضطره معيشته إلى إضاعة ماله في سبيل مأكله ومشربه ، فإذا اقترن بزوج صالح للزوجة من جهة خلقه وتدبيره حفظ ماله ، ونمت ثروته .

ثم يرينا الله أنه لا غربة في ذلك إذ يقول ( والله واسع عليم ) وليس المراد بالفقراء : الذين لا يجدون مؤنة النكاح من مهر أو نفقة على الزوج ، بدليل قوله بعد ( وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله ) .

## تعدد الزوجات

(٢) ولم يكن عند العرب حد يرجعون إليه في تعدد الزوجات ، فوضع القرآن الكريم لذلك حدا وسطا ، وأباح التعدد لمن أمن الجور في معاملة النساء . قال تعالى في سورة النساء :

فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ<sup>(١)</sup> لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا

[١] لعل المراد بالطيب من النساء الطيبة .

تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا «٤»

فأنت ترى القرآن الكريم أباح للرجل أن يتزوج أكثر من واحدة ، وشرط في ذلك أن يأمن الجور الذي من شأنه أن يفسد على الرجل بيته ، ويفرق بين بنيه ، وأوجب عليه امرأة واحدة إذا خاف الجور ، فضلا عن ييقنه .

ثم ختم الآية بقوله ( ذلك أدنى ألا تعولوا ) أى أقرب من ألا تقتفروا ، من عال الرجل عيلة : افتر ، يريد أن اكتفاء الرجل بامرأة واحدة من أسباب غناه وعدم فقره ، فان الشأن في المرأة إذا رأت زوجها قد تزوج امرأة أخرى أن تفرط في ماله ، وتعمل على تبديده ، لأنه لم يكن خالص لها ولأولادها ، فالأصل في الزواج أن يكون للرجل امرأة واحدة ، والزيادة على ذلك لابد أن تكون لحاجة ماسة من شأنها أن ترجع على مافي التعدد من أضرار مالية ومنزلية ، وتفرق بين الأبناء ، ولا سيما إذا كانت النساء جاهلات ، كأن يتزوج الرجل امرأة ويتبين أنها عاقرة لاتلد ، وهو يحبها ونحبه ، فمن الخير لها وله أن يتزوج عليها ولا يفارقها ، وكأن تكون حاجة الرجل الطبيعية لانكتفى بالمرأة الواحدة ، فبدلا من أن يعرض الرجل نفسه للزنا ، أو غشيان امرأته في أيام الحيض والنفاس ، مما يسبب له أمراضا ، يبيح الله له أن يتزوج امرأة أخرى ، وكأن يطرأ على امرأته من الأمراض ما يحول بين استمتاع الرجل بها ، ويرى أنها امرأة فقيرة لا تجد من ينفق عليها ، فيسبقيها الرجل على أن تكون ضرة وهو خير من أن يدعها وهي على ذلك الحال المولم .

هذه وأمثالها أسباب خاصة لتعدد الزوجات ، وهناك اعتبار آخر يبيح التعدد ، وهو أن الشأن في الرجال أن تكون عرضة دائما للنقص عن النساء بواسطة الحروب والأسفار ، وهذه الحرب الكبرى قد تركت أباى كثرات من النساء .

فلو أن الله تعالى حرم على الرجل تحريما باتا أن يتزوج بأكثر من واحدة لتعرض كثير من النساء للانحجار بأعراضهن ، وتفشى الزنا إلى حد كبير ، وخير للمرأة أن يكون لها ضرة أو ضررات ، ولا تتجر بأعرى شيء لهنها وهو خلقها وعفتها ، فسبحان الحكيم في تشريعه ، العليم بحاجات خلقه وضروراتهم .

وقد بين القرآن منزلة الرجل من للمرأة من جهة الحقوق ، حتى ينتظم البيت وتسهل الأسرة بقيام كل منهما بما أوجه الله عليه ، فقال :

وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ

حَكِيمٌ «٢٢٨» البقرة

وهي درجة الرياسة التي بينها الله تعالى في سورة النساء .

الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ

أَمْوَالِهِمْ «٣٤»

فترى القرآن الكريم أوجب للمرأة من الحقوق على الرجل مثل ماله عليها في حدود المعروف بين الناس ، حسب البيئة التي تعيش فيها ، والوسط الذي تكون فيه ، وفضل الرجل على المرأة بدرجة الرياسة ، لأنه لاغنى للبيت عن رئيس يرجع أمره إليه ، وأولى الزوجين بالرياسة هو الرجل بسبب تفضيل الله للرجال على النساء بالعلم ، والعقل الراجح والولاية ، وبسبب ما أنفقوا عليهن من أموالهم .

## الطلاق

(٣) علم الله تعالى أن الصلات بين الزوجين قد تسوء إلى حد كبير ، حتى لا يمكن معه إصلاح فوضع نظاما للفرقة كما وضع نظاما للاجتماع ، ذلك النظام الذى وضعه للفرقة هو الطلاق ، ولو كانت صلة الرجل بالمرأة ضربة لازب لاسبيل إلى الخلاص منها بحال من الأحوال لكان فى ذلك من إحراج الزوجين وإعنائتهما ما لا يتفق والحياة الطيبة ، ولأدى ذلك الإلزام إلى انتحال أسباب من شأنها أن تكون طريقا للتخلص من الزوجية ، وإن كانت الأسباب لا يرضاها الله تعالى ، ولا ترضاها اللوعة ، فكان من رجة الله بالزوجين مشروعية الفرقة بينهما ، وهى الطلاق .  
لم يجعل الله الطلاق فوضى ، بل حاط عقد الزوجية بما يحفظه من التمرض للانهال الوقتى بوسائل شتى .

[ أولا ] أن الله تعالى شكك الراء فى وجدانه عند حصول فقرة ، فقال فى سورة النساء .

وَعَايِرُوهُنَّ بِالْمَرْوِفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْمَلَ  
اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا «١٩»

[ ثانيا ] أنه رغب كلا من الزوجين فى الصلح عند وجود مقدمات التفرة ، حتى لا يستفحل الأمر وينسج الخرق ، فقال فى سورة النساء :

وإنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا  
بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ، وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ  
اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا «١٢٨»

[نالتها] أمر الله تعالى بالتحكيم عند خوف الشقاق ، فقال يخاطب المؤمنين في سورة النساء :

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَرْسِلُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا «٣٥»

[رابعها] أنه جعل الطلاق مرة بعد أخرى ، حتى إذا طلق الرجل امرأته لسبب عارض ، ثم زال ذلك السبب راجعها ، فإذا طرأ من الأسباب ما يقتضي الطلاق مرة ثانية طلقها ، وفي المرة الأخيرة لاحق له في أن يرجع إليها حتى تنكح زوجها آخر . قال تعالى في سورة البقرة :

الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ «٢٢٩»

أي الطلاق الذي بعده رجعة مرتان .

### التيسير على المطلقة

(٤) إذا لم يكن للرجل بد من الطلاق بعد علاج الأمر بما ينبغي أن يعالج به وجب أن يكون في ابتداء المدة : أي في طهر لم يمض فيها حتى لا تطول المدة على المرأة . قال تعالى في سورة الطلاق

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِمَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْمِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ

وجوب على الرجل أن لا يخرج المرأة من بيته وهي في المدة لقوله تعالى في سورة الطلاق :

لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفُجْشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَمَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَذَرِي لِمَلٍّ اللَّهُ يَخْذِلْ يَمْدُ ذَلِكَ أَمْرًا «١»

وكذلك إذا بلغت المرأة الأجل المقتدر لها عليه أن يسكنها بالمعروف أو يفارقها بالمعروف .

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ «٢» الطلاق

ثم أمر الإحسان بالرفق بالمرأة وهي في عدتها ، فقال في سورة الطلاق :

أَسْكِنُوهُمْ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تَضَارُّوهُمْ لِنَصِيْقُوا عَلَيْهِمْ  
وَإِنْ كُنْ أُولَئِكَ جَمِلًا فَانْفِقُوا عَلَيْهِمْ حَتَّى يَبْضَعْنَ خَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ  
أُجُورَهُنَّ وَأَنْتُمْ يُنْفِقُونَ وَإِنْ تَمَاسَرْتُمْ فَسَتَرْضَعْنَ لَهُ أُخْرَى «٦»  
لِيَنْفِقَ ذُو سِمَةٍ مِنْ سَمَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ بِمَا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ  
اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَمَّا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا «٧»

وأمر للمرأة إذا طلقت قبل التخيول ولم ينفق لها على مهر أن تمتع بما تنعزى به ، وجعل  
ذلك حقا واجبا لها ، فقال في سورة البقرة .

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً  
وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَرْوِفِ حَقًّا عَلَى  
الْمُحْسِنِينَ «٢٣٦»

ونهى الرجل أن يأخذ شيئا مما آتاها فقال في سورة النساء :

وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا  
تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا «٢» وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ  
أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنِ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا «٢١»

### نظام التوريث

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوَاقٍ  
أَنْتَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثًا مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأُولَادِكُمْ لِلْكُلِّ وَاحِدٌ  
مِنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتْهُ أَبَوَاهُ فَلِلْأُمِّهِ  
الثلثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْأُمِّهِ الشُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ



وَأَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَقْمًا فَرِيضَةً مِنْ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الشُّدْرُ فَإِنْ كَانَ ثَلَاثٌ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢) تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٤) النساء

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ (١١) إِنْ أَمَرُوا هَلَاكَ أَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢) النساء

### تليق وشرح

(١) بين الله تعالى لنا في هذه الآيات نظام توريث المال بين الأقارب ، وهو نظام عادل حكيم ، وصقره بكلمة الوصية إذ قال ( يوصيكم الله في أولادكم ) الخ ليرينا أن التخلص من ذلك النظام الذي وضعه الله تعالى هو خروج على وصيته التي أوصى بها الآباء لينفذوها للأبناء ، ثم يتم هذه الوصية بقوله :

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا  
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَّقِ  
حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٤) النساء

فتراه وعد من يطيع الله ورسوله بوقوفه عند هذه الحدود التي رسمها القرآن الكريم بجنت  
تجري من تحتها الأنهار مخلدا في أولئك الجنت ، وتوعد من يعصى الله ورسوله ، ويتعد حدوده  
التي وضعها في هذه الوصية نارا خالدا فيها ، وتوعده مع ذلك العذاب المهيّن .  
ومع ذلك الوعيد الشديد تجدد الناس يخرجون على هذه الحدود ، ويميلون للخلاص من  
هذه الوصية الحكيمة .

أما الآباء فرّة يخرجون من هذه الوصية من طريق حبس الأرض على أبنائهم الذكور  
وحرمان بناتهم من التركة ، بحجة أن المال ملك لهم وهم أحرار في ذلك المال ماداموا على قيد  
الحياة ، وإن ذلك النظام إنما يجب بعد الموت . فاتهم :  
[ أولا ] أن الله تعالى وجه الوصية إليهم فلم يكونوا مكلفين بانفاذ هذه الوصية ما كان هناك  
معنى لتوجيهها إليهم .

[ ثانيا ] أنهم مكلفون أن لا يستأوا الباب على من بعدهم من المكلفين بانفاذ هذه الوصية ،  
إذ كانت الآية خطابا للأمة متكافلة متضامنة بانفاذ ذلك النظام ، فإذا أبغنا للآباء أن يصنعوا  
بمالم ذلك الصنع ، وأمثال ذلك الصنع لتعطل الوصية بالنسبة لغير الآباء ، وهنذر إنفاذها بعد  
الموت ، وإلا فما الذي يصنع المؤمنون بتركة حبسها صاحبها قبل الموت على أبنائه دون بناته ؟  
وهل يشك أحد في أن ذلك العمل تعطيل لنظام التوريث ، وهدم لوصية الله تعالى إن لم  
يكن من طريق مباشر فمن طريق غير مباشر ؟ وهل ذلك يتفق وذلك العدل الذي أوجبه الله  
على الآباء للآباء ؟ وهل البت التي حرمت من مال أبيها على ضعفها وحاجتها إلى المال في حياتها  
تحرص على الصلات بينها وبين أخيها الذي استبدّ بمال أبيها ؟ .

وأحيانا يخرج الآباء على وصية الله تعالى من طريق الكذابة للآباء ، وحرمان البنات ،  
ناسين ما يتركه ذلك العمل في نفوس البنات من أثر سيئ ، وشقاق مستمر ، ولو علموا أن ذلك  
مدعاة لتقطيع أواصر المودة بين البيوت والأسر ، وتأريث للعداوة والبغضاء بين ذوى القربات -  
ما لجأوا لشيء من هذا .

(٢) وأما الأبناء فكثيرا ما يخرجون على هذه الوصية من طريق حل الآباء على أن يكتبوا  
لهم التركة وهم في حال الرض ليستقلوا بها ، وقد يحملهم ذلك الحرص على أن يزوروا على آبائهم  
ونائق ليحرموا بها البت من اللبراث الذي تستحقه عن أبيها ، فقشبت الأخت بأخها وتقاضيه  
في ذلك اللبراث ، وتنتهى للقاضاة بحرمان البنت والولد وانتفاع دور القضاء ورجال الحماية ، والذي  
لا يستبيح لنفسه من الأبناء أن يزوروا على أخته لا يتعفف أن يطمع في نصيبها ، وكلما طالبت

نصيبها من مال أبيها بماطل ويسوف ، وقد تكون أخته في غاية الفقر ، ولكنه لا يرجعها باعطائها نصيبها من المال ، ويضطرها إلى أن تجمع له الجوع ، وتوسط بينها وبينه من تحب ومن لا تحب . وبعد الجهد الجهد يساومها على نصيبها ، ويطلب إليها أن تنزل عن مقدار منه ، وإذا لم تسمح نفسها بذلك عذبا الناس قاسية قليلة الذوق ، وكأن الله فرض عليها أن تشطر نصيبها شطرين فتدع شطره لأخيها ، وشطره الآخر الذي تسمح به نفسه تأخذ ، وكثيرا ما يكون الأخ شرها في ذلك الشطر ، فلا يقنع إلا أن يأخذ ثلث نصيبها إن لم يكن نصفه ، وقلما ينصف أخ أخته ، ويدعها تأخذ نصيبها كاملا غير منقوص ، كل ذلك لأنه لم يظن لوصية الله في اللواريث ، ولم يرض الله تعالى قاسما لمال أبيه ، ولو رضى الله ربا وامتلأ قلبه بحكمة الله وعدله في قسمته ما طمع ذلك الطمع .

ولو علم الأبناء أن الرجل القنوع الراضى يبارك الله له في نصيبه وإن قل ، وأن الرجل الشره ينزع الله البركة من ماله - لو علم الأبناء ذلك وعلموا أن أصهارهم هم أعوان لهم ، ولا طريق إلى تأليفهم بهم - سوى الاحسان ، وإعطائهم نصيب أزواجهم ، وأن البنت لا تكون عبة لأخيها إلا حيث أعطاها حقها وواساها طول حياتها ، وأن البيوت لا تصلح ولا تلثم إلا من طريق الاحسان إلى الأقارب ، وأعظم وسائل الاحسان أن يعطى كل ذي حق حقه ، وأكبر وسائل القطيعة أن يحال بين الناس وبين حقوقهم .

لو علم الناس ذلك لحرصوا على إنفاذ وصية الله تعالى كاملة غير منقوصة .

(٣) ومن عجيب أمر الناس أنهم حيال قسمة الله تعالى للواريث صنفان :

[صنف] يدخل على البنت بمال أبيها ويحاول أن يحول بينها وبين حقها بمختلف الأساليب . [وصنف آخر] لا يقنع للبنت بهذه القسمة التي فرضها الله لها في قوله ( للذكر مثل حظ الأنثيين ) ويرى أن البنت يجب أن تأخذ مثل أخيها ، وليس بعجيب أن يوجد ذلك من قوم لا دين لهم ولا عقيدة ، إنما العجيب أن يكون ذلك من قوم مؤمنين ، يعلمون أن الله تعالى حكيم في تشريعه ، عادل في قسمته .

ولو تدبروا الأمر قليلا لعلموا أن الله تعالى قد أنصف البنت بهذه القسمة ، وأكرمها فوق إكرام أخيها ، ذلك لأن البنت تأخذ حقها من مال أبيها وهي غير مكفأة أن تنفق ذلك المال على بيتها وبنيها ، لأن نفقتها واجبة على زوجها ، وكذلك نفقة أبنائها . أما زوجها فأخذ حقه من مال أبيه لينفق منه على نفسه وزوجه وأولاده ، فأى الولدين أسعد بمال أبيه ؟ : الولد الذي يأخذ نصيبه لينفق منه على نفسه وغيره ، أم البنت التي تأخذ مالها لتدخره ؟ فإذا كان هناك محابة في التورث فهي محابة للمرأة ، وإذا كان هناك مواساة فهي مواساة البنت ، واساها الله بذلك حتى يكون عندها مال احتياطي تنفق به عند الطوارئ ، كأن يموت زوجها فتتأيم ، وقد يكون لها من الأولاد من يحتاج إلى النفقة ، لذلك أعطاه الله نصيبها من مال أبيها لتدخره لأمثال هذه الطوارئ .

ولو فطن الناس لقسمة الله تعالى لعلموا أنها وسط بين الإفراط والتفريط ، وسط بين طريق

القضاء البخلاء الذين يحرمون البت من مال أيها ، وبين الفلاة الجاحدين الذي يريدون أن يسطوها مثل مال الرجل ، ناسين ظروفها ، وما يجب على الزوج من نفقة لأولاده وبيته ، ولو أنصفوا ومحسوا التعبير لقالوا [نحن نطلب أن يضاعف الله تمييز البت على الولد] لأن هذه الوسادة لا تكفيها . أما نحن معشر المسلمين فنؤمن بعبد الله وحكته في تشريعه وقسمته .

## الحكومة في الاسلام

(١) لما كان الاسلام دينا ودولة وضع أساسا للحكم هو نظام الشورى ، وقد عمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخلفاؤه الراشدون ، على ما تسمح به طبيعة القوم في ذلك الظرف . وقد وصف الله المؤمنين بأن الشورى في شئونهم المدنية والدينية شأن من شئونهم ، كالصلاة وغيرها من أمور الدين . قال تعالى :

وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ الشورى

وقال تعالى : مخاطبا لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم :

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ آل عمران

والأمر هنا أمر الدولة ، لأمر الدين : من عقائد وعبادات وما إلى ذلك ، فانه يعتمد الوحي الصريح . أمر الله رسوله أن يستشير أصحابه في الشئون العامة كالحرب والسلام ، وعقد المعاهدات ، وأمر الحرب ، كما وقع في أسرى بدر ، وأمثال ذلك من الأمور العامة ، ثم قال لرسوله صلى الله عليه وسلم بعد أن يعد للأمر عفته من الشورى ( فإذا عزم فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ) ليريه أنه لا يصح له بعد أن يصحح النية ، ويبحث للسألة من جميع وجوها أن يرجع عما عزم عليه ، لأن ذلك الخلق خلق التردد لا يلبق برئيس دولة .

هذا هو الأساس الذي وضعه الدين للشورى ، وترك نوع الشورى للزمن ، لأن كل زمن يناسبه نوع من الشورى قد لا يتفق وزمن آخر ، والذي يرى كيف تطورت الشورى في البلاد النيابية ، و يرى كيف كان نظام الشورى في صدر الاسلام أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ، يجد الفرق جليا واضحا ، ويعرف حكمة الله تعالى وعلمه المحيط ، حيث لم يحدد

نظاما خاصا للشورى ، بل أمر بها ، وترك نوعها للزمن ، وذلك من أدلة أن ذلك القرآن من كلام الله الذى يعلم الحاضر والمستقبل ، لامن كلام محمد صلى الله عليه وسلم .

أما قسم العقائد ، وأما قسم العبادات ، وأما ما يشبهها من أتمات الأخلاق والفضائل ، ونظام التورث ، ونظام البيوت من زوجة وطلاق ، فهى من الأمور التى لا تختلف باختلاف الزمان ، ومن أجل ذلك حثدها ، وبين ما ينبى أن يبين منها ، ولم يدعها للعقول ولا للزمن ، لأن ذلك حقه وحده ، فهو الذى يحثده ويتعدنا به .

لم يكف القرآن الكريم بوضع نظام للحكم وهو الشورى ، فنصح إلى الحكم أن يحكموا بين الناس بالعدل ، وأن يتحرروا بالحق والانصاف :

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَاىَ ذِى الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ النحل

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ صَمِيمًا بَصِيرًا ﴿٥٧﴾ النساء

## أسرى الحرب فى الاسلام

(٢) قد أريناك فيما سبق أن القتال فى الاسلام لم يكن لأكراه الناس على عقيدة ، وإنما الفرض منه حماية الدعوة الاسلامية من المؤثرات ، حتى يكون المؤمنون آمنين على أنفسهم وعقائدهم ، وحتى يكون الداعى حراً بأمن الاعتداء عليه من أيدي المخالفين له ، فهو قتال دفاع لا قتال هجوم ، وأن ما وقع من جماعة المسلمين ضد أعدائهم فى مختلف الفترات كان لتأديب المعتدى ، أو حماية الداعى ، لا يمدو شيئا من ذلك فى جوهره .

وآية أن القتال قد شرعه الله تعالى لحماية الدعوة ومصلحة الاسلام دون أشخاص المسلمين اختلاف الصحابة فى أسرى بدر ، ففريق كان يرى قتلهم وعلى رأسهم عمر رضى الله عنه ، قال يارسول الله : أولئك الأسرى قد كذبوك وقاتلوك ، وأخرجوك من بلدك ، فأرى أن تمكثنى من فلان لقرب له فأضرب عنقه ، وتمكن حزة من أخيه العباس ، وعليها من أخيه عقیل ، وهكذا حتى سلم الناس أنه ليس فى قلوبنا مودة للمشركين ، ما أرى أن تكون لك أسرى ، فأضرب أعناقهم هؤلاء صناديدهم وقادتهم .

وقال أبو بكر رضى الله عنه يارسول الله : هؤلاء أهلك ، وقومك ، قد أعطاك الله الظفر والنصر عليهم ، أرى أن تسبقهم ، وتأخذ الفداء منهم ، فيكون ما أخذنا منهم قوة على الكفار ، وعسى أن الله يهديهم بك فيكونوا لك عضدا ، فقال عليه السلام : إن الله ليلين قلوب أقوام

حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب أقوام حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن ملكك يا أبابكر مثل إبراهيم . قال :

فَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٦﴾ إبراهيم

وإن ملكك يا عمر مثل نوح . قال :

رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذَيَّارًا ﴿٣٧﴾ نوح

ورأى عليه السلام رأى أبى بكر بعد أن مدح كلا من الصاحبين ، لأن الوجهة واحدة ، وهى إهزاز المؤمنين ، وخذلان أعداء الحق المحاربين .  
وقد نزل الوحي بتصويب رأى عمر رضى الله عنه فى شأن أسرى بدر ، فقال :

مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَمْرٌ حَتَّى يُشْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ  
الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ  
لَمَسْكُكُمْ فَمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ الأعراف

نهى سبحانه وتعالى عن اتخاذ الأسرى قبل الامتحان فى قتل الذين يصدون عن سبيل الله  
ويمنعون دينه من الانتشار ، وعاب بعض المسلمين على ارادة عرض الدنيا ، وهو القدية ، ولولا  
حكم سابق من الله أن لا يعاقب بمجهدا على اجتهاده مادام المقصد خيرا - لكان العذاب .  
وحادث الأسرى مثل من أمثلة الشورى فى أمور العولة ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم  
كان قدوة صالحة فى امثال أمر الله ، وأن الرسول قد يخطئ وقد يصيب فى مثل هذه الشئون ،  
ولكن الله تعالى لا يقره على الخطأ ، بل يبين له الحق .

## غنائم الحرب فى الاسلام

(٣) كانت العرب قبل الاسلام تقسم وتوزع الغنيمة على المحاربين ، وتجعل للرئيس قسطة  
كبيرة منهم ، أشار إليه أحد شعرائهم فقال :  
لك الربع منها والصفايا وحكمك والنشيطه والفضول  
وللرباع : ربع الغنيمة ، والصفايا : ما يصفيه الرئيس لنفسه مما يستحسن ، والنشيطه :

ما يقع في أيدي المقاتلين قبل الوقعة ، والفضول : ما يفضل عن القسمة ، فلما جاء الاسلام كانت أول الغنائم ما وصل المسلمين في غزوة بدر ، فقال الله في شأنها .

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ «١» الأنفال

أي أمرها في توزيعها الى الله والرسول ، ثم بين ذلك بقوله :

وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ  
وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ «٤١» الأنفال

جعل خمس الغنيمة موزعا بين مصالح المسلمين ، ومنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقرابته من بنى هاشم ، وبني المطلب الذين نصره ، دون أقاربه الذين خذلوه ، ولاصلاح اليتامى ، والمساكين ، والسافرين ، وأربعة أخماس الغنيمة للمقاتلين : للفارس سهمان ، وللراجل وهو المحارب على قدميه سهم واحد ، فانظر الفرق بين الجاهلية والاسلام .  
وهناك نوع من المال يضمنه المسلمون من أعدائهم الكفار بدون حرب ، وهو الذي يسميه القرآن الكريم بالفى ، وهو موزع على مصالح المسلمين توزيع خمس الغنيمة .

وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ<sup>(١)</sup> عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ  
وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ «٦» مَا أَفَاءَ اللَّهُ  
عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ  
وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ  
وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ «٧» المحر

وقوله ( كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ) بيان لحكمة توزيع الفى على ذلك النحو الذى ترى ، وهو أن يصرف فى مصالح الدولة ، ولا يكون متداولاً بين الأغنياء من المسلمين .

## العقوبات فى الاسلام

لما كانت طبائع الناس متفاوتة ، وكان فيهم من يكفيه الترغيب فى ثواب الله والتهريب من عقابه ، وفيهم من لا تكفيه هذه الأساليب ، ولوترك بدون عقوبة لأفسد فى الأرض ، وجراً

[١] أسرع من أجل خيلا ولا إيلا : أى لم تتعجلوا فيه مشقة .

غيره على الفساد ، وأصبحت دماء الناس وأموالهم وأعراضهم عرضة للضياع .  
لما كان ذلك شأن الناس قضت الحكمة الالهية أن يكون في دين الله من الزواجر ما يكفي  
لحماية الضعيف من يد القوى ، والابقاء على مصالح الناس ، والاحتفاظ بسلطان الحكومة وحرمتها  
في النفوس ، من أجل ذلك شرع الله عقوبات مختلفة على الجرائم التي من شأنها أن تهدد الناس  
في مصالحهم وأعراضهم ونفوسهم ، فشرع :

## القصاص

(١) وقد كان القصاص قبل الاسلام غير قائم على أساس العدل والمساواة ، فكانت القبيلة  
كلها مسئولة عن جناية فرد منها ، إلا إذا أعلنت خلعه في المجتمعات العامة ، ولما كان ولي المجني  
عليه يكتفى بالقصاص من الجاني ، ولا سيما إذا كان المجني عليه شريفا أو سيدا في قومه ، وكثيرا  
ما كانت قبيلة الجاني تحميه فتتولى من ذلك شرور وحروب بين قبائل ، فجاء القرآن الكريم  
محددًا للمسئولية في القصاص ، وقصرها على الجاني وحده ، فقال في سورة البقرة :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ  
بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى

بين الله بذلك أن الجاني وحده هو الذي يؤخذ بجريمته دون قبيلته ، وكان نظام الديات  
معمولا به عند العرب فأبقاه القرآن ، وأشار إليه في قوله بعد :

فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ  
تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَعَدَّى بِغَيْرِ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨)

فترى القرآن الكريم جعل الأصل في العقوبة القصاص والمساواة إلا إذا عفا أولياء الدم  
عن القاتل ، وطابت نفوسهم بذلك العفو ، ورضوا بأخذ الدية بدون تأثير عليهم (فاتباع بالمعروف)  
لذلك العفو واجب ، ( وأداء إليه بإحسان ) أى أداء الدية الى ولي المقتول واجب كذلك  
بإحسان لا بملظة .

ثم أشار الى تيسير الله علينا في إباحة دفع الدية بقوله ( ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ) ولو  
أن الله تعالى لم يجعل لولي المقتول حق العفو عن الجاني لكان في ذلك إعنت للناس .  
ثم يرينا أن من يعتدى بعد العفو سواء كان ذلك الاعتداء من أولياء الدم ، أو كان من  
أقارب الجاني (فله عذاب أليم) في الآخرة .



ذلك هو ما يجب في القتل العمد . أما ما يجب في القتل الخطأ كما يقع كثيرا من الناس ، فقد بينه الله تعالى في قوله :

وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسْلِمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ يَبْغِيكُمْ وَيَبْغِيكُمْ بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ مُسْلِمَةٍ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا «٩٢» النساء

فأنت ترى القرآن الكريم لم يعف القاتل من العقوبة وإن كان قتله خطأ ، فأوجب عليه في القتل الخطأ عقوبة مالية : هي اعتاق رقبة مؤمنة ، ودفع الدية إلى أهله ، وقد كانت الديات معروفة قبل الاسلام فأقرها ، وبينتها السنة أنها مائة من الإبل على عصبه القاتل ، إلا أصله وفرعه ، موزوعة عليهم في ثلاث سنين إلا أن يصدق أولياء المقتول باسقاط الدية فذلك حقهم . وإن كان من قوم محاربين للمؤمنين ، وكان القاتل مؤمنا فلا تجب له دية ، لأن الدية حق مالي يجب لأولياء القاتل ، وهم محاربون للمؤمنين ، فلا تدفع له دية ، ويجب أن يعتق الجاني رقبة مؤمنة ، كفارة لاديه ، ابقاء على حرمة المؤمن ، وإن كان من قوم يبتغون منهم عهد كأهل النعمة ، وجبت الدية ، وتحرير رقبة مؤمنة ، احتراماً للعهد ، غير أن دية اليهودى أو النصرانى على الثالث من دية المؤمن ، ودية المجوسى ثلث عشر دية المؤمن . ومن لم يجد الرقبة للمؤمنة فصيام شهرين متتابعين ، ليكون ذلك توبة من الله عليه من قتل المؤمن التابع لقوم محاربين ، ومن قتل الذمى أو المعاهد .

وقد أوجب الله في قتل المؤمن خطأ عتق الرقبة المؤمنة والدية [أولاً] احتراماً للنفس ، حتى لا يفهم الناس هوانها ، حتى إن من قتلها خطأ يماقب على القتل عقوبة مالية ، و[ثانياً] لحل الناس على الاحتياط في مسألة الفوس والسماء ، و[ثالثاً] سداً لدرائع الفساد ، حتى لا يقتل أحد من الناس من يريد قتله ، ويستتر بأنه قتله خطأ .

أما القصص في الأطراف فينه القرآن الكريم في قوله من سورة المائدة :

وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ «٥٥»

## حكمة القصاص

(٢) أَرَأَيْتُمْ أَنَّمَا جَعَلَ فِي ذَلِكَ الْقَصَاصَ ، وَأَن حَيَاتِنَا لِلْمَادِيَّةِ وَالْأَدْبِيَّةِ فِي مَشْرُوعِيَةِ الْقَصَاصِ ، وَلِلْقُرْآنِ فِي ذَلِكَ جِلَّةٌ - هِيَ مُضْرِبُ الْأَمْثَالِ فِي بَلَاغَتِهَا وَعِلْوُ أَسْلُوبِهَا ، وَغَزَاوَةُ مَعَانِيهَا ، وَسَهُولَتِهَا عَلَى اخْتِصَارِ لَفْظِهَا هِيَ قَوْلُهُ مِنْ - سُورَةِ الْبَقَرَةِ :

وَأَكْمُرُكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوُهُ يُبَاوِلُ الْأَلْبَابِ أَعَاكُمْ تَتَقَوَّرَ ١٧٩٥

والذى يريد أن يعرف قيمة هذه الجلالة العظيمة ، ومالها من أثر ملموس يوازن بين أرقى حكومات العالم اليوم ، وبين حكومة المسلمين في الصدر الأول يرى الفرق جليا بين الحكومتين ، ويعرف أن حفظ دماء الناس وأموالهم لا يمكن أن يكون بدون إقامة حدوده ، وأن القوانين الوضعية فشلت على طول الخط في علاج الأخطار التي تتهدد الناس ، والحكومات المتمدينة تنفق اليوم على الأمن قناطر مقنطرة من الذهب والفضة ، ومع ذلك هو مجهود ضائع ، وكلما ضاعفوا الجهود في تنقيح القوانين ، ومضاعفة القوات ، ضاعف المفسدون جهودهم في السلب والنهب ، واراقة النساء ، وما إلى ذلك .

ولماذا نذهب بعيدا ونوازن بين الحكومات الحاضرة ، وحكومة المسلمين في الصدر الأول ؟ وهذه حكومة المجاز في عهدها الحاضر ، وهي ليست شيئا يذكر في جانب حكومات أوروبا ، ومع ذلك الأمن فيه مسقطب ، والمهدوء شامل محيط ، على مافى طبيعة البلاد العربية من صعوبات ، ومافى نفوس أصحابها من خشونة وغلظة ، وهي آية من آيات الله في أن الناس لا تصلح بلادين ، وأن قوانينها الوضعية ، وعظمتها في حريتها وصناعتها ، وأساطيلها لا تنفيها شيئا عن إقامة الحدود الشرعية.

سَتَرِيهِمْ ءَايَتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ٥٣ فصلت

## حدّ قطاع الطريق

(٣) فرض الله جزاء قطاع الطريق الذين يتهددون الحكومات ، فقال في سورة المائدة :

لَمَّا جَزَاوَا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٣٤

بين الله تعالى لنا في هذه الآيات عقاب المخربين للفسدين في الأرض ، ويعملون في بلاد الاسلام أعمالا عظيمة بالأمن على الأنفس والأموال والأعراض ، معتمدين في ذلك بقوتهم ، غير مدعنين للشرعية باختيارهم ، فيجب على الحكام أن يطاردوهم ويقتبضوهم ، فإذا قدروا عليهم عاقبهم بتلك العقوبات بعد تقدير كل مفسدة بقدرها ، ومساعدة للصلحة العامة وسد ذريعة الفساد ، ومن تاب قبل القدرة عليه لا يعاقب بما في هذه الآية ، وإنما حكمه حكم سائر الناس . وتأمل قول الله تعالى (من قبل أن تقدروا عليهم) لتعرف أن التائب قبل القدرة عليه مخلص في توبته ، أما التائب بعد أن قدر عليه فلا فضل له في التوبة ، وإنما هي توبة للرجاء والضرر .

## حد السارق

(٤) قد وضع الله عقوبة للسارق فقال في سورة المائدة :

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ «٣٨»

ذلك هو حكم الله العليم بأصراض النفوس وطريق علاجها . حكمه العادل ، وقضاؤه الحكيم وتشريعه المحكم : أن تقطع يد السارق والسارقة ، لأن اليد من شأنها أن تبشر السرقة ، فكان جزاؤها القطع ، وقد بين الله لنا أن ذلك القطع هو جزاء عادل للسارق والسارقة بما كسبا من خيانة ، وقوله ( نكالا من الله ) من نكالت به بتشديد الكاف . إذا فعلت به ما ينكل به غيره ، ومنه قوله تعالى في سورة البقرة :

فَجَمَلْنَاهَا نَكالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ «٦٦»

أي ان الله تعالى شرع قطع يد السارق ليكون عبرة لغيره ، فلا يجزؤ غيره على مثل ذلك العمل وبذلك يحفظ المال ، وقد ختم الآية بقوله ( والله عزير حكيم ) ليرينا أن الله تعالى حكيم في ذلك التشريع ، فرضه للصلحة ، وأزله لحفظ أموال الناس ، وأن من يعيب على الشرية قطعها يد السارق هو رجل قصير النظر ، يضحي بمصلحة المجموع في سبيل حفظ يد خائنة مهينة ، ويجعل أموال الناس عرضة للخطر ، لأنه يرى في قطع يد السارق وحشية لانتليق بأصحاب القرن العشرين ، ولا يليق أن يعطل رجل أو رجال من الناس عن أن ينفعوا بأيديهم ، ويصيروا مثله في هذه الحياة أيا كانت الدواعي لمثل ذلك العمل ، وفاتهم أن الحيلولة بين هؤلاء الخونة وبين انتفاعهم بأيديهم غرض من أغراض الشرع ، والمثيل بهم أمام الجماهير هو نكال بهم وعبرة لغيرهم ، فان الناس متى رأوا أن ذلك هو مصير السارق لا يقعون في مثل ذلك العمل ، ولماذا

مخصص على صفة المجرم مادام هو لم يحرس عليها ، وتآلم له أكثر من تألمه لنفسه ؟ وإذا كان الفرييون ومن حذا حذوهم يرون قطع يد السارق وحشية لاتليق ، ومثله لاتنبئ ، فأننا معشر المسلمين نراها حكمة وعدلا ، ونتمناها إصلاحا لاغنى للناس عنه ، وضعه الله العالم بأمرهاض النفوس ، ومادام صلاح المجموعة في تأديب أولئك الأدياء أدبا وانحما مكشوف ، فإن الصلحة في صلاح المجموعة ، وإن ضاع في سبيلها مصلحة الفرد .

وقد ظن أصحاب هذه الشبهة أن قطع يد السارق إذا لجأت إليه الحكومات من شأنه أن يكثر العاطلين ، وهم في ذلك جد واهمين ، فإن يدا واحدة إذا قطعت من شأنها أن تحول بين الناس وبين جرائم السرقة ، والذي يكثر السرقة بين الناس هو الجزء المعمول به اليوم ، وهو لا يعمد وضع السارق في السجن ، وقد يكون السجن أحب إليه من الأعمال خارج السجن ، وهذه بلاد الحجاز قمام فيها الحدود ، وقد يمضي العام يتلوه العام ولا تقطع يد واحدة .

وإذا كان فريق من الناس لا يزال بعد ذلك مصرا على أن القطع وحشية ، وحفظ يد المجرم مدنية ، فأننا نرحب بوحشية من شأنها أن تحفظ على الناس أمنهم ومالهم وحياتهم ، وتزدرى مدنية تترص الأمن إلى الخلل ، وتسبب له اضطرابا دائما ، واختلالا لا ينقطع ، وأى فرق بين يد خائنة ، وبين عضو مريض في الجسم ، إذا بقي سبب للجسم مرضا يقضى عليه القضاء الأخير ؟ ولماذا لا ينازعنا أحد في أن العضو المريض ينبغي بتره ليسلم الجسم ، وينازعنا الذين يعدون أنفسهم مهذبين ومتقنين في يد خائنة ، هي مرض ينخر في عظام الأمة ، ويهدد حياتها الطيبة ، وصحتها الرجوة لها . اللهم أنه تعصب ظاهر وتقليد أعمى ، جرته المدنية الكاذبة ، وحرمان بلاد المسلمين من حكومات تقيم دين الله وحدوده في الأرض على ما يحبه الله ، وتقضى به للصلحة .

## حد الزاني

(٤) كما وضعت الشريعة عقوبة للخونة الذين يفتانون على أموال الناس وضعت عقوبة للذين يعدون على الأعراض ، فنص القرآن الكريم على عقوبة الزنا في سورة النور إذ قال :

الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ «٢٥»

ونأمل قول الله تعالى (ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) اعلم لتعرف أنه لا تصح الهوادة في إقامة الحدود ، وأن ذلك لم يكن من شئون المؤمنين بالله واليوم الآخر ، وأن الزنا ليسوا أهلا للرأفة والرحمة ، لأن جريمة الزنا متى نقشت في أمة من الأمم قضت عليها القضاء المبرم ، وحسبته أن الله تعالى يقول فيه :

وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا «٣٢» الإسراء.

ولم يكن فيه سوى تعطيل النفس والصد عن الزواج الذي فيه بقاء الأمة وحفظ كيانها لكفى. والقرآن الكريم يرشدنا إلى التسوية بين الناس في تطبيق قانون العقوبات ، لأن الحماية في تطبيق القانون أضرت شيء على الأمة في أخلاقها وكرامتها (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) إرشاد إلى حكمة ذلك الحد ، وهو أن العذاب إذا اطلع عليه فريق من الناس أثر ذلك في نفس المحرم تأثيرا غير محدود ، وبذلك يقلع عن ذلك العمل ، ذلك هو حد الزاني الذي لم يتزوج . أما الزاني المتزوج فقد وردت السنة بتله رجبا ، لأن عنده من وسائل العفة ما يحول بينه وبين الزنا ، ومع ذلك يعمد إلى انتهاك الحرمات : مما يدل على خبث نفسه ، ولوعه بالفساد ، ومثل ذلك ينبغي أن تطهر منه الأرض ، ذلك هو حكم الله في الزناة المتزوجين وغير المتزوجين . أما حكوماتنا اليوم فتعد الزناة دورا يسرحون فيها ويمرحون ، وأما كن رسمية للدعارة على حسابها يفسقون ويقتعون ، وتعطي صاحبات هذه الدور شهادة موهوبة بتوقيع الحكومة ، على حساب هذه الشهادة تبش محاربة لله ولرسوله ، وإذا تعرض أحد لهذه البني أو لصاحب من أصحابها بسوء فقد عرض نفسه لأشد العقوبات ، وتحرس هذه الدور التي تقوم على الفسق والفجور كما تحرس البيوت الطاهرة النقية .

فانظر الفرق بين حكومة الاسلام والمسلمين ، وحكومات العهد الحاضر . حكومة المسلمين تجلد الزناة وترجمهم حتى يموتوا ، لتطهر البلاد منهم ، وحكومات العهد الحاضر تعطيهم وثيقة بواسطتها يزنون علنا تحت حراسة الحكومة وإشرافها ، ولا تستحي من الله أن تعطيهم هذه الوثيقة ، وهي تعلم أن ذلك إغضاب لله في قوانينها وتشريعها ، وإذا طالبت الحكومة بالناء ذلك الترخيص أخذت تلمس لعمالها العاذر ، وتفتحل الأسباب .

والعلة الأولى في ذلك الوباء : الامتيازات الأجنبية ، وأن البلاد محتلة ، وليس من مصلحة المحتل أن يحفظ على البلاد أخلاقها ودينها ، فهو يحارب بنا بجيوش من الرذائل والمنكرات ، قبل أن يحاربنا بجيوش الاحتلال حتى نبقى مشغولين عنه بشهواتنا ، منغمسين في ملاذنا . فاللهم أشد البلاد والعباد من ذلك الخزي ، وطهرها من العار الذي شوه سمعتها وقضى على كرامتها .

## حد القاذف

(٥) فرض الله في القرآن عقوبة للقاذف لتبقى الأعراض معصونة ، والحرمات محفوفة ، فقال في سورة النور :

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ

جَلَدَةً ، وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ «٤» إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ  
بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ «٥» النور

إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ لَأُولُو مِثْلٍ لِدُنْيَاهِنَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ  
عَذَابٌ عَظِيمٌ «٢٣» يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا  
يَعْمَلُونَ «٢٤» يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ  
الْمُبِينُ «٢٥» النور

فأنت ترى أن الله تعالى جعل عقوبة الذين يرمون العفيفات بالزنا ثم لم يأتوا بأربعة شهداء  
على زناهم ثمانين جلدة كالزناة ، وذلك لخطر الرمي بالزنا على المرأة العفيفة ، لأنه طعن في عفتها ،  
وجرح لكرامتها وعزتها ، وفوق ذلك فإن من شأن ذلك الرمي بالزنا أن يذبح النفوس الغافلة لتلك  
الفاحشة ، فالذي يرمي الغافلة بالزنا يسيئ إليها من ناحيتين : [ الأولى ] طعنه عليها .  
[ الثانية ] تفيه الغافلة إلى هذه الفاحشة وحلها على التفكير فيها ، ولذلك يقول في الآية  
الثانية (والذين يرمون المحصنات الغافلات) . والراد بالغافلات : من لم توجه نفوسهم إلى هذه  
الفاحشة ، فهم في غفلة عنها ونسيان لها ، ولذلك جعل لهم عقوبة في الدنيا فوق الحد : هي لعنهم  
فيها وطردهم من رحمة الله ، وعقوبة في الآخرة هي لعنهم كذلك ولهم عذاب عظيم .

بحمد الله تعالى تم طبع كتاب : « دعوة الرسل إلى الله تعالى » مصححاً بمعرفة  
مراجعة آياته القرآنية بمعرفة الأستاذ : على محمد الضباع « مراجع المصاحف الشريفة »  
أحمد سعد على  
أحد علماء الأزهر ورئيس التصحيح

[ من يمن الكتاب أنه تم طبعه في يوم الأحد غرة ربيع الأول سنة ١٣٥٤ هـ / ٢ يونيو  
سنة ١٩٣٥ م ]  
ملاحظ الطبعة  
محمد أمين عمران  
مدير الطبعة  
رستم مصطفى الحلبي

## فهرس إجمالى لأهم ما فى الكتاب

دعوة نوح إلى الله تعالى	١٨ —	١
دعوة هود إلى الله تعالى	٢٦ —	١٨
دعوة صالح إلى الله تعالى	٣٩ —	٢٦
دعوة ابرهيم إلى الله تعالى	٦٤ —	٣٩
دعوة لوط إلى الله تعالى	٧٢ —	٦٤
دعوة يوسف إلى الله تعالى	١٥١ —	٧٢
دعوة شمعيب إلى الله تعالى	١٧٥ —	١٥١
دعوة موسى وهارون إلى الله تعالى	٢٨١ —	١٧٥
دعوة داود وسليمان إلى الله تعالى	٣٣٩ —	٢٨١
دعوة عيسى إلى الله تعالى	٣٦٩ —	٣٣٩
دعوة خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم الى الله تعالى	٥٢٩ —	٣٦٩
دعوة محمد (صلى الله عليه وسلم) بركة	٤١٦ —	٣٧٠
وحدة الله تعالى	٣٧٨ —	٣٧١
الرسالة والجدل فيها	٣٨٣ —	٣٧٨
البعث والجزاء	٣٨٧ —	٣٨٣
العمل الصالح	٣٩٠ —	٣٨٧
الأخلاق	٣٩٨ —	٣٩٠
وظيفة الرسول	٣٩٨	
تربية الله له	٤٠١	
تعنت المشركين معه	٤٠٥	
تسليية الله له	٤١١	

هجرته صلى الله عليه وسلم الى المدينة	٤١٥
دهوته بالمدينة	٥٢٩ — ٤١٦
محاجته لليهود والنصارى	٤١٦ — ٤١٩
محمد (صلى الله عليه وسلم) والقتال	٤٢٩ — ٤١٩
الايمان والكفر والنفاق	٤٢٩
صفات المؤمنين	٤٣٩ — ٤٣٠
صفات الكافرين	٤٤٦ — ٤٣٩
الآيات فى المنافقين	٤٥٤ — ٤٤٦
كبريات العبر فى المنافقين وأخلاقهم	٤٧٠ — ٤٥٤
أشهر الغزوات	٤٩٠ — ٤٧١
الزكاة	٤٩١
الصيام	٤٩٥
الحج	٥٠٠
أصول المعاملات	٥٠٤
نظام البيوت	٥١٠
الزواج	٥١١
الطلاق	٥١٣
نظام التوريث	٥١٥
الحكومه فى الاسلام	١٩٥
المقوبات فى الاسلام	٥٢٤



## مراجع الكتاب

- تفسير المنار ... : للأستاذ الكبير السيد رشيد رضا  
التفسير الكبير ... : للفخر الرازي  
تفسير الكشاف ... : للزمخشري  
تفسير الجواهر ... : للشيخ طنطاوي جوهرى  
إرشاد العقل السليم ... : المشهور بأبي السعود الممارى  
المفردات فى غريب القرآن ... : للراغب الاصفهاني  
قصص الأنبياء ... : للأستاذ عبد الوهاب النجار  
زاد المعاد ... : لابن قيم الجوزية  
نور اليقين ... : لمحمد بك الحضري  
تاريخ التشريع الاسلامى ... : » » »
- 

## للمؤلف :

- ١ - آيات الله فى الآفاق - أو - طريق القرآن الكريم فى العقائد
- ٢ - التوحيد - أو - العقائد الاسلامية .
- ٣ - أصول : فى البدع والسنن .













